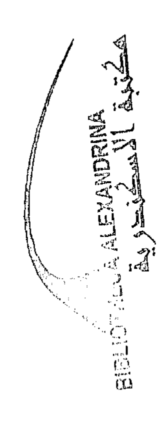
رحلتي الطويلة من أجل الحرية



نلسون مانديلا

رحلتي الطويلة من أجل الحرية

رحلتي الطويلة من أجل الحرية



السيرة الذاتية

لرئيس جمهورية جنوب أفريقيا

نلسون مانديلا

زعيم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي

ترجمه من الإنجليزية

عاشور الشامس

Original Title
LONG WALK TO FREEDOM
THE AUTOBIOGRAPHY OF NELSON MANDELA
Little Brown and Company
(Boston, New York, Toronto, London)

ISBN 0-620-21530-5 (PB)
0-620-21533-X (HB)

Arabic Edition
First Published in South Africa in 1998

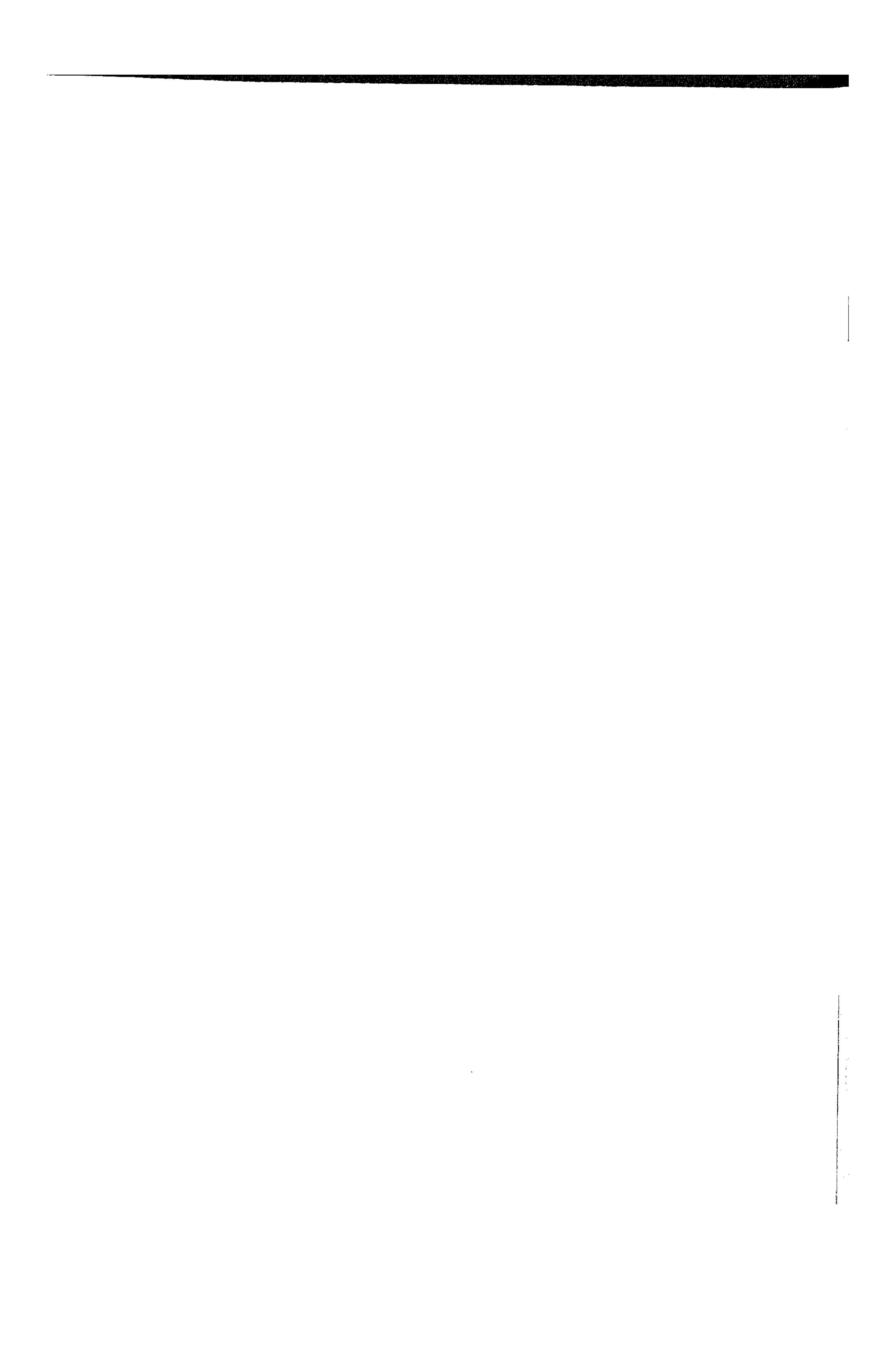
SPAL PUBLISHERS
جمعية نشر اللغة العربية

P.O. BOX 546
Maraisburg
1700
South Africa
Tel: 27-11-832-1721
Fax: 27-11 834 2801

فهرست

إهـــداء

أهدي كتابـي هذا إلى أولادي الستة: الفقـيد ماديبا والفـقيدة مـاكازيوي (كـبرى بناتي)، وإلى ابنـي ماغـاتو وبناتي ماكـازيوي وزيناني وزيندزي الذين أعـتـز بحـبهم جـمـيـعاً وبوقـوفـهم إلى جـانبي. كمـا أهديه إلى أحفـادي الواحـد والعشـرين وإلى أبناء أحفادي الثـلاثة الذين غمروا حيـاتي بالبهجة والسـعادة. وأهديه إلى جـميع رفـاقي وأصـدقائـي وأبناء وطني في جنوب أفـريقيـا الذين أعتـبر نفـسي خادماً طيـعاً لهم، والذين ظلت شـجاعـتهم وتصميمهم وحبهم للوطن - ولاتزال - مصدر قوتي وإلهامي.



مقدمة الطبعة العربية

نحن في جنوب أفريقيا شعب ذو حاسة تاريخية نفاذة. ولطالما نعود إلى التاريخ نسائله ونقتفي أثار الأشخاص والأحداث ونقيّم حقبة النضال ضد التفرقة العنصرية. وفي رحلتنا عبر التاريخ نقف عند محطات كثيرة خالدة تزدان بها صفحات ذلك التاريخ المجيد: شاربفيل، لوتولي، سويتو ٧٦، ستيف بيكو، الإمام عبدالله هارون وغيرهم كثير. ولعل أهم تلك المحطات هو الحادي عشر من فبراير ١٩٩٠.

لقد شاهدت في ذلك اليوم - كما شاهد الملايين من أبناء جنوب أفريقيا داخل البلاد وخارجها - نيلسون مانديلا يغادر سجن فيكتور فيرستير ليخطو خطواته الأولى نحو الحرية، أمام طوفان عارم من وسائل الإعلام العالمية. وكانت لحظات لم نتمالك فيها أنفسنا وغالبتنا الدموع. لقد اهتز كياني بذلك الهتاف الخالد: أحرار، أحرار!!

لقد تغيّرت جنوب أفريقيا إلى الأبد.

وكان المنعطف التالي في رحلة الحرية الطويلة هو ٢٧ أبريل ١٩٩٤، إذ وجدت نفسي أشارك في صناعة التاريخ. فقد ساهمت شخصياً - مع الملايين من أبناء وطني - في الانتخابات التي انتهت ببروز حكومة جديدة في جنوب أفريقيا. لقد اصطف الملايين لعدة ساعات للإدلاء بأصواتهم إيماناً منهم بأن حريتهم جاءت ثمرة كفاح شاق مرير. فقد سقط كثير من رجال هذه الأمة ونسائها ضحايا للتفرقة العنصرية البغيضة. إنها لحظة التأمل في الماضي، ولكنها كانت كذلك اللحظة التي تغاضى فيها الناس عن الذكريات للاحتفاء بالحاضر. لقد أصبح العهد عهدنا!

"رحلتي الطويلة من أجل الحرية" كتاب للنصر والحرية والمبادئ الأخلاقية. وهو ليس تذكرة لأبناء جنوب أفريقيا وحدهم بل للعالم أجمع. إنها قصة عِبَر ودروس وإلهام لكل من ناضل من أجل الحرية في كل مكان. وهي قصة تبعث الأمل في نفوس المناضلين الذين ربما تسرب اليأس إلى قلوبهم. وهي قصة تجعلنا نقف جميعاً إجلالاً وتحية للرئيس نلسون مانديلا.

استغرق إعداد الطبعة العربية من هذا الكتاب شهوراً طويلة، تخللتها لحظات عصيبة وعراقيل لا يستهان بها، تمكنّا من اجتيازها والتغلب عليها. ويعود الفضل في ذلك إلى عدد كبير ممن ساهموا في إعداد الكتاب، منهم - على سبيل المثال لا الحصر - الناشر الأصلي: ليتل براون وشركاؤهما، ومحامي الرئيس مانديلا في

لندن: السيد إقبال مير الذي تولى بدقة وعناية فائقة إعددا الاتفاقات القانونية وتمحيصها، وقدم نصائح واستشارات ثمينة.

كما نتوجه بالشكر والعرفان إلى السد أحمد كاثرادا في مكتب الرئيس مانديلا، صديق العمر للسيد الرئيس ورفيقه في سجن جزيرة روبن. فإليه يعود الفضل في حث الرئيس على كتابة مذكراته وتنبيهه إلى أهمية هذا المشروع.

كما أشكر السيد محمد دانغور على ما ساهم به من جهده ووقته الثمين في الاتصالات بذلك العدد الهائل من العناوين وأرقام التلفونات التي تحويها مفكرته السوداء.

وأذكر بالشكر السيد وضاح خنفر من المركز الأفريقي للشرق الأوسط الذي اقترح إصدار الطبعة العربية من هذا الكتاب. لقد غمرنا وضاح بحماسه الشديد وحيويته الغزيرة التي تنم عن روحه العربية الأصيلة.

كما يسعدنا أن نشكر كلا من الدكتور محمد فريد الشيال أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة ويستمنستر في لندن، والأستاذ عارف عيد أحمرو في هيئة الإذاعة البريطانية على تكرمهما بمراجعة الترجمة العربية. ونخص بالذكر السيد عمّار التميمي على ما بذله من جهد مشكور وعناية فائقة في إخراج الكتاب وإعداد النسخة العربية للطبع.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى كل إخواني وزملائي في جمعية نشر اللغة العربية، وإلى جميع من ساهم في تحقيق هذا المشروع القيّم وإخراجه إلى حيّز الوجود، سواء بالهمس أو التلميح أو التصريح أو النصيحة، أو بالدفع والإلحاح.

أخيراً - وليس آخراً - لا يسعني إلا أن أشكر زوجتي وأفراد أسرتي على صبرهم عليّ وتشجيعهم لي في كل خطوة ومنذ اللحظة الأولى التي انطلق فيها الإعداد لهذا المشروع.

مرشد ديفيدز
جمعية نشر اللغة العربية
SPAL Publishers
جوهانسبيرغ - نوفمبر ١٩٩٧

مقدمة الطبعة الإنجليزية

لهذا الكتاب قصة طويلة، كما سيكتشف القراء الكرام. بدأت أكتبه سراً عام ١٩٧٤ في سجن جزيرة روبن. ولم يكن ليرى النور لولا الجهد الدؤوب الذي بذله رفيقاً العمر وولتر سيسولو وأحمد كاثرادا في تحريك ذاكرتي وتشجيعي على التدوين. اكتُشفت النسخة الأصلية التي كتبتها بخط يدي وصادرتها السلطات، ويعود الفضل في وصول نسخة منها إلى خارج السجن إلى الزميلين ماك ماهاراج وعيسو شيبا اللذين أظهرا براعة فائقة في نسخ المذكرات وتهريبها كاملة سليمة. وبعد خروجي من السجن عام ١٩٩٠ استأنفت كتابة هذه المذكرات واستكمالها.

اكتظ برنامجي اليومي خارج السجن بالواجبات والأعمال، ولم يتوفر لدي سوى النزر القليل من الوقت للكتابة. ولذا فإنني مدين لكل زملائي وأصدقائي الذين أعانوني على استكمال الكتاب بهذه الصورة اللائقة، ولهم جميعاً أهدي تقديري وشكري العميق. كما أخص بالذكر مرة أخرى رفيقي أحمد كاثرادا الذي أنفق ساعات طوالاً في مراجعة الكتاب وتصحيحه وتحقيقه.

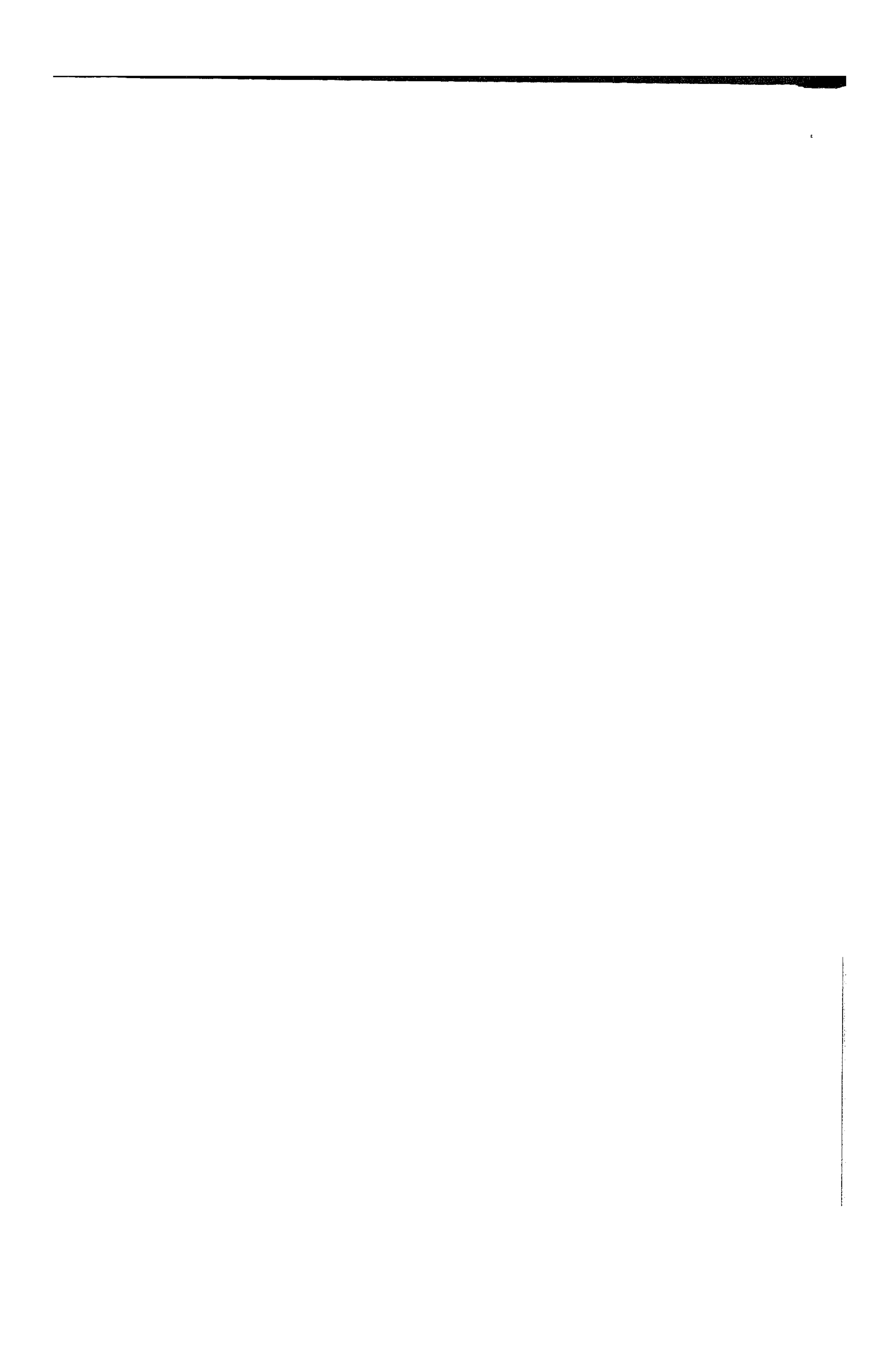
وأتوجه بالشكر الجزيل للسيد ريتشارد ستينغل الذي أعانني على إعدادا النسخة الإنجليزية، وعلى ما قدمه من مساعدة ثمينة في مراجعة الأجزاء الأولى من الكتاب وتصحيحها ثم كتابة الأجزاء الأخيرة منه. إنني أذكر بكل سعادة تلك الساعات من الصباح الباكر التي كنا نقضيها معاً مشياً على الأقدام في ربوع ترانسكاي نستعرض فصول الكتاب ونتدارس أحداثه. كما أذكر تلك الأحاديث والجلسات الطويلة في مقر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في جوهانسبيرغ وفي بيتي في هوتن. ويسعدني أن أخص بالذكر ماري بفاف التي ساعدت ريتشارد في مهمته. كما أذكر بكل إكبار وتقدير ما تلقيته من تشجيع ونصائح من فاطمة مير وبيتر ماغوباني ونادين غورديمار وازكيل مفاهليلي.

ولا يفوتني هنا أن أشكر زملائي في مكتب حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذين ساهموا بصورة أو أخرى في إعداد هذا الكتاب، وأخص منهم بالذكر باربرا ماسيكيلا التي قامت بتنسيق العمل على أحسن ما يرام. كما أنفق إقبال مير ساعات لا تعد ولا تحصى في الإشراف على الجوانب القانونية والتجارية لهذا المشروع. وأشكر كذلك المحرر ويليام فيليبس من دار ليتل براون للنشر الذي تولى إدارة مشروع نشر الكتاب منذ أوائل ١٩٩٠ ثم قام بمراجعة النسخة (الإنجليزية) النهائية. وقد ساعده في ذلك جوردن بافلين وستيف شنايدر. كما أشكر الأستاذة غايل غيرهارت التي قامت بتحقيق وقائع النسخة الأصلية وتواريخها.

نلسون مانديلا

الفصل الأول

طفولة في الريف



- ١ -

لم ينعم علي أبي يوم مولدي إلا باسمي: روليهلاهلا Rolihlahla. ولكنني ورثت عنه الحياة وقِواما بدنيا صلبا ونسبا متصلا بعائلة تيمبو Thembu الملكية.

والمعنى الحرفي لاسمي في لغة الكوسا Xhosa هو: ينزع فرع الشجرة. أما بالعامية - وبدقة أكثر - فهو يعني: المشاغب. ورغم أنني لست ممن يؤمنون بأن اسم الإنسان يحدد قِسمته في الحياة أو بأن أبي تكهن بمستقبلي يوم ولدت، فلطالما عزا كثير من أصدقائي وأقاربي الى ذلك الاسم فيما بعد العديد من العواصف التي واجهتها في حياتي سواء التي تسببت فيها أو التي نجوت منها. أما اسمي بالإنجليزية، أي اسمي المسيحي الذي اشتهرت به، فقد مُنحته في أول يوم التحقت فيه بالمدرسة، وربما كان الحديث هنا عن ذلك سابقا لأوانه.

ولدت في الثامن عشر من يوليو عام ١٩١٨ في قرية صغيرة تسمى مفيتزو Mvetzo على ضفة نهر امباشي Mbashe بمقاطعة أومتاتا Umtata عاصمة إقليم ترانسكاي Transkei. وكانت تلك السنة نهاية الحرب العالمية الأولى. وهي سنة وباء الإنفلونزا الذي أودى بحياة الملايين في جميع أنحاء العالم، وهي السنة التي زار فيها وفد عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي African National Congress (ANC) مؤتمر فرساي Versailles للسلام لطرح مظالم الشعب الأفريقي في جنوب أفريقيا. ولكن قريتنا الصغيرة تلك كانت آنذاك عالما آخر لم يتغير نمط الحياة فيه على مدى مئات السنين، وفي منأى بالكامل عن تلك الأحداث العالمية الكبرى.

يقع إقليم ترانسكاي على مسافة ثمانمائة كيلومتر شرقي كيب تاون Cape Town وخمسمائة وخمسين كيلومترا جنوب جوهانسبيرغ Johannesburg، إذ يقع بين نهر كاي Kei وحدود إقليم ناتال Natal . وتحيط به من الشمال جبال دراكنسبيرغ Drakensberg الوعرة ومن الشرق مياه المحيط الهندي الزرقاء .إنها منطقة خلابة بمرتفعاتها المتموجة ووديانها الخصبة وبآلاف الأنهار والمجاري المائية الصغيرة التي تحافظ على خضرة الأرض وجمالها حتى في أيام الشتاء. وكان إقليم ترانسكاي مقرا لفرقة من أكبر الفرق العسكرية في جنوب أفريقيا، ومساحته تساوي مساحة سويسرا. ويبلغ عدد سكانه من الكوسا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة إضافة الى أقلية صغيرة من البيض والباسوت Basothos. ترانسكاي هي الموطن الأصلي لقبيلة التيمبو وتنحدر أصلابها من عشائر الكوسا التي أنتمي إليها.

كان والدي غادلا هنري مفاكانيسوا Gadla Henry Mphakanyiswa سيدا بحكم السلالة والعرف معا، وقد نُصّب زعيما لقرية مفيتزو على يد ملك التيمبو. وكان لزاما بحكم النظام المتبع تحت الإدارة البريطانية أن تصدق الحكومة على ذلك التعيين، وكان يمثلها في مفيتزو قاضي القرية. وبذلك أصبح والدي مؤهلا لتقاضي راتب شهري ونسبة من الرسوم

التي كانت تجبيها الحكومة من المواطنين مقابل تطعيم المواشي والحيوانات والرعي في الأراضي العامة . ورغم ما كان يحف ذلك المنصب من احترام وإجلال فقد حط من قدره وقوعه تحت سيطرة حكومة البيض المعادية، منذ أكثر من خمسة وسبعين عاما.

تعود أصول قبيلة التيمبو عبر عشرين جيلا الى الملك زويدى Zwide وتقول الروايات إن أبناء القبيلة كانوا يقطنون على سفوح جبال دراكنسبيرغ حيث اندمجوا في عشائر الكوسا. وتشكل الكوسا جزءا من شعب نغوني Nguni الذين استوطنوا هناك منذ القرن السادس عشر على الأقل، واشتغلوا بالصيد وصيد الاسماك في الجنوب الشرقي من جنوب افريقيا، تلك المنطقة الخصبة ذات المناخ المعتدل الواقعة بين السهل الداخلي الكبير شمالا والمحيط الهندي جنوبا . ويمكن تقسيم شعب نغوني الى قسمين : أحدهما في الشمال ويضم قبائل الزولو Zulu والسوازي Swazi، والآخر في الجنوب ويضم قبائل أماباكا amaBaca وأمابومفانا amaBomvana وأماغاكاليكا amaGcaleka وأمامفينغو amaMfengu وأمامبودوميسى amaMpodomise وأمامبوندو amaMpondo وأبيسوتو abeSotho وأبيتيمبو abeThembu الذين يشكلون في مجموعهم شعب الكوسا.

والكوسا شعب يقوم على الوراثة، أبا عن جد، فخور بنفسه ويتكلم لغة بليغة التعبير لكلماتها رنين جميل، ويؤمن إيمانا راسخا بأهمية القانون والتعليم وحسن الأدب. ويتميز نظام الكوسا الاجتماعي بالإعتدال والإنسجام وهو نظام يعرف فيه كل فرد، رجلا كان أو امرأة، مكانه اللائق به. وينتمي كل فرد في هذا المجتمع الى عشيرة تمتد سلالتها الى جد معين، وتحمل عشيرتي اسم ماديبا نسبة الى أحد السادة التيمبو الذين حكموا إقليم ترانسكاي في القرن الثامن عشر . وكثيرا ما أنادى اليوم باسم عشيرتي، ماديبا Madiba، كناية عن الإحترام والتقدير.

توفي نغوبنغوكا Ngubengcuka، وهو من أعظم الملوك الذين وحدوا قبيلة التيمبو، عام ١٨٣٢ وكان متزوجا، كما هي العادة، من بنات الأسر الحاكمة الرئيسية وهي : الأسرة العظمى Great House ويختار منها ولي العهد، وأسرة اليمين Right Hand House، ثم أسرة اكزيبا Ixhiba وهي من العائلات الصغيرة ويشار إليها أحيانا باسم أسرة اليسار Left Hand House. وكانت مهمة أبناء أسرة اليسار فض المنازعات التي قد تنشأ داخل الأسرة المالكة .

تولى العرش بعد نغوبنغوكا إبنه الأكبر من الأسرة العظمى متيكراكرا Mthikrakra، وكان من أبنائه انغانغيليزوى Ngangelizwe وماتانزيما Mantanzima . كان ساباتا الذي حكم التيمبو منذ عام ١٩٥٤ حفيدا لانغانغيليزوى والأخ الأكبر لكالزر داليونغا Kalzer Daliwonga المشهور باسم كيه دي ماتانزيما K D Matanzima الوزير الأول لإقليم ترانسكاي - وهو ابن أختي شرعا وعرفا - وينحدر من سلالة ماتانزيما. وكان سيماكادي Simakade أكبر أبناء بيت اكزيبا، أما أخوه الأصغر فكان يسمى مانديلا وهو جدي لأبي.

ورغم تردد الشائعات عقودا طويلة بأنني كنت مرشحا لخلافة عرش التيمبو إلا أن موقعي في سلالة العائلة الذي أشرت إليه آنفا يجعل تلك الإشاعات من قبيل الأساطير. إذ رغم انتمائي للعائلة المالكة لم أكن ممن شرفوا بالتأهل للحكم بل إنني - بحكم انحداري من بيت اكزيبا كما أسلفت - ربيت، كما ربي والدي من قبلي، لتقديم المشورة لحكام القبيلة.

كان والدي فارع الطول أسود البشرة ذا قوام منتصب مهيب، وهي صفات أرجو أن أكون ورثتها عنه، وكانت تعلو جبينه خصلة من الشعر الأبيض. وطالما كنت في طفولتي أفرك مقدمة شعري بالرماد الأبيض تقليدا له. كان رجلا صارما لا يتردد في استعمال العصا لتأديب أبنائه، وكان عنيدا للغاية، وهذه صفة أخرى أخشى أن يكون الإبن قد ورثها عن أبيه.

كان يشار الى والدي أحيانا برئيس وزراء بلاد التيمبو إبان حكم داليندييو Dalindyebo، والد ساباتا، الذي حكم في أوائل القرن، وخلال حكم ابنه وخليفته يونغينتابا. ولكن تلك التسمية لم تكن دقيقة إذ لم يكن لذلك المنصب وجود آنذاك، غير أن الدور الذي كان يؤديه لا يختلف كثيرا عن مهام ذلك المنصب. وكان الملكان يضعانه موضع التقدير والاحترام باعتباره مستشارا، فكان يصاحبهما في رحلاتهما، وكثيرا ما يظهر بجانبهما في الاجتماعات الهامة التي كانا يعقدانها مع مسؤولي الحكومة. وكان يعرف عن والدي أنه من الملمين بتاريخ الكوسا مما جعله مستشارا له وزنه ومكانته. وتعود بدايات اهتمامي بالتاريخ الى وقت مبكر إذ كان لوالدي فضل تشجيعي على ذلك. ورغم أن والدي كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فقد اشتهر بالفصاحة والخطابة التي كان يجمع فيها بين الظرف والعلم.

لم يكن والدي مستشارا للملوك وحسب بل إنني اكتشفت فيما بعد أنه كان صانع ملوك كذلك. فعندما توفي يونغيليزى Jongilixwe فجأة خلال العشرينات من هذا القرن كان إبنه ساباتا من زوجته الكبرى لا يزال رضيعا ودون السن التي تؤهله لاعتلاء العرش، فنشب خلاف حول من يخلفه من أبناء داليندييو الثلاثة يونغينتابا Jongintaba ودابولامانزي Dabulamanzi وماليتافا Malithafa من زوجاته الأخريات. وعندما استشير والدي في الأمر أشار باستخلاف يونغينتابا بحكم أنه أرقى الصبية تعليما، مؤكدا على قدرته على حماية عرش القبيلة وعلى أن يكون مرشدا ومعلما مخلصا وناصحا أمينا لولي العهد الشرعي ساباتا.

كان والدي وغيره من أعيان القبيلة الأميين يحترمون التعليم احتراما جما، وهو شأن كثير ممن حرموا التعليم في المدارس، غير أن تزكيته لخلافة يونغينتابا أثارت جدالا حادا لانتماء أم يونغينتابا لبيت من الطبقات الاجتماعية الدنيا رغم قبولها لدي التيمبو والحكومة البريطانية. وقد شاءت الأقدار أن يرد يونغينتابا الجميل الى والدي في وقت لاحق بطريقة لم تكن في الحسبان.

تزوج والدي أربع زوجات هن الزوجة الكبرى والزوجة اليمين والزوجة اليسار وزوجة بيت الإسناد أو الدعم. كانت أمي ثالثة أولئك الزوجات وتدعى نوسيكيني فاني Nosekeni Fanny ابنة انكيداما Nkedama من عشيرة أمامبمفو amaMpemvu المنحدرة من سلالة بيت اليمين في قبيلة الكوسا. وقد كان لكل زوجة سكن خاص يسمى (كرال) يضم حظيرة صغيرة للمواشي وحقلا لزراعة الغلة والمحاصيل وبيتا، أو أكثر، مسقوفا بالقش وأعراف الشجر. تمتد المسافة بين الكرالات الى عدة أميال وكان والدي يتنقل فيما بينها بالتناوب، وكانت حصيلة تردده على زوجاته ثلاثة عشر ولدا، أربعة من البنين وتسعا من البنات. كنت أكبر أبناء بيت اليمين وأصغر أبناء والدي، وأخا لثلاث أخوات كبراهن باليوى Baliwe وتليها نوتانكو Nitancu ثم ماخوتسوانا Makhutswana. وبينما كان ملاهالوا Mlahlwa أكبر أبناء والدي كان داليقيلي Daligqili خليفته في الزعامة وهو إبن البيت الكبير وقد توفي في أوائل الثلاثينات. كما توفي كل إخوتي الذكور فيما بعد وقد كانوا جميعا يكبرونني سنا ومنزلة في العائلة.

دخل والدي وأنا لم أزل رضيعا في نزاع حرمه من حقه في زعامة قرية مفيتزو وكشف عن جانب من شخصيته أعتقد أنه ورّثه لابنه. فأنا أؤمن بأن العامل الأساسي في صياغة شخصية الإنسان هو تنشئته وليس طبيعته التي ورثها. وكان والدي يجنح الى التمرد والاعتزاز بالنفس وكان متشددا في فهمه للعدل والظلم، وهو ما ألمسه أنا في شخصيتي. لم يكن والدي، كزعيم أو رئيس للعمال - كما كان يشير اليه البيض - مسؤولا أمام ملك التيمبو وحسب بل وأمام الحاكم المحلي المعين من قبل الحكومة. وذات يوم تقدم أحد أهالي القرية بشكوى ضد والدي تتعلق بضياع ثور في القرية، فأرسل الحاكم المحلي في طلب والدي يأمره بالمثول أمامه. وعند استلام والدي الأمر أجاب بقوله:

- لن احضر لأنني أتوشح سيفي استعدادا للمعركة.

لم يجرؤ أحد في تلك الأيام على تحدي الحاكم المحلي بتلك الصورة وكان تصرف من ذاك القبيل يعد غاية في العجرفة والإهانة. وهكذا كان.

أراد والدي بجوابه ذاك أن يبين أنه ليس للحاكم المحلي سلطان شرعي عليه، وبأنه في الشؤون القبيلية لا يلتزم بقوانين ملك انجلترا ولكن بتقاليد التيمبو وأعرافهم. ولم يكن تحدي والدي لقاضي نتيجة انفعال أو تسرع بل كان صادرا عن قناعة مبدأية يؤكد من خلالها صلاحياته العرفية كزعيم للقرية ويتحدى سلطة الحاكم المحلي الرسمية.

وما أن تسلم الحاكم المحلي رد والدي حتى وجه اليه على الفور تهمة مخالفة الأوامر، وعزله فورا دون تحقيق أو تقصٍ - فذاك حق للموظفين البيض فقط - وبذلك انتهت حقبة زعامة آل مانديلا الى الأبد.

لم أكن أعي حقيقة تلك الأحداث في وقتها ولكنني لم أنج من أثارها. فقد فَقَدَ أبي الذي كان يُعد من نبلاء زمانه وأثريائهم ثروته ولقبه، وصودر القسم الأكبر من مواشيه

وأرضه وما كانت تدر عليه من مداخيل . ونظرا لضيق ما حل بنا من أزمة مالية قررت أمي الإنتقال الى قونو Qunu وهي قرية الى الشمال من مفيتزو وأكبر منها حيث كفلها بعض أقاربها وأصدقائها . كانت حياتنا في قونو أكثر تواضعا ولكنني قضيت في تلك القرية الواقعة على مقربة من أومتاتا أسعد سنوات صباي ومنها أقتفي أولى ذكرياتي الغضة.

- ٢ -

تقع قرية قونو في واد ضيق غني بالأعشاب تتخلله قنوات من الماء العذب وتطل عليه تلال خضراء. لم يزد عدد سكان القرية آنذاك عن بضع مئات يعيشون في الأكواخ المبنية بالطين على هيئة خلايا النحل، يتوسط الكوخ عمود خشبي يحمل في أعلاه سقفا من الأعشاب الجافة، له ذروة بارزة الى أعلى. أما أرضية الكوخ فكانت من تربة بيوت النمل التي تصقل من حين الى آخر بروث البقر البليل. كان دخان الموقد يجد طريقه متصاعداً الى خارج الكوخ عبر السقف، ولم يكن مدخل الكوخ سوى فتحة صغيرة مما يضطر المرء الى الإنحناء عند الدخول وعند الخروج.

كانت الأكواخ تقام على شكل مجموعات متقاربة في منطقة سكنية بعيدا عن حقول الذرة، ولم تكن هناك طرقات معبدة بل ممرات كالأخاديد عبر العشب من أثر أقدام النساء والأطفال. كان النساء والأطفال يرتدون ملاحف مصبوغة بالمغرة ولم يرتد الزي الغربي سوى المسيحيين من سكان القرية، وهم قليل. كانت الأبقار والأغنام والماعز والخيول ترعى في نفس الحقل، وكانت الأراضي المحيطة بقرية قونو جرداء في الغالب فيما عدا بعض أشجار الحوْر المتناثرة على سفوح المرتفعات المحيطة بالقرية. وكانت الأرض ملكا للدولة، إذ أن الأفريقيين الأصليين آنذاك - باستثناء عدد قليل جدا منهم - لم يكونوا يتمتعون بحق ملكية الأرض في جنوب أفريقيا، بل كانوا مستأجرين لها يدفعون رسوما سنوية للحكومة. كان في القرية مدرستان صغيرتان للمرحلة الإبتدائية ومحل بقالة وحوض لغسل الأبقار وتخليصها من القُرَادة والأمراض.

كانت الذرة والشرغم (ذرة العويجة) والفاصوليا والقرع (اليقطين) أهم مكونات غذائنا. ولم يكن اختيارنا ولكن أهل القرية لم يستطيعوا الحصول على ما هو أفضل. وكان الأغنياء من الأهالي يقتنون إضافة الى تلك المواد الشاي والقهوة والسكر التي كانت تعتبر بالنسبة لغالبية أهل قونو كماليات لا سبيل الى توفيرها. كنا نجلب الماء في دلاء من السواقي والجداول والعيون ونستخدمه للشرب والطبخ والغسيل، وكانت تلك مهمة النساء والأطفال. نعم، لقد كانت قونو قرية من النساء والأطفال إذ كان معظم الرجال يقضون أغلب شهور السنة في العمل في مزارع نائية أو في المناجم الواقعة في السلسة الصخرية المتاخمة للبحر Reef التي تشكل الحدود الجنوبية لمدينة جوهانسبيرغ، وما كانوا يعودون الى القرية أكثر من مرة أو مرتين في السنة أثناء مواسم الحرث. وهكذا كان النساء والأطفال يتولون القيام بالواجبات الزراعية الأخرى من رعاية الحقول وجني الثمار وحصد الزرع. كان قليل من أهل القرية يتقن القراءة أو الكتابة وكان التعليم مفهوما غريبا لدى أكثرية السكان.

كانت أمي ربة لثلاثة أكواخ في القرية وأذكر جيدا أن تلك الأكواخ كانت دائما تعج بالرضع والأطفال، ولا أكاد أذكر وقتا كنت فيها بمفردي. ففي المجتمع الأفريقي لا يفرق

الطفل، كما يفرق نظيره في مجتمع البيـض، بين أشقائه وأبناء أعمامه وعماته وأبناء أخواله وخالاته، بل يعتبـرهم جميعا إخوة له وليسـوا مجرد أقارب. فلم نكن نفـرق بين الإخـوة الأشقاء وغير الأشقـاء، وكانت أخت أمي هي أمي أيضا وابن عمي هو أخي وابن أخي هو إبني وبنته هي بنتي كذلك.

خصص أحد الأكواخ للطبخ والثـاني للنوم والثالث للتخزين. لم يكن في كـوخ النوم أثاث بالمعنى المفهـوم في الغرب، وكنا ننام على الحصيـر ونجلس على الأرض، ولـم أتعرف على الوسائد إلا عند زيارتي لمكيكزويني Mqhekezweni. كانت أمي تطبخ الطعام في قدر من الحديد ذي ثلاث قوائم على النار مباشرة في وسط الكوخ أو خارجه. لم نأكل الا مما نزرعـه ونعده بأنفـسنا إذ كانت أمي تزرع الذرة وتجنيـها وكـان موسم الحـصاد يحين عنـدما تصبح الذرة صلبة وجافة. وكنا نخزنها في أكياس أو في حفر تحت الأرض. وكانت النساء يتفنن في إعـداد وجبات الذرة. فبعضـهن يطحن حباتها بالحجر ويصنعن الخـبز، وبعضهن يغلينها أولا ويصنـعن جريشا يؤكل مع اللبن الحـامض ونسميه أمـفوتولو، أو عصـيدا يؤكل مخلوطا بالفاصوليا نسميه أحيانا أمونغواشو. لم تكن الذرة تتوفر لدينا طول الوقت ولكن حليب البقر والماعز كان متوفرا دائما وبكميات كبيرة.

كنت منذ حـداثة سنـي أقضـي أغلب أوقـات فـراغي في اللعب والمشـاكـسـة في المروج والحقول مع صبيان القرية، إذ كـان الصبي المتعلق بأمه ولا يخرج الى اللعب يوصم بالجبن. وفي المساء كنا – نحن الأطفال – نتقاسم الطعام والغطاء. وما كدت أبلغ الخامسة من العمر حتى أصبحت راعيا للغنم والثيران في الحقول فتعرفت من كثب على العلاقة الروحية – إن جاز التعبير – التي تربط أهل الكوسا بالماشية لا لكونها مصدر طعامهم وثروتهم وحسب بل بصفتـها نعمة من نعم الله ومصـدرا للسعادة. وفي الحقـول تعلمت الصيد بالمقـلاع وجمع العسل من بيوت النحل وجني الفواكة البرية وغـيرها من الثمار وشرب الحليب الساخن من ضرع البقـرة مباشرة والسـباحة في الجداول وترع الماء العذب البـارد وصيد الأسمـاك بحبال القنـب والأسـلاك. كمـا تعلمت المبارزة بالعـصي، وهي مهارة لا غنى عنهـا لطفل الريف الأفريقي، وتفننت في إتقان مخـتلف أساليبها الهجوميـة والدفاعية. والى تلك الأيام يعـود شغـفي بالمروج والهواء الطلق والفضـاء الرحب وبجمال الطبيـعة البسـيط وبمنظر الأفق يبدو واضحا ناصعا في السماء.

كنا – نحن الصبية – في غالب الأحيان نترك للتصرف على سجيتنا بلا حدود أو قيود، وكانت الطبيعة هي مسرحنا الفسيح الذي ننطلق فيه فنلعب ألعابا نخترعها أو نصنعها بأيدينا وبطيور وحيـوانات نصوغها من الطين وبعربات تجـرها الثيران مصنوعة من أغصـان الشجر. كانت المرتفـعات المحيطة بقونو مليئة بصخور ضـخمة ملساء كنا نزحف فـوقها مسـتخدمين صخـورا صغيرة مـسطحة، وكان ذلك يؤذينا فلم نكد نحـتمل الجلوس. وهنـالك أتـقنـت ركوب الثيران بعد أن طرحتني أرضا مـرات عديدة. وفي أحد الأيام تعلمت درسا بليغا من حمـار عنيد. فقد كنا نتعاقب على ركوبه وعندما جـاء دوري لم أكد أقفز على ظهر الحمار

حتى انطلق بجموح نحو شجيرة من الشوك كثيفة وأحنى رأسه كي يزيحني من على ظهره فـفعلت ولكن بعد أن عملت الأشواك عملها في وجهي مما أحرجني أمام أقراني من الصبيان . ونحن – الأفريقيين – شأننا شأن عموم الشرقيين يتملكنا شعور قوي بعزة النفس، أو ما يعرفه الصينيون بحفظ ماء الوجه . وفي ذلك اليوم فقدت "ماء وجهي" أمام أصدقائي، بعد أن أهانني ذلك الحمار، وأدركت أن إهانة الآخرين معاناة لا داعي لها، وتعلمت منذ صغري أن أنتصر على خصومي ولكن دون الإساءة الى كرامتهم.

كانت العادة أن يلعب الفتيان بمفردهم ولكننا كنا أحيانا نشرك فتيات القرية في اللعب أيضا، وكانت لعبتي المفضلة في حضور الفيتات تلك التي كنا نسميها خيثا أي "اختر من يعجبك" . لم تكن لتلك اللعبة قواعد محددة بل إنها تمارس بعفوية وتبدأ عندما نلتقي بمجموعة من الفتيات فنطلب من كل واحدة منهن أن تختار منا الفتى الذي يعجبها ليصحبها في بقية مشوار ذلك اليوم، وكنا نؤكد على ضرورة احترام اختيار كل فتاة . إلا أن الفتيات كن أكثر ذكاء منا نحن الصبيان فكن يتآمرن على اختيار الفتى الذي يحسبن أنه أكثرنا بساطة وسذاجة كي يصبح هدفا لتندرهن وتهكمهن طول طريق عودتهن الى منازلهن .

كانت أفضل الألعاب لدى الفتيان تلك التي نسميها ثينتي وهي أقرب ما تكون الى الألعاب الحربية . يثبت عمودان من خشب الشجر في الأرض تفصل بينهما مسافة مائة قدم تقريبا ويسعى كل فريق الى الإطاحة بعمود الفريق الآخر رميا بالعصي والعيدان . الهم الرئيسي لكل فريق هو حماية عموده و الحيلولة دون استرداد الخصم لما يرميه من عصي وعيدان . وكنا نجري المباريات بيننا وبين فرق من القرى المجاورة يحظى فيها المتفوقون بكثير من الإطراء والإعجاب كما لو كانوا قادة عسكريين انتصروا في معارك عالمية.

بعد الفراغ من اللعب كنت أعود الى كوخ أمي حيث تعد وجبة العشاء، وبينما كان والدي يروي لنا قصص المعارك التاريخية وبطولات قدماء المحاربين من أبناء الكوسا كانت أمي تتغنى بأساطير الكوسا وملاحمهم وأساطيرهم التي تعود الى أجيال غابرة . وكانت تلك القصص تثير خيالي الغض لما كانت تحمله من مغاز ومعان عميقة ومتنوعة . وتقول إحدى القصص التي كانت ترويها أمي إن عجوزرا عمشاء اقتربت من أحد المسافرين يوما تطلب العون فصرفها . وبعد قليل جاء رجل آخر فاتجهت اليه العجوز تطلب منه أن ينظف عينيها ففعل وإن بشيء من التأفف . وفجأة أخذت القشور تتساقط عن وجه تلك العجوز فظهرت صبية فاتنة جميلة فتزوجها الرجل وأصبح ثريا . إنها قصة بسيطة ولكن مغزاها خالد لا يبلى وهو أن للعمل الصالح والكرم جزاءهما الذي لا يعلم أحد كيف يوفى.

لقد تعلمت – كما يتعلم كل أطفال الكوسا – عن طريق الملاحظة . فكنا نتعلم بالمحاكاة وليس بالاستفسار، وعندما بدأت أتردد على بيوت البيض دهشت لكثرة الأسئلة التي كان الأطفال يوجهونها الى آبائهم وطبيعتها، كما دهشت لحرص الآباء الشديد على تقديم الإجابات . فقد كانت الأسئلة في أسرتنا تعد مصدرا للإزعاج وما كان الكبار يلقنون الصغار إلا عندما تدعو الحاجة لذلك .

كانت العادات والطقوس والمحرمات تحكم حياتي - وحياة غالبية أبناء الكوسا - آنذاك، وكانت هذه الأمور تمثل وجودنا كله ولم تكن عندنا قابلة للشك أو الاستفسار. فالرجال يقتفون أثار آبائهم والنساء يعشن كما عاشت أمهاتهن من قبل، وهكذا. وبدون توجيه من أحد استوعبت القواعد الدقيقة التي تحكم العلاقة بين الرجل والمرأة. وتعلمت أن الرجل لا يدخل بيتا فيه إمرأة وضعت حديثا، وأن العروس لا تدخل بيتها الجديد بغير حفاوة واحتفال. وتعلمت أن تخلي المرء عن تراث أجداده وأسلافه يجلب تعاسة الحظ والإخفاق في الحياة. وإذا أساء المرء الى شرف أسلافه بصورة ما فعليه أن يكفر عن ذلك بالتوسل الى طبيب شعبي روحاني أو حكيم من حكماء القبيلة كي ينقل ندمه واعتذاره الشديد الى أولئك الأسلاف فيغفرون له ما صدر منه .كانت كل هذه المعتقدات أمرا طبيعيا تماما بالنسبة لي.

تعرفت في صباي على عدد من البيض في قونو. فقد كان الحاكم المحلي بطبيعة الحال من البيض وكذلك صاحب أقرب محل للبقالة. وكان الرحالة البيض ورجال الشرطة يمرون بقريتنا من حين الى آخر. وكان هؤلاء البيض يظهرون لي وكأنهم آلهة. كما كنت أدرك جيدا أنه ينبغي معاملتهم بكثير من الخشية والاحترام. ولكن أعمالهم لم تكن وثيقة الصلة بحياتي فلم أشغل نفسي بالتفكير في شؤون الرجل الأبيض عموما أو بالعلاقة بين أبناء جنسي وهذه الأشباح الغريبة المريبة.

كان التنافس العشائري أو القبيلي الوحيد في عالمنا الصغير بقونو قائما بين الكوسا والأمامفينغو الذين كان عدد قليل من أبنائهم يقطن قريتنا. وصل الأمامفينغو الى شرقي الكيب هربا من جنود الشاكا زولو Shaka Zulu خلال ما يسمى بعهد الإمفيكاني iM-fecane وهي حقبة شهدت المعارك والهجرات العارمة مابين ١٨٢٠ و١٨٤٠ نتيجة قيام دولة الشاكا والزولو والتي سعى الزولو من خلالها الى بسط سيادتهم على جميع القبائل الأخرى ثم توحيدها تحت حكم عسكري واحد. جاء الأمامفيغو لاجئين من الإمفيكاني ولم تكن الكوسا لغتهم الأصلية مما اضطرهم الى القيام بكثير من الأعمال التي كان غيرهم من الأفريقيين يستنكف أن يقوم بها. فاشتغلوا في مزارع البيض ومتاجرهم وهو ما كان يزدريه أبناء قبائل الكوسا. وكان الأمامفيغو شعبا دؤوبا في العمل وأصبحوا نتيجة لاحتكاكهم بالأوروبيين أرقي تعليما وأكثر "تغربا" من غيرهم من الأفريقيين.

كان الأمامفيغو وأنا صبي أكثر أبناء المجتمع تقدما، وكان منهم رجال الكنيسة والشرطة والمدرسون والكتبة والمترجمون، وكانوا من أوائل من اعتنقوا المسيحية وبنوا بيوتا أفضل واستخدموا الوسائل العلمية في الزراعة، وكانوا أكثر ثراء من مواطنيهم الكوسا. لقد رسخ الأمامفيغو مقولة المبشرين: "أن كنت مسيحيا فأنت متحضر، وإن كنت متحضرا فسوف تصبح مسيحيا". لا تزال روح العداء للأمامفيغو قائمة ولكنني أعزو ذلك الآن الى الغيرة والتحاسد أكثر منه الى العداوات القبيلية. كان هذا النوع من التناحر القبيلي الذي عاصرته وأنا صبي من أخف الأنواع ولم أكن لأشهد أو أتخيل بعد شيئا من التناحر القبيلي العنيف الذي أذكي نيرانه حكام جنوب أفريقيا البيض فيما بعد.

لم يكن والدي مقتنعا بالتعصب ضد الأمامفيغو ونشأت صداقة بينه وبين أخوين من أبنائها هما : جورج وبن أمبيكيلا George and Ben Mbekela وكانا متميزين في قونو. كانا متعلمين يدينان بالمسيحية، وكان جورج أكبر الأخوين مدرسا متقاعدا بينما اشتغل بن ضابطا في قوات الشرطة. ورغم جهود الأخوين أمبيكيلا لتنصيره ظل والدي متمسكا بإيمانه بقاماطا Qamata معبود أسلافه وروح الكوسا العظمى. كان والدي كاهنا غير رسمي وكان يشرف على مراسم ذبح الماعز والعجول ويترأس الطقوس التقليدية الخاصة بمواسم الزرع وجني الثمار والولادة والزواج والتعميد والدفن. لم تكن هناك حاجة لترسيمه كاهنا لأن دين الكوسا يتميز بالشمولية ولا يفرق بين الدين والحياة أو بين الطبيعة وما وراء الطبيعة.

ولكن رغم عدم تأثر والدي بدين الأخوين أمبيكيلا فإن أمي تأثرت به واعتنقت المسيحية، وكان اسمها المسيحي فاني Fanny ود أطلق عليها في الكنيسة. أما أنا فجاء تعميدي في الكنيسة الميثودية Methodist (الويزلية/ Wesleyan كما كانت تعرف آنذاك) والتحاقي بالمدرسة نتيجة لتأثير الأخوين أمبيكيلا. غالبا ما كان الأخوان امبيكيلا يتوقفان للتحدث الي وأنا ألعب أو أرعى الغنم، وكان جورج أمبيكيلا يوما في زيارة لأمي فقال لها :

- إن ابنك هذا على قدر جيد من الذكاء وينبغي أن يلتحق بالمدرسة.

لم تنبس أمي ببنت شفة، إذ لم يلتحق أحد من أفراد عائلتي بمدرسة قط. ولم تكن أمي مستعدة للأخذ بذلك الإقتراح، ولكنها نقلت الحديث الى والدي الذي قرر رغم أنه غير متعلم ولم يتلق تعليما رسميا أن يسمح لأصغر أبنائه بالذهاب الى المدرسة.

تقع المدرسة في الجانب الآخر من الجبل في قونو، وهي عبارة عن حجرة يتيمة ذات سقف مبني على الطريقة الغربية. كان عمري سبع سنوات فأخذني والدي جانبا عشية ذهابي الى المدرسة ليؤكد علي أن أرتدي زيا لائقا أذهب به الى المدرسة. فلم أكن أرتدي حتى ذلك الوقت - أسوة بغيري من أطفال قونو - سوى دثار ألفه حول كتفي وأشده في الوسط، فجاء أبي بسروال له فقصه عند الركبتين وطلب مني أن أرتديه ففعلت فكان الطول مناسبا ولكن الحجم عن الخاصرة أكبر من حجمي بكثير. فجاء أبي بخيط وشد أطراف السروال بإحكام على خصري. لا شك أن منظري كان مثيرا للضحك ولكن لم يتملكني فخر بارتداء بدلة قط في حياتي كالذي غمرني عند ارتداء سروال أبي المقصوص.

في أول يوم دراسي أعطت المدرسة الآنسة إمدينغاني Miss Mdingane كل تلميذ منا اسما انجليزيا قائلة إنه الاسم الذي سنعرف به في المدرسة منذ ذلك التاريخ. كانت تلك عادة عند الأفريقيين آنذاك نشأت بلا شك نتيجة للتأثير البريطاني في نظام التعليم. فقد كان التعليم الذي تلقيته تعليما بريطانيا يعطي الأفكار والثقافة والمؤسسات البريطانية مكانة أعلى من غيرها. فلا وجود - في نظرهم - لشيء اسمه ثقافة أفريقية.

كل أفريقي من ابناء جيلي - وحتى يومنا هذا - يحمل اسمين : اسما غربيا وآخر أفريقيا. لم يكن الغربيون يحسنون نطق الأسماء الأفريقية ولم تكن لديهم الرغبة في نطقها

نطقا صحيحا، واعتبروا تلك الأسماء دليلا على التخلف . وفي ذلك اليوم أخبرتني الآنسة أمدينغاني بأن اسمي نلسون Nelson، ولم أدرك سر إنعامها عليّ بهذا الاسم بالذات . لعل لاختيارها ذاك علاقة بالقائد البحري البريطاني الشهير لورد نلسون Lord Nelson. لست أدري.

- ٣ -

ذات ليلة، وكنت في التاسعة من العمر، سمعت حركة غير عادية في البيت . إنه والدي قد وصل قبل موعده المتوقع، إذ كان يطوف على زوجاته بالتناوب ويقضي معنا أسبوعا واحدا تقريبا في كل شهر . رأيته مستلقيا على ظهره في كوخ أمي وقد انتابته نوبة حادة من السعال المتواصل . ورغم حداثة سني لم يكن يخفي علي أن أيام والدي أصبحت معدودة. فهو يعاني من مرض في الرئتين لم يشخص لأنه لم ير طبيبا في حياته قط . ظل أبي على تلك الحال عدة أيام دون أن يتحرك أو يتكلم حتى تدهورت حالته وكانت أمي وصغرى زوجاته، نوداإيماني، تعودانه . وفي ساعة متأخرة من إحدى الليالي نادى أبي على زوجته نوداإيماني وطلب منها إحضار التباك كي يدخن غليونه . وبعد تشاور سريع اتفقت الزوجتان على عدم تلبية الطلب والحال كذلك، ولكن أبي ألح في الطلب . واضطرت نوداإيماني أن تحشو الغليون بالتباك وتشعله وتقدمه له . فأخذ يدخن قرابة ساعة حتى هدأت نفسه بعض الشيء، ثم أسلم روحه وغليونه ما يزال مشتعلا في فمه . لا أذكر أنني حزنت كثيرا بقدر ما شعرت وكأنني قارب يبحر بلا شراع . فرغم أن أمي كانت هي كل شيء في حياتي، كنت أرى أن شخصيتي تتحدد من خلال شخصية أبي .ولذا فإن رحيله غيّر كل حياتي بطريقة لم تخطر على بالي آنذاك . وبعد فترة قصيرة من الحداد أخبرتني أمي بأن علي أن أغادر قونو، فلم أسألها عن السبب ولا عن المكان الذي سأذهب اليه .

وفي الصباح الباكر ذات يوم حزمت أمتعتي القليلة التي كنت أمتلكها وانطلقنا في رحلة نحو الغرب قاصدين موطني الجديد. قد حزنت للرحيل أكثر مما حزنت لوفاة والدي . فقونو بالنسبة لي هي كل شيء في الوجود . أحببتها حبا خالصا، هو حب الطفل لموطنه الأصلي. وقبل أن نختفي وراء التلال التفت الى الوراء لألقي نظرة على قريتي تلك، ظننت حينها أنها النظرة الأخيرة، فرأيت الأكواخ البدائية والناس يسعون في قضاء حاجاتهم، ورأيت الجدول الذي كنت ألعب فيه مع أترابي يرش بعضنا بعضا بالماء، وحقول الذرة والمروج الخضراء ترتع فيها قطعان الماشية كيفما تشاء . تمثلت أمامي صورة أصدقائي وقد خرجوا لصيد العصافير، يشربون اللبن الطازج من ضروع البقر ويمرحون في الغدير عند نهاية الجدول . واستقرت نظراتي على تلك الأكواخ الثلاثة البسيطة التي تمتعت فيها بحب أمي ورعايتها . إنها الأكواخ التي ارتبطت بكل ما عرفت في الحياة من سعادة، بل ارتبطت بالحياة ذاتها، وأسفت على أنني لم أقبّلها واحدا واحدا قبل أن أغادر . لم يكن يخيل إلي أن المستقبل الذي أستشرفه يمكن أن يقارن على أي وجه من الوجوه بالماضي الذي أتركه ورائي.

سافرنا مشيا على الأقدام يحيط بنا الصمت من كل جانب حتى أخذت الشمس تتوارى شيئا فشيئا وراء الأفق . إن صمت القلوب الذي يجمع بين الأم وابنها ليس موحشا . قليلا ما كنا نتبادل الحديث، ولكنني لم أشك يوما في حب أمي ولم تهتز ثقتي في دعمها لي .

كانت رحلة شاقة عبر طرق صخرية وشعاب، نصعد تلا ونهبط تلا، مارين بقرى لا حصر لها دون أن نتوقف عند أي منها. وفي وقت متأخر من النهار وصلنا قرية عند أسفل واد منبسط تحيط به الأشجار يتوسطه مبنى كبير فاقت فخامته كل ما رأيت في حياتي من قبل فتملكني الإعجاب بروعته وبهائه. كان المبنى مؤلفا من بيتين، كل منهما على شكل مستطيل، وسبعة أكواخ فخمة مطلية بالجير الذي يبهر النظر حتى عند الأصيل. تتصدر المبنى حديقة واسعة وحقل للذرة تحيط به أشجار الخوخ المدور، وتمتد خلفه حديقة أخرى أكبر مساحة تزدان بأشجار التفاح وجداول الخضار و الزهور يحيطها سياج من قضبان. وعلى مقربة من المبنى توجد كنيسة مدهونة بالجبس الأبيض.

عند المدخل الرئيسي للمبنى الكبير شجرتان من شجر الصمغ كان يجلس تحتهما نحو عشرين من أعيان القبيلة، بينما انتشرت الأبقار (ما لا يقل عن خمسين بقرة) والأغنام (نحو خمسمائة شاة) ترعى في الأراضي المحيطة بالمبنى. كل شيء يتسم بالجمال والتنسيق وقد ظهرت على المكان معالم الثراء والنظام بصورة لم تخطر لي على بال. إنه "المكان العظيم" Great Place في مكيكزويني، عاصمة مقاطعة تيمبولاند، أي بلاد التيمبو، ومقر إقامة الزعيم يونجينتابا داليندييو سلطان التيمبو.

وبينما كنت أتأمل تلك الأبهة عبرت البوابة الغربية سيارة فخمة لها هدير ما إن رآها أولئك الجالسون حتى رفعو قبعاتهم وهبوا واقفين يهتفون: يعيش يونجينتابا. توقفت السيارة (التي علمت فيما بعد أنها من نوع فورد في-٨) ونزل منها رجل قصير القامة غليظ البنية يرتدي بذلة أنيقة وكانت تبدو عليه أمارات الثقة والحنكة والتمرس في القيادة والسلطة. وكان له من اسمه نصيب إذ إن يونجينتابا تعني "الناظر الى الجبال". وكان ذا حضور وجاذبية تشد الأنظار اليه. كان يونجينتابا أسود البشرة يشع وجهه بالذكاء والفطنة، فصافح الرجال الذين استقبلوه تحت الشجر واحدا واحدا، وعلمت فيما بعد أنهم أعضاء محكمة تيمبو العليا. السلطان يونجينتابا هذا هو الرجل التي تولى رعايتي وولاية أمري طول العقد التالي من حياتي. في تلك اللحظات التي شاهدت فيها يونجينتابا وحاشيته أحسست وكأنني شجيرة اجتثت من الأرض ورمي بها في وسط نهر ليس بوسعها مقاومة تياره الجارف. لقد تملكني مزيج من مشاعر الانبهار والذهول، إذ لم أعرف قبل ذلك اليوم سوى ملذاتي الشخصية ولم يكن طموحي يتعدى التمتع بما آكل من طعام والتفوق في لعبة المصارعة بالعصي. لم أكن أفكر في المال أو في المكانة الاجتماعية أو في الشهرة أو السلطان، ولكن عالما جديدا انفتح أمامي فجأة، وعندما يفاجأ أطفال البيوت الفقيرة بالثراء الفاحش تستولي على نفوسهم مغريات كثيرة لا عهد لهم بها من قبل. وهذا ما كان من أمري. فقد أحسست بأن كثيرا من قناعاتي وولاءاتي الراسخة بدأت تنحسر ، وأن الأسس الغضة لشخصيتي التي أقامها والداي أخذت تهتز ، وبدا لي في تلك اللحظة أن الحياة ربما حملت لي في طياتها أكثر من أن أصبح مجرد بطل في المصارعة بالعصي.

* * *

علمت فيما بعد أن يونجينتابا عرض على أمي إثر وفاة والدي أن يتولى أمري وأن يعاملني كما يعامل أبناءه تماما وأن يوفر لي ما يوفر لهم من المزايا . لم يكن أمام أمي خيار آخر وما كان لها أن ترفض عرضا سخيا كهذا من السلطان . فرغم أنني سأغترب عنها رضيت بأن التربية والميزات التي سألقاها في رعاية الحاكم تفوق بكثير ما تستطيع هي أن توفره لي . فلم ينس السلطان لوالدي فضله في وصوله هو الى ما وصل اليه من الزعامة والنفوذ والسلطان.

مكثت أمي في مكيكيزويني ليوم أو يومين قبل أن تعود الى قونو . كان وداعها لي بسيطا لا مبالغة فيه ولم تلق على المواعظ ولم تنصحني ولم تقبلني، وأحسب أنها أرادت بذلك أن تخفف علي من لوعة الفراق فأخفت مشاعرها عني . فقد كنت أدرك أن والدي رغب في أن أتلقى تعليما يؤهلني لمواجهة العالم الكبير، وهو ما لم يتوفر لي في قونو، وها هي نظرات أمي الرقيقة تحمل الي كل ما كنت اطلبه من الوجدان والتشجيع . وما أن همت أمي بالرحيل حتى التفت الي وقالت : كن قوي العزيمة يا بني!

إن الأطفال هم غالبا أقل المخلوقات انفعالا وعاطفة وخاصة عندما تستحوذ على مشاعرهم ضروب جديدة من المتعة والملذات . ففي اللحظة التي كانت أمي وصديقتي الأولى تتواري عن ناظري كان خيالي يبحر في الملذات التي تنتظرني في موطني الجديد. وأنىّ لعزيمتي أن تخور وقد ارتديت الملابس الجديدة التي اشتراها لي ولي أمري الجديد .

انخرطت بسرعة في حياة مكيكيزويني . فالطفل إما أن يتأقلم بسرعة وإما ألا يتأقلم أبدا، ولكنني انسجمت مع جو "المكان العظيم" وكأنني رُبيت فيه منذ ولادتي، وكان في نظري مملكة سحرية كل ما فيها يبعث على البهجة والسرور . فالواجبات التي كانت تبعث في نفسي السأم في قونو أصبحت في مكيكيزويني نوعا من المغامرة المثيرة . كنت في الأوقات التي لا أذهب فيها الى المدرسة أقوم بحرث الأرض أو قيادة العربات أو الرعي. ركبت الخيول واصطدت الطيور بالمقلاع وتبارزت مع أصحابي من الصبية وقضيت بعض الأمسيات في الرقص على أنغام غناء فتيات التيمبو الشجية وتصفيقهن الجميل . ورغم حنيني لقونو ولأمي انسجمت انسجاما كاملا في دنياي الجديدة.

التحقت بمدرسة من فصل واحد مجاورة للقصر الذي كنت أقيم فيه وتلقيت دروسا في اللغة الإنجليزية ولغة الكوسا والتاريخ والجغرافيا . درسنا كتاب Chambers English Reader وكنا نكتب على ألواح سوداء، وقد أولاني مدرسي السيد فادانا Fadana ومن بعده السيد غيقوا Giqwa اهتماما خاصا، ولم يكن تفوقي في الدراسة نتيجة لنبوغي بل لإصراري وتصميمي على النجاح . وقد زاد من صرامتي والتزامي الشخصي عناية العمة باتيوي Phathiwe التي كانت هي الأخرى تقيم في "المكان العظيم" . كانت تثابر على الإشراف على واجباتي المدرسية وتتفحصها كل ليلة.

كانت مكيكيزويني مركزا تبشيريا للكنيسة الميثودية وأكثر تحضرا وأقرب الى نمط الحياة الغربية من قونو . كان أهلها يرتدون الأزياء العصرية كالبذلة للرجال وزي المبشرات البسيط الخالي من الزخرفة للنساء وهو عبارة عن تنورات طويلة من القماش الخشن وبلوزات

بياقات عالية وملاحف تسدل على الكتفين ووشاح يلف بأناقة حول الرأس.

وفيما كانت الحياة في مكيكزويني تدور حول السلطان كانت حياتي المحدودة تلف حول طفليه: ابنه الأكبر والوحيد جاستِس Justice ووريثه في "المكان العظيم" من بعده، وابنته نومافو Nomafu. كنت أقيم معهما وأعيش تماما كما يعيشان. كنا نتقاسم الطعام والملابس ونشترك في أداء الواجبات المنزلية سواء بسواء. وبعد فترة التحق بنا انكزيكو Nxeko الأخ الأكبر لساباتا ولي العهد فأصبحنا الرباعي الملكي. لقد رباني السلطان وزوجته نو-إنغلاند No-England كأحد أبنائهما، وكانا ينشغلان بأموري ويوجهانني ويعاقبانني بروح من المحبة والإنصاف. كان يوجينتابا رجلا صارما ولكنني لم أشك يوما في حبه لي. كانوا ينادونني تاتومخولو، Tatomkhulu ومعناها الجَدّ، لأنني عندما أكون جادا أبدو – على حد قولهم – كالشيخ الكبير.

كان جاستِس يكبرني بأربع سنوات وأصبح قدوتي الأولى بعد والدي فاتخذته مثلي الأعلى في كل شيء، وكان عند وصولي مكيكيزويني يقيم في مدرسة كلاركبيري Clarkebury على بعد ستين ميلا تقريبا. كان جاستِس طويل القامة وسيما مفتول العضلات، وكان رياضيا جيدا متفوقا في العدو والألعاب الميدانية كالكريكيت والرغبي وكرة القدم. وكان بشوشا ودودا يتمتع بملكة فطرية للغناء والرقص تتملك متفرجيه وتستحوذ على إعجابهم مما جمع حوله عددا من المعجبات وجعله مثارا للنقد والتجريح من بعض الذين كانوا يرونه متفسخاً ينقصه كثير من خصائص الرجولة. نشأت بيني وبين جاستِس علاقة حميمة رغم اختلاف شديد بيننا في الشخصية، فهو شخص اجتماعي وأنا أميل الى الإنطواء، وهو ذو روح مرحة بينما كنت جادا صارما. كانت أموره ميسرة وكنت في حاجة الى الكد والعناء كي أحقق ما أريده، وكان جاستِس في نظري يجسد كل ما ينبغي أن يكون عليه الشاب اليافع وكل ما كنت أصبو اليه في شخصي. ورغم أننا كنا نعامل بالأسلوب نفسه افترقت بنا سبل الحياة، إذ ورث جاستِس واحداً من أقوى مراكز الزعامة في قبيلة التيمبو ولن أرث إلا ما يتفضل به علي سلطان مكيكيوزويني.

كنت أدخل بيت السلطان عدة مرات كل يوم لأداء مهام وواجبات مختلفة كان أحبها الى نفسي وأكثر ما أعتز به كيّ بذلاته من الطراز الغربي وكان يمتلك ستا منها. كنت أقضي الساعات في التفنن في كي بنطلوناته حتى تبدو خطوط كسرتها في غاية الأناقة.

كان قصره – إذا جاز التعبير – عبارة عن بيتين كبيرين من الطراز الغربي يغطيهما سقف من الصفيح وكانت البيوت الغربية الطابع في تلك الأيام تعد علامة على الثراء والغنى وكان قليل من الأفريقيين يمتلكونها. أما المنازل الستة التي تحيط بالمنزل الرئيسي فقد كانت أرضيتها من الخشب وهو ما لم أره من قبل قط.

كان الحاكم وزوجته، الملكة، يقيمان في المنزل الأيمن وتقيم أختها في المنزل الواقع في الوسط، بينما خصص المنزل الأيسر لتخزين المؤن. وكانت توجد تحت أرضية منزل أخت الملكة خلية نحل فكنا ننزع الخشب لاستخراج العسل والاستمتاع بأكله. بعد وصولي

مكيكيزويني بفترة قصيرة قرر السلطان الانتقال بزوجته الى المنزل الأوسط الذي أصبح بصورة تلقائية يعرف بـ"المكان العظيم" ، وكان على مقربة منه ثلاثة منازل صغيرة خصص أحدها لأمه والثاني للضيافة بينما أقمت أنا وجاستِس في المنزل الثالث.

كان يحكم حياتي في مكيكيزويني عنصران أساسيان هما زعامة القبيلة والكنيسة، وكانت السلطتان تعيشان في انسجام حذر . ولم أفطن آنذاك الى ما يوجد بينهما من عداوة. لم تكن المسيحية بالنسبة لي عقيدة بقدر ما كانت مذهبا قويا تجسد في شخصية رجل واحد هو الكاهن الأب ماتيولو Matyolo . فقد كانت شخصيته النفاذة تجسد في تصوري كل ما في المسيحية من جاذبية، وقد كان محبوبا يتمتع بشعبية لا تقل عن شعبية السلطان نفسه، وكان لعلو مكانته الروحية على مكانة السلطان انطباع عميق في نفسي . غير أن اهتمام الكنيسة بشؤون الدنيا لم يكن يقل عن اهتمامها بشؤون الآخرة، وقد لاحظت أن جميع ما أنجزه الأفريقيون تقريبا يبدو وكأنه تحقق بفضل الأعمال التبشرية التي تقوم بها الكنيسة. فالمدراس التبشرية هي التي تدرب الموظفين والمترجمين ورجال الشرطة وهي عين المناصب التي كانت تمثل أقصى ما يصبو اليه الأفريقيون آنذاك.

كان الأب ماتيولو رجلا بدينا في منتصف الخمسينات من العمر، فخم الصوت ذا حنجرة قوية مكنته من الخطابة وأداء التراتيل بنفس الدرجة من المهارة، وكانت قاعة الكنيسة المتواضعة الواقعة في غرب مكيكيزويني تغص بالحاضرين كلما وقف الأب ماتيولو للوعظ، وكانت جدرانها تهتز بتراتيل المصلين وتهليلاتهم بينما تركع النساء عند قدميه طلبا للغفران. كانت أول قصة سمعتها عن خوارق الأب ماتيولو ولم أجد فيها شيئا من الغرابة أو التناقض آنذاك تلك التي تقول إنه طارد شبحا مرعبا ولم يكن بيده من سلاح سوى نسخة من الإنجيل وفانوس صغير.

كان الأب ماتيولو يبشر بمسيحية من النوع الناري الملتهب المزوج بمسحة من الوثنية الأفريقية يبدو فيها الإله حكيما قديرا ولكنه منتقم كذلك لا يدع ذنبا إلا ويعاقب عليه.

لم أدخل الكنيسة في قونو إلا يوم أن عُمّدت، وكان الدين بالنسبة الي طقوسا لا تعني شيئا، أمارسها لإرضاء أمي فقط . أما في مكيكيزويني فقد أصبح الدين جزءا لا يتجزأ من حياتي اليومية وكنت أذهب الى الكنيسة كل يوم أحد برفقة السلطان وزوجته . وكان السلطان يأخذ الدين مأخذ الجد ولم يعاقبني بالضرب قط إلا عندما تهربت ذات يوم أحد من الصلاة لأشارك في مباراة مصارعة ضد فريق إحدى القرى المجاورة، وهو ذنب لم أرتكبه بعد ذلك أبدا.

لم تكن تلك المرة الوحيد التي أوبخ فيها لمخالفتي توجيهات الأب ماتيولو . فقد تسللت ذات يوم الى حديقة منزله وسرقت شيئا من الذرة فحمصتها وأكلتها على الفور . ولكن إحدى الفتيات رأتني آكل الذرة فأخبرت الأب في الحال وانتشر النبأ بسرعة حتى انتهى الى زوجة السلطان التي كانت في انتظاري عند موعد الصلاة في المساء . واجهتني السيدة بالجرم

وأنبتني على أخذ قوت عبد فقير من عباد الله وعلى ما جلبته من عار على الأسرة. وأكدت لي أن إبليس نفسه سيؤاخذني على ما فعلت، فانتابني مزيج بَغيض من الشعور بالخوف والعار: الخوف من الجزاء الصارم الذي سينزل علي من السماء، والعار لعدم احترامي للثقة التي أولتني إياها تلك الأسرة التي فتحت صدرها لي واحتضنتني.

****

أما الزعامة القبيلية فقد كانت في نظري هي لب الحياة وذلك لما كان يلقاه السلطان من احترام واسع لدى الجميع - من بيض وسود - ولما كان يتمتع به من سلطة بدت لي آنذاك غير متناهية. لقد طغت سلطة الزعيم ونفوذه على كل جوانب حياتنا في مكيكيزويني وكانت الوسيلة الكبرى للحصول على النفوذ والجاه والمقام الرفيع.

كان لما تعلمته من السلطان وحاشيته أعمق الأثر في فهمي لمعنى القيادة والزعامة. فقد كنت أراقب وألاحظ وأتعلم من اجتماعات القبائل التي كانت تعقد بانتظام في "المكان العظيم".

لم تكن الاجتماعات تعقد حسب جدول زمني ثابت ولكن كلما دعت الحاجة، وكانت تعقد لمناقشة القضايا العامة كالجفاف وفرز المواشي، وما يصدر عن القاضي من أحكام، أو ما تسنه الحكومة من قوانين. كانت الاجتماعات مفتوحة لجميع أبناء التيمبو وكانت أعداد غفيرة منهم تحضر الى الاجتماعات على ظهور الخيل أو مشيا على الأقدام.

يجلس السلطان في هذه المناسبات محاطا بمستشاريه من علية القوم الذين يؤدون دور البرلمان والقضاء في آن واحد، وهم من حكماء القوم الملمين بتاريخ القبائل وعاداتها والذين تمثل آراؤهم ثقلا كبيرا في المجالس.

يوجه السلطان الدعوة لهذه الاجتماعات وتبدأ الحياة تدب في "المكان العظيم" بوصول الوفود القادمين للمشاركة من جميع أنحاء بلاد التيمبو. يتجمع الحاضرون في الساحة الواقعة أمام بيت السلطان فيفتتح الجلسة بتوجيه الشكر للحاضرين فردا فردا ثم يشرح الأسباب التي دعت الى عقد الاجتماع ثم يلتزم الصمت حتى يشارف الاجتماع على نهايته.

في تلك الأثناء تتاح الفرصة لكل من يرغب في الحديث أن يتكلم ويستمع الحاضرون لما يقول بدون مقاطعة أو تمييز اللهم الا في مراعاة ترتيب المتحدثين حسب مكانتهم في القبيلة. إنها ديمقراطية أصيلة تتيح التعبير للرئيس والمرؤوس، وللمحارب والطبيب، وللتاجر والمزارع، ولمالك الأرض والعامل سواء بسواء. كانت الاجتماعات تستمر ساعات طويلة وكان الأساس الذي يقوم عليه ذلك النظام هو حرية الجميع في التعبير عن آرائهم والمساواة بينهم كمواطنين، فيما عدا النساء اللاتي كن ويالأسف يعتبرن مواطنين من الدرجة الثانية.

تقام يوم الاجتماع وليمة ضخمة، وكنت غالبا ما أفرط في الأكل أثناء الإستماع الى المتحدثين، واحدا تلو الآخر، وحتى أصاب بالتخمة. لاحظت أن بعض المتكلمين كان

يتحدث بصورة عشوائية لا يكاد يدخل صلب الموضوع بينما كان بعضهم يعرض أفكاره وآراءه بوضوح وتركيز وإحكام. كما فطنت الى أن بعض المتحدثين كان يلجأ الى العاطفة والعبارات الدرامية لتهييج مشاعر الحاضرين بينما تجنب آخرون الإنفعال والتزموا الوقار والإتزان.

كم كانت تدهشني في الأيام الأولى الشدة والصراحة التي يصل اليه الحاضرون في انتقادهم للسلطان. فلم يكن السلطان قط فوق النقد بل إنه غالبا ما يكون الهدف الرئيسي له، ومهما بلغت خطورة التهم الموجهة اليه كان ينصت لما يقال دون أن يهب للدفاع عن نفسه أو تظهر على وجهه ملامح الانفعال أو التأثر.

يتواصل الاجتماع حتى يصل المشاركون الى نوع من الإجماع. فإما إجماع وإلا فلا، وربما كان الإجماع على عدم الإتفاق فيؤجل البت في القضية الى وقت أنسب يتحقق فيه التوصل الى حل. كانت الديمقراطية تقتضي أن يستمع الجميع لكل الآراء وأن تتخذ القرارات بصورة جماعية وليس بالأغلبية التي كانت تعتبر مفهوما غريبا لأنه لا يجوز أن تسحق الأقلية أمام الأغلبية.

وعندما يقترب الاجتماع من نهايته وتميل الشمس الى الغروب، يقوم السلطان ليتحدث فيلخص ما قيل ويحاول التقريب بين ما طرح من آراء مختلفة تمهيدا لبلورة رأي يمكن أن يجمع عليه الحاضرون. غير أن الاجتماع لا يفرض رايا معينا إن وجد من يعارضه، وإذا لم يتحقق الإتفاق يؤجل الأمر الى اجتماع آخر ويختتم المجلس بقصيدة تمدح أمجاد الملوك القدامي فيها مزيج من الشكر والهجاء للزعماء الأحياء فيهتز المجلس بضحك الحاضرين وفي مقدمتهم السلطان نفسه.

لقد التزمت طوال حياتي بتلك المباديء التي كان السلطان يتبعها في مجالس "المكان العظيم"، فأحرص دائما على الاستماع إلى ما يقوله كل من يشارك في نقاش أو اجتماع قبل أن أجازف بالتعبير عن رأيي الخاص الذي لا يعدو في الغالب أن يكون تلخيصا لرأي مشترك من بين ما سمعته من آراء وأفكار. ولا زلت أذكر الحكمة التي كان يرددها السلطان من أن القائد كالراعي يسير وراء القطيع فيدع أكثرها رشاقة يتقدم وبقية القطيع تتبع دون أن تدرك أنها توجه من الخلف.

وفي مكيكيزويني نما لدي الإهتمام بتاريخ أفريقيا، إذ لم أسمع حتى ذلك الوقت إلا بأبطال الكوسا. ولكنني في "المكان العظيم" تعرفت على أبطال أفريقيين آخرين من بينهم سيخوخوني Sekhukhune ملك البابيدي Bapedi وموشوشو Moshoeshoe ملك الباسوتو Basotho ودينغاني Dingane ملك الزولو Zulu وغيرهم مثل بامباتا Bambatha وهينتسا Hintsa وماكانا Makana ومونتشيوا Montshiwa وكجاما Kgama. تعرفت على هؤلاء الرجال من أفواه الزعماء والرؤساء الذي كانوا يزورون "المكان العظيم" للفض في المنازعات والقضاء. ورغم أنهم لم يكونوا محامين رسميين لكنهم كانوا يعرضون القضايا ويصدرون الأحكام، وكانوا في بعض الأيام ينتهون من أعمالهم مبكرا فيجلسون

يتبادلون القصص والأحاديث . كنت اتنقل بينهم في صمت وأستمع الى أحاديثهم التي كانت مليئة بالأمثال والتعبيرات التي لم أسمعها من قبل . كانوا يتكلمون لغة فصيحة بليغة وكان حديثهم بطيئا مسترسلا وكانت الطقطقة التقليدية التي تتميز بها لغتنا تخرج من أفواههم بانسياب وإثارة.

كانوا في بداية الأمر ينهرونني بحجة صغر سني ولكنهم من حين الى آخر يطلبون مني إحضار الوقود أو الماء أو توصيل طلبهم بإعداد الشاي الى النساء داخل البيت . كما أنني كنت خلال الشهور الأولى منشغلا بأداء ما يسند الي من أعمال ولم أتمكن من متابعة أحاديثهم . ولكنهم في آخر المطاف سمحوا لي بالجلوس اليهم فاكتشفت الكثير عن عظماء أفريقيا الذين قاوموا سيطرة الغرب، والتهب خيالي بتلك الأمجاد والبطولات التي صنعها الأبطال الأفريقيون.

كان زويليبهانغيلي يووي Zwelibhangile Joy، أحد أبناء سلالة عائلة الملك نغوبينغوكا Ngubengcuka العظيمة، أكثر القصاصين إمتاعا بما يحكيه من قصص الغابرين وكان أكبرهم سنا . كان جلده المتجعد يبدو وكأنه ثوب فضفاض يرتديه فوق جسمه، وكان يسرد قصصه بروية وتؤدة تتخللها نوبات من السعال الشديد مما يضطره الى التوقف عن الكلام لبضع دقائق أحيانا . وكان الزعيم يووي مرجعا هائلا لكثير من تاريخ التيمبو لمعاصرته لجزء كبير منه معاصرة شخصية.

ورغم تقدم الزعيم يووي في السن كان يستعيد شبابه وحيويته كلما تطرق الحديث الى مقاتلي جيش الملك انغانغيليزوي Ngangelizwe الذي كان يووي يتفاخر ببطولته وسخائه وتواضعه، وكان أثناء روايته للأحداث يلجأ الى التمثيل والحركات المسرحية فيرمي برمحه ويتسلل عبر المروج والحقول.

لم تقتصر قصص الزعيم يووي على تاريخ التيمبو، وكنت أتساءل عن أسباب روايته لقصص مقاتلين من خارج الكوسا لأنني - كمشجعي الفرق الرياضية - لم أكن أهتم بالأبطال الذين لا تربطني بهم صلة . ولكنني أخذت فيما بعد بضخامة التاريخ الأفريقي واتساعه ومنجزات الأبطال الأفريقيين على اختلاف انتماءاتهم القبيلية .

كان الزعيم يووي يصب جام غضبه على الرجل الأبيض الذي كان - في اعتقاده - وراء التشتيت المتعمد لقبيلة الكوسا والتفريق بين أبنائها وخلق العداوات بينهم . فالرجل الأبيض هو الذي أخبر أبناء التيمبو بأنهم رعايا الملكة البيضاء العظيمة التي تقيم وراء المحيط وبأنها هي زعيمهم الحقيقي (إشارة إلى فيكتوريا ملكة بريطانيا) . غير أن تلك الملكة البيضاء - على حد قول يووي - لم تجلب للسود سوى الشقاء والغدر، وإن كانت حقا زعيمهم فهي زعيم شؤم وشر . كانت قصص الزعيم يووي عن الحروب والمواقع والمعارك وإدانته لبريطانيا تثير في نفسي الغضب والحنق وتشعرني بأنني سلبت حقوقي الموروثة كلها.

قال الزعيم يووي في حكاياته إن الأفريقيين من تيمبو وبوندو وكوسا وزولو كانوا

يعيشون إخوة في سلام واستقرار الى أن أتى الرجل الأبيض من وراء البحار بأسلحة تلفظ النيران فقضى على ألفتهم وشتت شملهم وفرق بين قبائلهم. كان الرجل الأبيض - على حد قوله - جشعا يطمع في الإستيلاء على الأرض والفوز برضى الرجل الأسود باقتسام الأرض معه كما اقتسم الهواء والماء، إذ الأرض لم تكن ملكا لأحد بعينه، ولكن الرجل الأبيض استحوذ عليها كما يستحوذ رجل ظلما على حصان رجل آخر.

لم أفطن آنذاك الى أن الكتب المدرسية التي أعدها البريطانيون لم تكن تحتوي على تاريخ وطننا الحقيقي، إذ كانت تدعي أن تاريخ جنوب أفريقيا بدأ بوصول يان فان رايبيك Jan van Riebeeck الى شواطيء رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢ . ولكنني تعلمت من الزعيم يووي أن تاريخ الشعوب الناطقة بلغة البانتو Bantu يعود الى البحيرات والسهول الخضراء والوديان الشمالية التي نزح منها أجدادنا عبر آلاف السنين نحو السواحل الجنوبية لهذه القارة الخالدة العظيمة. غير أنني اكتشفت فيما بعد أن الزعيم يووي لم يكن دقيقا في كل ما يرويه عن تاريخ أفريقيا خاصة فترة ما بعد ١٦٥٢ .

* * *

كانت مكيكيزويني أكثر تحضرا من قونو التي كان أهلها يعتبرون متخلفين مقارنة بسكان مكيكيزويني، وكنت نموذجا للفتى الريفي الغريب في المدينة. وكان السلطان لا يرغب لي أن أذهب لزيارة قونو خشية أن أعود الى نمط حياتي القديم أو أصاحب فتيان سوء في القرية، وعندما زرت قونو فعلا أحسست أن السلطان قد أوعز الى أمي بتحري تحركاتي فكانت تلاحقني بالأسئلة عمن صاحبت ومع من لعبت. وكثيرا ما كان السلطان يتخذ الترتيبات لإحضار أمي وأختيّ لقضاء فترة من الوقت معنا في "المكان العظيم".

كان بعض أقراني في بداية حياتي في مكيكيزويني ينظرون الي بأنني طفل القرية الفلاح الذي لا قدرة له على التكيف مع جو الحياة الراقية في "المكان العظيم"، ولكنني - كأي فتى في مثل وضعي - بذلت قصارى جهدي كي أظهر بمظهر الشخص المهذب المتطور. وفي أحد الأيام بينما أنا في الكنيسة لفتت نظري إحدى بنات الأب ماتيولو وكانت تدعى ويني Winnie فطلبت صحبتها فوافقت. لا شك في أن ويني انجذبت نحوي ولكن أختها الكبرى نومانبوندو nomaMpondo كانت تنظر الى بازدراء ولا ترى أملا في أن أتخلص مما كنت فيه من تخلف. كانت تُعيّرني لدى ويني بالهمجية وبأنني لا أليق بإبنة الأب ماتيولو.

ولكي تؤكد لأختها مدى جهلي بأساليب الحياة المتحضرة دعتني في أحد الأيام الى تناول الغداء عندهم في بيت الأب ماتيولو فذهبت وكنت لم أزل متعودا على الأكل بطريقة أهل القرية الذين لا يستعملون الشوكة والسكين. وعندما جلسنا الى المائدة قدمت لي تلك الأخت الشقية صحنا لا يحتوي إلا على جناح دجاجة يتيم متماسك يتعسر فصل لحمه عن عظمه.

وقبل أن أجازف بالهجوم على ذلك الجناح تفحصت لبضع دقائق كيف كان الجالسون

حول المائدة يستعملون السكين والشوكة - وكانوا يتعاملون معهما بمهارة ويسر - ثم التقطت الشوكة والسكين بحذر. وأخذت أقلب الجناح في الصحن آملا أن ينفصل اللحم عن العظم، وحاولت دون جدوى أن أمسك بالجناح باستعمال الشوكة كي أقطع اللحم بالسكين ولكن الجناح كان يفلت مني كل مرة. وكنت أثناء هذه العملية المزعجة أضرب الصحن بالسكين فيحدث قرقعة مسموعة. وانتبهت بعد عدة محاولات فاشلة الى ابتسامة عريضة ترتسم على وجه الأخت الكبرى وهي تختلس النظرات الى أختها ويني ولسان حالها يقول: هل تصدقينني الآن؟

نازعت ذلك الجناح مرارا وتكرارا وكنت أتصفد عرقا ولكنني لم أكن لأقر بالهزيمة فالتقط تلك القطعة اللعينة بيدي فأكلها فحرمت يومي ذاك من لحم الدجاج.

علمت فيما بعد أن الأخت الكبرى نصحت أختها بألا تضيع حياتها بالوقوع في حب فتى متخلف مثلي، ولكن ويني لحسن الحظ لم تأخذ بنصيحتها وقبلت بحبي رغم ما كنت عليه من تخلف. إلا أن الأيام باعدت بيننا ومشى كل منا الى غايته، فالتحقت ويني بمدرسة غير التي التحقتُ بها واشتغلت بالتدريس، وظلت تربطنا علاقة عن طريق المراسلة لعدة سنوات ثم اختفى أثرها عني، ولكنني كنت في تلك الأثناء تمرست في اتقان آداب الطعام والمائدة.

- ٤ -

عندما بلغت السادسة عشرة من عمري رأى السلطان أنني بلغت سن الرشد وأن قد آن الأوان لانتقالي الى مرحلة الرجولة . وتقضي تقاليد الكوسا أن يتم ذلك بطريقة واحدة فقط ألا وهي الختان . فعاداتنا لا تسمح للإبن الذي لا يختن بأن يرث أباه أو يتزوج أو يترأس الحفلات وجلسات الطقوس الدينية . والرجل عند الكوسا لا يصبح رجلا بل يظل صبيا ما لم يختن، والختان هو الوسيلة التي يدخل بها الصبيان الى مجتمع الرجال .

والختان ليس مجرد عملية جراحية وحسب بل تصاحبه سلسلة محكمة من الطقوس والشعائر التي تنقل الفتى من الطفولة الى الرجولة ويوم الختان بالنسبة للكوسا أمثالي هو تاريخ بداية رجولتي. أعدت مراسم حفل ختان جماعي شارك فيه ستة وعشرون من فتيان القرية كان على رأسهم جاستِس الذي أقيم الحفل من أجله بالدرجة الأولى وكانت مهمة الآخرين مجرد صحبته . في أوائل السنة الجديدة انتقلنا الى كوخيْن من الأعشاب في أحد الوديان المعزولة ويعرف باسم تايهالارها Tyhalarha على ضفاف نهر امباشي وهو المكان التقليدي الذي تقام فيه مراسم ختان ملوك التيمبو . وتجري العادة بعزل الفتيان عن المجتمع في هذين الكوخين طوال فترة الختان التي تعتبر من المواسم المقدسة .

لقد غمرتني السعادة للمشاركة في تلك الطقوس وأحسست بأنني أؤدي عملا عظيما بإحيائي لتقاليد قومي ووجدت نفسي متحفزا للإنتقال من الطفولة الى الرجولة .

وصلنا تايهالارها عن طريق النهر قبل بضعة أيام من موعد الختان، وقضينا آخر أيام الطفولة تلك في صحبة مجموعة من الفتيان القادمين للختان حيث عشت بينهم جوا مفعما بالود والروح الأخوية. كان المكان الذي نزلنا به مجاورا لبيت المدعو باناباخي بلاي Banabakhe Blayi أغنى وأشهر طفل في تلك المجموعة . وكان بلاي شخصية جذابة وبطلا من أبطال المصارعة بالعصي وكان نجما يحيط به لفيف من المعجبات اللاتي كن يزودننا بأشهى وأطيب أنواع الطعام . كان بلاي أميا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان من أذكى الفتيان في المجموعة، وكان يُمتعنا بسمره وما يقصه علينا من حكايات رحلاته الى جوهانسبيرغ التي لم يزرها منا أحد سواه . لقد أثار حماسنا بحكاياته عن المناجم حتى كدت أقتنع بأن حياة المناجم أكثر سعادة من حياة الملوك . فقد كانت لعمال المناجم في تصورنا هالة خاصة، وكنا نراهم أقوياء وشجعانا والمثل الأعلى للرجولة . وأدركت فيما بعد أن تلك الحكايات المبالغ فيها هي التي كانت تدفع بالشبان والأحداث الى الهروب من القرى والأرياف والانخراط في العمل في مناجم جوهانسبيرغ حيث تدهورت حالتهم الصحية ولقي كثير منهم حتفهم، غير أن العمل في المناجم آنذاك كان من الطقوس التقليدية - كما هو الحال بالنسبة لمراسم الختان - وخرافة خدمت مصالح أصحاب المناجم أكثر مما خدمت مصالح شعبنا وأمتنا.

كان من عادات الختان أن يؤدي الفتى عملا جريئا قبل حفل الختان نفسه، وكانوا قديما يغيرون على قطعان البقر أو يخوضون معركة من المعارك. أما اليوم فقد اتسمت هذه الأعمال الاستعراضية بالدهاء أكثر من كونها بطولات حربية. وقبل مغادرتنا الى تايهالارها بليلتين اتفقنا على أن نسرق خنزيرا، وكان في مكيكيزويني رجل يملك خنزيرا مسناً خططنا لخطفه بإغرائه بشيء من رواسب البيرة المحلية المشهورة برائحتها النفاذة المفضلة لدى الخنازير وضعناه في مهب الريح المتجهة نحو الخنزير فاستهوته بسرعة وخرج من حظيرته يقتفي أثرها حتى وصل الى الفخ الذي كنا نصبناه له ووقع في أيدينا. ذبحناه وأوقدنا له نارا شويناه عليها واستمتعنا بلحمه تحت ضوء النجوم. كانت وجبة شهية لم أذق قبلها أو بعدها لحم خنزير ألذ مما أكلت تلك الليلة.

في الليلة السابقة ليوم الختان أقيم حفل ساهر تخلله غناء ورقص شاركتْ فيه بالغناء والتصفيق نسوة من القرى المجاورة. تعالت الأصوات بالطرب والغناء والموسيقى واشتد رقصنا سرعة واهتياجا فنسينا لعدة ساعات ما كان ينتظرنا عند الصباح.

بدأت الاستعدادات للختان مع بزوغ الفجر وقبل أن تغيب النجوم عن سمائها، فذهبنا برفقة الأهل والأقارب للاغتسال في مياه النهر الباردة لتطهير أجسامنا تمهيدا للختان الذي حان موعده عند منتصف النهار. طلب منا الوقوف في صف واحد بالقرب من النهر حيث اجتمع لفيف من الآباء والأمهات والأقارب من بينهم السلطان نفسه وعدد من الأعيان والمستشارين. بدأت المراسم بقرع الطبول ولم نكن نرتدي شيئا سوى الدثار، وأُمر كل منا أن يفترش دثاره على الأرض وأن يمد رجليه الى الأمام. انتابني التوتر والخوف ولم أكن أعلم كيف سيكون موقفي عند اللحظة الحاسمة. فالخوف أو الصراخ كانا من علامات الضعف وعارا ينال من رجولة المرء، وعليه فقد كنت مصمما على ألا ألحق بنفسي أو بزملائي أو وليّ أمري عارا أو إهانة. لم تكن وسائل التخدير تستعمل عند الختان وكان على المرء أن يقاسي الألم في صمت لأن العملية اختبار لشجاعته وقوة عزيمته.

لمحت بطرف عيني الى يميني رجلا نحيفا متقدما في السن يظهر من الخيمة وينحني أمام أول صبي في الصف. اهتاج الحاضرون وأصابتني قُشعريرة خفيفة لشعوري أن العملية أوشكت أن تبدأ.

كان الرجل العجوز من منطقة غكاليكالاند Gcalekaland وكان مشهورا بخبرته في الختان وها هو يستعد لأن ينقلنا من الطفولة الى الرجولة بضربة واحدة من حربته الرشيقة.

وفجاة سمعت أول الفتيان يصيح: ندي يندودا: أصبحتُ رجلاً!! وهو ما علمونا أن نقوله لحظة الختان، وبعد لحظات سمعت جاستِس يصيح بصوت مختنق مرددا العبارة نفسها، ولم يبق بيني وبين الخاتن سوى اثنين من الصبية، ويبدو أنني غفلت تماما عما يجري من حولي إذ إنني لم أشعر إلا والخاتن قد جلس أمامي. نظرت بحدة في عينيه وكان شاحب الوجه يتصفد عرقا رغم برودة الطقس، فتحركت يداه بسرعة خاطفة وكأنهما

تحت سيطرة قوة خارقة، ودون أن ينبس ببنت شفه مسك بقلفتي وشدها الى الأمام ثم نزل بحربته في حركة واحدة فشعرت وكأن نارا تأججت في عروقي ودفنت ذقني في صدري من شدة الألم، وبدا لي أن بضع ثوان قد مرت قبل أن أتذكر العبارة التقليدية ثم صحت: أصبحت رجلا!!

ألقيت بنظري الى الأسفل فرأيت جرحا أنيقا نظيفا كالخاتم ولكنني أحسست بالخجل لأنني شعرت بأن الآخرين كانوا أقوى وأكثر ثباتا مني إذ لم يتأخروا في إطلاق صيحة الرجولة كما تأخرت. وأصابني شيء من الكآبة لضعفي أمام الألم ولو للحظات ولكنني بذلت كل جهدي كي أخفي ما أنا فيه من ألم. فقد يبكي الصبي ولكن على الرجل أن يخفي ألمه!!

بختاني خطوتُ تلك الخطوة الهامة في حياة كل رجل من أبناء الكوسا وأصبح بإمكاني أن أتزوج وأن أملك بيتا خاصا بي وأن أحرث أرضي الخاصة، وأصبح من حقي حضور مجالس القبيلة وأن يؤخذ كلامي مأخذ الجد.

مُنحت ضمن مراسم الختان اسما جديدا وهو داليبهونغا Dalibhunga ومعناه "مؤسس بونغا Bungha" وهو الهيئة التقليدية التي تحكم ترانسكاي، وكنت فخورا أن أنادى بهذا الاسم الجديد الذي يعتبر لدى التقليديين من الكوسا أفضل من الاسمين اللذين مُنحتهما سابقا: روليهلاهلا ونلسون.

بعد تلك الضربة الخاطفة من يد ذلك الخاتن الماهر جاء أحد مساعديه فالتقط القلفة من الأرض وربطها في أحد أطراف الدثار الذي كنت جالسا عليه. ضمدوا جراحنا باستخدام أوراق نباتات ناعمة على طرفها أشواك تمتص الدم وغيره من السوائل والإفرازات، وعند انتهاء المراسم عدنا الى الكوخ وقد أوقدت فيه نار بالحطب الرطب تنطلق منها سحب الدخان الكثيفة التي يُعتقد أنها تعين الجروح أن تندمل بسرعة. طُلب منا أن نستلقي على ظهورنا في الكوخ المليء بالدخان وأن نبسط إحدى الساقين ونثني الأخرى. لقد دخلنا عالم الرجولة.

كان يعولنا أحد المشرفين فشرح لنا التعليمات التي ينبغي علينا أن نلتزم بها لننضم الى عالم الرجال على الوجه الأكمل. كان أول واجبات المشرف أن يدهن أجسامنا العارية الخالية من الشعر بالمغرة البيضاء من أعلى الرأس حتى إخمص القدمين فأصبحنا كالأشباح. وكان اللون الأبيض رمزا لطهارتنا ولا زلت أذكر خشونة ذلك الطلاء على جلدي.

وفي الليلة التالية ليوم الختان إذا بأحد المشرفين يتسلل الى داخل الكوخ عند منتصف الليل ليوقظنا بهدوء واحدا تلو الآخر ويامرنا بالخروج كي يدفن كل منا قلفته بعيدا عن الكوخ. وكان الغرض من تلك العملية - حسب التقاليد - هو تغييب تلك النتف الجلدية قبل أن يفوز بها السحرة فيستعملونها في الأغراض الشريرة، ولكنها ترمز كذلك الى دفن

شبابنا وطفولتنا . لم أجد في نفسي الرغبة لمغادرة الكوخ الدافيء والمشي في الظلام ولكنني اتجهت نحو الأشجار وبعد بضع دقائق أخرجت قلفتي ودفنتها في التراب، وبذلك شعرت أنني قد تخلصت تماما من كل ما تبقي من طفولتي.

كان عدد المقيمين في كل كوخ ثلاثة عشر رجلا ومكثنا فيها حتى اندملت جروحنا. وكان علينا أن نتوشح الدثار خارج الكوخ كي لا نظهر عراة أمام النساء . وكانت تلك الفترة مفعمة بالهدوء وكأنها فترة إعداد روحي لما ينتظرنا من أعباء الرجولة وتحدياتها .

في اليوم المقرر لخروجنا اتجهنا الى نهر امباشى في الصباح الباكر لنغسل المغرة البيضاء عن أبداننا، وبعد الإغتسال والتجفيف صُبغت أجسامنا مرة أخري بمغرة حمراء. وكانت التقاليد المتبعة تقتضي أن يقضي الرجل ليلته تلك مع إمرأة، ربما أصبحت زوجة له فيما بعد، فتتساقط الصبغة عن جلده نتيجة احتكاك جسدها بجسده . ولكن الذي حدث بالنسبة لي هو أنني تخلصت من المغرة بمزيج من الدهون والشحوم.

عند انتهاء فترة العزلة تضرم النار في الكوخين بما فيهما من أمتعة وتنقطع صلتنا بالطفولة انقطاعا كاملا، ويقام بالمناسبة احتفال كبير احتفاءً بانضمامنا الى عالم الرجال إذ يجتمع حشد من الأقارب والأصدقاء وأعيان القبائل المحليين لإلقاء الخطب والغناء وتوزيع الهدايا . كان نصيبي من تلك الهدايا ثورين وأربعة خراف، وأصبحت لأول مرة صاحب ثروة لا عهد لي بها من قبل وأصبحت مالكا بعد أن كنت لا أملك شيئا . لم تكن الهدايا التي استلمتها تساوي شيئا أمام تلك التي قدمت لجاستِس الذي حصل على قطيع كامل من الماشية، ولكنني أحسست بالنشوة والزهو ولم أشعر بغيرة تجاه صديقي جاستِس . فهو إبن السلطان وأنا لا أعدو أن أكون أحد مستشاريه . غمرني طول ذلك اليوم شعور بالقوة والاعتزاز فأخذت أمشي فخورا مرفوع الرأس وبدأ يراودني الأمل بأنني سأصبح يوما ما صاحب ثروة وجاه وممتلكات كثيرة.

كان المتحدث الرئيسي في ذلك اليوم الزعيم ماليغقيلي Maligqili إبن داليندييو Dalindyebo الذي أحال خطابه فجأة أحلامي الجميلة الى ظلام دامس . افتتح حديثة على الطريقة التقليدية فأثنى على احترامنا لتقاليدنا العريقة ومحافظتنا عليها ثم التفت نحونا وتغيرت لهجة حديثه بصورة مفاجئة واستطرد يقول:

> انظروا الى أبنائنا الجالسين أمامنا . إنهم شباب تبدو على وجوههم كل علامات الصحة والوسامة. إنهم زهرة قبيلة الكوسا، ومحط فخر شعبنا العريق . لقد خُتنوا بالأمس في تقليد يحمل إليهم وعدا بأنهم أصبحوا رجالا . ولكنني أقف أمامكم اليوم لأقول إنه وعد كاذب خادع لا يمكن أن يتحقق لأننا - نحن الكوسا وجميع الشعوب السوداء في جنوب أفريقيا - شعوب مهزومة . إننا عبيد في وطننا، نقيم على ترابه ولا نملكه . لا قوة لنا ولا سلطانا في أرض وُلدنا عليها، ولا نتحكم في مصيرنا بقليل أو كثير .
>
> سيذهب هؤلاء الشباب الى المدن ليعيشوا في الأكواخ الوضيعة وليحتسوا الخمور الرديئة لأننا لا نملك الأرض التي بإمكانهم أن يعيشوا عليها مع أبنائهم وأحفادهم في سعادة

وازدهـــار . إنهم سيـذهبون للعمل في مناجم الرجل الأبيض فلا يرون الـشمس أبدا ولا يتنفسون إلا الهـواء الملوث حتى تتقطع رئاهم ويتقيأون أحشاءهم وتُنهك أجسامهم . . . كل ذلك من أجل أن يعيش الرجل الأبيض في نعيم ورخاء لا مثيل لهما.
إن من بين هؤلاء الشبان زعـماءَ لن يحكموا لأننا لا نملك السلطة لنحكم أنفسنا بأنفسنا، وجنودا لن يعـرفوا القـتال لأننا لا نملك الـسلاح الذي نقـاتل به، ورجال علم لن يُعلّمـوا أحدا لأننا لا نملك مراكز للعلم والتدريس . إن قدرات هؤلاء الشبان وملكاتهم وتطلعاتهم ستـهدر جـريا وراء لقـمة العـيش وهم يؤدون أبسط الأعمـال وأحقـرها في خدمـة الرجل الأبيض. إن الهدايا التي قدمناها لهم اليوم لا تساوي شيئا لأننا عاجزون على أن نقدم لهم تلك الهدية الكبرى: الحرية والاستقلال.
إنني أعلم جيدا أن الإله قـاماتا بصير بكل شيء وأن عينه لا تنام غـير أنني يساورني بعض شك في أنه ربما غلبه النعاس، وإن كان الأمر كذلك فأرجو أن يعجل الإله بموتي كي ألقاه فأوقظه من سباته وأخبره بأن أبناء نغوبيـنغكوكا Ngubengcuka وزهرة شـعب الـكوسـا يحتضرون .

ما أن استطرد الزعيم مليغقيلي في خطابه حتى أخذ السكون، وربما الحنق كذلك، يخيم على الحـضـور، فلم يكن أحد منهم - بمن فـيهم أنا شخـصيا - في ذلك اليوم راغـبا في الاستـماع الى مـا قال. لم تحرك كلمات مليـغقيلي مشاعري ولكنهـا أجاشت الغضب في نفسي واعـتبرتُهـا كلمات نابية من رجل أحـمق لا يقدر قيـمة التعليم والمـنافع والميزات التي وفرها الرجل الأبـيض لبلادنا . فلم أكن آنذاك أرى الرجل الأبيض مِعولا للظلم والاستبداد بل كنت أراه صاحب فضل ومصدرا للخيـر تنكّر له الزعيم المتحدث أسوأ تنكر . لقـد عكر هذا الزعيم الـنزق صفو يومي ذاك وأفـسد بكلمـاته الحمقـاء ما كنت فيـه من حبـور ونشوة واعتزاز بالنفس.

ولكن - دون أن أدرك الأسبـاب - ما لبثت كلمات الـزعيم أن أخذت تفعل فـعلها في نفـــسي . لقد بذر الزعيم في شـعوري بذرة لن تجد سبيلهـا الى النمو ولن تؤتي ثمارها في حياتي إلا بعد فترة طويلة من الزمن . وفطنت فيما بعد إلى أنني كنت أنا الجاهل ذلك اليوم وليس الزعيم مليغقيلي.

بعد نهاية الاحتفال ذهبت أجر قدميّ الى ضفة النهر المتعرج نحو مصبه الأخير على بعد عـدة أميـال في المحـيط الهندي . ألقيت ببـصري نحو مـجرى النهر الذي لم أعـبره قط ولا أعرف شيئا عن العالم الموجود خلفه والذي أحسـست في ذلك اليوم أنه يناديني . قـاربت الشمس الغروب ولم أتمالك نفسي فانطلقت الى البقعة التي كنا نقيم فيها أثناء عزلة الختان، رغم أن التقاليد لا تجـيز العودة الى الأكواخ وهي تحترق، فلم أجـد سوى كومين من الرماد الى جانب شجرة كبـيرة من شجر السّنط . تأملت في ذلك الرماد الذي اكتنف عـالما سعيدا أصبح مـفقودا . إنه عالم طفولتي وأيامي الحلوة البريئة التي عـشتها في قونو ومكيكيزويني. أما الآن فـقد أصبـحت رجلا ولن يتسنى لي لعب التـنتي أو التسلل لسرقـة الذرة أو شرب

الحليب من ضرع البقرة. لقد حزنت حدادا على طفولتي التي ولّت. وما عدت بذاكرتي الى ذلك اليوم المشهود إلا وتبين لي أن رجولتي لم تكتمل حقا الا بعد سنوات طويلة من ذلك التاريخ.

- ٥ -

لم يكن من نصيبي - خلافا لغالبية الشبان الذين شاركوني مراسم الختان - أن أعمل في مناجم الذهب الواقعة في السلسلة الصخرية المتاخمة للمحيط، والمعروفة بالأنجليزية باسم Reef . ولطالما أخبرني السلطان بأنه ليس من صلاح شأني أن أقضي حياتي في استخراج الذهب للرجل الأبيض ولا أتعلم حتى كتابة اسمي . لقد كان قدري أن أصبح مستشارا لساباتا وهي مهمة من شروطها الأساسية التعليم.

لم أمكث في مكيكيزويني بعد الختان مدة طويلة إذ كان علي أن أعبر نهر امباشى لأول مرة في الطريق الى معهد كلاركبيري Clarkebury الداخلي بمقاطعة انغكوبو Engcobo .

ها أنا ذا أغادر موطني مرة أخرى ولكنني كنت متشوقا الى تجربتي الجديدة في عالم أكبر . أوصلني السلطان بنفسه في سيارته الفارهة - فورد في-٨ - الى انغكوبو Engcobo . ولكن قبل أن أغادر أقام لي حفلا بمناسبة اجتيازي المستوى الخامس في المدرسة وقبولي في معهد كلاركبيري، ذبحت فيه شاة وحفل بالطرب والرقص . وكان ذلك أول احتفال يقام على شرفي قط واستمتعت به أيما استمتاع. وأهدى إلي السلطان أول حذاء لبسته في حياتي، وكان ذلك أيضا من علامات الرجولة، فأقمت الليل كله أنظفه وألمعه رغم أنه لم يكن بحاجة الى تلميع أو تنظيف. يقع معهد كلاركبيري الذي أسس عام ١٨٢٥ على أرض واحدة من أعرق البعثات التبشيرية الميثودية في إقليم ترانسكاي، وكان أعلى معهد لتعليم الأفريقيين في تيمبولاند . فقد تخرج منه السلطان نفسه وابنه جاستِس من بعده ويضم المعهد مدرسة ثانوية وكلية لتدريب المعلمين إضافة الى ما كان يقدمه من دورات في مجالات عملية حِرفية كالنجارة والخياطة والحدادة.

في أثناء الرحلة قدم الي السلطان عدة نصائح تتعلق بسلوكي وتصرفاتي ومستقبلي، وحثني على التصرف بالأسلوب اللائق الذي من شأنه أن يعود عليه وعلى ساباتا بالاحترام والتقدير فأكدت له أنني سأفعل . ثم أعطاني نبذة عن شخصية مدير المعهد القسيس سي هاريس Reverend C. Harris الذي قال إنه رجل فريد في نوعه لأنه أبيض ولكنه من التيمبو . فهو رجل أبيض يفهم التيمبو ويحبهم من صميم قلبه . وأخبرني السلطان بأنه سيأتمن القسيس هاريس على إبنه وصي العرش ساباتا عندما يكبر ليعلمه الدين المسيحي ويدربه على فنون الحكم والقيادة . ونصحني بأن أتعلم أنا أيضا من القسيس هاريس لأنني سأكون الموجه والمرشد للزعيم الذي سينشئه القسيس.

لقد قابلت في مكيكيزويني كثيرا من التجار والمسؤولين البيض من حكام محليين ورجال شرطة وهم من الشخصيات المرموقة الذين كان السلطان يستقبلهم بأدب وحفاوة في غير خنوع أو تذلل ويعاملهم بمثل ما كانوا يعاملونه . وقد شاهدته في مناسبات نادرة جدا يؤنبهم ويحتد في نقدهم .

كانت خبرتي في التعامل المباشر مع البيض محدودة جدا، ولم يعلمني السلطان شيئا من ذلك غير أنني كنت أرقبه وأقتدي به، وكان حديثه لي عن التصرف حيال القسيس هاريس هو المرة الأولى التي يقدم لي فيها توجيهات محددة في السلوك الشخصي وطلب مني أن أبدي للقسيس ما أبديه له هو من احترام وطاعة.

كان معهد كلاركبيري أفخم حتى من مكيكيزويني ,وتضم المدرسة نحو خمسة وعشرين من المباني الأنيقة المبنية على الطراز الاستعماري وتشمل المساكن الخاصة الفردية والجماعية ومكتبة وعددا من الفصول الدراسية، وهي أول مكان غربي صِرف أقيم فيه . وشعرت منذ الوهلة الأولى أنني أدخل عالما جديدا لا أفقه بعد كل نظمه وقواعده.

دخلنا مكتب القسيس هاريس وقدمني له السلطان فمددت يدي اليه لأصافحه، وكانت تلك المرة الأولى التي اصافح فيها رجلا أبيض . كان القسيس هاريس دافئا ودودا وكان يعامل السلطان باحترام شديد، فبين له السلطان أنهم يعدونني لأصبح مستشارا للملك معبرا عن ثقته بأن القسيس سيوليني اهتمامه ورعايته الخاصة. كان القسيس يهز رأسه موافقا ثم أضاف أن من واجبات الطلاب أداء بعض الأعمال اليدوية بعد الانتهاء من الدروس، وأنه سيرتب لي أن أتولى العمل في حديقة منزله.

في ختام المقابلة وبينما كان السلطان يودعني أعطاني ورقة نقدية من فئة الجنيه لمصاريفي الخاصة - وكان ذلك أكبر مبلغ امتلكته في حياتي حتى ذلك الحين - فودعته وتعهدت له بأنني لن أخيب أمله في.

يعتبر معهد كلاركبيري تابعا للتيمبو إذ أنه أقيم على أرض تبرع بها نغوبينغكوكا ملك التيمبو العظيم، وعليه فقد افترضت أنني سألقى فيه الاحترام نفسه الذي لقيته من قبل في مكيكيزويني بحكم كوني من سلالة ذلك الملك العظيم . ولكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا أشد الخطأ في تقديري إذ وجدت نفسي أعامل معاملة تختلف عن جميع من حولي . فلم يكن أحد يعلم - أو يعبأ - إن كنت من سلالة نغوبينغكوكا الشهير أم لا، بينما استقبلني المشرف على السكن ببرود تام ولم ينحن الطلاب أمامي إجلالا أو يفسحوا لي الطريق. كان في المعهد كثير من أبناء السلالات العريقة والنسب العالي ولم أعد أتميز عنهم بشيء .

كان ذلك درسا قيما تعلمته إذ تسرب الى نفسي شيء من الغرور، ولكنني فطنت بسرعة الى ضرورة أن أشق طريقي بناء على ما أملك من قدرات وليس بحكم نسبي أو عرقي خاصة وأن أغلب زملائي في المعهد كانوا قادرين على التفوق عليّ في حلبة السباق وفي مجالات العلم والمعرفة وكان عليّ قطع مسافات طويلة حتى ألحق بهم.

افتتح الموسم الدراسي في صباح اليوم التالي وصعدنا السلم الى الفصول الدراسية في الطابق الأول. كانت غرف الدراسة ذات أرضية من الخشب اللامع، وكنت أرتدي حذائي الجديد ولأول مرة في حياتي فصرت أمشي كالجواد المنعّل تُسمع لوقع خطواتي قرقعة مزعجة وأنا أصعد السلم، وكدت أن أفقد توازني أكثر من مرة . وفيما أنا داخل الى الفصل

أطرق بقدمي أرضه الخشبية لمحت فتاتين جالتسين في الصف الأول تراقبان مشيتي المثيرة وهما في غاية الجذل. مالت أجملهما نحو الأخرى وقالت بصوت مسموع:

- إبن الريف لم يتعود على لبس الأحذية.

ضحكت صديقتها بينما اشتطت أنا حنقا وتملكني خجل شديد.

كانت تلك الفتاة تدعى ماتونا Mathona وكانت على قدر من الذكاء والخبث، وعاهدت نفسي يومها ألا أكلمها أبدا. ولكن، شيئا فشيئا، وبمجرد أن استعدت كرامتي ومسحت عاري وتعودت على المشي بالحذاء تعرفت على ماتونا من قرب وصارت صديقتي المفضلة في كلاركبيري. أصبحت ماتونا أول صديقة أتعرف عليها من كثب وأتعامل معها على قدم المساواة وأثق بها وأفضي لها بأسراري، وأصبحت صداقتي معها، لعدة اعتبارات، نموذجا لكل علاقاتي مع الجنس الآخر فيما بعد. فقد وجدت أنني أرتاح كثيرا لصحبة النساء فأبوح لهن بكل ما في نفسي، وأتحرر في صحبتهن من عقدي ومخاوفي بطريقة لا أجدها في علاقتي مع الرجال.

تعودت على أسلوب الحياة في كلاركبيري خلال فترة وجيرة من الزمن وشاركت في النشاطات الرياضية والألعاب كلما سنحت لي الفرصة ولكنني لم أرتق الى أعلى من المستوى العادي جدا. كنا نلعب التنس بمضارب من خشب نصنعها بأيدينا ونلعب كرة القدم حفاة في حقول الرمل، وكنت أمارس الرياضة من أجل الرياضة وليس من أجل المجد أو البطولة اللذين لم أحرز منهما شيئا يذكر.

في كلاركبيري تلقيت الدرس على أيدي معلمين مؤهلين ومدربين لأول مرة في حياتي، وكان بعضهم يحمل شهادات جامعية وهو من الأمور النادرة آنذاك. وبينما كنت أراجع درسي يوما في صحبة ماتونا أسررت لها بتخوفي من أنني ربما أخفقت في امتحانات نهاية السنة في اللغة الانجليزية والتاريخ، ولكنها طمأنتني بأن المعلمة غيترود انتلاباتي Gertrude Ntlabathi قديرة جدا وهي أول أفريقية تنال شهادة الليسانس الجامعية في الآداب ولن ترضى لأحد منا أن يسقط في الامتحان. لم أكن تعلمت بعد التظاهر بمعرفة ما لا أعرف فسألت ماتونا: ما هي الليسانس؟ فأعطتني جوابا لم أشك يومها في صحته إذ قالت:

- إنه كتاب ضخم ومعقد جدا.

كان من حملة الليسانس الأفريقيين أيضا المدرس بن ماهلاسيلا Ben Mahlasela الذي كنا نحبه ونعجب به ليس لمجرد تفوقه في العلم ولكن لأنه لم يكن يخشى القسيس هاريس الذي كان البيض أنفسهم يتوددون إليه. أما ماهلاسيلا فقد كان يدخل عليه مكتبه بأنفة ولا يحييه برفع قبعته أحيانا. كان ماهلاسيلا يواجه القسيس مواجهة الند للند ويخالفه الرأي في أمور يسكت عنها الآخرون. ومع احترامي للقسيس هاريس كنت معجبا برفض ماهلاسيلا الخنوع له، فقد كان يتوقع في تلك الأيام من حامل شهادة الليسانس الأسود أن يحني رأسه

احتراما لأي رجل أبيض لم يكمل المرحلة الإبتدائية. فمهما تقدم الرجل الأسود يظل أقل مرتبة من أدنى رجل أبيض.

كان القسيس هاريس يدير شؤون معهد كلاركبيري بيد من حديد وبروح ثابتة من الانضباط والعدالة والإنصاف وكان المعهد أشبه ما يكون بكلية عسكرية . فكان يعاقب الطلاب على أدنى المخالفات، وكان يقف أمام الطلاب في طابور الصباح مقطب الوجه ولا يميل الى المرح أو المزاح بأي شكل من الأشكال . وكلما دخل القسيس هاريس الحجرة وقف لتحيته جميع أعضاء التدريس - البيض منهم والسود على حد سواء.

كان الطلاب يخشونه أكثر من أنهم يحبونه، ولكنني عندما كنت أعمل في حديقته كنت أجد شخصية أخرى غير التي عرفت في الكلية . وقد استفدت من عملي ذاك في اتجاهين: حبي للحدائق والزراعة وتعرفي من قرب على القسيس هاريس وأفراد عائلته التي كانت أول عائلة من البيض ربطتني بها علاقة حميمة . وتبين لي من خلال تلك العلاقة أن للقسيس هاريس شخصيتن مختلفتين تماما: إحداهما رسمية وأخرى خاصة.

كان خلف ذلك القناع القاسي للقسيس هاريس رجل لطيف المعشر ذو أفق واسع وإيمان عميق بأهمية تعليم الشبان الأفريقيين، ولطالما وجدته مستغرقا في التفكير في زوايا الحديقة فلم أزعجه ونادرا ما كنت اتحدث إليه . لقد كان القسيس هاريس باعتباره رجلا سخيا جرد حياته لهدف نبيل يمثل نموذجا أصيلا ومهما بالنسبة الي .

أما زوجته فقد كانت ثرثارة كثيرة الكلام ولكنها دمثة ومحبوبة، وكانت كثيرا ما تخرج الى الحديقة للحديث معي رغم أنني مهما حاولت الآن لا أتذكر من أحاديثها شيئا . بيد أنني لا زلت أتذوق طعم كعكاتها الساخنة اللذيذة التي كانت تقدمها لي عند العصر في الحديقة.

بعد بداية بطيئة وعادية جدا أخذت اتمرس في العمل والدراسة وأتقدم في برامجي الدراسية وأنهيت المرحلة الإعدادية في سنتين بدلا من ثلاث سنوات . اشتهرت في المعهد بقوة ذاكرتي ولكنني كنت في حقيقة الأمر مثابرا على الدراسة . انقطعت عني أخبار ماتونا لأنها كانت تتردد على الكلية أثناء النهار فقط ولم يكن بإمكان والديها أن يجعلاها تواصل تعليمها العالي . كانت ماتونا فتاة موهوبة على درجة عالية من الذكاء ولم يعرقل تقدمها في التعليم سوى امكانيات أهلها المادية المحدودة، وكانت تلك ظاهرة عامة في جنوب أفريقيا التي لم يَحد من تقدم أهلها وتطورهم ضعفٌ في قدراتهم العقلية أو الفكرية ولكن قلة الفرص المتاحة لهم.

لقد وسعت تجربتي في كلاركبيري من آفاقي ومداركي ولكنني لا أدعي أنني عندما غادرتها كنت قد تحررت تماما من تعصبي وتحيزي لأفكاري . لقد تعرفت على طلاب من جميع أنحاء ترانسكاي ومن جوهانسبيرغ ومن باسوتولاند Basutoland - كما كانت ليسوتو Lesotho تعرف آنذاك. كان بعضهم على درجة عالية من التطور والتحرر من

التقاليد مما أظهر قرويتي الأصيلة على حقيقتها. ورغم أنني كنت أحاكيهم في سلوكهم وأسلوب حياتهم لم يكن يخطر ببالي أنه بإمكاني أن أضاهيهم أو أتفوق عليهم في خبرتهم بالشؤون الدنيوية . ومع ذلك فلم أشعر نحوهم بحسد أو غيرة لأنني كنت أشعر وأنا أغادر كلاركبيري بأنني لا زلت في داخلي قرويا من أبناء التيمبو وكنت فخورا بأنني أفكر وأتصرف كأحد أبناء التيمبو . كنت أحس أن أصولي هي منبع قدري في الحياة وكان اعتقادي راسخا بأنني سأصبح مستشارا للملك التيمبو تحقيقا لرغبة ولي أمري . لم يكن تفكيري يتجاوز حدود تيمبولاند وكنت أعتقد بأن كوني من أهل التيمبو هو أكثر ما يحسد عليه المرء في هذه الدنيا .

- ٦ -

التحقت عام ١٩٣٧ وأنا في التاسعة عشرة من عمري بصديقي القديم جاستِس في كلية هيلدتاون Healdtown الميثودية بمدينة فورت بوفورت Fort Beaufort الواقعة نحو ١٧٥ ميلا جنوب غرب أومتاتا Umtata. وكانت فورت بوفورت في القرن التاسع عشر إحدى المواقع العسكرية البريطانية أثناء ما يسمى بحروب الحدود Frontier Wars التي استولى فيها المستوطنون البيض تدريجيا وبصورة منظمة على أراضي قبائل الكوسا وأجلوهم عنها. برز أثناء تلك الحروب التي استمرت قرنا كاملا عدد كبير من مقاتلي الكوسا الشجعان أمثال سانديلى Sandile وكذلك ماخاندا Makhanda ومقوما Moqoma اللذين اعتقلتهما السلطات البريطانية في جزيرة روبن Robben Island حيث قضيا بقية حياتهما. لم يبق من آثار تلك المعارك في هيلدتاون عند وصولي إليها سوى أن فورت بوفورت أصبحت مدينة للبيض بعد أن كانت موطنا للكوسا دون سواهم.

كانت كلية هيلدتاون أجمل وأفخم من كلاركبيري، وكانت تقع عند نهاية طريق متعرج وتطل على وادٍ مخضر وكانت آنذاك أكبر كلية أفريقية جنوب خط الإستواء ضمت أكثر من ألف طالب من الجنسين. لقد أضحت بفعل مبانيها ذات المعمار الاستعماري المهيب المغطاة بأوراق شجر اللبلاب وساحاتها المظللة بالأشجار واحة تعليمية متميزة، وكانت هي الأخرى مركزا تبشيريا تابعا للكنيسة الميثودية تدرس فيها العلوم والآداب المسيحية والفنون الليبرالية التي تعتمد النظام الإنجليزي في التعليم.

كان مدير الكلية رجلا بدينا منغلق الفكر يدعى الدكتور آرثر ويللينغتون Arthur Wellington وكان يفتخر بانتمائه لسلالة دوق ويللينغتون الشهير Duke of Wellington. وكان من عادته أن يفتتح طابور الصباح بقوله:

- أنا حفيد الأرستقراطي ورجل الدولة الجنرال دوق ويللينغتون العظيم الذى دحر الفرنسي نابوليون Napoleon في معركة ووترلو Waterloo وأنقذ الحضارة من أجل أوربا ومن أجلكم أيها المواطنون الأصليون.

وكنا نرد على ذلك بالتصفيق الحاد تعبيرا عن شكرنا وامتناننا الجزيل لحفيد الدوق العظيم على تفضله بتعليم بشر من أمثالنا نحن السكان المحليين. لقد كان الرجل الإنجليزي المتعلم مثلنا الأعلى وما كان أحدنا ليطمح الى أن يصبح أكثر من "جينتلمان أسود" كما كنا أحيانا نصف أنفسنا بشيء من السخرية. لقد عُلّمنا - واعتقدنا فعلا - أن أفضل الأفكار هي الأفكار الإنجليزية وافضل الحكومات هي الحكومة الإنجليزية وأفضل الرجال هم الرجال الإنجليز.

كانت الحياة في هيلدتاون قاسية. ينطلق جرس الصباح الأول عند السادسة لنجتمع في السادسة وأربعين دقيقة في قاعة الطعام لتناول الفطور الذي يتكون من الخبز المحمص والماء

الدافيء المخلوط بالسكر تطل علينا من الجدار صورة ملك انجلترا جورج السادس George VI بوجهه المتجهم. كنت أكتفي بتناول الخبز المحمص جافا وكان الموسرون من الطلاب يشترون الزبدة ويأكلونها مع الخبز.

في الثامنة نتجمع مرة أخرى في الفناء الخارجي في طابور "الملاحظة" فنقف صفا في حالة استعداد بينما تتجمع الفتيات من مساكنهن المختلفة. تستمر الدروس حتى منتصف النهار وخمس وأربعين دقيقة نتجه بعدها الى تناول طعام الغداء وهو عبارة عن جريش من الذرة واللبن الحامض والفاصوليا وشيء من اللحم أحياناً. تستأنف الدروس بعد ذلك حتى الخامسة بعد الظهر حين نستريح لمدة ساعة تتخللها تمرينات رياضية ووجبة العشاء، ثم نختتم يومنا بالمذاكرة من السابعة وحتى التاسعة استعدادا للنوم عند التاسعة والنصف وهو الموعد الذي تطفأ فيه الأنوار.

يفد الى هيلدتاون طلاب من جميع أنحاء البلاد إضافة الى محميات باسوتولاند وسوازيلاند Swaziland وبيتشوانالاند Bechuanaland. ورغم أنها كانت مؤسسة للكوسا بالدرجة الأول فقد التحق بها طلاب من مختلف القبائل، وكان ديدن الطلاب من كل قبيلة – بمن فيهم طلاب عشائر الكوسا المختلفة – الالتقاء في جماعات صغيرة خارج أوقات الدرس وفي العطلات الأسبوعية، كل مع أبناء قبيلته أو عشيرته. ورغم اتباعي ذلك التقليد إلا أنني تعرفت في هيلدتاون على أول صديق لي من الناطقين بلغة سوتو Sotho وهو زكريا موليتي Zachariah Molete وكانت صداقتي لشاب من خارج الكوسا تبعث فيّ شعورا بالجرأة والجسارة.

كان مدرس علم الحيوان واسمه فرانك ليبينتليلى Frank Lebentlele من السوتو ويتكلم لغتهم، وكان لطيفا ذا شخصية جذابة وشعبية كبيرة بين الطلاب. لم يكن فارق السن بيننا وبين فرانك كبيرا وكان يختلط بالطلاب بلا تكلف بل وكان أحد لاعبي فريق الكلية الأول لكرة القدم ونجمه اللامع. ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو زواجه من فتاة من الكوسا في أومتاتا، إذ كان التزاوج بين القبائل آنذاك من الأمور النادرة جدا، بل كنا نُلقّن أنه محرم، ولم أكن حتى ذلك التاريخ أعرف أحدا تزوج من خارج قبيلته. غير أن ما رأيته من شأن فرانك وزوجته أخذ يهز من سيطرة العقلية القبيلية عليّ والتي ما زلت آنذاك أسيرا لها، وبدأ ينمو في نفسي إحساسي بهويتي الأفريقية بدلا من مجرد كوني من التيمبو أو الكوسا، وإن كان ذلك الإحساس في بداياته بعد.

كان عنبر النوم يحتوي على أربعين سريرا، عشرون على كل جانب من الممر الرئيسي، وكان المشرف على القسم الداخلي هو القسيس المحبوب أس أس موكوتيمي S S Mokotimi الذي أصبح فيما بعد أول أفريقي يترأس الكنيسة الميثودية في جنوب أفريقيا. كان القسيس موكوتيمي يتكلم لغة السوتو وكان الطلاب معجبين بشخصيته العصرية المتفتحة وبتفهمه لقضاياهم ومشاكلهم. ولكننا كنا معجبين به أكثر لسبب آخر الا وهو جرأته في مواجهة الدكتور ويللينغتون. ففي إحدى الليالي نشب شجار بين اثنين من العرفاء في الشارع

الرئيسي في حرم الكلية، ومن واجب العرفاء - بطبيعة الحال - المحافظة على النظام ومنع المشاجرات وليس إثارتها أو الدخول فيها، فنودي على القسيس موكوتيمي لفض النزاع. وفجأة ظهر الدكتور ويللينغتون وسط الهرج والمرج وقد وصل عائدا من المدينة ودُهشنا جميعا لوصوله أشد دهشة وكأن الإله نزل بعظمته من السماء ليبت بنفسه في تلك المشكلة البسيطة.

وقف الدكتور ويللينغتون منتصبا رافعا رأسه الى السماء وطالب بأن يعرف تفاصيل ما يجري، فأجابه القسيس موكوتيمي، الذي لم يكن رأسه ليبلغ كتفي الدكتور ويللينغتون، بكل أدب:

- كل شيء على ما يرام وسأوافيك غدا بتقرير كامل.

لم يكن الرد شافيا بالنسبة للدكتور ويللينغتون فقال في حدة وانزعاج:

- كلا . أريد أن أعرف الموضوع الآن وفورا.

تمسك القسيس موكوتيمي بموقفه قائلا:

- يا دكتور ويللينغتون! أنا المسؤول على العنبر، وقد أكدت لك أنني سأوافيك غدا بتقرير حول ما حصل الليلة وسأوفي بوعدي.

ذُهلنا لذلك الموقف لأننا لم نعرف أحدا من قبل، فضلا عن رجل أسود، تصدى للدكتور ويللينغتون بهذه الجرأة، وانتظرنا لحظة الإنفجار! ولكن الدكتور ويللينغتون لم يزد على أن قال: "حسنا!" ثم انصرف.

وهنالك فطنت الى أن الدكتور ويللينغتون لم يكن إلاها وأن القسيس موكوتيمي أكثر من مجرد إمعة، وأنه ليس من واجب الرجل الأسود أن يخنع لنظيره الأبيض بصورة أوتوماتيكية مهما علت مرتبته .

دأب القسيس موكوتيمي على السعي الى إجراء بعض الإصلاحات في كلية هيلدتاون ووقفنا جميعا الى صفه لتحسين مستوى الطعام وأسلوب معاملة الطلاب بما في ذلك اقتراح بأن يتولى الطلاب تأديب ومحاسبة أنفسهم بأنفسهم . غير أننا كنا قلقين، وخاصة منا القادمين من الأرياف، حول أحد المقترحات الجديدة التي تقدم بها القسيس موكوتيمي وهو السماح للطلاب والطالبات بتناول وجبة الغداء معا في قاعة واحدة أيام الأحد . كنت من المعترضين بشدة على هذا الاقتراح لأنني لم أزل عاجزا عن استعمال الشوكة والسكين بطريقة صحيحة أثناء الأكل، ولم أكن لأحرج مرة أخرى أمام أولئك الفتيات ونظراتهن الثاقبة، ولكن القسيس موكوتيمي أصر على رأيه ونفذ الإقتراح، وأصبحت أغادر قاعة الطعام كل أحد جائعا مكتئبا!!

أما في الميادين الرياضية فقد كنت في غاية المتعة، وكان مستوى الألعاب الرياضية في هيلدتاون أفضل بكثير منه في كلاركبيري . لم أكن في السنة الأولى بالمستوى الذي يؤهلني

للانضمام الى أي من الفرق الرياضية، ولكن صديقي لوك إندزاميلا Locke Ndzamela بطل هيلدتاون في سباق الحواجز شجعني على ممارسة عدو المسافات الطويلة مشيرا الى أن طولي الفارع يعتبر ميزة أساسية في مثل تلك الرياضة. شرعت في التدريب على عدو المسافات الطويلة وكان لوك يقدم إلي النصائح والارشادات، وقد استمتعت فعلا بروح الانضباط التي تتطلبها تلك الرياضة والعزلة التي مكنتني من الهروب من صخب الحياة المدرسية وضجيجها. كما أنني في تلك الفترة نفسها اتجهت الى ممارسة رياضة أخرى كانت مؤهلاتي لها أقل ألا وهي الملاكمة التي كنت أمارسها على انفراد لعدة سنوات قبل أن يزداد وزني وأصبحت حينها أمارسها بجدية.

في السنة الثانية أُخترت عريفا من قبل القسيس موكوتيمي والدكتور ويللينغتون. ومهمة العريف تشمل واجبات متعددة كان أسوأها يوكل الى العرفاء الجدد. كلفت في البداية بالإشراف على الطلاب القائمين على تنظيف النوافذ عند المساء خلال فترة الأعمال اليدوية وكنت أقودهم كل يوم الى مبنى مختلف في الكلية، وسرعان ما رُقيت لأتولى مهمة الحراسة الليلية. لم أكن أجد صعوبة في السهر ولكنني وجدت نفسي في إحدى الليالي أمام معضلة أخلاقية كبيرة لا تزال ذكراها عالقة بذهني.

لم يكن عنبر النوم مزودا بمراحيض، وكان الطلاب يستعملون مبنى خارجيا لذلك الغرض على بعد نحو مائة قدم خلف المبنى السكني، وفي الليالي الممطرة يتثاقل الطلاب عن الخروج اليه والمشي في الأعشاب والوحل ويكتفون بقضاء حاجتهم في الأحراش القريبة أو التبول من الشرفة. كان هذا التصرف مخالفة صريحة للتعليمات وكان من واجب العريف أن يسجل أسماء جميع الطلاب الذين يرتكبون تلك المخالفة.

وفي ليلة شديدة المطر كنت أتولى الحراسة فضبطت نحو خمسة عشر طالبا متلبسين بالجريمة يتبولون من شرفة العنبر. وقبيل الفجر رأيت أحد الطلاب يخرج من المبنى ويتلفت يمنة ويسرة ثم يقف على حافة الشرفة ليتبول فاتجهت نحوه مناديا أنني ضبطته فالتفت الي وإذا به أحد العرفاء، فوجدت نفسي في حيرة شديدة. فالقانون والمنطق يقول: "من يحرس الحراس؟" وإذا لم يحترم العرفاء التعليمات فكيف نتوقع من الطلاب أن يحترموها. إن العريف - في واقع الأمر - فوق القانون لأنه يمثل القانون، ثم إن العريف لا يرفع تقريرا في عريف آخر! ولكنني أحسست أنه ليس من الإنصاف أن أغض الطرف عن ذنب ذلك العريف وأرفع تقارير في الطلاب الآخرين، فمزقت القائمة بأكملها ولم أبلغ عن أحد منهم شيئا.

عند اقتراب نهاية السنة الأخيرة من إقامتي في هيلدتاون وقعت حادثة كان لها على وقع الشهاب وهو يخترق السماء إذ أعلن أن شاعر الكوسا العظيم كروني امقهاي Krune Mqhayi سيزور الكلية. وامقهاي في الحقيقة من شعراء المديح وهم أشبه بالمؤرخين الذي يسجلون أحداث الماضي والحاضر بشعر مرتجل ذي معان قومية خاصة.

أعلن يوم الزيارة عطلة رسمية وتجمع كل العاملين والطلاب - سودا وبيض - عند

الصباح في قاعة الطعام التي كانت تقام فيها عادة التجمعات الكبيرة ونصبت في جانب منها منصة خاصة بجوار باب يؤدي الى بيت الدكتور ويللينغتون. لم تكن للباب نفسه ميزة خاصة ولكنه اشتهر بيننا بباب الدكتور ويللينغتون لأن أحدا سواه لا يستعمله.

فتح الباب فجأة، وبدلا من أن يدخل الدكتور ويللينغتون دخل رجل أسود يرتدي ثوبا بدائيا من جلد النمور وقبعة حاملا رمحا في يده اليمنى وآخر في يده اليسرى يتبعه الدكتور ويللينغتون. من الصعب أن أصف وقع ذلك المشهد في نفوسنا ونحن نرى ذلك الرجل الأسود وهو يدخل القاعة بملابسه التقليدية إلا أن أقول إنه كان أشبه بالصعقة الكهربائية. انقلبت الدنيا في أعيننا رأسا على عقب، وبينما أخذ الشاعر امقهاي مقعده بجانب الدكتور ويللينغتون على المنصة ظلت العاصفة تهز جدران القاعة.

وأقر بأنه ما إن وقف امقهاي ليتحدث حتى أصبت بخيبة أمل كبيرة. فقد كنت أتوقع أن أرى رجلا طويل القامة يشع جرأة وذكاء كأولئك الأبطال من الكوسا الذين كنت أحلم بهم في مخيلتي اليافعة. ولكنني وجدته شخصا عاديا جدا لا يميزه سوى مظهره، وعندما تحدث بلغة الكوسا كان حديثه بطيئا ومتقطعا، وكان كثيرا ما يتوقف بحثا عن العبارات وإن أسعفته تلعثم في نطقها.

انفعل امقهاي أثناء الحديث فرفع رمحه في الهواء وإذا به يضرب سلك الستارة بصوت مزعج فأخذت الستارة تتأرجح. نظر امقهاي في رمحه بإمعان ثم نظر في سلك الستارة وأخذ يروح جيئة وذهابا على المنصة مستغرقا في التفكير، وبعد هنيهة توقف واتجه إلينا وقد امتلأ حيوية ليخبرنا بتعجب شديد أن ما حدث قبل قليل إنما يرمز الى الصدام بين الحضارتين: الأفريقية والأوروبية. قال امقهاي بصوت مرتفع:

– إن الرمح يمثل تاريخ أفريقيا الأصيل المجيد، فهو رمز الأفريقي المحارب والأفريقي الفنان.

ثم أشار الى أعلى وقال:

– أما السلك فهو مثال للتصنيع الغربي، فيه مهارة وذكاء لكنه جامد لا روح فيه.

واستطرد الشاعر يقول:

– إن ما أتحدث عنه ليس مجرد احتكاك قطعة من العظام بقطعة من المعدن، ولا هو مجرد تداخل الثقافات بعضها مع بعض، وإنما أحدثكم عن الصدام الشرس بين ما هو فطري وجميل وما هو أجنبي وقبيح. يجب الا نسمح للأجانب الذين لا يحترمون ثقافتنا بأن يسيطروا على أمتنا، وها أنا أؤكد لكم أن قوى المجتمع الأفريقي ستنتصر يوما ما انتصارا هائلا على الدخلاء. لقد استسلمنا طويلا لآلهة الرجل الأبيض المزيفة ولكننا سننهض وسننفض عنا تلك الأفكار الدخيلة.

لم أكد أصدق ما سمعت. لقد أدهشتنا جرأة ذلك الشاعر في التعرض لمثل تلك القضايا الحساسة في حضور الدكتور ويللينغتون وغيره من الشخصيات من البيض، ولكن أفكاره

أثارت حماسنا وألهبت مشاعرنا وفعلت فعلها في تغيير فهمي لرجال مثل الدكتور ويللينغتون الذي لم أتردد في اعتباره صاحب فضل علي شخصيا.

انطلق الشاعر امقهاي يلقي قصيدته الشهيرة، ولم أكن سمعتها من قبل، التي يقسم فيها نجوم السماء على الأمم البشرية في العالم. ظل يجوب المنصة وهو يومىء برمحه نحو السماء قائلا:

- يا شعوب أوربا الفرنسيين والألمان والإنجليز، إنني أعطيكم مجرة التّبانة، أكبر كوكبة من النجوم، لأنكم أمم غريبة يسيطر عليها الجشع والحقد وتتقاتلون طمعا في متاع الدنيا.

ثم أردف فمنح نجوما أخرى لشعوب آسيا والأمريكتين، وجاء على أفريقيا فقسم شعوبها الى أمم مختلفة وأعطى كل قبيلة الكوكبة التي تناسبها وهو لا يكف عن الحركة والقفز على المنصة ملوحا برمحه ومغيرا من نبرات صوته كما يحلو له. وفجأة توقف وخفّت صوته، وباشر في الهبوط بجسمه نحو الأرض حتى جلس على إحدى ركبتيه وقال مناديا:

- أما أنتم يا شعب الكوسا فتعالوا لأعطيكم أعلى النجوم وأروعها. إنني أعطيكم نجم الفجر (الزهرة) لأنكم شعب عزة وعظمة، وهو النجم الذي تحسب به سنوات الرجولة.

وهنا أسدل رأسه على صدره ووقفنا نحييه ونصفق إجلالا له. وما كنت أريد أن أتوقف عن التصفيق إذ تملكني شعور عارم بالعزة والفخر ليس كافريقي وحسب ولكن كأحد أبناء الكوسا، وشعرت بأنني واحد من أبناء شعب الله المختار.

كنت في حالة من الانفعال والهيجان شديدة، واختطل الأمر علي بعض الشيء. فقد انتقل امقهاى في حديثه من موضوع قومي شامل عن الوحدة الأفريقية الى قضية ضيقة محدودة خاصة بشعب الكوسا الذي ينتمي اليه. وكنت في تلك المرحلة النهائية من دراستي في هيلدتاون يراودني كثير من الأفكار الجديدة عليّ بل والمتناقضة أحيانا. بدأت أفطن الى أن الأفريقيين على اختلاف قبائلهم تجمعهم أرضية مشتركة، وتساءلت: ما بال هذا الشاعر العظيم يكيل المديح للكوسا دون سواهم؟ وأدركت أنه بإمكان الرجل الأفريقي أن يتصدى للرجل الأبيض ولكنني لم أتوقف عن طلب المنفعة لدى البيض وهو ما يستدعي في غالب الأحيان التذلل إليهم. لقد عكست تقلبات امقهاي ما يدور في ذهني رأسا على عقب لأن أفكاري كانت تتأرجح بين الاعتزاز بانتمائي للكوسا وبين شعوري بالقرب من الأفريقيين الآخرين. وما أن غادرت هيلدتاون آخر السنة حتى كنت أرى نفسي أنتمي الى الكوسا أولا ثم أفريقيا ثانيا.

- ٧ -

ظلت الكلية الجامعية University College في فورت هيـر Fort Hare ببلدية ألِس Alice على بعد عشرين ميلا تقريبا شـرقي هيلدتاون حتى عام ١٩٦٠ المركز الوحيد للتعليم العالي المخصص للسود في جنوب أفريقيا والمزود بسكن جامعي . بل إن فورت هير كانت أكثر من ذلك إذ كـانت منارة لطلاب العلم الأفـريقيين من جـمـيع مناطق القارة الأفـريقـيـة الجنوبيـة والوسطى والشرقـية. وكانت بالنسـبة لشبـاب جنوب أفريقيـا السود من أمثـالي تلتقي فيـها ميزات جامعات أوكسفورد Oxford وكايمبريدج Cambridge وهارفارد Harvard وييل Yale كلها مجتمعة.

كان السلطان حـريصا كل الحرص على أن ألتـحق بجامعة فـورت هير وكنت أنا بدوري مبتـهجا لقبولي في تلك الجـامعة . وقبل أن ألتـحق بالجامعة اشـترى لي السلطان أول بذلة أقتنيها في حـياتي، وكانت مزدوجة الصدر رمادية اللون أحـسست عند ارتدائها بأنني بلغت سن رشدي وأصـبحت رجـلا متحـضرا. كان عـمري آنذاك إحـدى وعشـرين سنة ولـم أكن أتخيل أنه يوجد في فورت هير من هو أحسن مني مظهرا أو أكثر أناقة .

وشعرت في تلك اللـحظات بأنني أعد للتفوق والنجاح فـي هذا العالـم، وزادني سرورا أن يكون أحد أبناء عـشيرة السلطان حامـلا لشهادة جامـعية . ظل جـاستِس فـي هيلدتاون لمواصلة دراسته للشهـادة المتوسطة، إذ كان يفضل التسلية والتـرويح على الدرس والتحصيل ولـم يكن يكترث بالتحصيل العلمي كثيرا.

انشئت جـامعـة فورت هير عـام ١٩١٦ على أيدي المبشـرين الأسكوتلانديين على أرض كانت في القرن التاسع عـشر موقعا لأكبر قلعـة متاخمة للحدود في منطقـة الكيب الشرقية. أقيمت القلعة على أرض صخرية يجري حولها نهر تايومي Tyume على شكل قوس متعرج وفي موقع استراتيجي مكن البريطانيين من مواجهة ساندبلي Sandile مقاتل الكوسا الشجاع وآخـر ملوك رهـارهابي Rharhabe الذي هُزم أمام الـقوات البريطـانية في آخـر المعارك الحدودية في العقد الأول من القرن التاسع عشر.

كان في الجامـعة مائة وخمسون طالبـا فقط كنت على معرفة بعـدد منهم خلال وجودي في كلاركبيري وهيلدتاون . ومن الطلبة الذين تعرفت عليهم لأول مرة كيه. دي . مـاتانزيما K D Matanzima وهو إبن أخي في الترتيب القبيلي وإن كنت أصـغر منه سنا ومتأخرا عنه في الدراسـة بثـلاث سنوات . كان ماتانزيما طويل القامـة نحيفا فارط الثقة بنفسه فأحاطني بعنايته وأصبحت أنظر إليه بإجلال واحترام كما كنت أفعل مع جاستِس من قبل.

كنا من أتباع الكنيـسة الميثـودية وأقمت في سكن واحد مع مـاتانزيما وهو المبنى المعروف باسـم بيت ويـزلي Wesley House، وهو مـبنى لطيف من طابقين يقع في أحـد أطــراف الحــرم الجــامــعي . وتحت رعـاية مـاتانزيما وإرشاداتـه أصبـحت أتردد على الكنيـسـة في

لافداي Loveday المجاورة وأخذت أزاول رياضة كرة القدم التي كان ماتانزيما بارعا فيها .

لم يكن السلطان ممن يرسلون النقود لأبنائهم في الجامعة ولولا أن ماتانزيما كان يتقاسم مخصصاته المالية معي لعشت مفلسا تماما . وقد رأى ماتانزيما - كما رأى السلطان من قبله - أن دوري في المستقبل هو أن أصبح مستشارا لساباتا ولذلك فقد شجعني على دراسة القانون.

كانت فورت هير - كسابقتيها في كلاركبيري وهيلدتاون - كلية تبشيرية . فكنا نُحضّ على طاعة الله واحترام السلطات السياسية والاعتراف بفضل الكنيسة والحكومة بما وفرتا لنا من فرص لتحصيل العلم . تعرضت هذه الكليات لكثير من النقد لكونها استعمارية في مواقفها وممارساتها، ولكنني رغم ذلك أعتقد أن ميزاتها ومنافعها تزيد كثيرا عن مساوئها. فقد أخذ المبشرون على عاتقهم إنشاء المدارس وإدارتها في الوقت الذي نكصت الحكومة أو عجزت عن ذلك . كما أن جو المعاهد التبشيرية، رغم التزمت والتشدد الأخلاقي، كان أكثر انفتاحا من أجواء المدارس الحكومية القائمة على العنصرية.

كانت فورت هير موطنا ومحضنا لعدد من أعظم العلماء الذين عرفتهم القارة الأفريقية ، كان من بينهم المفكر المثالي الأستاذ زد . كيه . ماثيوز Z K Matthews ، وكان أبوه من عمال المناجم، وقد تأثر بقصة حياة بوكر واشنطن Booker Washington المنشورة في كتاب بعنوان الانتفاضة من العبودية Up from Slavery التي تحث على التفوق من خلال الإعتدال والعمل الدؤوب . كان ماثيوز يدرس علم الأجناس الاجتماعي والقانون الأفريقي وكان يصرح بمعارضته لسياسات الحكومة الاجتماعية.

ويكاد اسم الأستاذ دي . دي .تي . يابافو D D T Jabavu أن يكون صنوا لاسم فورت هير إذ كان أول عضو في هيئة التدريس في الكلية عندما افتتحت عام ١٩١٦ ، وهو حامل شهادة في اللغة الإنجليزية من جامعة لندن وكانت تلك تبدو انجازا نادرا صعب المنال . وكان الأستاذ يابافو يدرس لغة الكوسا واللغة اللاتينية والتاريخ وعلم الأجناس، وكان موسوعة في أنساب الكوسا وذكر لي معلومات عن والدي لم أكن أعرفها من قبل . وكان متحدثا قوي الحجة فيما يتعلق بحقوق الأفريقيين كما أنه الرئيس المؤسس لمؤتمر عموم أفريقيا All-African Convention عام ١٩٣٦ الذي عارض في البرلمان القوانين التي كانت تهدف الى إلغاء سجلات الناخبين في منطقة الكيب.

أذكر أنني كنت يوما مسافرا بالقطار من فورت هير الى أومتاتا وكنت في العربة الأفريقية حيث توجد مقاعد مخصصة للسود وجاء المفتش وهو رجل أبيض ليفحص تذاكر الركاب . انتبه المفتش الى أنني صعدت القطار عند ألس فسألني:

- هل أنت أحد طلاب كلية "يابافو"؟

فأومأت برأسي أن نعم فعلّم على تذكرتي وغمغم بكلمات أثنى بها على يابافو.

من المواد التي درستها في السنة الأولى اللغة الإنجليزية وعلم الإنسان والعلوم السياسية

والإدارة المحلية الأفـريقية والقانون الهـولندي الروماني . ومادة الإدارة المحليـة تُعنى بدراسة الأنظمة والقوانين الخاصـة بالأفريقيين ويُنصح بدراستها كل من له رغـبة في العمل في قسم الشؤون الأفريقية . ماتانزيما كان يشير عليّ بدراسة القانون بيد أنني كنت متحمسا بيني وبين نفسي لأن أصبح مترجما أو موظفا في قـسم الشؤون الأفريقية، إذ كانت الوظيفة في سلك الخدمة المدنية آنذاك ذات شأن كبير في نظر الأفـريقيين وهي أقصى ما يصبو إليه أي أفريقي. أما المترجم فقد كـان في المناطق الريفية يحتل المرتبة الثانية بعـد الحاكم المحلي نفسه، وكنت أول من التحق للدراسة بقسم التـرجمة عندما افتتحته الكلية فـي السنة التالية وتولاه مترجم المحكمة المرموق المتقاعد تايامزاشي Tyamzashe .

كانت فـورت هير الى حد ما كليـة نخبوية ولم تنج من المشاكل التـي يواجهها كثـير من مراكز التعليم العالي ومنها تعـالي طلاب المراحل المتقدمة على الطلاب الجدد . وفي بـداية التحاقي بالحي الجامعي لمحت يـوما في الساحة الرئيسية طالبا كان مـعنا في كلاركبيري وهو غمـاليل فابازا Gamaliel Vabaza وكان يكبرني بعدة سنوات، فأقـبلت عليه لأحييه بحرارة ولكنه رد علي ببرود وأنفة وأشار بازدراء الى أنني سأقيم في عنبر الطلاب الجدد . واستطرد فابازا ليخـبرني أنه عضو في لجنة الإشـراف على العنبر الذي سأقيم فيـه رغم أنه من الطلبة المتقدمين ولا يقيم في العنبر نفسه . وجدت ما قاله غريبا ومنافيا لروح الديمقراطية ولكنه كان النظام المعمول به في الكلية.

وذات ليلة التـقت مجمـوعة منا لمناقـشة أسبـاب عدم تمثـيل الطلاب المقيـمين والوافدين الجدد في العنبر في لجنة الإشـراف، وقررنا الخروج عن التقليد المتبع وانتخاب لجنة من بيننا لإدارة شؤون العنبر . وبعد سلسلة من المناقشات والجهد المتواصل للحصول على دعم جميع الطلاب المقيـمين في العنبر نجحنا فـي غضـون أسـابيع قليلة في انتـخـاب لجنة من بينهم، وإقصاء الطلاب المتقدمين، وانتخبت رئيسا للجنة بحكم مشاركتي في تنظيم الحملة. ولكن الطلبة المتقدمين لم يـتقبلوا النتيجة بسهـولة وعقدوا اجتماعا تحـدث فيه أحدهم وهو ريكس تاتاني Rex Tatane وكان متحدثا مفوها باللغة الإنجليزية فقال:

- إن هذا التصـرف من قبل الطلاب المسـتجدين غـير مقـبول. وكـيـف يمكن لشـخص متـخلف من الريف مثل مـانديلا أن يفوز علـينا نحن المتقـدمين وهو لا يتقن حـتى الحديث بالإنجليزية؟

واستطرد تاتاني يقلد طريقة حديثي بما يعتقد أنه لهجة غكاليكا Gcaleka مما أثار ضحك أنصاره ومـشجعـيه، غير أن سـخريته لم تزدنا إلا عزما وتصمـيما. وبما أن لجنتنا أصـبـحت اللجنة الرسميـة للإشراف على العنبر فقد رأينا أن نوكل للطلاب المتقـدمين بأحط الواجبات وإهانتهم بقدر المستطاع.

استُدعـينا الى مكتب ناظر الكلية القـسيس أيه . ادجـيـه . كـوك A J Cook الذي سـمع بالخبر، وكنا على ثقـة بأن الحق الى جانبنا ولم نكن مستعـدين للتنازل عن موقفنا . تـوسـل

تاتانى للناظر كي يلغي اللجنة الجديدة وانهار باكيا قبل أن ينتهي من حديثه، إذ كان، كغيره من المستأسدين، يخفي شخصية هشة لا تتحمل المواجهة. فطلب منا الناظر أن نعدّل من موقفنا فلم نرضخ وهددنا بالاستقالة الجماعية وسلب اللجنة من كل هيبتها وصلاحياتها، وقرر الناظر في نهاية المطاف عدم التدخل في الموضوع. لقد انتصرنا نتيجة ثباتنا على موقفنا، وكانت تلك من أوائل مواجهاتي مع السلطة واستشعرت لذة النصر التي يولدها شعور المرء أنه على حق وأن العدالة الى جانبه. ولكنني لم أكن على القدر نفسه من الحظ والتوفيق في معاركي التالية مع المسؤولين في الكلية.

* * *

لم يقتصر تعليمي في فورت هير على ما تلقيته من دروس داخل الفصل، فقد أتيحت لي فرصة للمشاركة في النشاطات الرياضية أكبر من تلك التي توفرت لي في هيلدتاون وذلك لسببين: نمو قوتي البدنية وطول قامتي ثم، وهو الأهم، صغر الكلية وقلة المنافسين في فورت هير. شاركت في مسابقات كرة القدم وعدو المسافات الطويلة الذي تعلمت منه دروسا قيمة جدا. فمسابقات العدو لمسافات طويلة تعتمد على التدريب أكثر منها على القدرة الذاتية مما أعطاني الفرصة للتعويض عن ضعف استعدادي الطبيعي بالمثابرة والإنضباط في التدريب، واصبحت تلك قاعدة أتبعها في كل جوانب حياتي. ولقد قابلت شبابا كثيرين، حتى أثناء المرحلة الدراسية، ممن لهم استعدادات فطرية هائلة ولكن ينقصهم الإنضباط والصبر كي ينموا تلك القدرات.

كما التحقت بجمعية المسرح وشاركت في مسرحية عن إبراهام لينكولن Abraham Lincoln أعدها زميلي لينكولن مكينتانى Lincoln Mkentane الذي ينتمي الى إحدى الأسر المرموقة في ترانسكاي وكان أحد الطلاب الذين أكن لهم الإحترام وأقتدي بهم، خاصة وأنه كان الطالب الوحيد في فورت هير الذي يفوقني في الطول. مثّل مكينتانى دور سميّه بينما مثلت أنا دور جون ويلكس بوذ John Wilkes Booth الذي نفذ اغتيال إبراهام لينكولن. اتسم أداء مكينتاني على المسرح بالفخامة وقوة التعبير ووقف الحاضرون مصفقين تصفيقا حادا عند انتهائه من خطاب إبراهام لينكولن العظيم الذي ألقاه في غيتيسبيرغ Gettysburg وهو من أروع الخطب التي سجلها التاريخ. أما دوري فكان قصيرا وإن كان هو محور موضوع القصة الذي يتلخص في أن من أقدم على أعمال عظيمة لقى عواقب هائلة كذلك.

كما التحقت بالجمعية الطلابية المسيحية ودرست فصولا من الكتاب المقدس أيام الأحد في القرى المجاورة، وكان يرافقني في تلك الرحلات طالب في العلوم امتاز بالجدية تعرفت عليه في ميادين كرة القدم ينتمي الى بوندولاند Pondoland في ترانسكاى وكان يدعى أوليفر تامبو Oliver Tambo . لقد اتضح لي منذ الوهلة الأولى أن ذكاء تامبو من النوع الحاد جدا، وكان محاورا بارعا لا يقبل كثيراً من الأفكار التي كان معظمنا يأخذها كمسلمات. كان أوليفر مقيما في السكن الإنجيلكاني المعروف باسم بيدا هول Beda Hall

ولم أكن أحتك به كثيرا في فورت هير، إلا أنه لم يكن من الصعب أن ألاحظ أنه مقبل على مستقبل باهر عظيم.

كنا نذهب أيام الأحد الى مدينة ألِس لتناول وجبة في أحد المطاعم التي كان يديرها البيض. ولكن لم يكن من المتصور في تلك الأيام أن يدخل الرجل الأسود المطعم من الباب الرئيسي ناهيك عن أن يجلس الى المائدة ويتناول الطعام، ولم يكن أمامنا إلا أن نجمع ما لدينا من نقود ثم نأتي المطبخ من الباب الخلفي ونطلب ما نريد من طعام نأكله هناك.

وفي فورت هير لم أتعلم الفيزياء فحسب بل تعلمت فنا آخر لا يقل عنها دقة ألا وهو الرقص الأرستوقراطي. فقد كنا نقضي الساعات في التدريب على الرقصات المختلفة من فوكستروت (مِشية الثعلب) fox-trot والفالس waltz على أنغام حاكي (فونوغراف) قديم متهالك، وكان مثلنا الأعلى بطل العالم في الرقص فيكتور سيلفيستر Victor Sylvester ومدربنا أحد زملائنا في الكلية واسمه سمالي سيواندلا Smallie Siwundla الذي كنا نعتبره نسخة مصغرة للمعلم الكبير سيلفيستر.

كانت في إحدى القرى المجاورة قاعة أفريقية للرقص تعرف باسم نتسيلامانزي Ntselamanzi يؤمها الخاصة من السود المحليين وممنوعة على طلاب الجامعة. وذات ليلة زادت بنا الرغبة الى الرقص في صحبة الجنس اللطيف فارتدينا أحسن بذلاتنا وتسللنا الى خارج العنبر متجهين الى القاعة. كانت قاعة في غاية الترف وانتابنا عند دخولها شعور بالجرأة والفخر. لفتت نظري شابة فاتنة على الطرف الأخر من القاعة فذهبت اليها وطلبت منها بأدب أن تصحبني الى قاعة الرقص، وما هي إلا لحظات حتى كانت في أحضاني فأخذنا نتمايل ونتهادى في انسجام تام وخُيِّل إلي أنني صورة للبراعة والإبداع في الرقص. وبعد دقائق سألت راقصتي عن اسمها فأجابت بصوت ناعم: السيدة بوكوى Mrs Bokwe، فكدت عند سماع الإسم أن أتملص منها وأغادر القاعة فورا. رفعت بصري الى الطرف الأخر من القاعة فرأيت الدكتور روزبيري بوكوى Roseberry Bokwe، وهو من أكبر وأهمهم القادة والعلماء الأفريقيين، في ذلك الوقت، مستغرقا في الحديث مع صهره أستاذي في الكلية زد. كيه. ماثيوز. اعتذرت للسيدة بوكوى عن عدم مواصلة الرقص واصطحبتها بخجل الى جانب القاعة تحت نظرات من الدكتور بوكوى والأستاذ ماثيوز مفترسة. تمنيت في تلك اللحظة لو انشقت الأرض فبلعتني إذ خالفت عددا لا حصر له من أنظمة الجامعة وقواعدها. غير أن الأستاذ ماثيوز الذي كان مسؤولا عن التأديب في فورت هير لم يشر الى هذا الحادث بعد ذلك وكان راضيا بالتجاوز عما اعتبره فورة من فورات الشباب كان علي أن أعوض عنها بالمزيد من الدراسة والتحصيل. ولا أظن أنني درست في حياتي بجد أكثر مما فعلت في الأسابيع التي تلت تلك الأمسية المشهودة في قاعة نتسيلامانزي للرقص.

كانت جامعة فورت هير على مستو عال من التقدم فكريا واجتماعيا، وكان ذلك جديدا

وغريبا بالنسبة الي . ولعل ذلك المستوى لم يكن يساوي شيئا بالمعايير الغربية ولكنه لابن الريف من أمثالي كان مفاجأة كبرى . لبست البيجاما لأول مرة في حياتي هناك ووجدتها غير مريحة في البداية ولكنني تعودت عليها تدريجيا . ولم أكن قبل ذلك أستعمل معجون الأسنان والفرشاة إذ كنا في القرية نستعمل الرماد لجلي الأسنان والعيدان لتنقيتها . كما كانت المراحيض الحديثة التي تصرف المياه والنفايات، والحمامات المزودة بالماء الساخن عجيبة من العجائب . وتعودت لأول مرة على استعمال الصابون بعد أن كنت أستخدم المسحوق الأزرق طول سنواتي السابقة.

وربما حرك توفر كل هذه الكماليات في نفسي الشوق الى الأشياء البسيطة التي كنت استعملها في صغري . ولم أكن وحدي في هذا الشعور إذ كانت مجموعة منا تتسلل في بعض الأمسيات الى مزارع الجامعة حيث نوقد نارا ونجلس حولها نأكل الذرة المشوية ونتجاذب أطراف الحديث . ما كنا نفعل ذلك لجوع أو لحاجة بل لرغبة منا لاستشعار حياة الريف وإحياء ذكريات القرية . كنا نتفاخر بغرامياتنا وقوتنا البدنية والثروة التي سنبنيها بعد تخرجنا من الجامعة . ومع أنني بدأت أحس بأنني شاب متطور ومتحضر فقد ظللت ذلك الفتى الريفي الذي يحنو الى مباهج القرية.

كانت فورت هير حرما معزولا عن العالم ولكننا كنا نتابع باهتمام شديد تطورات الحرب العالمية الثانية في أوروبا، وكنت كبقية زملائي، من المؤيدين المتحمسين لبريطانيا. وقد سررت كثيرا لعلمي أن المتحدث الرئيسي في حفل التخرج بالجامعة سيكون السيد يان سماتس Jan Smuts رئيس الوزراء السابق وأكبر أنصار بريطانيا في جنوب أفريقيا . كان شرفا عظيما أن تستضيف فورت هير شخصية ذات شهرة عالمية، وكان سماتس آنذاك نائبا لرئيس الوزراء ويقود حملة في جميع أنحاء البلاد يدعو فيها الى إعلان جنوب أفريقيا الحرب ضد ألمانيا بينما كان رئيس الوزراء دجيه بي هيرتزوغ J B Hertzog ينادي بوقوف جنوب أفريقيا على الحياد، وقد كنت أتطلع بلهفة شديدة الى رؤية زعيم عالمي مثل سماتس من قرب.

كان انطباعي عن سماتس أنه متعاطف مع السود خاصة وأن هيرتزوغ كان قبل ثلاث سنوات وراء الحملة لإلغاء أسماء الناخبين الأفريقيين من سجلات الانتخابات في منطقة الكيب . كما أعجبني فيه مساهمته في تأسيس عصبة الأمم المتحدة فيما بعد للدفاع عن الحرية في جميع أنحاء العالم رغم دوره في كبت الحريات في جنوب أفريقيا.

تحدث سماتس في خطابه عن أهمية تأييد بريطانيا في حربها ضد ألمانيا مؤكدا أن إنجلترا تدافع عن القيم والمبادىء الغربية نفسها التي نسعى نحن في جنوب أفريقيا الى حمايتها والدفاع عنها . ولفت نظري أن لهجته الإنجليزية لم تكن أفضل من لهجتي كثيرا . صفقنا له تصفيقا حادا وأيدنا ما دعا إليه من دعم للحرية في أوروبا دون أن نفطن الى أننا لم نكن نملك تلك الحرية هنا في بلادنا.

كنا في فورت هير مقتنعين بما قاله سماتس قبل أن يتحدث إلينا. فقد كان ناظر بيت ويزلي يستعرض معنا الوضع العسكري في أوربا كل ليلة، وكنا في آخر الليل نتجمع حول مذياع قديم لنستمع الى خطابات وينستون تشيرشل Winston Churchill الحماسية التي كانت تذيعها الإذاعة البريطانية. ومع ذلك فقد أثارت زيارة سماتس نقاشا طويلا في فورت هير، وفي إحدى الجلسات قام زميل لي يدعى نياتي خونغيسا Nyathi Khongisa وكان على قدر كبير من الذكاء فندد بأفكار سماتس واتهمه بالعنصرية. قال خونغيسا:

- قد يحلو لنا أن نعتبر أنفسنا "سودا إنجليز" ولكن بينما كان الإنجليز يعملون على "تحضّرنا" كانوا يوقعون بنا الظلم، ومهما بلغت درجة العداء بين البوير Boer والبريطانيين فإن البيض بإمكانهم الإتحاد من أجل مواجهة الخطر الأسود.

صُدمنا لتلك الأفكار التي بدت لنا خطيرة وثورية، وهمس أحد الطلاب في أذني قائلا إن خونغيسا عضو في المؤتمر الوطني الأفريقي وهو منظمة سمعت بها ولا أعرف عنها إلا القليل. وبعد إعلان جنوب أفريقيا الحرب ضد ألمانيا استقال هيرتزوغ من منصبه وتولى سماتس رئاسة الوزراء من بعده.

في السنة الثانية دعوت صديقي بول مهاباني Paul Mahabane لقضاء عطلة الشتاء معي في ترانسكاي وهو من مدينة بلومفونتين Bloemfontein وكان مشهورا في الجامعة لأن أباه القسيس زاكيوس مهاباني Reverend Zaccheus Mahabane تولى رئاسة المؤتمر الوطني الأفريقي مرتين. وكانت صلته بتلك المنظمة، التي ما زلت لا أعرف عنها إلا القليل، أضفت عليه صفة التمرد والثورية.

وذات يوم ذهبت أنا وبول الى أومتاتا عاصمة ترانسكاي وهي عبارة عن عدد قليل من الشوارع المرصوفة وبعض المباني الحكومية. وفيما نحن واقفان أمام مكتب البريد اقترب منا الحاكم المحلي، وهو رجل أبيض في الستينات من العمر، وطلب من بول أن يشتري له طوابع بريد. لقد كان من المعتاد أن يطلب أي رجل أبيض من آخر أسود أن يقوم بأي عمل يراه، وعندما مد الحاكم النقود لبول رفض هذا أن يأخذها منه مما أثار حفيظة الحاكم الذي سأله وقد احمر وجهه حنقا:

- هل تعرف من أكون؟

فأجاب مهاباني قائلا:

- لا حاجة الى أن أعرف من تكون، ولكنني أعرف ماذا تكون.

وهنا سأله الحاكم ليحدد بالضبط ماذا يعني بما قاله، فرد بول بحدة:

- أعني أنك وغد ومنحط.

اشتاط الحاكم غضبا وصاح في هيجان:

- ستدفع ثمن ما فعلت غاليا. وانصرف.

لم أكن مرتاحا على الإطلاق لتصرف بول ورغم أنني أعجبت بشجاعته أصابني شيء من القلق. فالحاكم كان يعرفني جيدا وأنا أدرك تماما لو أنه اتجه الي بالطلب بدلا من بول للبيّت طلبه في الحال. ولكنني أعجبت بما فعله بول رغم أنني لم أكن قادرا على فعله وبدأت أفطن الى أن الرجل الأسود ليس محكوما عليه بقبول الإهانات المتكررة التي توجه إليه كل يوم.

عدت الى الكلية بعد انتهاء العطلة وبداية السنة الجديدة وكلي نشاط وحيوية، فركزت جهدي في المطالعة والدرس استعدادا للامتحانات التي ستجرى في شهر أكتوبر من تلك السنة. وتخيلت أنني في غضون سنة واحدة سأحصل على شهادة ليسانس آداب لأصبح مثل تلك المدرسة الذكية غيرترود نتلاباتي. وكنت يومها أعتقد أن الشهادة الجامعية هي المفتاح ليس لقيادة المجتمع فحسب بل للتفوق المالي أيضا، وأن العالم كله سيصبح تحت تصرفي. ولطالما أكد لنا مدير الكلية الدكتور اليكساندر كير Alexander Kerr بالإضافة الى الأستاذ يابافو والأستاذ ماثيوز أننا كخرجين نمثل نخبة الأفريقيين.

بحصولي على الشهادة الجامعية ساعوض أمي عما فقدته من ثروة ومكانة اجتماعية في أعقاب وفاة والدي، وسابني لها بيتا محترما في قونو مزودا بأحدث الأثاث والملحقات تحيط به حديقة خاصة. وساكفلها هي وأختيْ كي تتمكن من تحقيق ما حُرمنَ منه طول تلك السنوات. كان ذلك هو حلمي وكان حلما من السهل أن يتحقق.

رشحت في تلك السنة لعضوية مجلس الطلاب وهو أعلى هيئة تمثل الطلاب في فورت هير، ولم أكن أدرك آنذاك أن الانتخابات الطلابية وما سيكتنفها من أمور وأحداث سوف تخلق لي من الصعوبات ما يغير مجرى حياتي بالكامل. أجريت الانتخابات في الفصل الأخير من العام الدراسي ونحن لا نزال في غمرة الاستعداد للامتحانات. وينص دستور الكلية على أن يشارك جميع الطلاب في الاقتراع لانتخاب ستة ممثلين. وقبل موعد الانتخابات بقليل عقد اجتماع لمناقشة المشاكل القائمة والتعبير عن مطالبنا وشكاوانا، وبرز إجماع بين الطلاب على أن مستوى الأكل في الكلية غير مرضٍ، وطالبوا بزيادة صلاحيات المجلس الطلابي ليكون أكثر من مجرد ختم في يد الإدارة. أدليت بصوتي لصالح كلا الاقتراحين كما صوتت مع أغلبية الطلاب الذين نادوا بمقاطعة الانتخابات ما لم توافق الإدارة على تحقيق مطالبنا.

بعد هذا الاجتماع بفترة قصيرة أجريت الانتخابات في موعدها المقرر وقاطعتها غالبية الطلاب فلم يشارك في التصويت سوى خمسة وعشرين طالبا أي سدس عدد طلاب الكلية وانتخبوا ستة ممثلين كنت واحدا منهم. وفي اليوم نفسه التقى الممثلون الستة المنتخبون غيابيا لمناقشة التطورات فقررنا بالإجماع تقديم استقالتنا بناء على مساندتنا للمقاطعة ولعدم تمتعنا بدعم الأغلبية. ثم أعددنا مذكرة بهذا الخصوص سلمت للدكتور كير.

كان الدكتور كير حاذقا، فقبل الإستقالة وأعلن عن موعدٍ لانتخابات جديدة في اليوم

التالي عند العشاء في قاعة الطعام، وهذا من شأنه أن يضمن حضور جميع الطلاب وينتفي بذلك عذر عدم حصول المجلس على دعم الأسرة الطلابية بكاملها . أجريت الانتخابات فعلا في الموعد الذي حدده المدير ولكن لم يصوت سوى الطلبة الخمسة والعشرين الذين صوتوا في المرة السابقة وانتخب الأعضاء الستة أنفسهم الذين انتخبوا في المرة السابقة. وهكذا انتهينا الى حيث بدأنا وكأن شيئا لم يكن.

وعندما اجتمع الستة المنتخبون لدراسة الموقف وجاء موعد التصويت تباينت الآراء بشكل كبير . فقد تمسك زملائي الخمسة الآخرون بالناحية الفنية التي تقول بأننا انتخبنا في اجتماع حضره جميع الطلاب ولم يعد من الممكن القول بأننا لا نمثل الأسرة الطلابية كلها، واقتنعوا بأنه علينا أن نقبل بالمسؤولية . إلا أنني أجبت على ذلك بأن الموقف في حقيقة الأمر لم يتغير ورغم حضور كل الطلاب فلم تدل أغلبيتهم بأصواتها وليس من الصحيح أخلاقيا الإدعاء بأننا حزنا على ثقتهم . وبما أن هدفنا الأساسي كان مقاطعة الانتخابات، وهو القرار الذي حاز على ثقة مجموع الطلاب، فلا يزال من واجبنا الإلتزام بذلك القرار وألا يثنينا عن ذلك الخدعة التي لجأ إليها المدير . ونظرا الى أنني لم أفلح في إقناع زملائي برأيي ذاك قدمت استقالتي للمرة الثانية وكنت الوحيد الذي استقال من بين الأعضاء الستة.

في اليوم التالي استدعيت لمقابلة المدير الدكتور كير والمؤسس الفعلي لجامعة فورت هير، خريج جامعة إدنبره الحائز على احترام الجميع . استعرض الدكتور كير بكل هدوء أحداث الأيام القليلة السابقة ثم طلب مني أن أراجع نفسي في قرار الإستقالة، فقلت إنني لا أستطيع ذلك . طلب مني التريث وإعادة النظر ثم موافاته بقراري في اليوم التالي . غير أنه حذرني من أنه لن يسمح للطلاب بتصرفات غير مسؤولة وأنه في حالة إصراري على الإستقالة سأعرض نفسي للطرد من فورت هير .

هزني ما سمعت وقضيت ليلتي في قلق وحيرة من أمري لأنني لم أكن مجبرا من قبل على اتخاذ قرار بهذا الوزن والخطورة، فتشاورت مع صديقي وقدوتي ماتانزيما الذي قال إنني من ناحية المبدأ كنت مصيبا في قرار الإستقالة ويجب ألا استسلم للتهديد . ولكنني شعرت بأن خوفي من ماتانزيما في تلك اللحظة كان أشد من خوفي من الدكتور كير، فشكرته وعدت الى غرفتي.

كنت أحس بأن موقفي صحيح من الناحية الأخلاقية ولكنني لم أعد واثقا إذا ما كان تصرفي صحيحا . فهل أحطم مستقبلي الدراسي من أجل مبدأ أخلاقي مجرد محدود الأهمية؟ ووجدت من الصعب القبول بفكرة أن أضحي بما أراه التزاما مني نحو الطلاب لمجرد إرضاء مصلحتي الشخصية . لقد اتخذت موقفا ولم أكن لأظهر مخادعا أمام أقراني من الطلاب، ولكنني في الوقت نفسه كنت حريصا على عدم التفريط في مستقبلي الدراسي في فورت هير.

وصلت الى مكتب الدكتور كير في صباح اليوم التالي وأنا في حيرة كاملة لم أخرج

منها إلا عندما سألني الدكتور كير إن كنت قد توصلت الى قرار في الأمر، فأجبته بأنني لا أستطيع أن أرضي ضميري بالإحتفاظ بعضوية المجلس الطلابي. فوجيء الدكتور كير بردي وأطرق يفكر للحظات ثم قال:

حسنا! القرار قرارك بطبيعة الحال، ولكنني فكرت مليا أنا كذلك في الموضوع وما أقترحه عليك هو الآتي: بإمكانك مواصلة الدراسة في فورت هير العام المقبل بشرط أن تقبل بعضوية المجلس، وأمامك يا مانديلا فصل الصيف بكامله للتفكير في هذا الإقتراح.

فوجئت أنا شخصيا بردي كما فوجيء به الدكتور كير. كنت أدرك أنه من التهور أن أترك فورت هير ولكن عندما جاءت اللحظة الحاسمة عجزت عن التنازل، إذ كان في داخلي شيء ما يمنعني من ذلك. ورغم أنني قدّرت موقف الدكتور كير وحرصه على إعطائي فرصة أخرى للتفكير، امتعضت لسيطرته المطلقة على قدري وحياتي. فينبغي أن يكون لي كامل الحق في أن أستقيل من المجلس إن رغبت. لقد حز في نفسي ذلك الإجحاف وما عدت أري الدكتور كير في تلك اللحظة صاحب فضل علي بل رأيته دكتاتورا لا يملك كثير شفقة أو رحمة.

غادرت فورت هير نهاية تلك السنة وأنا في حالة سيئة من الحيرة والضياع.

- ٨ -

كنت - في العـادة - كلما عـدت الى مكيكيـزويني أعود ويغـمرني إحساس بالإرتيـاح والرضى، ولكن الأمر لم يكن كذلك هذه المرة. فبعد أن اجتزت الامتحانات بنجاح وعدت الى بلدي الأصلي أخبرت السلطان بما جرى فـي فورت هير فـاشتاط غـضبـا ولـم يجد أي مبرر لما فعلت واعتبره عملا في غاية الحماقة. وبدون أن يستمع لأي تفسيرات من طرفي أخبرني بفظاظة أن أمتثل لتعليمات المدير وأعود الى فورت هيـر في الخريف، ولم يترك لي مـجـالا لمناقشـة الموضـوع. كـان من العبث - بل من قلة الأدب - أن أجـادل ولي أمـري فقررت أن أنتظر حتى تهدأ الأمور.

عاد جاستِس الى مكيكيزويني هو الآخر، وكان قد ترك الكلية منذ سنة وأصبح يقيم في كـيـب تاون، وسررنا كثيـرا للقاء من جديد، فمهما يطول الفـراق بيني وبين جاستِس فإن روابط الأخوة التي جمعت بيننا تتجدد مباشرة لحظة اللقاء.

ما هي إلا أيام قليلة حتى استأنفت أسلوب حيـاتي القديم في القرية والقيام على شؤون السلطان من عناية بالمواشي الى علاقاته مع زعماء القبائل الآخرين. لم أشغل فكري بما دار في فـورت هـيـر. غير أن طبـيعة الحياة ربما فرضت عـلى المرء المتردد قرارات لا سلطان له عليها. فقد حدث أمر لا علاقة له البتة بدراستي أجبرني على السير في اتجاه معين.

بعـد أسابيع من وصـولي في مكيكيزويني اسـتدعـاني السلطان كـما اسـتدعى جـاستِس للإجتماع به وبدأ حديثه في وجوم قائلا:

- يـا ولـــديّ، إنني أخشي أن مـوعد رحيلي عن هذه الدنيـا قد اقتـرب، ولكن قبل أن أغادرهـا الى عالم الأجـداد أرى من واجبي أن أطمـئن عليكما وأزوجكمـا على أحسـن ما ينبغي. وعليه فإني اتخذت الترتيبات اللازمة لهذا الأمر.

فوجـئنا بذلك الخبر وتبـادلنا نظرات فيهـا مزيج من الصدمـة والعجز أمـام الأمر الواقع. واستطرد السلطان يقـول إن الفتاتين اللتين اختـارهما زوجتين لنا هما من أسـرتين صـالحتين. فأما جاستِس فسيتزوج من إبنة أحد نبلاء التيمبو ويدعى خاليبا Khalipa، وأما روليهلاهلا، وهو الإسم الذي كان يناديني به السلطان، فسـيتزوج ابنة أحد رجال الدين التـيمبو من أهل القـرية. ثم أردف السلطان قائلا إن الزواج سيتم فورا وبدون تأخـير، وسيتولى أهل القرية دفـع اللـوبـولا Lobola أي المهر نيـابة عن جاستِس، وهـو عادة ما يكون عـددا من الأبقار يدفعها أبو العريس، أما مهر زواجي فسيدفعه السلطان نفسه.

أطرق كل منا ولم نتحدث بشيء، ولم يكن من اللائق أن نجادل السلطان الذي اعتبر أن الموضوع من وجهـة نظره قد حُسم ولم يعد هناك مجـال للنقاش. أختـيرت العـروس ودفع المهر. وانتهى الموضوع.

خرجنا من اللقاء وكل منا مطأطئا رأسه ذاهلا منكسرا . كان السلطان يتصرف وفقا لأعراف التيمبو وعاداتهم، ولا يمكن بأي حال الشك في الدوافع التي انطلق منها إذ كان حريصا على الإطمئنان على علينا قبل أن يموت . لم يكن غائبا عن علمنا أبدا أن من حق السلطان الترتيب لزواجنا ولكن المسألة لم تعد مجرد احتمال نظري، والعروسان لم تعودا ضربا من الخيال بل فتاتين من لحم ودم كنا نعرفهما حق المعرفة.

ومع احترامي لأسرة الفتاة التي اختارها لي السلطان فلن أكون صادقا إن ادعيت أنها فعلا فتاة أحلامي . فالأسرة أسرة مرموقة والفتاة على قدر من الجمال والوقار، ولكنها كانت منذ فترة طويلة واقعة في غرام جاستِس، وهو أمر لم يكن السلطان على علم به — فنادرا ما يكون الآباء على علم بعلاقات أبنائهم العاطفية . ولا شك عندي في أن عروسي المختارة لم تكن أكثر حماسا مني لهذا الزواج.

كان نضوجي الاجتماعي في تلك الفترة أفضل من نضوجي السياسي . ففي الوقت الذي لم يخطر على بالي الوقوف في وجه النظام السياسي للرجل الأبيض كنت على أتم الإستعداد للتمرد على النظام الاجتماعي لأسرتي وبني قومي . والغريب في الأمر أن السلطان نفسه يتحمل بطريقة غير مباشرة مسؤولية ذلك لأن التعليم الذي وفره لي هو السبب في رفضي لتلك العادات والتقاليد . فأنا رومانسي بطبيعتي وقد تلقيت العلم لسنوات طويلة جنبا الى جنب مع الفتيات في الكلية والجامعة وكانت لي صولات غرامية وجولات غرامية، وعليه فلم أكن لأقبل أن يختار شريكة حياتي أي إنسان آخر ولو كان السلطان نفسه.

طلبت مقابلة الملكة زوجة السلطان وطرحت عليها قضيتي . وكي لا أفقد تعاطفها معي لم أذكر أنني غير راغب في أن يتولى السلطان اختيار زوجتي تحت أي ظرف من الظروف، ولكنني انتهجت خطة أخرى وقلت لها إنني أرغب في الزواج من إحدى قريبات الملكة التي تروق لي شريكة حياة في المستقبل، وكانت الفتاة التي أعني جميلة جدا ولكنني لم أدر إن كانت سترضى بي زوجا أم لا . وأكدت للملكة أنني سأتزوجها بمجرد إكمال دراستي.

كانت خطة واهية الى حد ما ولكنها على أي حال أفضل بكثير من خطة السلطان، ووجدت الملكة تقف الى صفي في الموضوع ولكن الملك لم يعدل عن موقفه . لقد اتخذ قرارا ولم يكن ليتراجع في ذلك القرار.

بدأت أحس وأن السلطان لم يترك لي أي خيار، فاقتراحه أمر لا يستقيم ولا حكمة فيه وليس بإمكاني أن أقبله، ولكنني في الوقت نفسه كنت على يقين بأنني لن أستمر تحت رعاية السلطان إن أنا رفضت ما عرضه علي من أمر الزواج . كان جاستِس على الرأي نفسه وقررنا معا أن الخيار الوحيد أمامنا هو الهروب وأن المكان الوحيد الذي يمكن أن نفر إليه هو جوهانسبيرغ.

وبالتأمل في تلك الأحداث الآن أدرك أننا لم نستنفذ كل ما كان أمامنا من خيارات. فقد كان بإمكاني التفاهم مع السلطان عن طريق وسطاء والتوصل الى حل في إطار القبيلة والأسرة، وكان بإمكاني التوسل الى أحد أقرباء السلطان الزعيم زيليندلوفوZilindlovu وكان من أكثر زعماء الحاشية في مكيكيزويني تفتحا ونفوذا للتوسط لدى السلطان. ولكنني كنت صغير السن متسرعا ولم أر من فائدة في الصبر والانتظار، وبدا لي أن الهروب هو المخرج الوحيد من ذلك المأزق.

أخفينا ما كنا ندبر له وأعددنا الخطة بإحكام، إذ كنا نحتاج أولا الى الفرصة المناسبة. كان السلطان يعتقد أنني وجاستِس أصدقاء سوء، أحدنا للآخر، أو على أقل تقدير أن شخصيتي المحافظة تأثرت بولع جاستِس بالمغامرات ونزعته المشاغبة الشريرة. ولذا فقد بذل كل ما فيه وسعه ليفرق بيننا، وكان عندما يسافر يطلب من أحدنا أن يرافقه كي لا نبقى معا في غيابه، وكان غالبا ما يختار جاستِس لأنه كان يفضل بقائي في مكيكيزويني لرعاية شؤونه أثناء غيابه. علمنا بأن السلطان يستعد للسفر بمفرده هذه المرة لمدة أسبوع كامل للمشاركة في اجتماعات البونغا Bungha وهو المجلس التشريعي لترانسكاي واتفقنا على أن تلك هي فرصتنا الذهبية لنلتمس لأنفسنا مهربا فخططنا للذهاب الى جوهانسبيرغ بعد سفر السلطان.

غادر السلطان القرية مبكرا صباح الإثنين وما إن حل وقت الضحى حتى كنا على استعداد للمغادرة نحن كذلك. حزمنا امتعتنا القليلة في حقيبة واحدة وما إن كدنا ننطلق حتى رأينا السيارة التي تقل السلطان عائدة على غير المتوقع فجرينا نحو الحديقة واختبأنا بين أعراف الذرة. دخل السلطان البيت وكان أول سؤال سأله: أين ذانك الفتّيان؟ فأجابه أحدهم: إنهما قريبان من هنا. ولكن السلطان لم يقتنع بالإجابة وظل مرتابا، وقال إنه عاد الى المنزل لأنه نسي أن يأخذ معه "ملح إبسوم". ولكنني شعرت بأن السلطان أحس بهاجس ما يتعلق بما كنا مقدمين عليه لأن بإمكانه شراء "ملح إبسوم" في سوق المدينة، فجال بنظره في المنزل وبدت عليه علامات الرضا ثم انصرف. وما أن توارت سيارته وراء التلال حتى كنا في الطريق الى جوهانسبيرغ.

لم نكن نملك – أنا وجاستِس – شيئا يذكر من النقود فذهبنا صباح ذلك اليوم الى أحد التجار واتفقنا معه على أن نبيعه اثنين من أفضل ثيران السلطان، فظن أننا نبيعهما بأمر من السلطان فدفع لنا مبلغا محترما فأجرنا سيارة الى محطة القطار ومن هناك الى جوهانسبيرغ.

كان كل شيء يسير على ما يرام. ولم نكن نعلم أن السلطان قبل أن يغادر ذهب الى محطة القطار وأعطى أوصافنا لمديرها وطلب منه ألا يبيعنا تذاكر سفر الى جوهانسبيرغ لأنه غير مسموح لنا بمغادرة ترانسكاي. وصلنا الى المحطة فرفض المدير أن يبعنا التذاكر، وعندما سألناه عن السبب قال: "أباكما مر من هنا وأخبرنا أنكما تخططان للهرب".

صدمنا الخبر وأسرعنا الى سيارة الأجرة وطلبنا من السائق أن يأخذنا الى المحطة التالية التي كانت على بعد نحو خمسين ميلا واستغرقت الرحلة إليها أكثر من ساعة . أدركنا القطار ولكن رحلته انتهت في كوينزتاون Queenstown .

كان التنقل بالنسبة للمواطنين الأفريقيين في الأربعينات عملية معقدة جدا، إذ كان على جميع الذين تزيد أعمارهم عن ست عشرة سنة أن يحملوا بطاقات تعريف خاصة بالمواطنين الأصليين Native passes صادرة عن وزارة شؤون المواطنين الأصليين Native Affairs Department وكان عليهم إبراز تلك البطاقات لأي رجل شرطة أو موظف في الخدمة العامة أو موظف حكومي من البيض وإلا تعرضوا للإعتقال والمحاكمة والسجن أو الغرامة . وتحتوي البطاقات على بيانات شخصية منها عنوان الإقامة واسم زعيم القبيلة وعما إذا كان حامل البطاقة سدد الضريبة المفروضة على الأفريقيين. تطورت البطاقة فيما بعد لتصبح كتيبا أو "مرجعا" ، كما كانت تعرف آنذاك، يحتوي على بيانات مفصلة يصدق عليها شهريا من قبل رب العمل.

كانت بطاقة جاستِس وبطاقتي سليمتين ولكن كي يتسنى للمواطن الأفريقي أن ينتقل من محافظة الى أخرى عليه الحصول على وثائق سفر وإذن بالإنتقال ورسالة من رب العمل أو - كما هو الحال بالنسبة لنا - من ولي الأمر أو الوصي، ولم يكن معنا شيء من هذا. والمعروف أنه حتى في أحسن الظروف يظل المواطن الأصلي - وإن توفرت لديه هذه الوثائق - معرضا الى أن يتحرش به شرطي لعدم وجود توقيع معين أو لخطأ في التاريخ أو لأي سبب آخر . ولذلك فإن السفر بدون هذه الوثائق أصلا يعتبر مجازفة كبيرة.

كانت خطتنا النزول من القطار في كوينزتاون حيث نذهب الى بيت أحد الأقارب ثم نسعى في الحصول على وثائق التنقل المطلوبة . كانت هذه الخطة أيضا غير موفقة وإن حالفنا قدر من الحظ عندما التقينا صدفة في البيت الذي ذهبنا إليه بالزعيم امبوندومبيني Mpondombini أخي السلطان الذي كان يرتاح لي ولجاستِس كثيرا.

استقبلنا الزعيم امبوندومبيني بحرارة وبينا له أننا في حاجة الى الحصول على وثائق سفر رسمية من مكتب الحاكم المحلي، ولفقنا له الأسباب مدعين أننا في مهمة بتكليف خاص من السلطان. وامبوندومبيني مترجم متقاعد كان يعمل بوزارة شؤون المواطنين الأصليين وعلى صلة جيدة بالحاكم المحلي . لم يتطرق الى ذهنه أي شك في صحة ما قلنا له فلم يكتف بمرافقتنا لمكتب الحاكم وإنما زكّانا عنده وشرح له صعوبة الموقف الذي نحن فيه . وبعد أن استمع الحاكم لما قاله الزعيم سارع بإصدار الوثائق المطلوبة وختمها بالختم الرسمي . نظر كل منا الى صاحبه وابتسمنا ابتسامة المتورطين في جريمة . وبينما مد الحاكم يده إلينا بالوثائق انتبه وقال إن من اللياقة أن يخبر الحاكم الأعلى في أومتاتا التي نتبعها إداريا مما أثار قلقنا ولكننا بقينا جالسيْن في مكتبه . رفع الحاكم سماعة التلفون للاتصال بزميله في أومتاتا وشاء الحظ أن يكون السلطان في تلك اللحظة بالذات في زيارة للحاكم جالسا في مكتبه.

وبينما كـان الحاكم يشرح أمرنا لنظيره في أومـتاتا يبدو أن الأخـير أخبـره أن ولي أمرنا جالس الى جانبه وسلم سماعة التلفون للسلطان نفسه، الذي ما برح أن عرف حقيقة الأمر حتى انفجر غاضبا وأمره بالقبض علينا فورا . لقد صاح بصوت عال سمعناه نحن من خلال سماعة التلفون . قال السلطان:

- أقبض عليهما واحضرهما لي هنا فورا.

رد الحاكم سماعة التلفون ونظر إلينا بغضب وقال:

- إنكمـا سارقان كـاذبان . لقد تجرأتما على خداعـي واستغلال مساعيّ الحمـيدة، وسآمر الآن بالقبض عليكما.

انتصبت واقفا لأدافع عن موقفنا مستـفيدا من القليل الذي تعلمته في مادة القانون بكلية فورت هيـر فاقـررت بأننا كذبنا عليـه فعلا ولكننا لم نـرتكب أي جريمة أو مخـالفة قـانونية وليس من الإنصاف أن نعـتقل لمجرد كلمة من الزعيـم وإن كان ولي أمرينا . تراجع الحـاكم ولم يلق علينا القـبض وطلب منا مـغادرة مكتبه الى غـير رجـعة . ظهـرت علـى الزعـيم امبوندومبيني علامات الغضب كذلك فانصرف وتركنا نواجه العواقب بأنفسنا.

وهنا تذكـر جاسـتِس أن لديه صـديقـا في كوينزتاون يدعـى سيـدني نكزو Sidney Nxu يعمـل في مكتب محـاماة تابع لأحد الـبيض . ذهبنا إليه وشـرحنا له وضعنا فأخبرنا أن أم صاحب المكتب ستغادر الى جوهانـسبيرغ بالسيارة وسيحاول إقناعها بأن تأخـذنا معها مقابل خمسة عشر جنيـها استرلينيا . كان ذلك مبلغا كبيرا يفوق بكثـير سعر تذكرة القطار وسيلتهم ما تبقى لدينا من نقود ولكن لـم يكن أمـامنا خيار آخر . قررنا المجازفة بتـأجيل ختم بطاقاتنا الشخصية واستخراج وثائق سفر سليمة لحين وصولنا الى جوهانسبيرغ.

انطلقنا مبكرا في صـباح اليوم التـالي، وكان المعتـاد في تلك الأيام أن يركب السود في المقعـد الخلفي للسيارة إذا كان السـائق من البيض، فركب جـاستِس خلف السائق مبـاشرة، وكانت سيدة عجوزا. وجاستِس بطبيعته شخص بشوش فأخذ يتحدث معي حديثا فيه شيء من الحماس والحيـوية مما أزعج السيدة بشكل واضح ويبدو أنها لم تقابل بعد شـخصا أسود خاليـا من العقد تجـاه البيض . وبعد فتـرة من الزمن طلبت السائقة منا أن نتبـادل المقاعد كي تتمكـن من مراقبـة حركـات جاستِس وظـلـت فعلا تراقبـه بقـية الرحلة كـما يراقب الصـقر فريسته . ولكنها بعد قليل استعذبت حديثه وأخذت تلاطفه وتبتسم لما كان يقول.

عند الساعة العاشـرة تقريبا من مساء ذلك اليوم ظهـر أمامنا في الأفق سيل من الأضواء المتوهجة يمتـد في كل اتجاه، وكانت الأضواء الكهربـائية بالنسبة إليّ أعجـوبة من الأعاجيب وعـلامة من عـلامات الأبهـة، وها هي السمـاء كلها تسطع أمـام عيني بالأنوار الكهـربائية. غمـرتني موجة عـارمة من النشوة والإثـارة لرؤيتي أضواء المدينة التي كنت أسـمع عنها منذ الطفولة.

كانت جـوهانسبـيرغ توصف بمدينة الأحلام التـي يمكن للمرء أن يتحـول فيـها من فقـير

مدقع الى غني مترف . إنها مدينة المخاطر والفرص . وتذكرت حكايات بانـاباخي التي كان يقصها علينا في موسم الختان عن المباني الشـاهقة التي لا يُرى سقفها، والكتل البشرية التي لا حصر لها تتكلم لغات لـم يسمع بـها أحـد، والسـيـارات الأنيقـة والفـاتنات ورجـال العصابات الذين لا يهابون الخطر . إنها أيغولي eGoli مدينة الذهب التي ستكون بعد قليل موطني الجديد.

أخذت حركة المرور تزداد كثافة كلما اقتربنا من ضواحي المدينة ولم أر في حياتي ذلك العـدد الهائـل من السيـارات على الطريق دفعـة واحدة، فلـم نكن نشاهد أكـثـر من بضع سيارات في شوارع أومتاتا ولكنها اليوم هنا بالآلاف . دارت بنا صاحبة السيارة حول المدينة بدلا من أن تتجه الى وسطهـا، ومع ذلك تمكـنتُ رغم الظلام من رؤية ظلال العـمـارات والمبانـي العالية بوضوح . ورأيت لوحات الإعـلانات العريضة على جانبي الطريق وعلـيها دعايات للسجائر والحلوى والخمور، وبدت لي المدينة كلها منظرا في غاية البهاء والتألق.

ومـا هي إلا لحظات حتى وصلنا الى حي مـلـيء بالبيـوت الفخـمة تمتـد أمامـها حـدائق خضـراء فسيـحة تحـميهـا بوابات عالية مـن الحديد، وكان أصـغر تلك البيـوت يفوق قـصر السلطان حجما وأبهة . كان ذلك هو الحي الذي تسكنه ابنة صاحبة السيارة، فدخلت السيدة الى مدخل أحد تلك البيوت الجميلة حيث أوقفت سيارتها . أخذت أنا وجاستِس الى جناح الخـدم حـيث سنقـضي ليلتنا . شكرنا السـيدة والتـمس كل منا مكانا على الأرض ينام فـيه. ولكن انبهاري بمدينـة جوهانسبيرغ أشـعرني وكأنني قضيت ليلتي تـلك على فراش وثير من الـريـش . فقـد تراءى لي أنني وصلت الى نهاية رحلة طويلة وأخـذت صور المستقـبل تمتد أمامي الى مـا لا نهاية . ولكن الحقيقة هي أنني كنت على مـشارف رحلة أطول بكثير وأشد عناء من سابقتها توشك أن تضعني في المحك بصورة لم أكن لأتخيلها آنذاك .

الفصل الثاني

جوهانسبيرغ

- ٩ -

وصلنا مكاتب منجم كراون ماينز Crown Mines عند الفجر، وكان المنجم يقع على سهل مرتفع في تل عظيم يطل على المدينة التي كان يغمرها السكون والظلام. أنشئت مدينة جوهانسبيرغ حول مناجم الذهب الذي اكتُشف في منطقة ويتووترزراند Witwatersrand عام ١٨٨٦ ويعتبر منجم كراون ماينز أكبر المناجم في مدينة الذهب. كنت أتوقع أن أرى مبنى فخما على غرار المكاتب الحكومية في أومتاتا ولكن مكاتب كراون ماينز كانت من الصفيح الصديء قابعة عند نهاية نفق المنجم.

ليس في مناجم الذهب من سحره وفتنته شيء. فهي في الغالب مواقع جرداء خالية من الأشجار تنتشر فيها الحفر والأوساخ تشق سماءها أعمدة شاهقة في كل مكان وتحيط بها الأسوار من كل جانب. وهي أشبه ما تكون بمواقع المعارك التي دمرتها الحرب. كان ضجيج الآلات والحفارات والرافعات صاخبا وصوت تفجيرات الديناميت يتناهي الى الأسماع عن بعد. وحيثما أرسلت بصري رأيت الرجال السود في ملابس العمل التي يكسوها التراب محنية ظهورهم وقد بدت عليهم آثار التعب. كان العمال يقيمون في الموقع نفسه ويقطنون في مبان كئيبة خصصت للرجال فقط تضم مئات الأسرّة المبنية من الإسمنت لا تفصل بينها سوى بضع بوصات.

تكاليف استخراج الذهب في منطقة ويتووترزراند باهظة لأن نوعية المعدن ليست جيدة ولوجوده في أعماق سحيقة تحت الأرض. ولكن توفر العمالة الرخيصة المتمثلة في آلاف الأفريقيين العاملين ساعات طويلة مقابل أجور زهيدة ودون التمتع بأي حقوق هو الذي أحال هذا النشاط عملا مربحا لشركات التعدين التي يمتلكها البيض والتي أثرى أصحابها على حساب الشعوب السوداء بما يفوق ثروة قارون Croesus آخر ملوك مملكة ليديا بالأناضول المتوفى عام ٥٤٦ قبل الميلاد وكان مشهورا بثروته الضخمة. لم أر في حياتي من قبل مشاريع من هذا القبيل ولا هذه الآلات العملاقة والتنظيم الدقيق وهذا العمل المضني الذي يقصم الظهر. كانت تلك أول مرة أشاهد فيها الرأسمالية في جنوب أفريقيا على أرض الواقع وأدركت لفوري أنني أوشك أن أتلقى تعليما من نوع جديد.

اتجهنا مباشرة الى مكتب رئيس العمال المعروف باسم إندونا induna واسمه بيليسو Piliso وهو رجل متمرس عاصر من الحياة أسوأها وأشقاها وكان على معرفة بجاستِس لأن السلطان كان أرسل قبل شهور مضت رسالة يطلب فيها تعيين جاستِس في وظيفة مكتبية، وهي أكثر وظيفة مرغوبة ومحترمة في مجمعات المناجم. أما أنا فلم أكن معروفا لديه فأخبره جاستِس بأنني أخوه.

أشار بيليسو الى أنه كان في انتظار جاستِس فقط قائلا:

- إن أباك لم يذكر في رسالته شيئا عن أخيك.

نظر إلي متفرسا وبشيء من الريبة، ولكن جاستِس توسل إليه قائلا إن المسألة لا تتعدى أن تكون سهوا من السلطان وأن رسالة أخرى خاصة بي في طريقها إليه. لقد كان تحت ذلك المظهر الصلب لبيليسو جانب عطوف إذ عينني في شرطة المنجم ووعد أن يمنحني وظيفة مكتبية في غضون ثلاثة أشهر إن أثبتت جدارتي وإخلاصي في العمل.

كان لكلمة السلطان ثقلها في مناجم كراون، وهو الحال بالنسبة لجميع زعماء القبائل في جنوب أفريقيا. فقد كان المسؤولون على المناجم حريصين على تجنيد عمال من الريف، بل في حاجة لذلك، وكان هؤلاء تحت سلطة أولئك الزعماء، كان المسؤولون البيض يوعزون للزعماء بتشجيع رعاياهم على الذهاب للعمل في المناجم، ولذا كان الزعماء يُعامَلون باحترام كبير، وتُخصص لهم أماكن خاصة للإقامة كلما جاءوا لزيارة المواقع. فمجرد رسالة من أحد الزعماء تكفي لضمان وظيفة جيدة، وقد لقيت أنا وجاستِس عناية إضافية نظرا لصلتنا بالسلطان. كان من ضمن مخصصاتنا الأكل والنوم ومبلغ بسيط من النقود كراتب. لم نقض ليلتنا تلك في سكن العمال فقد دعانا بيليسو للإقامة عنده بضعة أيام احتراما منه للسلطان.

كان كثير من عمال المنجم، خاصة التيمبو منهم، يعاملون جاستِس كزعيم قبيلة وكانوا يقدمون له النقود هدية سيرا على العادة عند زيارة الزعماء للمناجم. كانت غالبية هؤلاء في مسكن واحد وكان العمال يُقسّمون حسب قبائلهم. وكان المسؤولون على المناجم يفضلون هذا الترتيب في فصل العمال لأنه يحول دون تضامن أبناء التجمعات العرقية المختلفة وتكتلهم حول قضية واحدة، بالإضافة الى أنه كان يكرس من نفوذ زعماء القبائل وقوتهم. وقد أدى هذا التقسيم الى نشوب مشاحنات بين التكتلات والعشائر العرقية المختلفة وهو أمر لم تكن الشركات تتدخل للحدّ منه.

اقتسم معي جاستِس ما حصل عليه من نقود وزادني بضعة جنيهات على نصيبي إكراما منه، فأحسست بالغنى وقضيت أيامي الأولى في المنجم وكأنني مليونير، وتلك النقود تجلجل في جيوبي. أصبحت أحس كأنني إبن أحد الأثرياء، وأن الحظ بدأ يبتسم لي، وفكرت لو أنني لم أضيع كل ذلك الوقت الثمين في الدراسة في الكلية لكنت اليوم رجلا ثريا. كل ذلك ولم أكن أدري - مرة أخرى - أن القدر مكب على نصب فخاخه من حولي في كل مكان.

باشرت عملي فورا كخفير ليلي وأعطيت بزة رسمية وحذاء جديدا وخوذة ومصباح بطارية يدويا وصفارة وعصا خشبية طويلة في رأسها كرة من الخشب الثقيل. كانت وظيفتي سهلة ميسرة إذ كنت أقف عند لافتة مكتوب عليها: "احترس - عبور سكان أصليين" لفحص أوراق جميع الداخلين والخارجين. مرت الليالي الأولى بسلام باستثناء مواجهة بسيطة في وقت متأخر من الليل مع أحد العمال كان ثملا ولكنه أبرز أوراقه عند طلبها ثم انسحب الى سكنه في هدوء.

أخذتني وجاسـتِس نشوة الإنتصار وتفاخـرنا يوماً بشطارتنا أمام أحد الأصـدقاء القدامي الذي كـان هو الآخر يعـمل في المنجم. شرحنا له قـصة هروبنا وخـداعنا للسلطان، وإذا به يتجه مباشرة الى رئيس العمال ليفشي له سرنا رغم تعهده لنا بالحفظ والكتمان. وفي اليـوم التالي استدعانا بيليسو ووجه أول سؤال الى جاستِس قائلا:

- أين إذن السلطان بالسماح لأخيك أن يرافقك؟

أجابه جاسـتِس بأنه قد أفاد سابقـا بأن السلطان أرسل الإذن بالبريد. لم تكن الإجـابة مـرضيـة وشـعرنا أن في الأمـر علة، إذ أدخل بيليـسـو يده في درج المكتب وأخـرج برقيـة وقدمها إلينا قائلا بنبرة صارمة:

- لقد استلمت فعلا رسالة من السلطان.

كانت البرقية عبارة عن جملة واحدة فقط تقول: "أرسل الولديْن إلينا فورا".

وانطلق بيليسو يقـرعنا بحنق شديد واتهمنا بالكذب عليه وبالتطاول على أريحـيته وعلى سمـعة السلطان، ثم قال إنه سيـقوم بجمع بعض النقـود من العمال نتـجهز بها للسـفر الى ترانسـكاي. اعترض جاسـتِس على الرجوع قائلا إن كل ما كنا نبتغـيه هو العمل في المنجم وإن قرارنا بأيدينا، ولكن بيليسو تجاهل كلامه. أحسسنا بالخجل والإهانة ولكننا خرجنا من مكتب رئيس العمال وكلنا إصرار على عدم الرجوع الى ترانسكاي.

شرعنا على الفور في التـدبير لخطة جديدة. ذهبنا الى الدكتـور آيه بي زوما A B Xuma أحد أصـدقاء السلطان القدامى وكـان رئيس حزب المؤتمر الوطني الأفـريقي، وهو أحد أبناء ترانسكاي وطبيب محترم جدا.

سُرّ الدكتور زوما بلقائنا وسألنا بكل أدب عن الأوضاع العائلية في مكيكيزويني فأعطيناه حقائق ناقـصة عن أسباب وجودنا في جـوهانسبيرغ ورغبتنا الشـديدة في العمل في المناجم. وأشار الدكتور الى أنه سـيكون سعيدا بتقديم المساعدة لنا واتصل تلفـونيا في الحال بشخص يدعى ويلبـيلافـد Wellbeloved في مكتب "غرفـة المناجم"، وهي منظمة قوية جـدا تتولى تمثيل شركات التـعدين وتتمتع باحتكار السيـطرة على توظيف عمال المناجم، وأطنب له في مدحنا وطلب منه أن يجد لكل منا وظيفة في أحد المناجم.. شكرنا الدكتور زوما وانطلقنا لمقابلة السيد ويلبيللافد.

السيـد ويلبيلافـد رجل أبيض يجلس في أفخم مكتب رأيتـه حتى ذلك الحين. وظهـــر المكتب منبسطا أمامه وكأنه استاد كرة قدم، فاجتمعنا به في وجود أحد المسؤولين في المناجم يدعى فيـستيلFestile وأعدنا عليه القصة الملفقة نفـسها التي رويناها للدكتور زوما وأعجب بقولي - الذي لم أكن صادقا فيه مائة بالمائة - إنني قدمت الى جوهانسبيرغ لمواصلة دراستي في "جامعة ويتووترززراند"، ثم قال:

- حسنا، سأوصلكما بمدير كراون ماينز، السيد بيليسو وسأوصيه بأن يوظفكما كاتبين.

وقال إنه عمل مع بيليسو مدة ثلاثين عاما، وإن بيليسو لم يكذب عليه قط طول تلك المدة. أصابتنا قشعريرة ولكننا لم ننبس ببيت شفة. فرغم توجسنا من مجريات الأمور تهيأ لنا من سذاجتنا أن موقفا أمام بيليسو أصبح قويا بوقوف رئيسيه الى جانبنا.

عدنا الى مكتب إدارة كراون ماينز واستقبلنا مدير المجمع بلطف لأننا كنا نحمل رسالة من السيد ويلبيلافد. وفي تلك اللحظة ظهر بيليسو مارا بجوار المكتب فرآنا واندفع الى داخل المكتب وقال بعنف:

- أورجعتما! ماذا تريدان؟

بدا جاستِس هادئا وأجاب بنبرة شارفت على التحدي: أرسلنا من طرف السيد ويلبيلافد. فكر بيليسو مليا ثم قال:

- هل أخبرتماه بانكما فررتما من أبيكما؟

التزم جاستِس الصمت ولم يرد، فصاح بيليسو بأعلى صوته:

- لن تعملا أبدا في أي منجم تحت إدارتي! أخرجا من أمامي حالا!!

ولكن جاستِس ظل يلوح برسالة ويلبيلافد، فرد بيليسو قائلاً:

- إن هذه الرسالة لا تعني شيئا بالنسبة إلي!

اتجهت ببصري نحو المدير الأبيض آملا أن يتدخل لاستدراك الموقف ولكنه ظل ثابتا كالصنم وإن ظهرت عليه علامات الإستفزاز هو الآخر. لم نجد ردا على ما قاله بيليسو وغادرنا المكتب في خجل يتملكنا شعور بالذلة والهوان أقوى من ذلك الذي تملكنا في المرة السابقة.

لقد انقلب حظنا رأسا على عقب. فقدنا الوظيفة وأصبحنا بلا مأوى وأمامنا مستقبل مجهول. كان لجاستِس أصدقاء في جوهانسبيرغ فذهب الى المدينة ليبحث عن مكان نقيم فيه. أما أنا فكان علي أن أسترد أمتعتنا التي ما زالت في مسكن بيليسو ثم أذهب آخر النهار لملاقاة جاستِس في ضاحية جورج غوخ George Goch جنوبي جوهانسبيرغ.

أقنعت أحد الذين كنت أعرفهم من أيام القرية واسمه بيكيتشا Bikitsha أن يعينني على حمل الحقيبة الى البوابة الرئيسية، وعند البوابة طلب الحارس أن يفحص الحقيبة فاعترض بيكيتشا على ذلك مؤكدا أنها لا تحتوي على أي ممنوعات. رد الحارس بأن التفتيش مجرد إجراء روتيني ففحص محتويات الحقيبة في عجالة دون أن يعثر الملابس التي بداخلها. وفيما كان الحارس يقفل الحقيبة توجه إليه بيكيشتا، وكان معجبا بنفسه الى حد ما، وقال:

- لما تصر على إزعاجنا؟ ألم أقل لك إنها لا تحتوي على شيء ذي قيمة؟

أثارت تلك الكلمات غضب الحارس فقرر تفتيش الحقيبة من جديد وبدقة أكبر هذه المرة. وما أن شرع يفتح كل جيب ويفحص كل شيء حتى أخذت أعصابي تزداد توترا الى أن عثر على الشيء الذي كنت أدعو الله ألا يصل إليه وهو مسدس محشو بالرصاص ملفوف في قطعة من ملابسي.

اتجه الحارس الى رفيقي وقال له:

- مقبوض عليك !!

أطلق صفارته فهرع إلينا مجموعة من الحراس اقتادوا بيكيتشا الى مركز الشرطة فانطلقت وراءهم أتدبر أمري وبيكيتشا ينظر إليّ بمزيج من الذعر والإرتباك. أما المسدس فقد كان من النوع القديم وكان ملكا لأبي الذي تركه لي عند وفاته ولم أستعمله قط، ولكنني حملته معي في هذه الرحلة احتياطا.

لم أكن لأدع رفيقي يتحمل المسؤولية نيابة عني. دخلت مركز الشرطة وطلبت مقابلة الضابط المسؤول فتحدثت إليه بشكل مباشر وبكل صراحة قائلا:

- يا سيدي. ذاك مسدسي الذي وجد في الحقيبة، ورثته عن أبي في ترانسكاي وأحضرته معي خوفا من عصابات المجرمين.

واستطردت أقول للضابط إنني كنت طالبا في فورت هير قدمت في زيارة لجوهنسبرغ، فلان الضابط شيئا ما وقال إنه سيطلق سراح صديقي فورا. وأضاف أنه لن يعتقلني ولكن عليّ المثول أمام المحكمة صباح الإثنين للرد على التهمة. شكرته بحرارة وتعهدت بالحضور الى المحكمة يوم الإثنين، وذهبت فعلا في الموعد المحدد فحُكم عليّ بغرامة رمزية.

قررت الإقامة عند أحد أقربائي في جورج غوخ ويدعى غارليك امبيكيني Garlick Mbekeni وكان بائعا متجولا يبيع الملابس يسكن بيتا صغيرا أشبه بعلبة الثقاب. كان امبيكيني أليفا قلق المزاج، وأخبرته بعد فترة أن طموحي الحقيقي هو أن أصبح محاميا يوما ما فأطرى عليّ ووعد بالتفكير في ما ذكرت له.

بعد ايام أخبرني امبيكيني أنه سيأخذني لمقابلة "واحد من أحسن رجالاتنا في جوهانسبيرغ". ركبنا القطار الى مكتب عقارات في ماركت ستريت Market Street وهو حي مزدحم بالمارة مليء بالحركة والحيوية يعج بقاطرات الترام المزدحمة بالركاب وبالباعة المتجولين مما يعطيك الإحساس بأن الغنى والثروة قاب قوسين أو أدنى.

كانت جوهانسبيرغ في ذلك الوقت مزيجا من مدينة في حالة حرب ومدينة تلاحق العصر والتطور. ترى فيها القصاب يقطع اللحم بجوار المكاتب الفاخرة، والخيام تنصب بمحاذاة المتاجر الزاخرة بالبضائع والزبائن. وترى النساء ينشرن غسيلهن بجوار العمارات السكنية الشاهقة. ازدهرت فيها الصناعة تجاوبا مع متطلبات المجهود الحربي إذ أعلنت جنوب أفريقيا باعتبارها عضوا في مجموعة الكومنويلث البريطانية الحرب ضد ألمانيا النازية عام ١٩٣٩، وكانت تساهم في المجهود الحربي بالرجال والتموين. ازداد الطلب على العمالة وباتت جوهانسبيرغ مغناطيسا يجتذب الأفريقيين من الأرياف بحثا عن العمل. وتضاعف عددهم فيها ما بين عام ١٩٤١، وهو العام الذي وصلتُ فيه الى جوهانسبيرغ، وعام ١٩٤٦، وكانت المدينة تزداد حجما يوما عن يوم. يذهب

الرجال للعمل في المصانع ويقيمون في مدن الضواحي المخصصة لغير الأوروبيين مثل نيوكلاير Newclare ومارتنديل Martindale وجورج غوخ George Goch وأليكساندرا Alexandra وصوفياتاون Sophiatown وضاحية الأصليين الغربية Western Native Township وهي مجمع يشبه السجن الكبير يضم آلاف البيوت الصغيرة ويقوم على أرض لا شجر فيها .

جلست أنا وغاريليك في حجرة الانتظار بمكتب العقارات بينما ذهبت حسناء أفريقية موظفة في الاستقبال الى حجرة داخل المكتب لتخبر مديرها بوصولنا ثم عادت لطباعة رسالة بأناملها الرشيقة التي كانت تقفز بخفة بين مفاتيح الآلة الكاتبة . لم أر من قبل في حياتي رجلا أفريقيا يضرب على الآلة الكاتبة ناهيك عن سيدة أفريقية. كان جميع الذين يضربون على الآلة الكاتبة في المكاتب التي زرتها في أومتاتا وفورت هير من الرجال البيض . أعجبت بمهارة تلك الفتاة لأن الضاربين على الآلة الكاتبة البيض كانوا يستخدمون إصبعين فقط وببطء شديد .

أشارت علينا الفتاة بالدخول الى مكتب المدير حيث قدمتني لشخص بدا لي في أواخر العشرينات من العمر ذي بشرة فاتحة ووجه يشع ذكاء ودفئا، ويرتدي بذلة مزدوجة الصدر. كما بدا لي ذلك الرجل رغم صغر سنه محنكا ومتطورا وذا خبرة واسعة، وكان هو الآخر من ترانسكاي ولكنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلهجة أهل المدينة . وبالنظر الى مكتبه المزدحم بالمراجعين وأكوام الورق التي على مكتبه يبدو أنه رجل مشغول جدا وناجح جدا. لم يستعجلنا في الحديث وأبدى اهتماما صادقا برحلتنا . هذا الرجل هو وولتر سيسولو Walter Sisulu .

كان مكتب سيسولو متخصصا في بيع وتأجير العقارات للأفريقيين، إذ كان بإمكان الأفريقيين في الأربعينات امتلاك العقارات في بعض المناطق وبشكل محدود في ضواح مثل أليكساندرا وصوفياتاون حيث ظل بعض الأفريقيين يملكون مساكنهم على امتداد أجيال طويلة . أما بقية الأحياء الأفريقية فكانت عبارة عن ضواح تابعة للبلدية تعمرها مساكن كعلب الثقاب يدفع سكانها إيجارات ثابتة لبلدية جوهانسبيرغ.

أخذ اسم سيسولو يبرز في جوهانسبيرغ كرجل أعمال ناجح وكزعيم من الزعماء المحليين، وكان يمثل مركز قوة في المجتمع . كان ينصت بإمعان وأنا أسرد عليه ما واجهته من صعوبات في فورت هير، وأنا أتحدث عن طموحي في أن أصبح محاميا وعن رغبتي في الالتحاق بجامعة جنوب أفريقيا لاستكمال شهادتي الجامعية بالمراسلة، ولكنني اختصرت الحديث ولم أشرح له ملابسات مجيئي الى جوهانسبيرغ. وعندما أنهيت حديثي أسند سيسولو ظهره الى ظهر الكرسي ومال الى الوراء قليلا يتأمل ما قلت ثم تفحصني بإمعان للمرة الثانية وأشار الى أحد المحامين البيض واسمه لازار سيديلسكي Lazar Sidelsky وصفه بأنه رجل محترم وتقدمي ومهتم بتعليم الأفريقيين، ووعد بأن يتحدث إليه بخصوص توظيفي عنده كاتبا تحت التدريب.

كنت في ذلك الوقت أعتقد أن إتقان اللغة الإنجليزية والنجاح في التجارة هما نتيجة للتفوق الأكاديمي، ولذا فقد افترضت بلا أدنى شك أن سيسولو كان خريجا جامعيا. ولكنني دهشت عندما أخبرني قريبي بعد أن غادرنا المكتب أن وولتر سيسولو لم يجتز الصف السادس في المدرسة. ذلك مما تعلمته في فورت هير وكان لزاما علي أن أصححه بل أسقطه من ذاكرتي في جوهانسبيرغ. فقد علموني هناك أن الشهادة الجامعية هي الطريق الى الزعامة، وأن الزعامة تحتاج الى شهادة جامعية، ولكنني تعلمت في جوهانسبيرغ أن أبرز القياديين في المجتمع لم تطأ أقدامهم الجامعات. ورغم أنني درست كل المادة المقررة في اللغة الإنجليزية للمرحلة الجامعية فلم يصل مستوى لغتي الإنجليزية - سواء من ناحية الفصاحة أو البلاغة - الى مستوى كثير ممن قابلت في جوهانسبيرغ ممن لم يكملوا حتى المرحلة الإبتدائية.

أقمت مع قريبي فترة من الزمن ثم قررت الإنتقال الى بيت القسيس دجيه مابوثو J Mabutho وهو أحد رجال الكنيسة الأنجليكانية الإنجليزية الواقع في شارع أيتث أفينيو Eighth Avenue بضاحية أليكساندرا. وكان القسيس مابوتو من أبناء التيمبو هو الآخر وصديقا للأسرة ورجلا كريما ورعا. وكانت زوجته، التي يناديها باسم غوغو Gogo، مفعمة بالدفء والرقة، وطباخة من النوع الممتاز وسخية عند تقديم الطعام. ونظرا لكونه من التيمبو ولمعرفته بأسرتي اعتبر القسيس مابوتو نفسه مسؤولا على رعايتي وأشار في حديث له معي مرة الى أن "آباءنا علمونا أن نتقاسم كل شيء وأن نشترك في كل شيء".

لم أتعظ من تجربتي في مناجم كراون فلم أشرح للقسيس مابوتو الظروف والملابسات التي اكتنفت مغادرتي لترانسكاي، وكانت عاقبة تقصيري هذا وخيمة. ومن سوء الحظ أنه بعد ايام من إقامتي في بيت القسيس مابوتو وبينما كنت أتناول الشاي مع أهل البيت دخل علينا زائر هو السيد فيستيل أحد المسؤولين في مناجم كراون الذي حضر لقائي أنا وجاستِس مع السيد ويلبيلافد. تبادلنا التحية بطريقة توحي بأننا على معرفة سابقة ولكن لم يشر أي منا الى لقائنا السابق. وفي اليوم التالي أخذني القسيس مابوتو جانبا وأخبرني أنه ليس بإمكاني مواصلة الإقامة في بيته.

لعنت نفسي لعدم إخباري القسيس بالحقيقة كاملة. لقد تماديت في التمويه الى درجة أنني صرت ألجأ الى الكذب والتلفيق بدون ضرورة أحيانا. إنني على يقين بأن القسيس مابوتو كان سيتفهم موقفي لو شرحت له الموضوع بصراحة، ولكنه بطبيعة الحال شعر بأنني خدعته عندما علم بالحقيقة من طرف ثالث. لقد تركت خلال فترتي القصيرة هذه في جوهانسبيرغ أثرا سيئا من الأكاذيب ظل يلازمني حيثما ذهبت. استنفذت كل خياراتي وأصبحت مع قلة خبرتي خائفا، وأدركت أنني بدأت حياتي الجديدة هنا بداية غير موفقة إطلاقا. ومع ذلك فقد شعر القسيس مابوتو بالشفقة نحوي وساعدني في الحصول على إقامة في بيت أحد جيرانه هو السيد زوما وأسرته.

ينتمي السيد زوما الى تلك النخبة من الأفريقيين الذين يمتلكون الأراضي في أليكساندرا.

كان بيته رقم ٤٦ سفنث إفينيو Seventh Avenue صغير الحجم، خاصة وأن له ستة أولاد، ملحقا به شرفة وحديقة صغيرة. ولكي يغطي التزاماته المالية والمعيشية فهو مضطر، كالكثير من أهل أليكساندرا، الى التسكين بالإيجار. عرض علي السيد زوما الإقامة في حجرة كالكوخ كان قد أقامها خلف المنزل، ذات سقف من الصفيح وأرضية من التراب لا توجد بها تدفئة أو كهرباء أو مياه جارية، ولكنني كنت سأقيم فيها بمفردي، فقبلت عرضه بكل سرور.

ومن جهة أخرى وافق لازار سيديلسكي بتزكية من وولتر سيسولو على أن التحق للعمل في مكتبه وأتابع دراستي لاستكمال الشهادة الجامعية. كان مكتب المحاماة يعرف باسم ويتكن وسيديلسكي وآيدلمان Witkin Sidelsky and Eidelman وهو من أكبر مكاتب المحاماة في المدينة ويتولى الدفاع عن قضايا السود والبيض على حد سواء. يتطلب التأهل لمزاولة القانون في جنوب أفريقيا التدريب عدة سنوات في مكتب محاماة رسمي كهذا، بالإضافة الى دراسة القانون واجتياز امتحانات معينة. وكان عليّ لأنخرط في التدريب الحصول أولا على الشهادة الجامعية فخصصت الليل للدراسة في جامعة جنوب أفريقيا، وهي مؤسسة تعليمية مرموقة تنظم دورات وشهادات بالمراسلة.

يتولى مكتب سيديلسكي للمحاماة الدفاع في القضايا الجنائية العادية علاوة على الإشراف على عقود بيع وتأجير العقارات المملوكة لمواطنين أفريقيين. كان وولتر حلقة الوصل مع الزبائن الراغبين في اقتراض الأموال ورهن العقارات وكان المكتب يتولى تقديم الطلبات نيابة عنهم ويتقاضى عمولة على ذلك يتقاسمها مع مكتب العقارات. كان مكتب المحاماة في الحقيقة يفوز بنصيب الأسد في هذه العملية بينما تحصل مكاتب العقارات التي يملكها ويديرها الأفريقيون على حصة زهيدة. وهكذا فلم يكن أمام السود من خيار سوى التقاط الفتات من حول مائدة الرجل الأبيض.

ومع ذلك فقد كان مكتب سيديلسكي للمحاماة، وهو مكتب يمتلكه يهود، أكثر تحررا من أغلبية المكاتب الأخرى. ولقد وجدت من خبرتي الشخصية أن اليهود أوسع أفقا من بقية البيض في التعامل مع القضايا العرقية والسياسية، وربما عاد ذلك الى كونهم ظلوا هم أنفسهم ضحايا للاضطهاد عبر التاريخ. فمجرد قبول لازار سيديلسكي تشغيل شاب أفريقي للتدريب في مكتبه، وهو أمر لم يسمع به أحد في تلك الأيام، هو في حد ذاته دليل واضح على تحرر ذلك المكتب والمقيمين عليه.

صرت أحترم السيد سيديلسكي كثيرا إذ كان يعاملني بمنتهى اللطف والرقة. وسيديلسكي خريج جامعة ويتووترزراند وكان في منتصف الثلاثينات من العمر عندما التحقت بالمكتب، وكان له نشاط كبير في مجال تعليم السود والتبرع بماله ووقته لرعاية مدارس المواطنين الأفريقيين. وهو نحيف الجسم مصقول البنية وله شارب رفيع وكان يهتم اهتماما خاصا برعايتي ومستقبلي، ويؤكد باستمرار على أهمية التعليم بالنسبة لي شخصيا وللمواطنين الأفريقيين بشكل عام. وكان مؤمنا بأن التعليم الشامل هو السبيل الوحيد

لتحرير السود. فالرجل المتعلم - على حد قوله - لن يرضى بالظلم لأنه قادر على التفكير بنفسه. وكان يلح في تذكيري بأن أفضل سبيل أنتهجه في حياتي هو أن أصبح يوما ما محاميا ناجحا ونموذجا لقدرة بني جلدتي على العطاء والإنجاز.

تعرفت على غالبية الموظفين في المكتب منذ أول يوم وكان بينهم الأفريقي غور راديبي Gaur Radebe الذي كنت أشاركه استخدام المكتب نفسه. كان غور يكبرني بعشر سنوات وكان يعمل كاتبا ومترجما ومراسلا. كان قصير القامة ممتلىء الجسم مفتول العضلات يتكلم الإنجليزية والسوتو والزولو بطلاقة، وكان يعبر عن أفكاره بجميع هذه اللغات بكل دقة وثقة وخفة دم.

في اليوم الأول أخذتني جانبا السكرتيرة الآنسة لايبرمان، وكانت فتاة بيضاء، وقالت لي:

- يا نلسون، نحن لا نمارس التفرقة العنصرية في هذا المكتب.

ثم استطردت تشرح لي أسلوب التعامل فقالت عندما يأتي الضحي يحضر الشاي في الردهة الأمامية للمكتب في أكواب على طبق...

- وبمناسبة مجيئك اشترينا اليوم كوبين جديدين أحدهما لك والآخر لغور. تأخذ السكرتيرات أكواب الشاي للمدراء أما أنت وغور فعلى كل منكما أن يأخذ كوبه بنفسه كما نفعل نحن. سأناديك عندما يحضر الشاي ويمكنك آنذاك أن تسكب الشاي بنفسك في كوبك الجديد.

ثم طلبت مني أن أنقل تلك التعليمات لغور.

كنت ممتنا لتلقينها إياي ذلك النظام، ولكنني كنت أعلم أن "الكوبين الجديدين" اللذين حرصت السكرتيرة بكل عناية على الاشارة إليهما هما الدليل على وجود التفرقة العنصرية التي أكدت عدم وجودها في المكتب. وخلاصة الأمر أن السكرتيرات قد يتناولن الشاي مع الموظفين الأفريقيين ولكنهن لن يستعملن الأكواب نفسها.

عندما أخبرت غور بما ذكرته لي الآنسة لايبرمان لاحظت تغيرا في تعابير وجهه وكأنه طفل تتبلور في ذهنه فكرة شيطانية، ثم قال:

- نلسون! عندما يحين موعد الشاى لا تقلق إطلاقا، وافعل كما أفعل.

في الحادية عشرة أعلنت الآنسة لايبرمان عن وصول الشاي، فانطلق غور نحو الطبق وعلى مرأى من بقية الموظفين وتعمد بشكل ظاهر للجميع تجاهل الكوبين الجديدين واختار بدلا منهما كوبا قديما واستطرد يضيف الى الكوب كميات سخية من السكر والحليب ثم الشاي. حرك كوبه ببطء ثم أخذ يشرب من الكوب بطريقة استعراضية. كانت السكرتيرات تحدقن في غور وهو لم يزد عن أن أشار إلي برأسه وكأنه يقول: "هيا يا نلسون، جاء دورك".

وقعت في حيرة، فمن جهة لم أكن أرغب في الإساءة الى السكرتيرات، ومن جه أخرى كنت حريصا الا أخسر زميلي الجديد، فاخترت الموقف الذي بدا لي أكثر حك وأعرضت عن شرب الشاي تماما، متظاهرا بأنني لم أكن أريده. كنت آنذاك في الثالث والعشرين من العمر أتلمس موضع قدمي كرجل وكأحد سكان جوهانسبيرغ وكموظف عن الرجل الأبيض وتبين لى أن أفضل السبل وخير الأمور أوسطها. منذ ذلك اليوم اعتدت إ حان موعد الشاي أن أعده بنفسي في المطبخ الصغير الملحق بالمكتب وأتناوله بمفردي في هدوء.

لم تكن السكرتيرات حصيفات في كل الأحوال. فذات مرة، وبعد أن اكتسبت خبر في العمل القانوني، كنت أملى بيانات على إحدى السكرتيرات إذ دخل المكتب أحد الزبائ البيض كانت تعرفه. ولكي تبرهن له أنها لا تتلقى الإملاء من رجل أفريقي أخرجت بعض النقود من حقيبتها وقالت باقتضاب:

– أرجوك يا نلسون أن تذهب الى الصيدلية وتشتري لي علبة شامبو.

أخذت النقود وذهبت فأحضرت لها الشامبو.

كنت في بداية أيامي مع مكتب المحاماة أؤدي أعمالا مكتبية بسيطة متنوعة تتلخص في ترتيب وثائق وملفات، وأعمل ساعيا أحمل الرسائل وأسلم الأوامر القضائية لأصحابها في أنحاء متفرقة من جوهانسبيرغ. ومع مرور الوقت بدأت أكلف بإعداد العقود والإتفاقيات الخاصة بالعملاء الأفريقيين. وكان السيد سيديلسكي يشرح لي كل صغيرة وكبيرة من الواجبات التي أقوم بها ويبين لي بالتفصيل أسباب كل عمل وأهدافه. كان معلما صبور وكريما لم يحرص على تعليمي تفاصيل المباديء والقواعد القانونية فحسب بل والفلسفة التي تقوم عليها تلك المباديء والقواعد. كانت نظرته للقانون نظرة واسعة وشمولية وكا يؤمن بأن القانون أداة ووسيلة يمكن استعمالها لتغيير المجتمع.

ولكن السيد سيديلسكي كان في الوقت ذاته يحذرني من السياسة التي يقول إنها تحرك أسوأ ما في الإنسان وهي سبب كل المشاكل والفساد، فينبغي عليّ أن أبتعد عنها مهما كا الثمن. وكان يرسم لي صورة قاتمة ومخيفة لمستقبلي إن أنا انجرفت نحو السياسة وينصحني بالابتعاد عن المشاغبين والغوغائيين وعلى رأسهم غور راديبى وولتر سيسولو اللذين كا يحترم قدراتهما ويبغض توجهاتهما السياسية.

كان غور بحق رجلا غوغائيا ومشاغبا بكل معاني الكلمة. وكان ذا نفوذ واسع بين الأفريقيين بصورة لم يكن السيد سيديلسكي يدركها أو يتخيلها. وكان غور عضوا في الهيئة الإستشارية في ضاحية المواطنين الأصليين الغربية التي تتكون من أربعة أعضاء منتخبين مهمتها التفاهم مع السلطات الرسمية فيما يتعلق بشؤون الضاحية. ورغم محدودية صلاحيات تلك اللجنة فإنها كانت تحظى بمكانة كبيرة لدى المواطنين. كما أنني اكتشفت خلال فترة قصيرة أن غور كان عضوا بارزا في كل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي.

وكان غور ذا شخصية مستقلة ولم يكن يبالغ في التودد لرؤسائه البيض في المكتب بل كان في غالب الأحيان عنيفا في مخاطبته لهم يؤنبهم على معاملتهم للأفريقيين . لطالما سمعته يقول: "لقد اغتصبتم أرضنا واستعبدتمونا والآن تجبروننا على دفع الثمن غاليا لاسترداد أردأ أجزائها" .

رجعت يوما الى المكتب بعد قضاء مهمة فوجدت غور يعنف سيديلسكي قائلا:

- إنك تجلس كالسيد اللورد في المكتب بينما يجول زعيمي (يقصدني أنا) المدينة من أقصاها إلى أقصاها ينفذ المهمات نيابة عنك، والمفروض أن يكون الوضع على العكس تماما، وهذا ما سيكون يوما ما عندما نلقي بكم جميعا في البحر.

قال غور ذلك وخرج من الحجرة وظل سيديلسكي يهز رأسه في حسرة وأسف.

كان غور أحسن مثل للرجل الذي لا يحمل شهادة جامعية ويبدو على مستوى تعليمي أرقى من الذين يحملون شهادات براقة من فورت هير . لم يكن متفوقا بعلمه وحصيلته المعرفية وحسب بل بشجاعته وثقته في نفسه . ومع أنني كنت أنوي إنهاء دراستي للقانون والحصول على شهادة جامعية تعلمت من غور أن نيل الشهادة في حد ذاته ليس ضمانا لنيل الزعامة والقيادة، وأن الشهادة لا تعني شيئا ما لم يثبت المرء جدارته وقدرته بين الناس وفي وسط المجتمع.

لم أكن المتدرب الوحيد في مكتب ويتكن وسيديلسكي وآيدلمان فقد انضم إليه قبل وصولي بقليل شاب في عمري تقريبا يدعى نات بريغمان Nat Bregman وهو شاب ذكي لطيف يحترم شعور الآخرين . بدا لي نات وكأنه مصاب بـــ "عمى الألوان" إصابة مزمنة. وتطورت علاقتي به فأصبح أول رجل أبيض أتخذه صديقا . كان نات يتقن تقليد الآخرين وكان يبدع في تقليد أصوات جان سماتس وفرانكلين روزفلت ووينستون تشيرشل، ولم يتأخر لحظة في إبداء المشورة والمساعدة كلما لجأت إليه في أمر يتعلق بالقانون أو بنظام العمل في المكتب.

كنا يوما جالسين في المكتب في وقت الظهيرة فأخرج نات لفافة تحتوي على شطائر فأمسك بطرف أحدها ثم قال:

- يا نلسون امسك بطرف هذه الشطيرة.

لم أدرك الغرض من طلبه ذاك، ونظرا الى أنني كنت جائعا استجبت له، فأردف يقول:

- والآن اسحب .

فسحبت وانقسمت الشطيرة بين يدينا بالتساوي تقريبا.

وهنا قال نات:

- والآن كل نصيبك .

وبينما أنا أنهش في الشطيرة قال نات :

- يا نلسون، إن ما قمنا به قبل قليل يجسد فلسفة الحزب الشيوعي القائلة بالتشارك في كل ما نملك .

ثم تابع نات الحديث ليخبرني بأنه عضو في الحزب وشرح لي باختصار المباديء التي يقوم من أجلها. كنت أعلم أن غور عضو في الحزب الشيوعي ولكنه لم يحاول أن يدعوني إليه، وأنصتّ الى نات في ذلك اليوم - ثم في مرات عديدة وفي مناسبات أخرى بعد ذلك - وهو يعدد فضائل الحزب الشيوعي ويحاول إقناعي بالانضمام إليه . كنت أصغي لكلامه دون أن أقاطعه وكنت أطرح عليه الأسئلة، ولكنني لم انضم للحزب . لم تكن لدي أي ميول للإنضمام الى أي تنظيم سياسي ولمّا تزل نصائح السيد سيديلسكي ترن في أذني . علاوة على ذلك فقد كنت على قدر من التدين مما جعلني أنفر من الحزب الشيوعي لعداوته للدين . ولكنني قدرت أعظم تقدير نصف الشطيرة الذي تفضل به عليّ نات في ذلك اليوم.

ارتحت كثيرا لرفقة نات ولطالما كنا نتجول معا في المدينة ونتردد أحيانا على المحاضرات والاجتماعات التي ينظمها الحزب الشيوعي والتي كنت أحضرها بدافع حب الاستطلاع والفضول الفكري في المقام الأول . لقد بدأت أعي تدريجيا تاريخ الظلم والاضطهاد العنصري في وطني وصرت أرى الكفاح القائم في جنوب أفريقيا على أنه كفاح عرقي محض، ولكن الحزب الشيوعي كان ينظر الى مشاكل جنوب أفريقيا من خلال عدسة الصراع الطبقي . فالقضية من وجهة نظر الشيوعيين قضية صراع بين الأغنياء والفقراء، وكان ذلك يثير اهتمامي بدرجة كبيرة ولكنه لم يكن ينطبق تماما على الأوضاع الراهنة في جنوب أفريقيا . فلربما توافق ذلك التحليل مع ما يجري في ألمانيا أو إنجلترا أو روسيا ولكنه لم يبد مناسبا في البلد الذي أعرفه جيدا . رغم ذلك كنت أنصت وأستمع وأتعلم.

دعاني نات الى حضور عدة حفلات ومناسبات ينظمها الحزب الشيوعي جمعت بين البيض والأفريقيين والهنود والملونين، وكان أغلب الحاضرين أعضاء فيه . وأذكر أنني كنت متهيبا في أول مرة ذهبت الى هذه اللقاءات لا لشيء إلا لأنني لم أكن أرتدي ملابس تليق بتلك المناسبات . وقد عُلمنا في فورت هير أن نرتدي رباط العنق والجاكيت عند حضور المناسبات واللقاءات الاجتماعية بكل أنواعها، وقد تمكنت من العثور على رباط عنق بين ملابسي المعدودة فلبسته.

وجدت في اللقاء أناسا تغمر نفوسهم الحيوية والروح الاجتماعية ولم يكونوا يأبهون إطلاقا لفوارق اللون والجنس فيما بينهم . كان ذلك أول لقاء مختلط أحضره وقضيت معظم الوقت مراقبا ومتفرجا أكثر مني مشاركا . شعرت بخجل شديد وكلي حذر من أن أزل أو أتصرف تصرفا غير لائق، وأحسست بأنني غير مؤهل للمشاركة في المناقشات ذات المستوى

الرفيع والحوارات والمساجلات النارية التي كانت تجري من حولي . كانت أفكاري متخلفة ولم تبلغ المستوى الراقي الذي شاهدته ذلك المساء.

أثناء الحفل قدمني أحدهم لمايكل هارمل Michael Harmel وكنت قد علمت قبل ذلك أنه حصل على شهادة ماجستير في اللغة الإنجليزية من جامعة رودس Rhodes University وكنت معجبا بتلك الشهادة . ولكنني عندما قابلته قلت لنفسي إنه يحمل شهادة ماجستير ولكن ما باله لا يرتدي رباط عنق، ولم أستطع التوفيق بين هذين المتناقضين . نشأت بيني وبين مايكل فيما بعد صداقة حميمة وازداد إعجابي به لرفضه الكثير من العادات والأعراف السخيفة التي كنت مصرا على التمسك بها . ولم يكن مايكل كاتبا بارعا وحسب ولكنه كان ملتزما التزاما قويا بالشيوعية فعاش حياة الأفريقيين وكان بإمكانه أن يعيش مترفا منعما.

- ١٠ -

كانت الحياة في أليكساندرا مفعمة بالحيوية ومحفوفة بالمخاطر. كان جوها يزخر بالحياة وروحها مليئة بحب المغامرة وسكانها حاذقين مهرة. ورغم وجود بعض المباني الأنيقة من الممكن وصف أليكساندرا بأنها حارة كبيرة يكتنفها الفقر وتكسوها القاذورات، وهي دليل حيّ على تفريط السلطات الرسمية وتقصيرها. طرقاتها غير معبدة تغطيها الأوساخ وتعج بأطفال جائعين شبه عراة تظهر عليهم آثار نقص التغذية. هواؤها مشبع بدخان النيران والمواقد والكوانين، وكان سكان كل مجموعة من البيوت يشتركون في حنفية واحدة للمياه. انتشرت فيها برك الماء الراكد تتصاعد منها الروائح الكريهة وتجمعت فيها الحشرات والديدان والعوالق. وكانت أليكساندرا تعرف باسم "مدينة الظلام" لأن الكهرباء لم تدخلها قط. المشي فيها ليلا محفوف بالمخاطر لغياب الأنوار والمصابيح ولتصاعد الصراخ والضحك وصوت الرصاص يلعلع بين الفينة والأخرى. كان ظلامها يختلف تماما عن ظلام ترانسكاي الذي كان يحتضنك في عِناق كله حفاوة وترحيب.

كانت الضاحية مزدحمة بالسكان فوق ما تسع، في كل شبر منها كوخ من صفيح أو مسكن تداعت جدرانه. وكما هو الحال في الأحياء الفقيرة فالذي يواجهك هو أسوأ ما في الحي من أوضاع وصفات. حياة البشر فيها رخيصة، الليل يمر تحت رحمة الرصاص والسكين، إذ ينتشر المجرمون وقطاع الطرق المسلحون المعروفون باسم تسوتسيس tsotsis في كل مكان وفي وضح النهار. وكان هؤلاء يقلدون رجال العصابات في الأفلام الأمريكية في أزيائهم وحركاتهم وسلوكهم ومظهرهم. وكانت مداهمات الشرطة من الأمور المألوفة في أليكساندرا، وكانت الشرطة تعتقل الناس بأعداد كبيرة لمخالفات تتعلق بجوازات المرور أو حيازة المشروبات الكحولية أو عدم تسديد الضرائب. وكانت حانات الخمرة الممنوعة منتشرة في كل بقعة في المدينة.

ورغم كل ذلك كانت المدينة مرفأ للأفريقيين لأنها من المناطق القليلة التي يستطيعون فيها امتلاك الأراضي والعقارات وإدارة شؤونهم بأنفسهم دون الحاجة الى تملق سلطات البلديات البيضاء التي تمارس الظلم والطغيان ضدهم. كانت مدينة أليكساندرا هي أرض الميعاد ونموذجا حيا على هجرة شعبنا الأبدية من الريف الى المدن. وكانت الحكومة تدّعي أن الأفريقيين بطبيعتهم أهل ريف لا يصلحون للحياة في المدن وذلك حتى تقنعهم بالبقاء في الريف أو العمل في المناجم، ولكن أليكساندرا، رغم كل سلبياتها ومشاكلها، تفنّد ذلك الإدعاء وتنفيه. فسكانها الذين ينتمون لتجمعات لغوية أفريقية مختلفة على قدر كبير من الوعي السياسي واستطاعوا أن يتكيفوا مع حياة المدينة. ففي المدن تنحسر الفوارق القبلية والعرقية وتذوب ليصبح الجميع أليكساندريين بدلا من كوسا أو سوتو أو زولو أو شانغان. وأدى هذا الى بروز روح التضامن والتعاضد بين السكان مما أثار حفيظة السلطات البيضاء التي دأبت على انتهاج سياسة "فرّق تسد" في تعاملها مع الأفريقيين معتمدة في ذلك على

عمق الإنقسامات العرقية القائمة بينهم . أما في أليكساندرا وما شابهها من مدن أخرى فقد أخذت تلك الفوارق في الذوبان.

تحتل أليكساندرا مكانة عزيزة في قلبي . فهي أول مكان أقيم فيه إقامة رسمية بعد قريتي التي ولدت فيها . ورغم أنني أقمت فيما بعد في مدينة أورلاندو Orlando بإقليم سويتو Soweto مدة أطول من تلك التي أقمتها في أليكساندرا ظلت هذه المدينة موطني الحقيقي رغم أنني لا أملك فيه منزلا خاصا بينما كانت أورلاندو منزلي الذي لا وطن لي فيه .

تعلمت خلال سنتي الأولى في أليكساندرا حقائق عن الفقر أكثر مما تعلمت أثناء طفولتي كلها في قونو . لا أذكر أنني كنت أحصل على المال الكافي ولكنني استطعت أن أعيش بالنزر القليل . كنت أتقاضى من مكتب المحاماة راتبا قدره جنيهان في الأسبوع بعد إلغاء الرسوم التي يدفعها المتدرب في العادة للمكتب . من ذلك المبلغ كنت أسدد إيجار السكن وهو ثلاثة عشر شلنا وأربعة بنسات في الشهر (الجنيه يساوي عشرين شلنا، والشلن يساوي خمسة بنسات)، وكانت أرخص وسيلة للمواصلات هي الحافلة المخصصة للأفريقيين فقط وتبلغ تكلفة التذكرة جنيها وعشرة بنسات في الشهر، أي قدرا كبيرا من دخلي الشهري . وكنت أسدد رسوما لجامعة جنوب أفريقيا مقابل دروس بالمراسلة لإتمام شهادتي الجامعية، وبلغ مجموع ما أصرفه على الأكل نحو جنيه استرليني واحد بينما خصصت جزءا من دخلي لتوفير أمر آخر مهم جدا وهو الشموع التي لم أكن لأتمكن من المذاكرة بدونها، وكانت البديل لمصباح الكيروسين الذي عجزت عن اقتنائه.

لم يكن ينقضي الشهر إلا وكانت تنقصني بضعة بنسات، فكنت في الصباح أقطع المسافة الى المكتب وقدرها ستة أميال مشيا، ثم أعود المسافة نفسها مشيا الى البيت فأوفر ثمن تذكرة الحافلة . وكان يمر اليوم - والأيام أحيانا - ولا أجد سوى لقيمات أسد بها رمقي وبدون أن أغير ملابسي . كان السيد سيديلسكي من طولي فأهدى لي يوما إحدى بذلاته القديمة التي كنت أرتديها يوميا لما يقرب من خمس سنوات وبعد ترقيعات وترميمات عديدة أصبحت هي الطاغية واختفت تحتها البذلة الأصلية.

وذات يوم كنت في طريقي عائدا الى أليكساندرا بالحافلة وجلست بجوار شاب في مثل عمري كان يرتدي زيا يحاكي به أزياء رجال العصابات في الأفلام الأمريكية . وبعد قليل انتبهت كما انتبه هو كذلك الى أن بذلتي تلامس طرف السترة التي كان يرتديها فتزحزح بهدوء مبتعدا عني كي لا تلطخ بذلتي سترته . لا شك أنه موقف يثير الضحك ولكن وقعه على نفسي في ذلك الوقت كان مؤلما جدا.

للفقر فضائل ولكنها قليلة . فهو غالبا ما يكون محضنا لأكثر العلاقات البشرية والصداقات ودا وإخلاصا . فعندما يكون المرء ثريا يقبل كثيرون على صداقته ولكنْ قليل هم الذين يُقبلون على صداقتك إن كنت فقيرا مدقعا . فإذا كانت الثروة مغناطيسا يجذب

الآخرين فالفقر منفر يبعدهم عنك، ومع ذلك فإن الفقر غالبا ما يُظهر أكثر ما في الآخرين من صفات الكرم. قررت يوما أن أمشي الى المكتب كي أوفر بضعة بنسات فلمحت سيدة كانت زميلتي في فورت هير واسمها فيليس ماسيكو Phyllis Maseko تسير نحوي على الجانب نفسه من الطريق. فعبرت الطريق خجلا من هندامي المهلهل آملا في ألا تراني أو تتعرف علي. ولكنني سمعتها تناديني باسمي فتوقفت ثم عدت أدراجي متظاهرا بأنني لم أرها حتى تلك اللحظة. سُرّت فيليس لرؤيتي ولكنني لاحظت أنها انتبهت لملابسي الرثة ثم قالت:

– هذا عنواني: ٢٣٤ أورلاندو إيست 234 Orlando East فأرجو أن تزورني.

عقدت العزم على ألا أعرض نفسي للإهانة مرة أخرى ولكنني كنت يوما في أمس الحاجة الى طعام فغشيتها فاطعمتني ولم تشر من بعيد أو قريب الى حالتي التي يرثى لها، وصرت منذ ذلك التاريخ أتردد على زيارتها باستمرار.

لم يكن السيد زوما، صاحب البيت الذي أسكنه، ثريا ولكنه كان رحيما معطاء. فكان هو وزوجته يقدمان لي طعام الغداء أيام الأحد بانتظام طول فترة مقامي عندهما. فكان لحم الخنزير الساخن مع الخضار غالبا وجبتي الوحيدة المطبوخة في الأسبوع كله. لقد كنت أحرص أن أقضي يوم الأحد في منزل السيد زوما وزوجته مهما كانت الظروف. أما بقية أيام الأسبوع فقد كنت أسد رمقي بالخبز وكانت سكرتيرات المكتب أحيانا تعطينني طعاما آكله.

كنت في تلك الأيام متخلفا الى حد بعيد وقد واجهت بسبب ريفيتي وفقري مواقف كثيرة مثيرة للضحك. بعد فترة قصيرة من انتقالي للسكن في بيت زوما كنت عائدا يوما من جوهانسبيرغ وقد أخذ الجوع مني مأخذه. كان معي مبلغ من النقود ادخرته فقررت أن أرضي غروري وأنفقها في شراء شيء من اللحم الطازج ولم أكن أكلت لحما منذ زمن طويل. بحثت عن قصاب فلم أجد فدخلت محلا لبيع الأجبان والمقبلات والأطعمة الخفيفة من النوع الذي لم أعرفه إلا بعد مجيئي الى جوهانسبيرغ. رأيت وراء الزجاج قطعة كبيرة من اللحم أثارت شهيتي فطلبت من صاحب المحل أن يبيعني جزءا منها. لفها الرجل في ورق وناولني إياها فوضعتها تحت ذراعي وانطلقت نحو البيت وقد سال لعابي حالما بتلك الوجبة الفاخرة التي كانت تنتظرني.

وصلت البيت وناديت على إحدى بنات زوما، كانت في السابعة ولكنها شاطرة جدا، فقلت لها:

– خذي هذه القطعة من اللحم لإحدى أخواتك تطبخها لي.

ولاحظت أنها تحاول إخفاء ابتسامة ظهرت على فمها ولم تضحك احتراما لشخصي، فسألتها ممتعضا ما الخبر فقالت:

– هذا اللحم مطبوخ.

فسألتها مرة أخرى إن كانت تعي ما تقول فأوضحت لي أنني اشتريت لحما مدخّنا لا يحتاج الى طبخ وإنما يؤكل على هيئته تلك . كان ذلك أمرا عرفته لأول مرة ولكن بدلا من الإقرار بجهلي أخبرت الصبية بأنني أعلم ذلك وإنما عنيت تسخين اللحم وليس طبخه. أدركت الفتاة جيدا أنني أتظاهر بالعلم ولكنها انطلقت تلبي طلبي على أي حال . أكلت يومها لحما لذيذا كألذ ما يكون اللحم.

وفي أليكساندرا أحييت صداقة قديمة كانت قد نشأت في هيلدتاون مع إيلين نكابيندى Ellen Nkabinde صاحبة الشخصية المرحة المفعمة بالحياة، وكانت مدرّسة بإحدى مدارس الضاحية . أصبحت العلاقة أكثر من مجرد صداقة إذ تحولت الى علاقة عاطفية . كانت معرفتي بإيلين في هيلدتاون خفيفة ولم تترعرع مشاعري نحوها إلا بعد أن قابلتها من جديد في أليكساندرا . كنت أقضي معها ما توفر لدي من وقت فراغ في تلك الأيام ولم تكن فرص اللقاء على انفراد تتوفر لنا لكثرة الناس من حولنا وندرة الأماكن التي يمكننا أن نختلي فيها . هذا، باستثناء المروج والحقول والتلال المحيطة بالمدينة حيث كنا نلتقي في الهواء الطلق تحت الشمس أو تحت النجوم . كنا نقضي الوقت في المشي وربما خرجنا للنزهة إذا سمحت الظروف.

كانت إيلين من قبيلة سوازي ورغم انحسار الفوارق القبيلية في المدينة فقد عايرني أحد أصدقائي بعلاقتي بها لاعتبارات قبيلية محضة . رفضت موقفه رفضا باتا، ولكن اختلاف أصولنا العرقية كان سببا في صعوبات كثيرة . فلم ترض بها زوجة السيد موبوثو لأنها من سوازي. وقد كنت يوما في بيتها عندما طرق الباب فذهبت السيدة موبوثو تفتحه وإذا بها إيلين تبحث عني فأخبرتها السيدة موبوثو بأنني غير موجود . ولم تخبرني بذلك إلا فيما بعد قائلة :

- لقد جاءت فتاة تسأل عنك.

ثم سألتني

- هل هي من شانغان؟

وشانغان قبيلة تمتاز بالعزة والنبل ولكن السؤال كان مشحوناً بالسخرية . استأت لموقفها وأجبت :

- كلا . فهي ليست شانغان بل سوازي.

كان لدى السيدة موبوتو شعور قوي بأنه لا ينبغي لي أن أصادق إلا فتيات من الكوسا.

ولكن ذلك لم يكن ليثنيني عن حبي واحترامي لإيلين، ولم أخف إحساسي بشيء من الشهامة في تجاهلي لنصائح أولئك المعارضين لعلاقتي بها . كانت تلك العلاقة حدثا جديدا في حياتي أشعرني بالجسارة في اتخاذ عشيقة ليست من قبيلة الكوسا . كنت شابا يافعا ضائعا في المدينة فجاءت إيلين لا لتلعب دور حبيبة القلب وحسب بل ودرو الأم كذلك،

تسند ظهري وترفع من ثقتي بنفسي وتزودني بالقوة والأمل . ولكن ما هي إلا شهور معدودة حتى رحلت إيلين عن أليكساندرا وانقطعت الصلة بيننا.

كان لأسرة زوما خمس بنات حسنوات وكانت أملحهن ديدي Didi وكانت في عمري تقريبا وكانت تقضي أغلب أيام الأسبوع في العمل في منازل البيض في ضواحي جوهانسبيرغ . كنت في أيامي الأولى نادرا ما أراها وغالبا ما يكون ذلك في لقاءات خاطفة، ولكن بعد أن تعرفت عليها عن قرب وجدت نفسي واقعا في حبها هي الأخرى. أما ديدي فلم تكن تعيرني كثير اهتمام وإن كانت قد لاحظت أنني لا أملك سوى بذلة واحدة مرقعة وقميص واحد فقط وأن هيئتي لا تختلف كثيرا عن هيئة المتسكعين في المدينة.

كانت ديدي تعود الى أليكساندرا في نهاية كل أسبوع برفقة أحد الشباب افترضت أنه عشيقها . كان شابا متأنقا موسرا يمتلك سيارة وهو أمر غير معهود في تلك الأيام ، يبدو لي أنه واحد من رجال العصابات . كان يرتدي بذلات أمريكية فاخرة مزدوجة الصدر وقبعات ذات حافة عريضة ويهتم اهتماما كبيرا بمظهره وأناقته، وكان يقف بخيلاء وتكبر في ساحة المنزل ويداه في جيبي صدريته . كان يبادلني التحية في أدب لكنني كنت أحس أنه لا يراني منافسا كبيرا له.

كنت أتحرق لأخبر ديدي بحبي لها ولكنني كنت أخشى أن ترفضني . لم أكن "دون خوان" بأي اعتبار من الاعتبارات وكنت ترددا شديد الإرتباك في صحبة الفتيات، ولم أكن أعرف أو أتقن فنون الحب والمغازلة كما يتقنها الآخرون . كانت أم ديدي أحيانا تطلب منها أن تحمل الطعام اليّ، فكانت تصل باب غرفتي وملامح وجهها تقول إنها ترغب في تأدية المهمة التي كلفت بها بأسرع وقت ممكن . ولكنني كنت أحاول كسب الوقت فأسألها عن أمور مختلفة.

- ما هو مستواك الدراسي؟

- الصف الخامس.

- لماذا تركت المدرسة؟

- أصابني الملل.

- آه، ولكن ينبغي أن تستأنفي الدراسة من جديد . إنك من نفس سني تقريبا، وليس عيبا الالتحاق بالدراسة في هذه السن، وإلا فسوف تندمين على ذلك في المستقبل. يجب أن تفكري جيدا في مستقبلك. قد تبدو لك الأمور الآن على أحسن مايرام لأنك ما تزالين شابة وجميلة وحولك كثير من المعجبين، ولكن ينبغي أن تكون لك مهنتك المستقلة.

كنت أعلم علم اليقين أن هذه الكلمات ليست أبرع أو أعذب ما قاله محب لحبيبته ولكنني لم أكن أعرف سبيلا آخر للدخول في الموضوع . كانت تنصت بإمعان ولكنني أحسست أنها غير مهتمة بل وكأنها تشعر بشيء من التعالي نحوي.

كنت أريد أن أتقدم لخطبتها ولكنني لم أكن لأفعل ذلك قبل أن أتأكد من أنها ستستجيب . فرغم أنني كنت أحبها لم أكن لأرضي غرورها بإعطائها فرصة لترفض طلبي. واصلت ملاحقتها ولكن في حدود ضيقة وبشيء من التردد . أجل، إن التعقل في السياسة فضيلة ولكنه ليس كذلك في الحب . لم أكن على ثقة بأنني سأنجح في طلبي ولم أكن في الوقت ذاته مطمئنا الى قدرتي على تحمل الهزيمة إن أنا أخفقت .

مكثت في ذلك البيت نحوا من سنة ولكنني لم أجرؤ على التعبير لديدي عن شيء من مشاعري، ولم يبد أنها أصبحت أقل اهتماما بصديقها ذاك ولا أكثر اهتماما بي . ودعتها بعبارت الشكر والامتنان لصحبتها الطيبة ولكرم أسرتها، ولم أرها بعد ذلك لعدة سنوات.

في أحد الأيام عندما كنت أزاول المحاماة في جوهانسبيرغ دخلت مكتبي شابة وأمها تطلبان رفع قضية ضد صديق الفتاة التي أصبحت أما لطفله وهو يرفض أن يتزوجها . كانت ديدي هي تلك الفتاة وكانت تبدو منهكة وترتدي فستانا باهت اللون . تألمت لرؤيتها وتخيلت أن الأمور ربما سارت على غير ما هي عليه . بعد بحث المسألة لم ترفع ديدي قضية ضد عشيقها السابق ولم أرها بعد ذلك اليوم قط.

رغم إخفاقاتي وقصوري في عالم العشق والغرام أخذت أتكيف تدريجيا مع حياة المدينة، ونمت في داخلي قوة حقيقية جعلتني أحس بأنني قادر على النفوذ الى خارج العالم الذي ترعرعت فيه . اكتشفت شيئا فشيئا أنني لم أعد في حاجة الى الإتكاء على أصولي الملكية أو الإعتماد على دعم أسرتي كي أتقدم في حياتي، فأنشأت علاقات مع أناس لم يعرفوا علاقتي بأسرة تيمبو الملكية، ولم يكترثوا لذلك. كنت أسكن بيتا مستقلا خاصا، وإن كان متواضعا، وبدأت تنمو لدي الثقة وروح الاعتماد على النفس اللازمتين لأن أقف على قدمي.

في أواخر عام ١٩٤١ تناهي الى سمعي أن السلطان قادم لزيارة جوهانسبيرغ ويرغب في مقابلتي. انتابني شعور بالقلق ولكنني كنت أعلم أن من واجبي أن ألتقي به . نزل السلطان في مجمع المقر الرئيسي لجمعية ويتووترزراند للعمال الأصليين التي كانت تتولى تجنيد العمال لمناجم جوهانسبيرغ .

بدا لي السلطان وقد تغير كثيرا، أو ربما كنت أنا الذي تغير . لم يشر من بعيد أو قريب الى هروبي من القرية أو الى فورت هير أو الى الزواج الذي لم يتم . كان لطيفا معي يسألني كما يسأل الأب ابنه ليطمئن على دراستي وخططي للمستقبل . كان يعلم أنني اختطت جادا طريقا لحياتي يختلف عما تخيله أو خططه لي، ولم يحاول أن يثنيني عن الخط الذي أسير فيه، وكنت بدوري ممتنا بهذا الاعتراف الضمني بأنني لم أعد في عهدته أو تحت وصايته.

كان للقائي بالسلطان أثر ذو جانبين : فمن جهة رددت لنفسي اعتبارها، ومن جهة أخرى استعدت احترامي الشخصي لبيت التيمبو الملكي . فقد كنت لا أكترث لصِلاتي القديمة وهو الشعور الذي تولد لدي لتبرير هروبي من القرية ولتخفيف ألم غربتي عن ذلك

العالم الذي كنت أكن له الحب والتقدير . لقد قرت عيني بعودتي الى دفء حضن السلطان من جديد وازددت اطمئنانا وراحة بال .

وبينما أعرب السلطان عن رضاه على حالي أبدى قلقه تجاه جاستِس وأصر على ضرورة عودته الى مكيكيزويني . كنت أعلم أن جاستِس أصبح على علاقة بإحدى السيدات ولم يعد في نيته الرجوع الى القرية . بعد مغادرة السلطان تقدم أحد مساعديه المدعو بانغينداو Bangindawo بدعوى قضائية ضد جاستِس لإجباره على العودة ووافقت على مساندة جاستِس في دفاعه أمام محكمة الأفريقيين. ورافعت عنه في الجلسة بقولي إن جاستِس رجل راشد ليس مجبرا على الرجوع الى مكيكيزويني لمجرد أن أباه أمر بذلك. وعندما جاء دور بانغينداو لم يرد على ما قلت ولكنه استغل الفرصة للقدح في ولائي الشخصي . وكان يناديني متعمدا باسمي القبيلي وهو ماديبا ليذكرني بأصولي التيمبوية، قائلا :

- إن السلطان ياماديبا هو الذي رعاك وعلمك ورباك كأحد أبنائه وتحاول أنت اليوم أن تفرق بينه وبين ابنه من لحمه ودمه . إن هذا هو عكس رغبة الرجل الذي تولي أمرك بكل إخلاص وهو عكس الطريق الذي يجب أن يسير فيه جاستِس.

كان لكلام بانغينداو وقع شديد على نفسي . أجل، لقد كانت قِسمة جاستِس في الحياة تختلف عن قسمتي، فهو ابن زعيم وسوف يرث الزعامة عن أبيه . أخبرت جاستِس في نهاية الجلسة بأنني غيرت من رأيي وأعتقد أنه من الأفضل له أن يعود، فتحير لهذا التغير ورفض أن يستمع إلى كلامي . وعزم جاستِس على البقاء في جوهانسبيرغ ويبدو أنه أخبر عشيقته بالنصيحة التي أسديتها إياه لأنها امتنعت عن التحدث إلي منذ ذلك التاريخ.

في بداية عام ١٩٤٢ - توفيرا للنقود ورغبة في الإقتراب من وسط جوهانسبيرغ - قررت الانتقال من الحجرة الخلفية في بيت أسرة زوما والإقامة في مجمع جمعية ويتووترزراند للعمال الأصليين، وقد ساعدني على ذلك السيد فيستيل رئيس العمال في حجرة المناجم الذي عاد من جديد ليلعب دورا حاسما في حياتي . فقد بادر من نفسه بأن عرض عليّ السكن بالمجان في مجمع منطقة مناجم السلسلة الصخرية المتاخمة للمحيط Reef.

كان مجتمع المجمع متعدد الأعراق، خليطا من الأفريقيين العصريين سكان المدن . كان فيه السوتو والتسوانا Tswana والفيندا Venda والزولو والبيدي Pedi والشنغان والناميبيون Namibians والموزمبيقيون Mozambicans والسوازي والكوسا . قليل من أولئك السكان كان يتكلم الإنجليزية وكانت لغة التخاطب الشائعة بينهم عبارة عن مزيج من ألسنة ولهجات متعددة يسمونها فاناغالو Fanagalo. شاهدت في ذلك المجتمع انفجار العداوات العرقية ولكنني شاهدت أيضا روح الألفة والتسامح التي يمكن أن تنشأ بين رجال ذوي انتماءات وولاءات مختلفة . ورغم ذلك فقد عشت بينهم كما يعيش السمك خارج الماء . فبدلا من أن أعمل في أجواف المناجم مع بقية الرجال كنت أذهب للدراسة أو العمل في مكتب

المحاماة حيث يقتصر مجهودي العضلي على بضعة مشاوير في المدينة أو تنظيم بعض الملفات.

ونظرا الى أن المجمع كان محطة للعديد من الزوار من زعماء القبائل فقد حظيت بلقاء قادة القبائل وزعمائها من مختلف أنحاء جنوب أفريقيا. وأذكر أنني قابلت ذات يوم ملكة باسوتولاند Basutoland أو ما يعرف الآن بلوسوتو واسمها مانتاسيبو موشويشوى Mantsebo Moshweshwe وكان برفقتها إثنان من الزعماء كانا يعرفان والد ساباتا المدعو يونغيليزوى Jongilizwe. سألتهما عنه فسردا لي حكايات مثيرة عنه وعن شبابه فعشت لمدة ساعة كاملة وكأنني في بلاد التيمبو.

أعارتني الملكة اهتماما خاصا وكانت تتحدث إلي مباشرة ولكن بلغة سيسوتو Sesotho التي لم أكن أفهم منها سوى كلمات معدودة. وسيسوتو هي لغة السوتو والتسوانا الذين تعيش أعداد كبيرة منهم في إقليم ترانسفال Transvaal وإقليم أورينج فري ستايت Orange Free State. نظرتْ إلي الملكة مرة باستغراب وقالت بالإنجليزية:

- أي محام أو زعيم ستكون إن لم تتقن لغة أهلك وابناء شعبك؟

لم أجد جوابا لهذا السؤال الذي أحرجني وأيقظني من غفوتي ففطنت الى ضيق أفقي ومدى قصوري عن مهمة خدمة قومي. لقد استسلمت لاشعوريا للتقسيمات التي أقامتها وتشجعها حكومة البيض ولم أعد قادرا على التحدث بلغة أبناء جلدتي. فما لم يتقن المرء لغة قوم لن يكون قادرا على خطابهم أو الإستماع إليهم، ولن يشاركهم آمالهم وطموحاتهم، ولن يفهم تاريخهم أو يتذوق شعرهم أو يستعذب أغانيهم وأهازيجهم. لقد اتضح لي آنذاك أننا لسنا أقواما متعددة تتكلم لغات مختلفة بل نحن أمة واحدة نتخاطب بألسنة متنوعة.

بعد ستة أشهر من زيارة السلطان لجوهانسبيرغ وصلنا نبأ وفاته في شتاء عام ١٩٤٢ . كانت علامات السأم والإرهاق ظاهرة عليه عند لقائنا الأخير فلم يكن موته بالأمر المفاجيء بالنسبة لنا. قرأنا خبر الوفاة في الصحف لأن البرقية التي أرسلت لجاستِس لم تصل في موعدها فقررنا السفر فورا الى ترانسكاي ووصلناها في اليوم التالي لجنازة السلطان.

لقد أسفت لتأخري عن مراسم الدفن، ولكنني كنت ممتنا في داخل نفسي لإصلاح ما بيني وبين السلطان قبل وفاته. ومع ذلك فلم أنج من وخزات الضمير لأنني كنت على يقين بأنه وإن هجرني كل أصدقائي إو انهارت كل خططي وتحطمت كل آمالي فإن السلطان - حتى إبّان قطيعتي معه - لم يكن ليتخلى عني أبدا. ورغم ذلك فقد أعرضت عنه وأدرت له ظهر المجن. ظننت وقتها أن هِجراني له ربما كان من أسباب التعجيل بمنيته.

برحيل السلطان فقدت الساحة رجلا متنورا متسامحا حقق ذلك الهدف الكبير الذي يميز حياة العظماء ألا وهو الحفاظ على وحدة أبناء شعبه. فقد ظل جميعهم - تحرريون ومحافظون، تقليديون وإصلاحيون، موظفون وعمال - موالين له مخلصين، لا لأنهم

كانوا قابلين بكل سياساته ولكن لأن السلطان كان يستمع لجميع الآراء ويحترم مختلف وجهات النظر.

مكثت في مكيكيزويني بعد انتهاء مراسم الدفن نحو أسبوع قضيته في التفكير واستعادة الذكريات وإعادة اكتشاف نفسي. وليس أفضل من الرجوع الى مكان لم يتغير لاكتشاف ما طرأ على المرء من تغيرات. ظل "المكان العظيم" كما كان عليه أيام طفولتي وصباي بينما تغيرت نظرتي للحياة وللعالم وما عادت تستهويني الوظيفة الحكومية أو مهنة مترجم في قسم شؤون السكان الأصليين. وما عدت أرى مستقبلي مرتبطا ببلاد التيمبو أو بترانسكاي، بل إنني أخبرت بأن استعمالي للغة الكوسا لم يعد سليما، وأصبحت متأثرا بلغة الزولو إحدى اللغات السائدة في منطقة مناجم السلسلة الصخرية المتاخمة للمحيط Reef.

لقد تغيرت أفكاري ومعتقداتي تغيرا جذريا نتيجة للفترة التي عشتها في جوهانسبيرغ ولتعرفي على شخصيات مثل غور راديبي ولتجربتي في مكتب المحاماة. تذكرت ذلك الفتي اليافع الذي غادر مكيكيزويني ساذجا ريفيا لم ير من العالم شيئا ذا بال. لقد تهيأ لي أنني أصبحت أرى الأمور على حقيقتها. ولكن ذلك الإعتقاد بدوره كان في الواقع نسيجا كاذبا من نسج الخيال.

استبدّ بي صراع داخلي بين عقلي وقلبي. فقلبي يقول إنني من التيمبو ربّيت وأرسلت الى المدرسة من أجل القيام بدور ذي أهمية خاصة في الحفاظ على سلالة القبيلة وتخليدها. أليس على عاتقي التزام نحو الموتى من أسلافي؟ أليس على عاتقي تعهدٌ لأبي الذي تركني في عهدة السلطان؟ أليس على عاتقي التزام نحو السلطان نفسه الذي تولى رعايتي وكأنه أبي؟ أما عقلي فكان يقول إن من حق كل إنسان أن يرسم مستقبله كما يحلو له وأن يختار دوره في الحياة بنفسه. أفلا يجوز لي أن أحدد خياراتي بنفسي؟

أما وضع جاستِس فقد كان مختلفا عن وضعي، إذ ألقيت على كاهله مسؤوليات جديدة مهمة بعد رحيل السلطان. وكان عليه أن يخلف السلطان في زعامة القبيلة فقرر البقاء في مكيكيزويني وممارسة حقه الموروث. وكان عليّ أن أعود الى جوهانسبيرغ قبل موعد تنصيبه. يقول أحد أمثال الكوسا: "عبرت أنهارا كثيرة" ويضرب لمن يُكثر السفر والترحال ويكتسب الحكمة والخبرة الواسعة. تذكرت هذا المثل عندما عدت الى جوهانسبيرغ بمفردي. فمنذ عام ١٩٣٤ عبرت أنهارا كثيرة هامة في موطني الأصلي منها نهرا امباشا وكاي العظيم Great Kei في طريقي الى هيلدتاون، ونهرا أورينج Orange وفال Vaal في طريقي الى جوهانسبيرغ. ولكن لا تزال أمامي أنهار كثيرة لأعبرها.

في نهاية عام ١٩٤٢ اجتزت امتحانات شهادة الليسانس في الآداب BA وبلغت الدرجة التي طالما اعتبرتها أرفع الدرجات. كنت فخورا بذلك الإنجاز مع إدراكي أن الشهادة في حد ذاتها ليست مفتاحا سحريا أو جواز سفر مضمونا لتحقيق النجاح.

وفي مكتب المحاماة ازدادت علاقتي مع غور توثقا مما أثار سخط السيد سيدليسكي.

وكان غور يقول إن التعليم ضروري لتقدم أمتنا، ولكنه يؤكد على أن الأمم والشعوب لا تنال حريتها بالتعليم وحده.

– التعليم ضروري بلا شك، ولكن إن نحن اعتمدنا على التعليم وحده فسوف ننتظر الف عام قبل أن نحصل على حريتنا. فنحن فقراء وينقصنا المدرسون والمدارس، بل إننا لا نملك حتى السلطة لكي نعلم أنفسنا.

يؤمن غور بالبحث عن الحلول، وليس ممن يسهبون في الحديث عن النظريات. وطالما اصر على أن المحرك الرئيسي للتغيير هو المؤتمر الوطني الأفريقي لأن سياساته هي أفضل وسيلة للنضال من أجل استلام السلطة في جنوب أفريقيا. وكان يشير الى أن المؤتمر هو أقدم منظمة وطنية أفريقية في البلاد تتبني الدعوة للتغيير منذ تأسيسها عام ١٩١٢. ندد دستور المؤتمر بالتفرقة العنصرية وتولى رئاسته زعماء من تجمعات قبيلية مختلفة وظل ينادي بحق المواطنة الكامل لجميع الأفريقيين في جنوب أفريقيا.

رغم أن غور لم يتلق تعليما رسميا كان يفوقني علما في كل مجال من مجالات المعرفة تقريبا. كان يلقي علي المحاضرات المرتجلة أثناء استراحة الغداء، ويعيرني الكتب، وينصحني بالتعرف على أشخاص معينين وحضور اجتماعات معينة. تلقيت دورتين في التاريخ الحديث بجامعة فورت هير وكنت على علم بكثير من الحقائق التاريخية ولكن غور كان قادرا على تفسير الأحداث وتوضيح الأسباب والدوافع التي جعلت الأمم والأفراد تنتهج ما انتهجته من أعمال ومواقف وتصرفات. لقد شعرت في صحبته بأنني أتعلم التاريخ من جديد. ولكن أهم انطباع تركه غور في نفسي هو التزامه الشديد والكامل بالنضال من أجل الحرية في جنوب أفريقيا. كان أحيانا يتردد على أكثر من اجتماع في اليوم الواحد يلقي الخطب والمحاضرات، وكان يبدو وكأنه لا يفكر في شيء آخر عدا الثورة.

رافقت غور لحضور اجتماعات الهيئة الاستشارية للضاحية واجتماعات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ولكنني كنت أجلس مراقبا دون أن أشارك في المداولات، ولا أذكر أنني تحدثت في أي من تلك الاجتماعات. كنت أسعى إلى فهم القضايا المطروحة للنقاش واستيعابها وتقييم الآراء والمداولات وأتعرف على مستويات المتحدثين وقدراتهم ومهاراتهم في النقاش والتحاور. كانت اجتماعات الهيئة الاستشارية روتينية يغلب عليها الطابع البيروقراطي، أما اجتماعات المؤتمر الوطني فكانت مليئة بالحيوية وتتناول قضايا مثل البرلمان وقوانين العبور والايجارات وتسعيرة تذاكر الحافلات وغيرها من القضايا والموضوعات التي تهم الأفريقيين.

وفي أغسطس ١٩٤٣ شاركت مع غور في مسيرة ضمت عشرة آلاف شخص تأييدا لمقاطعة الحافلات العامة في أليكساندرا احتجاجا على رفع سعر تذكرة السفر بالحافلة من أربعة بنسات الى خمسة. كان غور أحد قادة تلك المسيرة وشاهدت عن كثب كيف يدير الأمور. كان لتلك الحملة أثر كبير في نفسي، فقد تحولت من مجرد مراقب الى مشارك فاعل، واكتشفت أن المسيرات من هذا القبيل تحيي النفوس وتلهب المشاعر وتلهم العقول.

كما تأثرت بنجاح حملة المقاطعة التي تواصلت مدة تسعة أيام كانت الحافلات العامة فيها تجوب المدينة خالية من الركاب فاضطرت الشركة إلى إلغاء الزيادة والإبقاء على السعر القديم.

لم أكن أستمع لآراء غور وحده في مكتب المحاماة إذ كنت كثيرا ما أدخل في مناقشات مع الرجل الأبيض هانس موللر Hans Muller وهو صاحب وكالة عقار ومن عملاء السيد سيدلسكي. وكان موللر نموذج رجل الأعمال الذي لا يرى العالم إلا من خلال منظار الطلب والعرض. في أحد الأيام أشار موللر بإصبعه عبر النافذة وقال:

- اسمع يا نلسون. ألا ترى أولئك الرجال والنساء يتسابقون في كل اتجاه في الشوارع؟ ما هو الهدف الذي يلاحقونه؟ ما الذي يدفع بهم الى العمل بكل هذا الحماس والانفعال؟ دعني أجيبك. كلهم - بدون استثناء - يسعون من أجل المال والثروة لأن المال والثروة تساوي السعادة. المال - ولا شيء غير المال - هو الهدف الوحيد الذي يجب أن تسعى إليه. وبمجرد أن تكتفي من المال فلن تحتاج الى أي شيء آخر في هذه الحياة.

وكان هناك أيضا الرجل الملون ويليام سميث William Smith الذي كان يشتغل في تجارة العقارات بين الأفريقيين، وكان كثير التردد على المكتب. سميث من المحاربين القدامى في نقابة عمال الصناعة والتجارة Industrial and Commercial Workers Union أول نقابة عمال للسود في جنوب أفريقيا أسسها كليمينتس كادالاي Clements Kadalie الذي تغيرت آراؤه ومواقفه كثيرا مع الزمن. قال لي سميث يوما:

- يانلسون، مضى علي وقت طويل في العمل السياسي، وإني نادم على كل لحظة قضيتها في السياسة. ضيعت زهرة عمري في خدمة رجال مغرورين أنانيين وضعوا مصلحتهم الشخصية فوق مصالح من كانوا يدّعون بأنهم يمثلونهم. السياسة - من خلال تجربتي - ليست إلا خدعة لاختلاس أموال الفقراء.

لم يكن السيد سيديلسكي يشارك في تلك المناقشات إذ كان يعتبر النقاش في السياسة - كالعمل فيها - مضيعة للوقت، وكان يشير علي مرارا وتكرارا بأن أبتعد عن السياسة. فقد حذرني من وولتر سيسولو ومن غور قائلا:

- هؤلاء سوف يسممون عقلك. ألا ترغب في أن تصبح محاميا يانلسون؟ وإذا كان الأمر كذلك فعليك إذن أن تكون محاميا قديرا ناجحا، أليس كذلك؟ أما إذا انخرطت في السياسة فسيكون ذلك على حساب مهنتك وستجد نفسك في مواجهة مع السلطات التي هي في الغالب تقف الى جانبك في أعمالك المهنية. سوف تخسر جميع زبائنك وتفلس أعمالك وتتشرذم أسرتك وينتهي بك المطاف في أحد السجون. هذا هو مصيرك إن أنت دخلت السياسة.

كنت أستمع لجميع هؤلاء الرجال وأقلب كلامهم بعناية في كل اتجاه ومن جميع الجوانب، وكانت لكل رأي من تلك الآراء وجاهته. لقد بدأت فعلا تنشأ لدي ميول نحو

العمل السياسي ولكن لم تتبين لي بعد طبيعة ذلك العمل أو كيف ألج عالم السياسة، فاخترت أن أقف جانبا أغالب حيرتي وأتدبر أمري.

أما فيما يتعلق بمهنتي فقد كان موقف غور شهما تجاهي وتجاوز مجرد إسداء النصح والتوجيه إلي. في أوائل عام ١٩٤٣ جاءني غور يوما وانتحى بي جانبا وقال:

– اسمع يابني . لن يمنحك هذا المكتب إجازة التدريب ما دمت أنا موظفا فيه حتى وإن تحصلت على شهادتك الجامعية .

دهشت لهذا الكلام وقلت له إنني لا أصدق ما يقول لأنه لا يتدرب مثلي لكي يعمل محاميا، ولكنه رد قائلا:

– هذا لا يغير من الأمر شيئا يا نلسون . سيقولون: "لدينا غور وبإمكانه التعامل في الأمور القضائية مع الزبائن وهو يؤدي مهمة جلب الزبائن على أحسن مايرام، فلا حاجة لنا بشخص آخر يقوم بالعمل نفسه" . لن يواجهوك بهذا الأمر مباشرة ولكنهم سيماطلون ويسوفون . ومن المهم جدا لمستقبل نضال شعبنا في هذا البلد أن تتأهل محاميا، ولهذا السبب فسوف أترك العمل في هذا المكتب لأنشيء مكتبا مستقلا للعقارات، وعندما أغادر فلن يكون أمامهم خيار سوى أن يجيزوك لمزاولة المحاماة.

ناشدت غور بإلحاح ألا يستقيل، ولكنه كان عنيدا في موقفه وبعد أيام قدم استقالته للسيد سيديلسكي ولم يكن أمام سيديلسكي إلا أن يوافق على إدراج إسمي في قائمة المحامين كما وعد . لا أستطيع أن أجزم إذا كان لغياب غور عن المكتب تأثير في هذا الأمر ولكن استقالته دليل آخر على كرمه وأريحيته.

بعد اجتيازي للامتحانات في جامعة جنوب أفريقيا أوائل عام ١٩٤٣ عدت الى فورت هير لحضور حفل التخرج . وقبل أن أذهب الى الجامعة قررت أن أكافيء نفسي باقتناء بذلة لائقة، وكان لزاما علي أن أقترض مبلغا من المال لذلك الغرض من وولتر سيسولو . كانت أول مرة أمتلك فيها بذلة جديدة عندما ذهبت الى فورت هير وهي البذلة التي اشتراها لي السلطان، وها هي المرة الثانية التي أذهب فيها الى فورت هير في بذلة جديدة . واستعرت بزة التخرج الرسمية من صديقي وزميلي في التخرج راندال بيتيني Randal Peteni.

أحضر ابن أختي كيه دي ماتانزيما الذي كان تخرج قبل عدة سنوات أمي وزوجة السلطان نو-إنغلاند الى حفل التخرج . كنت مسرورا بوجود أمي، وأما مجيء نو-إنغلاند فقد كان بمثابة مباركة من السلطان الراحل نفسه لتلك المناسبة .

بعد التخرج قضيت أياما في ضيافة داليونغا Daliwonga وهو اسم ماتانزيما القبيلي الذي كنت أناديه به في قاماتا . كان داليونغا قد اختار القيادة القبيلية التقليدية طريقا له في الحياة وكان مرشحا لتولي زعامة قبائل إميغرانت تيمبولاند Emigrant Thembuland القانطة في أقصى غرب ترانسكاي . وقد حاول أثناء إقامتي عنده أن يقنعني بالرجوع للاقامة في أومتاتا بعد تأهلي لمزاولة المحاماة، وكان يسألني:

- لماذا تصر على البقاء في جوهانسبيرغ فحاجتنا إليك هنا أكبر؟

أجل، إنه مصيب . فقد كان عدد المؤهلين الأفريقيين في ترانسفال يفوق عددهم في ترانسكاي، ولكنني أجبت داليونغا بأن اقتراحه سابق لأوانه . إلا أنني كنت أحس في أعماقي بأنني أتجه نحو تأدية رسالة من نوع آخر، إذ بدأ يتضح لي من خلال علاقتي بغور وسيسولو أن واجبي هو خدمة قومي جميعا وليس جزءا أو فصيلا معينا منهم . لقد أحسست بأن كل التيارات تأخذني بعيدا عن ترانسكاي وفي اتجاه ما كان يبدو لي أنه نقطة الوسط حيث تذوب الولاءات الإقليمية والعرقية نحو هدف واحد مشترك كبير.

كان حفل التخرج في فورت هير فرصة للذكريات والتفكير العميق، وقد صدمت بعنف للفرق الشاسع بين المسلمات التي كانت ثابتة في عقلي وبين تجربتي العملية . فقد تخليت عن الافتراض المسلم به أن خريج الجامعة يصلح بالضرورة لأن يكون زعيما وأن صلاتي ببيت التيمبو الملكي تضمن لي الاحترام والتقدير . لم يعد نجاحي في مهنتي وضمان دخل مريح هدفا أساسيا في حياتي . وجدت نفسي أنجذب نحو عالم السياسة لأن معتقداتي وأفكاري القديمة لم تعد تقنعني أو ترضي طموحي وتطلعاتي.

كنت في جوهانسبيرغ أتردد على تجمعات وأتحرك في عوالم تحتل فيها البداهة والتجربة العملية مكانة أهم من المؤهلات الأكاديمية . وحتى في اللحظة التي كنت أتسلم فيها شهادتي الجامعية كان يبدو كل ما تعلمته في الجامعة بعيدا لا علاقة له بما يدور حولي من أحداث وتطورات . كان الأساتذة في الجامعة يتهربون من تناول قضايا الإستبداد العنصري وحرمان الأفريقيين من فرص الحياة ومن مناقشة عشرات القوانين والأنظمة التي تخضع الرجل الأسود للاستعباد . أما في جوهانسبيرغ فقد كنت أواجه هذه القضايا كل يوم . لم يرشدني أحد ماذا أعمل للقضاء على شرور التعصب العنصري وكان لزاما علي أن أتعلم بالتجربة والخطأ.

فور رجوعي الى جوهانسبيرغ في أوائل عام ١٩٤٣ سجلت لتحضير الشهادة الجامعية ليسانس في القانون بجامعة ويتووترزراند وهي الشهادة المطلوبة لإعداد المحامين .تقع جامعة ويتووترزراند، التي تعرف باسم جامعة ويتس 'Wits'، في حي برامفونتينBraamfontein شمال وسط جوهانسبيرغ ويعدها كثيرون الأولى بين جامعات جنوب أفريقيا التي تدرس باللغة الإنجليزية.

كان العمل في مكتب المحاماة فرصتي الأولى للاحتكاك المتواصل مع البيض، ولكن الجامعة أفسحت لي المجال للتعرف على مجموعة من الشباب البيض ممن هم في سني . كنا في فورت هير نحتك أحيانا بطلاب بيض من جامعة رودس بمدينة غراهمزتاون Grahamstown، أما في جامعة ويتس فقد كنت أتلقى دروسي يوميا مع الطلاب البيض . كان ذلك الأمر جديدا عليهم كما هو جديد علي لأنني كنت الطالب الأفريقي الوحيد في كلية الحقوق .

كانت الجامعات التي تدرس باللغة الإنجليزية في جنوب أفريقيا محاضن هامة للقيم والأفكار التحررية، ومما يذكر لهذه المؤسسات استقبالها للطلاب السود. ولم يكن ذلك واردا بأي حال من الأحوال في جامعات الأفريكان سكان جنوب أفريقيا من أصول أوروبية.

ولكن رغم التوجهات الليبرالية في الجامعة لم أشعر بارتياح كامل فيها. فتجربتي فيها باعتباري الطالب الأفريقي الوحيد لم تكن طيبة. كنت - في أحسن الأوقات - أظهر غريبا بين البيض، وفي غيرها كنت أظهر نشازا متطفلا. كنت حذرا في تصرفاتي طول الوقت وقوبلت بكرم من البعض وعداء من البعض الآخر. ومع أنني اكتشفت فيما بعد وجود مجموعة كبيرة من البيض المتعاطفين الذين أصبحوا في وقت لاحق أصدقاء وزملاء، لم يكن معظم البيض في جامعة ويتس تحرريين أو يغضون الطرف عن فوارق اللون والعرق.

أذكر أنني في أحد الأيام دخلت المحاضرة متأخرا بضع دقائق وجلست الى جانب ساريل تايي Sarel Tighy، الذي اصبح فيما بعد عضوا في البرلمان عن الحزب المتحد United Party، وما أن جلست حتى لملم كتبه وأوراقه بطريقة مسرحية وانتقل الى مقعد آخر بعيدا عني رغم وجود عدد قليل من الكراسي الشاغرة. كان هذا التصرف هو القاعدة وليس الاستثناء في تلك المؤسسة. لم يجرؤ أحد على النطق بكلمة "كافير" Kaffir في حقي وهو الاسم الذي يلقب به البانتو في جنوب أفريقيا ويستخدم للتحقير. كانت العداوة تجاهي صامتة ولكنني شعرت بوجودها على أي حال.

كان أستاذ مادة القانون السيد هاهلو Mr Hahlo شخصية متشددة، عقلانيّ المنهج والتفكير لا يحتمل روح الاستقلالية في طلابه. وكانت له وجهة نظر غريبة تجاه المرأة والأفريقيين إذ كان يقول إنهم غير مؤهلين لمهنة المحاماة. فالقانون في رأيه علم من علوم الاجتماع لا تملك المرأة ولا يملك الافريقيون من الانضباط ما يمكّنهم من استيعاب دقائقه وتفاصيله. وقال لي ذات مرة إنه ما كان ينبغي لي أن ألتحق بجامعة ويتس، والأولى أن أحضر لشهادتي في جامعة جنوب أفريقيا. ولكن مع مخالفتي لوجهة نظر الأستاذ هاهلو فلم أستطع في الواقع أن أدحضها إذ كانت كفاءتي في الدرس والتحصيل سيئة للغاية.

في جامعة ويتس تعرفت على كثير من الزملاء والأصدقاء الذين كُتب لي فيما بعد أن أشاركهم محن النضال السياسي من أجل الحرية وتقلباته، والذين لم أكن لأحقق شيئا بدونهم. تكلف كثير من الطلاب البيض جهدا لإشعاري بأنني واحد منهم. تعرفت في السنة الأولى على جو سلوفو Joe Slovo وروث فيرست Ruth First التي أصبحت زوجته فيما بعد وكان جو آنذاك، ولا يزال اليوم، عقلية فذة، ذا ذكاء حاد وذهن وقّاد لم أر مثله في من رأيت وقابلت. كان شيوعيا شديد الحماس للشيوعية واشتهر بسهراته المفعمة بالحيوية والبهجة. أما روث فقد كانت اجتماعية ودودة وكاتبة موهوبة، وكانت هي وجو من الأسر اليهودية التي هاجرت الى جنوب أفريقيا.

كما نشأت صداقة العمر بيني وبين جورج بيزوس George Bizos من أبناء الجالية

اليونانية في جنوب أفريقيا الذي جمعت شخصيته بين الطبيعة الودية والعقل الفذ، وبرام فيشر Bram Fischer وكان محاضرا في الجامعة بشكل جزئي وهو من سلالة إحدى العائلات الأفريكانية المرموقة، إذ تولى جده رئاسة الوزراء في مستعمرة أورينج ريفر Orange River Colony وكان أبوه قاضي قضاة إقليم أورينج فري ستايت Orange Free State. ورغم أن برام كان بإمكانه أن يصبح يوما ما رئيس وزراء جنوب أفريقيا إلا أنه تحول منذ ذلك العهد الى أقوى وأشجع من عرفت من مناصري النضال الوطني الأفريقي. كما تعرفت على توني أوداود Tony O'Dowd وهارولد وولب Harold Wolpe من الثوريين السياسيين وأعضاء الحزب الشيوعي، إضافة الى جولز براودي Jules Browde وزوجته من الأحرار المناهضين بشدة لنظام التفرقة العنصرية.

نشأت في جامعة ويتس علاقة بيني وبين عدد من الطلاب الهنود. ففي فورت هير كان ثمة طلاب هنود ولكنهم عزلوا أنفسهم وأقاموا في سكن منفصل، ونادرا ما كنت أختلط بهم. أما في ويتس فقد صادقت إسماعيل مير Ismail Meer ودجيه إن سينغ J N Singh وأحمد بهولا Ahmed Bhoola وراملال بهوليا Ramlal Bhoolia. وكانت شقة إسماعيل رقم ١٣ تتكون من أربع غرف وتقع في عمارة خولفاد Kholvad House في وسط المدينة وهي ملتقى تلك المجموعة المترابطة فيما بينها. في تلك الشقة كنا نذاكر الدروس ونتجاذب أطراف الحديث - ونرقص أحيانا - حتى ساعات متأخرة من الليل وأصبحت أشبه بالمقر الرئيسي لحركة التحرر. وكنت غالبا ما أبيت في شقة إسماعيل إذا تأخر الوقت وتوقفت رحلات القطار الى أورلاندو.

ولد إسماعيل في ناتال Natal وكان جادا ذكيا وأصبح أثناء دراسته القانون في جامعة ويتس العنصر الرئيسي في حركة المؤتمر الهندي في ترانسفال Transvaal Indian Congress. أما دجيه إن سينغ فقد كان شابا وسيما محبوبا من الجميع وله علاقات طيبة بشباب من مختلف الألوان والأعراق، وكان عضوا في الحزب الشيوعي. كنت في أحد الأيام في صحبة اسماعيل وسينغ وكنا على عجل نحاول الوصول الى الشقة بأسرع ما يمكن فركبنا الترام دون أن ننتبه الى أن الأفريقيين - بخلاف الهنود - غير مسموح لهم بركوب الترام. بعد قليل التفت بائع التذاكر الى رفيقيْ مخاطبا إياهما بالأفريكانية قائلا إن "صديقكما الكافير" غير مسموح له بالركوب. انفجر الإثنان معا في بائع التذاكر واتهماه بالجهل لأنه لم يفهم ما تعنيه كلمة "كافير" وأنه من الإساءة الإشارة إليّ بذلك اللقب. أمر بائع التذاكر السائق بالوقوف فتوقف الترام فورا، ونادى على أحد رجال الشرطة فاعتقلنا وانطلق بنا الى مركز الشرطة لتوجيه التهمة إلينا رسميا وأمرنا بالمثول أمام المحكمة في اليوم التالي. وفي المساء بادر إسماعيل وسينغ للإتفاق مع برام فيشر للدفاع عنا، وعندما ظهر برام أمام القاضي بدا هذا الأخير منبهرا باسم برام وعائلته فخلى سبيلنا فورا وشاهدت من كثب أن القانون لم يكن أعمى في كل الأحوال.

فتحت جامعة ويتس أمامي عالما جديدا من الأفكار والنظريات والاتجاهات السياسية

والحوارات تعاطيت فيه السياسة بكل حماس وعاطفة وانفعال . وجدت نفسي بين مجموعة من أقراني من المفكرين البيض والهنود الذين سيصبحون طـليعة لأهم الحركات السياسية في المرحلة التاليـة من تاريخ جنوب أفريقـيا . وتعرفت لأول مـرة على شباب من جيلي التـزموا التزاما كاملا بحركة التحرير وكانوا على أتم الاستـعداد، رغم أوضاعهم الاجتماعية المتميزة والموسرة، للتضحية بأنفسهم في سبيل الدفاع عن المظلومين.



الفصل الثالث

ميلاد مناضل
من أجل الحرية

- ١١ -

لا أستطيع أن أحدد بدقة اللحظة التي تحولت فيها الى السياسة وأيقنت بأنني سأكرس بقية حياتي للنضال من أجل التحرير. فأن يكون المرء أفريقيا في جنوب أفريقيا يعني أنه يولد مُسيّسا سواء أقر بذلك أم لم يقر. فالأفريقي يولد في مستشفى خاص بالأفريقيين فقط، وتقله الى البيت حافلة مخصصة للأفريقيين فقط، ويسكن في حي للأفريقيين فقط، ويتلقى التعليم - إن تلقاه - في مدارس للأفريقيين وحدهم.

ويكبر الأفريقي ويترعرع لكي يشغر وظيفة خاصة للأفريقيين فقط، ويستأجر بيتا في ضاحية للأفريقيين فقط، ويركب وسائل مواصلات مخصصة للأفريقيين فقط. وهو معرض للتوقيف والمساءلة في أي ساعة من ليل أو نهار ليسأل عن بطاقة الهوية وإن لم يبرزها يعتقل ويزج به في الحبس. إن حياة الأفريقي كلها مكبلة بالقوانين والأنظمة العنصرية التي تعوق نموه وتبدد امكانياته وتشل حياته. هذه هي حقيقة الأوضاع آنذاك في جنوب أفريقيا وكانت أمام المرء طرق متعددة للتعامل معها.

لم تظهر أمامي علامة في السماء، ولم أتلق وحيا، ولم ألهم الحقيقة في لحظة معينة، ولكنها آلاف الإستخفافات وآلاف الإهانات وآلاف اللحظات المنسية تجمعت لتثير في نفسي ذلك الغضب وروح التمرد والرغبة في مناهضة النظام الذي عزل قومي واستعبدهم. لم أقل لنفسي في يوم من الأيام إنني من الآن فصاعدا سأنذرك أيتها النفس لتحرير أبناء شعبي، ولكنني - على العكس من ذلك - وجدت نفسي منخرطا بكل عفوية ويسر في تيار لم أجد بدا من الانطلاق فيه.

لقد ذكرت كثيرا ممن تأثرت بهم في تلك الفترة ولكنني وجدت نفسي تحت تأثير توجيهات وولتر سيسولو بشكل متزايد. كان وولتر قوي العزيمة معتدلا وعمليا جرد حياته للنضال. لم يكن يفقد السيطرة على نفسه عند الأزمات، وكان يلوذ بالصمت عندما يصرخ الآخرون. كان مؤمنا بأن المؤتمر الوطني الأفريقي هو أداة التغيير السياسي في جنوب أفريقيا، وهو محضن آمال الأفريقيين وطموحاتهم. وغالبا ما يعرف التنظيم من خلال الأشخاص القائمين عليه، وتبين لي آنذاك أنني سأكون فخورا بالانضمام الى أي تنظيم فيه وولتر.

كان المؤتمر الوطني الأفريقي التنظيم السياسي الوحيد المفتوح للجميع والذي اعتبر نفسه مظلة يلجأ الى كنفها جميع الأفريقيين بدون استثناء.

بدأت رياح التغيير تهب خلال الأربعينات في أنحاء مختلفة من العالم. ففي عام ١٩٤١ أكد ميثاق الأطلسي الذي وقع عليه الرئيس الأمريكي روزفيلت ورئيس الوزراء البريطاني تشيرشل على الإيمان بكرامة كل إنسان ودعا الى مجموعة من المباديء الديمقراطية. واعتبر بعض الناس في الغرب ذلك الميثاق وعودا زائفة ولكننا في جنوب أفريقيا لم نعتبره كذلك.

واستلهاما لما جاء في ذلك الميثاق ولمناهضة دول الحلفاء للظلم والطغيان وضع المؤتمر الوطني الأفريقي ميثاقا خاصا به تحت عنوان "المطالب الأفريقية" African Claims نادى فيه بمنح جميع الأفريقيين الجنسية الكاملة وحق بيع وشراء الأراضي وإلغاء جميع قوانين التفرقة العنصرية . وكان يحدونا الأمل أن ترى الحكومة والمواطن العادي في جنوب أفريقيا أن المباديء التي يحاربون من أجلها في أوروبا هي هي التي ندعو اليها نحن في وطننا وعلى أرضنا.

أصبح منزل وولتر قبلة للعناصر السياسية النشطة وأعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي . وكان المنزل بيتا دافئا فاتحا ذراعيه لاستقبال الوافدين، وكنت أتردد عليه إما للمشاركة في نقاش سياسي أو للتلذذ بما تعده أم سيسولو من شهي الطعام . وفي إحدى ليالي عام ١٩٤٣ التقيت هناك بانتون ليمبيدى Anton Lembede وكان يحمل شهادتي الليسانس والماجستير في القانون وشهادة A P Mda . ومنذ أن وقعت عيناي على ليمبيدى وسمعته يتحدث أحسست بأنني أمام رجل ذي شخصية ساحرة يفكر بطريقة أصيلة ومروعة أحيانا، وكان آنذاك من المحامين القليلين العاملين في جنوب أفريقيا وكان شريكا للمحامي القدير الدكتور بيكسلي كا سيمى Pixley ka Seme أحد مؤسسي الحزب الوطني الأفريقي.

قال ليمبيدى إن أفريقيا هي قارة الرجل الأسود وعلى الأفريقيين أن يثبتوا وجودهم ويستعيدوا حقوقهم . كان يمقت عقدة النقص التي يشعر بها السود ويندد بما سمّاه عبادة الغرب والأفكار الغربية وتأليهها . وكان يؤكد على أن الشعور بالنقص هو العائق الأكبر أمام التحرير . وأشار ليمبيدى الى أن الرجل الأفريقي ما أعطي الفرصة مرة إلا وأثبت أنه قادر على التطور مثله مثل الرجل الأبيض تماما معددا أبطالا أفريقيين مثل ماركوس غارفي Marcus Garvey ودبليو إي بي دو بوا W E B Du Bois وهيلاسيلاسي Haile Selassie. وكان يقول:

- إن لون بَشَرتي جميل كجمال التربة السوداء في أفريقيا الأم.

وكان ليمبيدى يؤمن بأن الأفريقيين ينبغي عليهم تحسين صورتهم عن أنفسهم في أذهانهم قبل أن يبادروا الى تنظيم العمل الناجح . وكان يدعو الى الاعتماد على النفس وتقرير المصير تحت ما سماه دعوة "الأفريقية" ، ولم يكن لدى أحد منا أدنى شك في أن ليمبيدى سيتولى يوما ما زعامة المؤتمر الوطني الأفريقي .

وأعلن ليمبيدى أن روحا جديدة بدأت تسري بين صفوف الشعب، كما بدأت الفوارق العرقية تذوب مما جعل الشباب - رجالا ونساء - يعتبرون أنفسهم أفريقيين أولا وقبل كل شيء وليس كوسا أو نديبيلي Ndebeles أو تسوانا . وكان ليمبيدى ابنا لفلاح أمي من الزولو في ناتال، تأهل للتدريس من كلية آدم Adam's College التابعة لهيئة التبشير الأمريكية. اشتغل بالتدريس لعدة سنوات في إقليم أورينج فري ستايت وتعلم لغة الأفريكانا وكان يعتبر القومية الأفريكانية نموذجا ينبغي أن تحتذيه حركة القومية الأفريقية . كتب يوما في صحيفة أنكوندلاي بانتو الأفريقية الصادرة في ناتال مقالا جاء فيه:

التاريخ المعاصر هو تاريخ القومية . فقد اختبرت القومية في كفاح الشعوب وبين لهيب نيران المعارك وثبت أنها العلاج الوحيد ضد التسلط الأجنبي والاستعمار الحديث . ولهذا السبب تسعى القوى العظمى الاستعمارية محمومة وبكل ما لديها من قوة لإحباط جميع التيارات القومية والقضاء عليها بين الشعوب الأجنبية الخاضعة لسيطرتها . وقد رصدت لهذا الهدف أموالا طائلة تنفق على الدعاية ضد القومية التي تصمها بأنها "ضيقة" و"همجية" و"غير متحضرة" و"شيطانية" وما الى ذلك من الصفات. وهناك من بين أبناء الشعوب المستعمَرة من انساق وراء هذه الدعاية الخبيثة فأصبحوا هم أنفسهم نتيجة لتلك الدعاية أدوات للاستعمار . ونظرا لما يقدمونه من خدمة جليلة للقوى الإستعمارية فإن هذه القوى تكيل عليهم المديح وتمنحهم ألقابا مثل "متحضر" و"تحرري" و"تقدمي" و "واسع الأفق" .

لمست كلمات ليمبيدى وترا حساسا في أعماقي لأنني ممن عاشوا في أحضان الإستعمار البريطاني الخانق وممن أغراهم أن يراهم البيض "مثقفين" و "تقدميين" و "متحضرين" . لقد كنت في طريقي الى أن انضم لتلك النخبة السوداء التي كانت بريطانيا تسعى الى تكوينها في أفريقيا، وهو ما كان ينصحني به الجميع ابتداء من السلطان وانتهاء بالسيد سيديلسكي، وكان ذلك كله سرابا من سراب . لكن هاآنذا أصبحت مقتنعا مثل ليمبيدى بأن العلاج الناجع الوحيد هو النضال تحت راية القومية الأفريقية.

كان لليمبيدى زميل، وهو شريكه أيضا، يدعى بيتر امدا Peter Mda ومعروف باسم أيه بي A P وهو شخص منضبط ودقيق في تعامله، واضح وعلمي في أفكاره، وذلك بعكس ليمبيدى الذي كان يجنح للعموميات والإنشاء في حديثه وأفكاره، وكان بإمكانه أن يفكر ويتحدث بأسلوب عائم فيه طلاسم وغموض . كانت الروح العملية التي يتميز بها امدا مقابلة تماما لمثالية ليمبيدى.

كان هناك شباب آخرون استبدت بهم الأفكار نفسها، وكنا نلتقي للنقاش وتبادل وجهات النظر. فبالإضافة الى ليمبيدى وامدا كان يشاركنا في تلك المناقشات وولتر سيسولو وأوليفر تامبو والدكتور ليونيل مايومبوزي Lionel Majombozi وفيكتور امبوبو Victor Mbobo وهو أحد أساتذتي في هيلدتاون، وويليام انكوموWilliam Nkomo طالب الطب الذي كان عضوا في الحزب الشيوعي، وجوردن انغوبانيJordan Ngubane من ناتال وكان صحفيا يعمل في صحيفة إنكودلا Inkundla وصحيفة بانتو وورلد Bantu World أكثر الصحف الأفريقية انتشارا، وديفيد بوبابى David Bobabe أمين عام المؤتمر الوطني الأفريقي في ترانسفال وعضو الحزب الشيوعي، وغيرهم كثير.

أحس كثيرون - وربما كانوا مجحفين في ذلك - بأن المؤتمر الوطني الأفريقي أصبح بصفة عامة حكرا على نخبة من الأفريقيين أصحاب الوجوه المستهلكة المسالمين ذوي الميزات الخاصة الذين تهمهم حماية مصالحهم الخاصة أكثر من حماية حقوق الجماهير . وكان الشعور السائد هو ضرورة القيام بعمل ما فاقترح الدكتور مايومبوزي إنشاء رابطة

الشباب Youth League كوسيلة لإشعال جذوة قيادة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي.

وفي عام ١٩٤٣ ذهبت في وفد يضم ليمبيدى وامدا وسيسولو وتامبو وانكومو لمقابلة رئيس الحزب الدكتور زوما في بيته الفخم بمدينة سوفياتاون Sophiatown وكان يضم عيادة طبية ومزرعة صغيرة. لقد أسدى الدكتور زوما خدمة عظيمة للحزب إذ أيقظه من سباته بعد أن اضمحل تحت قيادة الدكتور سيمى Dr Seme وتقلص في حجمه وأهميته .عندما تسلم الدكتور زوما رئاسة الحزب كان في خزانته ١٧ شلنا و ٦ بنسات أي ما يقابل ٩٠ بنسا بالعملة الحالية ولكنه تمكن من مضاعفة ذلك المبلغ الى أربعة آلاف جنيه استرليني . كان حائزا على إعجاب القادة التقليديين للحزب وكان على علاقة طيبة بوزراء في الحكومة ويبعث الشعور بالأمن والثقة . إلا أنه كان يحيط نفسه بهالة مفرطة من التعالي والتكبر لا تليق بزعيم حركة شعبية . ورغم إخلاصه للحزب إلا أن عمله كطبيب احتل المرتبة الأولى في اهتماماته.

تولى زوما رئاسة الحزب خلال حقبة الوفود والانتداب والرسائل والبرقيات، وكان الحزب يدار على طريقة الجنتلمان الإنجليزي وتحت شعار: "كلانا شهم ونبيل رغم ما بيننا من خلافات" . وكان زوما راضيا قرير العين بتلك العلاقات التي نشأت بينه وبين المؤسسة البيضاء، ولم يكن ليسمح للعمل السياسي أن يعرض تلك العلاقات لأي خطر أو تهديد.

طرحنا على الدكتور زوما خلال اجتماعنا معه فكرة تأسيس رابطة الشباب وعبرنا عن رغبتنا في تنظيم حملة لحشد التأييد الشعبي للحزب، ووضعنا أمامه مسوّدة للنظام الأساسي للرابطة وبرنامج عملها . أكدنا للدكتور زوما أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مهدد بأن يصبح منظمة مهمشة مالم ينفض عن نفسه الغبار ويتبنى أساليب جديدة للعمل السياسي. أظهر الدكتور زوما تخوفا في ذلك اللقاء وعارض بشدة فكرة دستور رابطة الشباب، وكان رأيه أن تكون الرابطة منظمة فضفاضة تتولى بدرجة أساسية تجنيد الاعضاء للحزب . وقال لنا الدكتور زوما بروح الوصي المتعالية إن الافريقيين غير منظمين وليس لهم قدرة على الانضباط والمشاركة في حملة جماهيرية شعبية وإن حملة من هذا القبيل أمر متسرع ينطوي على مخاطر كثيرة .

بعد ذلك الاجتماع بفترة قصيرة شكلت لجنة مؤقتة لرابطة الشباب بقيادة وليام انكومو وذهب أعضاؤها لحضور المؤتمر السنوي للحزب في بلومفونتين في ديسمبر ١٩٤٣ حيث طرحوا مشروع تكوين الرابطة للمساهمة في تجنيد أعضاء جدد للحزب وأقره المؤتمر.

أعلن عن تشكيل الرابطة يوم عيد الفِصْح من عام ١٩٤٤ في مركز الرجال الاجتماعي لبانتو بشارع إيلوف Eloff Street في اجتماع حضره نحو مائة شخص قدم بعضهم من مدن نائية مثل بريتوريا Pretoria. لقد كنا نخبة من الشباب غالبيتنا من خريجي فورت هير، وأبعد ما نكون عن حركة جماهيرية . ألقى ليمبيدى محاضرة في الاجتماع عن تاريخ الأمم شق فيها آفاق الحضارات منذ اليونان القديمة مرورا بأوروبا القرون الوسطى وحتى عهود

الاستعمار. وركز ليمبيدى على منجزات أفريقيا والأفريقيين مشيرا الى غباء البيض في اعتبار أنفسهم الشعب المختار والجنس الأرقى بين الأجناس البشرية.

كما تكلم جوردن نغوبانى وأيه بي امدا ووليام انكومو وأكدوا جميعا على انبعاث روح القومية الأفريقية. انتخب ليمبيدى رئيسا للرابطة وأوليفر تامبو أمينا عاما وولتر سيسولو أمينا للمال، وانتخبت أنا وكلا من أيه بي امدا وجوردن انغوبانى وليونيل مايومبوزي وكونغرس امباتا Congress Mbata وديفيد بوبابى أعضاء في اللجنة التنفيذية. وانضم إلينا في الرابطة فيما بعد شباب مرموقون منهم غودفري بيتجى Godfrey Pitje وهو طالب أصبح فيما بعد مدرسا ثم محاميا، وآرثر ليتيلى Arthur Letele وويلسون كونكو Wilson Conco وديليزا امجى Diliza Mji وانتاتو موتلانا وجميعهم من الأطباء، ودان تلومي Dan Tloome من نقابات العمال وجو ماثيوز Joe Matthews ودوما نيكوى Duma Nokwe وروبرت سوبكوى Robert Sobukwe وجميعهم من الطلاب. وانطلقت الرابطة تنشيء فروعا لها في جميع المناطق والأقاليم.

لم تخرج سياسات الرابطة الأساسية عما ورد في أول دستور لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي الصادر عام ١٩١٢، ولكننا حرصنا على إقرار المطالب الأصيلة للحزب والتأكيد عليها خاصة وأن كثيرا منها قد أهمل وطرح جانبا. كان شعارنا القومية الأفريقية وعقيدتنا توحيد القبائل المتعددة في أمة واحدة والإطاحة بسيادة الرجل الأبيض وتأسيس حكومة ديمقراطية بالمعنى الصحيح. وجاء في البيان السياسي للرابطة: "إننا نؤمن بأن التحرر الوطني للأفريقيين لا يتحقق إلا على أيدي الأفريقيين أنفسهم، وعلى رابطة الشباب التابعة للمؤتمر الوطني الأفريقي أن تكون العقل المدبر ومركز الطاقة لروح القومية الأفريقية".

كما رفض البيان رفضا تاما فكرة الوصاية التي تقول بأن حكومة البيض - بطريقة أو بأخرى - تحرص حرصا خاصا على حماية مصالح الأفريقيين. وأشار البيان الى القوانين المناهضة التي تكبل الأفريقيين والتي شُرعت خلال الأربعين سنة السابقة ابتداء من قانون الأراضي Land Act لعام ١٩١٣ الذي سلبهم ٨٧٪ من الأرض التي ولدوا عليها، فقانون ضواحي المدن Urban Areas Act لعام ١٩٢٣ الذي أدى الى ظهور الأحياء الأفريقية الفقيرة المكتظة بالسكان والتي يشار إليها - تأدبا - باسم "مواقع السكان الأصليين" لتكون مصدرا لتزويد مصانع البيض باليد العاملة الرخيصة، فقانون الحواجز العرقية Colour Bar Act لعام ١٩٢٦ الذي حال دون إسهام الأفريقيين في مزاولة المهن والمهارات المختلفة، فقانون إدارة شؤون السكان الأصليين Native Administration Act لعام ١٩٢٧ الذي وضع جميع المناطق التابعة لجنوب أفريقيا تحت سيادة العرش البريطاني بدلا من زعماء القبائل وحكامها، ثم أخيرا قانون تمثيل السكان الأصليين Representation of Natives Act لعام ١٩٣٦ الذي أسقط أسماء الأفريقيين من السجلات العامة للناخبين في منطقة الكيب وقضى على أدنى توهم في أن يسمح البيض للأفريقيين بالسيطرة على مستقبلهم وتقرير مصيرهم.

كنا على درجة كبيرة من التوجس تجاه الشيوعية، وجاء في بيان الرابطة السياسي ما يلي:

"لا يضيرنا الاقتباس من أيديولوجيات أجنبية ولكننا نرفض استيراد تلك الأيديولوجيات بالجملة الى أفريقيا" . وكان في ذلك صد ضمني للحزب الشيوعي إذ كان ليمبيدى وغيره كثيرون وأنا أحدهم يعتبرون الشيوعية أيديولوجية "أجنبية" لا تصلح للبيئة والحياة الأفريقية. وكان ليمبيدى يؤمن بأن الحزب الشيوعي واقع تحت سيطرة البيض مما أحبط روح المبادرة لدى الأفريقيين وأضعف ثقتهم بأنفسهم.

تكونت في ذلك اليوم عدة لجان، ولكن الهدف الرئيسي من إنشاء رابطة الشباب كان تحديد مسار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لتحقيق الحرية السياسية . ورغم موافقتي على ذلك كنت قلقا للإنخراط في الرابطة وما زالت تراودني شكوك حول استعدادي للالتزام بالعمل السياسي . كنت أعمل جزءا من الوقت وأدرس في الجزء الآخر وكان لدي قدر محدود من الوقت للنشاطات الأخرى، إضافة الى أنه كان ينقصني الشعور بالطمأنينةلإحساسي بالتخلف سياسيا مقارنة بوولتر وليمبيدى وامدا . كانت قناعات أولئك الرجال واضحة في أذهانهم ولم أكن أنا حتى ذلك الحين ناضجا سياسيا، وكانت تنقصني الثقة في القدرة على الخطابة والتحدث الى الجماهير وكانت تعجزني بلاغة الآخرين وقدرتهم على الخطابة والحديث.

لم تلق نظريات ليمبيدى "الأفريقية" قبولا عاما لأن أفكاره مشوبة بالتميز العنصري مما أثار حفيظة بعض العناصر القيادية في رابطة الشباب . كان البعض يرى أن القومية التي تشمل المتعاطفين من البيض هي أفضل اتجاه للحزب بينما رأى آخرون - وأنا أحدهم - وجود السود في حركة تحرير متعددة الأجناس يرسخ خضوعهم للثقافة البيضاء ويجعلهم ضحية لشعور متزايد بالنقص . كنت في تلك الفترة من المعارضين بشدة للسماح بعضوية البيض أو الشيوعيين في الرابطة.

أصبح منزل وولتر هو بيتي الجديد، وظل خلال السنوات الأولى من الأربعينات مكان إقامتي الفعلي إذ لم يكن لي مكان محدد أقيم فيه . كان البيت يستقبل الزوار بدون انقطاع وبدا أن المناقشات السياسية لا تنقطع هي الأخرى . كانت ألبيرتينا Albertina زوجة وولتر إمرأة عاقلة وذات حضور رائع، وكانت تشكل دعامة قوية لما يقوم به وولتر من عمل سياسي . قال لها أنتون ليمبيدى يوم زواجهما : لقد تزوجت رجلا على ذمة زوجة أخرى، فقد تزوج وولتر السياسة سنوات عديدة قبل أن يتعرف عليك.

وفي صالة الجلوس في بيت سيسولو تعرفت على زوجتي الأولى إيفلين مايس Evelyn Mase. كانت فتاة جميلة قليلة الكلام من أصول ريفية لا تكترث لما يدور في بيت سيسولو وزوجته . كانت إيفلين تدرس التمريض مع ألبيرتينا وروز Rose زوجة بيتر امدا في المستشفى العام لغير الأوروبيين في جوهانسبيرغ.

وإيفيلين من إنغكوبو بترانسكاي على بعد أميال غرب أومتاتا، وكان أبوها يعمل في المناجم وتوفي وهي رضيعة ثم توفيت أمها وهي في الثانية عشرة . بعد اكمال الدراسة الإبتدائية أرسلت أيفيلين لمواصلة تعليمها في جوهانسبيرغ.

أقامت إيفيلين مع أخيها سام مايس الذي كان بدوره مقيما في بيت سيسولو وكانت أمه خالتها . كان جميع آل سيسولو يحبونها فعاشت بينهم كإبنة مدللة.

بدأت علاقتي بإيفيلين منذ أول لقاء ثم تطورت المشاعر بيننا الى حب جيّاش وفي غضون شهور قليلة تقدمت لخطبتها فقبلت . سُجّل الزواج على الطريقة المدنية التي لا تتطلب أكثر من توقيع الطرفين وشاهد واحد بمحكمة مأمورية شؤون السكان الأصليين في جوهانسبيرغ إذ لم يكن بوسعنا - ماليا - إقامة زفاف تقليدي أو إعداد وليمة . كان همنا الأكبر بعد ذلك الحصول على سكن مناسب، فأقمنا ابتداء مع أخيها في أورلاندو إيست Orlando East فترة من الزمن ثم انتقلنا الى بيت أختها في سيتي ديب ماينز City Deep Mines حيث كان زوج أختها واسمه مسانغولي مغودلوا Msunguli Mgudlwa يعمل موظفا.

- ١٣ -

شهد عام ١٩٤٦ مجموعة من الأحداث الهامة التي كان لها أكبر الأثر في بلورة انتمائي السياسي وتحديد مسار حركة النضال ككل . في مقدمة تلك الأحداث اضراب عمال المناجم الذي شارك فيه سبعون ألف عامل أفريقي في مناجم السلسلة الصخرية المتاخمة للمحيط Reef . تأسست نقابة عمال المناجم الأفريقيين(African Mine Workers' Union (AMWU في أوائل الأربعينات بمبادرة من عدد من العناصر العمالية في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من بينهم ادجيه بي ماركس J B Marks ودان اتلومي وغور راديبي . بلغ عدد عمال المناجم في تلك المنطقة آنذاك نحو أربعمائة ألف عامل لا تزيد أجرة غالبيتهم عن شلنين اثنين في اليوم للفرد الواحد، بينما ظلت قيادة النقابة تطالب غرفة المناجم بأجر أدنى قدره عشرة شلنات في اليوم للعامل بالإضافة الى سكن لأسرته وعطلة سنوية مع راتب مدتها أسبوعان. غير أن الغرفة أصرت على تجاهل مطالب النقابة .

وهكذا خرج العمال في أكبر إضراب من نوعه في تاريخ جنوب أفريقيا وحافظوا على تضامنهم لمدة أسبوع كامل . جاء رد فعل الحكومة عنيفا، فاعتقلت قادة النقابة وأحاطت مجمعات المناجم بقوات الأمن والشرطة وداهمت مكاتب نقابة عمال المناجم الأفريقيين وفتشت جميع ما فيها من أوراق وملفات ووثائق . كما تصدّت قوات الشرطة بكل وحشية لمسيرة عمّالية سقط فيها اثنا عشر عاملا . وعلق المجلس التمثيلي للمواطنين الأصليين The Natives' Representative Council اجتماعاته احتجاجا على ذلك . وفي غضون أسبوع من الاضراب زرت عددا من أقربائي من عمال المناجم لمناقشة القضايا المتعلقة بالاضراب والتعبير لهم عن تأييدي ومساندتي لموقفهم.

كان رئيس نقابة عمال المناجم آنذاك هو ادجيه بي مارك وهو من قدامي أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي . ولد ماركس في ترانسفال لأبوين من جنسين مختلفين وكان طويل القامة فاتح البشرة، ذا شخصية جذابة يمتاز بروح دعابة عالية . كنت أرافقه أحيانا في زيارة المناجم أثناء أسبوع الاضراب نتحدث الى العمال ونضع الاستراتيجيات والخطط . أظهر ماركس إمكانيات قيادية رائعة وكان يتحلى طول اليوم بالهدوء والحصافة والتعقل فكانت أصعب الأزمات والمواقف تلين وتتيسر أمام روحه المرحة . لقد أعجبت كثيرا بمستوى التنظيم في النقابة وقدرة القيادة في السيطرة على أعضائها وتوجيههم رغم ضراوة القوة الوحشية التي كان يواجهها العمال.

انتصرت الدولة في نهاية المطاف وقمع الاضراب وسحقت النقابة . ولكن الاضراب كان بداية علاقتي مع ماركس وكنت أتردد كثيرا عليه في بيته ولطالما ناقشنا باستفاضة معارضتي للشيوعية . كان ماركس من أشد الأعضاء التزاما بالحزب الشيوعي ولكنه لم يفسر انتقاداتي على أنها شخصية وكان يؤمن أنه من الطبيعي أن ينخرط شاب في مثل سني في التيار القومي ولكن أفكاري سوف تتطور وتتوسع مع التجربة ومرور الوقت . تكررت مثل هذه

المناظرات مع موسى كوتانى Moses Kotane ويوسف دادو Yusuf Dadoo اللذيْن كانا مقتنعين بضرورة تكييف الشيوعية للوضع في جنوب أفريقيا . وباستثناء هؤلاء الثلاثة فقد ندد كثير من الشيوعيين في المؤتمر الوطني الأفريقي بموقفي وموقف زملائي في رابطة الشباب تجاه الشيوعية.

اعتقل اثنان وخمسون من زعماء الاضراب بمن فيهم كوتانى وماركس وقدموا للمحاكمة بتهمة التحريض ثم التخريب وإثارة الفتنة . كانت محاكمة سياسية ومحاولة من قبل الدولة لإثبات أنها غير متساهلة في تعاملها مع "الخطر الأحمر" .

ومن الأحداث الهامة في عام ١٩٤٦ التي أجبرتني على إعادة صياغة منهجي في العمل صياغة كاملة إصدار حكومة سماتس لقانون حيازة الأراضي الخاص بالآسيويين Asiatic Land Tenure Act الذي حدّ من حركة الهنود ورسّم حدود المناطق المسموح لهم بالعيش والتجارة داخلها، وقيّد من حقوقهم في شراء العقار . مقابل ذلك منح الهنود تمثيلارمزيا في البرلمان عن طريق أعضاء من البيض. هاجم الدكتور دادو رئيس المؤتمر الهندي في ترانسفال Transvaal Indian Congress تلك التقييدات بشدة ورفض عرض التمثيل البرلماني الذي تقدمت به الحكومة بوصفه "عرضا زائفا وامتيازا خادعا" . لقد كان ذلك القانون – الذي عرف باسم قانون الحارات التعيسة - Ghetto Act سُبّة في حق المواطنين الهنود وجاء تمهيدا لقانون مناطق المجموعات العرقية Group Areas Act سيء الذكر الذي قضى على ما بقي من حرية لجميع الملونين في جنوب أفريقيا.

أثار القانون غضب المواطنين من أصول هندية فشنوا حملة مكثفة من المقاومة السلمية استمرت سنتين كاملتين بقيادة الدكتور دادو والدكتور دجي ام نايكر G M Naicker رئيس المؤتمر الهندي في ناتال. نالت تلك الحملة الجماهيرية اعجابنا بدقة تنظيمها وتفاني القائمين عليها، وشارك فيها ربات البيوت ورجال الدين والأطباء والمحامون والتجار والطلاب والعمال وكانوا جميعا في الخطوط الأمامية لحملة الاحتجاج . لقد توقفت حياة أولئك المواطنين سنتين كاملتين بسبب مشاركتهم في الحملة . نظمت التجمعات الشعبية واحتلت الأراضي المخصصة للبيض وأقيمت حولها الحراسات لمنع البيض من دخولها، وأسفرت الحملة عن اعتقال وحبس ما لا يقل عن ألفي متطوع وحكم على الدكتور دادو والدكتور نايكر بالحبس مدة ستة أشهر مع الأعمال الشاقة لكل منهما .

اقتصرت الحملة على المواطنين من أصول هندية ولم يشجع غيرهم من أبناء الأجناس الأخرى على المشاركة . ورغم ذلك تحدث الدكتور زوما وغيره من القادة الأفريقيين لتأييد الحملة في عدة مناسبات وأعربوا – كما أعربت رابطة الشباب – عن دعمهم المعنوي الراسخ والكامل لنضال أبناء الشعب من الهنود . غير أن الحكومة أعاقت الحملة بإصدار القوانين الصارمة والتهديدات ولكن بعد أن شاهدنا نحن في رابطة الشباب وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ما سجله المواطنون الهنود من احتجاج رائع ضد الإضطهاد العنصري بأكثر وأكبر مما قام به الأفريقيون أنفسهم من خلال المؤتمر الوطني الأفريقي .

أما إسماعيل مير وادجيه ان سينغ فقد قطعا دراستهما وودع كل منهم أسرته ليذهبا الى السجن. وهذا ما فعله أحمد كاثرادا Ahmed Kathrada وكان ما يزال طالبا في المدرسة الإعدادية . كنت كثيرا ما أتردد على بيت السيدة أمينة باهاد Amina Pahad لتناول طعام الغداء وفجأة ألقت تلك السيدة الفاتنة مئزرها الذي كانت تستخدمه عند الطبخ وأودعت السجن بسبب ما كانت تؤمن به . لقد تلاشت جميع الشكوك التي علقت بذهني حول رغبة المواطنين الهنود في الاحتجاج على الظلم والطغيان.

أصبحت الحملة الهندية نموذجا لما كنا ننادي به نحن في رابطة الشباب من عمل حركي واحتجاج سياسي . لقد رسخت تلك الحملة روح التحدي والثورة في نفوس أبناء الشعب وحطمت حاجز الخوف من السجن وزادت من شعبية المؤتمر الهندي في ناتال ونظيره في ترانسفال ونفوذهما . لقد ذكرتنا بأن النضال من أجل الحرية لا يتوقف عند الخطب الرنانة والاجتماعات وإصدار القرارات وإرسال الوفود بل يجب أن يشمل التنظيم الدقيق والعمل الشعبي الحركي ثم – وفوق كل ذلك – الرغبة والاستعداد للمعاناة والتضحية . كما ذكرتنا الحملة الهندية بحملة المقاومة السلمية التي نظمت عام ١٩١٣ وقاد فيها ماهاتما غاندي مسيرة هائلة من الهنود الذين عبروا تحديا للقانون من ناتال الى ترانسفال . ذلك ما كان من شأن التاريخ ولكن الحملة الهندية الأخيرة كانت حية ماثلة أمام عيني.

***

في بداية عام ١٩٤٦ انتقلت مع إيفيلين للإقامة في أحد البيوت الشعبية يتكون من حجرتين وتابع لبلدية أورلاندو إيست، ثم بعد فترة انتقلنا الى بيت آخر أكبر منه قليلا ورقمه ٨١١٥ أورلاندو ويست Orlando West. وأورلاندو ويست ضاحية يعمّها الغبار، تتسم بالبساطة والقسوة تعج بالبيوت الشعبية المبنية على هيئة الصناديق وقد أصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى Greater Soweto وهي اندماج لمجموعة الضواحي الواقعة جنوب غرب جوهانسبيرغ South-Western Townships كان بيتنا يقع في حي عرف بين سكانه باسم ويستكليف Westcliff تيمنا بالحي الفاخر الذي يحمل الإسم نفسه والواقع الى شمال المدينة.

كان إيجار البيت ١٧ شلنا وستة بنسات في الشهر، وكان نسخة طبق الأصل من مئات البيوت المبنية على هيئة علب الثقاب فوق قطع صغيرة من الأرض تخترقها طرقات من التراب . تميزت تلك البيوت بأسقفها المبنية من الصفيح وأرضيتها الإسمنتية ومطابخها الضيقة ومراحيض صغيرة في الجزء الخلفي من البيت . ورغم وجود مصابيح كهربائية في الشوارع إلا أننا كنا نستخدم مصابيح الكيروسين داخل البيوت التي لم تدخلها الكهرباء. كانت غرفة النوم صغيرة لا تكاد تتسع لأكثر من سرير مزدوج . هذه البيوت أنشأتها سلطات البلدية لإيواء العمال الذين كانوا في حاجة الى الإقامة قريبا من المدينة، وقد عمَد بعض سكانها الى طلاء أبوابها بألوان فاقعة أو زراعة الأرض المحيطة بها لكسر الرتابة التي بنيت عليها . كان بيتنا في منتهى البساطة ولكنه كان أول بيت اعتبره بحق ملكي الخاص وكنت

معتزا به أيما اعتزاز، فالمرء لا يُعدّ رجلا ما لم يمتلك بيتا خاصا به . ولكنني لم أكن لأعرف آنذاك أن ذلك البيت سيكون المنزل الوحيد الذي سأمتلكه لمدى سنوات طويلة.

منحتنا السلطات ذلك البيت لأنني وإيفيلين لم نعد وحدنا إذ كان ثالثنا في الطريق . ففي ذلك العام ولد باكورة أبنائنا ماديبا تيمبيكيلي Madiba Thembekile وأسميته باسمي الذي سُمّيت به في العشيرة وكان يكنّى بتيمبي . كان طفلا سليم البنية، ميمون الطالع، أجمع كثيرون على أنه يشبه أمه أكثر مما يشبه أبيه . وهكذا أصبح لي وريث دون أن يكون لدي كثير مال أو مِلك أورثه إيّاه، ولكنني بولادة تيمبي خلّدت اسم مانديلا وعشيرة ماديبا وذلك من أهم واجبات الرجل عند الكوسا.

إذن، أسست قاعدة أستقر عليها، وبعد أن كان ديدني النزول ضيفا على الآخرين أصبحت أستقبل الضيوف في بيتي . انضمت إلينا أختي ليابي Leabie وسجلتها للدراسة في مدرسة أورلاندو الإعدادية . إن عاداتنا تكفل لكل فرد من أفراد الأسرة حقه في النزول ضيفا على أي فرد آخر، وتوافق أن كبر حجم أسرتي وملكيتي للبيت الجديد كان يعني عددا لا يحصى من الزوار والضيوف.

كنت رغم قلة وقتي مغرما بالحياة المنزلية، وكنت أسعد كثيرا للعب مع تيمبو وإعداده للاستحمام وإطعامه ووضعه في الفراش لينام بعد أن أقص عليه حكاية أو حكايتين . إنني في الحقيقة شغوف باللعب مع الأطفال والحديث معهم ومن الأمور التي تدخل الى نفسي الإستقرار والطمأنينة . وكنت أستمتع كثيرا بالخلود الى الراحة داخل البيت وقضاء الوقت في القراءة في هدوء، واستنشاق روائح الأكل المشهيّة التي تتصاعد من قدور الطهي في المطبخ، ولكن نادرا ما كنت أجد الوقت لهذه المتعة.

في أواخر ذلك العام حلّ ضيفا علينا القس مايكل سكوت Michael Scott من رجال الكنيسة الإنجليكانية الإنجليزية وهو من أكبر أنصار قضايا حقوق الأفريقيين . أستُدعي القس سكوت من قبل شخص يدعى كومو Komo ممثل أحد الأحياء المؤقتة خارج جوهانزبيرغ للاحتجاج على قرار للحكومة بترحيل سكان الحي وإعادة إسكانهم في جهة أخرى . فقرر القس الإقامة في الحي وتأسيس أبرشية له هناك كي يصبح واحدا من سكانه . أقيم ذلك الحي الكئيب لإيواء المشردين بالقرب من هضبة صخرية أطلق عليها السكان اسم طبرق على غرار مدينة طبرق الليبية في شمال أفريقيا التي كانت إحدى مواقع الحرب العالمية الثانية الشهيرة . كنت أحيانا أصطحب معي تيمبو الى هناك أيام الأحد لأنه كان شغوفا باللعب بين الصخور .

ما أن أسس سكوت أبرشيته في ذلك الحي حتى اكتشف أن كومو كان يختلس الأموال التي تبرع بها سكان الحي لتمويل حملة الاحتجاج على قرار الترحيل، وعندما واجهه بذلك طرده كومو من الحي وهدده بالقتل.

لجأ سكوت إلينا في أورلاندو وكان يصحبه قس أفريقي يدعى دلاميني Dlamini وزوجته

وأطفاله. كان سكوت ينام في حجرة الجلوس لضيق البيت، بينما أقام دلاميني وزوجته في حجرة أخرى وخصصنا المطبخ لنوم الأطفال. كان سكوت رجلا بسيطا متواضعا أما دلاميني فقد كان له شأن آخر. كان كثير الشكوى وكلما جلس الى مائدة الطعام قال:

- إن اللحم الذي تقدمونه لنا هبْر وعنيد في آن واحد ولم يطبخ جيدا. لم أتعود على أكل لحم من هذا القبيل.

كانت تصرفات دلاميني تروّع سكوت فكان يقرّعه ويؤنبه على ما يقول ولكن دون جدوى. ولكن دلاميني ربما قال في الليلة التالية كلاما مغايرا:

- اللحم اليوم أفضل قليلا منه بالأمس ولكنه لا يزال في حاجة الى طبخ لمدة أطول. إن زوجتك يا مانديلا لا تحسن الطبخ إطلاقا.

ساهم دلاميني بطريقة غير مباشرة في حل الموقف إذ كنت لحرصي الشديد على التخلص منه أذهب الى سكان الحي المؤقت وأبين لهم أن سكوت - وليس كومو - هو حليفهم الحقيقي وأن عليهم أن يختاروا أحدهما. أجريت نتيجة لذلك انتخابات فاز فيها سكوت وعاد للإقامة في الحي من جديد مصطحبا معه الأب دلاميني.

في أوائل عام ١٩٤٧ أنهيت فترة التدريب المطلوبة وهي ثلاث سنوات في مكتب ويتكين وسيديلسكي وآيدلمان للمحاماة وقررت التفرغ للدراسة لإكمال شهادة الليسانس في الحقوق حتى أتمكن بعد ذلك من مزاولة المحاماة مستقلا عن غيري. لقد قصم ظهري فقداني لراتبي الذي كنت أتقاضاه من مكتب سيديلسكي للمحاماة وهو ثمانية جنيهات وعشرة شلنات وبنس واحد شهريا، فتقدمت الى هيئة التكافل في بانتو التابعة لمؤسسة جنوب أفريقيا للعلاقات العرقية في جوهانسبيرغ بطلب الحصول على قرض قيمته مائتان وخمسون جنيها أستعين بها في تغطية مصاريف الدراسة بما في ذلك رسوم الجامعة والكتب ومخصص شهري فمُنحت قرضا بمائة وخمسين جنيها فقط.

تقدمت بطلب آخر بعد ثلاثة أشهر شرحت فيه أن زوجتي على وشك الوضع وستضطر للتوقف عن العمل وسنفقد راتبها وقدره سبعة عشر جنيها في الشهر الذي كنا نعتمد عليه اعتمادا كليا في معيشتنا. استلمت المبلغ الإضافي بخالص الشكر والإمتنان ولكن الأحوال سارت بنا من سيء الى أسوأ.

كانت ولادة ابنتنا ماكازيوى Makaziwe ميسرة ولكنها ولدت هزيلة سقيمة، ولم نستبشر خيرا منذ أيامها الأولى. كنا نقضي الليالي الطوال في تناوب على رعايتها والعناية بها، ولم نعرف اسم ذلك المرض الذي كان ينخر في جسمها كما عجز الأطباء عن تحديد طبيعة ما كانت تعانيه. كانت إيفيلين ترعى تلك الرضيعة بكل ما لديها من حنان الأم وخبرة الممرضة الماهرة دون كلل أو ملل، ولكن ماكازيوى فارقت الحياة بعد تسعة أشهر من ميلادها. أصيبت إيفيلين بصدمة شديدة، ولم يخفف من حزني سوى ما كنت أبذله من جهد في التخفيف من أساها وحزنها.

إن الظروف غالبا ما تفرض الأحداث في عالم السياسة مهما خطط المرء وتحسّب. ففي يوليو عام ١٩٤٧ وبينما نحن في نقاش عابر حول شؤون رابطة الشباب شكا لي ليمبيدى من ألم مفاجيء في معدته وقُشعريرة من البرد. ومع تزايد الألم أخذناه الى مستشفى كورونايشن Coronation Hospital ولكنه توفي في تلك الليلة عن ثلاث وثلاثين سنة من العمر. كان لوفاة ليمبيدى أثر عميق لدينا وانتكاسة كبرى للحركة، وكاد وولتر سيسولو من الحسرة أن يجثو على الأرض. فقد كان ليمبيدى كنزا من الأفكار اجتذب أعدادا كبيرة من الشباب الى الانخراط في التنظيم.

خلف بيتر امدا لامبيدى في زعامة الرابطة، وكان لمنهجه التحليلي وقدرته على التعبير عن أفكاره بوضوح وبساطة وخبرته التكتيكية في التعامل مع الآخرين الفضل في جعله سياسيا من الطراز الأول وقائدا ممتازا لرابطة الشباب.

كان امدا نحيف البنية معتدل الوزن ولم يكن يتكلم أكثر مما ينبغي. وقد كان لسعة أفقه ورحابة صدره للآراء المختلفة أثر كبير في نضوج أفكاره وتقدمها أكثر مما كان عليه لامبيدى. كان تولي امدا قيادة الرابطة أمرا ضروريا للدفع بطموحات لامبيدى الى الأمام.

تركزت قناعة امدا في أن الرابطة ينبغي أن تكون وسيلة ضغط داخلية وجناحا قوميا فاعلا داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بما ينطلق بالتنظيم كله نحو حقبة جديدة من العمل والفاعلية. لم يكن بين رجال الحزب آنذاك رجل واحد متفرغ بالكامل للعمل الحزبي، وكان الحزب على قدر كبير من سوء التنظيم ويعمل بعشوائية. أصبح وولتر في وقت لاحق الشخص الأول والوحيد الذي تفرغ للعمل الحزبي، وكان ذلك مقابل مخصص ضئيل جدا.

بادر امدا فورا بتأسيس فرع لرابطة الشباب في فورت هير تحت رعاية زد كيه ماثيوز Z K Matthews وغودفري بتجى Godfrey Pitje، المحاضر في مادة علم الأجناس، اللذيْن دأبا على تجنيد أفضل العناصر الطلابية مضيفين للحركة دما جديدا وأفكارا جديدة. كان من أبرز هؤلاء جو Joe ابن الأستاذ ماثيوز وروبرت سوبوكوى وهو خطيب مفوه ومفكر ذو عقل نقّاذ.

كان امدا أكثر اعتدالا في قوميته من لامبيدى وكان تفكيره خاليا من تلك النكهة العنصرية التي اتسمت بها أفكار سلفه. كان يمقت ظلم البيض واستبدادهم ولكنه لم يكن يكره البيض أنفسهم. كما كان أقل تطرفا من لامبيدى - أو مني - في معارضته للحزب الشيوعي. كنت من بين شباب الرابطة الذين لا يثقون في اليسار الأبيض، ورغم صداقتي للعديد من الشيوعيين البيض كنت مرتابا من نفوذهم وتأثيرهم داخل المؤتمر الوطني الأفريقي ومن المعارضين للحملات المشتركة بين حزب المؤتمر والحزب الشيوعي. كنت أخشى أن الشيوعيين عقدوا النية على السيطرة بالكامل على حركتنا من خلال العمل المشترك. وكنت مؤمنا بأننا لن نتحرر إلا على يد القومية الأفريقية الصافية وحدها وليس بفعل الماركسية أو

التعدد الجنسي . لقد دفع بي ذلك الاعتقاد الى الاشتراك مرارا مع زملائي بالرابطة في مداهمة اجتماعات الحزب الشيوعي وتفريقها والصعود على المنصات وتمزيق اللافتات والإستيلاء على لاقطات الصوت . وفي المؤتمر العام لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي عقد في ديسمبر عام ١٩٤٧ تقدمت رابطة الشباب باقتراح بطرد كل من هم أعضاء في الحزب الشيوعي لكنه رُفض بأغلبية كبيرة . ورغم الأثر الذي تركته في نفسي حملة المقاومة السلمية التي شنها الهنود عام ١٩٤٦ كانت مشاعري نحوهم لا تخلف عن مشاعري نحو الشيوعيين وهي أنهم يسعون الى السيطرة على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ويرجع ذلك الى حد ما الى تفوقهم تعليما وتجربة وتأهيلا.

في عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب الوطني الأفريقي في إقليم ترانسفال تحت رئاسة سي اس راموهانو C S Ramohanoe، وكانت تلك أول مرة أتولى فيها مسؤولية رسمية في الحزب مما شكل منعطفا هاما في علاقتي به . لم تتعد التضحيات التي قدمتها قبل ذلك التاريخ غيابي عن زوجتي وأسرتي في العطلات الأسبوعية أو الرجوع الى البيت في ساعة متأخرة من الليل . لم أشارك بصورة مباشرة في أي من الحملات أو النشاطات الرئيسية ولم استوعب بعد طبيعة المخاطر والصعوبات اللامتناهية التي يواجهها المناضل في الحركات التحررية . لقد سبحت مع التيار دون أن يكلفني التزامي بالقضية شيئا، ولكنني منذ انتخابي للجنة التنفيذية في ترانسفال أصبحت جزءا من الحزب قلبا وروحا، مرتبطا به ارتباطا مصيريا: آماله ويأسه، نجاحه وإخفاقاته.

راموهانو هو أحد الرجال الذين تعلمت على أيديهم الكثير . كان من أعتى القوميين ذا قدرات تنظيمية فائقة مكنته من تحقيق التوازن بين آراء ومواقف متباينة داخل الحزب والخروج بحلول وسط مناسبة . ورغم عدم تعاطفه مع الشيوعيين كان راموهانو قادرا على العمل معهم جنبا الى جنب . وكان يؤمن بأن المؤتمر الوطني الأفريقي منظمة قومية وينبغي أن تفتح ذراعيها لجميع من يؤيد قضيتنا.

***

في عام ١٩٤٧، وفي خضم حملة المقاومة السلمية التي نظمها الهنود في جنوب افريقيا قام كل من الدكتور زوما رئيس المؤتمر الوطني الأفريقي والدكتور دادو رئيس المؤتمر الهندي في ترانسفال والدكتور نايكر رئيس المؤتمر الهندي في ناتال، بالتوقيع على "ميثاق الدكاترة" Doctor's Pact لتوحيد الجهود ضد العدو المشترك . كانت تلك خطوة هامة على طريق الوحدة بين الحركتين الأفريقية والهندية، واتفق الطرفان على التعاون من أجل المصلحة المشتركة دون تكوين هيئة سياسية مركزية تضم الجميع. انضم الى ذلك التحالف فيما بعد المنظمة الشعبية الأفريقية African People's Organisation التي تمثل الملونين في جنوب أفريقيا.

ظل ذلك الاتفاق في أحسن الأحوال مؤقتا، إذ ظلت كل حركة تواجه مشاكل خاصة بها تختلف عن التي تواجهها الأخرى . فقضية بطاقات الهوية مثلا لم تمس الهنود والملونين

بقدر ما كانت تمس السود الأفريقيين . كما أن قانون الأحياء التعيسة الذي أشعل فتيل احتجاجات الهنود لم يؤثر على الأفريقيين، بينما كان الملونون أكثر قلقا بشأن التصنيفات العرقية وتوزيع الوظائف مما لم يؤثر بالدرجة نفسها في أوضاع الأفريقيين أو الهنود.

لقد وضع ميثاق الدكاترة أساسا للتعاون بين الإفريقيين والهنود والملونين باحترامه لاستقلال كل مجموعة من تلك المجموعات واحترامه لما يمكن أن يتحقق من منجزات من خلال التنسيق والعمل الموحد. كما نتج عن ذلك الاتفاق تنظيم سلسلة من الحملات في مختلف أنحاء البلاد لمواجهة سياسات الحكومة تجاوزت الفروق العرقية، وكانت تهدف الى توحيد حركة النضال من أجل الحرية . كان في مقدمة تلك الجهود تأسيس مجلس ترانسفال وأورنج فري ستايت الشعبي الأول من أجل إعطاء حق الاقتراع للجميع First Transvaal and Orange State People's Assembly for Votes for All للمطالبة بتعميم حق التصويت والانتخاب ليشمل جميع السود في جنوب أفريقيا . أعلن الدكتور زوما مشاركة المؤتمر الوطني الأفريقي في الحملة في مؤتمر صحفي ترأسه، وكنا نعتقد آنذاك أن المؤتمر الوطني الأفريقي سيتولى قيادة تلك الحملة . ولكن عندما علمنا أن الأمر ليس كذلك قررت الهيئة التنفيذية للحزب في ترانسفال انسحابه من المشاركة في الحملة . كان رأيي في ذلك الوقت ألا يشارك الحزب إلا في نشاطات أو حملات يتزعمها هو وكان همي الأكبر هو لمن سيعود رصيد ذلك العمل وليس نجاحه أو إخفاقه.

ورغم قرار الانسحاب، وفي خروج صريح على قرار اللجنة التنفيذية في ترانسفال، أصدر راموهانو رئيس الحزب في إقليم ترانسفال تصريحا دعا فيه الأفريقيين الى المساهمة في حملة التصويت للجميع. شكّل ذلك الموقف تمردا لم يكن من الممكن التغاضي عنه وطُلب مني في مؤتمر خاص عُقد لفض ذلك النزاع التقدم بقرار لسحب الثقة من راموهانو. وجدت نفسي في صراع حاد بين واجبي تجاه الحزب وولائي الشخصي لراموهانو . كنت أعلم جيدا أنني سأدين موقف رجل لم يساورني قط أدنى شك في صدقه وإخلاصه، فاقت تضحياته من أجل النضال والتحرير بمراحل ما قدمته أنا من تضحيات . كما كنت أعلم أن ما دعا إليه راموهانو هو عمل نبيل لإيمانه بأن على الأفريقيين أن يقفوا الى صف إخوانهم الهنود في جنوب أفريقيا.

بيد أن موقف راموهانو لم يكن بالأمر الهين . فالحزب منظمة تتكون من أفراد ولكنه يأتي في الدرجة الأولى قبل أي عضو من أعضائه، فالولاء للتنظيم يجب أن يسبق الولاء للأفراد . قبلت بتزعم المواجهة مع راموهانو وتقدمت للمؤتمر باقتراح لإدانته ثنّى عليه أوليفر تامبو، وتفجرت الصالة عن عاصفة من المعارك الكلامية الحامية بين المؤيدين لرئيس الحزب والمؤيدين للجنة التنفيذية، وانفض الاجتماع في جو من الفوضى والاضطراب.

- ١٣ -

لم يكن الافريقيون يملكون حق الإقتراع، ولكن ذلك لا يعني أننا نحن - الافريقيين - لم نكن نكترث بمن يفوز أو لا يفوز في الانتخابات. تنافس في انتخابات البيض عام ١٩٤٨ الحزب المتحد United Party الحاكم بزعامة الجنرال سمتس الذي كان آنذاك في ذروة سمعته العالمية، والحزب الوطني National Party الذي أعيد إحياؤه حديثا. وبينما تعهد سمتس بوقوف جنوب أفريقيا الى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في أوروبا، عارض الحزب الوطني نصرة بريطانيا وأعلن تعاطفه الصريح مع ألمانيا النازية. تركزت حملة الحزب الوطني الإنتخابية على "الخطر الأسود" وخاض الانتخابات بشعار من شقين هما: "الزنجي في مكانه المناسب" 'the nigger in his place' و"ليرحل الهنود عن البلاد" 'the coolies out of the country' وقد استخدمت في الحالتين صفة ازدرائية تحط من قدر السود (niggers) والهنود (coolies) على حد سواء.

كان الحزب الوطني، بزعامة الصحفي ورجل الكنيسة الإصلاحية الهولندية السابق Dutch Reformed Church الدكتور دانيال مالان Daniel Malan، ملتهبا بالعداء للإنجليز الذين ظلوا عقودا طويلة يعاملون الحزب بكثير من الازدراء والاحتقار، وبمثل ذلك عاملوا الإنسان الافريقي الذي اعتبروه خطرا يهدد ازدهار الثقافة الأفريكانية ونقاءها. أما نحن - الأفريقيين - فلم يكن لدينا أي ولاء للجنرال سمتس بينما كان ولاؤنا للحزب الوطني أقل من ذلك بكثير.

تبنى مالان وحزبه الوطني منبر "الفصل العنصري" Apartheid أي ما عرف فيما بعد بسياسة التمييز العنصري، وتتمثل في إنشاء نظام جائر يقوم على تقنين جميع الأنظمة والقوانين التي وضعت الإنسان الأفريقي لعدة قرون في مرتبة أقل من مرتبة الإنسان الأبيض. إنها سياسة لا هوادة فيها لإضفاء الشرعية على ما ظل أمرا واقعا، ومحاولة لتعزيز الفصل بين الأعراق الذي ظل على مدى ثلاثة قرون عشوائيا في غالبه ودمجه في نظام واحد، شيطاني شرير في طبيعته، بعيد في مداه، ذي قبضة حديدية لا مجال للفرار منها.

وتقوم سياسة التفرقة العنصرية على أفضلية البيض المطلقة على الأفريقيين والملونين والهنود، وكان هدفها الأول ترسيخ سيادة البيض في جنوب أفريقيا الى الأبد، أو كما كان يقول أتباع الحزب الوطني: "لا بد أن يبقى الرجل الأبيض هو السيد". كانت ركيزة منطلق الحزب الوطني تتلخص في مصطلح: baasskap أي "السيادة" وهي عبارة ذات إيحاءات كثيرة وتعني سيطرة الرجل الأبيض بكل ما تحمله من خشونة ورعونة. لقيت تلك السياسة الدعم من قبل الكنيسة الإصلاحية الهولندية التي زودت التفرقة العنصرية بأسسها الدينية عندما ادعت أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار أما السود فما هم إلا جنس العبيد. وصارت التفرقة العنصرية من وجهة نظر الأفريكانيين جزءا لا يتجزأ من تعاليم الكنيسة.

كان فوز الحزب الوطني في الانتخابات بمثابة بداية النهاية لسيطرة الرجل الإنجليزي على الأفريكان وأصبحت اللغة الإنجليزية تحتل المرتبة الثانية بعد لغة الأفريكانا كلغة رسمية في البلاد. وتلخصت رسالة الأفريكان في شعارهم القائل: "شعبنا، لغتنا، أرضنا"، وكان انتصار الحزب الوطني – من وجهة نظر الأفريكان السقيمة – يضاهي عودة بني إسرائيل الى أرض الميعاد، إذ جاء تحقيقا لوعد الله وتأييدا لاعتقادهم بأن جنوب أفريقيا هي وطن الرجل الابيض الى الأبد.

كان فوز الحزب الوطني صدمة عنيفة بعد أن ساد اعتقاد بأن الحزب المتحد بقيادة زعيمه الجنرال سمتس قد هزم النازية ولم يكن هنالك من شك في قدرته على هزيمة الحزب الوطني. وفي اجتماع لقيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي حضرته مع أولفر تامبو في جوهانسبيرغ عشية الانتخابات مررنا مرور الكرام على احتمال تكوين حكومة من الحزب الوطني لأننا لم نتوقع له الفوز في الانتخابات. استمر الاجتماع طول الليل وخرجنا عند الفجر لنقرأ في صحيفة راند دايللي ميل Rand Daily Mail بالخط العريض: الوطنيون يفوزون في الانتخابات. صُعقت وأصابني الفزع بينما كان رد فعل أوليفر أكثر روية وراح مرددا قوله:

– إنني أراها نتيجة طيبة.

لم أستوعب سبب ارتياحه للنتيجة ولكنه استطرد يقول:

– الآن سوف نعرف من هو عدونا، وسنعرف مواقفه على حقيقتها.

لم تكن شرور سياسة التفرقة العنصرية القاسية خافية حتى على الجنرال سمتس الذي وصفها بأنها: "مفهوم جنوني مصدره التعصب والخوف". وأصبح واضحا لدينا منذ اللحظة الأولى لفوز الحزب الوطني أن بلادنا أصبحت منذ ذلك الوقت فصاعدا ساحة للتوتر والصراع. فاللمرة الأولى في تاريخها تخضع جنوب أفريقيا لسلطة حكومة من الأفريكان الخلّص، وأعلن مالان في خطابه الذي ألقاه بمناسبة فوز حزبه في الانتخابات قائلاً: "لقد عادت جنوب أفريقيا الينا من جديد".

أصدرت رابطة الشباب في العام نفسه موجزا لسياستها في شكل وثيقة أعدها امدا صدرت باسم اللجنة التنفيذية، وكانت دعوة لاستجماع قوى الشباب الوطني من أجل القضاء على سيطرة الرجل الأبيض. رفضنا رأي الشيوعيين القائل إن الأفريقيين مضطهدون أساسا كطبقة اقتصادية وليس كجنس، وأكدنا على الحاجة الى تكوين حركة تحرير وطنية قوية تحت راية القومية الأفريقية "يقودها الأفريقييون أنفسهم".

دعونا الى إعادة توزيع ملكية الأراضي على أسس عادلة وإلى إلغاء الحواجز العرقية التي تحول دون حصول الأفريقيين على الأعمال أو المهن أو الوظائف التي تتطلب مهارات خاصة وإلى الحاجة الى تعليم إجباري حرّ. وسلطت الوثيقة الضوء على الخلاف القائم بين نظريتين حول القومية الأفريقية: أولاهما "أفريقيا للأفريقيين"، وتنسب الى ماركوس غارفي

- وهي الأكثر تطرفا - والثانية هي "الأفريقية" التي تتبناها رابطة الشباب وتعترف بجنوب أفريقيا مجتمعا متعدد الأجناس والأعراق.

كنت من أنصار الإتجاه الثوري في الحركة القومية الأفريقية، وكنت حانقا على الرجل الأبيض وليس على العنصرية في حد ذاتها. لم أكن من أنصار الرمي بالرجل الأبيض في البحر، ولكنني سوف أكون في غاية السعادة لو أنه استقل بواخره ورحل عن القارة بمحض إرادته.

كانت رابطة الشباب تُكنّ شيئا من الود للمواطنين الهنود والملونين بناء على أن الهنود - شأنهم شأن الأفريقيين - تعرضوا للظلم ولكن وطنهم الأم - الهند - كان هناك ينتظرهم. وكذلك الحال بالنسبة للملونين: فقد تعرضوا للظلم ولكن لا وطن لهم سوى أفريقيا. كنت على استعداد لتقبل الهنود والملونين طالما التزموا هم بدورهم بسياسات الرابطة، غير أن مصالحهم لم تكن هي مصالحنا، وساورني الشك في مدى قدرتهم على تبني قضيتنا بصدق وإخلاص.

شرعت حكومة مالان تدريجيا في تنفيذ برنامج حكم خبيث، فأمرت خلال أسابيع بالعفو عن روبي لايبرانت Robey Leibbrandt خائن الحرب الذي قاد الإنتفاضات المؤيدة لألمانيا النازية، وأعلنت عن عزمها على الحد من نشاط حركة النقابات العمالية وإلغاء الحقوق الدستورية المحدودة الممنوحة للهنود والملونين والأفريقيين. كما سلب مشروع قانون فصل تمثيل الناخبين Separate Representation Voters Bill الملونين بصورة نهائية حقهم في التمثيل في البرلمان. وفي عام ١٩٤٩ تقدمت الحكومة بقانون منع الزواج المختلط Prohibition of Mixed Marriages وألحقته بعد فترة وجيزة بقانون الفساد الأخلاقي Immorality Act الذي نص على عدم شرعية العلاقات الجنسية بين البيض وغير البيض. وجاء قانون السكان والتسجيل Population and Registration Act ليصنف جميع المواطنين في جنوب أفريقيا تصنيفا عرقيا مما جعل اللون أو الجنس أهم عامل في التمييز بين الأفراد وتحديد هويتهم. وتقدم مالان بقانون مناطق المجموعات العرقية Group Areas Act الذي وصفه بأنه "روح سياسة التفرقة العنصرية" الذي حدد لكل مجموعة عرقية مناطق منفصلة تعيش فيها. وهكذا، فبعد أن كان البيض في الماضي يستولون على الأراضي بالقوة أصبحت اليوم مكفولة لهم بحكم القانون.

وتجاوبا مع التهديدات الجديدة والأكثر خطورة التي صدرت عن الدولة انتهج حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في خطوة تاريخية سياسة غير معهودة. ففي عام ١٩٤٩ وضع الحزب خطة كانت نقطة تحول رئيسية في تاريخه تهدف الى تحويل الحزب الى حركة شعبية حقيقية، وصاغت رابطة الشباب برنامج عمل كان حجر الأساس فيه حملة واسعة للتجنيد على المستوى الشعبي.

أقر المؤتمر العام للحزب الذي عقد في بلومفونتاين في ذلك العام برنامج العمل الذي

تقدمت به الرابطة والذي دعت فيه الى تبني سياسة المقاطعة والاضرابات والإعتصام في البيوت والمقاومة السلمية ومسيرات الاحتجاج وغيرها من وسائل العصيان المدني والعمل الشعبي، وكانت تلك بداية ثورة عارمة داخل الحزب الذي ظل حتى ذلك الوقت حريصا على العمل والتحرك في إطار القانون . لقد شهدنا في رابطة الشباب إخفاق الوسائل القانونية والدستورية في مواجهة الظلم العنصري، وها نحن اليوم نشاهد الحزب بكامله متأهبا لدخول مرحلة جديدة من العمل والنشاط.

ولكن التغيير لم يتحقق دون هزات داخلية عنيفة . فقبيل المؤتمر العام بأسابيع التقيت وفي صحبتي وولتو سيسولو وأوليفر تامبو مع الدكتور زوما لقاء خاصا في بيته بصوفياتاون. بينا له في ذلك اللقاء أننا نؤمن بأن الوقت قد حان لتحرك شعبي واسع على منوال حركة اللاعنف التي قادها غاندي في الهند وحملة المقاومة السلمية لعام ١٩٤٦ وأكدنا له على أن المؤتمر الوطني الأفريقي أصبح مفرطا في التساهل في مواجهته للظلم والطغيان . وأشرنا الى ضرورة استعداد قادة الحزب للخروج عن القانون ودخول السجون في سبيل معتقداتهم - إن لزم الأمر - كما فعل غاندي في الهند.

استقبل الدكتور زوما موقفنا بمعارضة شديدة وقال إنها استراتيجية متسرعة ستعطي الحكومة مبررا لسحق الحزب . وأضاف أن وسائل احتجاج من هذا القبيل سيأتي دورها في جنوب أفريقيا ولكن اتخاذ تلك الخطوة في هذا الوقت بالذات سيكون قاتلا بالنسبة للحزب . كما أوضح أنه كطبيب ناجح وصاحب عيادة كبيرة ومزدهرة لن يعرض مهنته للخطر بدخول السجن.

قدمنا للدكتور زوما انذارا أخيرا فحواه أننا سندعم إعادة انتخابه لرئاسة الحزب بشرط أن يدعم مقترح برنامج العمل الذي سنطرحه أمام المؤتمر . أما إذا حجب دعمه عن برنامجنا فلن يجد تأييدا من جانبنا . احتد الدكتور زوما واتهمنا بالابتزاز وبوضع شروط مسبقة لتصويتنا لصالحه . قال إننا أحداث واتهمنا بقلة الخبرة والغرور وبأننا عاملناه بلا احترام. دافعنا عن أنفسنا واعترضنا على موقفه من مقترحاتنا ولكن دون جدوى، فلم يوافق على ما طرحنا عليه.

طلب الدكتور زوما منا الخروج من بيته بكل جفاف وكانت الساعة الحادية عشرة ليلا فخرجنا وأغلق بوابة منزله . كانت ليلة افتقد فيها القمر وكانت شوارع صوفياتاون خالية من المصابيح الكهربائية. جميع وسائل المواصلات توقفت وأمامنا رحلة عدة أميال الى أورلاندو، فأشار أوليفر الى أنه كان من واجب زوما على الأقل أن يوفر لنا وسيلة مواصلات . كان لوولتر أصدقاء بالقرب من بيت زوما فاقنعناهم بقبولنا ضيوفا عليهم ليلتنا تلك.

❋ ❋ ❋

كنا في رابطة الشباب على ثقة بقدرتنا على التخلص من الدكتور زوما في الانتخابات

في مؤتمر ديسمبر وكان المرشح البديل الذي دفعنا به للرئاسة هو الدكتور دجيه أس موروكا J S Morok a. لم يكن موروكا اختيارنا الأول إذ كنا نرغب في ترشيح الأستاذ زد كيه ماثيوز ولكنه كان يعتبرنا راديكاليين أكثر من اللازم ويعتقد أن خطتنا غير عملية. وصفنا ماثيوز بالسذاجة وبأننا أصحاب فتنة ومشاكل ولكنه اضاف أننا سوف ننضج ونهدأ مع الوقت.

لم يكن الدكتور موروكا الاختيار الأفضل. فقد كان عضوا في مؤتمر عموم أفريقيا All-Africa Convention الذي كانت تسيطر عليه أنذاك عناصر تسروتسكية، وعندما وافق على اختيارنا له مرشحا ضد الدكتور زوما قررت رابطة الشباب تسجيله عضوا في المؤتمر الوطني الأفريقي، وقد كان حتى ذلك الحين يشير الى الحزب باسم "المجلس" الوطني الأفريقي. لم يكن يعرف الكثير عن الحزب ولم تكن لديه خبرة عملية في العمل السياسي، ولكنه كان حائزا على احترام الجميع ومُذعنا لخطتنا. وكان موروكا - كمنافسه زوما - طبيبا ومن أكبر الأثرياء السود في جنوب أفريقيا. تلقى تعليمه في إدنبره بسكوتلاندا وفيينا بالنمسا، وكان جده الأول زعيما قبيليا في إقليم أورينج فري ستايت استقبل المستوطنين الأفريكان في القرن التاسع عشر بالترحاب والهدايا - من قطع الأرض وغيرها - ولكنه ذهب ضحية الخيانة والخداع.

سقط الدكتور زوما في الانتخابات واختير الدكتور موروكا رئيسا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كما انتخب وولتر سيسولو أمينا عاما للحزب وأوليفر تامبو عضوا في اللجنة التنفيذية.

دعا برنامج العمل الذي أقر في المؤتمر السنوي الى المطالبة بالحقوق السياسية من خلال المقاطعة والاضرابات والعصيان المدني وعدم التعاون مع السلطة. كما دعا البرنامج الى اضراب عام عن العمل لمدة يوم واحد احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية الرجعية. كان كل ذلك يمثل تحولا عن حقبة الاحتجاجات التي كانت تثار على استحياء، وأخذ كثير من أنصار الحزب القدامى يتوارون خلف الكواليس في الساحة الجديدة التي تميزت بالمواجهة والصدام وروح التحدي. كما تدرج أعضاء رابطة الشباب في السلم التنظيمي للحزب، ونجحنا في توجيه الحزب نحو وجهة أكثر راديكالية وثورية.

احتفلت بانتصارات رابطة الشباب عن بعد لأنني لم اتمكن من حضور المؤتمر السنوي. والسبب في ذلك انضمامي للعمل في مكتب محاماة جديد لم يسمح لي بأخذ يومين إجازة للمشاركة في المؤتمر في بلومفونتاين. كان القائمون على المكتب من التحررين ولكنهم أصروا على أن أركز على عملي وأنسى السياسة، ولو أنني تجاهلت الأمر وذهبت الى المؤتمر لفقدت وظيفتي وهو ما لم يكن في وسعي أن أعمله.

طغت روح العمل الشعبي في الساحة السياسية ولكنني ظللت على عدم ارتياحي لأي نشاط مشترك مع الشيوعيين والهنود. في مارس ١٩٥٠ نظم كل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ترانسفال والمؤتمر الهندي في ترانسفال والمنظمة الشعبية الأفريقية واللجنة

الإقليمية للحزب الشيوعي اجتماعا عاما في ساحة السوق Market Sqaure بمدينة جوهانسبيرغ تحت شعار "مؤتمر الدفاع عن حرية الكلمة" حضره عشرة آلاف شخص. وافق الدكتور موروكا على ترأس ذلك الاجتماع دون الرجوع الى اللجنة التنفيذية. ورغم نجاح الاجتماع ظلت تساورني مخاوف لأن الحزب لم يكن هو المحرك الأساسي له.

وبإيعاز من الحزب الشيوعي والمؤتمر الهندي أصدر الاجتماع قرارا بتنظيم اضراب عام لمدة يوم واحد عرف بيوم الحرية، وحدد له تاريخ الأول من مايو، للمطالبة بإلغاء قوانين الهوية وكل التشريعات العنصرية. ورغم مساندتي لكل هذه المطالب كنت على يقين بأن الشيوعيين يسعون من خلال يوم الاحتجاج الى انتزاع قصب السبق من بين يدي الحزب، فعارضت فكرة اضراب أول مايو على أساس أن الفكرة لم تنبع من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، واعتقادا مني بأنه ينبغي أن نركز على حملتنا وبرامجنا الخاصة بالحزب.

لم يكن أحمد كاثرادا آنذاك قد جاوز الواحدة والعشرين من العمر وكان - كأي شاب في سنه - متاهبا لاستعراض عضلاته، وهو من الأعضاء الرئيسيين في مؤتمر الشباب الهندي في ترانسفال. وتناهى الى سمعه أنني كنت من المعارضين لاضراب أول مايو. وبينما كنت يوما أتمشى في شارع كوميشنر التقيت بأحمد كاثرادا فواجهني بكلام حاد اتهمني فيه بأنني ورابطة الشباب لا نرغب في العمل مع الهنود والملونين. وقال بنبرة فيها التحدي:

- أنت زعيم أفريقي وأنا شاب هندي. وأنا على يقين بمساندة الجماهير الأفريقية للاضراب وأتحداك أن تدعو لاجتماع في أي ضاحية من الضواحي الأفريقية تختارها وأضمن لك أن الناس سيقفون الى صفي.

كان تهديدا أجوف، ولكنه أثار غضبي على أي حال، وتقدمت ضده بشكوى للجنة التنفيذية للحزب وللمؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا وللحزب الشيوعي. غير أن اسماعيل مير هدأ من روعي قائلا:

- إنه شاب صغير ومتهور، فلا تكن مثله.

شعرت بشيء من التخاذل وسحبت الشكوى، ورغم اختلافي مع أحمد كاثرادا أعجبت بحماسه وأصبح ذلك الموقف مثارا للتندر والفكاهة بيننا.

نُظّم اضراب يوم الحرية دون مساندة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وتحسبا للإضراب منعت الحكومة كل الاجتماعات واللقاءات يوم أول مايو. أضرب عن العمل في ذلك اليوم أكثر من ثلثي العمال الأفريقيين. وفي المساء كنت مع وولتر بالقرب من تجمع كبير في أورلاندو ويست نظم رغم ما فرضته الحكومة من تقييدات. كان القمر ساطعا وكانت المسيرة تتقدم في هدوء، ولمحنا فرقة من قوات الشرطة على الجانب الآخر من مجرى مائي صغير على بعد خمسمائة ياردة تقريبا. يبدو أن أعضاء الفرقة انتبهوا للمسيرة فأخذوا يطلقون الرصاص في اتجاهنا. انبطحنا أرضا وإذا بشرطة على ظهور الخيل تداهم التجمع

وتضرب الناس بالعصي . تفرق الناس في كل اتجاه ولجأنا الى مقر للمرضات وكنا نسمع أصوات الرصاص يدك جدران المباني . أسفر إطلاق الرصاص العشوائي الذي لا مبرر له عن مقتل ثمانية عشر أفريقيا وجرح آخرين . ورغم الاحتجاج والنقد المتواصل ردّ الحزب الوطني الحاكم بمزيد من الضغط والقمع . ففي غضون أسابيع تقدمت الحكومة بقانون مكافحة الشيوعية Suppression of Communism Act سيء الذكر الذي أصبح الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا بموجبه منظمة غير شرعية كما أصبح الانتماء له والدعوة للأفكار الشيوعية جريمة بحكم القانون عقوبتها السجن عشر سنوات . وبادر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بعقد مؤتمر استثنائي في جوهانسبيرغ . فصيغة ذلك القانون كانت فضفاضة بحيث شمل المنع جميع أنواع الاحتجاج على سياسات الدولة تقريبا ، وأحال جريمة نشر أي فكر أو مذهب من شأنه الدعوة الى "أي تغيير سياسي أو صناعي أو اجتماعي أو اقتصادي داخل اتحاد جنوب أفريقيا بالتحريض على القلاقل والشغب" . وبذلك أعطى القانون الجديد في الواقع للحكومة صلاحيات بمنع أي تنظيم والحد من نشاط أي شخص معارض لسياسات الدولة.

اجتمع من جديد ممثلون عن كل من المؤتمر الوطني الأفريقي والمؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا والمنظمة الشعبية الافريقية لمناقشة الإجراءات الجديدة فقال الدكتور دادو وغيره إنه من الحماقة أن نسمح للخلافات التي ظهرت في الماضي أن تجهض بروز جبهة موحدة لمواجهة الحكومة . أدليت بدلوي في الحديث وأكدت على المعاني نفسها قائلا إن قمع أي حركة تحرير هو بلا شك قمع لجميع حركات التحرير . وهنا تحدث أوليفر تامبو ليقول كلمة خالدة وكأنه يرى بعين الغيب :

– الحزب الشيوعي اليوم ، وغدا نقابات عمالنا ثم مؤتمرنا الهندي ثم منظمتنا الشعبية الأفريقية ثم مؤتمرنا الوطني الأفريقي.

قرر المؤتمر الوطني الأفريقي بدعم من المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا والمنظمة الشعبية الأفريقية تنظيم يوم وطني للإحتجاج في ٢٦ يونيو ١٩٥٠ للتنديد بقتل السلطات الحكومية ثمانية عشر أفريقيا في أول مايو وصدور قانون مكافحة الشيوعية . ووفق على الإقتراح وتضافرت جهود المنظمات الثلاث والحزب الشيوعي لتنظيم يوم الاحتجاج . لقد كان الخطر الماحق في تصوري كافيا ليدفع بحزبنا الى التكاتف والتعاضد مع رفاقنا في الكفاح من الهنود والشيوعيين.

أخترت في بداية ذلك العام عضوا في اللجنة التنفيذية العامة للمؤتمر الوطني الأفريقي لأحل محل الدكتور زوما الذي استقال إثر سقوطه في انتخابات رئاسة الحزب . لم أكن لأنسى أن الدكتور زوما هو الذي ساعدني في الحصول على أول عمل عند وصولي جوهانسبيرغ قبل عشر سنوات ولم يكن آنذاك يخطر على بالي الخوض في العمل السياسي. وها أنا ذا اليوم ، كعضو في اللجنة التنفيذية العامة ، قد أصبحت لاعبا في الفريق الأول الذي يضم أهم وأعلى شخصيات الحزب . لقد تدرجت في السلم الحزبي من مشاغب في

الصفوف الخلفية الى عضو في أحد مراكز القوة التي كنت أنكر عليها وأتمرد ضدها. تعاورني شعور بالنشوة ومزيج من العواطف المختلطة . فمن الأيسر في بعض الأحوال أن يكون المرء معارضا لأن المعارضة لا تترتب عليها مسؤوليات، ولكنني كعضو في اللجنة التنفيذية أصبح من واجبي الترجيح والموازنة بين الآراء والمواقف واتخاذ القرارات وتوقّع النقد من العصاة والمتمردين أمثالي.

العمل الجماهيري في جنوب أفريقيا محفوف بالمخاطر . فالاضراب عن العمل جريمة وحرية التعبير والحركة مكبلة تكبيلا لا رحمة فيه . فالعامل الأفريقي إن أقبل على الاضراب عن العمل عرض نفسه لفقدان عمله بل ومعيشته بأكملها وحقه في الإقامة في المنطقة التي يعيش فيها . والاضراب السياسي - في تجربتي - أكثر خطرا من الاضراب الإقتصادي. فالاضراب من أجل مظلمة سياسية بدلا من مطالب محددة كرفع الأجور أو تخفيض ساعات العمل أمر على درجة أكبر من الخطورة ويتطلب قدرة فائقة على التنظيم والإعداد. وقد كان يوم الاحتجاج الذي نحن بصدده إضرابا سياسيا وليس اقتصاديا.

في إطار التحضير لإضراب السادس والعشرين من يونيو قام وولتر سيسولو بجولة في البلاد للتشاور مع القادة المحليين وتوليت في غيابه الإشراف على مكتب الحزب وهو بمثابة القلب في شبكة معقدة من النشاط، لا يتوقف فيه الصخب والحركة . كان قادة الحزب يترددون يوميا على المكتب للإطمئنان على سير الأمور، من بينهم موسى كوتاني والدكتور دادو وديليزا امجي ودجيه بي ماركس، رئيس فرع الحزب في ترانسفال، ويوسف كاتشاليا Yusuf Cachalia وأخوه مولفي Maulvi وغور راديبي، أمين عام مجلس الفعاليات، ومايكل هارمِل وبيتر رابوروكو Peter Raboroko وانتاتو موتلانا.

كنت أقوم على تنسيق العمل والفعاليات في مختلف أنحاء البلاد والاتصال هاتفيا بقادة الأقاليم. كان الزمن يلاحقنا وكنا مضطرين للتخطيط في عجالة.

كان يوم الاحتجاج أول عمل سياسي من نوعه ينظمه الحزب على مستوى قومي، وقد أحرز قدرا لا بأس به من النجاح . ففي المدن التزم غالبية العمال منازلهم وأقفل السود أعمالهم . وفي بيثيل Bethel قام غيرت سيباندى Gert Sibande، الذي تولى رئاسة فرع الحزب في ترانسفال في وقت لاحق، بقيادة مظاهرة من خمسة آلاف شخص احتلت أخبارها العناوين الرئيسية على الصفحات الأولى لكبرى الجرائد في مختلف أنحاء البلاد .

رفع يوم الاحتجاج من معنوياتنا وأشعرنا بقوتنا وكان بمثابة إنذار لحكومة مالان بأننا لن نقف مكتوفي الأيدي أمام سياسة التمييز العنصري . أصبح السادس والعشرون من يونيو منعطفاً هاما في النضال من أجل الحرية في جنوب أفريقيا خلدته أدبيات حركة التحرير باسم "يوم الحرية" .

كانت تلك المرة الأولى التي أقوم فيها بدور رئيسي في حملة قومية، وغمرني شعور

بالابتهاج والانتعاش نابع من نجاح معركة محكمة التخطيط ضد العدو ومن روح التضامن والعمل المشترك التي تنبثق من خلال مواجهة صعوبات وتحديات هائلة.

أخذت أحس أن العمل النضالي يلتهم كل شيء . فالمناضل رجل لا بيت له . ولد ثاني أبنائي، ماكغاتو لوانيكا Makgatho Lewnika في خضم التنظيم ليوم الاحتجاج وكنت الى جانب إيفيلين في المستشفى عند ميلاده ولكن لفترة وجيزة من الوقت . اخترت لابني اسم سيكافو مابوغو ماكغاتو Sefako Mapogo Makgatho، وهو ثاني رئيس لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي تولى الرئاسة ما بين ١٩١٧ و١٩٢٤، واسم لوانيكا وهو من أبرز زعماء القبائل في زامبيا . وماكغاتو هو أحد أبناء زعيم البيدي Pedi وقائد فرق المتطوعين الذين تصدوا للحواجز العرقية التي منعت على الأفريقيين السير على الرصيف في بريتوريا Pretoria وكان اسمه بالنسبة لي شعارا للصلابة والشجاعة .

كنت أعود الى البيت في ساعة متأخرة من الليل وقد ذهب ابني تيمبى الى فراشه ثم أغادر المنزل مبكرا في الصباح قبل أن يستيقظ من نومه . كان تيمبى في الخامسة من العمر، وفي أحد الأيام خلال تلك الفترة أخبرتني زوجتي بأنه سألها مرة قائلا:

- أين يسكن أبي؟

لم أكن سعيدا بغيابي عن أسرتي وأطفالي، وكنت أحن إليهم كثيرا خلال تلك الفترة، التي لم يكن يخطر ببالى وقتها أنني يوما ما سأفارقهم لأكثر من عقدين من الزمن.

* * *

وحتى ذلك الوقت كانت قناعتي النابعة من معارضتي لما أرفضه من أفكار أقوى من قناعتي المبنية على تمسكي بما أومن به . ولكن معارضتي القديمة للشيوعية بدأت تهتز . كان موسى كوتانى، أمين عام الحزب الشيوعي وعضو اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، يتردد على زيارتي في بيتي وكنا نتحاور طول الليل وحتى الصباح . كان كوتانى واضحا في تفكيره، عصاميا تعلم بمجهوده الشخصي، وكان من أسرة فلاحين من ترانسفال، ولطالما سألني:

- ما هي اعتراضاتك علينا يانلسون؟ إننا نحارب عدوا واحدا . نحن لا نسعى للسيطرة على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لأننا نحن كذلك نعمل في إطار القومية الأفريقية.

ظل يحاورني حتى أعجزني في الكلام ولم أجد حجة شافية للرد عليه.

أصبحت أجد صعوبة في تبرير موقفي المتحيز ضد الحزب الشيوعي وذلك لصداقتي الحميمة مع كل من كوتانى وإسماعيل مير وروث فيرست وما رأيته منهم من تضحيات رائعة . وكان من بين أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي شخصيات مخلصة مثابرة على العمل لا يمكن بأي حال الطعن في دورهم كمناضلين . من هؤلاء ادجيه بي ماركس وإدوين موفوتسانيانا Edwin Mofutsanyana ودان تلومى وديفيد بوبابي وغيرهم كثير . وكان الدكتور

دادو، أحد قادة المقاومة عام ١٩٤٦، ماركسيا معروفا وأصبح نتيجة دوره كمناضل من أجل حقوق الإنسان بطلا لكل التنظيمات. لم يعد بإمكاني الاستمرار في التشكيك في هوية أولئك الشخصيات أو إخلاصهم للقضية.

غير أن عجزي عن تحدى أولئك الأشخاص في تجردهم لـلعمل لم يكن ليحول دون اعتراضي على الأسس الفلسفية والعملية التي تقوم عليها الماركسية. ولكنني لم أعرف عن الماركسية سوى النزْر القليل ووجدت نفسي أثناء المناقشات السياسية مع أصدقائي من الشيوعيين محدودا بجهلي بفلسفتهم وأفكارهم، فقررت أن أصحح هذا الأمر.

اقتنيت الأعمال الكاملة لماركس وإنغلز ولينين وستالين وماو تسي تونغ وغيرهم وعكفت على دراسة الفلسفة الجدلية وفلسفة المادية التاريخية، علما بأنه لم يكن لدي الوقت الكافي لدراسة تلك الأعمال دراسة مستفيضة. لقد أثار اهتمامي البيان الشيوعي Communist Manifesto ولكن كتاب "رأس المال" لماركس أنهكني وأضناني. استهوتني فكرة المجتمع اللاطبقي التي كانت في تصوري قريبة من الثقافة الأفريقية التقليدية القائمة على الجماعية والمشاركة، وقبلت على الفور بمقولة ماركس الأساسية التي اتسمت بكل مواصفات القاعدة الذهبية، والتي تقول: "من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته".

المادية الجدلية توفر النور الذي يضيء ليل الظلم العرقي المدلهم، وفي الوقت ذاته الوسيلة التي يمكن بها القضاء عليه. أعانتني تلك النظرية على أن أرى الوضع في جنوب أفريقيا في إطار أوسع من مجرد العلاقة بين البيض والسود. فلكي ينجح نضالنا علينا أن نتجاوز الصراع الأسود-الأبيض. كما استهوتني الأصول العلمية للمادية الجدلية لأنني أميل بطبعي الى الإيمان بما يمكنني أن أجد دليلا عليه. كما وجدت تحليلاتها المادية للاقتصاد صدى عميقا في نفسي، ووجدت أن فكرة تحديد قيمة السلعة بالجهد المبذول في انتاجها تتلاءم تماما مع ما يجري في جنوب أفريقيا. كانت الطبقة الحاكمة تدفع للعامل الأفريقي أجرا زهيدا لسد رمقه بينما أضافت الى السلع قيمة جديدة احتفظت بفائدتها لنفسها.

كما أن دعوة الماركسية الى العمل الثوري من أعذب الألحان التي تهتز لها روح المناضل من أجل الحرية، وكذلك ما ذهبت اليه الماركسية من أن التاريخ يتقدم من خلال الصراع وأن التغيير إنما يتحقق على مراحل من القفزات الثورية. كما وجدت عند قراءتي للفكر الماركسي كثيرا من المعلومات التي تتعلق بالقضايا والمشاكل التي يواجهها السياسي في ميدان العمل. فقد أولى الماركسيون اهتماما خاصا لحركات التحرر القومي بينما ساند الإتحاد السوفياتي على وجه الخصوص الكفاح الوطني لكثير من الشعوب المستعمرة. وكان ذلك سببا آخر في تعديل نظرتي تجاه الشيوعيين وقبولي بموقف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في الترحيب بالماركسيين بين صفوفه.

سألني صديق مرة كيف يمكنني أن أوفق بين ايماني بالقومية الأفريقية والقبول بأفكار

المادية الجدلية، ولكنني لا أرى تناقضا بينهما. فأنا أولا وقبل كل شيء قومي أفريقي أناضل من أجل تحرير شعبنا من حكم الأقلية وحقه في تقرير مصيره. ولكن جنوب أفريقيا والقارة الأفريقية جزءان من عالم أكبر. ورغم أن مشاكلنا متميزة وذات مواصفات خاصة فهي ليست فريدة من نوعها. فكل فلسفة تضع تلك المشاكل والقضايا في إطار عالمي وتاريخي يتصل بالعالم الأكبر وبمسيرة التاريخ البشري هي فلسفة قيّمة. لقد كنت على أتم الإستعداد لاتخاذ كل الوسائل للإسراع بالقضاء على التعصب البشري والقومية المغالية في العنف، ولكنني لم أجد حاجة الى أن أصبح شيوعيا كي أعمل جنبا الى جنب مع الشيوعيين، ووجدت أن ما يجمع بين القوميين الأفريقيين والشيوعيين الأفريقيين يفوق بكثير ما يفرق بينهم. ظل المشككون مصرين على أن الشيوعيين يستخدموننا لأغراضهم ولكن: من يدري؟ فلربما كنا نحن الذين نستعملهم لتحقيق أغراضنا!!

- ١٤ -

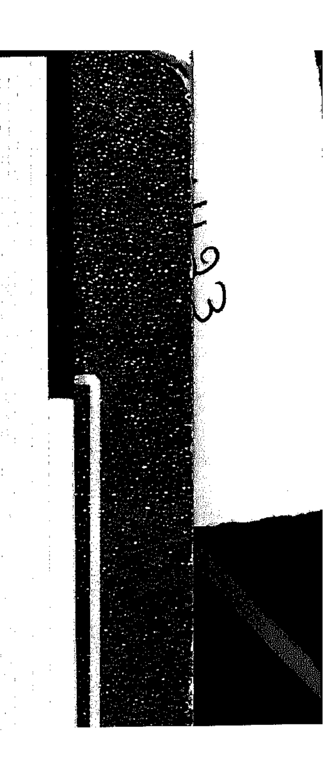
إن وُجد لدينا أي بصيص من أمل في مواقف الحزب الوطني قبل تسلمه السلطة فقد تبخر بالكامل بعد ذلك مباشرة. لم يكن تهديد الحزب بوضع الرجل الأسود في مكانه المناسب تهديدا أجوف. فقد أضاف الحزب عام ١٩٥٠ الى قانون مكافحة الشيوعية قانونين آخرين شكّلا حجر الأساس لسياسة التمييز العنصري هما قانون تسجيل السكان Population Registration Act وقانون مناطق المجموعات العرقية Group Areas Act. فقد أعطى الأول، كما أشرت سابقا، الحكومة صلاحية تصنيف جميع المواطنين في جنوب أفريقيا على أساس عرقي، وبذلك أصبح الإنتماء العرقي، إن لم يكن كذلك من قبل فعلا، هو العنصر الأساسي والوحيد في مجتمع جنوب أفريقيا. فقد أدت المعايير العشوائية اللامنطقية التي اتبعت للتفريق بين السود والملونين من جهة وبين الملونيين والبيض من جهة أخرى الى بروز حالات مأساوية صنفت أفراد الأسرة الواحدة في فئات مختلفة بناء على مسحة لون بَشَرة كل فرد، من حيث سوادها أو درجة سمرتها. وأصبحت تلك التقسيمات السخيفة التي لا معنى لها من تجعّد الشعر وحجم الشفة هي التي تحدد موقع إقامة المرء وعمله.

أما قانون مناطق المجموعات العرقية فقد كان أساس التمييز العنصري في مجال الإقامة والسكن. فقد نصت بنوده على أن لكل فصيل عرقي من السكان الحق في ملكية الأرض وشَغْل المنازل والمباني ومزاولة التجارة في المناطق الخاصة به فقط. فمنذ ذلك التاريخ أصبح على الهنود العيش في المناطق الهندية فقط والأفريقيين في المناطق الأفريقية والملونين في مناطق الملونين فقط. هذا، وللبيض إن رغبوا الحق في ضم أي مساحة من الأرض بكل بساطة بمجرد إعلانها "منطقة بيضاء". كما كان القانون بداية لحقبة الترحيل القسري الذي أدى الى نقل تجمعات سكانية ومدن وقرى من الأفريقيين بكاملها عنوة من مناطق خصصت حديثا للبيض لاعتراض أصحاب الأراضي المجاورة من البيض على وجود السود فيها أو لمجرد رغبتهم في الاستيلاء عليها.

كانت ضاحية صوفياتاون على رأس قائمة المناطق المرشحة لإعادة التوطين. وهي من أقدم مستوطنات السود في جوهانسبيرغ نابضة بالحياة والنشاط يفوق عدد سكانها خمسين الف نسمة. ورغم فقرها كانت صوفياتاون غنية بالحياة والحيوية ومحضنا لكثير من الجديد والقيّم في حياة الأفريقيين وثقافتهم. وكانت - حتى قبل محاولات الحكومة لنقلها - تمثل رمزا ذا أهمية خاصة للأفريقيين أكبر بكثير من حجمها السكاني المحدود.

وفي السنة التالية أصدرت الحكومة قانونين آخرين استهدفا بصورة مباشرة حقوق الملونين والأفريقين. الأول هو قانون فصل تمثيل الناخبين Separate Representation of Voters Act والغرض منه إدراج أسماء الناخبين الملونين في منطقة الكيب في سجل منفصل لإضعاف

حقوقهم وقدرتهم الانتخابية التي كانوا يتمتعون بها لأكثر من قرن من الزمان. أما الثاني فهو قانون سلطات البانتو Bantu Authorities Act الذي ألغى مجلس تمثيل السكان الأصليين Natives' Representative Council وهو الهيئة الوحيدة القائمة آنذاك للتمثيل غير المباشر للسكان الأفريقيين. استبدل القانون الجديد ذلك المجلس بنظام متعدد المراتب من زعماء قبائل أفريقيين تعيّنهم الحكومة، وذلك بهدف إعادة السلطة لأولئك الزعماء التقليديين المحافظين ومن ثمّ إبراز الفوارق العرقية الفاصة بين الأفريقيين التي أخذت تذوب شيئا فشيئا. لخص ذانك القانونان روح سياسة حكومة الوطنيين أحسن تلخيص، تلك الحكومة التي كانت تتظاهر بحرصها على حماية الأوضاع التي بدأت في تدميرها والقضاء عليها. وهكذا وُصفت القوانين التي تسلب المواطنين حقوقهم بأنها جاءت لاستعادة تلك الحقوق وترسيخها.



تكاتف الملونون ضد قانون فصل تمثيل الناخبين ونظموا في مارس ١٩٥١ مظاهرة ضخمة في كيب تاون وفي أبريل إضرابا عن العمل والدراسة. في خضم تلك الروح من النشاط والحيوية بين الهنود والملونين والأفريقيين طرح وولتر سيسولو على مجموعة صغيرة منا لأول مرة فكرة تنظيم حملة قومية من العصيان المدني على نطاق جنوب أفريقيا بكاملها. وتتلخص الخطة التي طرحها سيسولو في تطوع مجموعات مختارة من كل التجمعات العرقية والحزبية بالخروج عن قوانين معينة وتعريض أنفسهم عمدا للسجن من قبل السلطات.

وجدت الفكرة هوى في نفسي ونفوس الآخرين فورا ولكنني اختلفت مع وولتر في اختيار من يشارك في تلك الحملة. كنت قد توليت حديثا الرئاسة القومية لرابطة الشباب ودعوت بإلحاح من خلال منصبي الجديد أن تقتصر الحملة على الأفريقيين دون غيرهم. وبينت أن الرجل الأفريقي العادي ما زال مترددا تجاه العمل المشترك مع الهنود والملونين. إذ رغم التطور الذي طرأ على معارضتي للشيوعية كنت لا أزال متوجسا من نفوذ الهنود. إضافة الى ذلك فقد كان كثير من أنصارنا على مستوى القواعد الشعبية العريضة يرون الهنود من التجار وأصحاب الأعمال مستغلين للسود والعمالة السوداء.

اعترض وولتر على رأيي بشدة وأكد على أن ارتباط مصير الهنود والملونين والأفريقيين ارتباط لا فكاك منه، وطُرح الموضوع على اللجنة التنفيذية العامة فرفض رأيي حتى أولئك الذين يعتبرون من أعتى القوميين الأفريقيين. لم يثنني ذلك عن موقفي فأثرت الموضوع من جديد على أعلى مستوى في الحزب في المؤتمر العام في ديسمبر ١٩٥١، ولكن المشاركين رفضوا اقتراحي بنفس القوة التي رفضته بها اللجنة التنفيذية من قبل. أما والحال كذلك، فقد قبلت بما قبل به الجميع.

وفيما استقبلت كلمتي التي دافعت فيها عن موقفي الذي انفردت به بين الجميع بكثير من الفتور، قوبلت تلك التي ألقيتها بصفتي رئيسا لرابطة الشباب وتعهدت فيها بدعم سياسة التعاون المشترك الجديدة بموجة عاصفة من الحماس والترحيب.

كما وافق مؤتمر الحزب بتوصية من مجلس تخطيط مشترك متكون من الدكتور موروكا وولتر سيسولو ودجيه بي ماركس ويوسف دادو ويوسف كاتشاليا على قرار بمطالبة الحكومة أن تقوم قبل ٢٩ فبراير ١٩٥٢ بإلغاء قانون مكافحة الشيوعية وقانون مناطق المجموعات العرقية وقانون فصل تمثيل الناخبين وقانون سلطات البانتو وقوانين الهوية وقوانين تقييد المواشي. وكان الهدف من القانون الأخير الحد من تخطي المواشي لمراعيها ولكن تطبيقه سيزيد من انحسار مساحة الأراضي المخصصة للسود. ووافق المجلس على أن ينظم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مظاهرات ومسيرات تمهيدا لشن حملة لتحدي القوانين الجائرة Campaign for the Defiance of Unjust Laws وذلك في ٧ أبريل وهو اليوم الذي سيحتفل فيه البيض في جنوب أفريقيا بالذكرى المئوية الثالثة لنزول يان فان رايبيك Jan van Riebeeck على ساحل الكيب عام ١٦٥٢ . فقد ظل البيض في جنوب أفريقيا يخلدون ذكرى ذلك اليوم من كل عام باعتباره تاريخ ميلاد وطنهم، وهو التاريخ الذي يلعنه الأفريقيون لأنه بداية لثلاثة قرون من العبودية.

أعد الحزب خطابا موجها الى رئيس الوزراء لإخباره بقرارات المؤتمر السنوي والتاريخ الأقصى المحدد لإلغاء القوانين. ونظرا الى أن الخطاب سيوقع عليه الدكتور موروكا وهو لم يشارك في صياغته فقد طلب مني أن أحضر الخطاب بسيارتي الى بيته في مدينة تابا انخو Thaba 'Nchu الواقعة بالقرب من بلومفونتاين في إقليم أورينج فري ستايت وهي من أكثر مناطق البلاد محافظة. وكدت ألا أصل الى بيت الدكتور موروكا أو أسلمه الخطاب!!

قبل ذلك الموعد بأسابيع دخلت امتحان قيادة السيارات، وكان حصول الأفريقي في تلك الأيام على رخصة قيادة أمرا غريبا، وقليل جدا من السود كانوا يحملون رخص قيادة. وفي اليوم المحدد للإمتحان استعرت سيارة أحد الزملاء، وأصابني شيء من الزهو، فقررت أن أسوق السيارة بنفسي الى مركز امتحان القيادة وكنت قد تأخرت قليلا عن الموعد. كنت أقود بأسرع مما يجب وفيما كنت بصدد الدخول من شارع فرعي الى الطريق الرئيسي ولم أتأكد من خلوّ الطريق من السيارات ارتطمت سيارتي بسيارة أخرى قادمة في الإتجاه المعاكس. كان الضرر بسيطا واتفقنا على أن يتكفل كل منا بتصليح سيارته، ولكن الوقت كان يلاحقني وبدا أنني سوف أتأخر عن موعد الامتحان بلا محالة.

وصلت مركز امتحان القيادة وشاهدت سيدة بيضاء تؤدي الامتحان. كانت تقود السيارة بدقة وعناية، وعند نهاية الامتحان شكرها الممتحن ثم طلب منها إيقاف السيارة في موضع حدده لها وبينما هي تقوم بتلك العملية صعدت إحدى العجلتين الخلفيتين على الرصيف، فجاء الممتحن الى السيدة وقال:

- يؤسفني يا سيدتي أن أخبرك بأنك رسبت في الامتحان. أرجو التكرم بحجز موعد لاختبار آخر.

تضاءلت ثقتي وقلت لنفسي طالما نجح الممتحن في خداع سيدة بيضاء بهذه الطريقة فلا أمل لي في اجتياز امتحان القيادة!!

ولكن رغم ذلك أديت الامتحان على أحسن ما يرام وعندما طلب مني الممتحن إيقاف السيارة كما طلب من السيدة البيضاء قبلي نفذت العملية بكل حذر حتى ظننت أن الممتحن سيعاقبني على بطء سرعتي.

بمجرد أن أصبح بإمكاني قيادة السيارة بصفة قانونية أصبحت كسائق سيارة أجرة متطوع لما كنت أقوم به من نقل مختلف الرفاق والأصدقاء وتوصيلهم حيث يرغبون . ولهذا السبب طُلب مني الذهاب الى بيت الدكتور موروكا، ولم أتردد في الإستجابة لأنني أحب القيادة والاستمتاع بالطبيعة على جانبي الطريق . وكانت القيادة عبر المناطق الريفية، والريح تلفحني من خلال نافذة السيارة، من الأوقات التي أستلهم خلالها أحسن أفكاري.

عبرت في طريقي الى تابا انخو بمدينة كرونستاد Kroonstad المحافظة بإقليم فري ستايت على بعد مائة وعشرين كيلومترا جنوب جوهانسبيرغ. وأثناء صعودي لأحد التلال لمحت اثنين من الصبيان البيض أمامي على دراجتين، وعند اقتراب سيارتي منهما انعطف أحدهما فجأة وبدون إعطاء إشارة فاصطدمت دراجته بسيارتي فوقع على الأرض. خرجت من السيارة وذهبت لمساعدته فإذا به يئن من الألم ويمد ذراعيه نحوي يطلب مني أن أحمله. وبينما كنت أهم بذلك سمعت سائق عربة شاحنة من البيض يصيح محذرا إياي الا ألمس الصبي مما أفزع الصبي فأرخى ذراعيه وكأنه لا يريد مني أن أحمله . لم تكن إصابة الصبي بالغة ولكن صاحب الشاحنة اصطحبه الى أقرب محطة للشرطة.

وصلت الشرطة بعد قليل ونظر إلي الضابط الأبيض نظرة واحدة وقال:

- ستتبرز في سروالك اليوم أيها الكافير!!

صعقت للحادث ولحدة اللهجة التي خاطبني بها الشرطي، ولكنني أجبته بكل ثقة بأنني لن أتبرز إلا برغبتي وليس عندما يطلب مني شرطي ذلك، فأخرج الشرطي دفترا ليسجل بياناتي الشخصية .كان رجال الشرطة الأفريكان يدهشون لرجل أسود يتكلم الإنجليزية ناهيك عن أنه يرد عليهم بحدة .

بعد أن أخذ الشرطي البيانات الشخصية اتجه الى السيارة وشرع في تفتيشها، وبعد قليل أخرج من تحت غطاء أرضية السيارة نسخة من صحيفة الغارديان اليسارية الأسبوعية كنت خبأتها بعد الحادث مباشرة. خبأت رسالة الدكتور موروكا داخل قيمصي . نظر الى اسم الصحيفة ثم رفعها الى أعلى كما يرفع القرصان غنيمته ثم صاح بأعلى صوته:

- يا إلهي . لقد قبضنا على شيوعي !!

ثم انطلق الشرطي ملوحا بالصحيفة في يده.

عاد ضابط الشرطة بعد نحو أربع ساعات برفقة ضابط أفريكاني آخر كان مصرا على تأدية واجبه بدقة فقال إنه يحتاج الى أخذ بعض القياسات في موقع الحادث لتسجيلها في سجلات الشرطة . ولكنني قلت للضابط بما أن الحادث وقع أثناء النهار فليس من اللائق أن

يأخذ القياسات أثناء الليل، وإنني أنوي قضاء تلك الليلة في تابا انخو وليس بإمكاني ماليا أن أبيت في كرونستاد. تفرس الشرطي في وجهي بتبرم ثم سألني:

- ما اسمك؟

- مانديلا.

- لا، بل أقصد اسمك الأول؟

- نلسون.

وهنا قال الضابط وكأنه يخاطب طفلا:

- إنني أريد أن أساعدك كي تستأنف رحلتك، ولكن إذا كنت متصلبا معي سوف أتصلب معك ولن يكون أمامي من خيار سوى أن احجزك هنا حتى الصباح.

هبطت بي تلك الكلمات الى أرض الواقع ووافقت على أخذ القياسات.

استأنفت رحلتي في ساعة متأخرة من الليل، وعندما كنت أعبر بسيارتي منطقة إكسيلسيور Excelsior توقفت السيارة فجأة. لقد نفد وقودها. اتجهت الى بيت في مزرعة قريبة وشرحت بالإنجليزية لسيدة بيضاء أنني أرغب في شراء وقود للسيارة. أقفلت الباب وهي تقول:

- ليس عندي وقود أبيعك إياه.

واصلت المشي مسافة ميلين الى مزرعة أخرى، واتعاظا بدرسي السابق، حاولت استعمال أسلوب مختلف في الطلب هذه المرة. طلبت مقابلة صاحب المزرعة وعندما ظهر قابلته بخنوع وتذلل قائلا:

- لقد نفد من سيدي الوقود.

بدا المزارع ودودا راغبا في مساعدتي، وكانت تربطه قرابة برئيس الوزراء سترايدوم Strydom. ويبدو لي أنه كان سيعطيني الوقود حتى وإن أخبرته عن حقيقة وضعي ولم ألجأ الى استعمال تلك اللهجة الذليلة البغيضة.

لم يكن لقائي مع الدكتور موروكا زاخرا بالأحداث والمفاجئات كرحلتي إليه. فقد وافق على الرسالة وقفلت راجعا الى جوهانسبيرغ التي وصلتها في سلام. أشارت الرسالة الى أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي استنفد كل الوسائل الدستورية المتاحة له من أجل ضمان الحصول على حقوقنا الشرعية، وطالبت بإلغاء القوانين الستة "الجائرة" في موعد لا يتجاوز ٢٦ فبراير ١٩٥٢ وإلا فإن الحزب سيلجأ الى اتخاذ خطوات خارج نطاق الدستور. وجاء في رد مالان، الموقّع من قبل سكرتيره الخاص، أن للبيض حقا أصيلا لاتخاذ أي إجراءات للمحافظة على هويتهم كجماعة منفصلة. وأنهى ذلك الرد بتهديد فحواه أنه في حالة إصرار الحزب على تنفيذ خطته فإن الحكومة لن تتردد في استخدام كل ما لديها من إمكانيات لإخماد أي اضطرابات أو أعمال شغب.

اعتبرنا أن الأسلوب الجاف الذي تجاهل به مالان مطالبنا بمثابة إعلان حرب، ولم يبق أمامنا سوى اللجوء الى العصيان المدني، فبدأنا في الترتيبات الجدية للتحرك الجماهيري. كان تجنيد المتطوعين وإعدادهم من أهم الواجبات التي سيترتب عليها، الى حد كبير، نجاح الحملة أو إخفاقها. خرجت مظاهرات تمهيدية يوم ٦ أبريل في كل من جوهانسبيرغ وبريتوريا وبورت إليزابيث Port Elizabeth وديربان Durban وكيب تاون. تحدث الدكتور موروكا لأحد التجمعات في فريدام سكوير ميدان الحرية بجوهانسبيرغ، وتحدثت أنا لعدة مئات من المتطوعين من الأفريقيين والهنود والملونين التابعين لنقابة عمال النسيج Garment Workers' Union مشيرا الى أن التطوع للعمل السياسي أمر صعب ومحفوف بالمخاطر لأن السلطات سوف تقدم على استفزاز المتطوعين واعتقالهم بل وإيذائهم. وأكدت على أنه لن يكون بإمكان المتطوعين الرد على السلطات مهما كانت قاسية في مواجهتهم وإلا فسيعرضون الحملة كلها للخطر، وأن عليهم مواجهة العنف بغير عنف وعليهم الالتزام والإنضباط مهما كلفهم ذلك من ثمن.

في ٣١ مايو عقد قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا اجتماعا في بورت إليزابيث أعلنوا فيه أن حملة التحدي ستبدأ في ٢٦ يونيو وهو موعد الذكرى السنوية ليوم الاحتجاج القومي. كما شكل القادة لجنة العمل الوطني National Action Committee لتتولى الإشراف على إدارة الحملة وهيئة التطوع الوطني National Volunteer Board لتجنيد المتطوعين وتدريبهم. عُيّنت المسؤول العام للحملة ورئيسا لكل من لجنة العمل وهيئة التطوع وكانت مهمتي تشمل تنظيم الحملة والتنسيق بين الفروع الإقليمية وتجنيد المتطوعين وجمع الأموال.

كما ناقشنا فكرة تنظيم الحملة على غرار منهج اللاعنف الغاندي – أو ما سماه المهاتما غاندي آنذاك "ساتياغراها" - والمنهج يسعى الى تحقيق النصر من خلال الإقناع. هناك من وافق على أسلوب الإقناع لاعتبارات أخلاقية خالصة ولكونه أفضل وسيلة للعمل السياسي. كان ممن تبنوا هذا الرأي مانيلال غاندي إبن المهاتما غاندي ورئيس تحرير صحيفة إنديان أوبينيون Indian Opinion ومن أبرز أعضاء المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا. كان غاندي بمظهره المتواضع الرقيق يجسد سياسة اللاعنف وأصر على تنظيم الحملة على المنهاج الذي اتبعه أبوه في الهند.

وذهب آخرون الى معالجة الأمر من الناحية التكتيكية وليس من ناحية المباديء، طالبوا أن نستخدم الوسائل التي تتطلبها الأوضاع الراهنة، وأشاروا باتباع الوسائل التي من شأنها أن تمكننا من التفوق على العدو. فقوة الدول في هذه الحالة مثلا تفوق بكثير قوتنا، وأي محاولة من طرفنا لاستخدام العنف ستقابل بالسحق وعليه أصبح أسلوب اللاعنف ضرورة عملية أكثر منه خيارا نفضله. كان ذلك رأيي ورأيت اللاعنف على طريقة غاندي وسيلة تكتيكية تستخدم بقدر ما يمليه الموقف وليست مبدأ لا يمكن الخروج عنه. فالمبدأ لم يكن من الأهمية بحيث يفرض تطبيق تلك الاستراتيجة ولو كانت تؤدي الى الهزيمة، وهو ما كان

غاندي نفسه مؤمنا به . كنت أدعو الى الاحتجاج السلمي طالما كان فعالا، وهو الرأي الذي ساد رغم اعتراض مانيلا غاندي الشديد عليه .

وافق مجلس التخطيط المشترك على برنامج مفتوح من عدم التعاون مع السلطات وعدم استعمال العنف، واقترح للحملة مرحلتين . في المرحلة الأولى يقوم عدد محدود من المتطوعين المدربين تدريبا جيدا بمخالفة قوانين محددة في عدد قليل من المدن . ومن ذلك مثلا دخول المناطق المحظورة بدون رخص واستعمال المرافق المخصصة للبيض فقط كالمراحيض ومقصورات القطارات وغرف الإنتظار ومداخل مكاتب البريد . كما كُلف البعض بمخالفة قوانين منع التجول في المدن . عين مسؤول لكل مجموعة من مجموعات التحدي من مهمته إشعار الشرطة مسبقا بالأعمال التي سيقوم بها المتطوعون كي تتم عملية إلقاء القبض على المخالفين بأقل قدر من الإزعاج . أما المرحلة الثانية فهي التحدي الجماعي وتنظيم الاضرابات وغيرها من مظاهر الاحتجاج بين عمال المصانع في جميع أنحاء البلاد.

قبل انطلاق حملة التحدي نظم الحزب في ٢٢ يونيو تجمعا جماهيريا كبيرا في ديربان تحت اسم يوم المتطوعين تحدث فيه الزعيم لوتولي Luthuli رئيس المؤتمر الوطني الأفريقي في ناتال والدكتور نايكر رئيس المؤتمر الهندي في ناتال، وأكد كل منهما على التزام تنظيمه بالحملة . وصلتُ الى ديربان في اليوم السابق ليوم المتطوعين وكنت المتحدث الرئيسي فيه وبلغ الحضور نحو عشرة آلاف شخص . أشرت في كلمتي الى أن حملة التحدي هي أقوى وأهم نشاط قامت به الجماهير المستضعفة في جنوب أفريقيا. كانت تلك أول مرة أتحدث في حشد بذلك الحجم وكانت تجربة مثيرة للابتهاج . الحديث أمام الجماهير يختلف عن الحديث لعدد قليل في اجتماعات مصغرة، ولكنني كنت دائما حريصا على شرح وتبيين أفكاري في اللقاءات الموسعة بنفس القدر من العناية والدقة . قلت لذلك الحشد إنهم يصنعون التاريخ ويوجهون أنظار العالم كله الى سياسات جنوب أفريقيا العنصرية . كما أشرت الى أن الوحدة بين السود في جنوب أفريقيا من أفريقيين وملونين وهنود قد أصبحت اليوم حقيقة واقعة.

شارك جميع المواطنين من مختلف أنحاء البلاد في حملة التحدي يوم ٢٦ يونيو بكل شجاعة وحماس وباستشعار كامل للمعنى التاريخي لذلك الحدث . بدأت الحملة في ساعة مبكرة من الصباح في بورت إليزابيث عندما دخل ثلاثة وثلاثون متحديا بقيادة رايموند امهلابا Raymond Mhlaba محطة القطار عبر البوابة المخصصة للبيض فقط واعتقلوا في الحال . دخلوا المحطة يرددون الأناشيد الوطنية وسط عاصفة من الهتاف والتشجيع من قبل الحاضرين من أصدقائهم وأقاربهم، وكان الجميع يهتف :"لترجعْ أفريقيا الى أهلها"!

كنت صباح ذلك اليوم في مكتب الحزب أتابع المظاهرات وأشرف عليها . كان الموعد المحدد لتحرك المتطوعين في ترانسفال هو منتصف النهار في ضاحية للأفريقيين بالقرب من بوكسبيرغ Boksburg شرقي جوهانسبيرغ . كانت الخطة أن يعرضوا أنفسهم للإعتقال

بدخول الضاحية بدون تصريحات دخول يتقدمهم القسيس ان بي تانتسي N B Tantsi، وهو رجل طاعن في السن من رجال الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية والرئيس بالنيابة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ترانسفال.

عند الضحى كنت في انتظار وصول القسيس تانتسي من بريتوريا وإذا به يتصل تلفونيا ليخبرني بنبرة فيها تأسف وحسرة بأن طبيبه نصحه بألا يعرض نفسه للاعتقال. طمأنته أنه لن يقضي أكثر من ليلة واحدة في الحجز وأننا سنوفر له ملابس تقيه البرد، ولكن دون جدوى. أصبت بخيبة أمل عميقة لأن القسيس تانتسي شخص مرموق في المجتمع ووقع عليه الإختيار لكي نثبت للسلطات بأننا لسنا مجرد شباب طائشين ديماغوغيين.

وجدنا بديلا للقسيس تانتسي على نفس القدر من التوقير والإحترام وهو نانا سيتا Nana Sita رئيس المؤتمر الهندي في ترانسفال الذي قضى شهرا في الحبس لمشاركته بالمقاومة السلمية في حملة احتجاجات عام ١٩٤٦، فقد وافق سيتا على قيادة المتحدّيين رغم كبر سنه وإصابته بالتهاب المفاصل.

بينما كنا نعد لذهاب المتطوعين الى بوكسبيرغ عند العصر انتبهت الى أن أمين عام فرع الحزب في ترانسفال الذي كان من المقرر أن يصاحب نانا سيتا قد اختفى بالكامل، ودخلنا في أزمة جديدة. اتجهت الى وولتر سيسولو وقلت:

- لا مفر من ذهابك أنت، إذن.

كان ذلك أول نشاط هام لنا في ترانسفال وكان من الضروري الخروج بشخصيات مرموقة لقيادة المتحدين وإلا فسنعطي الانطباع بأن القادة تخاذلوا وتقدمت الجماهير لتتحمل العقوبات. وافق وولتر بدون تردد رغم أنه كان أحد المشرفين على تنظيم الحملة، وكان من المقرر أن يشارك في التحدي شخصيا في وقت لاحق. الأمر الوحيد الذي أثار قلقي هو أنه كان يرتدي بذلة فبحثنا له عن ملابس أخرى أكثر ملاءمة لحياة السجن.

انطلقنا الى بوكسبيرغ حيث كان الترتيب أن أسلم أنا ويوسف كاتشاليا رسالة الى الحاكم المحلي هناك لإعلامه بأن خمسين متطوعا من أفرادنا سيدخلون الضاحية الأفريقية في منطقته ذلك اليوم بدون تصريحات دخول. وجدنا أمام مكتب الحاكم حشدا كبيرا من رجال الصحافة والمصورين، وما أن قدمت الخطاب للحاكم حتى أخذت عدسات التصوير في تسجيل الحدث فأدار الحاكم وجهه بعيدا عن أضواء المصورين ودعاني الى مكتبه الخاص لمناقشة الأمر وجها لوجه وفي هدوء. كان شخصا متعقلا وقال إن مكتبه مفتوح لنا دائما وحذرنا من أن المبالغة في الدعاية ونشر الأخبار لن تزيد الأمور إلا سوءا وتعقيدا.

انطلقنا بعد ذلك مباشرة الى مكان المظاهرة وتناهت الى أسماعنا من على بعد نصف ميل تقريبا أصوات المتطوعين والحشد الكبير من الأنصار الذين جاءوا لتشجيعهم ترتفع بالغناء والهتاف. كانت البوابة الحديدية الضخمة المؤدية الى المدينة مقفلة وكان المتطوعون ينتظرون على أحر من الجمر مطالبين بالسماح لهم بالدخول. تجمع اثنان وخمسون متطوعا

من أفريقيين وهنود وعدة مئات من المشجعين والصحفيين . كان وولتر في مقدمة المتحدين وكان وجوده دليلا على جدية موقفنا وعزمنا على التحدي. ولكن المحرك الرئيسي لذلك التجمع كان نانا سيتا الذي كان رغم مرضه يتنقل بين المتظاهرين مبتهجا متحمسا يربت على ظهورهم ويرفع من معنوياتهم ومعنوياته في آن واحد.

مرّت الساعة الأولى بسلام وأظهرت الشرطة تعقلا غير معتاد وحيرنا تصرفهم . فهل كان ذلك الموقف مقصودا، والغرض منه استنزاف قوة المتطوعين؟ أم هل كانت قوات الشرطة تنتظر أن ينصرف رجال الصحافة قبل أن تحيل المظاهرة الى مذبحة تحت جنح الظلام؟ أم هل وقع رجال الشرطة أنفسهم في حيرة لأنهم لو اعتقلونا - وهو ما ينبغي عادة أن يقوموا به - لحققوا الهدف الذي كنا نحن نسعى اليه؟ وبينما نحن نقلب الأمر تغير الموقف فجأة . أمرت الشرطة بفتح البوابة فتدفق المتطوعون عبرها في الحال مخالفين بذلك القوانين، وأطلق أحد الضباط صفارته فهب رجال الشرطة محلقين حول المتطوعين يعتقلونهم، ونقل المتظاهرون في عربات الى مركز الشرطة لتقديم التهم إليهم رسميا . لقد بدأت حملة التحدي بالفعل ولا شيء يقف في طريقها.

في مساء اليوم نفسه حضر أعضاء لجنة العمل المتكونة مني ومن أوليفر تامبو ويوسف كاتشاليا اجتماعا في المدينة لمناقشة أحداث ذلك اليوم وللتخطيط للأسبوع المقبل . عقد الاجتماع بالقرب من موقع تجمع الدفعة الثانية من المتحدين الذين ينتظرون الإعتقال بقيادة فلاغ بوشيلو Flag Boshielo رئيس الفرع المركزي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي . رأيناهم بعد الحادية عشرة بقليل يجوبون الشوارع في تشكيلة منظمة وقد حل وقت منع التجول الذي يحتاج فيه الأفريقيون لتصريحات خاصة للخروج الى الشوارع.

خرجنا من الاجتماع عند منتصف الليل وشعرت بتعب شديد ولم يعد فكري مشغولا بالتحدي ولكن بوجبة ساخنة وفراش أستسلم فيه للنوم . كنت أمشي برفقة يوسف كاتشاليا وكان من الواضح أننا في طريقنا الى البيت وأننا لسنا من المتظاهرين . اقترب منا أحد رجال الشرطة وقال:

- مانديلا؟ لن تفلت هذه المرة.

أشار بعصاه البوليسية الى عربة الشرطة قائلا:

- اصعد العربة.

كنت على وشك أن أشرح له أنني مشرف على تنظيم الحملة بشكل يومي وأنني لست من المتحدين ولم يحن وقت اعتقالي بعد، غير أنني انتبهت الى سخافة ذلك التبرير . كنت أراقبه وهو يعتقل يوسف الذي انفجر ضاحكا من سخرية الموقف، وكان مشهدا ممتعا وهو يبتسم والشرطي يقوده الى المعتقل.

وجدنا أنفسنا بعد لحظات بين أكثر من خميسن متطوعا بقيادة فلاغ بوشيلا في مركز الشرطة المبنى من الطوب الأحمر والمعروف باسم مارشال سكواير Marshall Square. أخذ

يزداد قلقي لغيابنا كعضوين في لجنة العمل وانشغلت بالتفكير في من سيتولى إدارة الحملة بعدنا . ولكن المعنويات كانت عالية، وكان المتحدّون يرددون النشيد الوطني الأفريقي: "اللهم احفظ أفريقيا" Nkosi Sikelel iAfrika وهم في عربات الشرطة.

في أول ليلة لنا في الحبس دفع أحد الحراس البيض واحدا من المتطوعين فوقع على السلك وكُسرت قدمه عند الرُسغ فعبرت عن احتجاجي للحارس على تصرفه فانهال علي يركلني في مقدمة الساق. ألححت في المطالبة بعرض الرجل المصاب على طبيب، وهاج الحاضرون في مظاهرة مصغرة . ولكن جاء الرد - بكل برود - أن للمصاب إذا رغب الحق في طلب العناية الطبية عند الصباح، فقضينا الليلة نتألم كما كان يتألم.

قضيت قبل ذلك التاريخ فترات قصيرة في السجن ولكن كانت تلك أول تجربة حقيقية أواجهها. كان مركز مارشال سكواير للشرطة مليئا بالقاذورات مظلما كئيبا ولكننا لم نشعر بذلك كله لما استبد بنا من الحماس والمعنويات المرتفعة . لقد ساعدت تلك الرفقة الطيبة في انقضاء يومين من الحبس بسرعة ودون أن نحس بهما.

شارك في حملة التحدي ما يزيد عن مائتين وخمسين متطوعا في مختلف أنحاء البلاد وتحدوا عددا من القوانين الجائرة واعتُقلوا . كانت بداية رائعة اتسم فيها جنودنا بالنظام والإنضباط والثقة العالية .

على مدى الأشهر الخمسة التالية انضم للحملة ثمانية آلاف وخمسمائة متطوع من أطباء وعمال مصانع ومحامين ومدرسين وطلاب ورجال كنيسة عرضوا أنفسهم للاعتقال . كان هتاف المتطوعين هو: "يا مالان افتح أبواب السجون ...إننا داخلون" . انتشرت الحملة في جميع أنحاء ويتووترزراند ومنها الى ديربان ثم بورت إليزابيث فإيست لندن East London فكيب تاون .كما امتدت الى المدن الصغيرة في شرق الكيب وغربه، بل وأخذت روح المقاومة تنتعش حتى في المناطق الريفية . كانت انتهاكات القوانين الجائرة من النوع الخفيف عموما وتراوحت العقوبات من بضع ليال الى بضعة أسابيع حبس أو غرامات لم تتعد عشرة جنيهات في كل حالة . حازت الحملة على تغطية إعلامية ودعاية واسعة النطاق وارتفعت عضوية المؤتمر الوطني الأفريقي بمعدل مذهل من عشرين ألف الى مائة ألف عضو، خاصة في إقليم الكيب الشرقي حيث انضم نصف الأعضاء الجدد .

قطعت خلال الأشهر الستة من الحملة مسافات شاسعة في زيارة مناطق مختلفة من البلاد . كنت أسافر في أغلب الأوقات بالسيارة ليلا أو عند الفجر . طفت مناطق الكيب وناتال وترانسفال اتحدث لمجموعات صغيرة عن تفاصيل الحملة وكنت أحيانا أتنقل من بيت الى بيت في المدينة نفسها . وكان من واجباتي فض الخلافات في المناطق المقبلة على تنظيم فعاليات احتجاج أو التي فرغت من ذلك . في ذلك الوقت كانت القضايا السياسية البارزة محلية غالبا، فوسائل الإتصال بين تجمعات الأفريقيين كانت بدائية أو لا وجود لها، وكان لزاما علينا التحدث الى الناس وإقناعهم فردا فردا.

ذهبت في إحدى المناسبات الى الكيب الشرقي لفض نزاع يتعلق بالمسؤول على الحملة هناك ألكوت غوينتشى Alcott Gwentshe وهو صاحب متجر بقالة ناجح لعب دورا هاما في تنظيم حملة الإعتصام بالمنازل في إيست لندن يوم ٢٦ يونيو منذ سنتين خلتا . أودع ألكوت الحبس لفترة قصيرة في بداية حملة التحدي . كان ألكوت صلبا متميزا بقدرات خاصة ولكنه كان في الوقت ذاته انفراديا لا يأبه لنصائح القيادة التنفيذية وينفرد باتخاذ القرار، فوجد نفسه في مواجهة مع القيادة التي تضم في أغلبها عناصر فكرية.

كان غوينتشى خبيرا بكيفية استغلال قضايا معينة لسحب البساط من تحت أقدام خصومه. فكان يخاطب أعضاء الحزب المحليين من العمال ولا يخاطب أهل الفكر، وكان يتحدث إليهم بلغة الكوسا ولا يخاطبهم بالإنجليزية إطلاقا لأنها لغة المفكرين . كان يقول لهم:

– إيها الرفاق . إنكم تعلمون ما عانيت من أجل النضال . كنت في وظيفة محترمة ثم دخلت السجن في بداية حملة التحدي وفقدت تلك الوظيفة . والآن وقد خرجت من السجن يأتي هؤلاء المفكرون ليقولوا لي إنهم أعلى مني تعليما وأقدر على إدارة الحملة وقيادتها .

تحريت عن الأمر فوجدت أن غوينتشى فعلا كان يتجاهل توجيهات القيادة ولكنه كان حائزا على دعم الجماهير واستطاع تكوين مجموعة منضبطة ومنظمة من المتطوعين حوله تحدوا السلطات بنجاح حتى أثناء غيابه في السجن . ومع أنني اعتبرت غوينتشى مخطئا في تجاهله للقيادة وجدته يؤدي مهمته على أحسن ما يرام وأن وضعه قوي جدا من الصعب زحزحته . التقيت بأعضاء القيادة وشرحت لهم أن الوضع لا يقبل اتخاذ أي إجراءات، وأن السبيل الوحيد لمعالجة الموقف هو إسقاط غوينتشى في الانتخابات المقبلة . كانت تلك من أوائل المناسبات التي وجدت فيها من الحماقة السير ضد رغبة الجماهير، إذ لا فائدة من اتخاذ أي موقف أو إجراء تعارضه الجماهير لأنه سيكون من المستحيل تطبيقه.

أما الحكومة فقد اعتبرت الحملة خطرا يهدد أمنها وسياستها العنصرية . فالحكومة تعتبر العصيان المدني جريمة وليس وسيلة من وسائل الاحتجاج، وأزعجها ما كانت تراه من تضامن متزايد بين الأفريقيين والهنود . فالهدف من سياسة التفرقة العنصرية هو تقسيم التجمعات العرقية وفصل بعضها عن بعض، ونحن قدمنا الدليل الواقعي على قدرة تلك التجمعات على التعاون والعمل المشترك . كما زاد من قلق الحكومة احتمال بروز جبهة موحدة من الأفريقيين والهنود، المعتدلين والراديكاليين . ومع ذلك أصر الحزب الوطني الحاكم على أن الشيوعيين كانوا من وراء حملة التحدي . وأعلن وزير العدل عن قرب صدور تشريعات جديدة لمواجهة نشاطاتنا الجريئة، وهو التهديد الذي نفذه خلال الدورة البرلمانية لعام ١٩٥٣ بإصدار قانون الأمن العام Public Safety Law الذي خوّل الحكومة صلاحية إعلان الأحكام العرفية واعتقال المواطنين بلا محاكمة وقانون تعديل القوانين الجنائية Criminal Laws Amendment Act الذي نص على إنزال العقوبات البدنية ضد المشاركين في حملة التحدي.

لجأت الحكومة الى عدة وسائل غير شرعية لإجهاض حملة التحدي. فعمد القائمون على الدعاية الحكومية الى بث شائعات مفادها أن قادة الحملة يعيشون في بذخ ورفاهية تاركين الجماهير يتضورن داخل السجون. ورغم مجافاة هذه الإدعاءات للحقيقة فإنها لقيت درجة من القبول لدى بعض الناس. كما عمدت الحكومة الى زرع عملاء ودس محرضين داخل صفوف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان يرحب بكل من أبدى رغبة في الانضمام إليه. ورغم الدقة في اختيار المشاركين في فعاليات التحدي نفسها لم يقتصر نجاح الشرطة على اختراق الفروع المحلية بل اخترقت مجموعات المتطوعين كذلك. عندما اعتقلت في مارشال سكواير لفت نظري اثنان من المتطوعين أحدهما يدعى راميلا Ramaila لم أره في حياتي من قبل إطلاقا وكان يرتدى زيا غريبا عبارة عن بذلة وربطة عنق ومعطف ووشاح من الحرير. تساءلت في نفسي: من ذا الذي يذهب الى السجن بملابس كهذه؟ عندما كنا نستعد للخروج من السجن في اليوم الثالث اختفى عنا راميلا الى الأبد.

أما الثاني، واسمه ماخاندا Makhanda فقد كان بارزا بين الجميع لمظهره العسكري. كنا في روح معنوية عالية وكنا نتمشى في فناء السجن فيمر المتطوعون أمامي وأمام يوسف كاتشاليا فيؤدون التحية، وكان ماخاندا طويلا نحيفا ويمشي مشية عسكرية واضحة فيحيينا بأسلوب فيه جدية وروح العسكرية. وكان بعض الزملاء يستثيرونه بقولهم إنه ضابط شرطة للطريقة التي كان يعطي بها التحية العسكرية.

اشتغل ماخاندا منظفا في المركز الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كان دؤوبا في عمله ومحبوبا من قبل الجميع لأنه كان يلبي طلبات الزملاء ويشتري لهم الطعام. ولكننا اكتشفنا في محاكمة لاحقة أن ماخاندا وراميلا كانا جاسوسين للشرطة، واعترف راميلا بأنه اخترق صفوف المتطوعين لحملة التحدي بينما كشف ماخاندا الأمين عن أنه كان ضابطا في الشرطة واسمه الحقيقي موتلونغ Motloung.

كان المال هو الدافع الرئيسي لقبول بعض الأفريقيين العمل جواسيس ضد إخوانهم. كان كثير من السود يعتقدون أن أي عمل سياسي يقوم به السود ضد سلطة الرجل الأبيض هو من قبيل التهور ومآله الى الإخفاق حتما. فالرجل الأبيض في رأيهم كان أذكى وأقوى، وكانوا ينظرون إلينا كخطر يهدد مصالحهم أكثر مما يهدد نظام حكم الرجل الأبيض لأن تصرفات عدد قليل من المشاغبين ستدفع بالبيض الى إساءة معاملة جميع السود بلا استثناء.

ومع ذلك فقد وجدنا عددا كبيرا من رجال الشرطة السود المتعاونين معنا. كانوا نوعيات طيبة وقد وجدوا أنفسهم في أزمة أخلاقية. فهم مخلصون لرب العمل وفي حاجة للمحافظة على وظائفهم كي يعولوا أسرهم وعائلاتهم، ولكنهم كانوا يشعرون بالتعاطف مع قضيتنا. ونشأ اتفاق بيننا وبين عدد من رجال الأمن الأفريقيين بأن يخبروننا مسبقا بأي مداهمات تنوي الشرطة القيام بها. كانوا رجالا وطنيين عرضوا حياتهم للخطر من أجل مساندة النضال الوطني.

لم تكن الحكومة العائق الوحيد أمامنا، فقد عرقل مسيرتنا كثيرون كان بإمكانهم الوقوف الى جانبنا. أرسل الحزب المتحد في ذروة حملة التحدي اثنين من أعضائه في البرلمان لحثنا على إيقاف الحملة. قيل إن استجابتنا لنداء زعيم الحزب دجيه دجي ان ستراوس J G N Strauss بإيقاف الحملة سيعين الحزب المتحد على هزيمة الوطنيين في الانتخابات المقبلة. رفضنا ذلك الطلب فانبرى ستراوس للهجوم علينا بنفس الازدراء والاحتقار الذي كان يهاجمنا به الحزب الوطني.

كما تعرضنا الى هجوم من مجموعة من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي المنشقين عرفت باسم التكتل الميال الى الوطنية National Minded Bloc بقيادة سيلوب تيما Selope Thema لعضو السابق في اللجنة التنفيذية العامة. انشقت المجموعة عن الحزب عندما انتخب ادجيه بي ماركس رئيسا للحزب في ترانسفال. كان تيما رئيس تحرير صحيفة بانتو وورلد Bantu World فتصدى على صفحات جريدته بالنقد الشديد لحملة التحدي قائلا إن الشيوعيين أحكموا سيطرتهم على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وإن الهنود يستغلون الأفريقيين. وأكد تيما على أن الشيوعيين أصبحوا يشكلون خطرا أكبر بعد أن أصبحوا يعملون في الخفاء وتحت الأرض وإن مصالح الهنود الإقتصادية تتعارض ومصالح الأفريقيين. ورغم أنه كان يمثل أقلية صغيرة داخل الحزب فقد نجح تيما في الفوز بتعاطف عدد من المتطرفين في رابطة الشباب.

في مايو من ذلك العام وفي خضم حملة التحدي فرضت السلطات حظرا على دجيه بي ماركس بموجب قانون مكافحة الشيوعية لعام ١٩٥٠ وذلك بتهمة "نشر المبادىء الشيوعية". والحظر أمر قانوني يصدر عن الحكومة ويترتب عليه فرض استقالة الشخص المعني من العمل في المنظمات المحظورة، والحد من مشاركته في التجمعات العامة بكل أنواعها. والحظر هو سجن خارج السجن. ولكي تصدر الحكومة أمرا من هذا القبيل لا تحتاج الى أدلة أو توجيه تهمة معينة، ويصبح الحظر ساري المفعول بمجرد الإعلان عنه من قبل وزير العدل. كان ذلك الإجراء عبارة عن وسيلة لإبعاد أشخاص معينين عن المشاركة في العمل النضالي وتحديد مجال حياتهم خارج الساحة السياسية. وكان السجن عقوبة من يخالف قرار الحظر أو يتجاهله.

رُشحت في مؤتمر ترانسفال الذي عقد في أكتوبر من ذلك العام للحلول محل دجيه بي ماركس الذي زكّاني لمنصبه من بعده. كنت آنذاك الرئيس العام لرابطة الشباب والمرشح المفضل لمنصب ماركس، ولكن مجموعة من أعضاء فرع الحزب في ترانسفال كانت معارضة لترشيحي. كانت المجموعة تعرف باسم بافابغيا Bafabegiya أي "الذين يموتون راقصين" وهي تتكون في الغالب من شيوعيين سابقين انقلبوا قوميين أفريقيين متطرفين. كانت تلك المجموعة تسعى الى قطع جميع العلاقات مع الحركيين من الهنود والإتجاه بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي نحو المواجهة. تزعّم تلك المجموعة ماكدونالد ماسيكو MacDonald Maseko وهو شيوعي سابق تولى رئاسة فرع الحزب في أورلاندو أثناء

حملة التحدي، وسيبريبيري ماروبينغ Seprepere Marupeng وهو من أبرز المتطوعين في حملة التحدي في ويتووترزراند، وكان كل منهما عازما على ترشيح نفسه لرئاسة فرع الحزب في ترانسفال.

كان ماروبينغ غوغائيا في منهجه الى حد كبير. وكان من عادته ارتداء البزة الكاكي المقصّبة بالشارات العسكرية والمزينة بالأزرار الذهبية، وكان يحمل عصا تشبه عصا المارشال الإنجليزي مونتغومري. كان يقف منتصبا أمام التجمعات قابضا عصاه تحت ذراعه بإحكام ويقول:

– إنني سئمت انتظار الحرية. إنني أريد الحرية الآن. سأقابل مالان رئيس الحكومة عند مفترق الطريق وسوف أريه ما أريد بالضبط.

يقول ذلك ثم يضرب بعصاه المنضدة بعنف ويصيح:

– أريد الحرية الآن!!

نجح ماروبينغ بهذه الطريقة في الحصول على شعبية واسعة أثناء حملة التحدي، ولكن الشعبية عنصر واحد فقط من العناصر المطلوبة في الانتخابات، وظن ماروبينغ أن شعبيته تضمن له الفوز برئاسة فرع الحزب. قبل الانتخابات وبعد أن أصبح معروفا أنني سأخوضها سعيت للإلتقاء بماروبينغ واقترحت عليه ما يلي:

– إنني أدعوك للترشيح لعضوية اللجنة التنفيذية كي نعمل ضمن فريق واحد عندما أفوز أنا برئاسة الحزب.

أحس ماروبينغ بأنني أستخفه وأقلل من مكانته فرفض واختار أن ينافسني في الترشيح للرئاسة نفسها. كان ذلك سوء تقدير منه إذ أنني فزت في تلك الانتخابات بأغلبية ساحقة.

في ٣٠ يوليو ١٩٥٢ وحملة التحدي في ذروتها وصل رجال الشرطة الى مكتب أتش ام بازنر H M Basner للمحاماة الذي كنت أعمل فيه ومعهم أمر باعتقالي، وكانت التهمة مخالفة قانون مكافحة الشيوعية. جاء ذلك ضمن حملة اعتقالات منظمة لعدد من قادة الحملة قامت بها السلطات في كل من جوهانسبيرغ وبورت إليزابيث وكيمبيرلي Kimberley. وكانت قوات الشرطة في بداية الشهر قد داهمت بيوت ومكاتب عدد من المسؤولين في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والمؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا في مختلف أنحاء البلاد واستولت على أوراق ووثائق. كانت تلك المداهمات أسلوبا جديدا من أساليب القمع أصبح نموذجا لسياسة الحكومة في مداهمات التفتيش الواسعة وغير القانونية التي توالت فيما بعد.

أدت تلك الاعتقالات الى محاكمة واحد وعشرين من القادة البارزين في جوهانسبيرغ في سبتمبر من ذلك العام، كان من ضمنهم رؤساء وأمناء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والمؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا ورابطة الشباب التابعة للمؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر

الهندي في ترانسفال. وشملت محاكمات جوهانسبيرغ كلا من الدكتور موروكا وولتر سيسولو وادجيه بي ماركس، كما اعتقل عدد من القادة الهنود من بينهم الدكتور دادو ويوسف كاتشاليا وأحمد كاثرادا.

تحولت مواعيد مثولنا أمام المحكمة الى مناسبات للتجمعات الشعبية الحماسية. فانطلقت مسيرات عارمة عبر شوارع جوهانسبيرغ تجمعت أمام مبنى محكمة الجنايات بالمدينة، شارك فيها طلاب بيض من جامعة وتس وأعضاء قدامى في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من أليكساندرا وأطفال المدارس الإبتدائية والثانوية الهنود وغيرهم من مختلف الأعمار والألوان. لم تشهد المحكمة في تاريخها كله حضورا كهذا السيل العارم من الناس. كما اكتظت قاعة المحكمة نفسها بالناس يهتفون "فلتعد أفريقيا إلى أهلها".

كان المتوقع أن تكون المحاكمات أيضا مناسبة لإظهار التصميم والتضامن ولكن نكوث الدكتور موروكا بعهده عكر صفو تلك المحاكمات. فقد صُدمنا جميعا بقرار الدكتور موروكا الرئيس العام للحزب والقائد الرمز لحملة التحدي تعيين محام خاص للدفاع عنه، لأن الخطة كانت أن نُحاكم جميعا ضمن قضية واحدة. كلفني زملائي بمناقشة الأمر مع الدكتور موروكا ومحاولة اقناعه بعدم الانفصال عنا في الترافع أمام المحكمة، فذهبت في اليوم السابق لموعد المحاكمة لزيارته في فيلليدج ديب Village Deep بمدينة جوهانسبيرغ.

طرحت عليه منذ البداية مجموعة بدائل ولكنه لم يبد أي اهتمام وراح يحدثني بسلسلة من الشكاوى الشخصية. فقد أحس بأنه أقصي عن التخطيط للحملة، رغم أنه كان في غالب الأحيان راضيا بعدم إبداء أي اهتمام بشؤون الحزب. وأشار الى أن أكثر ما أزعجه في محاكمته ضمن مجموعتنا هو ارتباط اسمه بشلة من الشيوعيين السابقين، وهو يشاطر الحكومة عداءها للشيوعية. اعترضت على كلامه وأشرت الى أنه من تقاليد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي العمل مع كل من هو معارض للظلم العنصري، ولكن موروكا ظل مصرا على موقفه.

كانت الصدمة الكبرى عندما تقدم موروكا أمام القاضي رومبف Rumpff بالتماس مهين لتخفيف العقوبة ووقف شاهدا ليتنكر لكل المباديء الأساسية التي قام حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من أجلها. فعندما سئل عما إذا كان يرى ضرورة وجود مساواة بين السود والبيض في جنوب أفريقيا أجاب موروكا بأن تلك المساواة لن تتحقق أبدا. انتابنا اليأس لدى سماع تلك الكلمات وكدنا نسقط على الأرض من أثر الصدمة. وعندما سأله محاميه إن كان يعتقد أن هناك من بين المتهمين من كانوا شيوعيين، أخذ موروكا يشير الى بعضهم بإصبعه ومنهم الدكتور دادو وولتر سيسولو فاضطر القاضي الى أن يذكره بأنه ليس من الضروري تحديد أشخاص بعينهم.

كان موقف الدكتور موروكا ضربة قاسية للحزب واتضح لدينا على الفور أن أيامه كرئيس للحزب أصبحت معدودة. لقد ارتكب الخطيئة الكبرى وهي وضع مصالحه

الشخصية فوق مصالح الحزب والشعب. لم يكن موروكا مستعدا لتعريض مهنته كطبيب ناجح وثروته للخطر في سبيل معتقداته السياسية، وحطم بذلك ما بناه من رصيد رائع من العمل الجريء نيابة عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحملة التحدي. كان ذلك بالنسبة إلي ماساة حقيقية لأن تخاذل الدكتور موروكا في قاعة المحكمة أضعف من أثر حملة التحدي. لقد تخلى ذلك الرجل عن الحملة التي كان يجوب البلاد طولا وعرضا داعيا لها ومؤكدا على أهميتها.

حكمت المحكمة في ٢ ديسمبر بثبوت التهمة علينا جميعا وهي - كما وصفها القاضي رومف - "الشيوعية القانونية"، أي الشيوعية كما يعرفها القانون تمييزا لها "عما هو معروف عموما بالشيوعية" على حد عبارة القاضي. وتسمح الأحكام التشريعية الخاصة بقانون مكافحة الشيوعية باتهام - وإدانة - أي إنسان يعارض سياسة الحكومة بأي شكل من الأشكال بتهمة "الشيوعية القانونية" وإن لم يكن عضوا ليوم واحد في الحزب الشيوعي. وقال القاضي، وهو رجل منصف ومعتدل، إنه رغم تورطنا في التخطيط لأعمال فيها "عدم امتثال صريح للقوانين وربما بلغت درجة الخيانة العظمى" فهو يقبل بأننا حرصنا على توجيه أعضائنا "بانتهاج منهج العمل السلمي وتفادي العنف من أي نوع". وقد حكم علينا بتسعة أشهر سجن مع الأعمال الشاقة معلقة لمدة سنتين.

ارتكبنا أخطاء كثيرة في تلك الحملة ولكنها كانت بداية مرحلة جديدة في عملنا النضالي. بالطبع لم تلغ القوانين الستة التي تحركنا احتجاجا عليها، ولكننا لم نتوهم قط أنها ستلغى، إنما اخترناها لأنها تمثل العبء الأكبر المباشر على كاهل شعبنا ولكونها أنجع وسيلة لإشراك أكبر عدد ممكن من الناس في حركة النضال.

كان ديدن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي قبل حملة التحدي كثرة الكلام وقلة العمل. لم يكن لدينا عاملون أو موظفون متفرغون، أما الأعضاء فكانوا ملتزمين بالقضية التزاما شفويا لا أكثر ولا أقل. ولكن بعد الحملة ارتفعت العضوية الى مائة ألف عضو، وظهر الحزب كمنظمة جماهيرية بالمعنى الصحيح تملك فرقا ممتازة من العاملين الناشطين المهرة تحدوا قوات الشرطة والمحاكم والسجون. كما أزيلت من أذهان الناس وصمة العار التي كانت مرتبطة بالسجن، وهذا إنجاز له أهميته، لأن الخوف من السجن هو أكبر المعوقات للنضال الوطني من أجل الحرية. لقد أصبح دخول السجن بعد حملة التحدي وسام شرف يفتخر به الأفريقيون.

وكنا فخورين جدا بعدم وقوع حادث عنف واحد من جانبنا طول ستة الأشهر التي استغرقتها الحملة. كان انضباط رجالنا نموذجيا. في الفترة الأخيرة من الحملة تفجرت أعمال شغب في بورت إليزابيث وإيست لندن راح ضحيتها أكثر من أربعين شخصا، تلك الأحداث لم تكن تمت للحملة بصلة لكن الحكومة حاولت ربطها بنا. وقد نجحت في ذلك، لأن أحداث الشغب تلك سممت أفكار بعض البيض الذين لولاها لكانوا متعاطفين مع قضيتنا ونضالنا.

كانت لدى بعض أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي توقعات غير واقعية بأن الحملة بإمكانها الإطاحة بالحكومة، فبيّنا لهم أن الهدف من الحملة هو تسليط الأضواء على مظالمنا وليس القضاء عليها بالكامل. ولكنهم أصروا على أننا وضعنا الحكومة في موقف يجعلها راضية بتلبية كل ما نريد وأن علينا مواصلة الحملة الى أجل غير محدد. تدخلتُ عندها وأوضحتُ أن الحكومة قوية جدا وقاسية جدا بحيث لا يمكن الإطاحة بها بهذا الأسلوب. نعم، بإمكاننا إحراج الحكومة ولكن الإطاحة بها عن طريق حملة التحدي ضرب من المستحيل.

الواقع أن الحملة استمرت لأطول مما ينبغي، وكان علينا أن نأخذ بنصيحة الدكتور زوما. فقد قال في اجتماع له مع لجنة التخطيط في الأيام الأخيرة من الحملة إنها ستبدأ بعد قليل في فقدان زخمها وإنه من الحكمة إنهاء الحملة قبل أن يتبخر أثرها بالكامل. كما أن إيقاف الحملة وهي في أوج تقدمها خطوة ذكية كان بإمكانها أن تحتل العناوين الرئيسية في الصحف. كان الدكتور زوما على صواب لأن الحملة أخذت بعد ذلك في الارتخاء ولكننا، ونحن في عز حماسنا - بل وغرورنا - آنذاك ضربنا بنصيحته عرض الحائط. كان قلبي يقول إن الحملة يجب أن تستمر، في حين يقول عقلي ينبغي أن تتوقف، فدافعت عن إيقافها ولكن لم يكن أمامي خيار سوى مجاراة الأغلبية، وما أن اقتربت نهاية ذلك العام حتى بدأت أركان الحملة تتداعى من حولنا.

لم يصل مدى حملة التحدى أبعد مما وصل إليه في مرحلته الأولى واقتصر على مجموعات صغيرة من المتطوعين غالبيتهم في المدن. أما التحدى الجماهيري الواسع فلم يتحقق خاصة في المناطق الريفية. ولم تنتقل الحملة الى المرحلة الثانية إلا في منطقة الكيب الشرقية حيث برزت حركة مقاومة قوية في الأرياف. وعموما فلم نخترق الأرياف وهذه إحدى نقاط الضعف التاريخية لدى حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ومما ساهم في عرقلة سير الحملة عدم وجود أشخاص متفرغين تفرغا كاملا للإشراف على تنظيمها وإدارتها، فقد كنا جميعا لا نزال هواة في ذلك المجال، وبينما كنت أنا شخصيا أحاول تنظيم الحملة كنت أزاول عملي كمحام، وليس هكذا تدار الحملات الجماهيرية.

بيد أنه قد غمرني شعور عارم بالرضى وبأننا حققنا إنجازا كبيرا، فقد شاركت في العمل من أجل قضية عادلة وبذلت كل ما في وسعي للدفاع عنها وكسب الجولة. لقد حررتني الحملة من كل ما تبقى في نفسي من شكوك أو شعور بالنقص. كما حررتني من انبهاري بقوة الرجل الأبيض ومؤسساته التي كانت تبدو لي وكأنها لا تُقهر. أما الآن فقد أذقت الرجل الأبيض طعم لكماتي وأصبح بإمكاني أن أمشي مرفوع الرأس وأواجه الجميع بعزة وكرامة نابعة من عدم رضوخي للظلم أو استسلامي للخوف.

أجل، لقد بلغت رشدي كمناضل من أجل الحرية.



الفصل الرابع

النضال حياتي

- ١٥ -

شهد المؤتمر العام السنوي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ديسمبر ١٩٥٢ تغيرا كبيرا على مستوى القادة. فقد اختار المؤتمر رئيس جديدا أكثر حيوية ليقود الحزب في حقبة جديدة مفعمة بالنشاط، وهو الزعيم القبيلي ألبرت لوتولي Albert Luthuli. كما أصبحت، بصفتي رئيسا لفرع الحزب في ترانسفال، بناء على دستور الحزب واحدا من أربعة نواب للرئيس. ثم اختارتني اللجنة التنفيذية العامة للحزب النائب الأول للرئيس. كان لوتولي في مقدمة الزعماء القياديين النشطين في الحزب وتصدى بقوة وصلابة لسياسات الحكومة العنصرية.

ولد لوتولي في ما كان يعرف آنذاك بروديسيا الجنوبية وكان أبوه مبشرا من رجال الكنيسة السّبْتيّة، وتلقى تعليمه في ناتال بجنوب أفريقيا حيث درس التربية بكلية آدم Adam's College بالقرب من ديربان. كان ذا قوام يميل الى الطول وجسم ممتليء وبشرة داكنة وابتسامة عريضة، جمع في مظهره بين التواضع والثقة. كان رجلا صبورا جلدا يتكلم ببطء ووضوح ويعطي كل كلمة حقها من الأهمية.

التقيت بلوتولي في أواخر الأربعينات عندما كان عضوا في مجلس تمثيل السكان الأصليين. وفي سبتمبر ١٩٥٢، أي قبل المؤتمر السنوي بعدة شهور استدعت الحكومة لوتولي الى العاصمة بريتوريا وأعطته إنذارا أخيرا فحواه: إما أن يتخلى عن عضويته في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وعن مساندته لحملة التحدي وإما أن يفصل من منصبه كزعيم قبيلي منتخب يتقاضى راتبا من الحكومة. كان لوتولي معلما ومسيحيا مخلصا لدينه وزعيما من الزولو فخورا بقبيلته، وكان أكثر التزاما بالنضال ضد التفرقة العنصرية. رفض أن يستقيل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فأقالته الحكومة من منصبه فأصدر بدوره بيان إعلان مباديء بعنوان "الطريق الى الحرية يمر بالصليب" أكد فيه دعمه للمقاومة السلمية، وبيّن فيه الأسباب التي دعته الى اختيار ذلك الطريق بكلمات مؤثرة لا يزال صداها يتردد في الأذان حتى اليوم، إذ قال: "من ذا الذي ينكر أنني أمضيت ثلاثين عاما من عمري أطرق بلا جدوى وبكل صبر وهدوء وتواضع بابا مغلقا تحول دونه القضبان؟"

وقفت الى جانب الزعيم لوتولي ولكنني لم أتمكن من حضور المؤتمر القومي، إذ كنت واحدا بين اثنين وخمسين من زعماء الحركة من مختلف أنحاء البلاد ممن صدرت بحقهم قرارات حظر قبيل موعد المؤتمر بأيام ومنعنا من حضور الاجتماعات واللقاءات لمدة ستة أشهر. وهكذا قيدت حركتي بموجب ذلك القرار داخل جوهانسبيرغ.

انسحب الحظر على حضور الاجتماعات بكل أنواعها وليس السياسية منها فقط، فلم أتمكن مثلا من حضور حفل عيد ميلاد ابني ,ومنعت من التحدث لأكثر من شخص واحد في المرة الواحدة. كان ذلك الإجراء جزءا من حملة منظمة من طرف الحكومة لكبت

أصوات قادة الحركات التي تناهض التفرقة العنصرية واضطهادهم وتعطيل نشاطهم . كما كان بداية لسلسة من قرارات مشابهة تخللتها فترات قصيرة من الحرية تواصلت على مدى سنوات حتى حرمت من حريتي بالكامل بعد ذلك.

والحظر لا يكبل المرء بدنيا ولكنه يحجر على روحه وأفكاره، ويولد لديه شعورا بالضيق النفسي لا يجعله يحن لحرية الحركة البدنية فحسب بل الى الحرية الروحية كذلك . كان الحظر لعبة خطرة لأن وسائل العزل والتكبيل لم تكن السلاسل والأغلال والقضبان بل القوانين والتشريعات التي يمكن مخالفتها والخروج عنها بكل سهولة . وكنا نفعل ذلك، إذ كنا نختلس فترات قصيرة من الوقت نحس فيها مؤقتا بحرية وهمية، ولعل أخطر أثار هذا النوع من الحظر أن المرء يصل في لحظة معينة الى الإيمان بأن مصدر الظلم لم يعد في الخارج بل في داخله هو نفسه.

رغم حرماني من حضور المؤتمر السنوي لعام ١٩٥٢ فقد بلغتني تفاصيل ما دار فيه عقب انتهائه مباشرة، وكان من أهم قرارات ذلك المؤتمر قرار اتخذ في جلسة سرية ولم يعلن عنه في ذلك الوقت.

نشأت لدي - ولدى كثيرين غيري - قناعة بأن الحكومة ستقدم على إعلان حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا منظمتين غير شرعيتين كما فعلت بالحزب الشيوعي. وحيث أن اتجاه الدولة الى حظر نشاطنا في أقرب فرصة أصبح يبدو أمرا حتميا لا مفر منه بادرت بالاقتراح على اللجنة التنفيذية بوضع خطة بديلة لمواجهة هذا الإحتمال، وأكدت أن تقصيرنا في اتخاذ إجراء من هذا القبيل سيكون بمثابة تخلٍ منا عن المسؤولية كقادة للشعب . وصلتني تعليمات بإعداد خطة تمكن الحزب من مواصلة نشاطه في الخفاء وعرفت تلك الخطة باسم "خطة مانديلا" أو "الخطة الميمية" The M-Plan .

كانت الفكرة الأساسية للخطة هي توفير التركيبة التنظيمية التي تمكن الحزب من اتخاذ قرارات على أعلى مستوى وتبليغها للقاعدة ككل دون الحاجة الى عقد اجتماعات . بمعنى آخر توفير العناصر اللازمة لأن يواصل الحزب العمل كتنظيم محظور وتمكين قادته الممنوعين من الحركة أن يواصلوا مزاولة مهامهم القيادية . كما وضعت "الخطة الميمية" بحيث تسمح للتنظيم بتجنيد أعضاء جدد والتجاوب مع القضايا والمشاكل المحلية والقومية والمحافظة على الاتصال المستمر بين القاعدة والقيادة السرية.

عقدت سلسة من الاجتماعات مع قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا - الممنوعين منهم وغير الممنوعين - للتداول في عناصر الخطة. عكفت على وضع الخطة عدة أشهر حتى توصلت الى صيغة فيها من المرونة ما يجعلها قابلة للتطبيق بما يلائم الأوضاع المحلية دون تثبيط أو إجهاض لروح المبادرة الفردية، وفيها من التفصيل ما يضمن إحكام النظام في الأداء . كانت أصغر وحدة في التنظيم هي الخلية، وهي تضم في ضواحي المدن نحو عشرة بيوت في شارع واحد ويتولى الإشراف عل كل

وحدة من هذه الوحدات مسؤول خلية. ويعين في الشوارع التي يوجد بها أكثر من عشرة بيوت مسؤول شارع يعمل تحت إمرته مسؤولو الوحدات. تنضوي كل مجموعة شوارع تحت منطقة واحدة يتولى الإشراف عليها مسؤول أعلى خاضع بدوره لأمانة الفرع المحلي للحزب، وهي عبارة عن لجنة متفرعة عن قيادة الفرع المسؤولة أمام أمين الفرع الإقليمي. وكان من المفترض، في تصوري، أن يكون أعضاء كل خلية ومسؤول كل شارع على معرفة بكل فرد وكل أسرة في الحي وأن يكون محل ثقة الجميع واثقا من كل من له به صلة. من مهمات مسؤول الخلية تنظيم الاجتماعات وحلقات الدرس السياسية وتحصيل الاشتراكات، وهو أهم حلقة وصل في الخطة. ورغم أن الخطة كانت موضوعة للتطبيق بدرجة أساسية في المدن وضواحيها، إلا أنها كانت قابلة للتعديل والتكيف بما يتلائم وظروف المناطق الريفية كذلك.

* * *

أقرت الخطة ووفق على تنفيذها فورا، وصدرت تعليمات للفروع بالشروع في الترتيب للتركيبة التنظيمية السرية الجديدة. ولكن رغم قبول أغلبية الفروع للخطة فسرتها بعض الفروع في المناطق النائية من البلاد بأنها محاولة من القيادة في جوهانسبيرغ لتركيز السلطة والتحكم في المناطق.

نظم الحزب في إطار "الخطة الميمية" دورة ميسرة من المحاضرات السياسية لتوعية الأعضاء في جميع أنحاء البلاد، ولم يكن الغرض من الدورة مجرد التوعية والتثقيف بل المحافظة على تماسك التنظيم ككل. كانت المحاضرات تلقى سرا وتولى إلقاءها قادة الفروع ثم يكلف الحاضرون بتوصيل المعلومات لغيرهم من الأعضاء في مدنهم ومناطقهم. لم تكن المحاضرات منظمة بطريقة منهجية في البداية، ولكنها سرعان ما انتظمت بصورة رسمية خلال شهور.

وزعت المحاضرات على ثلاث دورات وخصصت كل دورة لموضوع من المواضيع التالية: "عالم اليوم" و "كيف نُحكم" و "حاجتنا الى التغيير". تناولت الدورة الأولى الأنظمة السياسية والاقتصادية القائمة في مختلف أنحاء العالم بما في ذلك جنوب أفريقيا، وكانت بمثابة مقدمة شاملة لنشأة الرأسمالية والاشتراكية في العالم. شملت الدورة، على سبيل المثال، الحديث عما يعانيه السود في جنوب أفريقيا من ظلم كجنس وكطبقة إقتصادية. كان أغلب المحاضرين مثلي من الخاضعين للحظر، وكانت أغلب المحاضرات تنظم في المساء، ونجحت الدورات في تحريك العناصر الممنوعة والاستفادة منها وتنمية العلاقة بينها وبين الأعضاء على مستوى القواعد.

كانت القيادة المحظورة أثناء هذه الفترة غالبا ما تجتمع سرا على انفراد، ثم يجري الترتيب لالتقائها بالقيادة القائمة، وهكذا تحقق الإنسجام الكامل بين القيادتين القديمة والجديدة واستمرت عملية صنع القرار بالشكل الجماعي الذي كانت عليه من قبل. وغالبا ما خُيل إلينا كأن شيئا لم يتغير باستثناء اجتماعاتنا التي أصبحت سرية.

ولدت "الخطة الميمية" في جو من حسن النية وسلامة القصد ولكنها طبقت بنجاح محدود ولم تتبناها جميع فروع الحزب، وظهرت أروع النتائج - مرة أخرى - في إقليم الكيب الشرقي وبورت إليزابيث. لقد امتدت روح حملة التحدي الطيبة لمدة أطول في الكيب الشرقي - بعد أن تلاشت في المناطق الأخرى - مما دفع بأعضاء الحزب هناك الى تبني "الخطة الميمية" تبنيا كاملا كوسيلة لمواصلة تحديهم للحكومة وسياساتها.

اصطدمت الخطة بعراقيل شتى. فلم توضح للاعضاء بصورة جيدة في كل الحالات، ولم تكن هناك عناصر متفرغة للإشراف على تنظيمها وتنفيذها أو إدارتها، بالإضافة الى الخلافات الحادة التي نشبت بشأنها في بعض الفروع وحالت دون التوصل الى اتفاق حول تطبيقها. عارضها بعض القياديين في الأقاليم لإيمانهم بأنها تضعف من قوتهم، بينما استبعد بعضهم إقدام الحكومة على منع الحزب فلم يأخذ الإجراءات اللازمة لمواجهة ذلك الوضع. ولكن، عندما جاءت ضربة الحكومة القاسية لم يكن أولئك مستعدين لصدها أو اتقائها.

- ١٦ -

كنت أثناء حملة التحدي أعيش حياة ذات شقين منفصلين: عملي في حركة النضال ووظيفتي التي هي مصدر رزقي لم أكن متفرغا للعمل في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان لديه موظف واحد رسمي فقط وهو توماس تيتوس انكوبي Thomas Titus Nkobi. ولذا كان لزاما عليّ توزيع وقتي بين العمل الحزبي والمحاماة. بعد الانتهاء من التدريب في مكتب ويتكن وسيديلسكي وآيدلمان وحصولي على الإجازة لممارسة القانون التحقت بمكتب تيربلانش وبريغيش Terblanche & Briggish للمحاماة. لم أكن مؤهلا تأهيلا كاملا لممارسة القانون رسميا بعد، ولكنني كنت قادرا على تحرير المرافعات القضائية وإستصدار أوامر الإستدعاء للمثول أمام المحكمة وإجراء المقابلات مع الشهود وهي كلها إجراءات ينبغي على رجل القانون القيام بها قبل تقديم القضية للمحكمة.

لم تكن هناك مكاتب قانونية مملوكة لأفريقيين، ولذا فقد تحريت عن عدد من مكاتب البيض بعد نهاية خدمتي في مكتب سيديلسكي. كنت مهتما بصورة خاصة بالرسوم التي تتقاضاها تلك المكاتب وفزعت لاكتشافي أن كثيرا من مكاتب المحاماة الراقية كانت تفرض رسوما على زبائنها الأفريقيين في القضايا الجنائية والمدنية تفوق بكثير تلك التي تفرضها على زبائنها البيض الذين يفوقونهم بحبوحة وثراء.

بعد قضاء نحو سنة في خدمة مكتب تيربلانش وبريغيش التحقت بمكتب هيلمان وميشيل Helman and Michel وكان أصحابه من المتحررين. وهو من المكاتب المعدودة التي كانت تفرض على الأفريقيين رسوما معقولة. ويفتخر أصحاب المكتب بدعمهم المالي السخي لتعليم الأفريقيين. وللسيد هيلمان الشريك الأول في المكتب تاريخ طويل في دعم القضايا الأفريقية. كما كان الشريك الثاني رودني ميشيل من قدماء المحاربين في الحرب العالمية الثانية وصاحب أفكار تحررية للغاية، وسبق له أن عمل طيارا. كما ساهم فيما بعد - وفي أحلك فترات القمع السياسي - في تهريب رجالات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي جوا الى خارج جنوب أفريقيا. غير أن السيد ميشيل تميز بعادة سيئة جدا وهي التدخين بلا انقطاع في مكتبه طول اليوم.

عملت مع مكتب هيلمان وميشيل بضعة أشهر، كنت خلالها أحضر لامتحانات التأهيل للمحاماة التي ستمكنني من مزاولة القانون بشكل رسمي. توقفت عن الدراسة لنيل شهادة الليسانس في القانون في جامعة ويتس بعد أن أخفقت في اجتياز الامتحانات عدة مرات، وعليه قررت أن ألتحق بالدراسة للحصول على شهادة تؤهلني لمزاولة المحاماة وتمكنني من توفير دخل معقول لي ولأسرتي. كانت أختي في تلك الآونة مقيمة معنا وجاءت أمي لزيارتنا ولم يكن راتب زوجتي إيفلين المرضة ودخلي التافه جدا يكفيان لتغطية تكاليف معيشتنا جميعا.

بعد التأهيل التحقت للعمل محاميا بمكتب أتش ام بازنر H M Basner الذي كان عضوا

ممثلا للأفريقيين في مجلس الشيوخ، وهو من طليعة أعضاء الحزب الشيوعي ومن أقوى المناصرين لحقوق الأفريقيين. وكان بازنر يتولى الدفاع عن الزعماء والقادة الأفريقيين وأعضاء نقابات العمال. وقد قمت أثناء عملي في المكتب بالدفاع عن عدد كبير من زبائنه الأفريقيين. كان السيد بازنر رئيسا ممتازا وكان يشجعني على نشاطي السياسي طالما أنجزت عملي وأديت واجباتي المهنية كاملة. وبعد الخبرة التي اكتسبتها في مكتب بازنر أحسست بالقدرة على الاستقلال بعملي في المجال القانوني.

في أغسطس ١٩٥٢ افتتحت مكتبا قانونيا خاصا، ويعود الفضل في كل ما حققته من نجاح في المراحل الأولى الى سكرتيرتي زبيدة باتيل Zubeida Patel. تعرفت على زبيدة أثناء عملها في مكتب أتش ام بازنر بديلة لسكرتيرة تتحدث الأفريكانا اسمها الآنسة كوخ Koch Miss التي لم تقبل بأن أملي عليها وهي تكتب. وزبيدة هي زوجة صديقي قاسم باتيل عضو حزب المؤتمر الهندي ولم تكن تعرف التعصب العرقي أو العنصري إطلاقا. كان لها عدد كبير من الأصدقاء وكانت على علاقة طيبة مع كثيرين في الدوائر القضائية، وقد قبلت العمل معي عندما استقللت بمكتبي، وكان لها فضل كبير في جلب زبائن للمكتب.

كان أوليفر تامبو آنذاك يعمل في مكتب كوفالسكي وتوتش Kovalsky and Tuch وكنت أتردد على زيارته أثناء فترة الغداء وكنت أتعمد الجلوس على كرسي للبيض فقط في غرفة مخصصة للبيض فقط. كانت تربطني بأوليفر علاقة ود وصداقة حميمة وكانت أغلب أحاديثنا تدور حول شؤون حزب المؤتمر الوطني الأفريقي خلال تلك الساعات التي كنا نلتقي فيها. كانت بدايات إعجابي بأوليفر في فورت هير حيث لفت نظري ذكاؤه العميق وقدراته الفائقة على الحوار والنقاش. فقد كان قادرا على تفنيد أفكار خصومه بأسلوب منطقي رصين وبكل هدوء، وهي الخصائص ذاتها المطلوبة داخل قاعة المحكمة. قبل التحاقه بفورت هير كان أوليفر تامبو طالبا نابغا بمدرسة سانت بيتر بجوهانسبيرغ. كانت نظرته الموضوعية المتفحصة أفضل تِرياق لردود فعلي العاطفية المتسرعة. كان أوليفر متدينا تدينا عميقا وظل يفكر كثيرا في احتراف العمل الكنسي، وكان ينتمي الى قرية مجاورة لقريتي تدعى بيزانا Bizana في بوندولاند Pondoland وهي جزء من إقليم ترانسكاي ويحمل في وجهه الأخاديد القبلية المميزة. لكل هذه الاعتبارات رأيت من الطبيعي أن نعمل سويا فدعوته الى الإلتحاق بمكتبي. وبعد بضعة أشهر تمكن من تخليص نفسه من المكتب الذي كان يعمل فيه، فأسسنا مكتبا قضائيا مشتركا مستقلا في وسط جوهانسبيرغ.

كانت اللافتة البرونزية عند مدخل المكتب تحمل الإسم: مانديلا وتامبو. وكان المكتب في مبنى تشانسلور هاوس Chancellor House الصغير المقابل لتمثال العدالة المبني من المرمر والقائم أمام محكمة الجنايات في وسط جوهانسبيرغ. كان المبنى مملوكا لهنود، وهو من المباني المعدودة في المدينة المسموح للأفريقيين بتأجير مكاتب فيها. تدفق الزبائن على مكتب

مانديلا وتامبو منذ الأيام الأولى إذ لم نكن نحن المحامين الأفريقيين الوحيدين في جنوب أفريقيا بل كان مكتبنا مكتب القضاء الأفريقي الوحيد في البلاد . كان مكتبنا المكتب المفضل لدى الأفريقيين وكان أيضا ملجاهم الأخير . لكي نصل الى مكاتبنا في الصباح كان علينا اختراق حشد كبير من المراجعين يتجمعون كل يوم في الممرات وعلى أعتاب السلم وفي غرفة الانتظار المتواضعة الصغيرة.

كان الأفريقيون في حاجة ماسة الى مساندة القانون عند استخدام المباني الحكومية . فقد كان الدخول من الباب المخصص للبيض فقط جريمة، وكان ركوب الحافلة العامة الخاصة بالبيض فقط جريمة، وكان الشرب من الحنفية المخصصة للبيض جريمة، وكان المشي على شط البحر المخصص للبيض جريمة، وكان الخروج الى الشوارع بعد الحادية عشرة ليلا جريمة . وكان عدم ملكية جواز مرور جريمة، ووجود توقيع غير صحيح في ذلك الجواز جريمة . كانت البطالة جريمة والعمل في وظائف معينة جريمة . وكانت الإقامة في أماكن محددة جريمة والتشرد جريمة.

كنا نستقبل أسبوعيا رجالا كبار السن من الأرياف طردوا من أراضٍ جرداء ظل آباؤهم وأجدادهم يحرثونها ويزرعونها على مدى أجيال . وكنا نستقبل أسبوعيا سيدات تقدمت بهن السن كن يعملن في عصر البيرة ليجدن ما يعلن به أسرهن ثم أصبحن معرضات للسجن ودفع غرامات ليس بمقدورهن دفعها . واستقبلنا كل أسبوع أناسا عاشوا في بيت واحد لمدة عقود ثم أصبح بين عشية وضحاها في منطقة للبيض وبات عليهم مغادرته بدون الحصول على أي تعويضات . لقد سمعنا ورأينا يوما بعد يوم ما كان يتعرض له الأفريقيون العاديون البسطاء من إهانات وإذلال في كل يوم من أيام حياتهم.

كانت لأوليفر قدرة غير عادية على العمل، وكان يقضي ساعات طويلة في الاستماع لكل زبون من الزبائن . ولم يكن ذلك من منطلقات مهنية بحتة بل لأن أوليفر رجل صبور لا حدود لشفقته وتعاطفه مع الناس. كان يتفاعل بعمق مع قضايا زبائنه وشؤون حياتهم وكان يتأثر كثيرا بالأوضاع العامة السائدة في المجتمع وبكل حالة من الحالات التي تعرض عليه.

اتضح لي خلال فترة قصيرة جدا ماذا يعني مكتب مانديلا وتامبو بالنسبة لعامة الأفريقيين . إنه المكان الذي وجدوا فيه أذانا صاغية لهمومهم وسندا قويا قادرا على مساعدتهم، حيث يُستقبلون بالترحيب ولا يُستغلون أو يخدعون . إنه المكان الذي بعث في أنفسهم شعورا حقيقيا بالفخر لوجود رجال من جلدتهم قادرين على تمثيلهم أمام المحاكم والقضاء . كان ذلك هو الدافع الأساسي الذي شجعني أصلا على اختيار مهنة المحاماة، وها هو عملي في المكتب يؤكد لي صواب ذلك الإختيار.

كنا نبحث في ما لا يقل عن ست قضايا يوميا ونتردد على قاعات المحاكم بصفة مستمرة . كنا نعامل في بعض المحاكم بلطف واحترام وفي غيرها باحتقار وازدراء . ورغم كسبنا للعديد من القضايا كنا على يقين بأنه – مهما أثبتنا من جدارتنا في المحاماة – لن

يسمح لأي منا أن يمارس الادعاء العام أو القضاء على أي مستوى من المستويات . كنا نتعامل مع مسؤولين لا يفوقوننا كفاءة أو أهلية ولكن مواقعهم وسلطاتهم كانت محمية بلون بشرتهم وقائمة عليه.

غالبا ما كنا نواجه التعصب ضدنا في المحاكم نفسها، وكان الشهود البيض أحيانا يرفضون الاستجواب من قبل محامين سود، ولكن بدلا من أن يوجه إليهم القضاة تهمة انتهاك حرمة المحكمة كانوا يتولون بأنفسهم تقديم الأسئلة نيابة عنا . كنت عادة استدعي رجال الشرطة لاستجوابهم أمام المحكمة ورغم اثباتي تورطهم في مخالفات قانونية أو الإدعاء بالباطل لم يكونوا هم يعتبرونني أكثر من "محام كافير".

أذكر أنه طلب مني مرة أن أعرف نفسي أمام المحكمة، وهو أمر روتيني، فقلت:

- اسمي نلسون مانديلا، وأقف أمام المحكمة للمرافعة عن المتهم.

رد القاضي قائلا:

- لا أعرف من أنت . أين شهادتك؟

والشهادة المقصودة هي دبلوم المحاماة التي يحتفظ بها المرء في بيته، ولم يكن من المعتاد أن يحملها المحامي معه إطلاقا . فهل يطلب من خريج الجامعة أن يبرز شهادته الجامعية؟ طلبت من القاضي الشروع في النظر في القضية، ووعدته أن أحضر شهادتي فيما بعد، ولكنه رفض ووصل به الحد الى أن طلب من أحد المسؤولين إخراجي من قاعة المحكمة.

كان تصرف القاضي خروجا صريحا عن أعراف المحاكم، ووصلت القضية الى المحكمة العليا وتولى الدفاع عني صديقي جورج بيزوس . انتقد رئيس المحكمة تصرف القاضي تجاهي وأمر بتكليف قاض آخر للاستماع الى القضية.

ولم يضمن لي كوني محاميا احترام الناس خارج المحكمة . رأيت يوما بالقرب من مكتبي عجوزا بيضاء وقد حُصرت سيارتها بين سيارتين أخرتين فبادرتُ بدفع إحداهما لأفسح لها مجالا للخروج، وإذا بها تلتفت إلي وتقول باللغة الإنجليزية:

- شكرا يا جون !!

و "جون" هو الاسم الذي يستعمله البيض عند مخاطبة أي رجل أفريقي لا يعرفون اسمه، ثم مدت إلي يدها بقطعة من النقود من فئة ست بنسات فرفضت أخذها بأدب. دفعتها نحوي بقوة ولكنني شكرتها ورفضت مرة أخرى فقالت بتعجب:

- أوترفض ست بنسات؟ لعلك تطمع في الحصول على شلن، ولكن هيهات!!

رمتني بقطعة النقود وانصرفت.

اكتشفت أنا وأوليفر بعد سنة من العمل أن قانون المناطق المدنية Urban Areas Act لا يسمح لنا بشغل مكاتب في داخل المدينة دون موافقة وزارية . تقدمنا بطلب فرفض ولكننا

منحنا رخصة مؤقتة بموجب قانون مناطق المجموعات العرقية Group Areas Act بيد أنها لم تدم طويلا. رفضت السلطات تجديد الرخصة وأصرت على أن ننتقل الى منطقة مخصصة للأفرقيين على بعد عدة أميال من وسط المدينة ليس من اليسير على زبائننا الوصول إليها. فسّرنا ذلك الموقف بأنه محاولة من السلطات لمنعنا من ممارسة المهنة فواصلنا العمل في مكتبنا الأصلي مخالفين للقانون وتحت التهديد المتواصل بالطرد.

ممارسة المحاماة في جنوب افريقيا تعني العمل في ظل نظام قانوني يحط من قدر العدالة والقانون ولا يحترم المساواة بل يشرع لعكسها تماما. ولعل من أسوأ القوانين التي جسمت عدم المساواة هو قانون تسجيل السكان Population Registration Act. فقد توليت الدفاع في قضية أحد الملونيين الذي صُنّف خطأ أفريقيا، وكان قد شارك أثناء الحرب العالمية الثانية في معارك شمال أفريقيا وإيطاليا وسجل لدى رجوعه في فئة الأفريقيين وليس الملونين. كانت تلك نموذجا للقضايا المحيرة أخلاقيا التي طالما تكررت في جنوب أفريقيا. لم أكن أؤمن أو أعترف بأحكام قانون تسجيل السكان، ولكن الزبون كان في حاجة لمن يدافع عنه وقد صُنّف تصنيفا غير صحيح. فقد كانت للملونين مقارنة بالأفريقيين ميزات عدة ليس أقلها شأنا أن الرجال الملونين غير مطالبين بحمل رخص تنقل.

تقدمت نيابة عن ذلك الرجل بطلب لهيئة التصنيف Classification Board المكلفة بالنظر في القضايا المتعلقة بقانون تسجيل السكان. كانت الهيئة تضم قاضيا ومسؤولين اثنين وجميعهم من البيض، وكانت في حوزتي أدلة وثائقية قوية جدا تدعم موقف موكلي، كما أشار الإدعاء بصورة رسمية الى أنه لن يعترض طريق الطلب. غير أن القاضي – على ما يبدو – لم يكن مهتما بما لدي من أدلة وثائقية أو بتساهل الإدعاء العام تجاه القضية. تفرس القاضي في وجه موكلي بإمعان ثم طلب منه بكل رعونة أن يدير ظهره الى هيئة المحكمة. بعد فحص كتفي الرجل لفترة من الزمن التفت القاضي الى مستشاريه ثم هز رأسه ووافق على طلب موكلي. والسر في ذلك أن انحدار الكتفين كان من الصفات التي تميز بها السلطات البيضاء الملونين في جنوب أفريقيا. وهكذا تحدد مستقبل ذلك الإنسان ومصيره في الحياة بقرار شخصي من أحد القضاء حول البناء الجسمي لكتفيه.

ترافعنا في عدة قضايا تتعلق بقسوة الشرطة في معاملة المواطنين، ولكن معدل نجاحنا فيها كان منخفضا جدا. إذ كان من الصعب إثبات إعتداءات الشرطة على الأفراد، وكانت الشرطة تحتال على الاعتداءات بحجز الضحايا مدة كافية لاندمال الجروح واختفاء أثار الضرب، وغالبا ما كان الحكم متوقفا على أقوال الشرطي في مواجهة ادعاء الموكل. كان القضاة بطبيعة الحال منحازين للشرطة، ونتائج تقارير الأطباء الشرعيين عن الذين يموتون في الحجز أو الاعتقال غالبا هي: "الموت نتيجة مضاعفات" أو عبارة مشابهة غير محددة المعنى تُسهل إبراء ذمة الشرطة.

في حالة المرافعة عن قضايا خارج جوهانسبيرغ كنت مضطرا لتقديم طلب برفع الحظر عني مؤقتا كي أتمكن من التنقل وكنت أحصل على الموافقة في أغلب الحالات. فقد سافرت

الى ترانسفال الشرقية للدفاع في قضية في كارولاينا، وأثار وصولي هناك ضجة كبيرة لأنها أول مرة يرى فيها كثير من السكان محاميا أفريقيا . استقبلني كل من القاضي والدفاع استقبالا حارا ولم ندخل في تفاصيل القضية التي قدمت من أجلها إلا بعد فترة من الزمن قضيتها في الإجابة على وابل من الإستفسارات عن تجربتي في القضاء وكيف نجحت في أن أصبح محاميا . كما غصت قاعة المحكمة بسكان المدينة الذين جاءوا لمشاهدة المحامي الأفريقي يترافع أمام المحكمة.

كما ترافعت في إحدى القرى المجاورة دفاعا عن رجل يزاول الطب الشعبي(sangoma) اتهم بالشعوذة والسحر . لقيت تلك القضية اقبالا كبيرا من الجماهير الذين كانوا متشوقين لمعرفة ما إذا كانت قوانين الرجل الأبيض سارية على الطب الشعبي كذلك فقد كان لذلك الرجل نفوذ واسع في القرية وكان كثير من سكانها يعبدونه ويخافونه . وفي أثناء المحاكمة عطس الرجل عطسة عنيفة بثت الذعر بين الحاضرين ففروا هاربين الى خارج القاعة لاعتقاد كثيرين منهم بأنه ربما أصابهم بسحره . حكمت المحكمة ببراءة ذلك الرجل ولا أظن أن أهل القرية قد أرجعوا ذلك لمهارتي في الدفاع عنه ولكن لمفعول الأعشاب والوصفات الطبية التي كان الرجل مشهورا بها.

كنت أبالغ أحيانا في الاستعراض أثناء المرافعات أمام المحكمة . لم أكن أتصرف كرجل أسود في محكمة الرجل الأبيض ولكنني كنت أنظر الى جميع الحاضرين – سودا وبيض – وكأنهم ضيوف في محكمتي . كنت ألجأ الى الحركات والإيماءات المفخمة والى استعمال العبارات الطنانة، وكنت دقيقا جدا في الالتزام بجميع قواعد المحكمة وإجراءاتها، رغم أنني كنت أحيانا ألجأ في مساءلة الشهود الى وسائل غير معهودة أو خارجة عن العرف. كنت أستمتع كثيرا بمساءلة الشهود وطالما استغلت الفوارق والنعرات العرقية . كانت الشرفة العامة تغص بالحاضرين في معظم الأوقات إذ كان بعض سكان الضواحي يحضرون المحاكمات للمتعة والتسلية.

أذكر أنني رافعت عن امرأة افريقية تعمل خادمة في المدينة واتهمت بسرقة ملابس من "سيدتها" . عرضت الملابس موضوع التهمة على منضدة أمام المحكمة، وبعد أن أدلت "السيدة" بأقوالها شرعت في مساءلتها بالاتجاه نحو الملابس المعروضة ففحصها وتفرست فيها جيدا ثم رفعت برأس قلمي لباسا داخليا وأدرت جسمي بهدوء نحو كرسي الشهود مخاطبا "السيدة" :

– هل هذا الشيء الـ ......لك؟

فأجابت بسرعة وقد بدا على وجهها الخجل:

– كلا.

بناء على تلك الإجابة – ولتعارض إجاباتها على أسئلة أخرى – قرر القاضي إسقاط الدعوة.

- ١٧ -

تقع ضاحية صوفياتاون على مرتفع صخري مطل على جوهانسبيرغ وعلى بعد أربعة أميال الى غربها. وقد قارنها كبار معجبيها وهو الأب تريفر هادلستون Trevor Huddleston بمدينة من مدن إيطاليا الجبلية الجميلة. وقد كان لصوفياتاون سحرها الخاص بتلك البيوت المرصوصة ذات الأسقف الحمراء ودخانها المتصاعد نحو سمائها الوردية وأشجار الصمغ الطويلة الهيفاء التي تتمايل محتضنة أرجاء المدينة من كل جانب. وكلما اقترب المرء من المدينة بدت أمامه مظاهر البؤس والفقر الذي يعيشه غالبية سكانها. الشوارع ضيقة وغير مرصوفة، وحيثما ألقيت ببصرك رأيت عشرات الأكواخ المتراكم بعضها بجوار بعض.

وصوفياتاون جزء مما عرف بمدن ضواحي المناطق الغربية التي تضم أيضا مارتندايل Martindale ونيوكلير Newclare. خصصت المنطقة في الأصل للبيض وقامت إحدى شركات البناء بإنشاء مجموعة من البيوت هناك صممت للسكان البيض، ولكن نظرا لوجود موقع عام للنفايات بالقرب من الضاحية عزف البيض عن السكن في صوفياتاون واضطرت الشركة الى بيع تلك البيوت للأفريقيين. وهكذا، ورغم أنف السلطات، أصبحت صوفياتاون من الضواحي المعدودة في ترانسفال التي كان بإمكان الأفريقيين فيها امتلاك مواقع وقطع أرض قبل صدور قانون المناطق المدنية Urban Areas Act عام ١٩٢٣، ظلت تلك البيوت العتيقة المبنية بالطوب والحجر قائمة بشرفاتها المسقفة بالصفيح، تضفي على المدينة مسحة من أناقة العالم القديم. وبنمو النشاط الصناعي في جوهانسبيرغ أصبحت صوفياتاون مأوى للقوة العاملة الأفريقية الآخذة في الازدياد. كانت الضاحية في موقع مناسب وعلى مقربة من المدينة. كان السكان يعيشون في أكواخ من الصفيح تقام حول البيوت العريقة وربما آوى الكوخ الواحد أكثر من أسرة واحدة. وربما اشترك أربعون من السكان في صنبور مياه واحد. ولكن رغم الفقر تميزت صوفياتاون بميزة خاصة. فقد كانت بمثابة الضفة اليسرى لباريس، أو قرية غرينتش لنيويورك، فهي ملتقى الكتاب والفنانين والأطباء والمحامين. كانت تجمع بين الطابعين البوهيمي (الغجري) والتقليدي، مفعمة بالحيوية وزاخرة بالسكينة والهدوء. وهي موطن الدكتور زوما ومقر عيادته الطبية ونخبة من التسوتسي Tsotsi أي رجال العصابات من البرلينيين والأمريكيين الذين انتحلوا أسماء نجوم السينما الأمريكيين مثل جون واين وهمفري بوغارت. وتميزت صوفياتاون فوق ذلك كله بوجود حوض السباحة الوحيد في جوهانسبيرغ المخصص للسود.

أصبح من الضروري بحكم برنامج ترحيل المناطق الغربية في جوهانسبيرغ إخلاء ضواحي صوفياتاون ومارتندايل ونيوكلير ويتراوح مجموع عدد سكانها ما بين ستين ألف ومائة ألف نسمة. ففي عام ١٩٥٣ اشترت حكومة الحزب الوطني مساحة من الأرض تعرف باسم ميدولاندز على بعد ثلاثة عشر ميلا عن المدينة وخصصتها لإعادة توطين سبع "مجموعات عرقية" مختلفة، وذلك بدعوى التخلص من الأحياء الفقيرة. الواقع أن

الحكومة كانت تعتبر جميع المناطق المتاخمة للمدينة مناطق بيضاء يقيم عليها الأفريقيون بصورة مؤقتة.

كانت الحكومة واقعة تحت ضغوط أنصارها من البيض المقيمين في مناطق ويستدين Westdene ونيولاند Newland وهي أحياء فقيرة نوعا ما كان سكانها من طبقة العمال البيض يشعرون بالغيرة تجاه السود الذين يمتلكون البيوت الفاخرة في صوفياتاون. كانت الحكومة تهدف الى التحكم في حركة جميع السكان الأفريقيين وهو أمر من الصعوبة بمكان في المناطق التي يمتلك فيها هؤلاء البيوت والأراضي ملكية كاملة. لقد ظل الأفرقيون مقيمين في صوفياتاون ويمتلكون عقاراتها لأكثر من خمسين عاما، وها هي الحكومة تتأهب بدون انسانية لترحيل جميع سكان صوفياتاون الافريقيين الى ضاحية أخرى مخصصة للسود. لقد كانت الخطة من الشر والقسوة لدرجة أن الحكومة كانت تنوي تنفيذها قبل أن تفرغ من بناء البيوت في الضاحية الجديدة التي ستؤوي المرَحّلين. كانت عملية ترحيل سكان صوفياتاون أول اختبار لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وأنصاره منذ حملة التحدي.

ورغم أن جهود الحكومة لترحيل سكان صوفياتاون بدأت في عام ١٩٥٠ لم تبرز جهود حزب المؤتمر الوطني الأفريقي المضادة لها إلا في عام ١٩٥٣، ففي منتصف ذلك العام شرعت الفروع المحلية للحزب وحزب المؤتمر الهندي في ترانسفال وجمعية دافعي الضرائب Ratepayers Association المحلية في تحريض السكان على مقاومة الترحيل. في يونيو ١٩٥٣ دعت القيادة المحلية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر الهندي في ترانسفال الى اجتماع شعبي عام في قاعة سينما أودين Odin لمناقشة الترحيل. كان اجتماعا مفعما بالحيوية والنشوة حضره أكثر من ألف ومائتي شخص لم تبد على أي منهم علامات الخوف أو الرهبة من عشرات من رجال الشرطة المدججين بالسلاح الذين ظهروا في الاجتماع كذلك.

انتهت مدة الحظر المفروضة علي وعلى وولتر قبل موعد الاجتماع بعدة أيام ولم نعد في حرج من المشاركة والتحدث في الاجتماعات فاتفقنا على أن ألقي أنا كلمة في ذلك الاجتماع.

لحظات قبل افتتاح الاجتماع وقع نظر أحد رجال الشرطة علينا أنا ووولتر ونحن نتحدث مع الأب هادلستون أحد زعماء المعارضة للترحيل فاقترب منا مشيرا الى أنه غير مسموح لنا بحضور الاجتماع لكوننا من الشخصيات المحظورة، وأصدر تعليمات لرجاله بإلقاء القبض علينا. عندها صاح الأب هادلستون للضابط قائلا:

– لا تفعل، وعليك أن تلقي القبض عليّ أنا بدلا منهما.

ولكن الضابط طلب منه التنحي جانبا فرفض. وبينما بادرت الشرطة بإزاحة الأب هادلستون اتجهت أنا الى الضابط وقلت:

– عليك أولا التأكد إن كنا محظورين أم لا. احترس لأن اعتقالنا بعد انتهاء مدة الحظر

ليس قانونيا . وهل تعتقد أننا سنظهر هنا الليلة لو لم تكن مدة الحظر قد انتهت؟

كانت مكاتب الشرطة مشهورة بانعدام الدقة في حفظ الجداول والمعلومات وغالبا ما تكون جاهلة بمواعيد انتهاء فترات الحظر، وكان الضابط على علم جيد بذلك . فكر مليا في ما قلت ثم أصدر تعليماته بإخلاء سبيلنا فتنحى رجاله جانبا وانطلقنا نحن الى داخل القاعة.

كانت تصرفات الشرطة داخل القاعة استفزازية وفيها ازدراء للحاضرين، وكانوا يحملون المسدسات والبنادق، فراحوا يدفعون الناس ويخاطبونهم بالشتائم والعبارات النابية . كنت على المنصة مع عدد من الزملاء وبينما كان الاجتماع على وشك أن يفتتح شاهدت الرائد برنسلو Major Prinsloo يحيط به عدد من الضباط المسلحين يدخلون باب المسرح . التقت عيناه بعيني فأومأت له وكأنني أسأله:

- هل أنا المقصود؟

هز الرائد رأسه بالنفي واتجه نحو المنصة حيث بدأ أحمد كاتشاليا في إلقاء خطابه وأمر الشرطة بإلقاء القبض عليه فمسكوا بذراعيه يجرونه الى خارج القاعة . في تلك الأثناء كانت الشرطة قد اعتقلت أيضا كلا من روبرت ريشا Robert Resha وأحمد كاثرادا.

ارتفعت أصوات الحاضرين بالاحتجاج والصراخ وأحسست بأنه ربما أفلت الزمام وفقدنا السيطرة على الحاضرين، وخشيت أن تلجأ الشرطة الى إطلاق الرصاص وأن يتحول اللقاء الى فوضى فقفزت على المنصة وأخذت مكبر الصوت وبدأت في ترديد أحد الأناشيد المعروفة . بمجرد أن نطقت بالكلمات الأولى للنشيد انضم الجمهور للإنشاد وهدأت القاعة بعض الشيء.

نظم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لقاءات مساء كل يوم أحد في ميدان الحرية Freedom Square في قلب مدينة صوفياتاون لتعبئة الجماهير ضد الترحيل، وكانت اللقاءات مفعمة بالقوة والحيوية . كان الحاضرون يهتفون: "لن نرحل"، ويرددون أغنية تقول: "صوفياتاون وطننا، لن نرحل عنه أبدا" . تحدث في تلك اللقاءات عدد من قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وحضرها أصحاب المتاجر وعامة السكان وأعضاء مجلس البلدية، بالإضافة الى الأب هادلستون الذي تجاهل تهديدات الشرطة وأوامرها بالاقتصار على التحدث في شؤون الكنيسة.

بعد لقاء سينما أودين بقليل جاء دوري للتحدث في أحد لقاءات مساء الأحد في ميدان الحرية. انتابت الحاضرين ذلك المساء موجة عارمة من الحماس كان لها أثر كبير على مشاعري . كان بين الحاضرين نسبة كبيرة من الشباب الغاضب المتعطش للعمل والتحرك، وكان رجال الشرطة كالعادة موزعين في كل ناحية من نواحي الميدان مسلحين بالبنادق والأقلام معا. والأقلام كانت لتسجيل ما يدور في الاجتماع وتدوين الأسماء والملاحظات. حاولنا الإستفادة من الوضع بالتحدث بأكبر قدر ممكن من الصراحة أمام الشرطة وإشعارهم بأننا لا نهدف الى إخفاء شيء عنهم بما في ذلك اشمئزازنا من وجودهم بيننا.

افتتحت حديثي بالكلام عن تصاعد القمع والكبت من قبل الحكومة في أعقاب حملة التحدي، وقلت إن الحكومة أصبحت في رعب من قوة الشعب الأفريقي. وكلما استطردت في الحديث وجدتني ازداد سخطا ونقمة. كنت في تلك الأيام قادرا على إثارة الجماهير وميالا الى تهييج العواطف، ووجدت نفسي متهياة لذلك ليلتها.

شجبت سياسات الحكومة ونددت بقسوتها وخروجها على القانون في ممارساتها وجرني الحديث فقلت إن مرحلة المقاومة السلمية انتهت وإن استراتيجية اللاعنف كانت عقيمة وأخفقت في ثني نظام الأقلية البيضاء عن التشبث بالسلطة مهما كان الثمن. وقلت إن العنف في نهاية المطاف هو السلاح الوحيد للقضاء على التفرقة العنصرية، وعلينا أن نستعد لاستعمال ذلك السلاح في المستقبل القريب.

اهتاج الحاضرون وخاصة الشبان منهم، وتعالى التصفيق والهتاف. كانوا على استعداد للعمل بما قلت تلك اللحظة فانطلقت أردد نشيداً من أناشيد الحرية كان من كلماتها: هـا همو أعداؤنا، فلنحمل أسلحتنا، ولنقتحم ديارهم!! انطلق الجميع يردد تلك الكلمات وعند نهاية النشيد أشرت بإصبعي نحو رجال الشرطة قائلا: ها همو أعداؤنا!! اهتاج الحاضرون وتصاعد الهتاف والتصفيق وأخذ البعض يلوح بإيماءات فيها تهديد للشرطة الذين بدأوا يشعرون بشيء من القلق وأخذ بعضهم يشير بأصابعهم نحوي مهددين بأنني لن أفلت من أيديهم. لكنني لم أبَهْ لتهديداتهم ولم اكترث في تلك اللحظات التي أجتاحني فيها الحماس لعواقب ما كنت أقول.

لم تات كلماتي في تلك الأمسية من فراغ، وكنت أفكر في المستقبل. فقد كانت الحكومة تستعد على قدم وساق الى إصدار إجراءات تحول دون تنظيم أي شيء مشابه لحملة التحدي. لقد بدأت أنظر الى حركة النضال من زاوية مختلفة. كانت طموحات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ترمي الى إقامة حركة نضال شعبية وتعبئة الفلاحين والعمال في جنوب أفريقيا من أجل حملة عارمة وقوية للتغلب على ظلم حكم البيض الجاثم على صدورنا. ولكن حكومة الحزب الوطني كانت تسعى الى إلغاء جميع وسائل التعبير والمعارضة والاحتجاج. أصبح واضحا لديّ أن الحكومة ستنزل بكل قوتها وبلا رحمة لكبت كل مظاهر احتجاج الأغلبية الأفريقية المشروع. إنها الدولة البوليسية على الأبواب.

بدأت أفطن الى أن الاحتجاجات غير القانونية والخارجة عن الدستور ستصبح قريبا غير ممكنة. فغاندي الهند كان يتعامل مع دولة أجنبية محتلة على قدر كبير من الواقعية وبعد النظر، أما التعامل مع الأفريكان في جنوب أفريقيا فهو أمر يختلف كثيرا. المقاومة السلمية السلبية تؤتي ثمارها عندما يكون خصمك على استعداد لاحترام القواعد نفسها والإلتزام بها. ولكن إذا قوبل الاحتجاج السلمي بالعنف والقوة فقد فعاليته. لم يكن اللاعنف في تصوري مبدأ أخلاقيا بل استراتيجية محددة، إذ لا خير في استخدام سلاح غير فعال. على أي حال، لم تختمر أفكاري حول هذا الموضوع بصورة جيدة آنذاك ولربما سبقت الأحداث.

أجل، كان ذلك هو رأي اللجنة التنفيذية. فما إن سمعوا ما قلته في خطابي حتى بادروا بتأنيبي بشدة لخروجي خروجا كاملا عن السياسة المعتمدة في الحزب. ورغم تعاطف بعض أعضاء القيادة مع موقفي لم يقف أحد للدفاع عن الأسلوب المتسرع الذي عبرت به عن ذلك الموقف. قرّعونني مشيرين الى أن السياسة المتهورة التي دعوت إليها لم تكن متسرعة وحسب بل خطيرة، إذ أن خطابات انفعالية من هذا القبيل ربما دفعت بالعدو، وهو في موقف القوة، الى سحق الحزب، وهو في موقف الضعف، سحقا تاما. استسلمت للتعنيف وأصبحت منذ ذلك الحين أدافع بإخلاص عن سياسة اللاعنف في العلن، أما في داخل قلبي فقد كنت مقتنعا بأن تلك السياسة ليست الحل لما نحن بصدده.

تكررت في تلك الفترة خلافاتي مع اللجنة التنفيذية للحزب. في بداية عام ١٩٥٣ دُعي كل من الزعيم لوتولي وزد كيه ماثيو وعدد من قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي للاجتماع بنخبة من الشخصيات البيض الذين كانوا بصدد تأسيس حزب الأحرار. وفي اجتماع لاحق للجنة التنفيذية طالب بعض الأعضاء بتقرير عن الاجتماع الذي عقد مع الأحرار البيض، فرفض الذين شاركوا في الاجتماع تقديم تقرير عما دار فيه قائلين إنهم دُعوا إليه بصفتهم الشخصية وليس كأعضاء في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. واصلنا الضغط عليهم حتى قال الأستاذ ماثيوز، وهو محام، إن ما دار في الاجتماع كان حديثا خاصا، فانتابني الحنق وقلت غاضبا:

- أي نوع من الرجال أنتم؟ كيف ترضون بالدخول في مناقشات مع أحرار من البيض ثم ترفضون مشاركة زملائكم في الحزب بما دار بينكم وبينهم من حديث؟ مشكلتكم أنكم تخشون الرجل الأبيض ومنبهرون به، وتعطون لقاءكم مع البيض قيمة أكبر من صلتكم برفاقكم الأفريقيين.

أثار كلامي غضب كل من الأستاذ ماثيوز والزعيم لوتولي فبادر الأستاذ ماثيوز بالحديث قائلا:

- ماذا تعرف عن البيض يامنديلا؟ أنا الذي علمتك كل ما تعرف عن البيض وما تزال جاهلا. فأنت لم تخلع بعد بذلتك الجامعية.

أما لوتولي فكاد يشتاط غضبا وقال:

- حسنا. ما دمت تتهمني بالخوف من الرجل الأبيض فليس أمامي إلا أن أستقيل. إذا كان ذلك هو رأيك فهذا هو ردّي.

لم أعرف إن كان لوتولي يحاول اختبار موقفي ولكن تهديده بث في نفسي الرعب. لقد تسرعت في الحديث بدون روية وبلا مسؤولية، وصرت نادما على ما قلت. سحبت اتهامي وقدمت اعتذاري. لقد كنت شابا غِرّا يحاول أن يغطي على جهله بالحماس والتظاهر بالشدة وروح التحدي.

في تلك الفترة نفسها أخبرني وولتر سيسولو بأنه تسلم دعوة للحضور كضيف شرف من المهرجان العالمي للشباب والطلبة من أجل السلام والصداقة World Festival of Youth and Students for Peace and Friendship المزمع عقده في بوخارست. لم يكن أمامه وقت كاف للتشاور مع اللجنة التنفيذية. كنت حريصا على ذهابه للمشاركة في ذلك المهرجان وشجعته على ذلك بغض النظر عما إذا تمكن من التشاور مع اللجنة التنفيذية أم لا. قرر وولتر أن يسافر وساعدته في الحصول على جواز سفر بديل باستصدار شهادة قانونية للتعريف به وتحديد جنسيته. لم تكن الحكومة لتصدر جواز سفر رسميا لوولتر. سافرت المجموعة التي كان يتزعمها وولتر سيسولو ودوما نوكوى Duma Nokwe على خطوط الطيران الوحيدة التي كانت تقبل بتلك الشهادة القانونية وهي شركة طيران العال الإسرائيلية.

رغم تعنيف اللجنة التنفيذية أصبحت مقتنعا بأن سياسة الحزب الوطني الحاكم ستجعل عما قريب أسلوب اللاعنف محدود الفاعلية والنجاح. كان وولتر على علم بأفكاري وقبل أن يغادر اقترحت عليه أن يقوم بزيارة لجمهورية الصين الشعبية ليبحث مع المسؤولين فيها إمكانية تزويدنا بالسلاح. أعجب وولتر بالفكرة ووعد بأن يسعى في ذلك الإتجاه.

اتخذت ذلك القرار بمفردي وكان تصرفي خارجا عن المعهود تماما، ويمكن اعتباره، الى حد ما، تصرف شخص ثوري متهور غير منضبط لم يقلب الأمور في روية وحكمة. ولكنه كان تصرف رجل ضاق صدره بنظام التمييز العنصري غير الأخلاقي وبعدم إنسانية الدولة التي تحميه.

أحدثت رحلة وولتر لبوخارست ضجة كبيرة داخل اللجنة التنفيذية، وأخذت على عاتقي إبلاغ اللجنة باعتذاره عن عدم الرجوع إليها في الأمر دون أن أفصح عن اقتراحي الخاص بالصين. اعترض لوتولي عن مخالفة قواعد الحزب وأعرب الأستاذ ماثيوز عن انزعاجه لزيارة وولتر الى دول اشتراكية. لم تكن اللجنة مطمئنة إطلاقا لدوافع وولتر وأبدى أعضاؤها شكوكا بشأن الظروف التي شرحتها لتبرير الموقف. كما أبدى بعض الأعضاء رغبة في معاقبتي ومعاقبة وولتر بصورة رسمية ولكنهم عدلوا عن ذلك فيما بعد.

تمكن وولتر من الذهاب الى الصين حيث قابله قادتها بالترحيب وتعهدوا بدعم نضالنا. ولكنهم أبدوا شيئا من التحفظ عندما طرح وولتر فكرة النضال المسلح وحذروه من مغبة ذلك الاتجاه وتساءلوا ما إذا كانت الحركة قد حققت قدرا كافيا من النضج لتبرير الإقدام على العمل المسلح. عاد وولتر الى جنوب أفريقيا بكثير من التشجيع ولكن بدون سلاح.

- ١٨ -

أصبحت في جوهانسبيرغ رجلا حضريا، أرتدي البذلات الأنيقة وأقود سيارةمن طراز "أولدزموبيل" ضخمة، وأعرف الشوارع الخلفية للمدينة عن ظهر قلب، وكنت أقود سيارتي يوميا الى مكتبي في وسط المدينة. غير أنني في صميم قلبي كنت لا أزال ذلك الصبي القروي الذي لا يرفع من معنوياته شيء أكثر من السماء الزرقاء والحقول الفسيحة والعشب الأخضر. قررت عند انتهاء فترة الحظر المفروضة علي في سبتمبر من ذلك العام أن استغل فرصة الحرية للخروج من المدينة. قررت الترافع في قضية في قرية فيليرز Villiers بإقليم أورينج فري ستايت على بعد عدة ساعات بالسيارة من جوهانسبيرغ.

انطلقت من أورلاندو في الثالثة صباحا، وهي الساعة التي كنت أفضل الرحيل فيها. كنت متعودا على أن أستيقظ مبكرا في الصباح، ومغرما باستقبال الفجر وتراجع الليل وانبلاج نور النهار وهو منظر لا حدود لروعته وجلاله. وفي الثالثة صباحا تكون الطرقات هادئة وخالية من السيارات والجو مناسبا للتأمل والتفكير، وكانت تلك ساعة مناسبة للرحيل عند اختفاء رجال الشرطة بالكامل.

لقد كان لإقليم أورينج فري ستايت دائما فعل السحر في نفسي رغم اعتبار بعض العنصريين البيض العتاة ذلك الإقليم موطنهم الخاص. كان ذلك الجزء من جنوب أفريقيا بمناظره الطبيعية الرملية الخلابة وأشجاره وسمائه الصافية الزرقاء وحقول الذرة الصفراء اللون المنبسطة الى أبعد من حد البصر، تدخل السرور والبهجة الى قلبي مهما كان مزاجي النفسي. عندما أكون في أورنج فري ستايت أحس أنه لا يمكن أن يحاصرني أحدا وأن أفكاري قادرة على الإنطلاق بلا حدود أو قيود في آفاق الطبيعة من حولي.

يرى المسافر في أورينج فري ستايت آثار القائد البويْريّ الجنرال كريستيان دو فيت Christiaan R de Wet الذي دوخ الجيش البريطاني في عشرات المعارك خلال الشهور الأخيرة من الحرب بين البويّريين والبريطانيين. كان دو فيت شجاعا معتزا بنفسه ذكيا، وربما أصبح أحد أبطالي المفضلين لو أنه كان يحارب الى صف الأفريقيين بدلا من الأفريكان. لقد أثبت دو فيت شجاعة المستضعفين ومهاراتهم وجدارة الجيش الوطني البسيط في مواجهة الآلة الحربية المتقدمة الضخمة. وبينما كنت أشق تلك المناطق كنت أتخيل الأماكن التي كان يختبيء فيها جنود الجنرال دو فيت وأتساءل إن كانت ستصبح يوما ما مخابيء للمتمردين الأفريقيين.

أدخلت رحلتي بالسيارة الى فيليارز السرور الى نفسي بشكل كبير ودخلت قاعة المحكمة في ذلك اليوم الثالث من سبتمبر يغمرني شعور عارم بالثقة والأمان، اتضح فيما بعد أنه كان أمانا وهميا. فقد وجدت فرقة من الشرطة في انتظاري. ودون النطق بكلمة واحدة أبرزوا أمرا بموجب قانون مكافحة الشيوعية ينص على استقالتي من حزب المؤتمر الوطني

الأفريقي وتحديد إقامتي في جوهانسبيرغ ومنعي من حضور الاجتماعات واللقاءات لمدة سنتين . كنت أتوقع تلك الإجراءات ولكنني لم أكن أتوقع ان اتسلم الأمر الصادر بشأنها في قرية فيليارز .

كنت وقتها في الخامسة والثلاثين من العمر، وجاء ذلك الحظر القاسي في نهاية عقد من الزمن قضيته في خدمة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وهي السنوات التي تشكل حقبة وعيي ونضجي السياسي والتزامي المتزايد بالعمل النضالي الذي أصبح هو حياتي . ولكن، منذ ذلك التاريخ أصبح من الضروري أن تتم كل أعمالي وخططي وتحركاتي في إطار الحزب وحركة التحرير في سرية تامة وبطرق غير قانونية . وكان عليّ بعد تسلم الأمر الرجوع الى جوهانسبيرغ على الفور.

أخرجني الحظر من قلب العمل النضالي الى حواشيه ومن دور أساسي في الحزب الى دور هامشي. أجل كنت أستشار من وقت الى آخر وكان بإمكاني التأثير على مجريات الأمور ولكنني كنت أمارس ذلك كله عن بعد وكلما طلب مني ذلك . لم أعد أشعر بأنني عضو أساسي في جسم النضال كالقلب أو الرئة أو العمود الفقري بل غدوت عضوا مبتورا ليس إلا . فقد كان على المناضلين أيضا - على الأقل في ذلك الزمن - احترام القوانين، وكان تحدي الحظر ودخول السجن موقفا لا طائل من ورائه بالنسبة للحزب وبالنسبة لي أنا شخصيا . لم نكن وصلنا الى مرحلة الثورية المعلنة بعد ولم نكن نحارب النظام القائم جهارا نهارا وبأي ثمن، ووصلنا الى قناعة بأن العمل السري المنظم أولى وأجدى من دخول السجون . عندما اضطررت الى الإستقالة من الحزب لم يكن أمام التنظيم من خيار سوى استبدالي بشخص آخر، ولم يعد بإمكاني - مهما كانت رغبتي - ممارسة السلطات والصلاحيات التي كنت أمتلكها قبل ذلك . وفي طريقي عائدا الى جوهانسبيرغ لم يكن لمناظر أورينج فري ستايت الطبيعية في نفسي ذلك الأثر المبهج الذي أحسست به صباح ذلك اليوم.

- ١٩ -

فرض الحظر قبل موعد مؤتمر ترانسفال للحزب بشهر واحد وقد كنت فرغت من إعداد مسودة للخطاب الذي سالقيه كرئيس للحزب . قرأ الخطاب نيابة عني عضو اللجنة التنفيذية أندرو كونانى Andrew Kunene . عرف ذلك الخطاب بعنوان: "رحلة شاقة من أجل الحرية" وهي جملة مقتبسة من كلمة للرئيس الهندي جواهر لال نهرو، وجاء فيها أن على الجماهير الآن أن تستعد لأنماط جديدة من النضال السياسي بعد أن جعلت القوانين الجديدة وأساليب الحكومة في القمع الوسائل السابقة من اجتماعات عامة وتصريحات صحافية وإضراب وسائل انتحارية على درجة عالية من الخطورة . رفضت الصحف نشر تصريحاتنا والمطابع طباعة مناشيرنا وأدبياتنا خوفا من المقاضاة من قبل الحكومة بموجب أحكام قانون مكافحة الشيوعية .

قلت في الخطاب:

> إن هذه التطورات تتطلب بلورة أنماط مختلفة من النضال السياسي بعد أن أصبحت الوسائل القديمة وسائل انتحارية . لقد أصبح الشعب المظلوم في عداء مستحكم مع الطواغيت، وأضحى يوم تصفية الحساب بين قوى الحرية والقوى الرجعية على الأبواب. ولا يساورني أدنى شك في أنه عندما يأتي ذلك اليوم سينتصر الحق والعدل . لم تر مشاعر المستضعفين مرارة أكثر مما ترى اليوم، والأوضاع الخطيرة التي يعيشها أبناء الشعب تدفع بهم الى مقاومة حتى الموت للسياسات البغيضة التي تتبعها العصابات التي تحكم بلادنا . أن القضاء على الظلم هدف نبيل اعترفت به الإنسانية جمعاء وهو أرفع ما يصبو اليه كل إنسان حر.

في أبريل ١٩٥٤ تقدمت الجمعية القانونية في ترانسفال بطلب الى المحكمة العليا لشطب اسمي من قائمة رجال القانون المعترف بهم بناء على أن النشاط السياسي الذي ثبتت إدانتي به في قضية حملة التحدي يعتبر بمثابة تصرف غير شريف ويسيء الى سمعة المهنة . جاء ذلك في الوقت الذي كان مكتب مانديلا وتامبو في قمة ازدهاره وكنت أترافع أمام المحاكم عشرات المرات في الأسبوع الواحد.

أرسلت وثائق قرار الجمعية القانونية الى مكتبي وبعد تقديم الطلب وإعلان القرار مباشرة بدأت ترد علي عروض بالدعم والمساعدة . تسلمت عروضا من هذا القبيل حتى من محامين أفريكانيين مرموقين كان كثير منهم من أنصار الحزب الوطني الحاكم ولكنهم كانوا مؤمنين بأن قرار الشطب كان متحيزا ضدي وإجحافا في حقي . وأوضح لي ذلك الموقف أن التضامن في إطار المهنة يتجاوز الفروق العرقية حتى في جنوب أفريقيا العنصرية، وفطنت الى وجود رجال قانون وقضاة يرفضون أن يكونوا مجرد أختام مطاطية في أيدي نظام حكم غير أخلاقي.

تولى الدفاع بجدراة في قضيتي المحامي والمستشار القانوني وولتر بولاك Walter Pollak رئيس مجلس نقابة المحامين في جوهانسبيرغ . ونصحت آنذاك بتوكيل محام لا علاقة له بالنضال السياسي لأن ذلك من شأنه أن يؤثر تأثيرا إيجابيا على نقابة المحامين في ترانسفال. بناء على ذلك طلبت من محامي الإدعاء ويليام آرونسوهن William Aaronsohn وهو رئيس مكتب من أكبر مكاتب المحاماة في جوهانسبيرغ بتمثيلي ايضا وتولى الإثنان الترافع عني بدون مقابل. كانت حجتنا الأساسية أن طلب الشطب وصمة عار في جبين العدالة وانني أملك حقا طبيعيا في النضال من أجل معتقداتي السياسية وهو حق مكفول لكل إنسان في بلد تسود فيه سلطة القانون.

ولكن أقوى حجة هي التي تقدم بها بولاك والمبنية على قضية أخرى لشخص يدعى سترايدورن Strijdorn الذي اعتقل مع بي دجيه فورستر B. J. Vorster الذي أصبح رئيسا للوزراء في وقت لاحق لموقفهما المناصر للنازية خلال الحرب العالمية الثانية . فبعد إخفاق سترايدورن في الهروب من السجن أدين بسرقة سيارة، ثم أطلق سراحه فتقدم بطلب للانضمام الى نقابة المحامين . وقال بولاك في الدفاع عني:

- رغم ما ارتكبه سترايدورن من جرائم هناك فوارق بينه وبين مانديلا . فمانديلا ليس عضوا في الحزب الوطني وهو ليس أبيض كذلك.

القاضي الذي تولى الحكم في قضيتي يدعى رامزبوتوم Ramsbottom وهو نموذج للقضاة الذين رفضوا أن يكونوا إمّعات للحزب الوطني الحاكم، وكان من المؤيدين لاستقلال القضاء، فأيد تأييدا كاملا حقي في العمل من أجل معتقداتي السياسية حتى وإن كانت مناهضة للحكومة . رفض القاضي طلب الجمعية القانونية وفرض عليها - في خطوة غير معتادة - التكفل بمصاريفها القانونية.

- ٣٠ -

تحولت الحملة ضد ترحيل سكان صوفياتاون الى معركة طويلة مع الحكومة التي تشبثت بموقفها كما تشبثنا نحن بموقفنا. وشهدت سنتا ١٩٥٤ و ١٩٥٥ تجمعات شعبية عارمة مرتين في الأسبوع يومي الإربعاء والأحد تحدث فيها عشرات الخطباء لشجب خطة الترحيل التي تبنتها الحكومة. تقدم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وجمعية دافعي الضرائب، بقيادة الدكتور زوما، بمذكرات ورسائل احتجاج متكررة للحكومة، وكانت حملة معارضة الترحيل نظمت تحت شعار: "لن نرحل إلا موتى" الذي كان يردده الخطباء والحاضرون في كل مناسبة ومن على كل منبر. وفي إحدى الأمسيات انفعل الجميع حتى الدكتور زوما المعروف بهدوئه ووقاره ليردد هتاف المحاربين الأفريقيين الذي اشتهر في معارك القرن الماضي والذي يقول: "تحركوا أيها الجبناء، فقد استولى العدو على المواشي!!".

حددت الحكومة يوم ٩ فبراير ١٩٥٥ موعدا للترحيل، ومع اقتراب ذلك التاريخ كنت أنا وأوليفر تامبو نتردد على صوفياتاون يوميا للاجتماع بالقادة المحليين ومناقشة الخطط والعمل في إطار المهنة كمحامين لتقديم النصح والمشورة للمواطنين المهددين بالترحيل أو الذين سترفع ضدهم قضايا. سعينا لتقديم الأدلة أمام المحاكم على أن الأوراق التي تقدمها الحكومة للمرحلين في أغلب الحالات غير صحيحة وبالتالي فإن الإجراءات المتبعة في الترحيل غير قانونية. كنا نعلم جيدا أن ذلك مجرد تدبير مؤقت لكسب الوقت، وأن الحكومة لن تسمح للاعتبارات القانونية البسيطة أن تقف عقبة في سبيل ما تهدف إليه.

نُظم لقاء شعبي ضخم في ساحة الحرية Freedom Square قبيل موعد الترحيل بأيام حضره عشرة آلاف مواطن كان من المقرر أن يتحدث فيه الزعيم لوتولي. ولكن بمجرد وصوله في جوهانسبيرغ تسلم لوتولي أمرا حكوميا بحظر نشاطه مما اضطره الى الرجوع الى ناتال.

* * *

في مساء اليوم السابق ليوم الترحيل تحدث جو موديس Joe Modise، وهو من أكثر القياديين المحليين تجردا للعمل في الحزب، في اجتماع حضره نحو خمسمائة شخص من الشباب العاملين في الحزب الذين كانوا تواقين الى أن يصدر الحزب أوامره لهم بمواجهة الشرطة والجيش. كانوا على استعداد لإقامة الحواجز أثناء الليل ثم الاشتباك في اليوم التالي مع قوات الشرطة بالسلاح أو بأي وسيلة تصل إليها أيديهم. لقد صدقوا الشعار الذي رفعه الحزب واعتقدوا أن الحزب جاد في عدم مغادرة أعضائه صوفياتاون إلا جثثا هامدة.

بعد مداولات مع قادة الحزب، وأنا من بينهم، طلب جو من أولئك الشباب أن يتراجعوا عن موقفهم فغضبوا وشعروا بأنهم غرر بهم. أما نحن فقد كنا مؤمنين بأن العنف سيؤدي بنا الى كارثة، وشرحنا للشباب أن التمرد يحتاج الى تخطيط دقيق وإلا تحول الى عمل انتحاري، وأننا لسنا على استعداد بعد لمواجهة العدو بشروط ومعطيات وضعها هو.

مع بزوغ فجر التاسع من سبتمبر ضرب آلاف من قوات الشرطة والجنود حصارا حول صوفياتاون بينما راح العمال يهدمون البيوت الخالية من السكان وأخذت الشاحنات الحكومية تنقل العائلات من صوفياتاون الى ميدولاندز . وكان الحزب في الليلة السابقة رتّب لنقل عدد من الأسر للإقامة مع عائلات أنصار الحزب في الأجزاء الداخلية من المدينة، ولكن الترتيبات كانت محدودة وجاءت متأخرة جدا، ولم تكن سوى إجراء مؤقت . نزلت الشرطة وقوات الجيش بكل ثقلها، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى انهارت مقاومتنا . فقد اعتقل غالبية القادة أو منعوا من الحركة وماتت صوفياتاون، ولكنها لم تمت على أصوات الرصاص والبارود ولكن على زمجرة الشاحنات والمطارق والمعاول.

من السهل أن يرى المرء صواب عمل سياسي وهو يقرأ عنه في الصحف ولكن عندما تكون في قلب معركة سياسية حامية فإنك لا تملك الوقت الكافي للتأمل والتدبر . ارتكبنا عدة أخطاء في المناطق الغربية أثناء حملة معارضة الترحيل ولكننا تعلمنا دروسا عدة . كان شعار "لن نرحل إلا موتى" شعارا فعالا ومؤثرا ولكنه أصبح في الوقت ذاته عائقا أمامنا. فالشعار وسيلة هامة للربط بين التنظيم وقواعده التي يسعى الى توجيهها وينبغي أن يعبر الشعار عن فكرة أو مظلمة معينة تعبيرا دقيقا وواضحا يساعد في تعبئة الجماهير للعمل والمواجهة . لقد ألهب ذلك الشعار مشاعر الناس ولكنه أعطاهم الانطباع بأننا سنحارب حتى الموت من أجل مقاومة الترحيل في الوقت الذي لم يكن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مستعدا للقيام بذلك إطلاقا.

كما أننا لم نوفر بديلا للترحيل الى ميدولاندز . وعندما أدرك الناس في صوفياتاون أننا غير قادرين على منع الحكومة من ترحيل السكان أو على توفير المأوى البديل تلاشت مقاومتهم للترحيل وتدفقوا بأعداد كبيرة على ميدولاندز . انتقل كثير من السكان بمحض إرادتهم لأنهم وجدوا في ميدولاندز متسعا أكبر وبيوتا أنظف . كما أننا لم نأخذ في الحسبان الفرق بين موقف المالكين والمستأجرين . وبينما يجد المالك أسبابا قوية للبقاء فإن هناك حوافز كثيرة تدفع المستأجر الى الانتقال . تلقى الحزب انتقادا شديدا من عدد من الأفريقيين الذين اتهموا قيادة الحزب بحماية مصالح المالكين على حساب مصلحة المستأجرين.

الدرس الرئيسي الذي خرجت به من تلك الحملة هو أنه لا بديل أمامنا عن المقاومة المسلحة العنيفة. فقد استعملنا جميع ما في جعبتنا من أسلحة سلمية - الخطابات والوفود والتهديدات والمسيرات والاضرابات والاعتصام في المنازل والسجن التطوعي - ولكن دون جدوى بل قوبلت كلها بيد من حديد. إن المناضلين يتعلمون من التجارب القاسية أن الطاغوت هو الذي يحدد طبيعة النضال وأنه لا خيار أمام المستضعفين سوى استعمال وسائل من نوع تلك التي يستخدمها العدو، وأن الوقت سيحين - عاجلا أم آجلا - الى مواجهة الرصاص بالرصاص.

التعليم هو أعظم محرك للنضوج الشخصي . فهو الذي يمكّن ابنة الفلاح من أن تصبح طبيبة وابن عامل المناجم أن يصبح رئيسا للمناجم، وابن عامل المزرعة أن يصبح رئيسا

لدولة عظمى . إن ما يميز فردا عن فرد آخر هو قدرته على توظيف ما عنده من إمكانيات وليس ما يُعطى من ممتلكات ومزايا.

يعود الفضل في توفير فرص التعليم للأفريقيين منذ بداية القرن الحالي الى بعثات الكنائس الأجنبية والإرساليات التبشيرية التي كانت وراء تأسيس المدارس . كانت المناهج الدراسية في المدارس الثانوية للبيض والسود واحدة تقريبا أثناء حقبة الحزب المتحد . وفرت المدارس التبشيرية للأفريقيين تعليما باللغة الإنجليزية على غرار النظام الغربي، وهو نمط التعليم الذي تلقيته أنا شخصيا . كانت هناك نواقص وأوجه قصور كثيرة ولكن لم تكن هناك حدود لما نقرأ ونفكر ونتخيل. غير أن التفاوت في تمويل المدارس والتعليم حتى قبل مجيء الوطنيين للحكم يشير الى تغلغل العنصرية . كانت الحكومة تنفق على تعليم الطالب الأبيض ستة أضعاف ما تنفقه على تعليم الطالب الأفريقي . لم يكن التعليم إجباريا على الأفريقيين وكان مجانا في المدارس الإبتدائية فقط . كان أقل من نصف الأطفال الأفريقيين في سن الدراسة يذهب الى المدرسة بينما لم يتمكن سوى عدد محدود جدا منهم من مواصلة تعليمه حتى مستوى الشهادات العليا.

ولكن، حتى هذا القدر المحدود من التعليم لم يكن مقبولا لدى الحزب الوطني الحاكم. فلم يكن الرجل الأفريكاني عموما متحمسا لتعليم الأفريقيين ويعتبره مضيعة للوقت والمال لأن الأفريقي في رأيه جاهل كسول بطبيعته لن يتخلص من جهله وكسله مهما تلقى من علم ومعرفة . وكان الأفريكان عادة ضد تعلم الأفريقيين اللغة الإنجليزية لأنها لغة أجنبية على الأفريكان أنفسهم وكنا نعتبرها لغة التحرر بالنسبة إلينا.

أصدر البرلمان الذي يسيطر عليه الحزب الوطني عام ١٩٥٣ قانون تعليم البانتو Bantu Education Act الذي كان يهدف الى صبغ التعليم بصبغة التفرقة العنصرية . أحال القانون مسؤولية تعليم الأفريقيين من وزارة التعليم الى وزارة شؤون المواطنين الأصليين المكروهة . وأعطيت المدارس الإبتدائية والثانوية التي تديرها الكنيسة والبعثات التبشيرية الخيار بالانضمام الى المدارس الحكومية أو تقليص ما تستلمه من إعانات تدريجيا . ومعنى ذلك إما سيطرة الحكومة على تعليم الأفريقيين أو حرمان الأفريقيين من التعلم بالكامل . لم يكن يسمح للمدرسين الأفريقيين بانتقاد الحكومة أو السلطات التعليمية مهما كانت . لم يكن الوضع أكثر من فرض سيادة للرجل الأبيض على الفكر والمعرفة وتأصيل للفوارق العرقية واذلال الرجل الأسود .

واشار وزير تعليم البانتو الدكتور هيندريك فيروورد Hendrik Verwoerd الى أن التعليم "يجب أن يؤهل الناس ويعلمهم في إطار الفرص المتاحة لهم في حياتهم" . ومعنى كلامه أن الأفريقيين لا يملكون أي فرص في الحياة وبذلك لا حاجة لتعليمهم . واستطرد يقول: "لا مكان للبانتو في المجتمع الأوروبي فوق مستويات معينة من الخدمة والعمل" . وهذا يعني باختصار أنه ينبغي تأهيل الأفريقيين للأعمال اليدوية حتى يبقون في موقع الخضوع والتبعية للرجل الأبيض باستمرار .

كان رأي حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في قانون التعليم الجديد أنه إجراء شرير الهدف منه الدفع بتقدم أوضاع الأفريقيين وثقافتهم الى الوراء، وإذا ما وجد طريقه الى التطبيق فسيؤدي الى انتكاسة نضال الشعب الأفريقي . لقد أصبح المستقبل العلمي للأجيال الأفريقية كله في خطر . وكما كتب الأستاذ ماثيوز وقتها فإن "التعليم في مدارس هيندريك فيرוורد مع ما يصحبه من ترسيخ الجهل والذلة أسوأ بكثير من عدم التعليم بتاتا" .

أثار القانون والأسلوب السمج الذي عرضه به فيروورد ردود فعل غاضبة في أوساط السود والبيض على حد سواء . كما عارضته جميع الكنائس المسيحية باستثناء الكنيسة الإصلاحية الهولندية والبعثة التبشيرية اللوثرية، التي تساند التفرقة العنصرية، ولكن تضامن المعارضين للسياسة التعليمية الجديدة اقتصر على شجبها وانتقادها ولم يشمل مقاومتها أو التصدي لها . فقد كان أتباع الكنيسة الأنجليكانية، وهم أعتى المعارضين للسياسة الجديدة، منقسمين على أنفسهم . فقد ذهب مطران جوهانسبيرغ أمبروزي ريفز Ambrose Reeves الى حد إغلاق مدارسه التي كانت تستقبل عشرة آلاف تلميذ، بينما سلم رئيس أساقفة الكنيسة في جنوب أفريقيا كل المدارس الواقعة تحت إشرافه للحكومة حرصا على ألا يتشرد الأطفال في الشوارع . وهكذا فعلت بقية الكنائس رغم احتجاجها على السياسة الجديدة وذلك باستثناء الكاثوليك والسبتيين والطائفة الإصلاحية اليهودية المتحدة United Jewish Reformed Congregation الذين قرروا مواصلة التعليم دون الاعتماد على الإعانات الحكومية . وكان من ضمن الذين سلموا مدارسهم للدولة الكنيسة الميثودية الوزلية التي أنتمي إليها وكانت تستقبل مائتي ألف تلميذ أفريقي . ولو أن الكنائس كلها اتخذت موقفا موحدا في مقاومة السياسة التعليمية الجديدة لوضعوا الحكومة نفسها في مأزق خطير ربما اضطرها الى التراجع . ولكن الدولة كسبت الجولة في نهاية المطاف.

كان التاريخ المحدد لانتقال نظام التعليم إلى سيطرة وزارة شؤون السكان الأصليين هو أول أبريل ١٩٥٥ وشرع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في دراسة خطة لتنظيم مقاطعة شاملة للمدارس في اليوم نفسه. تركزت المناقشات في الاجتماعات السرية للجنة التنفيذية حول ما إذا كان ينبغي علينا أن ندعو الناس لتنظيم احتجاجات لفترة محددة أم نعلن عن مقاطعة دائمة للمدارس من أجل القضاء على قانون تعليم البانتو قبل أن تقوم له قائمة. كانت مناقشات حادة برز فيها مدافعون أقوياء عن كلا الرأيين . كانت حجة أنصار المقاطعة غير المحددة تدور حول كون تعليم البانتو سماً لا ينبغي أن يشربه إنسان ولو كان على حافة الموت ,والقبول به في أي شكل من الأشكال سيؤدي الى أضرار لا يمكن إصلاحها فيما بعد. وقال أنصار هذا الرأي إن البلد تعيش جوا مشحونا وإن الناس متعطشون الى عمل كبير أكثر من مجرد احتجاج مؤقت.

ورغم شهرتي بأنني من أنصار الصدام والمواجهة كنت دائما أؤمن بأن الحزب ينبغي ألا يعد الناس بأكثر مما يستطيع أن يفي به وإلا فإنهم سيفقدون ثقتهم فيه . وكان رأيي أن تُبنى أعمالنا على اعتبارات عملية ليست مثالية . فالمقاطعة الدائمة تتطلب امكانيات تنظيمية

وعملية هائلة لم نكن نمتلكها، كما أن الحملات التي نظمناها في السابق لم تدلل على قدرتنا على تبني عمل كهذا. فمن المستحيل أن نؤسس في وقت قصير مدارس خاصة بنا تستوعب مئات الآلاف من التلاميذ، وإن لم نوفر لشعبنا بديلا لما هو قائم فكأننا لم نوفر لهم شيئا إطلاقا. فكان رأيي الذي وافقني عليه آخرون هو تنظيم مقاطعة لمدة أسبوع واحد.

قررت اللجنة التنفيذية أن يبدأ أسبوع المقاطعة في أول أبريل وطرح الاقتراح في المؤتمر السنوي الذي عقد في ديربان في ديسمبر ١٩٥٤ ولكن الحاضرين رفضوا التوصية وأجازوا قرارا بمقاطعة لأجل غير محدد. ولما كان المؤتمر سلطة أعلى من اللجنة التنفيذية فقد وضع القرار على عاتقنا مهمة يكاد يكون من المستحيل تنفيذها. أعلن الدكتور فيروورد أن الحكومة ستقفل كل المدارس المقاطعة بصورة نهائية ولن تقبل الطلبة المشاركين في المقاطعة في المدارس من جديد أبدا.

ولكي تنجح المقاطعة يجب على أولياء الأمور وكل أبناء المجتمع الآخرين التدخل وتوفير بديل للمدارس. تحدثت الى أعضاء الحزب والى أولياء الأمور وأوضحت لهم أن كل بيت وكل كوخ وكل مبنى في المجتمع يجب أن يتحول الى مركز لتعليم الأطفال.

بدأت المقاطعة في تاريخها المحدد وكانت نتائجها متفاوتة. كانت غير منتظمة وغير منظمة ومحدودة الفاعلية، وشملت في منطقة راند الشرقية East Rand نحو سبعة آلاف تلميذ. تحركت مسيرات عند الفجر لتنبه أولياء الأمور الى عدم إرسال أطفالهم الى المدارس، واعتصمت النساء أمام المدارس لمنع التلاميذ من الدخول وأخرجن من دخل منهم. في ضاحية جيرمستون Germiston الواقعة جنوب شرق جوهانسبيرغ نظم رئيس فرع الحزب جوشوا ماكوى Joshua Makue مدرسة لثمانمائة تلميذ استمرت لمدة ثلاث سنوات. في بورت إليزابيث استقال باريت تايسي Barrett Tyesi من التدريس في مدارس الحكومة وتفرغ لإدارة مدرستين للتلاميذ المضربين وفي عام ١٩٥٦ دخل سبعون منهم في امتحانات الصف السادس ونجحوا جميعا ما عدا ثلاثة. ونظمت مدارس مؤقتة لتعليم التلاميذ المضربين في أنحاء مختلفة من البلاد وكانت تعرف باسم "النوادي الثقافية" تجنبا لاكتشافها من قبل السلطات. وبناء عليه أصدرت الحكومة قانونا يحرم التعليم غير الرسمي ويعاقب عليه بغرامة مالية أو السجن. كما تدخلت الشرطة لمضايقة النوادي الثقافية التي استمر عدد كبير منها يعمل في السر. مع مرور الوقت اختفت المدارس الأهلية ووجد أولياء الأمور أنفسهم مخيرين بين تعليم على مستو رديء أو لا تعليم إطلاقا فاختاروا الأول. كان أطفالي يذهبون الى المدرسة السبتية التي لم تكن تعتمد على الإعانات الحكومية.

ينبغي الحكم على حملة المقاطعة على مستويين اثنين: أولهما هل تحقق الهدف المباشر أم لا؟ وثانيهما مدى نجاح الحملة في تسييس مزيد من الناس وجرهم للانخراط في العمل النضالي. أما على المستوى الأول فقد أخفقت الحملة بكل وضوح. فلم تقفل جميع مدارس

الأفريقيين في كل أنحاء البلاد ولم ننجح في التخلص من قانون تعليم البانتو. ولكن الحكومة انزعجت من المقاطة الى درجة أنها عدلت في القانون واضطر فيوورد في وقت ما أن يعلن أن التعليم يجب أن يكون موحدا بالنسبة للجميع. وجاء المنهج الدراسي المقترح الذي تقدمت به الحكومة في نوفمبر ١٩٥٤ يتضمن تراجعا عن الفكرة التي كانت قائمة سابقا بتنظيم التعليم على أسس قبيلية. لم يكن أمامنا في نهاية المطاف إلا الاختيار بين أهون الشرين والقبول بتعليم ناقص، ولكن قانون تعليم البانتو جر على الحكومة عواقب وخيمة وبشكل لم تكن تتوقعه. فقد كان ذلك النظام هو السبب الرئيسي وراء نشأة جيل سود السبعينات في جنوب أفريقيا وهو أعنف جيل وأكثر الأجيال تمردا عرفته البلاد في تاريخها. فعندما بلغ أطفال نظام تعليم البانتو العشرينات من العمر ظهرت أكبر انتفاضة شعبية في جنوب أفريقيا.

* * *

بعد شهور من انتخاب الزعيم لوتولي رئيسا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي عاد الأستاذ زد كيه ماثيوز الى جنوب أفريقيا بعد سنة قضاها كأستاذ زائر في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان يحمل معه فكرة جديدة ستعيد تشكيل حركة التحرير بالكامل. في كلمة ألقيتها في المؤتمر السنوي للحزب في منطقة الكيب قلت ما يلي:

> إنني أتساءل عما إذا كان الوقت قد حان لأن يدرس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فكرة الدعوة الى مؤتمر قومي عام لكل أبناء الشعب يضم ممثلين لجميع سكان هذا البلد بغض النظر عن أعراقهم وألوانهم وذلك لإصدار ميثاق للحرية لدولة ديمقراطية في جنوب أفريقيا المستقبل.

صدق المؤتمر القومي للحزب على ذلك الاقتراح بعد شهور قليلة وشُكل مجلسا لمؤتمر الشعب برئاسة الزعيم لوتولي وعُين كل من وولتر سيسولو ويوسف كاتشاليا أمينا عاما مشاركاً للمجلس. مهمة مؤتمر الشعب هي وضع مجموعة مبادىء تكون أساسا لدولة جنوب أفريقيا الجديدة، وفوض قادة حزب المؤتمر الوطني في جميع أنحاء البلاد بجمع آراء مكتوبة من جميع الناس في مناطقهم لاقتراح مبادىء لدستور جديد للبلاد. وعليه يكون الميثاق المقترح وثيقة نابعة من صميم أبناء الشعب أنفسهم.

فكرة مؤتمر الشعب كانت أحد تيارين رئيسيين في تفكير الحزب في تلك الفترة. كان أمرا حتميا أن تقدم الحكومة على منع نشاط الحزب مما دفع بكثير من قادته الى التأكيد على ضرورة الاستعداد للعمل السري وخارج نطاق القانون. ولكننا كنا حريصين في الوقت ذاته على الا نخسر شيئا من السياسات والنشاطات المعلنة التي كانت سببا في اهتمام العالم بالحزب وفي الدعم الشعبي الذي أحرزه. وكانت الفكرة أن مشروع مؤتمر الشعب سيكون استعراضا معلنا لقوة الحزب.

كان يراودنا حلم بأن مؤتمر الشعب سيكون نقطة تحول في تاريخ النضال الوطني من أجل الحرية، ومناسبة لتوحيد جميع المستضعفين والقوى التقدمية في جنوب أفريقيا وإطلاق

صيحة مدوية لإعلان التغيير. وكان الأمل أن يحتل ذلك الحدث مكانا تاريخيا مرموقا يساوي مكانة المؤتمر التأسيسي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في عام ١٩١٢.

بذلنا الجهود للحصول على أكبر دعم ممكن ودعونا مائتي تنظيم من تنظيمات السود والبيض والهنود والملونين لإرسال ممثلين عنها لمؤتمر تحضيري في تونغات Tongaat بالقرب من ديربان في مارس ١٩٥٤. انبثق عن ذلك اللقاء مجلس العمل الوطني National Action Council ويضم ثمانية أعضاء يمثلون التنظيمات الرئيسية الأربعة الراعية للمشروع. ترأس المجلس الزعيم لوتولي بينما ضمت الأمانة العامة وولتر سيسولو الذي استقال لصدور قرار بحظر نشاطه وحل محله أوليفر تامبو ويوسف كاتشاليا من حزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا، وستانلي لولان Stanley Lollan من المنظمة الشعبية للملونين في جنوب أفريقيا، وليونيل بيرنستاين Lionel Bernstein من مؤتمر الديمقراطيين.

تكونت المنظمة الشعبية للملونين في جنوب أفريقيا في مدينة كيب تاون في سبتمبر ١٩٥٣ على يد مجموعة من قادة النقابات الملونين، وهي من أصغر منظمات النضال الوطني التي تسعى لحماية حقوق الملونين في الإقتراع في منطقة الكيب. وكانت المنظمة تسعى الى تمثيل مصالح الملونين في جنوب أفريقيا، وكان من أبرز المتحدثين في مؤتمرها التأسيسي أوليفر تامبو ويوسف كاتشاليا. أما منظمة مؤتمر الديمقراطيين فقد برزت إبان حملة التحدي أواخر عام ١٩٥٢ كحزب يضم عناصر راديكالية يسارية معادية لحكومة البيض. ورغم صغره وتركز أعضائه في جوهانسبيرغ وكيب تاون كان لمؤتمر الديمقراطيين نفوذ أكبر بكثير من حجمه. كان قادته أمثال مايكل هارمل وبرام فيشر ورستي بيرنستاين Rusty Bernstein من أقوى دعاة القضية الوطنية والمدافعين عنها. كان هناك تقارب كبير بين مؤتمر الديمقراطيين وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي من جهة وحزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا من جهة أخرى، وكان يدعو الى حق الاقتراع العام والمساواة الكاملة بين السود والبيض. وكنا ننظر الى مؤتمر الديمقراطيين كقناة لتوصيل أفكارنا وآرائنا الى الرأي العام الأبيض مباشرة. كما لعب مؤتمر الديمقراطيين دورا رمزيا هاما بالنسبة للأفريقيين. فالسود الذي انضموا لحركة النضال بسبب معاداتهم للبيض اكتشفوا أن هناك فعلا بيض بنيات حسنة يعاملون الأفريقيين على قدم المساواة.

دعى مجلس العمل الوطني جميع التنظيمات والأحزاب المشاركة وأنصارها الى إرسال مقترحاتهم بشأن ميثاق الحرية، ووزعت في المدن والقرى مناشير تقول:

"لو كنت تضع القوانين ...فماذا تضمنها"؟

"ما هو السبيل في رأيك الى تحويل جنوب أفريقيا الى بلد تتوفر فيه السعادة لجميع من يعيشون فوق أرضه؟"

وعكست البيانات والمناشير جو المثالية الحالمة الذي اكتنف التخطيط والإعداد لذلك المشروع. جاء في أحد المناشير ما يلي:

إننا نناشد جميع أبناء شعوب جنوب أفريقيا - بيض وسودا - الى السعي معا نحو الحرية! فلترتفع أصوات جميع أبناء الشعب، وليسجل الجميع مطالبهم من أجل كل ما من شأنه أن يحقق لنا حريتنا، ولتجمع تلك المطالب كي تصاغ في ميثاق عظيم للحرية.

تجاوبت الجماهير مع تلك النداءات فتدفقت الاقتراحات من النوادي الرياضية والثقافية وجمعيات الكنائس ومنظمات دافعي الضرائب والمنظمات النسائية والمدارس وفروع النقابات العمالية . وكانت الاقترحات تصل مكتوبة على أوراق التنظيف ووريقات نزعت من دفاتر مدرسية وعلى خلفية المناشير التي كنا نوزعها . كان من بواعث التواضع أن نرى مقترحات واردة من أناس عاديين متقدمة جدا على تلك التي ترد من عناصر قيادية . كان أكثر المطالب شعبية ذلك الخاص بإعطاء كل فرد حق التصويت، وساد شعور بأن جنوب أفريقيا بلد لكل من يعيش على ترابه.

ساهمت فروع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بشكل كبير في صياغة ميثاق الحرية، وكان أفضل الصياغات تلك التي تقدم بها فرع ديربان وفرع بيترماريتزبيرغ Pietermaritzburg فاستخلصت منهما صياغة واحدة وزعت على المناطق واللجان المختلفة لإبداء الملاحظات والاستفسارات . أما الميثاق نفسه فقد قامت على صياغته لجنة مصغرة منبثقة عن مجلس العمل الوطني ثم راجعتها اللجنة التنفيذية العامة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

تقرر أن يطرح مشروع الميثاق في مؤتمر الشعب لمناقشة كل عنصر من عناصره والتصديق عليه من قبل الوفود المشاركة في المؤتمر . وفي يونيو، وقبل ايام من انعقاد المؤتمر، راجعت لجنة مصغرة من الحزب مسودة الميثاق، ونظرا لضيق الوقت أدخلت تعديلات طفيفة عليه وأصبح جاهزا للتصديق من قبل المؤتمر.

انعقد مؤتمر الشعب في كليبتاون Kliptown وهي قرية صغيرة يسكنها خليط من الأعراق والأجناس تقع في أحد المروج الصغيرة على بعد عدة أميال جنوب غرب جوهانسبيرغ، واستمر طول يومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من يونيو ١٩٥٥ . كانا يومين مشمسين وزاد عدد الحاضرين عن ثلاثة آلاف شخص تحدوا استفزازات قوات الشرطة وجاءوا للتصديق على الصيغة النهائية لميثاق الحرية . جاءت الوفود في السيارات والحافلات والشاحنات بل ومشيا على الأقدام . كانت الغالبية العظمى من الحاضرين سودا وكان من بينهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف من الهنود ومائتين من الملونين ومائة من البيض.

ذهبت الى كلبتون أقود سيارتي وفي صحبتي وولتر سيسولو، وكنا ممنوعين من الحركة والنشاط، فقبعنا على هامش الحشود حيث كنا قادرين على متابعة ما يجري في المؤتمر في معزل عن الحاضرين وبعيدا عن الأنظار . كان حشدا رهيبا سواء من ناحية الحجم أو الانضباط، قام على النظام واستقبال المشاركين وهم يرتدون شارات من القماش الأسود والأخضر والأصفر . كان من بين الحاضرين سيدات وفتيات من مختلف الأعمار يرتدين تنورات وبلوزات وأوشحة تحمل شعار المؤتمر. وكان من بينهم الرجال والشبان من مختلف

الأجيال يرتدون شارات وقبعات تحمل شعارات المؤتمر. ارتفعت اللافتات في كل مكان تحمل عبارات منها: "نريد الحرية في عصرنا، يعيش النضال". كانت المنصة مزدانة بكل الألوان البشرية. كانت هناك وفود مؤتمر الديمقراطيين البيض، ووفود المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا، والملونون من ممثلي المنظمة الشعبية للملونيين في جنوب أفريقيا وقد جلسوا أمام عجلة ضخمة تشع منها أربعة قضبان تمثل التنظيمات الأعضاء في تحالف المؤتمر Congress Alliance. كان رجال الشرطة من بيض وأفريقيين وضباط القسم الخاص التابع لجهاز الإستخبارات منبثين في كل مكان يراقبون ما يجري ويلتقطون الصور الفوتوغرافية ويسجلون ملاحظاتهم في مفكرات صغيرة، ويحاولون عبثا استفزاز الحاضرين.

ألقيت في المؤتمر عشرات الكلمات والأغاني والأهازيج، وقدم الطعام في جو سادته الجدية وروح الاحتفال. في مساء اليوم الأول تليت صيغة الميثاق على الحاضرين فصلا فصلا باللغات الإنجليزية والسيسوتو والكوسا، وكان الحاضرون يعبرون عن موافقتهم بعد قراءة كل فصل بالهتاف: "أفريقيا" و "فلتعد أفريقيا إلى أهلها". ومر اليوم الأول من المؤتمر بنجاح.

لم يختلف برنامج اليوم الثاني عن سابقه. فقد صودق بالتهليل على كل فصل على حده، وكانت الوثيقة جاهزة للموافقة العامة من قبل المؤتمر عندما اقتحمت فرقة من قوات الشرطة وضباط القسم الخاص السري عند الساعة الثالثة والنصف ظهرا منصة الاجتماع ملوحين بأسلحة رشاشة من نوع ستن Sten guns. تسلم أحد ضباط الشرطة لاقط الصوت وتحدث بصوت فظ ولهجة أفريكانية معلنا أن الشرطة تشتبه في ارتكاب خيانة في الاجتماع وطلب من الحاضرين عدم مغادرة المكان دون إذن الشرطة. أخذت الشرطة في دفع المشاركين من أعلى المنصة والاستيلاء على كل ما تقع عليه أيديهم من أوراق ووثائق وصور بما في ذلك إشارات تقول: "شوربة بلحم" و "شوربة بدون لحم". في تلك الأثناء أحاطت فرقة أخرى من الشرطة تحمل البنادق بالحاضرين من كل مكان ,وردد الحاضرون الهتاف المعتاد: "اللهم احفظ أفريقيا" Nkosi Sikelel iAfrika. سمحت الشرطة للوفود بمغادرة المكان واحدا واحدا بعد مساءلة كل شخص وتسجيل اسمه. كنت قابعا في مكاني على حاشية الاجتماع ورغم أن رد فعلي المباشر كان البقاء وتقديم المساعدة فقد كان التعقل الخيار الأكثر حكمة لأن تدخلي في الموضوع كان سيؤدي الى اعتقالي والزج بي في السجن. دعت قيادة الحزب الى اجتماع طارىء في جوهانسبيرغ فانطلقت الى مكان الاجتماع، واستقر في ذهني أن ما حدث في ذلك اليوم يشكل منعطفا جديدا أكثر قسوة في موقف الحكومة.

رغم تفريق الشرطة لمؤتمر الشعب أصبح ميثاق الحرية نورا جديدا تهتدي به حركة النضال من أجل التحرير. وكان الميثاق مزيجا من الأهداف العملية والمبادىء والشعارات صيغت في لغة أدبية منمقة، مثله مثل إعلان الاستقلال الأمريكي American Declaration of Independence وإعلان حقوق الإنسان

الفرنسي French Declaration of the Rights of Man والإعلان الشيوعي Communist Manifesto. وهو يضع في المقام الأسمى إبطال التمييز العنصري وتحقيق المساواة في الحقوق بين الجميع، ويرحب بجهود جميع أنصار الحرية للمشاركة في بناء مجتمع ديمقراطي لاعنصري في جنوب أفريقيا. لقد عبر الميثاق عن آمال وطموحات الشعب وأصبح الوثيقة الرئيسية لحركة النضال ومستقبل الأمة. جاء في مقدمة الميثاق ما يلي:

نحن - شعوب جنوب أفريقيا - نعلن لجميع ابناء شعبنا وأمام العالم بأسره ما يلي:

جنوب أفريقيا وطن لكل من يعيش على أرضه من سود وبيض، ولا يحق لأي حكومة ان تدعي السلطة والشرعية إلا بناء على إرادة الشعب.

إن شعبنا سُلب حقه الطبيعي في الأرض والحرية والسلام على يد حكومة قائمة على الظلم وعدم المساواة.

إن وطننا لن يعرف الرفاهية والحرية حتى يعيش جميع أبنائه في جو من الأخوة متمتعين بالمساواة في الحقوق والفرص.

إن الحقوق الطبيعية لجميع أبناء الشعب لن تتحقق إلا في دولة ديمقراطية قائمة على الإرادة الشعبية وبدون تفرقة على أساس من اللون أو العرق أو الجنس أو العقيدة.

وبناء على ما أسلفنا نصدق نحن - شعوب جنوب أفريقيا من سود وبيض، معا إخوة ومواطنين متساويين - على ميثاق الحرية، آخذين على أنفسنا العهد للعمل معا، غير مدخرين وسعا من قوة وشجاعة حتى تتحقق التغيرات الديمقراطية المنصوص عليها في هذا الميثاق.

ثم حدد الميثاق المتطلبات اللازمة لقيام دولة حرة ديمقراطية في جنوب أفريقيا.

الشعب هو الحاكم.

لكل رجل وإمرأة حق الاقتراع والانتخاب لكل المجالس والهيئات التشريعية.

لكل أبناء الشعب حق المشاركة في تسيير شؤون البلاد.

حقوق جميع أفراد الشعب متساوية بغض النظر عن العرق واللون والجنس.

تستبدل جميع الهيئات الإستشارية والمجالس والسلطات القائمة على حكم الأقلية بهيئات وأجهزة ديمقراطية تحكم نفسها بنفسها.

كل المجموعات القومية متساوية في الحقوق.

كل المجموعات القومية والعرقية متساوية أمام مؤسسات الدولة والمحاكم والمدارس.

لكل المجموعات العرقية الحق في حماية القانون ضد أي إساءة لانتمائها العرقي أو كرامتها الوطنية.

لكل أبناء الشعب الحق في استعمال لغاتهم الخاصة وحماية ثقافتهم الشعبية وعاداتهم.

تعتبر الدعوة الى الإهانة أو التمييز القومي أو العرقي او الجنسي أو ممارسته جريمة يعاقب عليها القانون.

تعتبر كل قوانين نظام التفرقة العنصرية وممارساته باطلة وملغاة.

أبناء الشعب شركاء في ثروة الوطن.

ثروة البلاد القومية التي هي ميراث لجميع سكان جنوب أفريقيا الى الشعب.



ملكية الثروة المعدنية المدفونة تحت الأرض والمصارف والصناعات الإحتكارية الى الشعب بأجمعه.
تخضع الصناعات الأخرى والتجارة للسيطرة بما يكفل الحفاظ على مصلحة الشعب.
لجميع أبناء الشعب الحق في ممارسة التجارة حيثما اختاروا والتصنيع ومزاولة جميع أنواع التجارة والحرف والمهن.
الأرض شركة بين من يعمرها .
يلغى تحديد ملكية الأرض على أساس اعتبارات عرقية ويعاد توزيع جميع الأراضي على من يعمرها للقضاء على المجاعة وعلى الشهوة لامتلاك الأرض.

اعترض البعض داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وخاصة التكتل الأفريقي المعادي للشيوعية والبيض، على ما جاء في الميثاق لكونه ينادي بدولة في جنوب أفريقيا تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي ظل الحزب ينادي بها طول تاريخه . وادعى هؤلاء أن الميثاق يؤيد قيام نظام اشتراكي وأن حزب مؤتمر الديمقراطيين والشيوعيين البيض كان لهما تأثير كبير على المضامين الأيديولوجية للميثاق . وفي مقال نشر في يونيو ١٩٥٦ في صحيفة ليبيراشن Liberation الشهرية أشرت الى أن الميثاق أكد على حرية العمل التجاري الخاص وسيفسح المجال لأول مرة أمام ازدهار الرأسمالية بين الأفريقيين . لقد كفل الميثاق للأفريقيين عندما تتحرر بلادهم فرصة امتلاك أعمالهم الخاصة بأسمائهم الخاصة، وامتلاك بيوتهم وعقاراتهم، أي أن يعيشوا - باختصار - في بحبوحة وازدهار كرأسماليين وأصحاب أعمال حرة. لم يتطرق الميثاق الى القضاء على الطبقات أو الملكية الخاصة أو الملكية العامة لوسائل الإنتاج، ولم يتبن شيئا من مباديء الإشتراكية العلمية . أما فيما يتعلق بالنصوص الخاصة بتأميم المناجم والمصارف والصناعات الاحتكارية فهذه خطوة ضرورية للخروج بالاقتصاد من ربقة ملكية رجال الأعمال البيض وسيطرتهم.

كان الميثاق وثيقة ثورية فعلا لأن التغييرات التي نادى بها لا يمكن أن تتحقق بدون تغيير التركيبة الاقتصادية والسياسية في جنوب أفريقيا . ليس القصد أن يكون الميثاق رأسماليا أو اشتراكيا بل مزيجا متناسقا لمطالب الناس في القضاء على الظلم . إذ إن مجرد تحقيق العدل والإنصاف في جنوب أفريقيا يتطلب تهديم نظام التفرقة العنصرية نفسه الذي هو في حد ذاته تجسيد كامل للظلم والطغيان.

- ٢١-

انتهت فترة الحظر على نشاطي السياسي في أوائل سبتمبر ١٩٥٥ . كانت آخر إجازة أخذتها عام ١٩٤٨ وأنا عضو غض من الوزن الخفيف في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لم تتعد مسؤولياتي حضور اجتماعات اللجنة التنفيذية في ترانسفال والحديث في بعض الاجتماعات العامة . أما الآن فقد بلغت الثامنة والثلاثين من العمر وأصبحت في المستوى الأدنى من الوزن الثقيل في الحزب وزاد وزني مثلما زادت مسؤولياتي . بقيت في جوهانسبيرغ سنتين مشدودا لمهنتي القضائية ونشاطي السياسي وقصرت في حق أسرتي في ترانسكاي . كنت متشوقا لزيارة الريف مرة أخرى والسير في تلك المروج الفسيحة والوديان المتدحرجة التي ارتبطت بايام طفولتي . لقد أخذني الحنين الى أسرتي وشعرت بحاجة الى التشاور مع ساباتا وداليونغا بشأن بعض القضايا المتعلقة بترنسكاي بينما كان الحزب حريصا على أن أتشاور معهما في بعض المسائل السياسية . السبيل الوحيدة للذهاب في إجازة هي أن أذهب في إجازة عمل.

في عشية سفري تجمع عدد من الأصدقاء في بيتي لتوديعي، كان من بينهم الشاب المحامي دمث الخلق دوما نوكوى Duma Nokwe الأمين العام القومي لرابطة الشباب . ذهب دوما مرافقا وولتر في رحلته الى مهرجان الشباب في بوخاريست وأمتعنا ذلك المساء بالأغاني الروسية والصينية التي تعلمها أثناء رحلته . وبينما كان ضيوفي يتأهبون لمغادرة البيت استيقظت من النوم ابنتي ماكازيوى، وعمرها سنتان، وطلبت أن ترافقني في السفر. حرك ذلك الطلب في نفسي وخزات الضمير لتقصيري تجاه عائلتي التي لم أكن أقضي معها ما يكفي من الوقت، وفجأة فتر حماسي لتلك الرحلة . حملت ماكازيوى الى فراشها وقبلتها لتستأنف نومها وواصلت استعدادي للسفر.

كنت أستعد لرحلة لتقصي الحقائق وللاستمتاع في الوقت ذاته برؤية الريف وأصدقائي ورفاقي القدامى . كنت معزولا عما يجري من تطورات وأحداث في بقية مناطق البلاد وكنت أتحرق لمعرفة ما يدور في الدواخل . أجل، كنت أقرأ عددا من الصحف الصادرة في مناطق مختلفة من البلاد ولكن الصحف لا تعكس سوى صورة باهتة للواقع . وما تنشره الصحف من معلومات وأخبار وتحاليل مهم جدا للمناضلين أمثالي لا لأنه يكشف حقائق الأمور ولكن لأنه يعري نزعات واتجاهات وميول وتصورات أصحاب تلك الصحف ومحرريها وقرائها في آن واحد.

غادرت البيت بعيد منتصف الليل، وفي غضون ساعة كنت على الطريق السريعة الى ديربان . كانت الطريق خالية ولم يكن لي رفيق سوى النجوم ورياح ترانسفال الخفيفة، ورغم أنني لم أنم ليلتي تلك إلا أنني شعرت بنشوة وانتعاش . مع بزوغ الفجر عبرت الحدود بين فولكسرست Volksrust وناتال بلد سيتيوايو Cetywayo آخر ملك مستقل من

ملوك الزولو الذي هزم جنوده رتلا كاملا من القوت البريطانية في إساندهلواناIsandhlwana عام ١٨٧٩ . ولكن الملك لم يتمكن من مقاومة الأسلحة النارية للقوات البريطانية فاستسلم بكامل مملكته . بعد عبور النهر بقليل وعلى حدود ناتال لمحت مرتفعات مايوبا Majuba وهي عبارة عن جرف شديد الانحدار وهي موقع كمين نصبه فريق من البويريين لحامية بريطانية فهزموها، وذلك بعد موقعة سيتيوايو بسنتين . لقد صمد الأفريكان في جبل مايوبا ببسالة أمام الاستعمار البريطاني دفاعا عن استقلالهم ونصرة لقوميتهم، ولكن ها هم أحفادهم اليوم يضطهدون أبناء جلدتي الذين يكافحون من أجل الأهداف والمبادىء نفسها التي حارب ومات من أجلها الأفريكان من قبل . لم أكن، وأنا أعبر تلك المنطقة، مشغولا بالتفكير في مفارقات الدهر أو كيف يتحول المظلوم الى ظالم أكثر مما كنت مستغرقا في التفكير في الوسائل التي يمكن أن يلقن بها شعبي الأفريكان القاسين درسا كذلك الذي لقّنوه هم للبريطانيين في جبل مايوبا.

استيقظت من ذلك الحلم على موسيقى مبهجة في إذاعة بانتو تنطلق من راديو السيارة. كنت أكره الأفكار السياسية المحافظة التي تبثها إذاعة بانتو التابعة لهيئة إذاعة جنوب أفريقيا South African Broadcasting Corporation الحكومية ولكنني كنت أستمتع بما تبثه من موسيقى. وفي جنوب أفريقيا ينتج الفنانون الأفريقيون الموسيقى والألحان وتجني شركات الأسطوانات البيضاء الثمار!! كنت أستمع لبرنامج مشهور يقدم أبرز المطربين الأفريقيين أمثال مريم ماكيبا Miriam Makeba ودوللي راتيبي Dolly Rathebe ودوروثي ماسوكو Dorothy Masuku وألحان الاخوين مانهاتن Manhattan Brothers العذبة. كنت مغرما بكل أنواع الموسيقى ولكن موسيقى أبناء جلدتي تنفذ الى قلبي وروحي مباشرة . ومن أسرار جمال الموسيقى الأفريقية أنها تدخل على النفس السرور والبهجة حتى عندما تحكي قصصا حزينة . فمهما كنت فقيرا معدما، لا تملك سوى كوخ بسيط، أو فقدت وظيفتك أو عملك، فإن الأغنية الأفريقية تبعث في نفسك الأمل . وموضوع الموسيقى الأفريقية غالبا ما يكون آمال الإنسان الأفريقي وتطلعاته، وربما أشعلت فتيل الهمة السياسية في نفوس العازفين عن السياسة . ويظهر ذلك بوضوح في الأغاني التي تردد في التجمعات السياسية الكبيرة وتسري بين الحشود في غضون لحظات . ولا شك في أن السياسة يمكن دعمها بالموسيقى ولكن للموسيقى قوتها الذاتية التي تتحدى السياسة وتقهرها.

توقفت عدة مرات في ناتال للاجتماع سرا بقادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وتوقفت في بيترماريتزبيرغ بالقرب من ديربان لقضاء ليلة كاملة في صحبة الدكتور تشوتا موتالا Chota Motala وموسى مابهيدا Moses Mabhida وغيرهما استعرضنا خلالها الأوضاع السياسية في البلاد . انطلقت بعدها الى غروتسفيل Groutsville حيث قضيت اليوم مع الزعيم لوتولي، الذي كان رغم خضوعه لحظر سياسي لأكثر من سنة على علم دقيق بنشاطات الحزب . كان قلقا بشأن ما اعتبره نموا في مركزية الحزب في جوهانسبيرغ وتقليصا لقوة الفروع في الأقاليم، ولكنني أكدت له حرصنا على قوة الأقاليم وازدهار نشاطها.

المحطة التالية كانت اجتماعا بالدكتور نايكر واللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الهندي في ناتال حيث أثرت موضوعا على درجة من الحساسية وهو اعتقاد اللجنة التنفيذية العامة بأن المؤتمر الهندي أصبح أقل نشاطا في الآونة الأخيرة. كنت مترددا في طرح الموضوع احتراما للدكتور نايكر الذي كان يكبرني سنا وخبرة ومعاناة من أجل النضال الوطني، ولكننا ركزنا في الحديث على الوسائل التي يمكن أن نتغلب بها على التقييدات والتحديدات التي تفرضها الحكومة.

ومن ديربان اتجهت جنوبا بمحاذاة الساحل فمررت بمدينة بورت شيبستون Port Shepstone وبورت ساينت جونز Port St Johns وهما من المستعمرات القديمة الساحرة المبعثرة على طول الشواطيء المتلألئة التي تتصدر المحيط الهندي. وبينما كانت تلك المناظر الطبيعية الخلابة تأخذني بسحرها كنت أشمئز من المباني والشوارع التي تحمل أسماء شخصيات استعمارية من البيض دأبت على كبت واضطهاد السكان الأصليين الذين كانت أسماؤهم جزءا من تلك البقاع. اتجهت بعد ذلك بعيدا عن الشاطيء نحو مدينة أمزومكولو Umzumkulu لزيارة الدكتور كونكو Dr Conco الأمين المالي العام لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولمزيد من النقاش والتشاور.

انطلقت بعد ذلك الى أومتاتا وقد هاجت مشاعري وأحاسيسي. وما أن دخلت شارع يورك وهو الشارع الرئيسي في المدينة حتى غمرني شعور من الألفة وفيضان من الذكريات الحلوة التي يثيرها رجوع المرء بعد غربة طويلة الى موطنه الأصلي. لقد غبت عن القرية ثلاثة عشر عاما، ورغم غياب اللافتات والعجول المخصصة للذبح احتفاء بقدوم هذا الإبن العاصي، كنت في غاية النشوة والسعادة عند رؤية أمي ومنزلي المتواضع وأصدقاء صباي. ولكن، زيارتي الى ترانسكاي كان لها هدف آخر، إذ تزامن وصولي إليها مع انعقاد اجتماع لجنة خاصة مكلفة بالإشراف على انتقال نظام بونغا لإدراة ترانسكاي الى النظام التابع لسلطات شؤون البانتو.

ويقوم البونغا الذي يتكون من مائة وثمانية أعضاء، ربعهم من البيض والباقي من الأفريقيين، بتقديم المشورة للحكومة بشأن التشريعات ذات الصلة بالأفريقيين في المنطقة والإشراف على إدارة المسائل المتعلقة بالضرائب والطرقات العامة وما الى ذلك. ورغم أن البانغو هو أكبر سلط سياسية في ترانسكاي فإن توصياته وقراراته استشارية محضة، وتخضع لمراجعة الحكام البيض المحليين. فالبانغو قوي بقدر ما يسمح البيض له من قوة. ومع ذلك نص قانون سلطات البانتو على استبداله بنظام إقطاعي أكثر قمعا يقوم على المميزات القبيلية الموروثة كما تحددها الحكومة. وتدعي الحكومة أن نظام سلطات البانتو سيخلص الناس من سيطرة الحكام البيض، ولم يكن ذلك أكثر من غطاء لما تقوم به الدولة من تقويض للديقمراطية ودعم للصراعات القبيلية. اعتبر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أي قبول لنظام سلطات البانتو استسلاما لرغبات الحكومة.

ليلة وصولي في ترانسكاي اجتمعت مع عدد من المسؤولين ومع قريبي كيه دي

ماتانزيما، الذي كنت أناديه باسم داليونغا، وكان يلعب دورا أساسيا في إقناع البونغا بقبول نظام سلطات البانتو لأن النظام الجديد سيعزز وسيزيد من قوته ونفوذه كزعيم لقبائل التيمبولاند المهاجرين. كنا على طرفي نقيض في هذا القضية. افترقت بنا السبل، فاختار هو دور القيادة التقليدي وأصبح متعاونا مع النظام الحاكم. ونظرا لتأخر الوقت قررنا تأجيل مناقشة الموضوع الى اليوم التالي.

قضيت تلك الليلة في فندق في المدينة، واستيقظت في الصباح الباكر لأستقبل اثنين من الزعماء المحليين لتناول القهوة في غرفتي ولمناقشة دورهما في نظام سلطات البانتو الجديد، وبينما نحن مستغرقين في الحديث دخل صاحب الفندق الحجرة برفقة رجل أبيض بادرني بالسؤال قائلا:

- هل أنت نلسون مانديلا؟

- من الذي يسأل عن نلسون مانديلا؟

عرفني باسمه ورتبته فإذا به ضابط مباحث في شرطة الأمن، فسألته:

- هل لي أن أرى إذن التفويض، من فضلك؟

بدت على وجهه ملامح الامتعاض للجرأة التي خاطبته بها وبشيء من التذمر أخرج من جيبه وثيقة رسمية، فأخبرته بأنني أنا نلسون مانديلا. أخبرني بأن الضابط المسؤول يطلب مقابلتي فقلت إنه لن يتعذر عليه العثور عليّ، فطلب مني أن أرافقه الى مركز الشرطة. سألته إن كنت رهن الإعتقال فنفى ذلك، فقلت:

- في هذه الحالة، لن أذهب الى مركز الشرطة.

دهش لرفضي، ولكنه كان يعلم أنني على أرض صلبة، فراح يرميني بوابل من الأسئلة عن موعد مغادرتي جوهانسبيرغ والأماكن التي زرتها ومع من تحدثت وعما إذا كان معي تصريح بدخول ترانسكاي والمدة التي أنوي قضاءها في الإقليم. أجبته بأن ترانسكاي هي موطني الأصلي ولا أحتاج الى إذن لدخولها فخرج من الحجرة غاضبا.

دهش الزعيمان لسلوكي تجاه الضابط وأنبانني على عدم تأدبي في مخاطبته، فقلت إنني لم أعامله إلا بالأسلوب الذي كان هو يعاملني به. ولكنهما لم يقتنعا واعتبرا أنني شاب متهور سيجر على نفسه عقائب وخيمة. يبدو أن جهدي في إقناع أولئك الرجلين برفض حكم سلطات البانتو لم يكن مجديا، وانتبهت الى أنني رجعت الى مسقط رأسي رجلا غير ذلك الذي غادره قبل ثلاثة عشر عاما.

كانت أساليب الشرطة في ترانسكاي فجة وبدائية، وكانوا يقتفون أثري منذ اللحظة الأولى التي غادرت فيها حجرتي في الفندق ويلاحقونني أينما ذهبت. كانوا يواجهون كل من أتحدث إليه ويهددونه بالاعتقال إن تجرأ على الحديث معي مرة أخرى.

اجتمعت لفترة قصيرة بأحد قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وانزعجت لقلة موارد

الفرع المالية، ولكنني كنت آنذاك أقل انشغالا بأوضاع التنظيم مني بالمحطة التالية في رحلتي وهي قرية قونو التي ترعرعت فيها وحيث ما تزال تقيم أمي.

أيقظت أمي من النوم فبدت لي وكأنها رأت شبحا، وغمرتها السعادة. أحضرت معي فواكه وشيئا من لحم وسكر ودجاج، فأشعلت أمي النار لإعداد الشاي. لم نتبادل الاحتضانات والقُبل لأن ذلك ليس من عاداتنا. ورغم سعادتي بالعودة انتابني شعور بالذنب لرؤية أمي تعيش بمفردها في تلك الظروف التعيسة. حاولت إقناعها بالانتقال للعيش معي في جوهانسبيرغ ولكنها أقسمت ألا تغادر الريف الذي كانت تحبه. وتساءلت - ربما ليس للمرة الأولى - عما إذا كان المرء محقا في التقصير نحو أهله وأفراد عائلته للنضال من أجل رعاية الآخرين؟ هل في الدنيا أفضل وأهم من أن يتولى الإنسان رعاية أمه العجوز؟ وهل العمل السياسي هو مجرد وسيلة لتبرير تخلي الإنسان عن مسؤولياته وعذر لعجز المرء على أن يقدم ما يستطيع بالأسلوب الذي يريد؟

بعد قضاء ساعة وبضع ساعة مع أمي ذهبت الى قضاء ليلة في مكيكيزويني. وصلت هناك وقد أرخى الليل سدوله، ولشدة سعادتي أطلقت بوق السيارة. لم أفكر كيف سيفسر ذلك الصوت المزعج فخرج الناس مفزعين من أكواخهم اعتقادا منهم أن الشرطة تداهم القرية، وعندما تبينت لهم هويتي استقبلني عدد من أهل القرية بالدهشة والفرح.

ولكن، بدلا من أنام كالطفل في سريري العتيق قضيت ليلتي أتقلب في الفراش أسائل نفسي على الجادّة الصحيحة. لم يتطرق الى ذهني شك في أنني كنت على صواب فيما اخترت، ولكن هذا لا يعني أن النضال السياسي في مرتبة أخلاقية أعلى من مرتبة رعاية الإنسان لأهله وأفراد عائلته. فالحقيقة ليست كذلك، ولكن الواقع أنهما أمران مختلفان لا أكثر ولا أقل.

في اليوم التالي عدت الى قونو وقضيت يومي أستعرض الذكريات مع الأهل والأقارب، وأتجول في الحقول المحيطة بالقرية. كما زرت أختي مابيل Mabel التي كنت مغرما بها كثيرا وهي أكثر أخواتي واقعية ويسرا في العشرة. تزوجت مابيل وكان لزواجها قصة طريفة. خُطبت أختي باليوى Baliwe وهي أكبر من مابيل ودفع مهرها ولكنها هربت قبل الزفاف بأسبوعين. لم يكن من اللائق إرجاع المواشي التي دفعت مهرا بعد قبولها فقررت الأسرة أن تحل مابيل محل العروس التي هربت، وقد كان.

غادرت قونو بعد الظهر متجها الى مكيكيزويني فوصلت في الليل هذه المرة كذلك وأعلنت عن وصولي باستعمال بوق السيارة فخرج أهل الحي من منازلهم متوقعين أن زعيمهم جاستِس قد حل بالمدينة. كان جاستِس عزل من منصبه على يد السلطات الحكومية وكان مقيما آنذاك في ديربان. ورغم أن الحكومة عينت زعيما آخر مكانه فإن الزعيم يظل زعيما بحكم مولده، وإنما يكتسب نفوذه وسلطته من انتمائه العرقي. كان الأهالي سعداء برؤيتي وكانوا سيصبحون أكثر سعادة لو كان القادم هو جاستِس.

كانت أمي الثانية نو-إنغلاند أرملة السلطان نائمة عند وصولي ولكنها استيقظت وخرجت في ملابس النوم وقد غمرتها الفرحة وأصرت على أن آخذها في الحال بسيارتي الى بيت أحد أقربائها للإحتفال بقدومي. قفزت داخل السيارة وانطلقنا في رحلة عاصفة عبر الحقول والمروج حتى وصلنا كوخا نائيا فأيقظنا أهله من نومهم ولم آو الى الفراش قبل بزوغ الفجر وكنت في غاية التعب والسعادة.

تنقلت باستمرار بين قونو ومكيكزويني خلال الأسبوعين التاليين فكنت أقيم في بيت أمي وبيت نو-إنغلاند بالتناوب، وأزور الأصدقاء والأقارب واستقبلهم. أكلت الطعام نفسه الذي كنت آكله في طفولتي ومشيت في الحقول التي كنت أمشي فيها، وتفرست في السماء ذاتها بالنهار والنجوم ذاتها بالليل. من المهم أن يحافظ المناضل على صلته بأصوله لأن ضوضاء المدينة وضجيجها غالبا ما يذيبان آثار الماضي. لقد أعادت لي تلك الزيارة الحيوية من جديد وأحيت مشاعري نحو البقاع التي عشت وترعرعت فيها. فقد عدت كما كنت طفل أمي في بيتها، والقائم على شؤون السلطان في "المكان العظيم".

وكانت الزيارة فرصة لقياس المشوار الذي قطعته في حياتي. فرأيت كيف بقي أهلي في مكان واحد بينما انطلقت أنا وشاهدت عوالم أخَر وتعلمت أشياء وافكارا جديدة. لقد فطنت آنذاك، إن لم أكن فطنت قبل ذلك، الى أنني كنت مصيبا في عدم عودتي الى ترانسكاي من فورت هير، إذ لو أنني رجعت آنذاك لما قامت لشخصيتي السياسية قائمة.

بعد انتهاء اجتماع اللجنة الخاصة بدراسة إقامة نظام سلطات البانتو ذهبت برفقة داليونغا لزيارة ساباتا في المستشفى بأومتاتا. كنت آمل أن أتحدث مع ساباتا في موضوع سلطات البانتو ولكن اعتلال صحته حال دون ذلك. أوضحت لداليونغا رغبتي بأن يشرع هو وأخوه ساباتا في محادثات حول هذه القضية بمجرد تحسن حالة ساباتا. لقد وجدتني فخورا بتنظيمي اجتماعات بين أحفاد انغوبينغكوكا وفكرت مليا في كيف أنني أخيرا أصبحت أؤدي ذلك الدور الذي كنت أعد له وهو أن أكون مستشارا وموجها لساباتا.

انطلقنا من أومتاتا الى قاماتا حيث قابلنا أخو داليونغا الأصغر جورج وكان يزاول المحاماة. كنت على معرفة جيدة باثنين من المتدربين في مكتبه وهما أيه بي امدا A P Mda واتسيبوا ليتلاكا Tsepo Letlaka اللذين تركا التدريس للعمل في المحاماة وكنت سعيدا بلقائهما، وكانا كلاهما من أنصار الحزب. جلسنا سويا في قاماتا نبحث قضية نظام سلطات البانتو المقترح.

كانت مهمتي إقناع داليونغا الذي كان مقدرا له أن يلعب دورا رئيسيا في سياسة ترانسكاي بمعارضة نظام سلطات البانتو، ولكنني لم أكن أرغب أن يتحول لقائي معه الى مواجهة شخصية أو حتى جدال. لم أكن أرغب في استعراض عضلاتي أو كشف عورات الآخرين بل كنت أهدف الى نقاش جاد بين رجال يُكنّ كلٌّ منهم الخير لقومه وأبناء أمته.

لم يزل داليونغا الى حد بعيد ينظر إليّ نظرة الكبير للصغير سواء من ناحية درجتي في

نظام التيمبو القبيلي أو من ناحية خبرتي السياسية . لعل الأمر كذلك في الأولى أما في الثانية فأنا أعتبر نفسي متقدما عنه . فبينما كان همه الوحيد هو مصلحة قبيلته اصبحت أنا أفكر في إطار الأمة ككل، ولكنني آثرت ألا أعقّد النقاش بطرح نظريات سياسية فخمة، ورأيت من الأفضل أن أعتمد على بداهتي وحصافتي وحقائق تاريخنا المشترك . كان داليونغا قد دعا امدا وليتلاكا وأخاه جورج للمشاركة في النقاش ولكنهم اعتذروا احتراما لنا وتفضيلا للاستماع الى ما كان يقال . وقد عبر امدا عن لسان حالهم إذ قال:

- فليتول النقاش العم وابن أخيه.

الأعراف القبلية تتطلب أن أبدأ أنا بطرح وجهة نظري دون مقاطعة من داليونغا ثم يرد هو وأنا أنصت له.

بدأت حديثي بالقول إن نظام سلطات البانتو غير عملي لأن أعدادا متزايدة من الأفريقيين أخذت تهجر المناطق الريفية لتعيش في المدن، وسياسة الحكومة هي محاولة تطويق الأفريقيين في تجمعات عرقية لأنها تخشى توحدهم . أما الناس فإنهم يريدون أن تقوم الديمقراطية والقيادة السياسية على أساس الكفاءة والجدارة وليس العرق أو الدم. واختتمت كلامي بأن نظام سلطات البانتو يعتبر تراجعا عن الديمقراطية.

رد داليونغا بأنه يسعى الى استعادة مكانة بيت عائلته الملكي الذى دمره البريطانيون، وأكد على أهمية وحيوية النظام القبيلي والقيادة التقليدية وعلى أنه ليس بوسعه أن يرفض نظاما يحترم تلك الاعتبارات . وقال إنه هو أيضا يسعى لقيام دولة حرة في جنوب أفريقيا ولكنه يعتقد أن تحقيق ذلك الهدف سيكون أسرع وبطريقة سلمية أفضل من خلال سياسات الحكومة القائمة على التنمية المنفصلة للجماعات العرقية . وقال داليونغا إن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لن يجلب على البلد سوى سفك الدماء والعداوات . واختتم كلامه بالتعبير عن استغرابه وقلقه أنه رغم موقعي في عائلة التيمبو الملكية فإنني أعارض مبدأ القيادة التقليدية.

أنهى داليونغا كلامه فأجبته أنني أتفهم موقفه الشخصي جيدا كزعيم في القبيلة، وبانني أعتقد أن هناك تضاربا بين مصالحه الشخصية ومصالح المجتمع ككل . وقلت لو أنني كنت مكانه لأخضعت مصالحي الشخصية لمصالح الناس . ندمت على الافصاح عن النقطة الأخيرة بمجرد أن قلتها، لأنني أدركت أنه ليس من الحكمة إطلاقا أن يدعي الإنسان لنفسه موقفا أخلاقيا أسمى من موقف خصمه . ولاحظت على وجه داليونغا الامتعاض فسارعت الى تغيير مجرى الحديث الى مواضيع عامة.

تواصل حديثنا طول الليل دون أن تتقارب وجهات نظرنا، وعندما بزغت الشمس في الصباح افترقنا. لقد اختار كل منا طريقا مختلفا عن صاحبه وانتهينا الى تعارض في المواقف ووجهات النظر . آلمني ذلك الحال لأن داليونغا من الأشخاص المعدودين الذين أثروا في حياتي، ولم يكن شيء يسعدني أكثر من أن أقف معه جنبا الى جنب، ولكن شاءت

الأقدار غير ذلك. ظللنا على اتفاق فيما يتعلق بشؤون العائلة أما سياسيا فقد كنا في معسكرين متناقضين، بل ومتعاديين.

عدت الى قونو صباح ذلك اليوم وقضيت بضعة أيام أتجول في المروج وأزور الأصدقاء والأقارب ولكن عالم طفولتي الساحر لم يعد له وجود. وفي إحدى الأمسيات ودعت أمي وأختي ثم زرت ساباتا في المستشفى متمنيا له الشفاء العاجل وانطلقت عند الثالثة صباحا في طريقي الى كيب تاون. غمرني الانتعاش بنور القمر الساطع ونسيم الصباح البارد وأنا أنطلق بمحاذاة نهر كاي Kei River في طريق متعرج عبر جبال وعرة. وما ان أشرقت الشمس حتى انشرح صدري. كانت آخر مرة مررت فيها من تلك الطريق قبل ثمانية عشر عاما عندما أخذني يونغينتابا الى مدينة هيلدتاون.

كنت أسير بسرعة معتدلة عندما لمحت رجلا يعرج على ناصية الطريق ويلوح بيديه نحوي. توقفت بصورة تلقائية ودعوته الى الركوب فصعد. كان في سني تقريبا، صغير الجسم وفي حالة رثة ويبدو أنه لم يغتسل منذ مدة طويلة. أخبرني أن سيارته تعطلت في أقصى أومتاتا وظل يمشي على قدميه لعدة أيام قاصدا بورت إليزابيث. لفت نظري التناقض في كلامه فسألته عن نوع سيارته فأجاب: بيويك. سألته عن رقمها فأعطاني رقما. وبعد دقائق سألته مرة أخرى عن رقم السيارة فأعطاني رقما مختلفا عن سابقه. استنتجت من كلامه أنه ضابط شرطة وقررت ألا أتكلم كثيرا.

لم ينتبه صاحبي لسكوتي وراح يتكلم طول الرحلة الى بورت إليزابيث. كان يشير الى كثير من المناظر الغريبة واللافتة للنظر على جانبي الطريق مما يوحي بخبرة جيدة بتاريخ المنطقة. لم يسألني إطلاقا عن اسمي ولم أعرفه بنفسي، ولكنني استمتعت بصحبته وأحاديثه.

توقفت في إيست لندن والتقيت ببعض أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وغيرهم من أهل الضاحية اشتبهت في أن أحدهم كان ضابطا سريا في الشرطة. تعرف رفيق رحلتي على هويتي وبعد أن استأنفنا الرحلة في السيارة قال لي:

– هل تعلم يامانديلا أنني اشتبهت في أحد الذين قابلناهم في المدينة بأنه شرطي سري.

أثار كلامه حفيظتي فقلت له:

– وما المانع أن تكون أنت نفسك شرطيا سريا؟ أرجوك أن تخبرني من أنت وإلا رميتك على ناصية الطريق.

احتج على كلامي وقال:

– كلا، ولكن سأعرفك بنفسي تعريفا صحيحا.

أقر بأنه مهرب مخدرات كان يحملها من شاطيء بوندولاند عندما اعترضته نقطة تفتيش ترك سيارته ولاذ بالفرار. أطلقت عليه الشرطة النار فأصيب في ساقه وهذا سبب عرجه وفقدانه لسيارته. وقال إنه أوقفني لأنه كان يعتقد أن الشرطة يلاحقونه.

سألته عن أسباب اختياره لتلك المهنة الخطيرة فقال إنه كان يرغب أن يعمل مدرسا ولكن والديه كانا فقيرين وليس في مقدورهما إرساله الى الكلية. بعد الدرس اشتغل عاملا في مصنع ولكن دخله كان محدودا لا يكفيه مؤونة العيش فلجأ الى تهريب المخدرات التي وجدها مربحة جدا واستغنى عن عمله في المصنع. اشتكى من أنه لو كان يعيش في أي بلد آخر لتوفرت له فرص العمل، وقال بنبرة كئيبة:

- أعرف كثيرا من البيض أقل مني قدرة وذكاءً خمسين مرة.

وبعد هنيهة من الصمت واصل كلامه يقول:

- وأنا مثلك عضو في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

واستطرد يخبرني بأنه شارك في حملة التحدي عام ١٩٥٢ وشارك في عدة لجان محلية للحزب في بورت إليزابيث. سألته عن عدد من الشخصيات اتضح أنه يعرفهم جميعا، وتأكدت بعد وصولي بورت إليزابيث من صدق ما قاله. فعلمت أنه كان في الحقيقة من أصدق الشخصيات التي دخلت السجن اثناء حملة التحدي فأيقنت أن أبواب العمل النضالي مفتحة لكل من اختار أن يطرقها.

كنت، بحكم علاقتي بمكتب المحاماة الشهير، على علم بتفاصيل حالات من هذا القبيل. فقد مرت بي حالات كثيرة لشخصيات على القدر نفسه من الذكاء والقدرات الذهنية والعقلية اضطرتهم ظروف المعيشة الى اللجوء للجريمة. ورغم أنني أؤمن أن بعض الناس لهم قابليات شخصية للجريمة موروثة أو مكتسبة، فأنا مقتنع كذلك بأن سياسة التفرقة العنصرية مسؤولة عن الدفع بكثير من المواطنين الأسوياء الصالحين الى عالم الجريمة. فالمنطق يقول إن أي نظام قضائي لا يقوم على العدل والأخلاق لا يمكن إلا أن يولد الاحتقار والازدراء لكل ما ينبثق عنه من قوانين وأنظمة.

وصلنا بورت إليزابيث عند غروب الشمس واستقبلنا جو ماثيوز إبن زد كيه ماثيوز، وفي صباح اليوم التالي التقيت بكل من ريموند امهلابا وفرانسيس باردFrances Baard وغوفين امبيكي Govan Mbeki الذي أقابله لأول مرة. كنت على علم بمؤلفاته التي درسنا أحدها في الكلية وعنوانه نشأة ترانسكاي، وكان يدير مركزا تجاريا في ترانسكاي يوشك أن يتركه ليتولى تحرير مجلة أسبوعية باسم نيو آيدج New Age. كان غوفان رجلا جادا وقورا يتحدث بصوت خافت وكان اطلاعه جيدا على عالم الكتب والمؤلفات وعالم التطورات والأحداث السياسية، وكان له دور كبير في التخطيط لمؤتمر الشعب، ومؤهلا لتولي أعلى المناصب القيادية في التنظيم.

استأنفت رحلتي الى كيب تاون عند الضحى وبرفقة راديو السيارة لا غير. لم أكن سافرت قبل ذلك بالسيارة من بورت إليزابيث الى كيب تاون وكنت متشوفا للرحلة عبر المناظر الطبيعية الخلابة. كان الجو حارا والطريق تحيطه الأعشاب من الجانبين، وما هي إلا مسافة قصيرة حتى دهست ثعبانا كان يعبر الطريق. ورغم أنني لا أؤمن بالطالع فإن موت

ذلك الثعبان ترك في نفسي شيئا . فأنا لا أحب قتل أي شيء مهما كان بما في ذلك المخلوقات المرعبة كالثعابين.

تجاوزت هيومانزدروب Humansdrop ودخلت منطقة غابات كثيفة شاهدت فيها، ولأول مرة في حياتي، الفيلة والقردة البرية . عبر القرد الطريق أمامي فتوقفت ووقف هو في منتصف الطريق يتفرس فيّ وكأنه ضابط سري من القسم الخاص . انتابني شعور غريب لكوني أفريقي أشاهد لأول مرة أفريقيا التي أقرأ عنها في الكتب . ياله من بلد جميل يسيطر عليه البيض لا يملك الرجل الأسود سبيلا الى الوصول إليه . إنني، والله، أفضل العيش في هذه البقاع الخلابة عن الترشيح لعضوية البرلمان.

إن المناضل تصاحبه أفكار النضال والتحريض أينما ذهب وحيثما حلّ . توقفت بالقرب من مدينة كنيسنا Knysna، على بعد نحو مائة ميل غربي بورت إليزابيث، للتأمل في المناظر الطبيعية المحيطة بها وكان الطريق يطل على المنطقة من علٍ بما يجعل المرء يرى الى أقصى حدود النظر . حيثما ألقيت بصري رأيت غابات شاسعة مترامية الأطراف، ولكن لم يشغل بالي الإفتتان بالجمال والخضرة بل سرحت في التفكير فيما توفره تلك الغابات من مخابيء وملاجيء وأماكن تدريب للفدائين والمقاتلين .

وصلت كيب تاون عند منتصف الليل لأبدأ زيارة امتدت أسبوعين كاملين . أقمت في بيت القسيس وولتر تيكا Walter Teka أحد زعماء الكنيسة الميثودية ولكنني قضيت معظم وقتي في صحبة جونسون أنغويفلا Jonhson Ngwevela رئيس فرع الحزب في إقليم الكيب الغربي وغرينوود انغوتيانا Greenwood Ngotyana عضو اللجنة التنفيذية للفرع . كان كل منهما شيوعيا ومن أبرز أعضاء الكنيسة الوزلية (الميثودية). كنت أسافر كل يوم في المنطقة للالتقاء بمسؤولي حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وشملت زياراتي ووستر Worcester وبارل Paarl وستيلينبوش Stellenbosch وسايمونزتاون Simonstown وهيرمانوس Hermanus وغيرها من المدن والقرى . خططت للعمل في كل يوم من أيام إقامتي هناك وعندما استفسرت عن برنامج يوم الأحد، وهو يوم عمل بالنسبة لي في ترانسفال، قيل لي إنه يوم مخصص للذهاب الى الكنيسة . أعربت عن احتجاجي على ذلك ولكن دون جدوى، ففي جنوب أفريقيا على الأقل، المسيحية والشيوعية لا تلغي إحداهما الأخرى.

كنت أمشي في المدينة يوما فرأيت سيدة بيضاء عبر الطريق تلوك شيئا من عظام السمك. بدت عليها علامات الفقر ويبدو أنها مشردة ولكنها كانت صغيرة السن وعلى قدر من الجمال . كنت أعلم بالطبع أن هناك فقراء بيض لا تقل حياتهم بؤسا عن الفقراء الأفريقيين ولكن من النادر أن يقابلهم المرء في المدينة . كنت معتادا على رؤية الشحاذين السود في الشوارع والطرقات ولكنني دهشت لرؤية شحاذة بيضاء . لم أكن معتادا على الإنعام على الشحاذين الأفريقيين ولكنني وجدتني متحفزا الى الإنعام على تلك السيدة، وانتبهت فجأة للمفارقات التي تولدها التفرقة العنصرية لدى الإنسان. لقد أصبحت المعاناة اليومية التي

يواجهها الأفريقيون أمرا مألوفا ومقبولا بينما يثير منظر سيدة واحدة بيضاء معسرة في النفس الرأفة والشفقة فورا . فأن يكون المرء أفريقيا وفقيرا هو الأصل وهو الوضع الطبيعي في جنوب أفريقيا ولكن أن يكون المرء ابيض وفقيرا فتلك هي المأساة.

قبيل رحيلي عن كيب تاون زرت مكاتب صحيفة نيو آيدج لمقابلة بعض الأصدقاء القدامى والتباحث حول سياستهم في التحرير . فالصحيفة حلت محل عدد من الدوريات اليسارية التي منعت من الصدور، وكانت متعاطفة مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كان ذلك في الصباح الباكر من السابع والعشرين من سبتمبر، وبينما كنت أصعد السلم سمعت ضوضاء داخل المكاتب وأصوات نقل أثاث . تعرفت على صوت فريد كارينسون Fred Carneson مدير الصحيفة والمحرك الرئيسي لها، كما سمعت أصوات ضباط الأمن الجشة وهم يفتشون مكاتب الصحيفة . انسحبت بهدوء وعلمت فيما بعد أن تلك المداهمة كانت جزءا من أكبر حملة تمشيط شهدتها جنوب أفريقيا في تاريخها كله . داهمت الشرطة في تلك الحملة ما يزيد عن خمسمائة بيت ومكتب في مختلف أنحاء البلاد، وكانت التعليمات صدرت بالاستيلاء على أي شيء يمكن اعتباره دليلا على الخيانة أو التآمر أو مخالفة قانون مكافحة الشيوعية. كان من ضمن الأماكن التي دوهمت مكتبي في جوهانسبيرغ وبيوت كل من الدكتور موروكا والأب هادلستون والأستاذ ماثيوز.

عكر ذلك الحدث صفو يومي الأخير في كيب تاون لأنه كان الشرارة الأولى لإعلان استراتيجية الدولة الجديدة القائمة على مزيد من القمع، وأقل ما توقعت أن يتبع ذلك موجة جديدة من الحظر السياسي كنت على يقين بأنها ستشملني أنا وغيري . دعا القسيس تيكا وزوجته عددا من الرفاق للتجمع في بيته لتوديعي فأقام صلوات من أجل الذين دوهمت بيوتهم ومكاتبهم . تركت البيت في موعدي المفضل للسفر وهو الثالثة صباحا وبعد نصف ساعة كنت في طريق الى مدينة كيمبيرلي الصامدة حيث ولدت صناعة الماس في جنوب أفريقيا خلال القرن الماضي.

قضيت ليلتي الأولى ضيفا على الدكتور آرثر ليتيلى Arthur Letele وهو طبيب بارع أصبح فيما بعد الأمين المالي العام لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي . أصبت بنزلة برد وبمجرد أن استقبلني الدكتور آرثر الزمني الفراش واعتنى بصحتي . آرثر رجل شجاع ومخلص، كان على رأس مجموعة من الذين دخلوا السجن في أثناء حملة التحدي، وهي مخاطرة كبيرة من طبيب في مدينة لم يكن معروفا عن سكانها السود مشاركة كبيرة في العمل السياسي، ففي جوهانسبيرغ مثلا يجد المرء دعما من مئات بل آلاف الرفاق والزملاء، بينما يتطلب العمل السياسي شجاعة حقيقية في كيمبيرلي، هذه المدينة المحافظة الخالية من الصحافة المتحررة أو القضاء المنصف الذي يكبح جماح الشرطة، ففي هذه المدينة حكم أحد القضاة بالجلد على أحد أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي البارزين أثناء حملة التحدي.

رغم إصابتي بنزلة البرد سمح لي آرثر بالتحدث الى اجتماع لأعضاء الحزب عقد في بيته في مساء اليوم التالي . كنت أستعد للرحيل في الثالثة صباحا ولكن آرثر وزوجته أصرا

على أن أتناول معهما طعام الإفطار ثم انطلقت عائدا الى جوهانسبيرغ فوصلتها في المساء حيث قابلني أبنائي بالفرحة والصراخ وهم على يقين بأنني محمل بالهدايا . ناولت كلا منهم هديته وكنت اشتريتها في كيب تاون وجلست أجيب صابرا على تساؤلاتهم التي لا نهاية لها عن الرحلة وما دار فيها . لم تكن رحلة إجازة واستجمام ولكنها تركت في نفسي أثرا مشابها إذ أحسست بدفعة جديدة من الحيوية والنشاط والاستعداد لخوض المعارك من جديد .

- ٢٢ -

بمجرد وصولي في جوهانسبيرغ قدمت تقريرا عن رحلتي للجنة العمل التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كان اهتمام اللجنة مركزا حول مدى قوة تحالف المؤتمر Congress Alliance وقدرته على إجهاض خطط الحكومة. لم تكن الأخبار التي وافيتهم بها مشجعة، إذ أخبرتهم أن فرع الحزب في ترانسكاي ينقصه كثير من التنظيم وأن قوات الأمن في مقدروها بسهولة شل حركة الحزب وما يملكه من نفوذ في المنطقة.

تقدمت للجنة باقتراح كنت أعلم أنه لن يستقبل بحماس شديد وملخصه أن يشارك الحزب في تركيبة نظام سلطات البانتو ومؤسساته بما يمكنه من المحافظة على صلته بالجماهير ثم محاولة تطوير موقع الحزب بما يوفر له منبرا يخاطب من خلاله الجماهير بأفكاره وسياساته. قوبل اقتراحي بمعارضة غاضبة. أجل، في أيام شبابي كنت أنا نفسي سأعترض بشدة على اقتراح من هذا القبيل، ولكن تقديري لوضع البلاد في ذلك الوقت جعلني أشعر بأن نسبة قليلة من الناس مستعدون للتضحية والانخراط في حركة النضال. وعليه فمن واجبنا أن نسعى نحن للاتصال بالناس والتقرب منهم وإن استدعى ذلك ظهورنا بمظهر المتعاونين مع السلطة. كان تصوري أن حركتنا عبارة عن خيمة ضخمة ينضوي تحها أكبر عدد ممكن من الجماهير الشعبية.

حظي تقريري ذاك باهتمام محدود لأنه تزامن مع تقرير آخر ذي أبعاد أكبر وآثار أعمق على حركة النضال. فقد صدر في تلك الأونة تقرير لجنة توملينسون للتنمية الاجتماعية والاقتصادية لمناطق البانتو Tomlinson Commission for the Socio-Economic Development of the Bantu Areas فأثار نقاشا واسعا في البلاد كلها. اقترحت تلك اللجنة التي شكلتها الحكومة خطة لما يسمى مناطق البانتو أو البانتوستان Bantustan تؤدي في النهاية - في الواقع - الى "تنمية منفصلة" أي تفرقة عنصرية أشمل.

ونظام البانتوستان من بنات أفكار الدكتور اتش اف فيروورد وزير شؤون السكان الأصليين وهو وسيلة لامتصاص النقد العالمي لسياسات جنوب أفريقيا العنصرية، من جهة، ولترسيخ التفرقة العنصرية وتأصيلها، من جهة أخرى. فمناطق البانتوستان - التي عرفت أيضا باسم المحميات - عبارة عن مناطق عرقية منفصلة مخصصة للمواطنين الأفريقيين مبثوثة بين مواقع البيض التي تحاصرها من كل جانب. وورد على لسان فيروورد قوله: "على الأفريقيين أن يقفوا على أرجلهم داخل هذه المحميات" التي يمكنهم فيها "أن ينموا ويتطوروا حسب قابلياتهم الخاصة". فالهدف كان تعزيز الأمر الواقع الذي يملك بمقتضاه ثلاثة ملايين نسمة من السكان ٨٧٪ من الأرض بينما يؤول ثلاثة عشر في المائة فقط منها الى ثمانية ملايين من الأفريقيين.

كان أساس تلك الخطة رفض فكرة الاندماج بين الأجناس والأعراق والدفع الى الأمام بسياسة التنمية المنفصلة للسود والبيض. وأوصى التقرير لتحقيق تلك الغاية بتطوير الصناعات في المناطق الأفريقية مشيرا الى أن أي برنامج تنمية لا يهدف الى توفير فرص النمو للأفريقيين في مناطقهم الخاصة محكوم عليه بالإخفاق. وأشارت اللجنة الى أن التوزيع الجغرافي القائم آنذاك للمناطق الأفريقية توزيع عشوائي وأوصت بجمعهم في سبع مناطق وصفتها بأنها مواطن "تاريخية ومنطقية" للتجمعات العرقية الرئيسية في جنوب أفريقيا.

غير أن فكرة إنشاء مناطق البانتوستان المنفصلة المستقلة بالصورة التي اقترحتها اللجنة كانت فكرة مضحكة. فترانسكاي مثلا - وهي المنطقة النموذجية للتقسيم في الخطة الجديدة - ستقسم الى ثلاث مناطق جغرافية منفصلة عن بعضها البعض. فمنطقتا البانتوستان السوازية ليبوا Lebowa وفيندا Venda تتكون كل منهما من ثلاث قطع، وتتكون بانتوستان كازانكولى Gazankule من أربع قطع، ومنطقة سيسكاي Ciskei من سبع عشرة قطعة، وبوبهوتاتسوانا Bophuthatswana من تسع عشرة قطعة، ومنطقة كوازولو KwaZulu من تسع وعشرين قطعة. لقد كان الحزب الوطني الحاكم يلعب بحياة الناس لعبة معقدة ومتشابكة.

كان هدف الحكومة من إنشاء نظام المواطن العرقية المنفصلة في ترانسكاي وغيره من الأقاليم الأفريقية هو تكوين مستودعات ضخمة للأيدي العاملة الرخيصة التي تحتاج إليها مصانع البيض. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الحكومة تسعى لتحقيق هدف آخر غير معلن وهو تكوين طبقة اجتماعية وسطى من الأفريقيين للتقليل من إقبال الأفريقيين على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وعلى حركة النضال ككل.

ندد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بتقرير لجنة توملينسون رغم ما فيه من مقترحات لبرالية. فالتنمية العرقية المنفصلة - كما قلت في حديثي مع داليونغا - هي حل زائف لمشكلة لا يملك البيض وسيلة للسيطرة عليها. ولكن الحكومة وافقت في نهاية المطاف على التقرير ورفضت بعض مقترحاته بحجة أنها تقدمية أكثر من اللازم.

رغم الظلام الذي أخذ يكتسح الساحة السياسية، وتشاؤمي شخصيا تجاه سياسات الحكومة، كنت مشغولا بالتفكير في المستقبل. في فبراير ١٩٥٦ عدت الى ترانسكاي لشراء قطعة أرض في أومتاتا لأنني كنت أؤمن بأنه يجب على المرء أن يمتلك أرضا بالقرب من مسقط رأسه تكون ملجأ وسكنا له إن ضاقت به السبل والأرض.

ذهبت الى ترانسكاي برفقة وولتر والتقينا بعدد من رجالات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في أومتاتا وديربان التي زرناها أولا حيث التقيا أيضا بزملائنا من رجال حزب المؤتمر الهندي في ناتال لتعزيز النشاط في تلك المنطقة. كان رجال القسم الخاص - بطريقتهم الفجة - يقتفون أثرنا كالعادة.

في أومتاتا - وبمساعدة وولتر - دفعت لسي كيه ساكوى C K Sakwe عربونا في قطعة أرض كان يمتلكها في المدينة .كان ساكوى عضوا في مجلس البونغا القبيلي وعضوا في مجلس تمثيل السكان الأصليين . وبينما كنا نزوره روى لنا حادثة جرت يوم السبت المنصرم في بامبهانى Bumbhane المكان العظيم لساباتا أثناء اجتماع بين مسؤولين من الحكومة وزعماء القبائل بشأن تنفيذ سياسة البانتوستان . اعترض عدد من الزعماء على سياسة الحكومة وهاجموا الحاكم المحلي هجوما عنيفا وانفض الاجتماع في عاصفة من الغضب. أعطتنا تلك الحادثة إحساسا بتيار الرفض الشعبي لقانون سلطات البانتو.

بعد عدة أشهر من الحرية تسلمت في مارس ١٩٥٦ الأمر الثالث بالحظر على نشاطي السياسي الذي حدد حركتي بداخل جوهانسبيرغ لمدة خمس سنوات، ومنعني من حضور الاجتماعات واللقاءات خلال المدة نفسها . كان عليّ أن ألزم نفسي بالبقاء في منطقة واحدة لا أرى إلا شوارعها وسماءها ومناجمها الخربة التي تظهر في الأفق على مدى ستين شهرا من الزمن . سأضطر الى الاعتماد على الصحف وما يوافيني به الناس من معلومات وأخبار عما يدور خارج جوهانسبيرغ، وهو أمر لم أكن أتوق إليه إطلاقا.

لقد تغير رد فعلي تغيرا كاملا تجاه قرارات الحظر . فعندما فرض عليّ الحظر أول مرة التزمت بكل شروطه ومتطلباته، أما الآن فلم أعد أعيره أي اهتمام بل صرت أنظر إلى الحظر بكل احتقار وازدراء. ولم أكن لأدع نشاطي النضالي ومجال عملي السياسي يتحدد برغبة عدوي الذي أحاربه لأن ذلك نوع من الهزيمة وأنا آليت على نفسي ألا أكون سجّانا لنفسي.

سرعان ما انشغلت بفض نزاع سياسي حاد نشب في جوهانسبيرغ بين طرفين في منظمة معينة كان كل منهما يطلب مساندتي . كان كل من الجانبين محقا في مطالبه، وكان العداء بينهما مستحكما. وكادت الخصومة الشديدة تتحول الى حرب أهلية فبذلت قصارى جهدي لتفادي حدوث إنقسام داخل المنظمة . هذه الخصومة هي التي نشبت داخل نادي الملاكمة وحمل الأثقال بمركز دونالدسون أورلاندو الاجتماعي Donaldson Orlando Community Centre حيث كنت أذهب للتدريب على الملاكمة كل ليلة تقريبا .

التحقت بالنادي عام ١٩٥٠ وكنت أتردد عليه للتدريب في المساء كلما سنحت لي الفرصة، وكنت في السنوات الأخيرة أصطحب معي ابني تيمبو الذي أصبح ملاكما من وزن الورق عام ١٩٥٦ وهو في العاشرة من عمره . كان يدير النادي جوهانس (سكيبر أدونيس) موروتسي Johannes (Skipper Adonis) Morotsi وكان النادي يجمع الهواة والمحترفين من الملاكمين بالإضافة الى عدد من المغرمين برياضة حمل الأثقال . كان نجم النادي هو: جيري (يوينيا) مولوي Jerry (Uyinja) Moloi الذي فاز فيما بعد ببطولة ترانسفال للوزن الخفيف وكان المرشح الأول لبطولة جنوب أفريقيا.

كانت التجهيزات الرياضية في النادي محدودة جدا وكنا نتدرب على أرضية من

الاسمنت وهو أمر خطير خاصة عند وقوع الملاكمين نتيجة ضربة قاضية. لم يكن النادي يملك سوى جراب واحد للتمرن على الملاكمة وعدد محدود من القفازات. لم نكن نمتلك الأدوية اللازمة أو الملابس والأحذية أو واقيات الأسنان المطلوبة لمزاولة الملاكمة. ورغم ذلك فقد أنجب النادي أبطالا مثل إيريك انتسيلى Eric Ntsele بطل جنوب أفريقيا في وزن البنطم وفريدي انجيدي Freddie Ngidi بطل ترانسفال في وزن الذبابة الذي كان يعمل مساعدا لي في مكتب المحاماة. بلغت عضوية النادي في مجموعها مابين عشرين الى ثلاثين عضوا.

ورغم أنني كنت أتدرب على الملاكمة في فورت هير إلا أنني لم أزاولها بانتظام إلا بعد مجيئي الى جوهانسبيرغ. لم أكن ملاكما من النوع الممتاز وكنت في مجموعة الوزن الثقيل ولكن لم أكن قويا بما يكفي للتعويض عن عدم سرعتي، ولم أكن سريعا بما يكفي للتعويض عن عدم قوتي. لم أكن مغرما بالعنف في الملاكمة بقدر ما كنت مغرما بالجوانب العلمية فيها. كنت منبهرا بقدرة الملاكم على حماية نفسه وباستراتيجيات الدفاع والانسحاب وبتوزيع الملاكم لقوته أثناء المباراة. والملاكمة رياضة تمتاز بالمساواة بين اللاعبين إذ في الحلبة ليس هناك اعتبار لرتبة أو عمر أو لون أو مال. وعندما يراوغ الملاكم ويصطاد نقاط ضعف خصمه ويختبر قوته، لا يشغله لونه أو مكانته الاجتماعية.

لم أزاول الملاكمة بصورة منتظمة بعد أن انخرطت في العمل السياسي وركزت اهتمامي على التدريب لأنني وجدت في التدريبات العنيفة وسيلة ممتازة للراحة والتنفيس من الإرهاق وتوتر الأعصاب، وكنت أشعر بخفة وانتعاش – بدنيا وذهنيا – بعد كل حصة من التدريب الشاق. كانت التدريبات توفر لي بديلا للعمل النضالي، وكنت أستيقظ في الصباح وكليّ قوة وانتعاش وعلى استعداد كامل لمواصلة الصراع والكفاح من جديد.

كنا نتناوب على إدارة الحصص التدريبية كنوع من التدريب على القيادة ولتنمية روح المبادرة والثقة بالنفس. كان ابني تيمبو يستمتع كثيرا بالإشراف على حصص التدريب، وكنت أجد منه العنت لأنه كان ينتقدني أكثر من غيري. وكان يبادر بمعاقبتي إن أنا تباطأت أو تكاسلت. كان الجميع ينادينى بلقب "الزعيم" إلا ابني الذي كان يناديني بـ "السيد مانديلا" أو "برا" وهي كلمة عامية بديلة لكلمة "أخي". فإن رآني متراخيا قال:

– لا تضيع وقتنا هذا المساء يا سيد مانديلا. إذا لم تكن قادرا على مواصلة التدريب لما لا تذهب الى بيتك وتسامر عجوزك؟

كان الحاضرون يستمتعون بالمناكفات التي تدور بيني وبين ابني تيمبو، وكنت أيضا أستمتع بأن أرى ابني سعيدا وعلى ذلك القدر من الثقة بالنفس.

ولكن تلك الروح الأخوية التي كانت سائدة في النادي تحطمت تلك السنة بسبب خلاف بين سكيبر مولوتسي وجيري مولوي. فقد شعر الأخير ومعه عدد من الملاكمين أن سكيبر لا يعير النادي اهتماما كافيا. فقد كان سكيبر مدربا ماهرا ولكنه كان قليل التردد

على النادي . كان مؤرخا لرياضة الملاكمة قادرا على سرد وقائع مباراة جاك جونسون الشهيرة في هافانا بكوبا عام ١٩١٥ التي استغرقت ستا وعشرين جولة وكانت المرة الأولى التي يخسر فيها ملاكم أسود لقب بطولة العالم في الوزن الثقيل . لم يكن سكيبر يظهر إلا قبيل المبارايات أو الدورات ليتسلم حصته المتواضعة من ريع المباريات . كنت متعاطفا مع وجهة نظر جيري ولكنني بذلت قصارى جهدي من أجل الحفاظ على الانسجام والود بين الطرفين . وفي نهاية المطاف كان ابني بين المنضمين الى صف جيري في نقده لسكيبر ولم يعد بإمكاني عمل أي شيء لتفادي حدوث انشقاق داخل النادي.

هدد الملاكمون بقيادة جيري بالانفصال عن النادي وتأسيس ناد مستقل . دعوت الى اجتماع لكل الأعضاء وكان لقاءً مليئا بالانفعالات، دارت المناقشات فيه بلغات السيسوتو والزولو والكوسا والإنجليزية، واستشهد فيه سكيبر بشكسبير متهما جيري بخيانته مثلما خان بروتس قيصر . وتساءل ابني :

- من يكون قيصر ومن يكون بروتس؟

وقبل أن أجيبه قال أحد الحاضرين :

- أليسا بميتيْن؟

فأجابه سكيبر :

- أجل، إنهما ميتان ولكن الخيانة حقيقة ما تزال على قيد الحياة!!

لم يصل الاجتماع الى أي حل، فانفصل الملاكمون الى مقر آخر وظل لاعبو حمل الأثقال في المركز. التحقت أنا بالملاكمين وكنا طول الأسابيع الأولى نتدرب في مكان لا يبعث على الاطمئنان بالنسبة لمناضل مثلي وهو نادي قوات الشرطة . بعد ذلك منحتنا الكنيسة الأنجليكانية مكانا بإيجار معقول في أودلايندو الشرقية وواصلنا التدريب تحت إشراف سايمون (امشينغو) اتشابالالا Simon Mshengu Tshabalala الذي أصبح فيما بعد من أبرز العناصر السرية في النضال الوطني لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي .

لم يكن المكان الجديد وتجهيزاته بأفضل من سابقه ولم يعترف بالنادي رسميا. والملاكمون الأفريقيون كغيرهم من الرياضيين والفنانين الأفريقيين مكبلون بعاملين أساسيين: الفقر والعنصرية . فما يكتسبه الملاكم الأفريقي من دخل ينفقه على طعامه وسكنه ولباسه، وإن فاض شيء صرف في المعدات والتدريب . فهو محروم من الانضمام لنوادي البيض حيث تتوفر الأجهزة والمعدات والمدربون الأكفاء بما يمكن الملاكمين من بلوغ المستويات الراقية والعالمية . والملاكمون الأفريقيون - بعكس نظرائهم البيض - مضطرون للعمل أثناء النهار لكسب قوتهم وقوت عيالهم. ورغم ذلك تمكن عدد من الملاكمين الأفريقيين من تذليل الصعاب والبروز وتحقيق مستويات راقية من الكفاءة . كان في مقدمة هؤلاء الايجا موكونى Elijah Mokone وإينوخ انهالابو Enoch Nhlapo وكانغارو مواتو Kangeroo Maoto الذي كان من أبدع الملاكمين في الحلبة، وليفي مادي Levi Madi وانكوسانا

امـغكسـايا Nkosana Mgxaja ومـاكـيد مـوفـوكـينغ Mackeed Mofokeng ونورمـان سـيكغـاباني Norman Sekgapane وجمـيعهم حقق انتـصارات باهرة بينما فـاز جايك تولي Jake Tuli أروع أبطال جنوب أفريقـيا ببطولة بريطانيا والأمـبراطورية لوزن الذبابة . وكـان تولي أروع مثل لما يمكن أن يحققه الملاكم الأفريقي عندما تتهيأ له الظروف المناسبة.

الفصل الخامس

خيانة عظمى



- ٢٣ -

بعد الفجر بقليل من صباح ٥ ديسمبر ١٩٥٦ استيقظيت على طرقات عالية على باب منزلي. لم تكن من عادة الجيران أو الأصدقاء الدق على الباب بتلك الطريقة المتعجرفة، فأيقنت فورا أنها شرطة الأمن. ارتديت ملابسي بسرعة وفتحت الباب فوجدت أمامي روسو Rousseau ضابط الأمن المعروف في المنطقة يرافقه إثنان من رجال الشرطة. أبرز روسو إذن تفتيش ودخل ثلاثتهم البيت وشرعوا فورا في تمشيطه بدقة بحثا عن أوراق ووثائق يمكن استخدامها أدلة إثبات ضدي. استيقظ الأطفال مذعورين ولجؤوا اليّ بحثا عن الطمأنينة وطلبا للحماية فأشرت عليهم بالتزام الصمت والهدوء. فتش رجال الشرطة الأدراج والخزانات والصناديق وكل ما يصلح لتخبئة أو إخفاء أي ممنوعات أو محظورات، وبعد نحو خمس وأربعين دقيقة اتجه روسو اليّ وقال:

- يا مانديلا، لدينا أمر بإلقاء القبض عليك. هيا بنا.

نظرت في أمر الإعتقال وكادت التهمة المكتوبة بالخط العريض أن تقفز من الورق:

" هوخفيراد HOOGVERRAAD - الخيانة العظمي"

اعتقال المرء على مرأى ومسع من أطفاله ليس بالمنظر اللائق رغم علمه بأنه لم يرتكب إثما أو جريمة ورغم اقتناعه بما يقوم به. فالأطفال لا يستوعبون ما تنطوي عليه هذه المواقف وكل ما يرتسم في أذهانهم هو صورة الأب يقتاده رجال الشرطة البيض الى المعتقل بدون أسباب أو بيّنات.

رافقت رجال الشرطة الى السيارة، وكان روسو نفسه يقودها، فأجلسني الى جانبه دون أن يضع قيودا في يدي. كان معه إذن بتفتيش مكتبي حيث اتجهنا بعد أن ترك الشرطيين الآخرين في حي مجاور. يمر الطريق المؤدي الى وسط جوهانسبيرغ بمنطقة فسيحة خالية من المباني، وبينما كنا نعبر ذلك الجزء من الطريق قلت لروسو إنه لا بد أن يكون واثقا من نفسه إذ إنه يصحبني منفردا وبدون قيود، فلم يرد بشيء. تابعت حديثي قائلا:

- ماذا ستفعل لو أنني هجمت عليك ونجوت بنفسي؟

تململ روسو في مقعده وقال:

- إنك تلعب بالنار يامنديلا.

- إنها لعبتي المفضلة.

تحولت نبرة صوته الى تهديد وقال:

- إن استطردت في الحديث بهذا الشكل سأضطر الى تقييدك.

- وإن رفضت ماذا يحصل؟

واصلنا الحديث لعدة دقائق حتى وصلنا الى مناطق العمران وبالقرب من مركز شرطة لانغلاغتي Langlaagte قال روسو:

- يا مانديلا، لقد عاملتك معاملة حسنة وأتوقع منك المعاملة بالمثل، ولكنني لا أستسيغ مزاحك إطلاقا.

توقفنا عند مركز الشرطة قليلا ثم انطلقنا في اتجاه مكتبي وبصحبتنا شرطي آخر. فتشا المكتب لمدة خمس وأربعين دقيقة ثم انطلقنا من هناك الى ميدان مارشال وسجن جوهانسبيرغ المبني من الطوب الأحمر حيث قضيت بضع ليال أثناء حملة التحدي عام ١٩٥٢، كان هناك عدد من زملائي الذين اعتقلوا هم أيضا صباح ذلك اليوم، والتحق بنا آخرون خلال الساعات التالية. إنها الحملة التي ظلت الحكومة تخطط لها منذ مدة. علمنا من صحيفة ذا ستار The Star سربها إلينا أحد المعتقلين أن الحملة شملت جميع أنحاء البلاد وأن قيادات حلف المؤتمر البارزين اعتقلوا بتهمة الخيانة العظمى والتآمر لقلب نظام الحكم. شملت الإعتقالات الزعيم لوتولي ومونتي نايكر ورجي سبتمبر Reggie September وليليان انغوي Lilian Ngoyi وبيات بيليفيلد Piet Beyleveld. أحضروا الى جوهانسبيرغ في طائرات عسكرية من أنحاء مختلفة من البلاد للمثول أمام المحكمة والإستماع الى نص التهم الموجهة إليهم. وفي اليوم التالي نقلنا الى المحكمة ووجهت إلينا التهم رسميا. وبعد اسبوع من ذلك التاريخ اعتقل وولتر سيسولو وأحد عشر آخرون فبلغ مجموع المعتقلين مائة وستة وخمسين شخصا منهم مائة وخمسة أفريقيين وواحد وعشرون هنديا وثلاثة وعشرون من البيض وسبعة ملونين. كما اعتقل جميع أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي تقريبا سواء منهم الخاضعون للحظر السياسي وغيرهم. وهكذا، بعد انتظار طويل، بدأت الحكومة في تنفيذ سياستها الجديدة.

بعد فترة وجيزة نقلنا الى سجن جوهانسبيرغ المشهور باسم "القلعة" وهو مبنى كئيب كالقصر المهجور يقع في منطقة مرتفعة في وسط المدينة. بمجرد دخولنا السجن أخرجنا الى ساحة مربعة الشكل وأمرنا بنزع ملابسنا بالكامل والوقوف في صف واحد أمام الحائط. بقينا على تلك الحال غير اللائقة نرتعد من البرد لأكثر من ساعة كاملة، وكان بيننا رجال كنيسة وأساتذة جامعات وأطباء ومحامون ورجال أعمال، من مختلف الأعمار والأجيال، ممن اعتادوا على أن يعاملوا بكل لطف واحترام. ورغم ما كنت أضمره من حنق وغضب فقد غالبني الضحك وأنا أتفرس في ذلك الحشد من الرجال، وتجسد أمامي لأول مرة معنى القول الشهير: "الملابس تصنع الرجال". فلو كانت اللياقة البدنية والأجسام الوسيمة شرطا من شروط القيادة والزعامة لما وجد بيننا أحد يستحقها بجدارة.

بعد فترة خرج علينا طبيب أبيض واستفسر إن كان أي منا في حاجة الى عناية طبية فلم يجب أحد. أمرنا بارتداء ملابسنا ثم أخذنا الى زنزانتين كبيرتين أرضيتهما من الاسمنت خاليتين من الأثاث، تفوح منهما رائحة طلاء كريهة. أعطي كل منا ثلاث بطانيات خفيفة

وحصيرا من الليف الأبيض. في كل زنزانة مرحاض واحد على مستوى الأرض مكشوف تماما. يقال إنما تعرف الأمم بسجونها، إذ ينبغي الحكم على أمة ما من خلال معاملتها لأدنى مواطنيها وليس لأرقاهم، وها هي جنوب أفريقيا تعامل سجناءها الأفريقيين وكأنهم حيوانات.

مكثنا في القلعة أسبوعين، ورغم كل الصعوبات ظلت معنوياتنا مرتفعة جدا. سمح لنا بقراءة الصحف وقرأنا بكل شغف عن موجة السخط التي صاحبت اعتقالنا. فقد نظمت مظاهرات ولقاءات في جميع أنحاء جنوب أفريقيا ورفعت لافتات تقول: "نقف الى جانب قادتنا". كما قرأنا عن الاحتجاجات التي قامت في مختلف أنحاء العالم.

تحولت تلك الزنزانة الجماعية الى مؤتمر عام للمناضلين من مختلف أنحاء البلاد، كان أغلبيتهم يعيش تحت وطأة الحظر السياسي مما حال دون لقائنا واجتماعنا فيما قبل. وها هو عدونا قد جمع بيننا بنفسه تحت سقف واحد لنشارك في أطول اجتماع قانوني لتحالف المؤتمر منذ سنوات عديدة. جمعت تلك الزنزانة قادة شبابا بقادة قدامى كانوا يسمعون ويقرأون عنهم فقط، والتقى قادة ناتال بقادة ترانسفال، ورحنا نتبادل الأفكار والتجارب والآراء أسبوعين كاملين في انتظار المحاكمة.

أعددنا لكل يوم جدولا من النشاط. فتولى باترك مولاوا Patrick Molaoa وبيتر انثايت Peter Nthite – وهما من أبرز قادة رابطة الشباب – التمرينات البدنية. ونظمت دروس حول مواضيع شتى تحدث فيها الأستاذ ماثيوز عن تاريخ حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وتاريخ الزنوج في أمريكا، وتحدث ديبي سينغ Debi Singh عن تاريخ حزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا، وآرثر ليتيلى عن الطبيب الأفريقي، وتحدث القسيس جايمس كالاتا James Calata عن الموسيقى الأفريقية وأتحفنا بغنائه الممتع وصوته الصادح. وكان فويزيلى ميني Vuyisile Mini – الذي أعدم شنقا فيما بعد لأسباب سياسية – يقودنا يوميا في غناء أناشيد الحرية وأشهرها الذي يقول: "هذا هو الرجل الأسود ياستـرايدوم Strijdom احترس من الرجل الأسود ياسترايدوم". كنا نهتف بأعلى أصواتنا وكان ذلك يرفع من معنوياتنا وحماسنا بدرجة لا توصف.

وذات يوم ألقى ماسابالالا يانغوا Masabalala Yengwa إبن أحد العمال الزولو وأمين عام فرع الحزب في ناتال محاضرة عن الموسيقى وألقى قصيدة في شاكا Shaka محارب الزولو الشهير وأحد ملوكهم العظام. ألقى يانغوا ببطانية على كتفيه ولفّ جريدة على شكل سيف وأخذ يتثنى جيئة وذهابا في الزنزانة وهو يشدو بتلك القصيدة فأخذ بمشاعرنا جميعا بمن فينا من لم يفقهوا لغة الزولو. وفجأة توقف عند بيت يشبّه شاكا بطير جارح عظيم يقتل فريسته بعنف، ولم يكد ينته منه حتى عم الهرج والمرج. هب الزعيم لوتولي واقفا على قدميه، وكان قد التزم الهدوء حتى تلك اللحظة، وصاح بأعلى صوته: "هذا هو شاكا!" وراح يرقص ويغني. بعثت حركاته العدوى في أجسامنا فقفزنا جميعا – من كان يتقن الرقص منا ومن لم يكن – لنشارك في إندلامو indlamu رقصة الحرب التقليدية الشهيرة

لدى الزولو . كان بعضنا يتمايل بلياقة ورشاقة بينما كانت حركة آخرين أقرب الى متسلقي الجبال الذين لفحهم البرد، ولكن الجميع رقص بحماس وانفعال شديد . وفجأة لم يعد بيننا الكوسا والزولو والهندي والأفريقي، ولم يعد بيننا اليميني واليساري أو الزعيم الديني والزعيم السياسي . فقد أصبحنا جميعا قوميين وطنيين يربطنا حبنا لتاريخنا المشترك ولثقافتنا ووطننا وشعبنا الواحد . لقد حرك ذلك الجو في أنفسنا انفعالات قوية ومشاعر عميقة حميمة ألفت بين قلوبنا، فأحسسنا بيد الماضي العظيم الذي ننتسب إليه جميعا وندين له بكل ما نملك تمتد لتحفنا، وبقوة القضية الكبرى التي تربطنا.

بعد أسبوعين مثلنا أمام محكمة عقدت في ١٩ ديسمبر في مبنى عسكري معروف باسم دريل هول Drill Hall بجوهانسبيرغ . لم يكن هذا المبنى المسقوف بالصفيح والذي يشبه حظيرة كبيرة يستعمل لهذا الغرض ولكنه كان المكان الحكومي الوحيد الذي يسع هذا العدد من المتهمين.

نقلنا في عربات مقفلة تابعة للشرطة يرافقنا جنود مسلحون، وكانت الاستعدادات والاحتياطات الأمنية توحي للغريب أن حربا أهلية قد اندلعت في المدينة . اعترض الموكب حشد كبير من أنصارنا في شارع تويست Twist Street وكنا نسمع هتافاتهم وأهازيجهم كما كانت تصلهم أصواتنا من داخل العربة . تحولت الرحلة الى موكب نصر إذ أخذ المتظاهرون يهزون العربة التي كانت تقلنا . طوقت الشرطة وقوات الجيش المدججة بالسلاح المبنى تطويقا كاملا وتوقفت العربة خلف القاعة فدخلنا من باب يؤدي الى قاعة المحكمة مباشرة.

في داخل القاعة كان ينتظرنا حشد آخر من الأنصار والمتعاطفين مما أحال القاعة الى مظاهرة شعبية كبيرة . دخلنا القاعة رافعين أيدينا بتحية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي المعهودة وكنا نرد على تحية أنصارنا الجالسين في الجزء المخصص لغير البيض . كان الجو داخل المحكمة أقرب الى الاحتفال منه الى جو قصاص حيث اختلط المتهمون بالصحفيين والأنصار والأصدقاء.

كانت التهمة الموجهة الينا - وعددنا مائة وستة وخمسون متهما - هي الخيانة العظمى والاشتراك في مؤامرة كبرى لاستعمال العنف من أجل الإطاحة بالحكومة وإقامة دولة شيوعية . شملت التهمة المدة من ١ أكتوبر ١٩٥٢ وحتى ١٣ ديسمبر ١٩٥٦ وشملت حملة التحدي وترحيل سكان صوفياتاون ومؤتمر الشعب . يقوم قانون جنوب أفريقيا الخاص بالخيانة العظمى على سوابق القانون الهولندي الروماني وليس على القانون الإنجليزي ويعرف الخيانة العظمى بأنها النية العدوانية لإعاقة استقلال البلاد وسلامتها أو النيل منهما أو تهديدهما . أما العقوبة فهي الإعدام.

الغرض من الفحص التمهيدي تحديد ما إذا كانت التهم التي وجهتها الحكومة إلينا كافية لتقديمنا للمحكمة العليا . تقدم الاثباتات على مرحلتين: الأولى أمام محكمة جنايات، والثانية أمام المحكمة العليا إذا رأت محكمة الجنايات توفر الأدلة الكافية . أما إذا قررت محكمة الجنايات عكس ذلك أفرج عن المتهمين.

ترأس محكمة الجنايات القاضي اف سي ايه ويسل F C A Wessel قاضي قضاة بلومفونتاين، وكان يتكلم بصوت خافت جدا تعذر سماعه . لم توفر السلطات مكبرات صوت أو لاقطات صوت ورفعت الجلسة لمدة ساعتين في اليوم الأول لتلافي ذلك النقص. تجمع المتهمون أثناء الإستراحة في فناء كبير أمام قاعة المحكمة حيث تناولنا طعاما أحضر من الخارج وكأننا في نزهة في جو أشبه ما يكون بالمهرجان . لم تُستأنف الجلسة لعدم توفر مكبرات الصوت فعدنا الى القلعة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف.

شهد اليوم الثاني للمحاكمة حشودا جماهيرية أكبر من الحشود السابقه، وطوق مبنى دريل هول خمسمائة شرطي في جو ساده التوتر الشديد . اكتشفنا لدى وصولنا المبنى أن السلطات شيدت قفصا هائلا من الأسلاك لإيوائنا في مقدمته حاجز كبير من القضبان. أدخلنا القفص وجلسنا على مقاعد طويلة يحيط بنا ستة عشر من حراس الشرطة.

حال القفص - بالإضافة الى آثاره الرمزية السيئة - دون اتصالنا بمحامينا الذين كانوا ممنوعين من دخوله . كتب أحد الزملاء عبارة على قطعة من الورق علقها على جانب القفص تقول: "خطر . يرجى عدم الإطعام" .

كلف أنصارنا والحزب فريقا ممتازا من المحامين للمرافعة ضم برام فيشر ونورمان روزينبيرغ Norman Rosenberg وإسرائيل مايسلز Israel Maisels وموريس فرانكس Maurice Franks وفيرنون بيرانجي Vernon Berrange ولم يشهد أحد منهم قط محاكمة بهذا الشكل. تقدم فرانكس باحتجاج شديد اللهجة في جلسة مفتوحة على الأسلوب "المستهجن" الذي اتبعته الدولة في إذلال موكليه قائلا: "إنهم يعاملون كحيونات متوحشة" . وطالب بإزاحة القفص فورا وإلا انسحب فريق المحامين بأكمله من المحكمة. بعد استراحة قصيرة أمر القاضي بإزالة القفص وأزيلت القضبان مباشرة.

بدأت المحاكمة، وأفتتحها رئيس النيابة السيد فان نايكيرك van Niekerk بتلاوة لائحة الإتهام المكونة من ثمانية عشر ألف كلمة . رغم وجود مكبرات الصوت كان من العسير سماع ما يقال لارتفاع أصوات الجماهير أمام المحمكة بالهتاف والصراخ والغناء . فجأة اندفع عدد من رجال الشرطة الى خارج القاعة وسمعنا أصوات طلقات رصاص في الخارج. رفعت الجلسة واجتمع القاضي بالمستشارين . أسفرت المواجهة عن إصابة عشرين شخصا بجروح.

واصل رئيس النيابة تلاوة لائحة الإتهام على مدى اليومين التاليين وقال إنه سيثبت للمحكمة أن المتهمين كانوا يتآمرون - بمساندة دول أجنبية - للإطاحة بالحكومة بالعنف وفرض حكومة شيوعية في جنوب أفريقيا . كانت تلك تهمة الخيانة العظمى . وأشارت النيابة الى ميثاق الحرية كدليل على أهدافنا الشيوعية وتآمرنا على السلطة القائمة .

في اليوم الثالث اختفى الجزء الأكبر من القفص، وفي اليوم الرابع أطلق سراحنا بكفالة كشفت هي الأخرى جانبا من جوانب التفرقة العنصرية . فكفالة البيض كانت مائتين

وخمسين جنيها والهنود مائة جنيه والأفريقيين والملونيين خمسة وعشرين جنيها للشخص الواحد . أجل، حتى الخيانة تقاس بمعايير التفرقة العنصرية.

تطوع المتعاطفون من كل فئات المجتمع لدفع كفالة كل متهم من المتهمين، وأصبح هذا التطوع فيما بعد عنصرا أساسيا في صندوق المرافعة في قضية الخيانة الذي أسسه الأسقف ريفز Bishop Reeves وألن باتون Alan Paton وأليكس هيبل Alex Hepple . أشرفت على إدارة الصندوق أثناء المحاكمة ماري بينسون Mary Benson ثم فريدا ليفسون Freda Levson .

أطلق سراحنا بشرط التسجيل عند الشرطة مرة كل أسبوع ومنعنا من حضور الإجتماعات العامة، وحدد موعد انعقاد المحكمة من جديد في يناير المقبل.

وصلت مكتبي صباح اليوم التالي نشطا وفي ساعة مبكرة . تراكمت القضايا أثناء غيابنا أنا وأوليفر فشرعنا في فرزها . كنت قبل اعتقالي دأبت على تخفيف وزني استعدادا للسجن وواصلت داخله تمريناتي البدنية وكنت سعيدا بذلك . غير أن صديقا قديما يدعى ياباف Jabavu يعمل مترجما لم أره من عدة أشهر زارني صباح ذلك اليوم وبادرني بقوله :

- ياماديبا، ما الذي يجعلك تبدو نحيلا بهذا الشكل؟

السمنة في التقاليد الأفريقية علامة على البحبوحة والصحة الجيدة، فصاح صديقي يقول :

- عرفت السبب . أفزعك السجن وانهارت قواك . والله لقد ألحقت العار بأبناء الكوسا!

- ٢٤ -

أخذت بوادر التصدع تظهر في زواجي من إيفلين حتى قبل المحاكمة. فقد صممت إيفلين عام ١٩٥٣ على الإلتحاق بدورة دراسية لمدة أربع سنوات لنيل شهادة التمريض العام، وتخصصت في التوليد بمستشفى الملك إدوارد السابع في ديربان. ترتب على ذلك غيابها عن البيت عدة أشهر كل مرة، ولحسن الحظ كانت أمي وأختي تقيمان معنا في جوهانسبيرغ لتولي رعاية الأطفال. زرتها أثناء إقامتها في ديربان مرة واحدة على الأقل.

اجتازت إيفلين امتحاناتها وعادت الى جوهانسبيرغ، وكانت حاملا فوضعت في تلك السنة ماكازيوى Makaziwe التي سميناها باسم أختها السابقة المتوفاة قبل ست سنوات. فمن تقاليد الكوسا تسمية الوليد الجديد باسم المولود المتوفى تكريما لذكرى الأخير لرحيله المبكر وللمحافظة على صلة روحية بينهما.

في غضون السنة التالية انهمكت إيفلين في نشاط منظمة دينية تسمى ووتش تاور Watch Tower تابعة لكنيسة شهود يهوه المسيحية، ولست أدري إن كان ذلك نتيجة لفقدانها السعادة في حياتها آنذاك. وشهود يهوه جماعة تؤمن بأن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للعقيدة المسيحية وبحتمية المعركة الفاصلة الكبرى Armageddon بين الخير والشر. أصبحت إيفلين تشارك بحماس في توزيع منشورات تلك الجماعة وتحاول إقناعي بالتنحي عن العمل السياسي والإنضمام إليها. كانت تحثني على حب الله بدلا من الارتباط بالسياسة. ورغم إعجابي ببعض أفكار تلك الجماعة ونشاطها لم أكن أشاركها الرغبة في الإنتماء إليها. فقد نفرني ذلك الافتتان الزائد بالجماعة وأفكارها، وهي جماعة تدعو الى السلبية والإستسلام للظلم، وهو ما لم أكن لأقبله.

كان إخلاصي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولحركة النضال إخلاصا كاملا وهو ما أزعج إيفلين التي حسبت أن اهتمامي بالسياسة كان نزوة من نزوات الشباب، وأنني سوف أعود يوما ما الى ترانسكاي لأستقر فيها وأمارس المحاماة. وحتى عندما اتضح لها أن ذلك غير ممكن لم تقبل إيفلين بأن جوهانسبيرغ هي مقرنا الدائم ولم تتخل عن فكرة رجوعنا يوما ما الى أومتاتا. كانت تعتقد أنني بمجرد أن أعود الى ترانسكاي وأعيش في كنف أسرتي وأصبح مستشارا لساباتا سوف أنسى السياسة ولن أتحسر عليها. وكانت تشجع داليونغا في محاولاته لإقناعي بالرجوع الى أومتاتا وجرت بيننا مساجلات طويلة حول هذا الموضوع. حاولت بكل صبر أن أبين لها أن السياسة بالنسبة لي لم تكن هواية بل هي حياتي وجزء أساسي وضروري من وجودي. لم تقبل ذلك، وأصبح من الواضح أن رجلا وإمرأة بهذا التناقض في الأفكار وفي فهم كل منهما لدور الآخر في الحياة لا يمكن أن يعيشا شريكين. أحاول إقناعها بالانخراط في النضال وهي تحاول إقناعي بالدين. وكلما قلت إنني أخدم الوطن قالت إن الله أولى بخدمتي وأهم من الوطن. انحسرت الأرضية المشتركة بيننا وأصبحت مؤمنا بأن زواجنا لا مستقبل له.

نشبت بيننا خصومات عنيفة أيضا حول مستقبل الأطفال. كانت إيفلين ترغب في أن يكونوا متدينين وكنت أرغب أن يهتموا بالسياسة. كانت تأخذهم الى الكنيسة كلما سنحت الفرصة وتقرأ لهم من منشورات جماعة شهود يهوه، بل وكانت تعطيهم المنشورات لتوزيعها في الحي، بينما كنت أحدثهم عن القضايا السياسية. كان تيمبي عضوا في تنظيم الأطفال المعروف باسم بايونيرز Pioneers التابع لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وكان على وعي بالسياسة، وكنت أشرح لماكغاتو Makgatho بأسلوب مبسط وسلس ما يتعرض له الرجل الأسود من اضطهاد وظلم على يد الرجل الأبيض.

علقت على الجدران في بيتنا صور روزفيلت وتشرشل وستالين وغاندي، وصورة لاقتحام القصر الشتوي في سانت بيترزبيرغ عام ١٩١٧، وكنت أعرّف أبنائي بكل شخصية من تلك الشخصيات وما ناضلت من أجله، وكانوا يعلمون أن ما يؤمن به زعماء البيض في جنوب أفريقيا شيء آخر تماما. دخل ماكغاتو في أحد الأيام مفزعا يقول:

- أبي، أبي. مالان في الجبل!!

مالان هو أول رئيس وزراء من الحزب الوطني الأبيض فالتبس الأمر على الولد الذي رأى ويللي ماري Willie Maree أحد مسؤولي قسم تعليم البانتو الذي أعلن في ذلك اليوم أنه سيتحدث في اجتماع عام في المدينة. خرجت أتحرى عما قاله إبني، وكان حزب المؤتمر الوطني الأفريقي نظم مظاهرة مضادة لذلك الاجتماع، فرأيت عربتين من عربات الشرطة ترافقان ماري الى حيث سيلقي خطابه. نشبت مواجهات بين الطرفين وفر ماري وألغي الاجتماع. شرحت لماكغاتو أن الرجل لم يكن مالان ولكن لا فرق بينه وبينه.

كان برنامجي اليومي مزدحما بالواجبات والأعمال. كنت أغادر البيت كل يوم مبكرا وأعود اليه في ساعة متأخرة من الليل. ومن عادتي بعد نهاية العمل الرسمي في المكتب أن أذهب لاجتماعات في المساء ولم تكن إيفلين تقبل ذلك وإن رجعت متأخرا شكت في أن لي عشيقة أتردد عليها. كنت أبين لها طبيعة الاجتماعات والأسباب التي تدفعني للمشاركة فيها والمواضيع التي تطرح فيها ولكنها لم تقتنع. في عام ١٩٥٥ أعطتني إنذارا أخيرا بأن أختار بينها وبين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

كان وولتر سيسولو وزوجته ألبيرتينا على علاقة حميمة بإيفلين وكانت رغبتهما أن نظل معا، وكانت إيفلين تفصح لألبيرتينا بما يدور بيننا. تدخل وولتر مرة فصددته وقلت إن الأمر لا يعنيه في شيء، ثم ندمت على الطريقة التي تحدثت بها معه لأنه كان بمثابة الأخ ولم يتهاون يوما في مساندتي والوقوف الى جانبي.

أخبرني وولتر ذات يوم أن شخصا يرغب في مقابلتي في المكتب ولم يخبرني أنه صهري أخو أيفلين. استغربت لمجيئه ولكنني سررت بلقياه. فقدت الأمل في مستقبل زواجي ورأيت من اللياقة أن أخبره بحقيقة مشاعري.

استعملت في حديثي - أو ربما كان وولتر - عبارة من قبيل: "الرجال أمثالنا". كان

أخو إيفلين رجل أعمال لا يحب السياسة ولا رجال السياسة، فانتابه الغضب وقال:

- إن كنتما تعتقدان أنكما من مستواي فهذا شيء مضحك. لا تقارنا نفسيكما بي.

عندما غادر نظر كل منا الى الآخر واستغرقنا في الضحك.

بعد اعتقالي في ديسمبر زارتني إيفلين مرة واحدة خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في الحبس، وعندما أطلق سراحي بكفالة عدت الى البيت فوجدته خاليا. أخذت إيفلين الأطفال وكل ما في البيت من أثاث حتى الستائر وانتقلت الى بيت أخيها. آلمني ذلك التصرف ألما شديدا. تحدثت مع أخيها فقال:

- لعله من الأفضل أن تنفصلا، وربما اجتمع شملكما من جديد بعد أن تهدأ الأمور.

كانت نصيحة طيبة ولكن الأقدار شاءت ألا نعود لنستأنف حياتنا الزوجية.

لم يكن بالإمكان تجاوز ما نشأ من اختلافات بيني وبين إيفلين. فلم أكن لأقلع عن عملي النضالي ولم تقبل هي بتعلقي بأي شيء آخر غيرها هي والأطفال. كانت سيدة طيبة ولطيفة ومخلصة وصاحبة شخصية قوية، وكانت أما ممتازة. لا زلت أكن لها الاحترام والإعجاب وإن أخفقنا في نهاية المطاف في المحافظة على زواجنا.

كان لنهاية زواجي أثر مؤلم خاصة على الأطفال، وخلف في نفوسهم جروحا عميقة. أصبح ماكغاتو يحبذ النوم في فراشي الخاص. كان طفلا هادىء الطبع مسالما وحاول بطريقته الخاصة أن يصلح ما بيني وبين أمه. أما ماكازيوى فكانت صغيرة وأذكر أنني زرتها يوما في مدرسة الحضانة فجاة فلما رأتني تسمرت في مكانها واحتارت بين أن تقبل علي أم تفر مني، وبين أن تبتسم أم تتجهم. كانت طفلة شفوقة وكان يدور صراع داخل فؤادها الصغير عجزت عن فهمه. وكان موقفا في غاية الألم والقسوة.

أكثر من تاثر من أطفالي هو تيمبي وكان في العاشرة من العمر. توقف عن الدراسة وأصبح انطوائيا. كان مغرما باللغة الإنجليزية وبأعمال شكسبير ولكنه بعد إنفصالي عن أمه ما عاد يبالي بالعلم والتحصيل. حدثني عن ذلك مدير مدرسته ذات يوم ولم يكن في وسعي شيء أفعله. كنت أصطحبه الى النادي كلما سنحت الفرصة وكان يسعد بذلك أحيانا. كنت مشغولا في أغلب الوقت وعندما اضطررت الى العمل السري تولى وولتر شؤونه وكان يصحبه وابنه الى النادي، ولاحظ أنه صامت وهادىء أكثر من اللازم. كان تيمبي بعد الانفصال يرتدي ملابسي أحيانا رغم صغر حجمه ويبدو أنها كانت تذكره بوالده الغائب في أكثر الأوقات.

- ٢٥ -

في ٢٩ يناير ١٩٥٧ مثلنا أمام المحكمة في قاعة دريل مرة أخرى، وجاء دور الدفاع للرد على التهم التي وجهتها الدولة . بدأ محامي الدفاع فيرنون بيرانجيه بتلخيص التهم ثم شرع في الرد عليها قائلا:

سيفند الدفاع وبشدة الادعاء بأن بنود ميثاق الحرية تنطوي على خيانة أو عمل إجرامي، بل على العكس من ذلك سيبين الدفاع ان الأفكار والمباديء المدرجة في الميثاق، رغم كونها مرفوضة من قبل الحكومة الحالية، هي أفكار ومباديء يؤمن بها غالبية البشر من كل الألوان والأعراق، والغالبية العظمى من المواطنين في هذا البلد.

اتفقنا مع محامينا على أن نسعى الى أكثر من مجرد إثبات براءتنا من تهمة الخيانة، وأن نقدم من الأدلة ما يحيل محاكمتنا محاكمة سياسية، لأن الحكومة هي التي تضطهدنا لقيامنا بأعمال لها مبررات أخلاقية ثابتة.

تلت البداية الدرامية للمحاكمة الإجراءات القانونية الروتينية المملة وقضينا الشهر الأول في الإستماع الى أدلة الإثبات التي قدمتها الحكومة واستخدمت في ذلك جميع ما جمعته الشرطة أثناء المداهمات التي قامت بها على مدى السنوات الثلاث الأخيرة من أوراق ومنشورات ووثائق وكتب ومفكرات ورسائل ومجلات وقصاصات صحف وغيرها . بلغ عدد الوثائق اثني عشر ألف وثيقة أعطيت كل منها رقما متسلسلا . واستشهد محامو الادعاء في عرضهم للأدلة بعدد من المراجع والمصادر منها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وكتاب في فن الطبخ الروسي . وكان من ضمن الأدلة إشارتان صادرتهما الشرطة يوم مؤتمر الشعب تحملان العبارتين: "شوربة بلحم" و "شوربة بدون لحم!!".

واستمعنا خلال الفحص التمهيدي للقضية، الذي استغرق عدة أشهر، الى تقارير يومية من ضباط الأمن السري من أفريقيين وأفريكان حول اجتماعات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والكلمات التي كانت تلقى فيها . كانت التقارير محرفة ومشوشة وكان كثير منها إما غير مفهوم وإما باطلا لا أساس له من الصحة . وقد تمكن محامينا بيرانجيه في استجواباته اللبقة فيما بعد من أن يكشف أن كثيرا من أفراد الشرطة الأفريقيين لا يفهمون اللغة الإنجليزية ولا يتقنون كتابتها، وهي اللغة التي كانت تستخدم في اجتماعات الحزب ولقاءاته.

ادعت الحكومة أننا كنا نهدف الى إقامة دولة على النمط السوفياتي، واستعان الادعاء لإثبات تلك التهمة الغريبة بأقوال الأستاذ أندرو ماري Andrew Murray رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة كيب تاون . ووصف ماري معظم الأوراق والوثائق التي صودرت منا، بما في ذلك ميثاق الحرية، بأنها شيوعية.

أعطانا الأستاذ ماري الإنطباع بأنه ذو علم وثقافة وذلك حتى حان موعد استجوابه من

قبل المحامي بيرانجيه . فقد قرأ عليه مقتطفات من وثائق مختلفة وطلب منه أن يحدد إن كانت محتوياتها شيوعية أم لا . كانت أول فقرة قرأها عن حاجة العمال الى التعاون فيما بينهم وعدم استغلال بعضهم بعضا، فقال ماري إن تلك فكرة شيوعية . وهنا أشار بيرانجيه الى أن ذلك ورد رسميا على لسان الدكتور مالان رئيس الوزراء السابق لجنوب أفريقيا. ثم استطرد فقرأ عليه فقرتين أخريين أكد الأستاذ ماري بأن محتوياتهما شيوعية، وكانت الفقرتان - في الواقع - مما ينسب للرئيسين الأمريكيين سابقا أبراهام لينكولن Abraham Lincoln وودرو ويلسون Woodrow Wilson . وجاءت اللحظة المثيرة حقا عندما قرأ المحامي كلاما قال الأستاذ ماري بدون تردد إنه "شيوعي من صميم الشيوعية" اتضح أنه من كلام للأستاذ ماري نفسه كتبه في الثلاثينات.

في الشهر السابع من المحاكمة قالت الدولة إنها ستقدم أدلة على التخطيط لأعمال العنف التي ظهرت إبان حملة التحدي، وجاءت بالشاهد الرئيسي سولومان انغوباسي Solomon Ngubase الذي أدلى بشهادات مثيرة تؤكد في ظاهرها ضلوع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في العنف . كان انغوباسي في أواخر الثلاثينات من عمره وكان رقيق الصوت يتكلم إنجليزية ركيكة، وكان محكوما عليه بالسجن في قضية تزوير . ذكر انغوباسي أمام المحكمة أنه تحصل على الليسانس من فورت هير وأنه يزاول المحاماة . وقال إنه كان الأمين العام لفرع الحزب في بورت إليزابيث وعضوا في اللجنة التنفيذية العامة للحزب. كما قال إنه حضر اجتماعا للجنة التنفيذية العامة تقرر فيه إرسال وولتر سيسولو وديفيد بوبابى الى الإتحاد السوفياتي للحصول على أسلحة للقيام بثورة مسلحة في جنوب أفريقيا. وأضاف أنه حضر اجتماعا للتخطيط لأعمال الشغب في بورت إليزابيث عام ١٩٥٢ وأنه شهد قرارا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي بقتل جميع البيض في ترانسكاي على غرار ما فعله الماو ماو في كينيا . أثارت أقوال انغوباسى هياجا كبيرا داخل المحكمة وخارجها، فها هي السلطات بعد انتظار طويل تقدم الدليل الدامغ على وجود مؤامرة على الدولة.

ولكن، عندما حان دور المحامي فيرنون بيرانجيه لاستجواب انغوباسى اتضح أنه يجمع بين الجنون والكذب بنسبة متساوية . فقد أثبت بيرانجيه - الذي أصبح يلقب بين المتهمين بـ "الطبيب المداوي" لمهارته في الإستجواب - خلال فترة قصيرة أن انغوباسى لم يكن خريج جامعة أو عضوا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ناهيك عن لجنته التنفيذية . وقدم بيرانجيه أدلة على أن انغوباسي زور شهادة جامعية ومارس المحاماة بدون رخصة وأنه ضالع في قضية تزوير أخرى أمام المحاكم . ففي الفترة التي ادعى أنه حضر فيها اجتماع التخطيط لأعمال الشغب في بورت إليزابيث كان انغوباسى في أحد سجون ديربان. وأثبت الدفاع أن كل أقوال انغوباسى تقريبا لا تمت الى الحقيقة بصلة . وفي نهاية استجوابه سأله بيرانجيه قائلا:

- هل تعرف معنى كلمة: وغد؟

أجاب انغوباسى بالنفي، فهتف بيرانجيه قائلا:

- أنت ياسيدي هو الوغد!

تولى المحامي البارع جو سلوفو الدفاع عن نفسه بنفسه، وكان شوكة في جسم الدولة بأسئلته المحددة ومهارته في إثبات أن الدولة وليس حزب المؤتمر هي التي خالفت القانون. كان استجوابه للشهود لا يقل براعة وقوة عن استجواب بيرانجيه. ادعى أحدهم، وهو جيراما‌يا مولسون Jeremiah Mollson، من ضباط الجهاز السري الأفريقيين المعدودين، أنه يحفظ عن ظهر قلب خطب زعماء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولكن كل ما قدمه أمام المحكمة كان إما كلاما غير مفهوم وإما إفتراءً باطلا. سأله سلوفو:

- هل تفهم الإنجليزية؟

- الى حد ما.

- هل هذا معناه أنك رفعت تقارير عن خطب القيت بالإنجليزية ولم تكن تتقن الإنجليزية؟

- نعم ياحضرة المحامي.

- هل توافقني أن تقاريرك هراء في هراء.

- لست أدري.

اهتزت القاعة بالضحك فعنفنا القاضي قائلا:

- مداولات المحكمة ليست مثارا للضحك كما تتصورن.

واتهم القاضي سلوفو في مناسبة أخرى بالطعن في نزاهة المحكمة وفرض عليه غرامة مالية لانتهاكه حرمة القضاء مما أثار غضب بعض المتهمين ولولا تدخل الزعيم لوتولي الذي هدأ من روع المتهمين لأدينوا هم كذلك بانتهاك حرمة القضاء.

تواصلت جلسات المحكمة وخيم عليها الملل مما دفع بنا الى إشغال أنفسنا بأمور أخرى. كنت أشتغل بالقراءة أو بمراجعة بعض أعمالي القانونية، بينما كان غيري يقرأ الصحف أو يحل ألغاز الكلمات المتقاطعة أو يلعب الشطرنج وغيره. كانت هيئة المحكمة تؤنبنا على ذلك أحيانا فتختفي الكتب والكلمات المتقاطعة، ولكنها سرعان ما تعود بعودة الملل والضجر الى جو المحكمة.

تواصل الفحص التمهيدي للقضية وبدأت الدولة تفقد الأمل تدريجيا في كسبها، واتضح أن السلطات تجمع الأدلة بصورة ارتجالية وغالبا ما تختلقها لتأييد ما أصبح يبدو قضية خاسرة. وفي ١١ سبتمبر، أي بعد عشرة أشهر من بداية المحاكمة، أعلن محامي الادعاء أن السلطات استوفت عرض حيثيات القضية وأعطى القاضي مهلة أربعة أشهر لمحامي الدفاع للنظر في الأدلة التي بلغت ثمانية آلاف صفحة واثنتي عشرة وثيقة وتحضير مرافعاته في القضية.

تواصل الفحص التمهيدي على مدى سنة ١٩٥٧ كلها. رفعت جلسات المحاكمة في سبتمبر ١٩٥٧ وبدأ الدفاع النظر في الأدلة. ولكن، بعد ثلاثة أشهر، وبدون سابق إنذار أو تفسير، أعلنت محكمة الجنايات إسقاط التهم الموجهة الى واحد وستين متهما معظمهم من الأعضاء العاديين في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكان من بينهم الزعيم لوتولي وأوليفر تامبو. سعدنا لإطلاق سراح لوتولي وتامبو ولكننا تحيرنا له أيضا.

عندما حان موعد تلخيص التهم في يناير ١٩٥٨ كلفت الحكومة محامي ادعاء جديدا معروفا بمهارته هو أوزوولد بيراو Oswald Pirow وهو وزير عدل ودفاع سابق ومن أعيان الحزب الوطني الحاكم. وبيراو من أقدم القوميين الأفريكان وممن يجاهرون بمساندتهم للنازية إذ وصف هتلر مرة بأنه "أعظم رجل في عصره"، ومن ألد أعداء الشيوعية. كان اختياره للإدعاء دليلا على قلق الحكومة من نتيجة المحاكمة وحرصها الشديد على كسب القضية.

قبل أن يبدأ بيراو في عرضه الختامي أعلن بيرانجيه أنه سيطلب من المحكمة إسقاط التهم لعدم توفر الأدلة الكافية. عارض بيراو ذلك الطلب مشيرا الى مقتطفات من خطب بعض المتهمين التي تحرض على الشغب قائلا إن الشرطة كشفت مزيدا من الأدلة عن وجود مؤامرة خطيرة على الدولة. وقال بنبرة وعيد وإنذار إن البلد يعيش على فوهة بركان. كان عرضه دراميا قدمه بانفعال شديد أضفى على المحكمة مزيدا من التوتر والترقب. ذكّرنا - وقد أصبحنا على ثقة كبيرة بأنفسنا - بأننا نواجه تهما خطيرة، كما نبّهنا محامونا الى احتمال دخولنا السجن فعدنا الى رشدنا شيئا ما.

بعد ثلاثة عشر شهرا من الفحص والعرض قرر القاضي أن هناك قدرا كافيا من الأدلة لتقديمنا للمحاكمة أمام المحكمة العليا في ترانسفال بتهمة الخيانة العظمى. رُفعت الجلسة في يناير وأحيل خمسة وتسعون متهما الى محاكمة لم يعلن عن موعدها.

- ٣٦ -

كنت في يوم من أيام عطلة المحكمة في سيارتي بصحبة صديق من أورلاندو متجهين الى كلية الطب بجامعة ويتس فمررنا بمستشفى باراغوانات Baragwanath أكبر مستشفى للسود في جوهانسبيرغ . مررنا بمحطة حافلات فلمحت فتاة مليحة تنتظر هناك وأخذت بجمالها منذ أول نظرة. التفتّ لأتمعن فيها ولكنها توارت خلفي، إلا أن صورة وجهها انطبعت في ذهني ولم تغادر مخيلتي. فكرت في الرجوع لأتعرف عليها ولكنني عدلت عن ذلك وقررت مواصلة الرحلة.

بعد ذلك بعدة أسابيع حدثت صدفة غريبة . دخلت مكتب أوليفر فوجدت تلك الفتاة المليحة نفسها وأخاها جالسين أمامه فأصابني ذهول وحاولت جهدي أن أخفي دهشتي – بل ابتهاجي – لما رأيت. عرفني أوليفر بهما وقال إنهما جاءا بشأن مسألة قانونية .

تلك الفتاة هي نومزامو وينيفريد ماديكيزيلا Nomzamo Winifred Madikizela وتعرف باسم ويني Winnie . أنهت ويني دراستها في كلية يان هوفمايار Jan Hofmeyr للعمل الإجتماعي بجوهانسبيرغ وهي أول مرشدة اجتماعية سوداء تعمل في مستشفى باراغوانات. لم آبَه كثيرا لتفاصيل حياتها أو القضية التي جاءت من أجلها إذ استولى وجودها في المكتب على مشاعري، ووجدتني مشغولا بكيف أحصل منها على لقاء أكثر من انشغالي بمعالجة قضيتها . لا أستطيع أن أجزم بوجود "حب من أول نظرة" ولكنني أعلم يقينا أنني منذ اللحظة التي رأيت فيها ويني نومزامو أيقنت بأنها شريكة حياتي.

ويني هي السادسة من أسرة من أحد عشر ولدا، وأبوها هو سي كيه ماديكيزيلا C K Madikizela وهو مدير مدرسة أصبح فيما بعد رجل أعمال . واسمها نومزامو يعني "المكافح" أو "الذي يعاني المحن" وهو اسم يحمل في طياته نبوءة لا تقل عن تلك التي يحملها اسمي . وويني من بيزانا Bizana في بوندولاند Pondoland وهي منطقة بالقرب من الجزء الذي ولدت وترعرعت فيه أنا في ترانسكاي . وتنتمي الى عشيرة فوندو Phondo من أبناء أمانغوتيانا amaNgutyana وجدها الأكبر هو ماديكيزيلا من أقوى زعماء ناتال في القرن التاسع عشر واستقر في ترانسكاي في عهد الإمفيكاني iMfecane .

اتصلت بويني في اليوم التالي في المستشفى وطلبت منها المساعدة في جمع التبرعات في كلية يان هوفمايار لصالح صندوق المرافعة في قضية الخيانة، ولم يكن ذلك سوى ذريعة لدعوتها لتناول الغداء معا . ذهبنا الى مطعم هندي بالقرب من مكتبي وهو من المطاعم القليلة التي كانت تستقبل الزبائن الأفريقيين وكنت أتردد عليه كثيرا . كانت تلك أول مرة تأكل فيها ويني الكاري الهندي الحاد وأفرطت في شرب الماء، ولكن ذلك لم يزدها إلا سحرا وفتنة.

بعد تناول الغداء ذهبنا في فسحة بالسيارة الى منطقة ما بين جوهانسبيرغ

وإيفاتون Evaton وهي متنزه فسيح بجوار حديقة إلدورادو Eldorado Park. تمشينا على العشب الأخضر الطويل الذي يشبه أعشاب ترانسكاي حيث عشنا وترعرعنا. تحدثت لها عن آمالي وطموحاتي وعن الصعوبات التي تواجهها قضية الخيانة. زاد يقيني بأنني أرغب في الزواج منها وفاتحتها بذلك. لقد فُتنت بروحها وعاطفتها الجياشة وشبابها وجرأتها وعِنادها منذ أول لحظة وقعت عليها عيناي.

صرنا نلتقي كلما سنحت الفرصة خلال الأسابيع والشهور التي تلت ذلك اللقاء. كانت تزورني في قاعة دريل وفي مكتبي وفي مركز التدريب، وعرفتها بتيمبي وماكغاتو وماكازيوى. كانت تحضر اللقاءات والإجتماعات السياسية إذ كنت أوثق علاقتي بها وأعمل على تسييسها في آن واحد. كانت ويني أيام الدراسة على صلة بحزب يعرف باسم حركة وحدة غير الأوروبيين Non-European Unity Movement وكان لأحد إخوتها دور في ذلك الحزب. وفي السنوات التالية كنت أشاكس ويني قائلا لو أنها لم تتعرف عليّ لتزوجت أحد قادة حركة وحدة غير الأوروبيين.

بعد طلاقي من إيفلين بقليل طلبت من ويني أن تذهب لزيارة زوجة مايكل هارمِل Michael Harmel واسمها راي Ray لتفصل عليها فستان الزفاف، واقترحت عليها أن تزور والديها في بيزانا لتخبرهما بأننا سنتزوج. كانت راي بالإضافة الى نشاطها السياسي خيّاطة سيدات ممتازة. طالما قالت ويني مازحة إنني لم أتقدم لخطبتها رسميا وردي على ذلك أنني أخبرتها منذ أول لقاء خاص بيننا بأنني أرغب في الزواج منها وأخذت موافقتها أمرا مسلما به منذ ذلك التاريخ.

دخلت محاكمة قضية الخيانة سنتها الثانية وأصبحت تؤثر بشكل كبير على عملنا في مكتب المحاماة. كان غيابنا عن المكتب مدمرا للعمل وأصبح كل منا يواجه صعوبات مالية شديدة. حاول أوليفر بعد أن الغيت التهم أن يستدرك الأمر ولكن بعد فوات الأوان. انفض الزبائن من حوله، وعجزت أنا عن تسديد بقية ثمن قطعة الأرض التي اشتريتها في أومتاتا، وقدره خمسون جنيها، واضطررت الى إلغاء المشروع.

شرحت كل هذه الملابسات لويني وأخبرتها أننا سوف نعيش من راتبها المحدود. فهمت ويني الوضع وقالت إنها على استعداد للمخاطرة والوقوف الى جانبي في كل الأحوال. لم أعدها بذهب أو ماس ولم يكن في مقدوري أن أقدم لها منهما شيئا. عقد الزفاف في ١٤ يونيو ١٩٥٨، طلبت تخفيف الحظر المفروض عليّ وأعطيت إجازة ستة أيام أغادر فيها جوهانسبيرغ، واتخذت ترتيبات بدفع مهر ويني لوالدها.

انطلقت احتفالات الزفاف من جوهانسبيرغ في الصباح الباكر من ١٢ يونيو ووصلنا بيزانا في ساعة متأخرة من النهار. كانت المحطة الأولى مركز الشرطة لإبلاغهم بوصولي كما تنص عليه شروط الحظر السياسي، ومع الغروب اتجهنا - جريا على التقاليد - الى منزل العروس في امبونغويني Mbongweni حيث استقبلنا بالزغاريد والتهليل ثم فصلنا فذهبت ويني الى بيت العروس وذهبت أنا مع أصحاب العريس الى بيت أحد أقارب ويني.

جرت مراسم الزواج في إحدى كنائس المنطقة واتجهنا بعد ذلك الى بيت أخي ويني الأكبر لمواصلة الاحتفال، وهو البيت المتوارث بين سلالات عشيرة ماديكيزيلا . كانت سيارة الزفاف مغطاة بألوان حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكان الحاضرون يرقصون ويغنون، وشاركت جدة ويني برقصة خاصة حازت إعجاب الجميع . دعي للزفاف جميع أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب ولكن حال الحظر السياسي دون حضورهم . كان من بين الحاضرين دوما انوكوى وليليان انغوى والدكتور جايمس نينغوى James Njongwe والدكتور ويلسون كونكو Wilson Conco وفيكتور تيامزاشى Victor Tyamzashe .

اختتم الزفاف بحفلة في قاعة بلدية بيزانا وكانت أمتع الخطب التي ألقيت خطبة والد ويني افتتحها بالإشارة الى وجود عدد من ضباط الأمن الذين لم يدعوا لحضور الحفل، وتحدث عن حبه لابنته وعن اخلاصي لوطني وخطورة عملي السياسي . عندما أخبرته ويني أول مرة بالزواج قال لها في استغراب: "أوتتزوجين سجينا؟" . أعرب والد ويني عن قلقه على المستقبل ومن المخاطر الشديدة التي سيتعرض لها زواج من هذا القبيل في مثل هذه الظروف الصعبة، ونبهها الى أنها تتزوج رجلا قد تزوج النضال، وإذ تمنى لها الخير والسعادة اختتم كلمته بقوله:

- إذا كان زوجكِ ساحرا فعليكِ أن تكوني ساحرة مثله!

معنى ذلك أن على الزوجة أن تسلك مسلك زوجها مهما كان الطريق الذي يختاره. وألقت أختي كونستانس امبيكيني Constance Mbekeni كلمة نيابة عني.

بعد الحفل أعطيت العروس قطعة من كعكة الزفاف ملفوفة في ورق لتحملها الى بيت العريس لاستكمال الجزء الثاني من الزفاف، ولكن الوقت استدركنا وانتهت إجازتي فاضطررنا الى الرجوع مسرعين الى جوهانسبيرغ، واحتفظت ويني بالكعك .وجدنا في استقبالنا في بيتنا رقم ٨١١٥ أورلاندو ويست عددا من الأصدقاء والأقارب وذبح خروف احتفاء بقدومنا وأقيمت مأدبة عشاء تكريما لنا.

لم يكن لدينا الوقت أو المال الكافي لقضاء شهر عسل وانهمكنا في روتين الحياة وكانت المحاكمة أهم شيء فيه . كنا نستيقظ في الرابعة صباحا كل يوم فتحضر ويني الفطور ثم أستقل الحافلة الى المحكمة. كنت أحيانا أمر على المكتب لزيارة خاطفة وحاولت أن أقضي أطول فترة ممكنة من الوقت هناك بعد الظهر وفي المساء أنجز بعض الأعمال أتكسب منها. كما كنت أقضي أغلب الأمسيات في اللقاءات والاجتماعات السياسية . زوجة المناضل أشبه بالأرملة حتى وإن كان زوجها خارج السجن . ورغم أنني كنت أحاكم بالخيانة العظمى كانت ويني تبعث في نفسي الأمل . أحسست بأنني أبدأ حياة جديدة بروح جديدة، وكان حبي لويني مصدرا لمزيد من القوة والجلد لمواجهة ما كان ينتظرني من عمل وكفاح.

- ٢٧ -

أهم حدث كانت تنتظره جنوب أفريقيا عام ١٩٥٨ هو الانتخابات العامة، وهي "عامة" فقط فيما يتعلق بثلاثة ملايين من البيض الذين سيشاركون فيها، إذ سيحرم منها ثلاثة عشر مليون أفريقي. درسنا جدوى الاحتجاج على الانتخابات وكان السؤال هو: هل للانتخابات التي لا يشارك فيها إلا البيض أي أهمية أو أثر على الأفريقيين؟ الجواب من وجهة نظر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي يتلخص في أننا لا يمكن أن نقف متفرجين حتى وإن كنا معزولين عن العملية الانتخابية. أجل، لقد عزلنا ولكننا لن ننجو من أثار الانتخابات، واندحار الحزب الوطني سيكون من صالحنا وفي صالح جميع المواطنين الأفريقيين.

تضامن الحزب مع منظمات أخرى ومع اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا South African Congress of Trade Unions (SACTU) لتنظيم اضراب لمدة ثلاثة أيام أثناء حملة الانتخابات في أبريل. وزعت المناشير في المصانع والمتاجر ومحطات القطارات والشوارع والمستشفيات والبيوت، وكان شعار الحملة الرئيسي: "فليسقط الوطنيون". أثار ذلك مخاوف الحكومة فأصدرت قبل موعد الانتخابات بأربعة أيام قرارا بمنع تجمع أكثر من عشرة أفريقيين في المدن.

تقرر أن يختفي قادة الاضرابات والاعتصامات يوما قبل موعدها لتفويت الفرصة على الشرطة أن تعتقلهم. لم تكن الشرطة تراقبنا باستمرار وكان من السهل علينا الاختفاء ليوم أو يومين. قضيت الليلة السابقة لموعد الاضراب العام في بيت طبيبي الدكتور انتاتو موتلانا Nthato Motlana في أورلاندو وكان في صحبتي وولتر وأوليفر وموسى كوتاني وادجيه بي ماركس ودان تلومى ودوما نوكوى. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي انتقلنا الى بيت آخر في حي مجاور وكنا على اتصال بالتلفون مع قادة آخرين في مناطق مختلفة من المدينة. لم تكن وسائل الإتصال جيدة في تلك الأيام خاصة في ضواحي المدن حيث عدد التلفونات الخاصة محدود جدا، ولم يكن من اليسير الإشراف على إضراب من ذلك القبيل. في الصباح أرسلنا عدة أشخاص الى أماكن مختلفة في الضواحي لمراقبة القطارات والحافلات وسيارات الأجرة للتحري من ذهاب الناس الى أعمالهم أم لا. كانت التقارير غير مشجعة وأفادت بأن وسائل المواصلات كانت تعج بالركاب وأن الناس تجاهلوا الدعوة للإضراب. وفجأة انتبهنا الى اختفاء صاحب البيت الذي كنا فيه، فقد غادرنا والتحق بعمله. أصبح جليا أن الاضراب لم ينجح.

قررنا إلغاء الاضراب. فأن يفشل الاضراب يوما واحدا أفضل من أن يفشل ثلاثة أيام لأنه سيصبح في تلك الحال كارثة محققة. الإنسحاب أمر مخزٍ بلا شك ولكننا أحسسنا أن عدم الإنسحاب سيجلب علينا خزيا أكبر. بعد أقل من ساعة من صدور إعلان إلغاء الاضراب سمعناه يذاع كاملا في هيئة إذاعة جنوب أفريقيا التي اعتادت أن تتجاهل الحزب

وكل ما يصدر عنه تجاهلا كاملا . كان إخفاق الاضراب الخبر الأول في النشرة، بل إن السلطات أشادت بقرار الإلغاء مما زاد من حنق موسى كوتانى الذي قال وهو يهز رأسه في استنكار:

- أن تشيد بنا هيئة إذاعة جنوب أفريقيا أمر لا يمكن أن يقبله العقل.

تساءل كوتانى إن كنا قد تسرعنا في اتخاذ ذلك القرار وخدمنا مصلحة الخصم . لقد كان محقا في تساؤله ولكن عزة النفس أو الحرج لا ينبغي أن تكون دوافع لاتخاذ القرارات التي ينبغي أن تصدر عن استراتيجية واضحة . وكانت استراتيجيتنا في هذه الحال استدعت إلغاء الاضراب . فاستغلال عدونا لموقفنا لا يعني أن تراجعنا لم يكن قرارا صائبا.

لم يصل قرار إلغاء الاضراب الى كل المناطق وتجاهلته بعضها وواصلت الاضراب . كان التجاوب في بورت إليزابيث، إحدى المعاقل الرئيسية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، أكبر في اليومين الثاني والثالث . ولكن عموما لم يكن هناك مجال لإخفاء فشل الاضراب . ومما زاد الطين بلة أن نصيب حزب الوطنيين من الأصوات في الانتخابات العامة ارتفع بنسبة ١٠٪ .

دارت مناقشات حامية حول الحكمة من الاعتماد على وسائل الضغط على الحكومة. هل كان ينبغي أن ننظم حملة لمنع العمال عن دخول أماكن العمل؟ رأى المتشددون أن ذلك سيساهم في نجاح الاضراب. كنت دائما من معارضي هذه الوسائل لأن من الأفضل الاعتماد على الدعم الشعبي النابع عن رغبة وحرية وإلا فهو دعم ضعيف ومؤقت. فالتنظيم يجب أن يكون ملجأ وليس سجنا لأعضائه . ولكن - على أي حال - مادام التنظيم أو الشعب وافق على استعمال وسائل الضغط فينبغي أن تستعمل أحيانا ضد الأقلية المخالفة للقانون من أجل مصلحة الأغلبية . ولا ينبغي للأقلية مهما كانت قادرة على التأثير أن تجهض أرادة الأغلبية.

أما داخل بيتي فقد حاولت اتباع سياسة مختلفة للضغط، ولكن دون جدوى . كانت السيدة التي تقوم على خدمتنا في البيت هي آيدا امتيمخولو Ida Mthimkhulu وهي في عمري تقريبا وتتكلم لغة السوتو وكنا نعاملها كأحد أفراد الأسرة . كنت أناديها بعبارة ودية هي كغيتسيدي Kgaitsedi أي "أختي" ، وكانت تدير شؤون البيت بانضباط عسكري، فكنا نمتثل لأوامرها وطلباتها بكل احترام، وغالبا ما كانت ترسلنا في مهمات خاصة بشؤون البيت فنؤديها بدون اعتراض.

كنت في اليوم السابق ليوم الاضراب أنقل آيدا وابنها البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة في سيارتي الى منزلها فطلبت منها أن تغسل بعض قمصاني وتكويها في اليوم التالي فقابلتني بصمت غير معهود ثم قالت بازدراء واضح:

- إنك تعلم جيدا أنني لن أستطيع أن ألبي طلبك.

سألتها في استغراب:

- لماذا؟

أجابت في ارتياح ونشوة:

- هل نسيت أنني أنا أيضا مضربة عن العمل غدا تضامنا مع أبناء شعبي وزملائي العمال؟

لاحظ إبنها ارتباكي فحاول تلطيف الجو بقوله إنك يا "عم نلسون" تعاملها دائما كأخت وليس كخادمة. استُفزت آيدا بما قال إبنها فالتفتت إليه في غضب قائلة:

- اسمعني جيدا. أين كنت يوم أن كنت أنا أكافح من أجل حقوقي في ذلك البيت؟ لولا أنني تصديت بقوة لهذا "العم نلسون" لم يكن ليعاملني اليوم كأخت.

لم تأت آيدا للعمل في اليوم التالي ولم تكو قمصاني.

- ٣٨ -

أثار موضوع تصريحات مرور النساء ضجة لا مثيل لها. فلم تتراجع الدولة عن قرارها بفرض تصريحات مرور للنساء ولم يثن ذلك النساء عن عزمهن في معارضة القرار، ولم يخدعهن تسمية الحكومة للتصريحات "دفاتر بيانات". كانت عقوبة عدم حمل التصريح عشرة جنيهات أو الحبس لمدة شهر.

وفي عام ١٩٥٧، وبفضل جهود الرابطة النسائية التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، شهدت البلاد رد فعل غاضبا على إصرار سلطات الدولة على أن تحمل النساء تصريحات مرور في كل الأوقات. أظهرت النساء قدرا كبيرا من الشجاعة والإصرار والحماس والجلد في معارضتهن للقرار وضربن مثلا رائعا لا مثيل له في الاحتجاج عليه. وأشاد الزعيم لوتولي بذلك إذ قال: "عندما تنضم النساء الى المشاركة الفاعلة في حركة النضال لن تستطيع أي قوة على وجه الأرض أن تقف أمام جهودنا لتحقيق الحرية في هذا الجيل".

شارك في الاحتجاج آلاف النساء في جنوب شرق ترانسفال وفي ستاندرتون Standerton وهايدلبيرغ Heidelberg وبالفور Balfour وغيرها من المدن والمناطق. وفي بورت إليزابيث أشرفت على تنظيم الاحتجاجات النسائية كل من فرانسيس بارد Frances Baard وفلورينس ماتوميلا Florence Matomela أثناء العطلة من محاكمة الخيانة. وفي جوهانسبيرغ تجمع عدد كبير من النساء في أكتوبر أمام المكتب الرئيسي لتصريحات المرور لمنع النساء من الحصول على تصريحات ومنع الموظفين من إصدارها فعطلوا الحركة في المكتب بالكامل، وبادرت الشرطة باعتقال مئات منهن.

كنت ذات مساء أتناول طعام العشاء مع ويني عندما أخبرتني بكل هدوء بأنها ستنضم في الصباح الى مجموعة من السيدات للاحتجاج أمام مكتب تصريحات المرور في أورلاندو. فوجئت بذلك الخبر وسعدت لما أبدته ويني من حماس للمشاركة في حركة النضال وأعجبت بشجاعتها، ولكنني أحسست بشيء من الوجل. لقد أصبحت ويني منذ زواجنا أكثر اهتماما بالسياسة وانضمت لفرع الرابطة النسائية في غرب أورلاندو التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وقد كنت أشجعها على كل ذلك.

قلت لويني إنني أرحب بمشاركتها ولكنني حذرتها من خطورة ما هي مقدمة عليه قائلا إنه سيغير مجرى حياتها تماما. ويني من عائلة موسرة نسبيا وقد حماها ذلك من بعض محن الحياة في جنوب أفريقيا وصعوباتها. فهي على الأقل لم تعرف الجوع في حياتها، وكانت قبل الزواج تختلط بعائلات ثرية مرفهة نسبيا ولم تعرف العيش على الكفاف الذي هو ديدن المناضلين.

وبينت لويني أنها لو اعتقلت ستطرد من وظيفتها - وكنا نعلم جيدا أن دخلها المتواضع هو مصدر عيشنا الوحيد - ويحتمل ألا تعمل مرشدة اجتماعية أبدا في حياتها بعد ذلك

لأن وصمة السجن لن تشجع المصالح العامة على توظيفها. وأخيرا، لأنها حامل، حذرتها من متاعب السجن البدنية وما يواجهه المرء فيه من ذل ومهانة. ربما كان رد فعلي شديدا ولكن مسؤوليتي نحوها كزوج وكقائد في حركة النضال تدفعني الى أن أكون معها واضحا إلى أبعد حد حيال عواقب الانخراط في العمل النضالي. انتابتني مشاعر متضاربة في هذا الشأن، إذ يندر ما تتطابق هموم الزوج والقائد في حالات من هذا القبيل.

ولكن ويني كانت صلبة، ويبدو أن تشاؤمي لم يزدها إلا إصرارا على موقفها. في اليوم التالي استيقظت مبكرا لإعداد طعام الفطور ثم ذهبنا معا الى بيت وولتر سيسولو لأعرفها بزوجته البيرتينا إحدى زعيمات حملة الاحتجاج. اتجهنا بعد ذلك الى محطة فيفيني Phefeni بأورلاندو حيث تجمعت النساء لركوب القطار الى جوهانسبيرغ. عانقتها مودعا وكانت قلقة ولكنها وطّدت العزم على الذهاب فصعدت القطار وأخذت تلوح بيدها من النافذة. انتابتني رهبة من أنها مقدمة على مرحلة محفوفة بالمخاطر ليس بمقدور أي منا التنبؤ بعواقبها.

احتشد أمام المكتب الرئيسي لتصريحات المرور في وسط جوهانسبيرغ عدة مئات من النساء من مختلف الأجيال. كانت فيهن من تحمل طفلها على ظهرها، ومن كانت ترتدي الملاحف التقليدية ومن كانت ترتدي الأزياء العصرية الأنيقة. كن يغنين ويهتفن، وسرعان ماطوقهن رجال الشرطة المسلحون فاعتقلن جميعا ونقلن في عربات الى مركز الشرطة بميدان مارشال. اعتقل في ذلك اليوم أكثر من ألف إمرأة، وكانت معنوياتهن عالية طول الوقت فصحن للصحافيين:

- أخبروا رؤساءنا بأننا لن نأتي للعمل غدا.

كنت على علم بتلك التفاصيل لكثرة ما ورد من طلبات على مكتب مانديلا وتامبو للمحاماة بالمرافعة عن السيدات اللاتي اعتقلن. اتجهت فورا الى ميدان مارشال لزيارتهن والسعي الى إطلاق سراحهن بكفالة. تمكنت من رؤية ويني فابتسمت ابتسامة عريضة عندما رأتني وتهللت أساريرها وكأنها تقدم لي هدية ثمينة تعلم جيدا أنها ستسعدني. أخبرتها بأنني فخور بها وعدت لفوري الى المكتب لما كان ينتظرني من أعمال وإجراءات قانونية لا بد من إنجازها.

مع نهاية اليوم الثاني ارتفع عدد المعتقلات الى ما يقرب من ألفي إمرأة أودعت غالبيتهن في سجن القلعة في انتظار المحاكمة، وترتب على ذلك مشاكل لا حصر لها ليس فقط بالنسبة لمكتبنا بل بالنسبة للشرطة وسلطات السجن. لم يكن مبنى السجن يتسع لكل ذلك العدد من النزلاء، وكان هناك نقص كبير في البطانيات والحصر والمراحيض والطعام. كان السجن مزدحما مليئا بالقاذورات. وبينما حرص كثيرون في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي - وأنا منهم - على إخراج السيدات من المعتقل بكفالة رأت ليليان أنغوي، رئيسة الرابطة النسائية، وهيلين جوزيف Helen Joseph، أمين عام الإتحاد النسائي لجنوب أفريقيا، أن تواجه السيدات أحكام السجن مهما كانت حتى تكون للاحتجاج مصداقية وفاعلية بين

الناس . حاولت مناقشة الموضوع بهدوء ولكنهما أصرتا على أن القضية شأن يخص النساء وعلى حزب المؤتمر الوطني الأفريقي - والأزواج القلقين - عدم التدخل . أشرت على ليليان أن نأخذ رأي المعتقلات أنفسهن فصاحبتني الى الزنزانات . اتضح أن كثيرا منهن غير مستعدات للبقاء في السجن ويرغبن في الخروج بكفالة فاتفقنا على حل وسط فحواه أن يبقى الجميع في السجن أسبوعين ثم نسعى بعد ذلك لإطلاق سراحهن بكفالة.

قضيت معظم وقتي خلال الأسبوعين التاليين في المحكمة لترتيب إجراءات الإفراج عن المعتقلات. استبد الضجر ببعضهن ومنهن من صبت جامّ غضبها عليّ . قالت لي إحداهن مرة :

- لقد مللت هذه القضية يا مانديلا، وإذا لم تنته القضية اليوم فلن أمثل أمام المحكمة.

تمكنا بمساعدة الأقارب والمنظمات الخيرية من جمع مبالغ كافية للإفراج عنهن جميعا في خلال أسبوعين.

لم تبد ويني أسوأ حالا مما كانت عليه قبل السجن، وإن كانت واجهت متاعب فلم تفصح لي عنها. نشأت صداقة بينها وبين فتاتين من الأفريكان من حراس السجن، أظهرتا لها التعاطف والاهتمام . وبعد خروجها من السجن دعونا الفتاتين لزيارتنا في بيتنا فركبتا القطار الى أولارندو . ونظرا الى عدم وجود مقصورات مخصصة للبيض في القطار - إذ لم يكن هناك بيض في أورلاندو - سافرت الفتاتان في مقصورة خاصة بغير الأوروبيين . كانتا في سن ويني تقريبا وكان الوئام بينهم واضحا، وكن يتسامرن ويتحدثن وكأنهن أخوات. تناولنا طعام الغداء ثم أخذتهما ويني في جولة حول المدينة . عبرت الفتاتان عن امتنانهما بالزيارة وأبدتا رغبة في تكرارها، ولكن شاءت الأقدار ألا يكون ذلك . فقد لفت مجيؤهما الى المدينة نظر كثيرين وانتشر خبر الزيارة . لم يكن ذلك يشكل مشكلة بالنسبة إلينا ولكنه كان سببا في فصلهما من العمل، ولم نرهما أو نسمع عنهما بعد ذلك أبدا.

- ٣٩ -

قضينا ستة أشهر بعد انتهاء الفحص التحليلي للقضية في يناير نستعد للمحاكمة الرسمية التي ستبدأ في أغسطس ١٩٥٨، شكلت الحكومة محكمة عليا خاصة برئاسة القاضي اف ال رومبف F L Rumpff وعضوية القاضي كينيدي Kennedy والقاضي لودورف Ludorf. لم يكن أي من أولئك القضاة البيض على صلة وثيقة بالحزب الحاكم مما يبعث على الثقة والأمل. فالقاضي رومبف رجل قدير يفوق في وعيه مستوى غالبية البيض في جنوب أفريقيا ولكن أشيع عنه أنه عضو في منظمة بروداربوند Broederbond وهي جميعة سرية تهدف الى تعزيز قوة الأفريكان. أما القاضي لودورف والقاضي كينيدي فكل منهما عضو بارز في الحزب الوطني، واشتهر كينيدي بأنه من مؤيدي عقوبة الشنق إذ حكم على ثلاثة وعشرين أفريقيا بالإعدام شنقا في جريمة قتل اثنين من البيض.

قبيل استئناف المحاكمة لجأت السلطات الى مناورة جديدة فأعلنت أن المحاكمة ستنتقل من جوهانسبيرغ الى بريتوريا Pretoria على بعد ستة وثلاثين ميلا وستعقد في كنيس يهودي سابق أعد خصيصا لذلك الغرض. كان كل المتهمين وفريق الدفاع مقيمين في جوهانسبيرغ مما يعني سفر الجميع يوميا الى بريتوريا بتكاليف أضافية من المال والوقت. لم يتمكن من الحفاظ على وظائفهم وأعمالهم سوى من كانت أماكن عملهم قريبة من المحكمة. كما كان الهدف من تغيير مقر المحاكمة التثبيط من عزيمتنا بالتفريق بيننا وبين أنصارنا ومشجعينا. إضافة الى ذلك فإن بريتوريا هي مقر الحزب الوطني ولا يكاد يكون لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وجود فيها.

اضطر غالبية المتهمين، وعددهم اثنان وتسعون، الى السفر الى بريتوريا في حافلة متداعية كراسيها من خشب كانت تنطلق عند السادسة صباحا كل يوم. وكانت الرحلة - ذهابا وإيابا - تستغرق نحو خمس ساعات يوميا، وهو وقت ثمين كان بإمكاننا الاستفادة منه في كسب قوتنا وقوت أولادنا.

كنا محظوظين لتولي فريق ممتاز من المحامين الدفاع عنا أمام المحكمة. ترأس الفريق إسرائيل مايسلز يساعده كل من برام فيشر وريكس ويلش Rex Welsh وفيرنون بيرانجيه وسيدني كينتريدج Sydney Kentridge وتوني أوداود Tony O'Dowd ودجي نيكولاس G Nicholas. اثبت فريق الدفاع قدرته منذ اليوم الأول باستخدامه حيلة قانونية كنا اتفقنا عليها معهم مسبقا. نهض إسرائيل ماسلز من مقعده في حركة درامية وطلب تنحي كل من القاضيين لودورف ورومبف بحجة تعارض المصالح مما يؤثر على حيادهما في هذه القضية. أثار ذلك همهمة في أرجاء القاعة، واستطرد الدفاع فبين أن رومبف تولى الحكم في قضية التحدي عام ١٩٥٢ ولذا فقد اتخذ موقفا معلنا في بعض جوانب القضية الراهنة وعليه فليس من مصلحة العدالة أن يتولى القضاء فيها. وأشار أيضا الى أن لودورف متحيز لأنه

تولى الدفاع عن الحكومة عام ١٩٥٤ لصالح قوات الشرطة عندما تقدم هارولد وولب Harold Wolpe بطلب من المحكمة لطرد الشرطة من أحد اجتماعات مؤتمر الشعب.

كانت استراتيجية محفوفة بالخطر . فهي ربما كانت كفيلة بأن تضمن لنا كسب الجولة الحالية ولكنها ربما كلفتنا المعركة كلها على المدى البعيد . وبينما كان لودورف وورومبف من أنصار الحزب الوطني كان في البلد محامون أسوأ منهم بكثير . كنا في الواقع نأمل أن يتنحى لودورف وأن يبقى رومبف الذي كنا نعتبره وسيط خير . فرومبف كان دائما يقف الى جانب القانون بغض النظر عن موقفه أو رأيه السياسي ونحن كنا - من وجهة النظر القانونية البحتة - على يقين من براءتنا.

افتتحت المحاكمة صباح الإثنين وكان الجو مفعما بالترقب . دخل القضاة الثلاثة في أثوابهم الحمراء الزاهية وأعلن القاضي لودورف عن انسحابه قائلا إنه غفل تماما عن القضية السابقة . أما رومبف فرفض التنحي ولكنه أكد على أن حكمه في قضية التحدي لن يؤثر على حكمه في هذه القضية، وكنا سعداء بقراره . عينت السلطات بديلا للودورف القاضي بيكار Mr Justice Bekker الذي ارتحنا له منذ اللحظة الأولى ولم تكن له علاقات بالحزب الوطني.

بعد نجاح المناروة الأولى لجأنا الى مناورة ثانية لا تقل عنها خطورة فشرعنا في نقاش طويل للطعن في لائحة الاتهام نفسها . قلنا إن التهم عائمة فضفاضة ينقصها التخصيص، وإنه من الضروري للإدعاء كي يثبت جريمة الخيانة العظمى أن يقدم أمثلة قاطعة على وجود تخطيط لأعمال الشغب وعلى وجود سبق إصرار وتعمد لاستعمال العنف . اتضح بعد نقاش طويل أن القضاة الثلاثة موافقون على ما طرحناه، وفي أغسطس سحب الادعاء اثنتين من التهم، وفي ١٣ أكتوبر - أي بعد شهرين من الجدال القانوني - أعلنت الدولة فجأة سحبها للائحة الاتهام بكاملها . كان ذلك أكثر مما كنا نتوقع ولكن علمنا بالوسائل الخبيثة التي تتبعها الدولة جعلنا لا نتسرع في الاحتفاء . فبعد شهر فقط أصدر الادعاء لائحة اتهام جديدة بصياغة أكثر دقة وأعلن أن المحاكمة ستستأنف بحق ثلاثين من المتهمين الأصليين وأن البقية سيحاكمون في وقت لاحق . كنت ضمن الثلاثين وجميعهم أعضاء في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

أصبح على الادعاء بموجب لائحة الاتهام الجديدة إثبات سبق الإصرار والتعمد لاستعمال العنف. وأشار محامي الادعاء أوزوولد بيراو الى أن المتهمين كانوا يعلمون أن تحقيق أهداف ميثاق الحرية يعني "بالضرورة الإطاحة بالدولة باستعمال العنف" . تواصل الجدال القانوني حتى منتصف عام ١٩٥٩ عندما رفضت المحكمة بصورة نهائية دعوى الدولة ضد واحد وستين من المتهمين . شهدت قاعة المحكمة على مدى شهور طويلة تبادل أخبث الحيل والمناورات القانونية الممكنة بين الطرفين، وظلت الدولة على عنادها رغم تمكن الدفاع مرارا وتكرارا من كشف زيف ادعاءات الحكومة . وكان وزير العدل أكد على أن "المحاكمة سوف تستمر ولو كلفت ملايين الجنيهات، فلا يهم الى أي مدى تستمر" .

في اليوم الرابع من فبراير ١٩٥٨ عدت الى البيت بعد منتصف الليل بقليل فوجدت ويني في نوبة من ألم شديد يوشك أن يجيئها المخاض. أسرعت بنقلها الى مستشفى باراغوانات حيث أخبرنا أن موعد الولادة سيكون بعد عدة ساعات. انتظرت في المستشفى حتى حان موعد ذهابي الى المحاكمة في بريتوريا، وبعد انتهاء الجلسة مباشرة عدت مسرعا الى المستشفى بصحبة دوما نوكوى لنجد الوالدة والمولودة بخير وفي صحة جيدة. حملت ابنتي الجديدة بين ذراعي وقلت إنها ماندیلا أصيلة. كان أحد أقربائي وهو الزعيم امدينغي Mdingi اقترح تسميتها زيناني Zenani ومعناه "ماذا جلبت الى الدنيا؟"، وهو اسم شاعري ينطوي على معنى التحدي ويوحي بواجب المرء أن يساهم بجهد ما لصالح المجتمع. وهو اسم يوجب على صاحبه أن يثبت أنه جدير بحمله.

قدمت أمي من ترانسكاي لمساعدة ويني والعناية بها وقررت تعميد زيناني على طريقة الكوسا فدعت طبيبا شعبيا لغسل الوليدة بالأعشاب على الطريقة التقليدية. عارضت ويني ذلك بشدة قائلة إنها طريقة غير صحية وقديمة ودهنت زيناني بدلا من ذلك بزيت الزيتون وغمرت بدنها الصغير بمسحوق جونسون بايبي وأطعمتها زيت سمك القرش.

بمجرد أن تعافت ويني عمَدتُ الى تعليمها قيادة السيارة التي كانت في تلك الأيام مهمة الرجال فقط. فنادرا ما ترى سيدة - وخاصة الأفريقية - وراء عجلة القيادة. كانت ويني بشخصيتها المستقلة مصرة على تعلم القيادة، وهو أمر مفيد للأسرة نظرا لغيابي المتكرر عن البيت، ولكن ما إن شرعت في تدريبها على أبسط مبادىء القيادة حتى نشبت مشاجرات حادة بيننا، ولست أدري إن كان ذلك عائدا لضيق صدري أم لعنادها. تجاهلت تعليماتي أكثر من مرة فاندفعت خارج السيارة في عاصفة من الغضب وعدت ماشيا الى البيت. ولكن يبدو أن ويني أحرزت تقدما أفضل بدون إرشاداتي فواصلت قيادة السيارة بمفردها في المدينة لمدة ساعة تقريبا. ما إن عادت ويني الى البيت حتى هدأت سورة غضبي وتصالحنا، ولكننا كثيرا ما نتذكر ذلك اليوم المشهود للتندر والضحك.

الزواج والأمومة فرضا على ويني نمطا جديدا من الحياة، فقد كانت في الخامسة والعشرين من العمر ولم تستكمل تكوينها بعد. أما أنا فقد تشكلت شخصيتي ونشأت على العناد. كنت أعلم أن كثيرين كانوا ينظرون إليها على أنها "زوجة مانديلا"، ولا شك في أنها واجهت في ظل شخصيتي صعوبة كبيرة في أن تستقل بشخصيتها، ولذا فقد بذلت قصارى جهدي لأعينها على أن تقوم في هذه الحياة بإمكانياتها وقدراتها الخاصة وهو ما حققته فعلا بدون أي تدخل أو مساعدة مني.

- ٣٠ -

السابع من أبريل ١٩٥٩ هو الذكرى السنوية لنزول يان فان رايبيك على شاطيء الكيب. وهو اليوم الذي ولدت فيه منظمة سياسية جديدة منافسة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي - أكبر منظمة أفريقية سياسية في جنوب أفريقيا - ومناهضة لسيطرة البيض التي بدأت قبل ثلاثة قرون. أعلن عن إنشاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي Pan-Africanist Congress (PAC) في اجتماع عقد بالقاعة العامة في أورلاندو حضره مئات الممثلين من مختلف أنحاء جنوب أفريقيا. والحزب منظمة أفريقية خالصة تعلن رفضها الكامل للتعددية العرقية التي تقوم عليها سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. لقد توصل مؤسسو الحزب الجديد إلى النتيجة نفسها التي توصلنا إليها نحن عندما أسسنا رابطة الشباب قبل خمس عشرة سنة وهي أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فقد روح المواجهة والقدرة على الصدام والتحدي وأصبح في عزلة عن الجماهير وخاضعا لسيطرة غير الأفريقيين.

انتخب الحزب روبرت سوبوكوى Robert Sobukwe رئيسا للحزب وبتلاكو ليبالو Potlako Leballo أمينا عاما وهما عضوان سابقان في رابطة الشباب التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وأصدر دستورا وبيانا سياسيا إضافة الى الخطاب الذي ألقاه سوبوكوى في الاجتماع التأسيسي والذي دعا فيه الى "حكومة للأفريقيين من الأفريقيين والى الأفريقيين". كما أعلن الحزب أنه يسعى الى الإطاحة بسيطرة البيض وإقامة حكومة أفريقية الأصل اشتراكية المضمون ديمقراطية الشكل. كما رفض الحزب الشيوعية بجميع أشكالها واعتبر البيض والهنود "أقليات أجنبية" أو "دخيلة" لا مكان لها في جنوب أفريقيا التي هي بلد للأفريقيين دون سواهم.

لم يكن ميلاد حزب المؤتمر القومي الأفريقي مفاجئا بالنسبة لنا. فقد ظلت أصوات القوميين الأفريقيين ترتفع عالية داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لأكثر من ثلاث سنوات. وفي عام ١٩٥٧ أخفق القوميون الأفريقيون في المؤتمر العام في محاولة لحجب الثقة عن اللجنة التنفيذية لفرع الحزب في ترانسفال، كما عارضوا مقاطعة الانتخابات العامة عام ١٩٥٨ وطُرد زعيمهم بوتلاكو ليبالو من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وفي المؤتمر العام في نوفمبر ١٩٥٩ أعلنت مجموعة من القوميين الأفريقيين معارضتها لميثاق الحرية بحجة تعارضه مع مباديء القومية الأفريقية.

وزعم الحزب الجديد أنه استلهم مبادئه من روح المباديء التأسيسية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي عام ١٩١٢، وأن آراءه مستمدة من مشاعر القومية الأفريقية التي عبر عنها أنتون ليمبيدى وايه بي امدا إبان تأسيس رابطة الشباب عام ١٩٤٤، وتبنى حزب المؤتمر القومي الأفريقي مباديء وشعارات تلك الحقبة: "أفريقيا للأفريقيين" و "الولايات المتحدة

الأفريقية" . غير أن السبب المباشر للانفصال هو معارضة المؤسسين لما جاء في ميثاق الحرية ولوجود البيض والهنود في قيادة تحالف المؤتمر . كما كانوا يعارضون التقارب العرقي بين التجمعات المختلفة لاعتقادهم بأن البيض الشيوعيين والهنود قد بسطوا سيطرتهم على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

كنت على معرفة جيدة بجميع مؤسسي الحزب الجديد . فروبرت سوبوكوى صديق قديم، وكان مثالا للرجل المهذب وشخصية اكادمية مرموقة كان زملاؤه يلقبونه بالأستاذ 'Prof' وكنت أكن له عميق الإحترام لاستعداده الراسخ للتضحية بكل ما يملك في سبيل ما يؤمن به . كما كان كل من بوتلاكو ليبالو وبيتر رابوروكو Peter Rabopoko وزيفانيا موتوبينغ Zephania Mothopeng كذلك أصدقاء وزملاء لي . ولكنني دهشت – بل فزعت – لانضمام مرشدي ومثلي الأعلى السياسي غور راديبي لحزب المؤتمر القومي الأفريقي، إذ أثار استغرابي أن ينضم عضو سابق في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الى تنظيم يرفض الماركسية رفضا باتا.

انضم أغلب الأعضاء للحزب الجديد بدافع حزازات أو خيبة أمل شخصية ولم يكن همهم الدفع بحركة النضال بل إرضاء لمشاعر الغيرة أو الانتقام في نفوسهم . لقد آمنت دائما بأن النضال من أجل الحرية يفرض على الإنسان أن يكبت مشاعره الشخصية التي تميزه عن الآخرين وتحول دون أن يصبح جزءا من حركة جماهيرية . فالمناضل يكافح من أجل الملايين وليس من أجل فرد واحد، وهذا لا يعني أن يصبح الإنسان آلة أو أن يتخلى عن جميع أحاسيسه ودوافعه الشخصية، ولكنه يعني أن على المناضل أن يخضع مشاعره الخاصة لمشاعر الحركة خضوعا كاملا كما يخضع شؤون أسرته لشؤون الأسرة الكبرى، أسرة الشعب.

لم تكن آراء حزب المؤتمر القومي الأفريقي وتصرفاته في رأيي ناضجة . فقد ورد عن أحد الفلاسفة قوله: "إذا لم يبدأ المرء حياته متحررا (ليبراليا) في شبابه وينتهي محافظا في شيخوخته فاعلم أن هناك شذوذا في شخصه" . أنا لست محافظا ولكن المرء ينضج مع الوقت فيرى بعض أفكاره التي كان يحملها أيام الشباب قاصرة وتفتقر الى الخبرة. كنت متعاطفا مع آراء القوميين الأفريقيين وكنت يوما ما أشاركهم إياها، ولكنني رأيت أن النضال من أجل الحرية يفرض على المرء أن يقدم تنازلات وأن يلتزم بضوابط ربما كان يمقتها في شبابه عندما كان غِرّا متسرعا.

طرح حزب المؤتمر القومي الأفريقي برنامجا مثيرا وطموحا للغاية يعِد بحلول سريعة لعل أكثرها إثارة – وسذاجة – هو أن التحرير سوف يتحقق قبل نهاية عام ١٩٦٣ وأن على الأفريقيين الاستعداد لتلك اللحظة التاريخية الحاسمة . فقد وعد الحزب بأن الشعب: "سيخطو الخطوة الأولى في عام ١٩٦٠ وفي عام ١٩٦٣ سيخطو الخطوة الأخيرة نحو الحرية والاستقلال" . لا شك أن هذ الوعد بعث في الكثيرين ممن ملوا الانتظار روح الأمل والحماس، ولكن من الخطر على أي تنظيم أن يقطع على نفسه وعودا ليس بإمكانه الوفاء بها.

نظرا لعداء حزب المؤتمر القومي الأفريقي للشيوعية فقد أصبح الإبن المدلل للصحافة الغربية ووزارة الخارجية الأمريكية التي أشادت بميلاده خنجرا في قلب اليسار الأفريقي. حتى الحزب الوطني رأى في الحزب الجديد حليفا مستقبليا لأن الوطنيين وجدوا فيه انعكاسا لعدائهم للشيوعية وتأييدا لسياستهم الخاصة بالتنمية المنفصلة للجماعات العرقية. فالوطنيون أيضا كانوا يعارضون التقارب بين الجماعات العرقية ولذا فقد عمّد كل من الحزب الوطني لجنوب أفريقيا ووزارة الخارجية الأمريكية الى التهويل من حجم التنظيم الجديد وأهميته بما يحقق أغراضهم الخاصة.

وبينما كنا نرحب بالشخصيات التي أضافها حزب المؤتمر القومي الأفريقي لموكب النضال فقد ظل دور الحزب في أغلب الأحيان تقريبا دور المخرب. فقد شق القوميون الصف في لحظة حرجة في مسيرة النضال ولم يكن من السهل تجاهل ذلك الموقف. كانوا يوجهون الناس الى الالتحاق بأماكن عملهم في الوقت الذي كنا ندعوهم الى الاضراب، وكانوا يردون على كل تصريحاتنا واعلاناتنا بتصريحات واعلانات مضللة. ومع ذلك، ورغم أن مؤسسي الحزب كانوا منشقين عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، فقد راودني الأمل في امكانية التوحيد بين الحزبين اعتقادا مني بأنه عندما تهدأ سوْرة المجادلات فإن الأرضية الأساسية المشتركة للنضال الوطني ستجمع شملنا من جديد. وبناء على هذا الإحساس أوليت اهتماما خاصا لما يصدر عن الحزب الجديد من تصريحات وسياسات ونشاطات بحثا عن مواطن الاتفاق بيننا.

بعد الإعلان عن إنشاء الحزب اتصلت بسوبوكوى وطلبت منه تزويدي بنسخة من خطابه الذي ألقاه عندما اختير رئيسا للحزب ونسخة من دستور الحزب وغيره من المواد المتعلقة بسياساته. بدا لي أن سوبوكوى كان سعيدا بطلبي واهتمامي ووعد بتزويدي بما طلبت، ولكنني قابلته بعد ذلك بفترة وذكرته بطلبي فأجاب أن المواد في طريقها إليّ. التقيت بعد ذلك ببوتلاكو ليبالو فقلت له:

– لقد وعدتموني بإرسال أدبيات الحزب ولكنكم لم تفوا بوعدكم.

أجابني بوتلاكو بقوله:

– لقد قررنا ألا نزودك بما طلبت لأننا نعلم جيدا أنك لن تستعملها إلا للهجوم علينا.

صححت له انطباعه الخاطيء فلانَ وأعطاني كل ما طلبت.

- ٣١ -

في عام ١٩٥٩ أصدر البرلمان قانون تعزيز الحكم الذاتي للبانتو Promotion of Bantu Self-Government Act الذي انبثقت عنه ثمانية مواطن عرقية من البانتوستان، وكان ذلك أساس ما سمته الدولة Groot Apartheid أي التفرقة العنصرية الشاملة. وأصدرت الحكومة في الوقت نفسه قانون توسيع التعليم الجامعي Extension of University Education Act وهو اسم خادع لخطوة أخرى نحو التفرقة العنصرية الشاملة لحرمان غير البيض من الالتحاق بالجامعات "المفتوحة" لكل الأجناس. وقال دو فيت نيل de Wet Nel وزير إدارة وتنمية البانتو في تقديمه للقانون إن خير كل فرد ومجموعة سكانية وسعادتهما إنما تتحقق وتنمو داخل مجتمعهما القومي الخاص بهما، وإن الأفريقيين لا يمكن لهم بأي حال من الأحوال الاندماج في مجتمع البيض.

إن الأسس غير الأخلاقية وغير الإنسانية التي تقوم عليها سياسة البانتوستان - التي ستوزع سبعين في المائة من الأرض على ثلاثة عشرة في المائة فقط من السكان - كانت ظاهرة للعيان. ورغم إقامة ثلثي الأفريقيين فيما يسمى مناطق بيضاء، فهم لا يملكون الجنسية - بناء على السياسة الجديدة - الا في "مواطنهم القبيلية". فلا حرية لهم في مناطق البيض وغير مستقلين في مناطقهم العرقية الخاصة بهم. ومع ذلك فقد قال فيروورد إن سياسة البانتوستان سوف توجد من الود والتآلف ما يحول دون تحول المناطق العرقية الى معاقل للتمرد والثورة.

العكس في الواقع هو الصحيح. كانت مناطق الريف تشهد غليانا. فقد تصدت عدة مناطق لما يسمى سلطات البانتو وعلى رأسها زيروست Zeerust بقيادة الزعيم ابرام موالو Abram Moilaw ومساعده المحامي البارز جورج بيزوس. هذه المناطق لا تحظى باهتمام اعلامي كاف ولذا استغلتها الحكومة لإخفاء وحشية سياساتها وممارساتها. اعتقل عشرات من المواطنين وحوكموا وسجنوا وطردوا وضربوا وعذبوا وقتلوا. وفي سيخوخونيلاد Sekhukhuneland تمرد السكان واعتقل الزعيم الأكبر موروأموتشي سيخوخونى Moroamotshe Sekhukhune وغودفري سيخوخونى Godfrey Sekhukhune وغيرهما من الأعيان ونفي آخرون. كما اغتيل أحد زعماء سيخوخونى وهو كولانى كغولوكو Kolane Kgoloko للاشتباه في عمالته للحكومة. وفي عام ١٩٦٠ بلغت مقاومة سيخوخونيلاند درجة التحدي ورفض السكان دفع الضرائب للحكومة.

لعبت فروع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في زيروست وسيخوخونيلاند دورا بارزا في تلك الاحتجاجات، ورغم القمع تشكلت عدة فروع جديدة للحزب في زيروست تمكن أحدها من تجنيد نحو ألفي عضو جديد. وقد كانت سيخوخونيلاند وزيروست أول المناطق التي منعت فيها الحكومة نشاط حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مما يدل على قوته فيها.

كما اندلعت موجات الاحتجاج في بوندولاند حيث اعتدى المواطنون على عملاء الحكومة وقتلوا عددا منهم . وقاومت كل من تيمبولاند وزولولاند بشدة حيث تعرض المواطنون للضرب والاعتقال والترحيل والنفي، وكانت المنطقتان من آخر المناطق التي استسلمت . أما في تيمبولاند فقد ظلت المقاومة متواصلة منذ عام ١٩٥٥ وكان ساباتا من بين المشاركين في ذلك .

ومن أكثر ما آلمني شخصيا أن الحنق الجماهيري في ترانسكاي كان موجها ضد قريبي وقدوتي كيه دي ماتانزيما (داليونغا). فلم يكن هناك من شك في أن داليونغا كان متعاونا مع الحكومة، وقد ذهبت كل جهودي لثنيه عن ذلك على مدى عدة سنوات أدراج الرياح. فقد وردت أنباء بأن محاربين تابعين لماتانزيما أحرقوا قرى كانت معارضة له وقد جرت عدة محاولات لاغتياله . ومن المؤلم كذلك أن والد ويني كان من أنصار ماتانزيما ومن المؤيدين الراسخين للحكومة، وكانت ويني أكثر من أحس بصعوبة الموقف إذ كان أبوها وزوجها في معسكرين متنافرين حول قضية واحدة . كانت تحب أباها ولكنها تبغض مواقفه السياسية.

يزورني في أورلاندو عدد كبير من رجال القبائل وأبناء العشيرة من ترانسكاي يشتكون من زعمائهم المتعاونين مع الحكومة . كان ساباتا من المعارضين لنظام سلطات البانتو ولم يحِد عن موقفه، ولكن زواري كانو يخشون من أن ماتانزيما سيعزله وهذا ما حدث فعلا. وقد زارني دالوينغا نفسه أثناء محاكمة الخيانة وأخذته معي الى بريتوريا فقدمه المحامي إسرائيل مايزلس لهيئة القضاة فأقعدوه في كرسي الشرف . لكنه لم يلق الاحترام نفسه خارج المحكمة أو بين المتهمين، وسأل بعضا ممن يعتبرونه خائنا عن سبب معارضتهم للتنمية العرقية المنفصلة . وقد علّق ليليان انغوي على الموقف بقوله: "يا الله، إنه لرجل استفزازي حقا" .

- ٣٣ -

يقول المثل: طواحين القدَر تدور ببطء شديد. ولكنها ليست أبطأ من جهاز القضاء في جنوب أفريقيا. ففي الثالث من أغسطس ١٩٥٩ وبعد مرور سنتين وثمانية أشهر على اعتقالنا، وبعد سنة كاملة من الحيل والمناورات القانونية، بدأت المحاكمة الرسمية في الكنيس اليهودي العتيق في بريتوريا. فقد وجهت إلينا التهم رسميا، وكنا ثلاثين متهما، ورفضنا جميعا الاعتراف بها.

تضمن فريق الدفاع هذه المرة كذلك كلا من إسرائيل مايزلس رئيسا وعضوية سيدني كينتريدج وبرام فيشر وفيرنون بيرانجيه، وانطلقت المحاكمة بخطوات جادة بعد انتظار طويل. قدم الادعاء خلال الشهرين الأولين نحو ألفي وثيقة أدخلت في ملف القضية واستدعى مائتين وعشرة شهود منهم مائتان من أعضاء القسم الخاص. وأقر هؤلاء بالاختفاء في خزانات المنازل والمكاتب وتحت الأسرة، والتظاهر بأنهم أعضاء في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وباللجوء الى كل أنواع التزييف والخداع من أجل الحصول على معلومات عن الحزب ونشاطاته. ورغم ذلك فلم تكن غالبية الوثائق والخطب والمواد الأخرى التي قدمها الادعاء كأدلة إثبات مواد سرية بل كانت معلنة ومتوفرة للجميع. وكما هو الحال في الدورة السابقة كانت الأدلة عبارة عن كتب وأوراق ووثائق وضعت الشرطة يدها عليها خلال المداهمات الكثيرة التي قامت بها لبيوت ومكاتب المتهمين ما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٦ بالإضافة الى ملاحظات دونها رجال الشرطة في اجتماعات عامة عقدت خلال الفترة نفسها. وكما هو الحال في المرة السابقة كانت تقارير شرطة الأمن مقتضبة ومشوشة ومغلوطة. ومن النكات التي كنا نتبادلها آنذاك أنه بفعل رداءة توزيع الصوت في قاعة المحكمة وعدم دقة تقارير رجال الأمن التابعين للقسم الخاص فسوف نُغرم بكلام لم نقله ونسجن بكلام لم نسمعه ونشنق لأعمال لم نقم بها.

كان يسمح لنا أثناء فترة الغداء بالجلوس في الحديقة الضخمة التابعة لمقر الحاخامات المجاور حيث كانت تقدم لنا وجبات الطعام التي تعدها السيدة المهيبة تاياناغي بيللاى Thayanagee Pillay ومجموعة من صديقاتها. كن يطبخن الأكل الغني بالتوابل على الطريقة الهندية كل يوم ويقدمن لنا الشاي والقهوة والشطائر في الاستراحات. كانت تلك الفترات بمثابة نزهة نستريح خلالها من جو المحكمة المتوتر وفرصا للنقاش وتبادل الآراء ووجهات النظر. وكانت جلساتنا في ظل أشجار الجركَرَنْدة من أمتع لحظات تلك الفترة التي كانت في الحقيقة اختبارا لقدرتنا على التحمل أكثر منها محاكمة من أجل العدالة.

بينما كنا نستعد للذهاب الى المحكمة صباح الحادي عشر من أكتوبر سمعت في الإذاعة خبر وفاة محامي الادعاء أوزوولد بيراو Oswald Pirow إثر إصابته بسكتة دماغية. كانت

وفاته انتكاسة كبيرة للحكومة إذ أضعف غيابه منذ ذلك التاريخ من فاعلية فريق الادعاء وقوته. وفي المحكمة أبّن القاضي رومبف في ذلك اليوم بيراو تأبينا بليغا وأثنى على قدراته القانونية والقضائية. ورغم أن غيابه كان في صالحنا لم نتفاءل كثيرا لموته فقد نشأت بيننا وبينه علاقة حميمة لتمتعه - رغم آرائه السياسية المتطرفة - بكثير من مظاهر الشفقة والانسانية ولتحرره شخصيا من روح العنصرية التي كانت مستبدة بالحكومة التي يمثلها. وكان - خلافا لتوجهاته السياسية العنصرية - غالبا ما يشير إلينا بعبارة "أفريقيين" في الوقت الذي كان محامونا أنفسهم أحيانا يشيرون إلينا بعبارة "السكان الأصليين". أجل، لقد شعرنا بالتكامل في عالمنا الصغير ذاك داخل الكنيس العتيق كلما دخلنا القاعة في الصباح ووجدنا بيراو يقرأ صحيفة نيو أوردر Nuwe Order اليمينية والى الجانب الآخر برام فيشر يتصفح جريدة نيو آيدج New Age اليسارية. كما أن تبرع بيراو لفريق الدفاع بوقائع الفحص التمهيدي للقضية المتكون من أكثر من مائة مجلد بدون مقابل كان بادرة كريمة وفّرت علينا مصاريف طائلة. تولى قيادة فريق الادعاء بعد ذلك المحامي دو فوسde Vos ولكنه لم يبلغ ما بلغه سلفه من بلاغة وذكاء في الطرح والجدال.

اختتم الادعاء عرض التهم بعد وفاة بيراو بزمن قصير وشرع في الاستماع الى أقوال الشهود بدءا بالأستاذ ماري الخبير في الشيوعية الذي أنهك واتضح مدى جهله بالموضوع خلال الفحص التمهيدي للقضية. وبعد استجواب مرير من قبل مايزلس أقر ماري بأن ميثاق الحرية وثيقة إنسانية تمثل تعبيرا عن طموحات غير البيض وردود فعلهم الطبيعية على الأوضاع القاسية في جنوب أفريقيا.

لم يكن ماري شاهد الادعاء الوحيد الذي أخفق في تأييد موقف الدولة. ورغم الأكداس المكدسة من الأدلة وأقوال شهود الخبرة التي لا حصر لها عجز الادعاء عن تقديم أي أدلة قانونية سليمة تثبت أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي كان يخطط لأعمال عنف. وكان ذلك واضحا لدى فريق الحكومة كل الوضوح. ولكن في شهر مارس أبدى الادعاء دفعة جديدة من روح الثقة إذ أعلن عن أنه سيبرز أقوى دليل لديه يدين المتهمين. مهدت الحكومة لذلك الحدث المثير بضجة كبيرة في الصحافة وفي اليوم المعلوم أسمع الادعاء المحكمة تسجيلا صوتيا لخطبة ألقاها روبرت ريشا Robert Resha أمام عدد من المتطوعين في ترانسفال عام ١٩٥٦ وقبل بضعة أسابيع من اعتقالنا. عم الصمت قاعة المحكمة ورغم رداءة صوت المسجل والضوضاء المصاحبة للتسجيل كانت كلمات روبرت واضحة بما فيه الكفاية، وكان من ضمن ماسمعناه يقول الآتي:

> إذا كنت منضبطا ويطلب منك التنظيم (الحزب) ألا تلجأ الى العنف فيجب ألا تلجأ الى العنف. أما إذا كنت متطوعا حقا وطُلب منك أن تستخدم العنف فعليك أن تكون عنيفا بأقصى درجة، وعليك أن تقتل وتقتل وتقتل. هذا كل ما في الأمر.

وهكذا ظن الادعاء أن ملف القضية قد قفل، وأبرزت الصحف كلمات ريشا بالخط العريض ورددت ووجهة نظر الحكومة ومشاعرها. كشفت تلك العبارات - من وجهة نظر

الادعاء - عن النوايا الحقيقية الخفية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وعرّت إدعاء الحزب المعلن بنبذ العنف. ولكن كلمات ريشا في واقع الأمر تشكل معضلة حقيقية. فهو متحدث بارع وإن كان انفعاليا وعاطفيا، ولم يكن حكيما في اختيار كلماته وتعبيراته، ولكن - كما أشار محامي الدفاع - كان ريشا يؤكد على أهمية الانضباط وضرورة التزام المتطوع بما يطلبه منه الحزب مهما كانت طبيعة العمل المطلوب منه. وأكد شهود الدفاع مرارا وتكرارا على أن كلمات ريشا وضعت في غير سياقها الصحيح ولا تمثل السياسة الرسمية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

اختتم الادعاء عرضه في العاشر من مارس ١٩٦٠ وجاء دور الدفاع ليقدم الشاهد الأول بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ. ظلت معنوياتنا فاترة لعدة أشهر ولكن ما إن شرعنا في الإستعداد للإدلاء بأقوالنا حتى وجدنا أنفسنا متحفزين لمواجهة الخصم الذي كنا نداريه ونتقي هجماته لفترة طويلة من الزمن.

ظهرت في الصحافة تكهنات كثيرة بأن أول شهود الإثبات هو الزعيم لوتولي ويبدو أن الحكومة اقتنعت بذلك أيضا إذا تملك فريق الادعاء الرعب عندما تقدم الشاهد الأول يوم ١٤ مارس وكان الدكتور ويلسون كونكو وليس الزعيم لوتولي.

وكونكو هو إبن لأحد رعاة البقر من الزولو وينتمي الى منطقة إزوبو Ixobo الخلابة بإقليم ناتال. كان طبيبا وهو أحد مؤسسي رابطة الشباب ومن الذين شاركوا مشاركة فعالة في حملة التحدي، وهو الأمين المالي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. سُئل ابتداء عن تفوقه في الدراسة بجامعة ويتس وعن تخرجه من كلية الطب متفوقا على جميع أبناء وبنات البيض المرفهين. وأحسست أثناء استعراض مؤهلات كونكو أن القاضي كينيدي وهو أيضا من إقليم ناتال قد انتابه شعور بالفخر والإعتزاز. فأهل ناتال معروفون بولائهم لإقليمهم وربما تجاوزت المشاعر المشتركة التي تربطهم بالإقليم كل اعتبارات اللون والجنس. يعتبر كثير من أهل ناتال في الواقع أنفسهم زولو بيض. والقاضي كينيدي يعطي الإنطباع بأنه رجل منصف وأحسست من خلال أقوال ويلسون كونكو أن كينيدي لم يعد ينظر إلينا كمشاغبين متهورين ولكن كرجال لنا طموحات مشروعة بإمكاننا المساهمة في تقدم بلادنا إذا ما أتيحت لنا الفرصة. بعد فراغ كونكو من الإدلاء بشهادته والاشارة الى بعض إنجازات كونكو سُمع القاضي كينيدي يقول بلغة الزولو التي كان يتقنها:

- وهكذا نحن أبناء الزولو!!

كان الدكتور كونكو شاهدا هادئا رصينا بيّنا، وكان لشهادته أثر كبير في تأكيد التزام حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بنبذ العنف واستخدام الوسائل السلمية.

كان الزعيم لوتولي الشاهد الثاني، وقد ترك انطباعا عميقا في نفوس الحاضرين. كان يعاني من ضغط الدم فقررت المحكمة عقد جلساتها في الصباح فقط خلال الفترة التي كانت تستمع فيها لأقواله التي امتدت لما يقرب من ثلاثة أسابيع. قدم الزعيم لوتولي عرضا

وافيا لنشأة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وتطور سياساته بأسلوب سلس وواضح، وقد أضفت خلفيته كزعيم ومدرس سابق جوا من الوقار والثقة على أقواله. وكان لوتولي كمسيحي متدين أفضل من يتحدث عن جهود الحزب المخلصة من أجل تحقيق الوفاق والوئام بين الأجناس والأعراق في جنوب أفريقيا.

وأكد الزعيم على إيمانه بالخير الذي تنطوي عليه الفطرة البشرية مشيرا الى أن العوامل الإنسانية والأخلاقية والضغوط الاقتصادية من شأنها أن تؤثر على نفوس البيض في جنوب أفريقيا وقلوبهم. وأشار في معرض حديثه عن سياسة اللاعنف التي انتهجها الحزب الى الفرق بين "نبذ العنف" و "رفض حمل السلاح". فالذي يرفض حمل السلاح يرفض الدفاع عن نفسه حتى إن اعتدي عليه بالقوة، ولكن ذلك ليس بالضرورة موقف من ينبذ العنف. فالأفراد والأمم - حتى تلك التي تنبذ العنف - ربما وجدت نفسها يوما مضطرة الى الدفاع عن نفسها إن تعرضت للهجوم.

وبينما كنت أستمع لأقوال كونكو ولوتولي خطر على بالي أنها ربما كانت أول مرة يستمع فيها القضاة أعضاء هيئة المحكمة لهذا الكلام بدلا مما اعتادوا سماعه من خدمهم في البيوت الذين لا ينطقون إلا بما يرضي أسيادهم. فها هم هنا يستمعون الى شخصيات أفريقية مستقلة تتحدث بوضوح ورصانة عن قناعاتها وأهدافها السياسية والمنهج الذي تأمل أن تتبعه في تحقيقها.

استجوب الزعيم لوتولي المحامي ترينغروف Trengrove الذي بذل قصارى جهده لإجبار الزعيم على الإقرار بأن الشيوعيين مسيطرون على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي سيطرة كاملة وأن للحزب سياستين أحداهما علنية تنبذ العنف وأخرى سرية تدعو الى الثورة المسلحة. ولكن الزعيم تصدى بكل ثبات للرد على ما ينطوي عليه استجواب ترينغروف، وظهر في غاية الاعتدال، بينما بدت على ترينغروف علامات الضجر والارتباك. كما اتهم ترينغروف الزعيم بالنفاق لكن الزعيم تجاهل ذلك ووجه حديثه الى هيئة المحكمة قائلا بهدوء:

- سيدي القاضي، يبدو أن محامي الادعاء فقدَ أعصابه.

قوطعت أقوال الزعيم لوتولي في ٢١ مارس بحدث مرعب خارج قاعة المحكمة، هز جنوب أفريقيا برمتها هزا عنيفا. وعندما عاد الزعيم لوتولي ليستأنف الإدلاء بشهادته كان جو القاعة - وجنوب أفريقيا كلها - قد تغير تغيرا كاملا.

- ٣٣ -

في ديسمبر ١٩٥٩ انعقد المؤتمر السنوي العام لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في مدينة ديربان وفي خضم مظاهرات عارمة للاحتجاج على قانون تصريحات المرور. أقر المؤتمر بالإجماع تنظيم حملة ضخمة على مستوى البلاد كلها لمقاومة القانون ابتداء من ٣١ مارس وحتى ٢٦ يونيو وهو الموعد الذي حدد لإشعال نار ضخمة تحرق فيها تصريحات المرور.

بدأت الاستعدادات لذلك فورا، وفي ٣١ مارس أرسل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وفودا الى السلطات المحلية ومسؤولين يجوبون البلاد لتوعية الفروع بالحملة ومتطلباتها. كما انتشر أنصار الحزب لتوعية المواطنين في المدن والقرى والمصانع، فأعدت اللافتات والمناشير والملصقات وطبعت ووزعت في القطارات والحافلات العامة.

خيم على البلاد جو كئيب إذ كانت الحكومة تهدد بمنع نشاط الحزب وكان أعضاء في الوزارة ينذرون الحزب بأنه سوف يتعرض قريبا لضربة قاضية من "قبضة بلا قفاز"!! كما تصاعدت مسيرة النضال في مناطق أخرى من القارة الأفريقية، فولدت جمهورية غانا المستقلة عام ١٩٥٧ بقيادة زعيمها القومي الأفريقي المعادي للتفرقة العنصرية كوامي نكروما مما أفزع الحزب الوطني الحاكم في جنوب أفريقيا وزاد من تصميمه على قمع المعارضة الداخلية. وفي عام ١٩٦٠ كانت سبع عشرة دولة في أفريقيا تتأهب للحصول على استقلالها. وفي فبراير من ذلك العام زار رئيس وزراء بريطانيا هارولد ماكميلان جنوب أفريقيا وألقى كلمة أمام البرلمان تحدث فيها عن "رياح التغيير" التي تجتاح أفريقيا.

وجد حزب المؤتمر القومي الأفريقي نفسه في متاهة، إذ كان عبارة عن قيادة تبحث عن أتباع ولم يقم بعد بأي عمل من شأنه أن يضعه على الخريطة السياسية للبلاد. كان القوميون الأفريقيون على علم بحملة معارضة تصريحات المرور ودُعوا للمشاركة فيها ولكن بدلا من وضع أيديهم في أيدي حركة المؤتمر سعوا الى تخريب ما كنا نعمله. فقد أعلن حزب القوميين الأفريقيين عن حملة خاصة لمعارضة تصريحات المرور تقام في ٢١ مارس أي قبل موعد حملتنا بعشرة أيام. لم يجتمع القوميون الأفريقيون لتحديد موعد الحملة أو اتخاذ أي إجراءات تنظيمية تذكر لتنفيذها، ولم يكن الإعلان سوى حركة انتهازية مفضوحة دافعها التشويش على نشاطات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أكثر منه السعي لهزيمة العدو المشترك.

قبل أربعة أيام من موعد المظاهرات دعانا سوبوكوى للمشاركة فيها، ولم تكن تلك بادرة للعمل المشترك بل مناورة لصد الباب أمام أي نقد يوجه لحزب المؤتمر القومي الأفريقي بعدم إشراكنا في النشاط. جاءت الدعوة متأخرة ورفضنا المشاركة. في صباح ٢١ مارس اتجه سوبوكوى وأعضاء لجنته التنفيذية الى مركز الشرطة في أورلاندو لتسليم أنفسهم. تجاهل عشرات الآلاف من العمال والموظفين دعوة حزب المؤتمر القومي الأفريقي للتظاهر. وأعلن

سوبوكوى في المحكمة أن حزبه لن يترافع تماشيا مع شعار: "لا كفالة ولا مرافعة ولا غرامة"، اعتقادا منه أن المعتقلين سيسجنون لعدة أسابيع. ولكن صدر حكم على سوبوكوى بثلاث سنوات سجن ولم يخيّر بدفع غرامة.

كان التجاوب الشعبي في جوهانسبيرغ لدعوة حزب المؤتمر القومي الأفريقي للتظاهر محدودة جدا، بينما لم يتظاهر أحد في ديربان أو بورت إليزابيث أو إيست لندن. ولكن في إيفاتون Evaton تمكن زد بي موليتى Z B Molete بمساعدة كل من جو موليفي Joe Molefi وفوسوموزي ماكى Vusumuzi Make من الحصول على دعم الضاحية بكاملها وقدم بضع مئات من الرجال أنفسهم للإعتقال في مراكز الشرطة لعدم حيازتهم على تصريحات مرور. كما شهدت كيب تاون أكبر مظاهرة ضد تصريحات المرور في تاريخها، بينما تجمع في ضاحية لانغا Langa بالقرب من كيب تاون نحو ثلاثين ألف مواطن بقيادة الطالب فيليب كغوسانا Philip Kgosana واشتبكوا مع قوات الشرطة بالعصي فقتل اثنان .ولكن أكبر كارثة هي التي حدثت في مدينة شاربفيل Sharpville التي لا يزال اسمها مرتبطا بتلك المأساة.

شاربفيل مدينة صغيرة على بعد نحو خمسة وثلاثين كيلومترا جنوب جوهانسبيرغ وتقع في المنطقة الصناعية الكئيبة المحيطة بفيرينيغينغ Vereeniging. بذل أعضاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي جهدا ممتازا لتنظيم المنطقة فاحتشد بعد الظهر بضعة آلاف من الناس طوقوا مركز الشرطة وكانوا منظمين وغير مسلحين. كان في المركز خمسة وسبعون شرطيا انتابهم الرعب، فأخذوا وبدون سابق إنذار يطلقون النار على المتظاهرين حتى تفرق المتظاهرون. كانت حصيلة المواجهة تسعة وستين قتيلا من الأفريقيين أطلقت النار على غالبيتهم من الخلف وهم يحاولون الهرب من الشرطة. قدر عدد ما أطلق من رصاص على تلك المظاهرة بما يزيد عن سبعمائة رصاصة أدت الى إصابة أكثر من أربعمائة بجروح من بينهم نساء وأطفال. تحولت المظاهرة الى مذبحة ظهرت وحشيتها الصارخة صباح اليوم التالي في الصفحات الأولى من الصحف في جميع أنحاء العالم.

أثارت مذبحة شاربفيل اضطرابا في جميع أنحاء البلاد وتسببت للحكومة في أزمة. توالت الاحتجاجات الغاضبة من كل أنحاء العالم بما في ذلك وزراة الخارجية الأمريكية، وتدخل مجلس الأمن الدولي لأول مرة في شؤون جنوب أفريقيا بإلقاء اللوم على الحكومة ومطالبتها باتخاذ اجراءات لتحقيق المساواة بين كل الأجناس في جنوب أفريقيا. انهارت سوق جوهانسبيرغ للأوراق المالية وبادرت رؤوس الأموال بالفرار من البلاد، وبدأ البيض في أخذ ترتيبات للهجرة. وعمد الأحرار من البيض الى حث فيروورد على تقديم تنازلات للأفريقيين بينما راحت الحكومة تصر على أن أحداث شاربفيل كانت مؤامرة شيوعية.

أسفرت مذبحة شاربفيل عن أوضاع جديدة في جنوب أفريقيا. فرغم قلة خبرة قادة حزب المؤتمر القومي الأفريقي وانتهازيتهم أظهرت جماهير الحزب شجاعة نادرة وصلابة أثناء مظاهرات شاربفيل ولانغا. ففي غضون يوم واحد فقط أصبحت تلك الجماهير في

الصف الأمامي من النضال الوطني وبرز روبرت سوبوكوى للمراقبين داخل البلاد وخارجها زعيما ومنقذا لحركة النضال الوطني. وكان علينا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أن نتخذ إجراءات سريعة للتكيف مع هذه الأوضاع الجديدة، ففعلنا.

شاركت في اجتماع مصغر في جوهانسبيرغ حضره كل من وولتر ودوما ونوكوى وجو سلوفو للتخطيط لمعالجة الموقف. كان لزاما علينا الاعتراف بما جرى وإعطاء فرصة للجماهير للتعبير عن غضبها وحزنها. وضعنا خطة عرضناها على الزعيم لوتولي فوافق عليها بدون تردد، وفي ٢٦ مارس وقف الزعيم شخصيا أمام الجماهير في بريتوريا وأحرق تصريح مروره داعيا الجميع لإحراق تصريحات مرورهم كذلك. كما أعلن عن اعتصام في البيوت في جميع أنحاء البلاد في يوم ٢٨ مارس الذي أعلن يوم حداد قومي احتجاجا على وحشية ما جرى في شاربفيل. كما قمت أنا ودوما ونوكوى بحرق تصريحات مرورنا في أورلاندو أمام مئات من المتظاهرين وعشرات من رجال الصحافة والمصورين.

وفي ٢٨ مارس كان التجاوب هائلا في جميع أنحاء البلاد إذ استجاب مئات الآلاف من الأفريقيين لنداء الزعيم لوتولي ولم يكن لينظم ذلك التجاوب إلا حركة جماهيرية كحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. تجمع في ضاحية لانغا بكيب تاون خمسون ألف مواطن للاحتجاج على مذبحة شاربفيل، واندلعت أحداث شغب في عدد من المناطق وأعلنت الحكومة حالة الطوارىء وعلقت حق الأمر بالمثول أمام المحاكم وأعطت للسلطات صلاحيات واسعة لاتخاذ أي إجراءات تراها مناسبة ضد أعمال التخريب، وأصبحت جنوب أفريقيا تعيش في ظل الأحكام العرفية.

- ٣٤ -

في الواحدة والنصف من صباح ٣٠ مارس استيقظت على طرقات غريبة على باب منزلي لم يساورني شك في أنها طرقات رجال الشرطة. قلت لنفسي: "لقد آن الأوان" وذهبت لأفتح الباب فقابلني ستة من رجال الأمن بأسلحتهم. قلبوا البيت رأسا على عقب وأخذوا كل قطعة ورق وقعت عليها أيديهم بما في ذلك قصص تتعلق بتاريخ أسرتنا وحكايات من تاريخ القبيلة كانت أمي قصتها علي أيام طفولتي، ضاعت كلها الى الأبد. اعتقلت بدون أمر اعتقال رسمي ولم تتح لي فرصة استدعاء محام ورفضت الشرطة إخبار أهلي بمكان اعتقالي. ودعت ويني بهزة رأس خفيفة إذ لم يكن هناك مجال للحديث.

وصلنا مركز شرطة نيولاندز Newlands بعد ثلاثين دقيقة وكنت أعرف المكان جيدا لأنني زرته عدة مرات لمقابلة من كانوا يوكلونني للترافع في قضاياهم. يقع المركز في صوفياتاون أو ما بقي منها بعد أن هدمت مبانيها وهجرها أهلها. وجدت في المركز زملاء اعتلقوا بالطريقة نفسها التي اعتلقت بها وتوالى وصول المعتقلين حتى الصباح وبلغ عددهم أربعين معتقلا. وضعونا في فناء صغير غير مسقوف به مصباح كهربائي واحد فقط واضطررنا لضيق المكان أن نظل واقفين بقية ليلتنا.

عند السابعة والربع أخذنا الى زنزانة صغيرة بها حفرة واحدة تستعمل كمرحاض لا يمكن تنظيفه إلا من خارج الزنزانة. لم نزود بأغطية أو حصائر أو ورق مراحيض. كانت تلك الحفرة تنسد بالنفيات من حين الى آخر وكانت الرائحة المنبعثة منها لا تطاق. أصدرنا احتجاجات متكررة وطالبنا بتزويدنا بالطعام وقوبلت احجاجاتنا بالفظاظة والتعنيف فقررنا عندما يفتح الباب أن نخرج دفعة واحدة الى خارج الزنزانة ونرفض الرجوع إليها حتى تلبى طلباتنا. وما أن خرجنا من الزنزانة حتى فزع الشرطي الشاب الذي كان يحرسنا وفر هاربا. بعد دقائق ظهر شرطي ضخم الجثة، امرنا بالرجوع الى داخل الزنزانة وقال صائحا:

- ادخلوا !وإن لم تدخلوا سأحضر خمسين شرطيا يهشمون رؤوسكم بالعصي!!

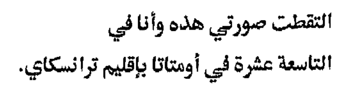
لم يكن ذلك تهديدا أجوف، خاصة في أعقاب مذبحة شاربفيل. ظهر آمر المركز يتفحص المعتقلين ثم اقترب مني وعنفني لوقوفي ويدي في جيبي، وقال بصوت عال:

- هل هذه هي الطريقة التي تقف بها أمام ضابط شرطة؟ أخرج يديك من جيبيك.

لم أفعل، واحتفظت بيدي في جيبي وكأنني أتمشى في قارعة الطريق في يوم صحو، وقلت له ربما تنازلت وأخرجت يدي لو قدمتم لنا طعاما نأكله.

في الثالثة ظهرا، أي بعد مرور أكثر من اثنتي عشرة ساعة على اعتقالنا، أتوا لنا بإناء فيه شيء من معجون الذرة فأقبلنا عليه نأكل بأيدينا دون أن نغسلها وكأنه ألذ طعام في الدنيا. بعد تناول الطعام اخترنا لجنة لتمثيلنا أمام السلطات ضمت دوما نوكوى وزد بي





التقطت صورتي هذه وأنا في
التاسعة عشرة في أومتاتا بإقليم ترانسكاي.

افتتحت مكتبي للمحاماة بشارع فوكس مع صديق
العمر وشريكي أوليفر تامبو في عام ١٩٥٢، وكان أول
مكتب لمحامين سود في جوهانسبيرغ.



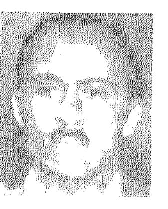
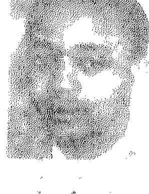


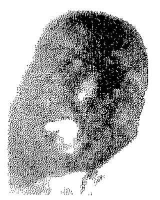
أمام قاعة المحكمة برفقة الدكتور جايمس موروكا
ويوسف دادو إبّان حملة التحدي.



داخل المحكمة العليا في ترانسفال برفقة
باتريك مولوا وروبرت ريشا بعد صدور حكم
ضدي بالحبس تسعة أشهر مع وقف التنفيذ.



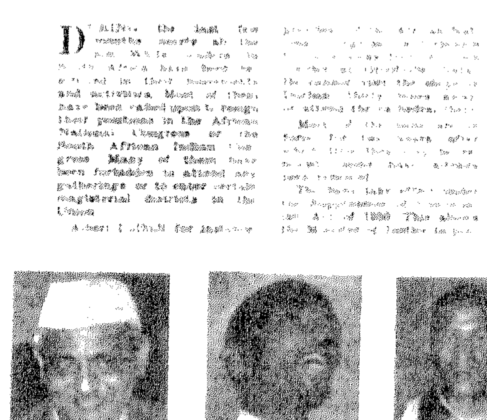







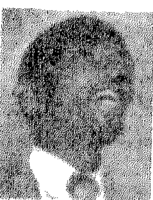
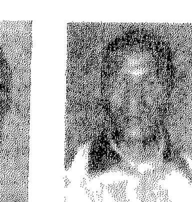


















صور بعض المناضلين السياسيين الذين صدرت بحقهم قرارات حظر سياسي بموجب قانون مكافحة الشيوعية لعام ١٩٥٠
التي أصبحت منذ ذلك التاريخ جزءا من حياة المناضلين من أجل الحرية في جنوب أفريقيا،

الدكتور موروكا بعد تسليمه رئاسة
حزب المؤتمر الوطني الأفريقيلخلفه
الزعيم ألبرت لوتولي الذي يظهر الى
جانبه في الصورة.

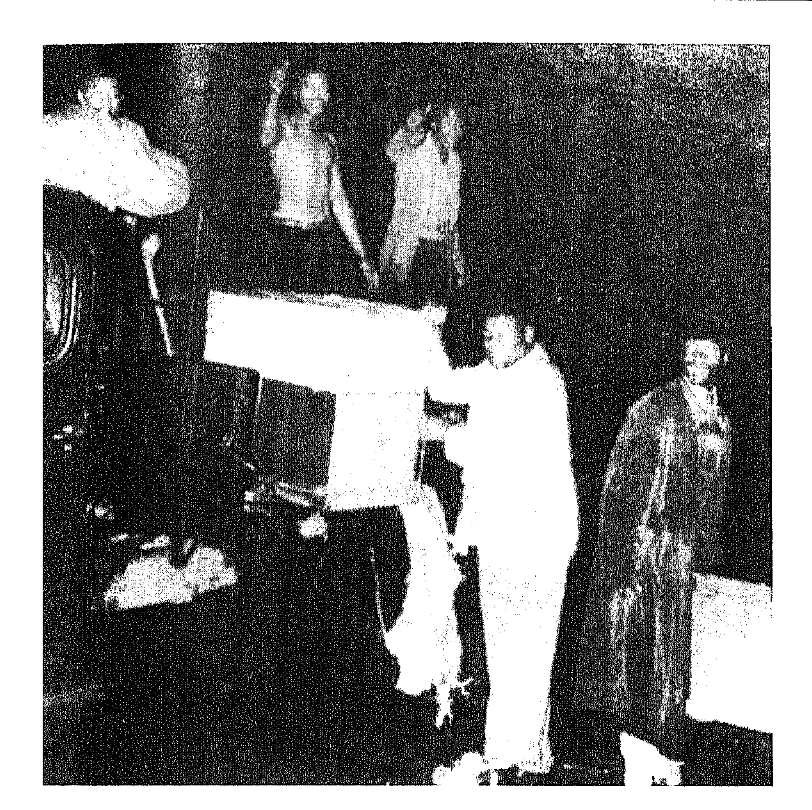


الزعيم لوتولي يحي وفود حزب
المؤتمر الوطني الأفريقي بالتحية
التقليدية في المؤتمر السنوي الواحد
والأربعين للحزب الذي عقد في كوينزتاون.

مع القائد الشاب بيتر نتيتي عام ١٩٥٥.



أعلنت ضاحية صوفياتاون "بقعة سوداء" بموجب قانون مناطق المجموعات العرقية لعام ١٩٥٠، وشرعت الحكومة في ترحيل سكانها قسرا الى منطقة ميدولاندز عام ١٩٥٥.



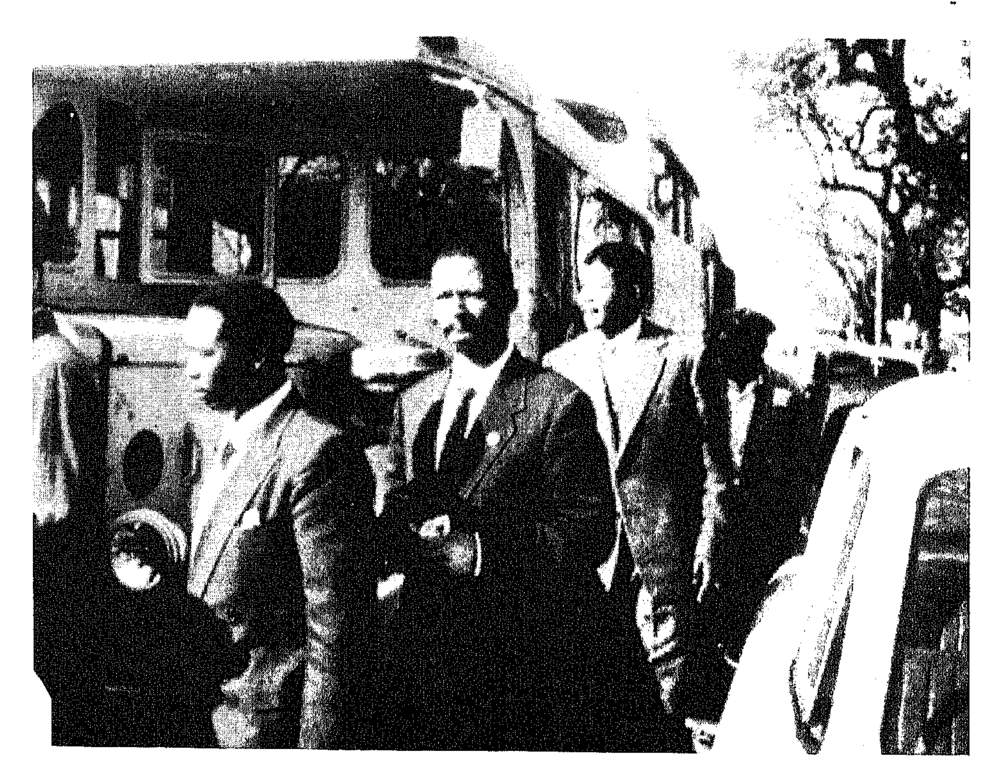
من الدروس التي تعلمتها من إخفاق حملتنا لمقاومة الترحيل القسري في ضواحي غرب جوهانسبيرغ هو أن الظالم هو الذي يحدد طبيعة النضال. لم يبق أمامنا سوى اللجوء الى المقاومة المسلحة.

هذه صورتي وأنا أتحدث في مجموعة من السيدات اللاتي شاركن في مسيرة مبنى الاتحاد في بريتوريا احتجاجا على قوانين تصريحات المرور.

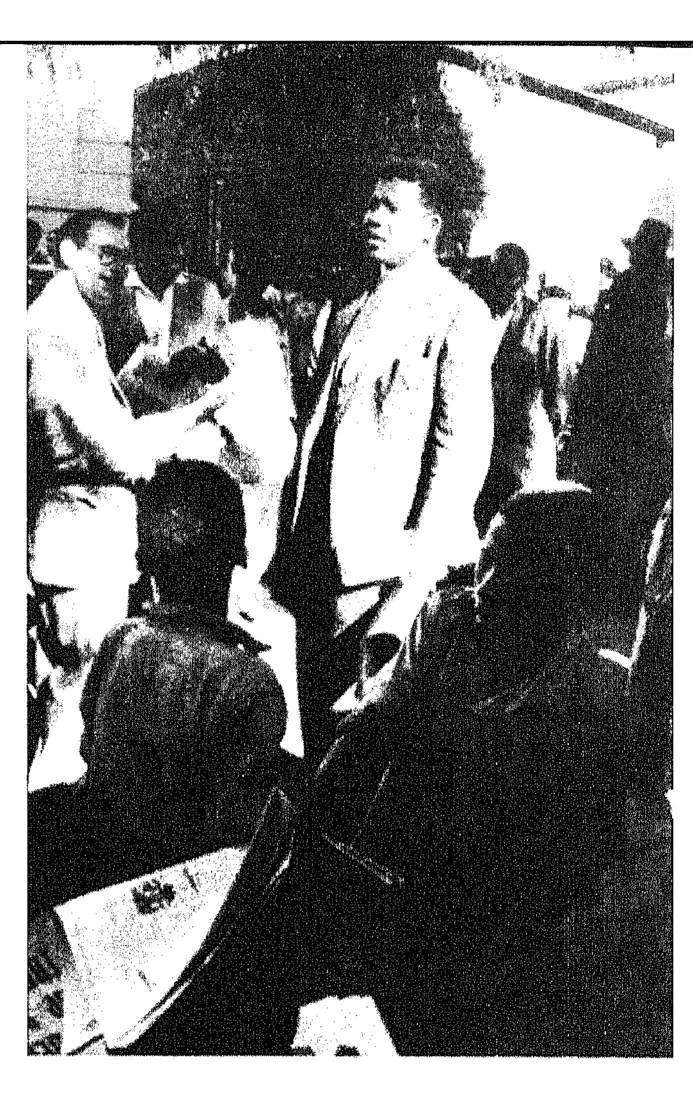


مرحلة عصيبة: ١٩٥٦.

محاكمة الخيانة ١٩٥٦. كان المتهمون ينقلون يوميا من جوهانسبيرغ الى بريتوريا في حافلات.



مُنعنا من حضور كل التجمعات السياسية، ولكن محاكمة الخيانة جمعت بين عدد كبير من زعماء النضال فتحولت فترات الاستراحة الى اجتماعات للجنة التنفيذية العامة.



أنصارنا يشاركوننا الغناء والتهليل أمام قاعة المحكمة في بريتوريا أثناء محاكمة الخيانة عام ١٩٥٨.



مـوليتى أمين الدعـاية في حزب المـؤتمر القومي الأفـريقي واختـرت أنا مـتحـدثا عن اللجنة. قدمـنا مذكرة احـتجـاج على الأوضاع السيـئـة وطالبنا بإطلاق سـراحنا فورا لعـدم شرعـية الاعتقال.

في السادسة مساء أحضروا لنا فرشا وبطانيات يعجز المرء عن وصف ما كانت عليه من سـوء وقـذارة. كانت البطانيات ملوثة بالدم والقيء قـد عشش فـيهـا القمل والحشرات والصراصير وكانت رائحتـها لا تقل سوءا عن رائحة مرحاض الزنزانة . عند منتـصف الليل أخـبرنا بأنه سيكون هناك إعـلان هام . تهللت أسـارير بعضنا لاعـتقادهم بأنه سـوف يطلق سراحنا بينما توقع آخرون أسـوأ الاحتمالات . كنت أول من نودي عليه فطلب مني الـتوجه الى باب المركز الرئيسي وأطلق سـراحي في وجود مجموعة من ضـباط الشرطة . وقـبل أن اتحرك بضع خطوات صاح أحد الضباط:

- ما اسمك؟

- مانديلا.

- نلسون مانديلا . إنني اعتقلك بحكم الصلاحيات المخول بها بموجب قوانين الطوارىء.

اتضح أن الغـرض ليس إطلاق سراحنا بل إعـادة اعتـقالنا بموجب قـانون الطوارىء ولم نكن نعلم عن إعـلان حـالة الطوارىء في البـلاد . تكرر الإجـراء مع كل المعـتلقين وصـار اعتقالنا قانونيا بموجب قانـون الطوارىء الذي أصبح ساري المفعول منذ منتصف تلك الليلة. أعددنا مذكرة قدمناها الى مدير المركز نطالب فيها بتحديد حقوقنا في الوضع الجديد.

استـدعيت في صباح اليـوم التالي الى مكتب آمر المركـز فوجدت أمـامي زميلي روبرت ريشا الذي اعتقل وكان يستجوب من قبل آمر المركز . بمجرد أن دخلت المكتب سـأل ريشا آمر المركـز عن سبب مـخاطبـتة لي بعنف في الـليلة السابقـة فأجاب الآمـر بطريقة الـبيض المتعالية:

- مانديلا لم يكن مؤدبا.

فاجبته قائلا:

- لم أكن لأخرج يدي من جيبي لشخص من أمثالك، لا أمس ولا اليوم.

انتفض الآمـر من كرسيه واقـفا وسارع عدد من الضـباط لتهدئتـه، وعندها دخل ضابط القسم الخاص هيلبيرغ Helberg وقال في نبرة ودية:

- أهلا بك يا نلسون.

- لا تنادني بنلسون بل نادني بالسيد مانديلا.

أوشك الموقف أن يتـحـول الى مشـادة وأخـبرنا بأن عـلينا مغـادرة المركـز للمـثول أمـام المحكمة في بريتـوريا لمواصلة النظر في قضية الخيانة . صـرت حائرا بين أن أضـحك أو أن

أفقـد الأمل تماما . ففي خضم تلك المعاملة السيئة التي اسـتمرت ستا وثلاثين ساعة وإعلان حالة الطواريء في البلاد رأت الحكومة أن من اللائق استـدعاءنا الى بريتوريا لمواصلة قضية ميئوس منها قد تجاوزتها الأحداث . ورغم ذلك نقلنا فورا الى بريتوريا واحتجزنا في سجنها المحلي.

- ٣٥ -

استؤنفت جلسات المحاكمة في غيابنا يوم ٣١ مارس وكان كرسي الشهود شاغرا . لم يغب من المتهمين إلا الذين لم يعتقلوا بموجب قانون الطوارىء . كانت المحكمة تستمع الى أقوال الشاهد الزعيم لوتولي وتساءل القاضي رومبف عن سبب غيابه فأخبر بأنه اعتقل الليلة السابقة فعبر عن امتعاضه وقال إنه لم يفهم لماذا تعرقل حالة الطوارىء سير المحاكمة. رفع الجلسة وأصر على أن تاتي الشرطة بالزعيم كي يستانف الإدلاء بشهادته .

علمنا فيما بعد أن الزعيم تعرض للإعتداء البدني إثر اعتقاله . وتبين أنه بينما كان الزعيم يصعد سلما دفعه أحد الحراس فوقعت قبعته على الأرض وعندما انحنى ليلتقطها ضرب على رأسه ووجهه . تألمنا لذلك أشد الألم . فها هو الزعيم لوتولي ذلك الرجل المرموق ذو الهيبة والوقار المعروف بتدينه واعتلال صحتة يعامل معاملة الحيوانات على أيدي أناس لا يستحقون أن يمسحوا حذاءه.

افتتحت الجلسة صباح اليوم التالي وأخبر القاضي رومبف بأن الشرطة رفضت إحضار الزعيم الى المحكمة . رفع القاضي الجلسة مدة يوم كامل وكنا نتوقع أن نعود الى منازلنا، ولكن بينما كنا نغادر المحكمة بحثا عن وسائل مواصلات تقلنا الى منازلنا أعيد اعتقالنا من جديد .

ولكن الشرطة بفوضويتها وحماسها الزائد عن الحد ارتكبت خطأ فادحا صار مصدرا للتندر . لسبب ما تخلف المتهم ويلتون امكيوي Wilton Mkwayi أحد قادة العمل النقابي وعضو حزب المؤتمر الوطني الأفريقي عن بقية زملائه القادمين من بورث إليزابيث وتأخر في الوصول الى المحكمة . وبينما نحن ننصرف عن المحكمة وصل ويلتون فوجد الشرطة تعيد اعتقال زملائه فسأل أحد الحراس عما يجري فنهره الحارس وأمره بالإنصراف فلم ينصرف. كرر الحارس الأمر بالإنصراف فأخبره ويلتون بأنه أحد المتهمين فلم يصدق الحارس واتهمه بالكذب وهدده بالاعتقال لعرقلته سير العدالة . اشتاط الحارس غضبا وأمره بحدة أن يغادر المكان فهز ويلتون كتفيه وانصرف، وكانت تلك آخر مرة نراه في المحكمة إذ إنه اختفى شهرين كاملين ثم هُرب خارج البلاد وظهر كممثل في الخارج لاتحاد نقابات العمال ثم سافر الى الصين لتلقي تدريبات عسكرية.

التحق بنا تلك الليلة معتقلون آخرون من ترانسفال واسفرت تمشيطات الشرطة عن اعتقال أكثر من ألفي شخص بدون محاكمة في مختلف مناطق البلاد من رجال ونساء من مختلف الأجناس والأحزاب السياسية المعارضة للتفرقة العنصرية . كما أعلنت الحكومة عن استنفار عام في الجيش وتحركت وحدات عسكرية لاحتلال مواقع استراتيجية في البلاد. وفي ٨ أبريل أصدرت الحكومة إعلانا باعتبار كل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر القومي الأفريقي منظمتين ممنوعتين بموجب قانون مكافحة الشيوعية . وهكذا، بين

عشية وضحاها أصبحت عضوية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي جريمة يعاقب عليها القانون. وكانت العقوبة القصوى لنشر أفكار الحزب السجن عشر سنوات . كما منعت الاحتجاجات السلمية القانونية التي تقام باسم الحزب . لقد دخل النضال مرحلة جديدة أصبحنا فيها جميعا مجرمين مطلوبين للعدالة.

بقينا في سجن بريتوريا المحلي طول فترة الطوارىء حيث الأوضاع سيئة كسوئها في سجن نيولاندز. وضع كل خمسة أشخاص في زنزانة قذرة طولها تسعة أقدام وعرضها سبعة أقدام فيها إضاءة ضعيفة وتهوية أضعف . خصص لكل زنزانة وعاء واحد للنفايات وأعطينا بطانيات مليئة بالجراثيم والحشرات. وسمح لنا بالخروج خارج الزنزانة لمدة ساعة واحدة فقط في اليوم.

في اليوم الثاني من وصولنا الى بريتوريا أرسلنا وفدا لتقديم شكوى حول الأوضاع في السجن لآمر السجن العقيد سنايمان Snyman فقابلهم بعجرفة وقلة أدب واتهمنا جميعا بالكذب وطالب بتقديم أدلة تدعم شكوانا قائلا بسخرية :

– انتم الذين جلبتم الحشرات للسجن من بيوتكم القذرة.

طالبت بتخصيص غرفة هادئة بها إضاءة كافية لاستخدامها للتحضير للقضية فكان رد الحاكم مفعما بالإزدراء إذ قال :

– أنظمة الحكومة لا تقضي بأن من حق السجناء قراءة الكتب، إن كنتم تقرأون أصلا.

ورغم موقف العقيد سنايمان غير اللائق منا فقد طليت الزنزانات وطهرت بالرش وزودنا ببطانيات نظيفة وأوعية للنفايات . كما سمح لنا بالخروج خارج الزنزانات غالبية النهار وخصصت للمتهمين في قضية الخيانة زنزانة أكبر للمداولات والمشاورات وسمح لنا بالاحتفاظ فيها بكتب ومراجع قانونية.

سوف يظل سجن بريتوريا المحلي مقرّنا الى ما شاء الله . كنا نخرج في الصباح الى المحكمة ونعود إليه في المساء . وفي السجن يقسم النزلاء بموجب قوانين التفرقة العنصرية حسب أجناسهم وأعراقهم. فصلنا عن زملائنا البيض منذ البداية ولكن فصل الأفريقيين والهنود والملونين بعضهم عن بعض كان أمرا يثير الجنون، فطالبنا أن نظل معا وقدمت إلينا شروح وتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان لتبرير فصلنا . إنه من المستحيل فهم الأنظمة والقوانين التي تنتج عن اجتماع البيروقراطية المكبلة والعنصرية البغيضة . رضخت السلطات فيما بعد وسمحت للمتهمين في قضية الخيانة بالإقامة كمجموعة واحدة.

ورغم بقائنا في مكان واحد كان الطعام يصرف إلينا بناء على التقسيمات العرقية . ففي الصباح تقدم الكمية نفسها من الطعام للأفريقيين والهنود والملونين بإضافة نصف ملعقة من السكر لما يصرف للهنود والملونين . أما في المساء فيصرف للهنود والملونين أربعة أونصات من الخبز بينما لا يصرف أي خبز للأفريقيين، ويقرر ذلك بناء على مبدأ غريب يقول إن أكل الخبز ليس من طبيعة الأفريقيين ويعتبر عندهم طعاما "غربيا" ومتحضرا . وكان الطعام الذي

يقدم للسجناء البيض أفضل بكثير من ذلك الذي يقدم للأفريقيين. كانت العنصرية متعمقة في نفوس السطات بما جعلها تفرق بين أنواع السكر والخبز التي تقدم للبيض وتلك التي تقدم للسود، إذ كان البيض يعطون السكر الأبيض والخبز الأبيض بينما أعطي الملونون والهنود السكر الأسمر والخبز الأسمر.

رفعنا احتجاجات شديدة اللهجة على سوء نوعية الطعام، وبناء على ذلك قدم محامينا سيدني كينتريدج شكوى رسمية للمحكمة. وقلت أنا في المحكمة إن الطعام غير صالح للاستهلاك البشري فوافق القاضي رومبف على أن يتذوق عينة من الأكل بنفسه فأحضرت أحسن وجبة يقدمها السجن وهي جريش الذرة مع الفاصوليا وحرصت السلطات يومها على إضافة كمية أكبر من الفاصوليا والمرق. تناول القاضي رومبف لقيمات من تلك الوجبة وأعلن أن الطعام مطبوخ بإتقان ولذيذ، وإن أكد على أن يقدم ساخنا مما أثار ضحكنا إذ لا وجود لطعام "ساخن" في السجن وهو استحالة منطقية. وأخيرا وافقت السلطات على توفير ما سمّته "غذاء محسنا" فقدمت الخبز للأفريقيين وقدمت للهنود والملونين الطعام نفسه الذي يقدم للبيض.

سُمح لي بميزة واحدة أثناء الاعتقال وهي زيارة جوهانسبيرغ في عطلة الأسبوع ولكن ليس لقضاء إجازة وإنما للعمل. ولذلك قصة أرويها. قبل إعلان حالة الطوارىء بقليل غادر أوليفر تامبو جنوب أفريقيا بناء على تعليمات من قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. فقد كنا نتوقع منذ فترة أن السلطات سوف تضيق على نشاطنا فقرر الحزب أن يغادر بعض الأعضاء البلاد للعمل من الخارج تحسبا لمنع النشاط في الداخل بالكامل.

كان قرار سفر أوليفر الى الخارج من أحسن القرارت التي اتخذتها الحركة. لم نكن نقدر آنذاك أهمية الجناح الخارجي للحزب، وكان أوليفر بحكمته وهدوئه وصبره ومهاراته التنظيمية وقدراته القيادية وحصافته أفضل من يختار لتلك المهمة.

قبل أن يغادر أوليفر جنوب أفريقيا كلف صديقنا المحامي هايمي دافيدوف Hymie Davidoff بالإشراف على تصفية مكتبنا. تقدم دافيدوف بطلب للعقيد برنسلو Prinsloo بالسماح لي بالمجيء الى جوهانسبيرغ مساء الجمعة للعمل في المكتب طول العطلة الأسبوعية ثم العودة الى المحكمة صباح الإثنين من كل أسبوع. خصصت لي سيارة يقودها ضابط الشرطة كروغر Kruger وكنا نغادر بريتوريا الواحدة من ظهر الجمعة فأقضي النهار في العمل في المكتب مع دافيدوف والمحاسب ناتان ماركوس Nathan Marcus ثم أذهب للمبيت في سجن ميدان مارشال ثم نعود الى المحكمة في نهاية العطلة.

كروغر رجل طويل القامة مهيب، وكان يعاملنا بإنصاف. في الطريق من بريتوريا الى جوهانسبيرغ كان عادة ما يتوقف لشراء اللحم المجفف والبرتقال والشكولاته ويتركني بمفردي في السيارة. ولطالما راودتني نفسي في تلك اللحظات بالهروب خاصة يوم الجمعة والشوارع مزدحمة بالناس.

وأثناء وجودي في المكتب سمح لي كروغر بالنزول أحيانا الى المقهى المجاور لشراء بعض النثريات، كما غض الطرف عن زيارة ويني لي في المكتب مرة أو مرتين. نشأ بيننا "اتفاق رجال" يقضي بألا أحاول أنا الفرار ولا أتسبب له في مشكلة مقابل أن يسمح لي هو بحيز بسيط من الحرية.

- ٣٦ -

في ٢٦ أبريل، وهو اليوم السابق لاستئناف المحاكمة، استدعانا إسرائيل مايزلس للتشاور في آثار حالة الطوارىء على سير المحاكمة. أصبح التشاور بين المتهمين ومحامي الدفاع شبه مستحيل في ظل قوانين الطوارىء إذ كان المحامون مقيمين في جوهانسبيرغ فتعذر عليهم اللقاء بنا في السجن في بريتوريا وإعداد حيثيات الدفاع بصورة متكاملة. كانوا أحيانا يأتون الى السجن ليقال لهم إنه ليس من الممكن الالتقاء بنا، وحتى إن تمكنا من اللقاء كان مستعجلا وتحت مضايقات متعمدة من سلطات السجن. والأهم من ذلك ما نقله إلينا مايزلس من أن إدلاء المعتقل بشهادة أمام المحكمة في ظل قانون الطوارىء يعرضه الى مزيد من العقوبة على اعتبار أن ما يقوله سيكون بالضرورة ضد مصلحة الدولة فهو بالتالي "عمل تخريبي". أما شهود الدفاع غير المعتقلين فقد أصبحوا بموجب القوانين نفسها معرضين للاعتقال إن هم أدلوا بشهادات.

اقترح فريق الدفاع أن ينسحب من القضية بالكامل احتجاجا على الأوضاع، وبين لنا مايزلس ما يترتب على قرار الانسحاب وتولينا الدفاع عن أنفسنا بأنفسنا في قضية مهمة من هذا القبيل. وأشار الى أن القضاة ربما قرروا إصدار أحكام أقسى في ظل الجو المتوتر السائد في البلاد. تدارسنا الأمر فيما بيننا وسمح لكل فرد منا – وقد أصبح عددنا تسعة وعشرين بعد اختفاء ويلتون امكيوي – أن يعبر عن وجهة نظره وخرجنا بقرار جماعي مفاده أن أساعد أنا ودوما نوكوى في إعداد القضية في غياب فريق الدفاع. كنت من أنصار هذا الرأي لأنه يكشف الظلم المترتب على فرض حالة الطوارىء.

في ٢٦ أبريل وقف دوما نوكوى – أول محام أفريقي في ترانسفال – أمام المحكمة ليعلن الخبر المثير وقال إن المتهمين طلبوا من محاميهم الانسحاب من المحاكمة. وقف مايزلس فورا وخاطب رئيس المحكمة قائلا:

– سيدي القاضي، نظرا الى أننا لم نعد مكلفين بالدفاع في هذه القضية فإننا ننسحب دون أي إزعاج لسيادتكم.

انسحب فريق الدفاع في هدوء وظهرت على هيئة المحكمة علامات الصدمة وحُذرنا من مغبة تولي الدفاع عن أنفسنا بأنفسنا. وهكذا استلمنا مسؤولية المرافعة أمام المحكمة لمدة أربعة أشهر تقريبا وهو موعد انتهاء فترة الطوارىء.

كانت خطتنا بسيطة ودفاعية في جوهرها، وكان الهدف منها هو التسويف وتمديد مدة المحاكمة ريثما تنتهي حالة الطوارىء ويستأنف المحامون الرسميون المرافعة من جديد. لقد طال العهد بالمحاكمة منذ أن بدأت ولم يكن ليؤثر في نتيجتها لو امتدت لمدة أطول. تحولت المحاكمة في الواقع الى مسرحية هزلية. فقد أصبح من حق كل منا أن يتولى المرافعة عن

نفسه وأن يستدعي شاهدا كل متهم من المتهمين الآخرين، وكان لكل متهم الحق في استجواب كل شاهد على حدة. رُتّبت أسماؤنا ترتيبا أبجديا وكان المتهم الأول فريد آدمز Farid Adams من مؤتمر الشباب الهندي في ترانسفال. تسير إجراءات الدفاع كالتالي: يفتتح فريد مرافعته باستدعاء المتهم رقم ٢ هيلين جوزيف Helen Joseph كشاهد. بعد استجواب هيلين من قبل فريد يُفسح المجال لكل من المتهمين السبعة والعشرين لاستجوابها ثم تستجوب من قبل الادعاء العام ثم يعاد استجوابها مرة أخرى من قبل المتهم رقم ١، بعد ذلك يستدعي فريد المتهم رقم ٣ شاهدا، وتتكرر العملية السابقة برمتها من جديد حتى تستمع المحكمة لمرافعة كل متهم على حدة. إذن، بهذه الصورة سوف تستمر المحاكمة حتى نهاية القرن.

ليس من السهل عموما التحضير لقضية من السجن، وقد زاد من صعوبة الأمر في هذه الحالة بالذات الحواجز التي أوجدتها التفرقة العنصرية. فالأمر يتطلب التقاء المتهمين بصورة منتظمة ولكن أنظمة السجن لا تسمح باختلاط الرجال والنساء والسود والبيض وبذلك تعذر علينا التشاور مع هيلين جوزيف وليون ليفي وليليان انغوي وبيرتا ماشابا Bertha Mashaba.

كانت هيلين الشاهد الأول وكان عليها تحضير أقوالها بحضوري وحضور دوما وفريد آدمز الذي سيتولى استجوابها. وبعد مفاوضات عويصة مع إدارة السجن سمح لنا بالتشاور ولكن تحت إشراف دقيق وبشروط مشددة. اتفق على أن تحضر كل من هيلين وليليان وليون وبيرتا، اللاتي وزعن على سجون مختلفة لاختلاف أجناسهن، الى سجن الرجال الأفريقيين وكان أول شرط هو عدم الإتصال المباشر بين السجناء البيض والسود وبين الرجال والنساء. أقامت السلطات سياجا من قضبان حديدية للفصل بيننا وبين هيلين وليون (وهما من البيض) وسياجا آخر للفصل بينهما وبين ليليان وبيرتا (وهما من السود). فالأنظمة تفرض فصل هيلين عن ليليان بسبب اللون وفصلها عنا بسبب الجنس واللون. إنه نظام يعجز أبرع المعماريين عن ابتكاره. ففي السجن تفصل بيننا قضبان حديدية أما في المحكمة فكنا نقف جميعا - أبيضنا وأسودنا - في قفص واحد بلا حواجز تفصل بيننا.

كان علينا ابتداء أن نعلّم فريد آداب السلوك أمام هيئة المحكمة وأن نعد هيلين للإدلاء بشهادتها، فتقمصت أنا دور فريد وبدأنا التدريب.

- الاسم؟

- هيلين جوزيف.

- العمر؟

صمتت هيلين ولم تجب، فأعدت السؤال مرة أخرى فزمّت شفتيها وامتنعت عن الكلام. وبعد لحظات قالت في حدة وعبوس:

- ما علاقة عمري بالقضية يانلسون؟

هيلين جريئة وتتمتع بشخصية لطيفة ولكنها معتزة بنفسها وحساسة جدا فيما يتعلق بعمرها . بينت لها أنه من المعتاد في المحاكمات تسجيل البيانات الشخصية للشاهد كالاسم والعمر والعنوان ومكان الميلاد . وعمر الشاهد يعين المحكمة في تقييم أقواله ويؤثر على الحكم في القضية . استأنفت الاستجواب مع هيلين وكررت السؤال :

- عمرك؟

انتصبت هيلين وقالت :

- ساعبر ذلك الجسر عندما أصله أثناء المحاكمة وليس قبل ذلك . تجاوز هذا السؤال يانلسون وواصل الاستجواب.

وجهت إليها مجموعة من الأسئلة توقعت أن يواجهها بها محامي الادعاء وبطريقة واقعية لم تكن هيلين تتصورها فالتفتت اليّ تسأل :

- هل أنت مانديلا أم أنت محامي الادعاء؟

مرت بنا في تلك الفترة لحظات رفعت من معنوياتنا . فقد سمح لي بزيارة هيلين جوزيف في العطلة الأسبوعية لأنقل إليها سجلات وقائع المحاكمة ، فكنت ألتقي بسيدات أخريات بحثت معهن احتمال مشاركتهن شهودا في المحكمة . كنت مؤدبا جدا مع السجّانات البيض ولاحظت اهتمامهن بزياراتي فلم يكن يعرفن عن وجود محامين أو أطباء أفريقيين ، وكن ينظرن إلي نظرة استغراب وكأنني مخلوق قادم من عالم آخر . ومع تكرر زياراتي أظهرت الحارسات بشاشة وارتياحا لي وكنت أقول لهن مازحا إنني على استعداد للدفاع عنهن أمام المحاكم إذا لزم الأمر . لا شك في أن ما كانت تلك السيدات يسمعنه من حوار جاد وناضج بيني كمحام أسود وبين تلك السيدة البيضاء المثقفة - هيلين - خفف من عنصريتهن.

في إحدى المقابلات الطويلة مع هيلين التفت الى الحارسة التي تراقبنا وقلت :

- أرجو المعذرة لإزعاجك بهذه التفاصيل التي لا تنتهي.

ردت الحارسة بقولها :

- بالعكس . لا يزعجني ذلك ، بل أنا مستمتعة جدا بما أشاهد.

كان واضحا عليها الاهتمام بما نقول وكانت تشارك أحيانا باقتراحات بسيطة ، ورأيت أن ذلك من فوائد تلك القضية لأن غالبية الحارسات لم يكن يعرفن سبب اعتقالنا ولكن أصبحن شيئا فشيئا يتعرفن على ما كنا نكافح من أجله وعن الدوافع التي تجعلنا نتحمل السجن في سبيله.

هذه هي الأسباب الحقيقية التي جعلت الحزب الوطني الحاكم يعارض بشدة جميع أنواع التقارب بين الأجناس في جنوب أفريقيا . فسياسة ذلك الحزب العنصرية البغيضة لا يمكن أن

يساندها ويؤمن بها إلا الجاهلون بالأفكار والسياسات الأفريقية أو البيض الذين سُممت أفكارهم بالخوف من الخطر الأسود. فالتقارب والاحتكاك بين الأجناس في هذه الحالة لا يمكن أن يولد الإزدراء والكراهية بل سوف يؤدي الى مزيد من التفاهم والانسجام بين الجميع.

ولكن حياة السجن القاسية ظلت كما هي عليه . سمح لويني بزيارتي عدة مرات في بريتوريا وكانت تصحب معها زيناني التي أخذت تتعود على المشي والكلام . كنت آخذها في أحضاني أقبلها كلما سمح لي الحرس بذلك . وكانت زيناني عادة تدعوني للخروج معهما وكنت أرى على وجهها علامات الحيرة والاستغراب لعدم استجابتي لذلك الطلب البريء.

بدأ فريد آدمز بمهارته المعتادة في استجواب الشاهد الأول هيلين جوزيف وكان موفقا الى حد كبير وأظهر كفاءة عالية في مرافعاته أمام هيئة المحكمة . غمر المتهمين شعور بالانتعاش والثقة فاستغنوا عن حل الكلمات المتقاطعة لقتل الوقت . وما أن أخذ المتهمون – واحدا تلو الآخر – يستجوبون الشهود حتى فطنت هيئة المحكمة وفريق الادعاء – ولأول مرة – لمستوى المتهمين من رجال ونساء وكفاءاتهم العالية في الدفاع عن أنفسهم.

ينص قانون جنوب أفريقيا على أن محامي الدفاع – وهو دوما في هذه الحالة – في المحكمة العليا لا يوجه كلامه إلا للقضاة مباشرة . أما أنا – باعتباري وكيل نيابة – فبإمكاني إعطاؤه تعليمات ولا يسمح لي أو لأي من المتهمين – إجرائيا – أن نخاطب هيئة المحكمة مباشرة . وللتحايل على هذا الاجراء قررنا تنحية محامينا كي يصير من حقي – بحكم القانون – مخاطبة هيئة المحكمة مباشرة .حاول القاضي أن يجهض ذلك الجهد إذ قاطعني قائلا:

– لا شك أنك تعلم ياسيد مانديلا أن السيد نوكوى هو المحامي الوحيد المسموح له بمخاطبة المحكمة.

– حسنا يا سيادة الرئيس . نحن على استعداد للالتزام بذلك إذا وافقت المحكمة على دفع أجور السيد نوكوي.

لم يعترض أحد بعد ذلك على أن يخاطب المتهمون هيئة المحكمة مباشرة!

كنت أنا ودوما نجلس الى جانبي فريد آدمز أثناء استجوابه لهيلين نزوده بالأسئلة ونتعاون معه على الرد كلما برزت نقطة قانونية جديدة، وإن لم يكن فريد في حاجة كبيرة لمساعدتنا. وذات يوم واجهتنا ضغوط كثيرة فكنا نسر لفريد بالأفكار والآراء باستمرار فظهرت عليه علامات الإعياء ونفدت قريحتنا من الأفكار، وبدون الرجوع إلينا طلب فريد من القضاة رفع الجلسة لأنه أرهق . رفض القضاة الطلب بناء على أن السبب غير كاف وكرروا تهديدهم لنا يوم أن انسحب فريق الدفاع الرسمي.

لم يكن هناك غناء عندما عدنا الى السجن مساء ذلك اليوم، بل أخذ كل منا مكانه في الزنزانة وعلت الوجوه سحابة من التجهم والكآبة. كانت هناك أزمة تشرف على الانفجار بين المتهمين، وطالب بعضهم بعقد اجتماع بأسرع ما يمكن فدعوت جميع الرجال وكان أول من تحدث دجيه انكامبيني J Nkampeni، وهو رجل أعمال من بورت إليزابيث كان وقف الى جانب أسر المشاركين في حملة التحدي، وكان موقفه هجوميا منذ الوهلة الأولى.

خاطبني باسمي الأفريقي كعلامة للإحترام فقال:

- ماديبا، أريد منك أن تخبرنا عن سبب طردك لمحامينا.

ذكرته بأن تسريح المحامين كان أمرا جماعيا وافق عليه الجميع بمن فيهم هو نفسه، فأجاب:

- ولكننا لا نعرف شيئا عن أساليب وإجراءات المحاكم، ياماديبا. لقد وضعنا ثقتنا فيكم أنتم أيها المحامون.

وجدت شكوك انكامبيني تجاوبا لدى عدد كبير من الحاضرين فحذرتهم من مغبة القنوط مؤكدا أن الأمور تسير في صالحنا، وقلت أصبنا اليوم بنكسة خفيفة ولكن أمامنا مصاعب أكبر في المستقبل. فقضيتنا ليست مجرد قضية بين الدولة ومجموعة من الناس متهمين بمخالفة القانون، بل هي اختبار لقوتنا ولقوة مبدأ أخلاقي مقابل مبدأ غير أخلاقي. وقلت إننا نواجه مشكلة أكبر من مجرد أسلوب أداء محامينا القانوني. بعد ذلك هدأ الاحتجاج.

بعد الإنتهاء من استجواب هيلين جوزيف وإعادة مساءلتها تقدم المتهم رقم ٣ وهو أحمد كاثرادا للمرافعة عن نفسه. وبينما كان الشاهد الثاني والمتهم رقم ٤ ستانلي لولان Stanley Lolan، عضو اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعبي للملونين، يدلي بشهادته أعلن رئيس الوزراء فيروورد عن رفع حالة الطوارىء في البلاد. كانت الحكومة تعلم جيدا أن حالة الطوارىء إجراء مؤقت ويبدو أنها اقتنعت بأنه حقق أغراضه في عرقلة مسيرة النضال. برفع حالة الطوارىء عاد محامونا لاستلام مهامهم أمام المحكمة مما أشاع الارتياح بيننا جميعا ولكننا بقينا في السجن لعدة أسابيع أخرى. لقد تولينا الدفاع عن أنفسنا ونحن معتقلون في غياب محامينا لمدة تزيد عن خمسة أشهر.

شرعت في الإدلاء بأقوالي في ٣ أغسطس، وقد مرت عليّ ثلاث سنوات من الصمت والحظر والسجن. كنت على استعداد تام بفضل مساعدة زملائي لمواجهة هيئة المحكمة. دعوت في أقوالي إلى الإعتدال وأكدت على التزام حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بالنضال السلمي. سئلت عما إذا كان بالإمكان تحقيق الديمقراطية عن طريق الإصلاح التدريجي فكان ردي بالإيجاب، وجاء فيه ما يلي:

> إننا نطالب بحق الإقتراع لجميع من بلغ سن الرشد ونحن على استعداد لممارسة كل الضغوط الاقتصادية لتحقيق مطالبنا. فسننظم حملات التحدي والاعتصام في المنازل - أفرادا وجماعات - حتى ترضخ الحكومة وترى أن القانون فقد دوره وتقتنع بعدم جدوى

سياساتها وترضى بالتفاوض. وأنا لا أمانع في التفاوض. وربما قالت الحكومة إن الأوروبيين (البيض) غير مستعدين في الوقت الراهن للعيش في ظل حكومة غالبتها من غير الأوروبيين، وربما أبدت استعدادها للسماح للأفريقيين بستين مقعدا فقط في البرلمان ثم طرحت القضية للتفاوض من جديد بعد خمس سنوات. إذا وافقت الحكومة على ذلك فهو - ياحضرات القضاة - في رأيي نصر لنا، ونكون به قد خطونا خطوة هامة نحو ضمان حق الاقتراع العام لجميع الأفريقيين، وعندها سنتعهد نحن بوقف أعمال العصيان المدني لمدة خمس سنوات.

كانت السلطات مصرة على أن تظهرني بمظهر الشيوعي الخطير الذي يقطر عنفا. وبينما لم أكن شيوعيا أو عضوا في الحزب الشيوعي لم أكن لأسمح بأن أظهر للعالم وكأنني تخليت عن حلفائي الشيوعيين. ورغم علمي بأن ذلك ربما أسفر عن تمديد فترة سجني لم أتردد في التأكيد على الدعم الكبير الذي قدمه لنا الشيوعيون. وسئلت في المحكمة عما إذا كان نظام الحزب الواحد في رأيي ممكن التطبيق في جنوب أفريقيا فأجبت بما يلي:

سيدي الرئيس. القضية ليست قضية شكل وإنما هي قضية ديمقراطية. فإذا تحققت الديمقراطية عن طريق نظام الحزب الواحد فأنا على استعداد للنظر في ذلك الأمر بدقة وعناية. أما إذا كانت الديمقراطية تتحقق بشكل أفضل من خلال نظام متعدد الأحزاب فسأنظر في ذلك الأمر أيضا بدقة وعناية. ففي جنوب أفريقيا اليوم يوجد نظام متعدد الأحزاب ولكن بالنسبة لغير الأوروبيين حتى الآن هو نظام لا مثيل له في الاستبداد والطغيان.

فقدت أعصابي مع القاضي رومبف عندما وقع في الخطأ نفسه الذي يقع فيه بيض جنوب أفريقيا عند التطرق الى موضوع حق الاقتراع العام. فهم يعتقدون أن "التعليم" هو الشرط الأساسي لممارسة هذا الحق. ولكن من الصعب على ذي الأفق المحدود أن يفهم أن "التعليم" لا يعني مجرد الكتابة والقراءة أو نيل الشهادات الجامعية، أو أن الأمي ربما كان مقترعا "متعلما" بما يفوق حامل الشهادات العليا. وهذا جزء مما دار بيني وبين القاضي من حوار:

رومبف: ما قيمة مشاركة أناس لا يفقهون شيئا في الحكومة؟

مانديلا: سيدي القاضي. هذا ما يحدث عندما يمارس الأميون البيض حقهم في التصويت...

رومبف: أليسوا هم أيضا معرضين الى تأثير زعماء الانتخابات كما لو كانوا أطفالا؟

مانديلا: كلا ياسيدي القاضي. اليك ما يحصل في الواقع. يتقدم رجل للتنافس على مقعد في دائرة معينة ويطرح برنامجا يحدد فيه ما ينادي به من سياسات. ولنفترض أنه في دائرة ريفية ويقول إنه ضد تحديد ملكية المواشي. فعندما تستمع الى ما يقول تقرر ما إذا كنت ستنتخبه عضوا في البرلمان. هذه هي الأسس التي ننتخب بها المرشحين، وهي عملية لا علاقة لها بالتعليم إطلاقا.

رومبف: هل تعني أن الناخب لا ينظر الا الى مصلحته الشخصية؟

مانديلا: كلا. كل إنسان يبحث عن أفضل رجل يعبر عن وجهة نظره فينتخبه.

وقلت في المحكمة إننا نؤمن بقدرتنا على تحقيق أهدافنا دون اللجوء الى العنف وبحكم تفوقنا العددي.

لقد اعتقدنا أنه من الممكن لنا في المستقبل القريب تحقيق ما نصبو اليه من أهداف وتحركنا، رغم حواجز التعصب والعداء التي اعترضت طرقنا، على أساس أن الأوروبيين لن يتجاهلوا مطالبنا الى الأبد لأن سياسة الضغط الاقتصادي التي اتبعناها كان لها أثر مباشر في حياتهم، ولن يتجرأوا على غض الطرف عنها. فلا مناص لهم إذن من التجاوب مع هذه السياسة، وها هم فعلا يتجاوبون.

رفعت حالة الطوارىء في اليوم الأخير من شهر أغسطس، وأخذنا نستعد للعودة الى بيوتنا بعد غياب دام خمسة أشهر. وعندما علم أهلونا في جوهانسبيرغ برفع الطوارىء قدموا الى بريتوريا تحسبا منهم بأنه سيطلق سراحنا فقابلنا الأهل والأصدقاء بالتهليل والترحيب. كانتويني ضمن من حضر الى بريتوريا وكان لقاء مفعما بالبهجة إذ لم احتضن زوجتي ولم أر ابتسامتها منذ خمسة أشهر. ونمت ليلتي تلك في فراشي لأول مرة بعد تلك المدة الطويلة.

السجن يجعل المرء يقدر قيمة الأمور العادية البسيطة كالمشي متى يشاء أو الذهاب الى السوق وشراء صحيفة أو مجلة أو الاختيار بين الصمت والكلام. باختصار، أن يملك أمر التحكم في زمام شؤونه الخاصة بنفسه.

تواصلت جلسات المحاكمة بعد رفع الطوارىء تسعة أشهر أي حتى ٢٩ مارس ١٩٦١، وكانت تلك فترة رائعة بالنسبة للمتهمين إذ كان أنصارنا ومشجعونا يحضرون الجلسات مجاهرين بسياسات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وشعاراته. وفند روبرت ريشا بشدة الفكرة السخيفة القائلة بأن الحزب كان يهدف الى الدفع بالحكومة الى استعمال العنف كي تعطينا المبرر للرد باستعمال العنف أيضا. وتحدث غيرت سيباندى Gert Sibande بإسهاب وقوة عن البؤس الذي يعيشه عمال المزارع الأفريقيون، بينما تحدث ذلك الشيخ الجليل إسحاق بيهندي Issac Behndy من مدينة ليديسميث Ladysmith البالغ من العمر واحدا وثمانين عاما وأحد مشايخ كنيسة إرسالية السكان الأصليين الأفريقية التبشيرية African Native Mission Church عن الدوافع وراء اختيارنا الاعتصام في المنازل بدلا من الاضراب.

وفي أكتوبر جاء دور الشاهد الأخير وهو المحترم الأستاذ ماثيوز. كان يقف أمام المحكمة رابط الجاش ويعامل محامي الادعاء وكأنهم من طلابه المارقين المستحقين للعقوبة. وكان كثيرا ما يرد على المحامين المتعجرفين بقوله:

- ما تريد مني أن أقوله هو أن الخطبة التي تزعم أنها كانت تنادي بالعنف تمثل سياسة حزبي. فأنت أولا على خطأ في ما افترضت، وثانيا فأنا لن أقول بذلك الرأي أبد.

كما تحدث بلغة غاية في الجمال والقوة والتأثير عن إيمان الأفريقيين بأن النضال السلمي

يعني المعاناة ولكنهم اختاروه لأنهم وضعوا الحرية هدفا أسمى من كل شيء آخر. فالناس – كما قال – على استعداد لتحمل أقسى أنواع المعاناة في سبيل التخلص من الظلم.

بانتهاء الأستاذ ماثيوز من أقواله انتهت المرافعة على درجة عالية من الثقة والروح المعنوية. وفي الختام اتجه القاضي كينيدي نحو الأستاذ ماثيوز وصافحه بحرارة قائلا إنه يأمل في أن يلتقي به مرة أخرى وفي ظروف أحسن وأفضل.

- ٣٧ -

بعد انتهاء حالة الطواريء عقدت اللجنة التنفيذية للحزب اجتماعا سريا في سبتمبر لمناقشة مستقبل العمل، وكان ذلك أول اجتماع رسمي لنا بعد مناقشات السجن أثناء المحاكمة. كانت الدولة تسلح نفسها لا لمواجهة خطر خارجي بل لمواجهة خطر داخلي. قررنا ألا نحل التنظيم وأن نواصل العمل السري، وكان علينا تجاوز الاجراءات الديمقراطية التي ينص عليها دستور الحزب من مؤتمرات واجتماعات فروع ولقاءات عامة، وكان علينا ابتكار وسائل جديدة للاتصال بين أجهزة الحزب الممنوعة وغير الممنوعة. كانت كل الترتيبات الجديدة غير قانونية وسيتعرض المشاركون فيها للاعتقال والسجن. وكان لزاما علينا إعادة تنظيم اللجنة التنفيذية بكاملها وما يتفرع عنها من أجهزة بما يتلاءم والأوضاع غير القانونية الجديدة. وكان من الضروري حل رابطة الشباب والرابطة النسائية. قوبلت تلك التغييرات بمقاومة شديدة ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الحزب أصبح منظمة غير قانونية وتحولت المشاركة في العمل السياسي من مجرد مجازفة الى مغامرة محفوفة بالمخاطر.

قفل مكتب مانديلا وتامبو للمحاماة أبوابه وصفى جميع حساباته، ولكنني واصلت متابعة العمل القانوني بقدر المستطاع. تفضل كثير من الزملاء بوضع مكاتبهم وموظفيهم وتلفوناتهم تحت تصرفي ولكنني فضلت العمل أغلب الوقت من شقة أحمد كاثرادا الواقعة في ١٣ خولفاد هاوس. ورغم إقفال مكتبي لم تتأثر سمعتي كمحام، فأخذ الزبائن يتدفقون على الشقة، وكان أحمد يعود الى منزله ليجد المطبخ هو الحجرة الوحيدة التي يمكن أن يخلو فيها بنفسه.

كنت خلال هذه الفترة أكاد لا أجد وقتا أقضيه مع أفراد الأسرة أو في تناول الطعام في البيت، إذ كنت أقضي أكثر النهار في بريتوريا للتحضير للقضية أو في الشقة لمتابعة بعض القضايا الخاصة. وما أن أجد الوقت لأجلس لتناول العشاء مع أسرتي حتى يقرع جرس التلفون فأخرج لمهمة أو أخرى. كانت ويني حاملا وصبورة الى أبعد حد، وكانت تدعو أن أكون الى جانبها أثناء الولادة ولكن شاءت الأقدار غير ذلك.

أثناء عطلة عيد الميلاد لعام ١٩٦٠ علمت أن ماكغاتو معتل صحيا في ترانسكاي حيث كان يتلقى تعليمه في المدرسة فخالفت تعليمات الحظر السياسي المفروض عليّ وذهبت الى زيارته هناك. سافرت طول الليل ولم أتوقف إلا لتزويد السيارة بالوقود، وعندما وصلت علمت أن ماكغاتو يحتاج الى عملية جراحية فقررت إحضاره الى جوهانسبيرغ. استغرقت الرحلة الليل بكامله فأخذته الى بيت أمه وذهبت لترتيب إجراءات نقله الى المستشفى. علمت عند عودتي أن ويني جاءها المخاض وتوشك أن تلد فانطلقت مسرعا الى جناح غير الأوروبيين بمستشفى بريدجمان ميموريال Bridgman Memorial Hospital فوجدت الأم

وليدتها قد وصلتا بخير . كانت المولودة في حالة جيدة أما ويني فقد كانت منهكة للغاية.

سمينا البنت الجديدة زيندزيسوا Zindziswa وذلك على اسم ابنة شاعر الكوسا صموئيل مقـاي Samuel Mqhayi الذي تأثرت كثيرا بشعره أيام دراستي في هيلدتاون . كان الشـاعر رجع يوما من رحلة طـويلة فوجد زوجـته وقد ولدت بنتـا، ونظرا الى أنه لم يكن يعلم أن زوجته حـامل ظن أن البنت لأب غيره . وتقتضي تقاليـدنا ألا يدخل الرجل المنزل الذي فيه زوجتـه لمدة عشرة أيـام بعد الولادة، ولكن شاعـرنا استـبد به الغضب فـخرق ذلك التـقليد ودخل رافعا رمـحه ليطعن الأم وإبنتهـا معا . ولكن ما إن وقـعت عيناه على الوليـدة حتى أدرك أنها تشبـهه تماما فتوقف وقال بـلغة الكوسا : "يو زيندزيلى" أي "إنك شرعي حـقا" وأطلق عليها اسم زيندزيسوا وهو مؤنث ما قاله بلغة الكوسا.

- ٣٨ -

استغرق العرض الختامي للادعاء في محاكمة الخيانة أكثر من شهر كامل وقاطعته هيئة المحكمة عدة مرات، ثم جاء دور الدفاع فرد محامينا إسرائيل مايزلس تهمة العنف وأضاف:

- نحن نعترف بوجود جو من المقاومة السلبية وعدم التعاون مع السلطات، ونقول بكل صراحة إن كانت المقاومة السلبية وعدم التعاون يشكلان خيانة عظمى فنحن مذنبون، ولكن أيا من هذين الموقفين لا يندرج تحت بنود قانون الخيانة.

وواصل المحامي الآخر برام فيشر الحديث في السياق نفسه حتى قررت هيئة المحكمة مقاطعته في ٢٣ مارس ومنعه من الاستمرار في المرافعة التي كان في حاجة الى بضعة أسابيع اضافية لاستكمالها، ورفعت الجلسة لمدة أسبوع. كان ذلك إجراءً غير معتاد ولكننا تفاءلنا به لشعورنا بأن هيئة المحكمة قد توصلت الى حكم في القضية ولن تحتاج الى سماع مزيد من الأدلة. تأهبنا للعودة الى المحكمة بعد ستة أيام لسماع ما كنا نتوقع أنه الحكم النهائي.

خلال تلك لفترة انشغلت في أعمالي الأخرى، فقد كان من المقرر أن يرفع الحظر عني بعد يومين من رفع جلسة المحكمة، وكنت على يقين من أن الشرطة غافلة عن ذلك الموعد لأنها نادرا ما تتابع الأحداث بدقة. برفع الحظر سأكون حرا لمغادرة جوهانسبيرغ بصورة قانونية والمشاركة في الاجتماعات لأول مرة منذ ما يقرب من خمس سنوات. كانت عطلة الأسبوع موعد انعقاد المؤتمر العام في بيترماريتزبيرغ Pietermaritzburg الذي أجل منذ وقت بعيد. كان الهدف من المؤتمر هو الدعوة لمؤتمر دستوري يضم ممثلين عن جميع سكان جنوب أفريقيا واتفق - سرا - على أن أكون المتحدث الرئيسي في المؤتمر، وكان من المقرر أن أسافر ليلا الى بيترماريتزبيرغ على بعد ثلاثمائة ميل من جوهانسبيرغ.

قبل سفري بيوم واحد اجتمعت لجنة العمل العامة سرا لمناقشة استراتيجية العمل، وكنا قررنا - بعد عدة لقاءات عقدناها داخل السجن وخارجه - العمل سرا لدراسة استراتيجية على غرار "الخطة الميمية". قررنا أن يواصل التنظيم عمله في السر وإذا لم تثبت إدانتنا في المحكمة أنتقل أنا الى العمل السري فأزور الفروع للترتيب للمؤتمر الوطني المقترح. فالمهمة تتطلب عملا متواصلا في الخفاء وفي حرية كاملة من القيود التي فرضتها السلطة. كما تقرر أن اظهر في مناسبات معينة للحصول على أكبر قدر ممكن من الدعاية لإثبات وجود الحزب كقوة نضالية في الساحة. لم يكن ذلك القرار مفاجئا بالنسبة لي ولم أطرب له، ولكنني كنت أعلم أنه واجب عليّ القيام به. وكنت أدرك أن العمل في الخفاء محفوف بالمخاطر ويعني الغياب عن أسرتي لفترات طويلة ولكن عندما يحرم الإنسان من الحياة التي يريدها ويؤمن بها فلا خيار أمامه إلا أن يتحول الى خارج على القانون.

عندما رجعت الى البيت قابلتني ويني وكأنها قرأت على ملامح وجهي ما كان يجول في خاطري، وأدركت أنني مقبل على نمط من الحياة لا رغبة لأي منا فيه. شرحت لها ما أسفر عنه الاجتماع وأخبرتها بأنني سأغادر البيت في اليوم التالي. تقبلت الأمر بكل شجاعة وكأنها كانت تتوقعه. لقد استوعبت ما أنا مقدم عليه وإن لم يخفف عليها ذلك من وطأة الألم، وطلبت منها أن تحزم لي بعض ملابسي في حقيبة صغيرة وأخبرتها أن أصدقائي وأفراد أسرتي سيقومون على رعايتها أثناء غيابي. لم أخبرها بالمدة التي سأغيبها وهي لم تسأل، وكان في ذلك خير لأنني لم أكن أعرف الجواب. كان من المقرر أن أعود الى بريتوريا يوم الإثنين للإستماع الى النطق بالحكم ومهما كانت النتيجة فإنني لن أعود الى البيت بعد ذلك، فإما السجن وإما العمل السري.

كان إبني الأكبر تيمبي في المدرسة في ترانسكاي ولم أتمكن من توديعه، ولكنني ذهبت الى بيت زوجتي السابقة في إيست أورلاندو فقضيت عدة ساعات مع إبني ماكغاتو وأخته ماكازيوى نتمشى في المروج المحيطة بالمدينة نمرح ونتجاذب أطراف الحديث. ودعتهما ولم أدر متى سألقاهما من جديد. إن أبناء المناضلين سرعان ما يتعلمون الكف عن السؤال ورأيت في أعينهما بكل وضوح شعورهما بأن خطبا جليلا يوشك أن يقع.

عدت الى البيت فقبلت ابنتيْ مودعا وصعدت السيارة بصحبة كونكو لنبدأ رحلتنا الطويلة الى ناتال.

* * *

وفد على بيترمارتيزبيرغ ألف وأربعمائة شخص من مختلف أنحاء البلاد يمثلون مائة وخمسين منظمة دينية واجتماعية وثقافية وسياسية لحضور المؤتمر العام. صعدت على المنصة مساء السبت ٢٥ مارس وواجهت ذلك الجمع الغفير من الأنصار المخلصين المتحمسين وقوبلت بالابتهاج والترحيب بعد غياب قرابة خمس سنوات عن المنصات العامة كدت أنسى خلالها حرارة مخاطبة الجماهير في مناسبات من هذا القبيل.

دعوت في خطابي الى مؤتمر وطني شامل يشارك فيه جميع أبناء جنوب أفريقيا من سود وبيض وهنود وملونين، يلتقون في جو من الأخوة لوضع دستور يعبر عن طموحات أبناء الوطن جميعا بدون استثناء. ودعوت الى الاتحاد قائلا إذا توحدنا فسوف نكون قوة لا تقهر.

دعا المؤتمر العام الى مؤتمر وطني شامل يحضره ممثلون منتخبون من الرجال والنساء على قدم المساواة لوضع دستور ديمقراطي غير عنصري لجنوب أفريقيا. انتخب المؤتمر مجلس عمل عاما، اخترت أمينا شرفيا له، يتولى توصيل ذلك المطلب الى السلطات الحكومية، وإذا ما رفضت الحكومة الدعوة الى ذلك المؤتمر الشامل سوف ندعو الى اعتصام لمدة ثلاثة أيام ابتداء من ٢٩ مايو وهو ذكرى إعلان جمهورية جنوب أفريقيا. لم أخدع نفسي أبدا بأن الحكومة ستوافق على ذلك المقترح.

في أكتوبر عام ١٩٦٠ أجرت الحكومة استفتاء بين البيض حول إعلان جنوب أفريقيا دولة جمهورية وكان ذلك من أقدم وأعز أحلام القوميين الأفريكان كي يقطعوا الصلة ببريطانيا التي خاضوا ضدها حرب البوير. فاز أنصار الجمهورية بنسبة ٥٢٪ من الأصوات وحُدد يوم ٣١ مايو ١٩٦١ تاريخا لإعلان الجمهورية. أما نحن فقد اخترنا تاريخ الاعتصام قبل ذلك بيومين كي نؤكد للسلطات أن التغيير الى جمهورية ما هو إلا تغيير سطحي ولا يعني شيئا بالنسبة لنا.

بعد المؤتمر مباشرة وجهت رسالة رسمية الى رئيس الوزراء فيروورد أحثه فيها على الدعوة للمؤتمر الوطني للدستور، وأنذرته إن توانى في ذلك فإننا سننظم في ٢٩ مايو أكبر اعتصام عرفته البلاد في تاريخها كله. وأضفت قائلا: "لا شك عندنا في طبيعة الإجراءات المضادة التي ستتخذها حكومتكم. فقد عشنا خلال السنة الماضية حقبة من الدكتاتورية الكالحة". كما أصدرت تصريحات صحافية أؤكد فيها أن الاعتصام سيكون سلميا وخاليا من العنف. لم أتلق ردا من فيروورد ولكنه وصف رسالتي أمام البرلمان بأنها "رسالة متعجرفة" وراحت الحكومة تعد لأكبر استعراض استفزازي للقوة عرفته البلاد في تاريخها كله.

- ٣٩ -

تجمع أمام الكنيس اليهودي العتيق قبل أن يفتح أبوابه صباح ٢٩ مارس ١٩٦١ حشد كبير من الجمهور والصحافيين يتدافعون من أجل الدخول الى قاعة المحكمة للإستماع الى النطق بالحكم في قضية الخيانة العظمى. مئات لم يتمكنوا من الدخول، وكانت القاعة تغص بالحاضرين عندما دخلت هيئة المحكمة وافتتحت الجلسة. ضرب رئيس المحكمة بمطرقته على المنضدة فطلب الادعاء السماح له بتغيير التهمة. كان الوقت متأخرا جدا للتقدم بذلك الطلب الغريب فرفضته هيئة المحكمة وانطلقت همهمات الموافقة على ذلك من الجمهور.

صاح حاجب المحكمة قائلا:

- يرجى التزام الهدوء في قاعة المحكمة.

عقب ذلك أعلن القاضي رومبف أن هيئة المحكمة توصلت الى حكم في القضية فساد الهدوء في القاعة. استعرض القاضي رومبف بصوته العميق الخالي من النبرات ما توصلت إليه الهيئة من نتائج ملخصها أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي كان فعلا يدبر لتغيير النظام الحاكم "بنظام يختلف اختلافا جذريا شكلا وموضوعا"، وأنه استعمل وسائل احتجاج غير قانونية أثناء حملة التحدي، وأن بعض قادة الحزب دعوا في خطاباتهم الى العنف، وأن في الحزب اتجاها يساريا قويا ظهر في عدائه للامبريالية والغرب ومساندته للاتحاد السوفياتي. ثم أضاف يقول:

بناء على الأدلة التي قدمت إلى هذه المحكمة وما حصلنا عليه من حقائق فإن من المستحيل على هيئة المحكمة أن تحكم بأن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي انتهج أو وضع سياسة للإطاحة بالحكومة بالقوة، أي بمعنى إعداد الجماهير أو توجيهها لارتكاب أعمال عنف ضد الدولة.

وقالت هيئة المحكمة إن الادعاء لم يقدم أدلة كافية على أن الحزب منظمة شيوعية أو أن في ميثاق الحرية تصورا لدولة شيوعية. وأضاف القاضي رومبف بعد أربعين دقيقة من الحديث قوله: "وعليه فقد حكمت المحكمة ببراءة المتهمين وهم أحرار طلقاء".

اهتزت القاعة بالتصفيق والهتاف، وشرعنا نحتضن بعضنا بعضا ونلوح بأيدينا للجمهور. خرجنا بعد ذلك الى فناء المبنى منا من يبتسم ومنا من يضحك ومنا من يبكي، واستقبلنا الناس بالهتاف والتصفيق، وحُمل أعضاء فريق الدفاع على الأعناق وكان أثقلهم وزنا إسرائيل مايزلس. كانت أضواء آلات التصوير تخطف الأبصار، وتهنا بين الجموع كل يبحث عن أقاربه وأصدقائه. جاءت ويني فأخذتها بالأحضان جذِلا مبتهجا مع يقيني بأنني لن أستمتع بحريتي لفترة طويلة. وانطلق الجميع في عاصفة من الغناء مرددين: "اللهم احفظ أفريقيا" Nkosi Sikelel iAfrika.

لقد أخفقت الدولة بعد أكثر من أربع سنوات إخفاقا ذريعا في تحقيق هدفها في محاكمة جندت لها عشرات المحامين والمستشارين القانونيين، واستهلكت آلاف الوثائق وأكداسا من الأقوال والأدلة . كان الحكم محرجا بالنسبة للحكومة على الصعيدين الداخلي والخارجي. ولكن النتيجة لم تزد الدولة إلا بغضا لنا ولم تخرج الدولة من المحاكمة بأن قضيتنا كانت عادلة بل زادت إصرارا على أن تكون في المرة القادمة أشد وأقسى.

لم يكن الحكم تأكيدا لعدالة القضاء في جنوب أفريقيا أو دليلا على أن الرجل الأسود يمكن أن يقاضى بإنصاف في محاكم الرجل الأبيض . أجل، كان حكما صحيحا وعادلا، ولكنه جاء في المقام الأول نتيجة لتفوق فريق الدفاع ولما تمتع به أعضاء هيئة المحكمة من إنصاف.

ومع ذلك تظل المحاكم في جنوب أفريقيا المكان الوحيد تقريبا الذي يمكن أن يُنصف فيه الأفريقي، وربما كانت المكان الوحيد الذي تحترم فيه سيادة القانون . ويصح هذا خاصة في المحاكم التي يتولاها قضاة متنورون عينوا من قبل الحزب الإتحادي إذ كان غالبيتهم يقف الى جانب سيادة القانون.

تعلمت في المدرسة أن جنوب أفريقيا بلد تعلو فيه سلطة القانون على كل شيء ويسري فيه القانون على الجميع بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية أو مراكزهم الرسمية . لقد آمنت بذلك إيمانا راسخا وبنيت حياتي على أساس من ذلك الإيمان، ولكن تجربتي في المحاماة والعمل السياسي أزاحت الغشاوة عن عيني ورأيت فرقا شاسعا بين ما لقنته في قاعة الدرس وبين ما تعلمته في قاعة المحكمة . لقد تغير القانون من تلك الصورة المثالية التي يعتبر فيها سيفا للعدالة الى صورة باهتة يبدو فيها أداة في يد الطبقة الحاكمة تكيف به المجتمع بما يخدم مصلحتها الخاصة . فمهما بذلت من جهود لتحقيق العدالة لم أكن أتوقع تحقيقها في المحاكم رغم أنني كنت أحصل عليها أحيانا.

أما بالنسبة الى قضية محاكمة الخيانة فقد ارتفع القضاة الثلاثة حقا فوق عصبياتهم وثقافتهم وخلفياتهم . فالإنسان لا يخلو من جوانب للخير دفينة تظهر فجأة . فالقاضي رومبف بشخصيته المتحفظة أعطانا إنطباعا أثناء سير المحاكمة بأنه متعاطف مع حكم الأقلية البيضاء، ولكن شعورا أصيلا بالعدالة برز في حكمه النهائي في القضية . أما القاضي كينيدي فقد كان أقل تحفظا من زميليه وبدا عليه حماس لفكرة المساواة .فقد سافر مرة هو ودوما نوكوى بالطائرة من ديربان الى جوهانسبيرغ وعندما رفض سائق الحافلة التابعة للخطوط الجوية صعود دوما رفض كينيدي أيضا ركوبها . أما القاضي بيكار فقد بدا لي دائما متفتحا واسع الأفق واعيا الى أن المتهمين الماثلين أمامه عانوا الأمرين على يد سلطات الدولة . إنني أثني على هؤلاء القضاة كأفراد وليس كرموز للمحكمة أو ممثلين للدولة أو حتى لجنسهم، ولكن كنماذج للكرامة الإنسانية تحت ظروف محنة قاسية.

كانت زوجة القاضي سيدة حساسة تجاه الآخرين، إذ كانت أثناء فترة حالة الطوارىء تجمع ما استطاعت من طعام وتحضره للمتهمين .

النتيجة الهامة لإخفاق الدولة المزري في المحكمة هي عزمها على ألا يتكرر ذلك أبدا في المستقبل. فلم تكن الدولة لتعتمد على قضاة لم تعينهم بنفسها، ولم تكن لتحترم ما سموه آداب القضاء التي تحمي الارهابيين أو تمنح السجناء حقوقا داخل السجن . لم يحدث أثناء محاكمة الخيانة أن عزل متهم أو ضرب أو عذب للحصول على معلومات أو أدلة . وهي الأساليب التي أصبحت مألوفة فيما بعد.



الفصل السادس

زهرة الربيع السوداء

عنوان هذا الفصل مقتبس من رواية انجليزية مشهورة عنوانها Scarlet Pimpernel للكاتبة البارونة إموسكا أوركزي (1947 - 1865) نشرت عام ١٩٠٥ .
وزهرة البمبيرنيل هي عشبة من فصيلة زهر الربيع قِرمزية أو أرجوانية أو بيضاء تنقبض عند سوء الأحوال الجوية وظهور الغيوم أو نزول المطر. ويُرمز بها لمن يُتقن تفادي الخطر والتخفي من العدو، ولمن يأتي أعمالا جريئة كأعمال بطل تلك الرواية الذي اشتهر بجرأته ومهارته في تهريب ضحايا الثورة الفرنسية وإنقاذهم. وهكذا لاصبحت الزهرة القرمزية رمزا للشخص المراوغ الشجاع الذي يُظهر مهارة في العمل السري.

المترجم

- ٤٠ -

لم أعد الى البيت بعد صدور الحكم. عاش بقية زملائي في جو من الفرح والابتهاج بينما كنت على يقين بأن السلطات تعد العدة للضرب في أي لحظة، ولم أكن أرغب في تسهيل مهمتها. كنت حريصا على الاختفاء قبل أن يصدر قرار بحظر نشاطي من جديد فبت ليلتي تلك في مخبأ في جوهانسبيرغ حيث قضيت ليلة قلقة في سرير غريب. كلما سمعت صوت سيارة حسبت أنها الشرطة جاءت لاعتقالي.

كان في توديعي وولتر ودوما حين بدأت رحلتي الى بورت إليزابيث. وهناك استقبلني غوفان امبيكي Govan Mbeki وريموند مهالابا Raymond Mhalaba للتباحث في شكل التنظيم السري الجديد. التقينا في بيت الدكتور ماسلا باتر Masla Pather الذي حكم عليه في وقت لاحق بالسجن لمدة سنتين لإيوائي في بيته تلك الليلة. كما التقيت في بيوت آمنة مع رئيس تحرير صحيفة الأحرار بورت إليزابيث مورنينغ بوست Port Elizabeth Morning Post لمناقشة فكرة المؤتمر الوطني العام وهي الفكرة التي تبنتها مجموعة من الصحف الأخرى فيما بعد. كما زرت باتريك دانكان Patrick Duncan رئيس تحرير وصاحب امتياز صحيفة الأحرار الأسبوعية كونتاكت Contact وهو من مؤسسي حزب الأحرار ومن أوائل البيض الذين شاركوا في حملة التحدي. كانت تلك الصحيفة تهاجم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي باستمرار وتزعم أن الشيوعيين هم الذين يضعون سياسة الحزب. ولكن عندما قابلني دانكان أخبرني بأنه قرأ وقائع محاكمة الخيانة وصححت ما كان يحمله من أفكار خاطئة عن الحزب ووعد بتصحيح موقف الصحيفة كذلك.

اجتمعت تلك الليلة بعدد من رجال الكنيسة في كيب تاون. أذكر ذلك الاجتماع لأن إحدى الصلوات التي تلاها القسيس علقت في ذهني طول هذه السنين وكانت مصدر قوة لي في المحن العصيبة. افتتح الصلاة بالشكر لله على نعمته وفضله ورحمته ورعايته لبني الإنسان. ثم سمح القسيس لنفسه بأن يذكّر الإله بأن بعض عباده مضطهدون أكثر من بعض وأنه يبدو أحيانا كأنه - أي الإله - لا يعيرهم اهتماما كافيا. وقال القسيس إن لم يبادر الإله

بهداية الرجل الأسود الى طريق النجاة فإن الرجل الأسود سوف يضطر الى الأخذ بزمام الأمور بنفسه . آمين.

تركت الفندق في آخر يوم لي في كيب تاون بصحبة جورج بيك George Peake وهو عضو مؤسس في المنظمة الشعبية للملونين الأفريقيين بعد أن شكرت مدير الفندق الملون لما قدمه لي من رعاية . كان ممتنا ومتشوقا لمعرفة المزيد عني بعد أن اكتشف هويتي . قال لي إن الملونين يخشون من أنهم في ظل حكومة من الأفريقيين سيلقون الظلم نفسه الذي يلقونه الآن . كان رجل أعمال من الطبقة الوسطى ويبدو أنه لم يحتك بالأفريقيين كثيرا فأصبح يخشاهم كما يخشاهم البيض . وهذا هاجس كثيرا ما يعبر عن الملونون خاصة في كيب تاون . ورغم أنني كنت على استعجال فقد شرحت له مباديء ميثاق الحرية وأكدت له التزامنا بنبذ التعصب العرقي . إن من واجب المناضل أن يستغل كل فرصة لشرح قضيته للناس.

في اليوم التالي شاركت في اجتماع سري للجنة التنفيذية للحزب حضره قادة حركة المؤتمر في ديربان لبحث ما إذا كان الاحتجاج يتم في شكل اعتصام في المنازل أم في شكل إضراب عام تصاحبه مسيرات ومظاهرات . وقال أنصار فكرة الاضراب إننا جربنا استراتيجية الاعتصام منذ عام ١٩٥٠ فلم تجد واستنفدت أغراضها، وإن حزب المؤتمر القومي الأفريقي أصبح يلقى إقبالا جماهيريا وبات ضروريا استعمال وسائل أكثر تصديا وفاعلية . أما البديل الآخر - وكنت من أنصاره - فهو يعطينا فرصة الضغط على عدونا دون أن يتمكن هو من الرد الموجع . وقلت إن ثقة أبناء الشعب في حملاتنا ارتفعت لأنهم فطنوا الى أننا لسنا متهورين ولا نجازف بحياتهم . ففي شاربفيل - رغم ما أظهره المتاضلون من شجاعة وبسالة - أعطي عدونا فرصة إطلاق الرصاص على الناس . لقد كنت مؤيدا للإعتصام في المنازل رغم إدراكي بأن صبر الناس في كل أنحاء البلاد قد نفد وبأنهم يئسوا من جدوى وسائل النضال السلمية . وكان رأيي ألا نحيد عن استراتيجياتنا الثابتة في غياب التخطيط الشامل المتكامل ولم يكن لدينا الوقت الكافي للتخطيط المتكامل . جرى الاتفاق على الاعتصام في المنازل.

العمل في الخفاء يتطلب تغيرات هائلة في نفسية الإنسان . فعلية التخطيط لكل خطوة أو حركة مهما بدت صغيرة أو غير مهمة . وعليه افتراض سوء النية، والشك في كل شيء. فهو لم يعد هو، وعليه أن يتقمص الشخصية الجديدة التي اختارها تقمصا كاملا . ولم يكن ذلك صعبا بالنسبة للرجل الأسود في جنوب أفريقيا الذي يعيش في ظل التفرقة العنصرية حياة مبهمة موزعة بين الشرعية واللاشرعية وبين السر والعلانية . فأن يكون المرء أسوداً في جنوب أفريقيا يعني عدم الثقة في أي شيء ولا يختلف ذلك كثيرا عن العيش في الخفاء طول حياته.

تحولت الى مخلوق يعشق الليل، فالتزم مخبئي نهارا وأخرج للعمل والحركة عندما يحل الظلام . كانت معظم حركتي داخل جوهانسبيرغ وأسافر خارجها كلما دعت الحاجة . كنت

أقيم في الشقق الخالية من السكان أو منازل الأصدقاء وحيث ما تهيأت لي الفرصة لأن أكون بمفردي أو بعيدا عن الأنظار. ومع أنني اجتماعي بطبعي فإنني أعشق الوحدة كذلك وسررت لأن أكون بمفردي أخطط وأتأمل وأدبر المكائد. ورغم ذلك فالوحدة لا تطاق إذ كنت أحن كثيرا لزوجتي وأسرتي.

أهم شيء في العمل السري هو القدرة على تفادي الأنظار. فالمرء قادر على التصرف بحيث لا يُرى كقدرته على لفت الانتباه وشد الأنظار. والقائد غالبا ما يسعى للظهور بينما يسعى الشخص المطارد الى العكس تماما. وعندما انخرطت في العمل السري أصبح علي أن أمشي منحنيا وأن أتحدث بصوت خافت وأتمتم تمتمة، وأصبحت أميل الى الكُمون والهدوء والى كبح فضولي، فلم أسأل بل أنتظر حتى يبادر غيري بالحديث. لم أكن أحلق لحيتي أو شعر رأسي، وكنت غالبا ما أظهر في شخصية السائق أو الطباخ أو البستاني. كنت أرتدي بزة العامل أو الميكانيكي وأرتدي أحيانا نظارات بلا إطار تعرف باسم ماتزاواتي Matzzawatee. كانت عندي سيارة فكنت أرتدي قبعة السائق وكان ذلك يمكنني من الحركة بسهولة.

في الشهور الأولى عندما كنت مطاردا من قبل الشرطة اهتمت الصحف اهتماما كبيرا بنشاطي، وكانت تقارير الصفحات الأولى تسهب في الحديث عن تحركاتي والأماكن التي أتردد عليها. وكانت السلطات تقيم الحواجز في الطرقات العامة في مختلف أنحاء البلاد بحثا عني وكانت الشرطة تعود بخفي حنين في كل مرة. أطلقت الصحف عليّ لقب زهرة الربيع السوداء Black Pimpernel وهو تحريف للقب بطل رواية البارونة أوركزي المشهور باسم زهرة الربيع القِرمزية Scarlet Pimpernel الذي أظهر جرأة فائقة في تجنب الوقوع في يد العدو إبّان الثورة الفرنسية.

تنقلت سرا في جميع أنحاء البلاد، وأقمت مع مسلمين في كيب تاون وعمال السكر في ناتال وعمال المصانع في بورت إليزابيث، وشاركت في اجتماعات سرية تعقد ليلا في مدن مختلفة. وكنت أغذي أسطورة "الزهرة السوداء" بالاتصال من تلفونات عامة بالصحافيين أزودهم بأخبار وقصص مضللة عن نشاطي وتحركاتي وخططي، وأسخر من عدم كفاءة الشرطة في ملاحقتي. كنت أظهر فجأة من حين لآخر في أماكن مختلفة هنا وهناك نكاية في الشرطة وزيادة في سعادة الجمهور وابتهاجه.

انتشرت قصص كثيرة غريبة وخيالية عن حياتي وتجاربي في العمل السري، وهي قصص يغرم الناس بتهويلها وزخرفتها. تمكنت من تفادي الوقوع في شراك الشرطة عدة مرات دون علم أحد، كانت إحداها عندما وقفت بسيارتي عند إشارة المرور في وسط المدينة والتفت فرأيت في السيارة المجاورة العقيد سبينغلر Colonel Spengler رئيس قسم الأمن في ويتووترزراند، الذي يعتبر "الزهرة السوداء" صيدا ثمينا يتمنى لو وقعت عليه يداه. كنت أرتدي قبعة عامل وبزة ميكانيكي زرقاء ونظارتي المعتادة. لم يدر بصره نحوي ورغم ذلك فقد مرت الثواني ريثما تغيرت الاشارة الحمراء وكأنها ساعات.

كنت يوما أنتظر أحد الأصدقاء على قارعة الطريق في جوهانسبيرغ، وكنت أرتدي قبعة السائق إياها فرأيت شرطيا أفريقيا يحث الخطى في اتجاهي . نظرت من حولي بحثا عن مهرب ولكنه اقترب مني قبل أن أتمكن من الفرار فابتسم لي وحياني في اختلاس بتحية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ثم انصرف. تكررت تلك المواقف مرات عديدة فزادت من طمأنينتي بإخلاص كثير من رجال الشرطة الأفريقيين لقضيتنا . وكان ضابط شرطة يتصل سرا بويني ليوافيها بتفاصيل عن خطط الشرطة لملاحقتي، فكان يهمس في أذنها قائلا: "انصحي ماديبا ألا يذهب الى أليكساندرا ليلة الأربعاء لأن الشرطة ستقوم بتمشيط المنطقة" . تعرض أفراد الشرطة السود لانتقادات شديدة أثناء فترة النضال ولكن كثيرا منهم أدوا مهمات سرية كانت في غاية الأهمية للحركة.

كنت أحرص على أن أظهر رث الهيئة بقدر المستطاع، وكانت ملابسي تبدو مهلهلة. كانت في حيازة الشرطة صورة فوتوغرافية واحدة لي بلحية وزعت على نطاق واسع وكان زملائي يحثونني على حلق اللحية، ولكنني قاومت ضغوطهم لأنني أصبحت متعلقا بها معتادا عليها.

لم أفلح فقط في التنكر والتخفي بل تعرضت أحيانا للصد والتوبيخ ممن كانوا يعرفونني. كنت مرة أعد لحضور اجتماع في منطقة نائية من جوهانسبيرغ، واتفق أحد القساوسة المعروفين مع بعض الزملاء على إيوائي في بيته تلك الليلة . طرقت الباب ففتحت سيدة عجوز، وقبل أن أعرفها بنفسي بادرتني باستغراب:

- انصرف فلا حاجة لنا بأمثالك في هذا البيت.

ثم أوصدت الباب في وجهي.

- ٤١ -

خصصت معظم وقتي للتخطيط لحملة الاعتصام في المنازل في ٢٩ مايو التي كاد الإعداد لها يتحول الى حرب ضارية بين الدولة وحركة التحرير . ففي أواخر مايو نظمت الحكومة حملة مداهمات لبيوت قادة المعارضة في جميع أنحاء البلاد . منعت الاجتماعات وصودرت المطابع، وبادرت الحكومة بتمرير قوانين من خلال البرلمان تسمح للشرطة بحجز المتهمين اثني عشر يوما بلا كفالة.

وصرح رئيس الوزراء أن الذين يساندون الاضراب - بما في ذلك الصحف المتعاطفة - إنما "يلعبون بالنار"، وهو تصريح ينذر بسوء، أخذا في الاعتبار وحشية الدولة وضراوة أساليبها . وحثت الحكومة المصانع على توفير مستلزمات المبيت للعمال كي لا يضطروا للعودة الى بيوتهم أثناء الاضراب . وقبل موعد الاعتصام بيومين قامت الحكومة بأكبر استعراض للقوة أثناء السلم في تاريخ جنوب أفريقيا كله، إذ أعلن الجيش أكبر استنفار منذ الحرب . ألغيت إجازات رجال الشرطة، وتركزت الوحدات العسكرية في مداخل المدن ومخارجها ، وتحركت دبابات ساراسن هادرة في شوارع ضواحي المدن التي يسكنها السود وحلقت المروحيات في الجو منقضة بين الفينة والأخري لتفريق التجمعات على الأرض. وفي الليل كانت المروحيات تسلط أضواءها الكشافة على البيوت والمنازل.

ظلت الصحف الصادرة بالإنجليزية تنشر أخبار الحملة حتى أيام قليلة قبل موعدها، ولكنها انهارت عشية الاضراب وخرجت تحث الناس على الالتحاق بأماكن عملهم . وقام حزب المؤتمر القومي الأفريقي بدور المخرب مرة أخرى إذ وزع آلاف المنشورات التي تحرض الناس على معارضة الاعتصام في المنازل والتنديد بجبن قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. صدمنا لذلك الموقف، فلم نكن نمانع في النقد بل كنا نقبله، ولكن محاولة إفشال الاضراب ودعوة الناس الى عدم المشاركة فيه لا تخدم إلا مصالح العدو.

كان من المقرر أن التقي بقادة الحزب في جوهانسبيرغ عشية الاضراب في أحد البيوت الآمنة في سويتو، ولتفادي حواجز الشرطة دخلت سويتو عبر مدينة كليبتون التي كانت في العادة خالية من الحراسات . وبينما كنت أقود سيارتي في طريق مجهول وجدت نفسي وجها لوجه أمام نقطة تفتيش فأشار لي شرطي أبيض بالوقوف وكنت مرتديا زيي المعتاد وقبعة السائق إياها . تفرس في وجهي من وراء زجاج النافذة ثم أخذ يفحص السيارة بنفسه فحصا دقيقا وكان المعتاد أن يقوم بالفحص شرطة من الأفريقيين . لم يعثر على شيء وطلب مني إبراز تصريح المرور فأجبته بأنني تركته في البيت سهوا وبكل هدوء أعطيته رقم تصريح غير صحيح فاطمأن وأشار لي بالمرور.

في يوم الإثنين ٢٩ مايو، وهو يوم الاعتصام في المنازل، تعرض مئات الآلاف من المواطنين الى فقدان أعمالهم ووظائفهم بالإمتناع عن الذهاب الى العمل. ففي ديربان خرج

العمال الهنود من المصانع، وفي كيب تاون لزم آلاف العمال الملونين بيوتهم تحديا للسلطة. وفي جوهانسبيرغ لزم أكثر من نصف العمال والموظفين منازلهم وكانت النسبة أعلى من ذلك في بورت إليزابيث. أشدت في تصريحاتي للصحف بالتجاوب الشعبي "الهائل" وأثنيت على "تحدي شعبنا لاستفزازات الدولة التي لم يسبق لها مثيل"، وغطى الاحتجاج على احتفالات البيض بعيد الجمهورية تغطية كاملة.

رغم التقارير التي تسلمناها في اليوم الأول للاعتصام عن التجاوب الكبير في أنحاء مختلفة من البلاد كان التجاوب في عمومه أقل مما كنا نأمل. كانت الاتصالات صعبة، ويبدو أن الأخبار السيئة تنتقل بأسرع من الأخبار الطيبة. فكلما تواردت التقارير زاد شعوري بخيبة الأمل في التجاوب العام. وفي مساء ذلك اليوم هبطت معنوياتي وانتابني الحنق وأشرت في حديث مع بنيامين بوغراند Benjamin Pogrund من صحيفة راند دايلي ميل Rand Daily Mail الى أن أيام النضال السلمي قد ولّت. في اليوم الثاني للاعتصام، وبعد التشاور مع زملائي في القيادة، أعلنت عن إيقاف الاعتصام، والتقيت صباح ذلك اليوم في شقة آمنة في إحدى ضواحي البيض بعدد من الصحافيين المحليين والأجانب فأكدت من جديد على أن الاعتصام تم "بنجاح باهر". ولكنني لم أخف اعتقادي ببزوغ فجر جديد في جنوب أفريقيا، وقلت بكل وضوح: "إذا كان رد فعل الحكومة هو تحطيم نضالنا السلمي بالقوة فسوف نعيد النظر في أساليبنا. إننا في رأيي شارفنا على نهاية فصل من فصول سياسة اللاعنف".

كان تصريحا خطيرا، وكنت أعلم ذلك تمام العلم. تلقيت نقدا من اللجنة التنفيذية على الإدلاء بذلك التصريح قبل دراسة الأمر من قبل التنظيم، ولكن المرء ربما وجد نفسه أحيانا مجبرا على التصريح بسياسة معينة من أجل دفع التنظيم المتردد في الاتجاه الذي يريد.

ظل الجدال حول العنف واستعمال القوة دائرا داخل التنظيم منذ أوائل عام ١٩٦٠. وقد كنت ناقشت قضية النضال المسلح لأول مرة مع وولتر سيسولو عام ١٩٥٢، وتشاورت معه الآن من جديد فاتفقنا على أن التنظيم لا بد أن يتجه وجهة جديدة في العمل. كان الحزب الشيوعي أعاد تنظيم كوادره سرا وشرع في بحث فكرة تكوين جناح عسكري. اتفقنا على أن أثير موضوع النضال المسلح داخل لجنة العمل ففعلت ذلك في اجتماع عقد في يونيو ١٩٦١.

لم أكد أبدأ حديثي حتى انبرى لي موسى كوتاني، سكرتير الحزب الشيوعي ومن أقوى أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، فهاجمني هجوما عنيفا واتهمني بأنني لم أعط الموضوع ما يستحقه من الدراسة والتفكير. وقال كوتاني إنني تراجعت أمام مناورات الحكومة وشُل تفكيري فأصابني القنوط ولجأت الى التحدث بلغة الثوريين. وأضاف يقول:

– إن الوسائل القديمة ما تزال صالحة لو استخدمنا عقولنا وخيالنا وكنا أكثر تصميما. أما

إذا انطلقنا في الاتجاه الذي ينادي به مانديلا فسوف نعرض الناس الأبرياء للمذابح على يد العدو.

تحدث موسى بقوة، ولم يهب وولتر للدفاع عني، فأحسست بأن اقتراحي مرفوض وتراجعت فيه. تحدثت الى وولتر فيما بعد وعبرت له عما أحس به من إحباط وخيبة أمل وعاتبته على عدم الوقوف الى جانبي في النقاش فضحك وقال إنه لو ساندني لكان كالأحمق الذي يصارع فرقة من الأسود. وولتر دبلوماسي بارع واسع الحيلة، وقبل أن نفترق قال لي:

- دعني ارتب لقاء خاصا بينك وبين موسى وبإمكانك شرح وجهة نظرك له شخصيا.

وفعلا تم ذلك اللقاء بيني وبين موسى وقضينا يوما كاملا في نقاش متواصل حول الموضوع.

تحدثت بصراحة وشرحت الأسباب التي جعلتني أؤمن بأنه لم يعد أمامنا من خيار سوى استعمال العنف والقوة، وضربت له المثل الأفريقي القائل: "هجمات الحيوان المتوحش لا ترد بأيد عزّل". موسى شيوعي معتق، فقلت له إن موقفه شبيه بموقف الحزب الشيوعي في كوبا بقيادة باتيستا الذي ظل يصر على أن الوقت المناسب للانتفاضة لم يحن وتمسك بحرفية ما قاله لينين وستالين. ولكن كاسترو لم ينتظر فتحرك وانتصر. وقلت لموسى بكل صراحة إن كان ينتظر الظرف المثالي للثورة كما تنص عليه الكتب والنظريات فإن ذلك الظرف لن يأتي، وإن تفكيره قد تجمد على صورة الحزب القديمة عندما كان منظمة معترفا بها. وقلت إن الناس بدأوا في تشكيل وحدات مسلحة خاصة وإن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي هو المنظمة الوحيدة القادرة على قيادتهم. لطالما قلنا إن الجماهير سابقة لنا وهي في هذه الحالة سابقة لنا فعلا.

بعد يوم كامل من النقاش قال لي موسي:

- لا أعدك بشيء يانلسون، ولكن لك أن تطرح الموضوع من جديد أمام اللجنة ودع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.

عقد اجتماع للجنة بعد أسبوع من ذلك التاريخ فطرحت الموضوع من جديد. التزم موسى الصمت هذه المرة، وأجمع الحاضرون على أن أعرض الإقتراح على اللجنة التنفيذية العامة في اجتماعها القادم في ديربان. نظرت الى وولتر فرأيته مبتسما.

عقد اجتماع اللجنة التنفيذية العامة في ديربان بصورة سرية كما هو الحال في كل اجتماعات الحزب آنذاك، وعقد ليلا تفاديا لعيون الشرطة. كنت أتوقع بعض الصعوبات في طرح الموضوع لكون الزعيم لوتولي سيحضر الاجتماع وكنت على علم بالتزامه الأخلاقي لنبذ العنف. كما كنت متوجسا من التوقيت لأنني سأعرض موضوع استعمال القوة بعد انتهاء محاكمة الخيانة بوقت قصير حيث أكدنا أمام المحكمة التزام الحزب الأبدي بمبدأ السلم ونبذ العنف، وليس كمجرد وسيلة نكيفها حسب ما تتطلبه الظروف. كان إيماني الشخصي

هو عكس ذلك تماما إذ كنت أرى أن النضال السلمي وسيلة يمكن التخلي عنها عندما تفقد جدواها.

وفي ذلك الاجتماع قلت إن الدولة لم تترك لنا بديلا للعنف، وإنه من الخطأ ومن المنافي للأخلاق أن نعرض أبناء شعبنا لسلاح الدولة دون أن نقدم لهم بديلا يواجهونها به. وأشرت من جديد الى أن الناس بدأوا يحملون السلاح من تلقاء أنفسهم وأن استعمال العنف سيبدأ بنا أو بدوننا. وتساءلت: أليس من الأفضل أن نقوم نحن بتوجيه استعمال القوة بناء على ما نؤمن به من مبادىء كي نحمي أبناء الشعب ونوجه هجومنا نحو رموز الظلم والاستبداد؟ وقلت إن لم نأخذ بزمام المبادرة الآن فسوف نجد أنفسنا في الصفوف الخلفية نلهث وراء حركة لا سيطرة لنا عليها.

عارض الزعيم لوتولي في بداية الأمر ما طرحته من أفكار. فالعنف من وجهة نظره ليس مجرد تكتيك. ولكننا ألححنا في الأمر، وأعتقد أنه في صميم قلبه كان مقتنعا بأننا على صواب، فوافق في نهاية المطاف على أن الحملة العسكرية أمر لا مفر منه. وعندما أشار أحد الحاضرين الى احتمال أن يكون الزعيم غير مستعد لهذا التحول رد عليه بحدة قائلا:

- إذا كان هناك من يعتقد أنني أرفض حمل السلاح فليحاول سرقة دجاجاتي ليكتشف خطئه!

صدقت اللجنة التنفيذية رسميا على القرار المؤقت الذي اتخذته لجنة العمل، وأشار الزعيم لوتولي وآخرون بأن نتعامل مع هذا القرار وكأن الحزب لم يناقشه إطلاقا. فهو لم يكن يرغب في تعريض حلفائنا في النضال، الذين لم تمنع نشاطاتهم، للخطر. وكان رأيه أن تظل الحركة العسكرية كيانا منفصلا مستقلا، مرتبطا بالحزب وخاضعا لسيطرته، على أن يظل في حقيقة الأمر فصيلا قائما بذاته، وبذلك يتفرع النضال الى تيارين منفصلين. وافق الجميع وبدون تردد على اقتراح الزعيم، وحذر هو وآخرون من أن نتخذ من التوجه الجديد للنضال ذريعة للتخلي عن المهام الأساسية للحزب والوسائل التقليدية للنضال. وقال إن ذلك سوف يؤدي بنا الى هزيمة داخلية لأن النضال المسلح لن يحتل - في المراحل الأولى على الأقل - الأولوية في برامج الحركة.

في الليلة التالية عقد اجتماع مشترك في ديربان على مستوى اللجان التنفيذية شارك فيه حزب المؤتمر الهندي والمؤتمر الشعبي للملونين، واتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا ومؤتمر الديمقراطيين. ورغم أن هذه التنظيمات اعتادت الموافقة على قرارات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي كنت أعلم أن زملاءنا الهنود سيقفون بشدة ضد التوجه نحو استعمال القوة.

كانت بداية الاجتماع فاترة جدا إذ أعلن الزعيم لوتولي أنه رغم أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي اتخذ قرارا باستعمال العنف "فإنني نظرا لخطورة الموضوع أدعو زملائي في هذا اللقاء الى دراسته من جديد". لا شك في أن الزعيم لم يكن مقتنعا اقتناعا كاملا بالخط النضالي الجديد.

افتتح الاجتماع في الثامنة مساء وكان عاصفا منذ البداية . طرحت الموضوع بحذافيره من جديد وأبدى كثير من الحاضرين تحفظاتهم . فقد توسل إلينا يوسف كاتشاليا والدكتور نايكر ألا نتجه هذا الإتجاه وقالا إن الدولة ستسحق حركة النضال عن بكرة أبيها . ونطق دجي ان سينغ، ذلك المحاور البارع، بكلمات ما يزال صداها يرن في أذني إذ قال: "إن النضال السلمي لم يخذلنا ولكننا نحن الذين خذلنا النضال السلمي" . ولكنني أجبته بأن النضال السلمي في الحقيقة خذلنا فعلا لأنه لم يُجد شيئا في صد العنف الذي تمارسه الدولة ضدنا أو في تغيير نفوس جلادينا.

تحاورنا ساعات طويلة وبحلول آخر الليل بدأت أحس بأننا أحرزنا تقدما نحو الاتفاق. فقد أخذ كثير من القادة الهنود يتحدثون بحسرة عن نهاية حقبة العمل السلمي . وفجأة اندفع ام دي نايدو M D Naidoo، عضو المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا، موجها خطابه لزملائه الهنود وقال:

– حقيقة الأمر هي أنكم تخشون السجن، أليس كذلك؟

عندما تتحدى كرامة إنسان ما فتوقع منه المقاومة والتصدي . ساد الاجتماع هرج ومرج وعاد النقاش من حيث بدأ ولكن مع بزوغ الفجر توصلنا الى قرار كُلفتُ بموجبه بالشروع في تشكيل تنظيم عسكري منفصل عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، على أن تظل سياسة الحزب الرسمية هي النضال السلمي . كما منحت تفويضا كاملا بالتعاون مع من أرى في تأسيس هذا التنظيم وألا أخضع لسيطرة التنظيم الأم .

كانت تلك خطوة حاسمة في تاريخ الحزب الذي ظل خمسين عاما يعتبر العمل السلمي ونبذ العنف من صميم سياسته بلا جدال أو نقاش . ولكن الحزب سيكون – من الآن فصاعدا – تنظيما مختلفا اختلافا كاملا . لقد وضعنا أقدامنا على طريق جديد تحفه مخاطر كثيرة . إنه طريق العنف المنظم الذي لم نكن نعلم – ولا في مقدورنا أن نعلم – نهايته أو عواقبه.

- ٤٢ -

أوكلت إلي مهمة تكوين جيش ولم أكن جنديا قط ولم أخض حربا قط ولم أطلق رصاصة واحدة في وجه عدو. إنها مهمة هائلة ينوء بحملها أعتى الجنرالات ناهيك عن مبتديء مثلي. اخترنا للمنظمة الجديدة اسم أمخونتو وي سيزوى Umkhonto we Sizwe ومعناها "رمح الأمة" ويرمز اليها بالاسم المركب MK (أمكا). وقد اختير الرمح لأنه السلاح الذي واجه به الأفريقيون الغزاة البيض عدة قرون.

لم تتقيد منظمة (أمكا) بعدم تجنيد البيض في صفوفها كما هو الحال بالنسبة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكان أول من جندت جو سلوفو الذي أصبح بالاضافة الى وولتر سيسولو العضو الثالث في القيادة العليا التي توليت أنا رئاستها. كما جندت عن طريق جو امكانيات عدد من أعضاء الحزب الشيوعي الذي كان قرر تبني العنف ونفذ أعضاؤه عددا من العمليات التخريبية كقطع خطوط التلفون ووسائل الإتصال الحكومية. كما جندنا جاك هودجسون Jack Hodgson الذي شارك في الحرب العالمية الثانية وكان عضوا في رابطة سبرينغبوك للمحاربين Springbok Legion ورستي بيرنستاين، وكلاهما عضو في الحزب. كان جاك أول خبير متفجرات في المنظمة، وتلخصت مهمتنا في تنفيذ عمليات مسلحة ضد الدولة دون تحديد نوعها أو شكلها. عقدنا النية على تنفيذ عمليات تؤدي الى إحداث أكبر ضرر للدولة وأقل ضرر في الأرواح.

شرعت في هذا العمل بالطريقة الوحيدة التي أتقنها تماما وهي القراءة والتحدث الى أصحاب الخبرة، وكان همي الأكبر هو تحديد المباديء الأساسية التي تقوم عليها الثورة. عثرت على مادة مكتوبة غنية حول الموضوع فأخذت أقرأ ما توفر لدي من مطبوعات في الحرب المسلحة وفي حرب العصابات بوجه خاص. كنت أسعى الى الإجابة على الأسئلة الأساسية الهامة لتنظيم قوة فدائية: ما هي الظروف المناسبة لقيام حرب عصابات وما هي متطلباتها؟ كيف يتم تكوين قوة مقاتلة وتدريبها ورعايتها؟ كيف يمكن تسليحها، وما هي مصادر الدعم اللازمة لذلك؟

أصبحت مهتما بكل المصادر، فقرأت تقرير بلاس روكا Blas Roca سكرتير عام الحزب الشيوعي في كوبا عن سنواته التي قضاها عاملا في منظمة محظورة إبان حكم باتيستا. وقرأت في كتاب كوماندو Commando لدينيس رايتز Deneys Reitz عن وسائل الحرب غير النظامية التي خاضها جنرالات البوير خلال حربهم ضد بريطانيا. قرأت كتابات تشي غيفارا Che Guevara وماو تسي تونغ Mao Tse-tung وفيديل كاسترو Fidel Castro كما قرأت ما كتب عنهم. وفي كتاب أدغار سنو Edgar Snow الرائع بعنوان نجم أحمر في سماء الصين Red Star Over China رأيت كيف كان لتصميم ماو ولتفكيره الثوري غير التقليدي الفضل الأكبر في النصر الباهر الذي حققه. قرأت كتاب الثورة The Revolt لمناحن بيغن

وشجعني أن بيغن قاد حرب عصابات في أرض خالية من الجبال والغابات تشبه طبيعة الأرض في جنوب أفريقيا. كنت حريصا على التعرف على تفاصيل الكفاح المسلح الذي خاضه شعب الحبشة ضد موسوليني وعلى نشاط الجماعات الفدائية التي حاربت في كينيا والجزائر والكاميرون.

عدت الى ماضي جنوب أفريقيا فدرست تاريخنا قبل مجيء الرجل الأبيض وبعده، ودرست حروب الأفريقيين ضد بعضهم البعض وحروبهم ضد الرجل الأبيض وحروب البيض فيما بينهم. كما قمت بمسح شامل للمناطق الصناعية ونظام المواصلات وشبكات الإتصال، وجمعت خرائط تفصيلية للبلاد ودرست تضاريس جميع المناطق والأقاليم دراسة تحليلية مفصلة.

في ٢٦ يونيو ١٩٦١، ذكرى عيد الحرية، أصدرت بيانا للصحف من مخبئي السري أثنيت فيه على ما أظهره أبناء الشعب من شجاعة أثناء حملة الاعتصام في المنازل قبل ذلك بأسابيع وكررت الدعوة لعقد مؤتمر وطني عام للدستور. وأكدت على أن حملة لعدم التعاون مع السلطة ستعلن في جميع أنحاء البلاد إذا ما امتنعت الدولة عن تنظيم مؤتمر الدستور. وجاء في ذلك البيان ما يلي:

> علمت بصدور أمر بالقبض عليّ وبأن الشرطة تبحث عنيّ. وقد درس مجلس العمل الوطني هذا الأمر دراسة جادة ونصحني بعدم تسليم نفسي، وقد قبلت بتلك النصيحة. وعليه فلن أسلم نفسي لحكومة لا أعترف بها. إن العقلاء من رجال السياسة يدركون أن السعي وراء الشهادة الرخيصة بتسليم نفسي للشرطة أمر في غاية السذاجة، بل هو جريمة...
>
> لقد فضلت السبيل الأصعب والأخطر بكل مشاقه وتبعاته على الجلوس داخل السجن. هجرت زوجتي وأطفالي وأمي وأخواتي لأعيش داخل وطني مطاردا من قبل القانون. اضطررت الى التخلي عن مهنتي والى العيش على الكفاف أسوة بكثير من أبناء شعبي. وسأحارب هذه الحكومة معكم جنبا الى جنب، وشبرا بشبر حتى النصر. فماذا ستعملون؟ هل ستنضمون الى صفوفنا أم تتعاونون مع الحكومة في جهودها لقمع مطالب أبناء شعبكم وطموحاتهم؟ هل ستلتزمون الصمت والحياد في قضية شعبنا التي هي قضية حياة أو موت؟ أما أنا فقد اخترت طريقي: لن أغادر جنوب أفريقيا ولن أستسلم.
>
> إن الحرية لا تتحقق إلا بتحمل المشاق والتضحيات والمواجهة والتحدي. النضال هو حياتي، وسأواصل نضالي من أجل الحرية حتى الموت.

-٤٣-

أقمت خلال الشهور الأولى من اختفائي عدة أسابيع مع أسرة في ماركت ستريت ثم أقمت في شقة من غرفة نوم واحدة مع وولفي كوديش Wolfie Kodesh في بيريا Berea وهي ضاحية هادئة مخصصة للبيض الى الشمال من وسط جوهانسبيرغ. كان وولفي عضوا في حزب مؤتمر الديمقراطيين وصحافيا بجريدة نيو آيدج وممن شاركوا في الحرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا وإيطاليا. استفدت كثيرا من خبرته بشؤون الحرب والقتال وتجاربه الشخصية الميدانية، وقرأت بناء على اقتراح منه كتاب الجنرال البروسي كارل فون كلوسيفيتز Karl von Clausewitz بعنوان الحرب On War. يدور الكتاب حول فكرة أن الحرب امتداد للدبلوماسية ووسيلة أخرى من وسائلها، ووجدت في نفسي تجاوبا كاملا. اعتمدت على وولفي في الحصول على مواد للقراءة ويؤسفني أن أقول إنني استحوذت على وقته كله، ولكنه كان ودودا ومتواضعا جدا فلم يشكُ ولم يضجر.

قضيت في شقة وولفي قرابة شهرين أنام على سرير متنقل، وكنت أقضي النهار في القراءة والإعداد والتخطيط وراء ستائر مسدلة داخل الشقة، ولا أخرج للاجتماعات أو اللقاءات إلا ليلا. كنت أزعج وولفي كل صباح إذ أسيقظ من النوم في الخامسة فأرتدي ملابسي الرياضية وأهرول في مكان واحد لأكثر من ساعة، ولكنه استسلم لبرنامجي وصار يشاركني التمرينات الرياضية كل صباح قبل أن يذهب الى عمله.

بدأ جنود (أمكا) في التدرب على التفجير. وذات ليلة رافقت وولفي في زيارة مركز مهجور خارج المدينة لاقتلاع الطوب يستخدم فيه الديناميت بصورة روتينية لتكسير الطين الذي يصنع منه الطوب المستخدم في البناء. كان خروجي مخاطرة أمنية ولكنني كنت حريصا على مشاهدة أول تجربة للمنظمة في التفجير. أحضر جاك هودجسون علبة مملوءة بنتريت الغليسرين، وهي مادة شديدة التفجّر، وأعد جهاز توقيت مستخدما قلم حبر جاف. كانت ليلة مظلمة وما كان معنا سوى مصباح واحد صغير. عند انتهاء جاك من تحضير المتفجر وقفنا على بعد مسافة منه وبدأ العد التنازلي لمدة ثلاثين ثانية. انطلق دوي تفجير هائل وتناثر التراب في كل اتجاه. كانت العملية ناجحة، وبعد الإنتهاء منها عدنا الى سياراتنا وانصرفنا كل في طريقه.

أحسست بالأمان في بيريا. لم أكن أخرج من الشقة ونظرا الى أنها منطقة للبيض لم تكن الشرطة لتبحث عني فيها. في النهار أنصرف الى القراءة، وكنت أضع حليبا على عتبة النافذة ليختمر في حرارة الشمس. كنت مغرما بالحليب الرائب الذي يسميه الكوسا أماسي amasi ويعتبرونه من أكثر الأطعمة صحة وفائدة للجسم، وهو سهل الإعداد إذ لا يحتاج الى أكثر من تعريض الحليب للشمس والهواء الطلق حتي يتحمض ويتحول الى ما يشبه اللبنة. وقد تمكنت من إقناع وولفي بتناوله وإن أبدى اشمئزازا عند تذوقه.

كنت جالسا في إحدى الأمسيات مع وولفي نتجاذب أطراف الحديث وسمعت صوت

شابين أسودين يتكلمان بلغة الزلو ولم أتمكن من رؤيتهما لأن الستارة كانت مسدولة. أشرت لوولفي بالصمت فسمعت أحدهما يسأل صاحبه:

- ما الذي جاء بـ "حليبنا" الى عتبة هذه النافذة؟

فأجابه الآخر باستغراب:

- عما تتحدث؟ ماذا تقصد؟

- انظر هناك. أماسي على عتبة النافذة. ما الذي جاء به هنا؟

انقطع الحديث وعاد الصمت. كان ذلك الشاب الفطن يقول لا يعرف الأماسي إلا رجل أسود، ولكن ما الذي أتي برجل أسود في منطقة للبيض؟ فطنت الى ضرورة الرحيل فانتقلت الى مخبأ آخر.

* * *

أقمت في بيت أحد الأطباء في جوهانسبيرغ وكنت أنام في القسم الخاص بالخدم ليلا وأعمل في حجرة المطالعة أثناء النهار، وكلما أتى زائر الى البيت بالنهار كنت أهرع الى الحديقة الخلفية متظاهرا بأنني البستاني. ثم قضيت نحو أسبوعين في حقل للسكر في ناتال حيث أقمت مع مجموعة من العمال الأفريقيين وأسرهم في قرية صغيرة تسمى تونغات Tongaat تقع على ساحل البحر بالقرب من ديربان. كما أقمت في نُزُل صغير متظاهرا بأنني خبير زراعي مبعوث من قبل الحكومة لتثمين الأرض.

زودني التنظيم بأدوات وأجهزة يستخدمها المدربون وكنت أقضي جزءا من نهاري في اختبار التربة وإجراء التجارب. لم أكن أفهم شيئا مما كنت أقوم به ولا أعتقد أنني تمكنت من خداع أهل توغات، ولكن أولئك الناس، وغالبيتهم من عمال المزارع، يتمتعون بحصافة بديهية في التحفظ والكتمان فلم يسألوا عن هويتي حتى عندما زارني أناس بسياراتهم كان بعضهم من الشخصيات السياسية المعروفة في المنطقة. كنت غالبا ما أقضي الليل كله في الاجتماعات وأنام بالنهار وهذا ليس من طبيعة الخبير الزراعي. ورغم انشغالي بأمور أخرى أحسست بألفة نحو أولئك السكان. كنت أذهب الى الكنيسة أيام الأحد وكنت استمتع بخطب رجال الكنيسة وأسلوبهم في عرض الكتاب المقدس. وقبل أن يحين موعد مغادرتي القرية بقليل ذهبت لأقدم شكري لأحد المسنين على ما قدمه لي من رعاية وعناية فقال لي:

- أهلا ومرحبا بك أيها الشاب، ولكن دعني أسألك ماذا يريد منك الزعيم لوتولي؟

فوجئت بالسؤال وتمالكت نفسي لأقول:

- من الأفضل أن تسأله عن ذلك بنفسك لأنني لا أستطيع أن أتحدث نيابة عنه، ولكن يبدو لي أنه يريد أن يسترد أرضنا ويريد لملوكنا أن يستردوا قوتهم ونفوذهم، ويريد لنا أن نقرر مستقبلنا بأنفسنا وأن نعيش حياتنا كما نحب ونرغب.

- وكيف له أن يحقق ذلك كله وهو لا يملك جيشا؟

كدت أن أخبر ذلك الشيخ العجوز بأنني أعد لتشكيل ذلك الجيش ولكن أنى لي ذلك. رفعت كلمات ذلك الشيخ من معنوياتي ولكنني أصبحت قلقا من احتمال أن تكون مهمتي قد انكشفت وأحسست بأن الوقت قد حان للرحيل من جديد، فحزمت امتعتي وغادرت تلك القرية في هدوء وسلام.

- ٤٤ -

كانت المحطة التالية مزرعة ليليزليف Liliesleaf Farm وانتقلت إليها في أكتوبر. تقع المزرعة في ضاحية ريفونيا Rivonia الرعوية شمال جوهانسبيرغ، وكانت أشبه ما تكون بدير رهبان. تتكون ريفونيا في غالبها من مزارع، ومقسمة الى قطع صغيرة من الأراضي المستأجرة. يقع البيت الذي أقمت فيه على قطعة أرض كانت الحركة اقتنتها لاستخدامها ملاذا آمنا للذين يلتحقون بالعمل السري. كان بيتا قديما في حاجة لبعض الترميمات وكان مهجورا لا يسكنه أحد.

انتقلت الى ذلك البيت بصفتي القيم على رعايته ريثما يصل سيدي الذي يملكه ليتسلمه، وانتحلت اسم ديفيد موتساماي David Motsamayi وهو اسم أحد زبائني القدامى في مكتب المحاماة. كنت أرتدي بدلة الخدم الزرقاء التي اعتاد الرجال السود ارتداءها، وكان البيت بالنهار يعج بالخدم والبنائين الذين تولوا ترميم المبنى الرئيسي وطلائه وتصليحه، وتوسعة المباني الأخرى في المزرعة. فقد قررنا إضافة حجرات صغيرة لإيواء عدد أكبر من الناس. كان العمال كلهم من الأفريقيين من ضاحية أليكساندرا وكانوا ينادونني "النادل" أو "الصبي" ولم يجد أحد منهم ضرورة لأن يسأل عن اسمي. كنت أحضر لهم طعام الفطور وأعد الشاي، وكانوا يرسلونني في مهمات مختلفة داخل المزرعة أو يكلفونني بالتنظيف أو التخلص من الأوساخ والنفايات.

وذات يوم ناديتهم لتناول الشاي في المطبخ فحضروا وأدرت بينهم طبقا فيه أكواب وشاي وحليب وسكر فأخذ كل منهم نصيبه، وكان أحدهم يروي حكاية. أخذ الرجل كوب الشاي وبدلا من أن يأخذ ما يريد من السكر ويعيد الملعقة في الطبق أمسك بها وأخذ يلوح بها في يده وهو مستغرق في عرض روايته، فضقت ذرعا بالانتظار وهممت بالانتقال الى الرجل الذي يليه فنهرني قائلا:

- ارجع يا نادل فلم أسمح لك بالذهاب.

هناك من يرسم للمجتمع الأفريقي صورة مثالية، وهي صورة أوافق عليه في أغلب الأحيان، ولكن الحقيقة هي أن الأفريقيين لا يعامل بعضهم بعضا من منطلق المساواة في جميع الأحوال. فقد كان للتصنيع دور هام في تعليم الرجل الأفريقي الريفي الإحساس بالطبقية البارزة في مجتمع البيض. كنت بالنسبة الى أولئك العمال مجرد خادم من طبقة أدنى، لا حرفة لي ولا تجارة، ولذا فينبغي أن أعامل باحتقار وازدراء. يبدو أنني تقمصت دوري بإتقان إذ لم يتسرب الى أحد منهم شك في أنني شخص غير ذلك الذي يراه أمامه.

كان العمال يعودون الى بيوتهم عند الغروب كل يوم وكنت أقضي الليل كله بمفردي. كنت أستمتع بتلك الساعات الهادئة وكنت أذهب أحيانا لحضور اجتماعات في أماكن أخرى ثم أعود في ساعة متأخرة من الليل. كنت غالبا ما أعود خائفا أترقب الى ذلك المكان الذي

لم أتعود عليه والذي كنت أقيم فيه بصورة غير قانونية وتحت اسم مستعار. وأذكر أنه انتابني الخوف ذات ليلة حين ظننت أنني رأيت غريبا في المزرعة يتسلل بين الأشجار. تحققت من الأمر فلم أعثر على شيء. إن المناضل الذي يعمل في الخفاء لا يعرف إلا النوم الخفيف.

بعد عدة أسابيع التحق بي في المزرعة ريموند امهلابا وكان قادما من بورت إليزابيث. وكان ريموند من عتاة رجال نقابات العمال وعضوا في اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الأفريقي في الكيب وعضوا في الحزب الشيوعي، وكان أول من اعتقل في حملة التحدي. اختير ريموند من قبل الحزب كأول المجندين لحركة (أمكا) وجاء ليعد لرحلة يقوم بها مع ثلاثة أعضاء آخرين الى جمهورية الصين الشعبية لتلقي تدريبات عسكرية. فقد جددنا الإتصال بالصين الذي بدأه وولتر سيسولو عام ١٩٥٢ . مكث ريموند في صحبتي أسبوعين وأعطاني فكرة أوضح عن المشاكل التي يواجهها الحزب في الكيب الشرقي. كما استعنت به في كتابة النظام الأساسي لحركة (أمكا) الذي شاركنا في صياغته أيضا جو سلوفو ورستي بيرنستاين.

بعد أن غادر ريموند التحق بي مايكل هارميل لفترة قصيرة وهو من الشخصيات الرئيسية في الجناح السري للحزب الشيوعي وعضو مؤسس في مؤتمر الديمقراطيين ومحرر في مجلة ليبيراشن Liberation. كان مايكل منظرا مبدعا وكان مشغولا بأمور تتعلق بسياسات الحزب الشيوعي وفي حاجة الى مكان هادىء وآمن يتفرغ فيه لذلك العمل.

كنت أتفادى مايكل أثناء النهار إذ أن حديث خادم أفريقي مثلي مع رجل أبيض مثل مايكل كان من شأنه أن يلفت الأنظار ويثير فضول من حولنا. أما في المساء وبعد أن يغادر العمال المزرعة فكنا نقضي ساعات طوالا في الحديث عن العلاقة بين الحزب الشيوعي وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. عدت ليلة من اجتماع في ساعة متأخرة فرحت أطمئن على أن الأبواب مقفلة والأنوار مطفأة في المبنى. كان عليّ اتخاذ كل الإحتياطات لأن وجود رجل أسود بسيارة في تلك البقعة من ريفونيا وفي تلك الساعة من الليل مثير للإنتباه والتساؤل. وبينما كنت أطوف المبنى لاحظت نورا ينبعث من البيت وسمعت صوت المذياع عاليا وكان الباب الرئيسي مفتوحا فدخلت ووجدت مايكل على سريره يغط في نوم عميق. انتابني الحنق لهذا التهاون الأمني فأيقظته قائلا:

- كيف لك أن تنام وتترك النور مضاءً والمذياع مفتوحا بهذه الصورة؟

انتبه يترنح وكان غاضبا فقال:

- هل كان لزاما عليك أن تزعجني في نومي؟ أليس بإمكانك الإنتظار حتى الصباح؟

أجبته بالنفي لأن الموضوع موضوع أمن فانبته على تساهله في هذا الصدد.

بعد ذلك بقليل جاء آرثر غولدريتش Arthur Goldreich وأسرته للإقامة في البيت الرئيسي وانتقلت أنا الى أحد بيوت الخدم أقيم حديثا. شكل مجيء آرثر غطاء آمنا لنشاطنا.

فقد كـان فنانا ومصمما، وكـان عضوا في مؤتمر الديمقراطيين ومن أوائل من التـحق بحركة (أمـكـا). لم تكن الشرطة تعـرف عن نشاطه السياسي شـيئا ولـم يسبق له أن استجوب من قـبلهم أو شـملته أي مـداهمـات . حـارب آرثر عام ١٩٤٠ فـي صفـوف الجناح العـسكري للحركـة الوطنية اليهودية فـي فلسطين المعروف باسم بالماخ . كـان على دراية بفنون حـرب العصابات وسـاعدني في استكمال كـثير مما كان ينقـصني من علم بذلك النوع من الحروب. كما أضفى آرثر بشخصيته المرحة على المزرعة جوا من البهجة والحبور.

آخر من التحق بالمزرعة كان السيد جيلليمان Mr Jelliman وهو شيخ أبيض لطيف المعشر وصديق قديم للحركـة تولى الإشراف على المزرعة . أتى جيلليمان بعدد من العمال الشباب من سيـخوخونيلاند وسـرعان ما أصبـحت المزرعة كأي عزبة أخـرى في البلاد . لـم يـكـن جيلليـمان عضوا في الحـزب ولكنه كان مخلصا كـتوما مثـابرا على العمل . كنت أعـــد له الفطور والعشاء وكان مفعما بالكرم والبشاشة . وقد خاطر جيلليمان في وقت لاحق بحياته ووظيفته في محاولة جريئة لمساعدتي.

كان أسـعد الأوقات التي قـضيتـها في المزرعة تلك التي كـانت تزورني فيهـا زوجتي مع أطفـالي . بمجرد أن استقرت أسرة غـولدريتش في المزرعة صارت ويني تتردد علي في عطلة الأسـبـوع . كانت تتحـرك بحذر، فكان أحد الرفاق يأخذها من البـيت الى مكان ما حيث يتسلمها رفيق آخر قبل أن تصل الى المزرعة . وكانت في الآونة الأخيرة تقود السيارة بنفسها وتسلك الى المزرعة طريقا ملتوية تفاديا للرقابة والملاحقة . لم تكن الشرطة حتى ذلك الوقت تلاحق جميع تحركاتها.

كان الزمن في عطـلة الأسبوع يتـوقف أحيانا إذ كنـا نتظاهر بأن تلك اللقاءات المخـتلسة هي الأصل في حيـاتنا وليسـت الاسـتـثناء . ومن الغـريب أن الخلوة التي توفــرت لنا في ليليـزليف لم نـكن نلقـاها حـتى في بيـتنا . وكـان الأطفـال يقـضـون الوقـت كله في المرح واللعب، وكنا نشعر بالأمان، ولو لفترة قصيرة، في ذلك الجو الريفي الحالم.

جاءت لي ويني ببندقـية هوائية كنت اقـتنيتها في أورلانـدو، وكنا أنا وآرثر نستخدمـها للتدرب على القنص وفي الصيد . صوبت البندقية يوما نحو عصفور على شجرة في جانب من جوانب الحديقة وكانت هيزل زوجة آرثر تراقـبني وقالت مازحة إنني لن أصيب الهدف. ولكنها لم تلفظ كلماتـها تلك حتى سقط العصفـور من على الشجرة . التفت إليـها مفتـخرا بمهارتي في القنص فبادرني إبنها بول، وعمره خمس سنوات، وقد سالت الدموع من عينيه متسائلا :

– لماذا قتلت هذا العصفور يا ديفيد؟ أمه ستكون حزينة اليوم.

تحول شـعوري على الفور من الفـخر الى الخجل وأحـسست بأن ذلك الطفل كان أكـثر إنسانية مني . إنه إحساس غريب من رجل يقود جيشا وليدا يستعد لخوض حرب فدائية.

- ٤٥ -

في التخطيط للاتجاه الذي ستسلكه حركة (أمكا) تركز النقاش حول أربعة مجالات من العمل المسلح: التخريب، وحرب العصابات، والإرهاب، والثورة المعلنة. الثورة الشاملة أمر غير وارد بالنسبة لجيش وليد صغير كالذي نعده. أما الإرهاب فإن له عواقب غير حميدة على من يمارسونه، ويُضعف من أي مساندة شعبية يمكن أن نحصل عليها. حرب العصابات احتمال قائم، ولكن نظرا الى أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ظل مترددا في تبني استعمال العنف فإن من الحكمة البدء بالوسيلة التي تأتي بأقل ضرر على الأفراد وهي عمليات التخريب.

وحيث أن التخريب لا يترتب عليه إزهاق أرواح فهو يحفظ الأمل الأكبر في المصالحة بين الأجناس المختلفة فيما بعد، ولم نكن نهدف الى خلق ثارات دموية بين البيض والسود. فها هي العداوة لا تزال قائمة على أشدها بين الأفريكان والإنجليز بعد مرور خمسين عاما على الحرب البويرية، فإلى أين ستنتهي العلاقة بين السود والبيض إن نحن أشعلناها حربا أهلية بين الطرفين؟ ومن ميزات الأعمال التخريبية أيضا أنها تتطلب أقل عدد ممكن من العناصر البشرية.

كانت الاستراتيجية تقوم على هجمات محددة تستهدف منشآت عسكرية ومحطات توليد الطاقة وخطوط التلفون وشبكة المواصلات، وهي أهداف لا يقتصر تخريبها على عرقلة القدرة العسكرية للدولة وحسب بل يبث الرعب في صفوف أنصار الحزب الوطني الحاكم وبين أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية وسيفت في عضُد اقتصاد الدولة. وكنا نأمل أن أعمالا من هذا القبيل سوف تجبر الحكومة على الجلوس حول مائدة المفاوضات. صدرت تعليمات مشددة لأعضاء (أمكا) بأننا لن نقبل بأي خسائر في الأرواح. فإذا لم تحقق الأعمال التخريبية النتائج التي نسعى إليها فسوف ننتقل الى المرحلة التالية وهي حرب العصابات والإرهاب.

تركيبة (أمكا) التنظيمية صورة طبق الأصل للتنظيم الأم. تأتي القيادة العليا على رأس التنظيم تليها قيادات إقليمية في كل منطقة من المناطق وتلي ذلك قيادات وخلايا محلية. أقيمت قيادات إقليمية في مختلف أنحاء البلاد وكان إقليم الكيب الشرقي مثلا يضم أكثر من خمسين خلية. تولت القيادة العليا تحديد الوسائل والأهداف العامة والإشراف على التدريب والتمويل، ومنحت القيادات الإقليمية صلاحية اختيار الأهداف المحلية في إطار السياسة التي تضعها القيادة العليا. منع جميع أعضاء (أمكا) من حمل السلاح أثناء تنفيذ العلميات وطلب منهم عدم تعريض الأرواح للخطر بأي شكل من الأشكال.

من أولى المشاكل التي واجهتنا ازدواجية الولاء بين (أمكا) وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. فقد كان غالبية المجندين أعضاء في الحزب ولهم نشاطات متعددة في الفروع التي ينتمون إليها، ولكننا وجدنا أنه بمجرد انخراطهم للعمل في (أمكا) امتنعوا عن تأدية ما كانوا

يقومون به من نشاطات محلية، فلاحظ أمناء الفروع تغيب أشخاص معينين عن الاجتماعات بدون سبب أو إذن. وربما دار بين أمين عام الفرع وأحد المتغيبين الحوار التالي:

- لماذا تغيبت عن الاجتماع ليلة البارحة؟

- آه، لقد ذهبت الى اجتماع آخر.

- أي اجتماع هذا الذي حضرته؟

- آه، لست مخولا بأن أخبرك بذلك.

- لا تستطيع أن تخبرني وأنا أمين عام فرعك الذي تنتمي إليه؟

ولكن سرعان ما يكتشف مسؤول الفرع ارتباط العضو بالحركة الجديدة وتبرز ازدواجية الولاء. وعليه قررنا، بعد فترة من البلبلة وسوء الفهم، إخبار أمناء الفروع بمن ينضم من أعضائهم لحركة (أمكا).

كنت جالسا في المطبخ بمزرعة ليليزليف في يوم دافيء من أيام ديسمبر عندما سمعت في المذياع خبرا يقول إن الزعيم لوتولي منح جائزة نوبل للسلام في العاصمة النرويجية أوسلو، وكانت الحكومة منحته تأشيرة خروج لمدة عشرة أيام للذهاب لاستلام تلك الجائزة. كنت - بل كنا جميعا - سعداء بذلك الحدث لأن فيه - أولا وقبل كل شيء - اعترافا بنضالنا وبإنجازات الزعيم لوتولي كإنسان وكقائد لذلك النضال. كما أنه يمثل اعترافا من الغرب بأن نضالنا نضال أخلاقي شرعي تجاهلته الدول العظمى سنوات طويلة. كما كانت الجائزة صفعة في وجه الحزب الوطني الحاكم الذي كانت أجهزة دعايته تصور الزعيم لوتولي محرضا خطيرا يتزعم مؤامرة شيوعية كبرى ضد جنوب أفريقيا. أسقط في يد الأفريكان الذين رأوا الجائزة دليلا آخر على فساد الليبراليين في الغرب وتحيزهم ضد البيض في جنوب أفريقيا. كان الزعيم عند الاعلان عن الجائزة يقضي سنته الثالثة من حظر سياسي دام خمس سنوات حددت بموجبه إقامته في مدينة ستانغر بإقليم ناتال، وكان يعاني توعكا في صحته بسبب ضعف في القلب والذاكرة. ولكن حصوله على تلك الجائزة بعث في نفسه - كما بعث في أنفسنا أيضا - البهجة والسرور.

جاء ذلك التشريف لزعيم الحزب في وقت غير مناسب إذ تزامن مع إعلان آخر من شأنه أن يضفي ريبة على مصداقية الجائزة نفسها. بعد عودة لوتولي من أوسلو بيوم واحد أعلن عن تأسيس حركة (أمكا). وفي الساعات الأولى من صباح ١٦ ديسمبر - وهو اليوم الذي يحتفل فيه البيض في جنوب أفريقيا بذكرى يوم دينغانى Dingane's Day - أصدرت القيادة العليا لحركة (أمكا) أوامر بتفجير محطات توليد الطاقة ومكاتب حكومية في كل من جوهانسبيرغ وبورت إليزابيث وديربان. قتل في تلك العمليات - خطأ - أحد رجال الحركة وهو بطرس موليفى Petrus Molife وكان أول جندي من جنود الحركة يسقط في ميدان الكفاح. فالموت في الحرب حقيقة مؤلمة ولكن لا مفر منها، وكان كل جندي من جنود (أمكا) مدركا أنه معرض للتضحية بأعز ما يملك وهو حياته.

طُبعت أثناء التفجيرات آلاف النسخ من البيان التأسيسي لحركة (أمكا) وزعت في جميع أنحاء البلاد معلنة ميلاد حركة أومخونتو وي سيزوى أي "رمح الأمة". وجاء في ذلك البيان ما يلي:

> قامت وحدات تابعة لحركة "رمح الأمة" اليوم بتنفيذ عمليات منظمة ضد منشآت حكومية خاصة تلك التي لها علاقة بسياسة التفرقة العنصرية والتمييز العنصري. "رمح الأمة" حركة جديدة مستقلة من الأفريقيين تضم في صفوفها مواطنين من جميع الألوان والأعراق. وستواصل الحركة النضال من أجل الحرية والديمقراطية بوسائل جديدة وضرورية مكملة لنشاطات حركة التحرر الوطنية القائمة في الساحة....
>
> لا بد في تاريخ كل أمة من لحظة حاسمة تواجه فيها خيارين لا ثالث لهما: الإستسلام أو القتال. وقد حانت تلك اللحظة في جنوب أفريقيا. لن نستسلم، وليس أمامنا من خيار سوى أن نرد العدوان بكل ما في أيدينا من وسائل للدفاع عن شعبنا ومستقبلنا وحريتنا. .
>
> أننا في حركة (أمكا) نسعى - كما تسعى حركة التحرير بأكملها - لتحقيق التحرير بدون سفك دماء أو صراعات أهلية. وإننا لنأمل - في هذه الساعة المتأخرة - ان توقظ أعمالنا جميع المواطنين لإدراك حقيقة الكارثة التي تقودنا إليها سياسة الحزب الوطني. كما نأمل أن نعيد الحكومة وأنصارها الى رشدهم قبل فوات الأوان كي تتغير الحكومة وسياساتها قبل أن يفلت العقال وتنحدر الأمور نحو حرب أهلية. . .

كان اختيارنا ليوم ١٦ ديسمبر، ذكرى يوم دينغاني، للإعلان عن تأسيس الحركة سبب خاص. ففي ذلك اليوم يحتفل البيض في جنوب أفريقيا بهزيمة قائد الزولو دينغاني في معركة نهر بلود Blood River (نهر الدم) عام ١٨٣٨. دينغاني هو أخو شاكا Shaka وكان حاكما لأقوى دولة أفريقية ظهرت للوجود جنوب نهر ليمبوبوLimpopo River. تغلب في ذلك اليوم رصاص البويريين على رماح المحاربين الزولو واختلطت مياه النهر بدمائهم الحمراء. ويحتفل الأفريكان بذلك اليوم تخليدا لانتصارهم على الأفريقيين وتأكيدا لوقوف الإله الى جانبهم، بينما اعتبر الأفريقيون ذلك اليوم يوم حزن وحداد على رجالهم الذين ماتوا في تلك المذبحة. فاخترنا السادس عشر من ديسمبر لنؤكد للجميع أن الرجل الأفريقي قد أعلن بدء الحرب، وأن الحق - والديناميت - الى جانبنا.

فوجئت الحكومة بالتفجيرات ونددت بأعمال التخريب وقالت إنها جرائم نكراء ارتكبها هواة حمقى. كما أحدثت التفجيرات صدمة عنيفة بين البيض في جنوب أفريقيا وأشعرتهم بأنهم يعيشون على فوهة بركان. أما السود فقد انتبهوا الى أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لم يعد منظمة للمقاومة السلبية بل أصبح رمحا قويا يسير بالنضال الى قلب مركز قوة البيض. بعد أسبوعين من ذلك التاريخ وبمناسبة رأس السنة الميلادية الجديدة قمنا بتنفيذ سلسلة أخرى من التفجيرات. لم يكن اختلاط أصوات أجراس عيد الميلاد وصفارات سيارات الإسعاف والشرطة مجرد ضوضاء لا معنى لها لاستقبال السنة الجديدة، ولكنه كان نذيرا ببداية مرحلة جديدة في نضالنا من أجل الحرية في جنوب أفريقيا.

أثار اعلان قيام حركة (أمكا) حملة مضادة من قبل الحكومة لم يعرف لها مثيل في

وحشيتها وقسوتها . أصبحت المهمة الأولى لشرطة القسم الخاص هي القبض على أعضاء (أمكا)، ولم تألُ السلطات جهدا في متابعتهم وتقصي أثارهم . لقد أثبتنا للسلطات أننا لن نقف مكتوفي الأيدي، وأصبح لزاما عليهم أن يثبتوا لنا أن شيئا لن يقف في طريقهم من أجل القضاء على ما اعتبروه أكبر خطر يهدد وجودهم كله.

- ٤٦ -

كلما زارتني ويني تهيأ لي، ولفترة قصيرة، أن أسرتي لا تزال وحدة واحدة. أخذت زياراتها تقل لأن الشرطة أصبحت أكثر تيقظا لتحركاتها. كانت ويني تحضر معها زيندزي وزيناني ولم تكونا لصغر سنهما تدركان أنني متخف عن الناس. أما ماكغاتو، وعمره آنذاك أحد عشر عاما، كان على علم بالوضع وأعطي تعليمات واضحة بألا يكشف عن هويتي الحقيقية لأي أحد. ولاحظت أنه كان حريصا، بأسلوبه الخاص وعلى صغر سنه، على التكتم على الأمر.

وذات يوم كان ماكغاتو يلعب في المزرعة مع نيكولاس Nicholas إبن آرثر وهايزل Hazel غولدريتش، وعمره أحد عشر عاما هو الآخر، فعثرا على صورتي في أحد أعداد مجلة درام Drum كانت ويني أحضرته معها فصاح قائلا:

- إنه أبي.

لم يصدقه نيكولاس فأصر ماكغاتو على إثبات صحة ما قال فأخبر نيكولاس بأن اسمي الحقيقي هو نلسون فرد نيكولاس باستنكار:

- كلا. إن اسم أبيك ديفيد.

انطلق نيكولاس مسرعا الى أمه يسألها فأكدت له أن اسمي ديفيد فأخبرها بأن ماكغاتو يقول إن اسم أبيه نلسون. فزعت هايزل وأخبرتني بما جرى فأحسست من جديد بأن إقامتي في ذلك المكان قد طالت. مكثت في المزرعة نحو أسبوع آخر ثم ذهبت في مهمة زرت خلالها أماكن لم أكن لأحلم بأنني سأزورها. فها هو النضال يأخذني ولأول مرة الى خارج حدود الوطن.

***

وصلت حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ديسمبر من ذلك العام دعوة لحضور مؤتمر الحركة القومية لتحرير أفريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية Pan-African Freedom Movement for East Central and Southern Africa (PAFMECSA)، التي أصبحت في ما بعد تعرف باسم منظمة الوحدة الأفريقية، المزمع عقده في أديس أبابا في فبراير ١٩٦٢، تهدف الحركة الى الجمع بين الدول الأفريقية المستقلة ودعم حركات التحرر في القارة الأفريقية. وكان من شأن المؤتمر أن يوفر للحزب أول وأروع فرصة للاتصال والحصول على الدعم والتمويل والتدريب لأعضاء حركة (أمكا).

أوكلت الي اللجنة التنفيذية السرية برئاسة وفد الحزب الى المؤتمر. ورغم حرصي على زيارة بلدان أفريقية أخرى والتعرف على مناضليها انتابني قلق بشأن تراجعي فيما تعهدت به

من مواصلة العمل في الخفاء وعدم مغادرة البلاد. ألح عليّ زملائي، بمن فيهم الزعيم لوتولي، أن أذهب بشرط أن أعود الى جنوب أفريقيا بعد انتهاء المؤتمر مباشرة، فقررت الذهاب.

الهدف من الزيارة أكثر من مجرد حضور المؤتمر. فقد كنا نسعى للحصول على الدعم السياسي والمالي لقوتنا العسكرية الجديدة ثم، وهذا هو الأهم، الترتيب للتدريب العسكري لرجال الحركة في أكبر عدد ممكن من البلدان الأفريقية. كما كنت عازما على الدفع بمكانة الحزب في بقية البلدان الأفريقية التي لا تعرف عن الحركة إلا القليل. كان حزب المؤتمر القومي الأفريقي قام بحملة دعاية واسعة وكان من مهمتي عرض قضيتنا على أوسع نطاق ممكن.

قبل سفري ذهبت في زيارة سرية الى غراوتفيل Groutville للتشاور مع الزعيم لوتولي فالتقينا في بيت آمن بالمدينة ولم يكن لقاءً موفقا. شهد الزعيم تأسيس حركة (أمكا) وكانت تصله المعلومات عن تطورها أولا بأول. ولكن ذاكرة الزعيم أصبحت ضعيفة فعنّفني لعدم أخذ مشورته بشأن تشكيل الحركة. حاولت تذكيره بما دار من نقاش في ديربان حول استعمال العنف ولكنه لم يتذكر، وكان ذلك هو السبب الرئيسي فيما أشيع عن أن الزعيم لوتولي لم يكن على علم بتأسيس حركة (أمكا) وأنه كان يعارض استعمال العنف معارضة شديدة. وكان ذلك بعيدا كل البعد عن الحقيقة.

قضيت ليلتي الأخيرة مع ويني في بيت أصدقاء بيض في الضواحي الشمالية وأحضرت لي حقيبة سفر جديدة. كانت قلقة لسفري خارج البلاد ولكنها - كالعادة - كانت صامدة وكانت في رباطة جأشها أقرب الى الجندية منها الى الزوجة.

كان الترتيب أن أسافر الى دار السلام في تانجانيقا ومنها الى أديس أبابا، واتفق على أن التقي قبل مغادرتي البلاد بوولتر وكاثرادا ودوما نوكوى في مكان سري في سويتو لأتسلم أوراق السفر وللتشاور.

وصل أحمد كاثرادا في الموعد المحدد ولكن وولتر ودوما تأخرا في الوصول فاضطررت الى اتخاذ ترتيبات بديلة واستطاع أحمد أن يعثر على شخص يأخذني بالسيارة الى بيتشوانالاند Bechuanaland حيث بإمكاني تأجير طائرة تقلني خارج البلاد. علمت فيما بعد أنه قد ألقي القبض على وولتر ودوما.

كانت الرحلة الى بيتشوانالاند مرهقة وكنت قلقا خوفا من الشرطة وتوجسا من السفر لأول مرة الى الخارج. اتجهنا الى لوباتسى Lobatse بالقرب من الحدود فعبرنا الحدود بسلام ووصلنا لوباتسي عند العصر حيث وجدت في انتظاري برقية من دار السلام تطلب تأجيل رحلتي لمدة أسبوعين. أقمت مع زميلي في محاكمة الخيانة فيش كايتسينغ Fish Keitsing الذي انتقل للإقامة في لوباتسى.

التقيت فور وصولي بالأستاذ كيه تي موتسيتى K T Motsete رئيس حزب الشعب في

بيتشوانالاند الذي أسسه أعضاء سابقون في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. أصبح لدي الآن قدر كبير من وقت الفراغ حاولت أن أقضيه في القراءة وإعداد خطابي الذي سألقيه في المؤتمر والمشي في المرتفعات الجميلة المحيطة بالمدينة. ورغم أنني لم أكن بعيدا عن حدود وطني أحسست وكأنني في أرض غريبة وكان بصحبتي ماكس املونويني Max Mlonyeni إبن أحد أصدقائي من ترانسكاي وأحد الأعضاء الشباب في حزب المؤتمر القومي الأفريقي. كانت تلك الفترة أشبه برحلة في الغابات قابلنا فيها مختلف أنواع الحيوانات البرية بما في ذلك فيالق السعادين التي كنت أراقب بشغف وإعجاب تحركاتها وتصرفاتها التي تشبه تصرفات الفرق العسكرية.

التحق بي بعد فترة قصيرة جو ماثيوز قادما من باسوتولاند وأصررت على أن نسرع في السفر الى دار السلام. فقد خطفت شرطة جنوب أفريقيا حديثا في لوباتسى أحد زملائنا من أعضاء الحزب وأحسست أنه من الأفضل الإسراع بالسفر. وصلت الطائرة وانطلقنا الى المحطة الأولى وهي مدينة كاسانى Kasane في شمال بيتشوانالاند الواقعة عند ملتقى حدود أربع دول وهي بيتشوانالاند وروديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية وجنوب غرب أفريقيا كما كانت تلك المستعمرات تعرف آنذاك. كان مهبط كاسانى الجوي مغمورا بالمياه فهبطت الطائرة في مكان آخر وسط الأشجار على بعد عدة أميال. كان في استقبالنا مدير الفندق وكان مدججا بالبنادق وقال إنه تأخر في الوصول بسبب فرقة من الفيلة الشاردة في المنطقة. كان يقود سيارة مكشوفة فجلست الى جانب جو ماثيوز في الجزء الخلفي منها حيث كان بإمكاني مشاهدة الأسود ترعى طليقة في الغابة. أحسست لأول مرة في حياتي أنني بعيد جدا عن شوارع جوهانسبيرغ التي خبرتها وتعودت عليها، وأنني أعيش في أفريقيا القصص والخيال والأساطير.

انطلقنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي الى امبيا Mbeya في تانجانيقا بالقرب من حدود روديسيا الشمالية. حلقت بنا الطائرة قريبا من شلالات فيكتوريا ثم اتجهت شمالا فوق سلسلة جبلية وحاول قائد الطائرة الإتصال لاسلكيا بامبيا فلم يفلح. تغيرت حالة الطقس وكان الجو مليئا بالمطبات مما جعل الطائرة تهتز ارتفاعا وهبوطا وكأنها ريشة في مهب الريح. بعد قليل وجدنا أنفسنا نشق طريقنا خلال كثبان من السحب كثيفة واضطر قائد الطائرة لأن يسلك طريقا متعرجة فوق الجبال. كانت السحب كثيفة وتعذرت الرؤية، وفجأة تغير اتجاه الطائرة فعلمت أن قائدها تمكن من تفادي قمة أحد الجبال. انطلق جرس الإنذار وقلت لنفسي: إنها النهاية!! لقد صمت حتى جو ماثيوز الذي لم يكن في العادة يكف عن الكلام. وفجأة خرجنا من تلك المنطقة الوعرة الى سماء صافية. لست ممن يهوى السفر بالطائرة، وكانت تلك أسوأ تجربة مررت بها في حياتي، ولكنني أتقنت التظاهر بالشجاعة وعدم الاكتراث أثناء الطيران.

نزلنا في أحد الفنادق ووجدنا رجالا من السود والبيض جالسين في شرفة الفندق يتجاذبون أطراف الحديث، ولم يسبق لي من قبل أن رأيت مكانا عاما أو فندقا خاليا من

التمييز العنصري . كنا نبحث عن السيد مواكانغلى Mr Mwakengle من حزب الاتحاد الوطني الأفريقي في تانجانيقا وعضو البرلمان، الذي كان هو الآخر يبحث عنا . اقترب رجل أفريقي من موظفة الاستقبال البيضاء وسألها مشيرا إلينا:

- هل جاء شخص يدعى امواكانغلى يبحث عن هذين الرجلين يامدام؟

- أجل، ويؤسفني أنني نسيت أن أخبرهما بذلك.

استطرد يخاطبها بأدب وحزم:

- أرجوك يامدام أن تعطيهما كل اهتمامك لأنهما ضيفان علينا.

أحسست للمرة الأولى بالحرية وبأنني في بلد يحكمه أفريقيون . ورغم أنني كنت مطاردا من قبل السلطات في وطني شعرت بوطأة الظلم تنزاح عن كتفيْ. حيثما ذهبت في تانجانيقا وجدت أناسا بلون بشرتي الذي لم يعد سُبة أو لعنة . أحسست للمرة الأولى بأن عقلي وشخصيتي وليس لون بشرتي هو العامل الأساسي في الحكم عليّ. ومع شعوري بالحنين الى الوطن أحسست كأنني في وطني الحقيقي.

وصلنا دار السلام في اليوم التالي والتقيت مع جوليوس نيريرى Julius Nyerere أول رئيس جمهورية لتلك الدولة حديثة الاستقلال . التقينا في بيته المتواضع، وكان يقود سيارته الصغيرة من نوع أوستن بنفسه . أعجبت بذلك لأنه أشعرني بأن نيريرى واحد من أفراد الشعب . وكان نيريرى يقول إن نظام الطبقات غريب على أفريقا والاشتراكية شيء أصيل فيها.

نيريرى رجل متوقد الذهن يتكلم بصوت خافت وكان على إلمام بالمهمة التي جئت من أجلها . عرضت عليه الوضع في جنوب أفريقيا وطلبت منه العون والمساعدة، ولكنني فوجئت وفزعت لتقييمه للقضية. فقد اقترح تأجيل النضال المسلح حتى خروج سوبوكوى زعيم حزب المؤتمر القومي الأفريقي من السجن. أدركت يومها مدى شعبية حزب المؤتمر القومي الأفريقي في البلدان الأفريقية، وتأكد لي ذلك في مناسبات عديدة فيما بعد. شرحت لنيريرى جوانب الضعف في حزب المؤتمر القومي الأفريقي وقلت إن تأجيل النضال المسلح سوف يشكل انتكاسة للنضال ككل، فاقترح أن أسعى للحصول على مساندة الأمبراطور هيلاسيلاسي حاكم أثيوبيا ووعد بأن يقدمني له.

كان من المقرر أن التقي بأوليفر تامبو في دار السلام ولكن نظرا لتأخر وصولي اضطر الى مغادرتها وترك رسالة يطلب مني فيها اللحاق به في لاغوس بنيجيريا لحضور مؤتمر لاغوس للدول المستقلة. التقيت في الطائرة الى أكرا بهايمي باسنر وزوجته وهو في طريقه لاستلام وظيفة جديدة في أكرا . كنت قد عملت موظفا عند باسنر في السابق، وقد أصبح شخصا غير مرغوب فيه في جنوب أفريقيا بسبب آرائه السياسية المتطرفة ونشاطاته اليسارية فجاء الى غانا طلبا للجوء السياسي.

توقفت الطائرة في الخرطوم واتجهنا نحو الجمارك وكان أمامي في الطابور جو ماثيوز وخلفي باسنر وزوجته . ونظرا الى أنني لم أكن أحمل جواز سفر أعطيت وثيقة من ورقة واحدة في تانجانيقا كتب عليها: "هذا هو نلسون مانديلا مواطن من جمهورية جنوب أفريقيا، مصرح له بمغادرة تانجانيقا والعودة إليها" . أبرزت تلك الوثيقة لموظف التصريحات المتقدم في السن في الطرف الآخر من المنضدة فتفرس في وجهي وابتسم ثم قال:

- مرحبا بك يا بني في السودان.

صافحني ثم ختم على الوثيقة . وعندما جاء دور باسنر أبرز للرجل العجوز وثيقة تشبه وثيقتي ففحصها بإمعان ثم سأله بانزعاج:

- ما هذه الوريقة؟ إنها ليست وثيقة رسمية!

أخبره باسنر بكل هدوء أنها أعطيت له في تانجانيقا لأنه لا يحمل جواز سفر، فرد عليه بازدراء:

- لا تحمل جواز سفر وأنت رجل أبيض؟

رد باسنر قائلا إنه تعرض للإضطهاد في وطنه لأنه كافح من أجل حقوق السود . ولكن الموظف السوداني نظر إليه في ريبة وقال:

- كيف ذلك، وأنت رجل أبيض؟

تبادلت نظرة مع جو ماثيوز وهمس لي بألا أتدخل لأننا ضيوف على السودان ولا ينبغي أن نسيء الى مضيفينا . ولكن باسنر، إضافة الى أنه كان رئيسي في العمل، كان من البيض الذين عرضوا أنفسهم للخطر في سبيل تحرير الرجل الأسود، ولم أكن لأسمح لنفسي بالتخلي عنه في ذلك الموقف. توقفت قريبا من الموظف السوداني أهز رأسي مؤمّنا على إجابات باسنر لتزكية ما يقول فتفهم الموظف موقفي وخفف من حدته ثم ختم الوثيقة وقال لباسنر في هدوء:

- مرحبا بك في السودان.

لم أقابل أوليفر تامبو منذ سنتين تقريبا وعندما تقابلنا في مطار أكرا لم أكد أتعرف عليه (ولربما كان رد فعله لرؤيتي تماما كرد فعلي لرؤيته). فقد أصبح ذلك الرجل الحليق الأنيق صاحب لحية كثة وشعر طويل يرتدي زيا عسكريا من النوع الذي يرتديه المناضلون في القارة الأفريقية . كان لقاءً سعيدا وأثنيت على ما قام به من أعمال عظيمة خارج جنوب أفريقيا. فقد أسس مكاتب للحزب في غانا وانجلترا ومصر وتانجانيقا وأقام اتصالات وعلاقات هامة وحيوية في عدة بلدان أخرى . وحيثما سافرت وجدت الانطباعات الطيبة التي تركها أوليفر لدى الدبلوماسيين ورجال الدولة في كل مكان، فقد كان بحق خير سفير للحزب خارج جنوب أفريقيا.

كان هدف مؤتمر الدول المستقلة في لاغوس هو توحيد الدول الأفريقية ولكنه تفكك

فيما بعد بسبب خلافات حول تحديد الدول التي يحق لها الانضمام للمؤتمر. اخترت التحرك في هدوء وتفاديت المشاركة في المؤتمر كي لا تعلم حكومة جنوب أفريقيا بوجودي خارج البلاد حتى أظهر في مؤتمر أديس أبابا.

التقينا في الطائرة الى أديس أبابا مع كل من غور راديبى وبيتر مولوتسي وغيرهما من أعضاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي في طريقهم الى المؤتمر. استغرب الجميع لرؤيتي واستغرقنا في الحديث عن الأوضاع الداخلية في جنوب أفريقيا. كان الجو هادئا وممتعا، وكانت سعادتي كبيرة لرؤية غور راديبي رغم انسحابه من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. لقد وجدنا كثيرا مما يجمع بيننا ونحن على ذلك الارتفاع الشاهق عن الأرض والمسافة البعيدة عن أرض الوطن.

توقفنا في الخرطوم حيث انتقلنا الى طائرة تابعة للخطوط الجوية الإثيوبية لتقلنا الى أديس أبابا. وفجأة رأيت وأنا أصعد الطائرة أن قائدها أسود، وكانت تلك أول مرة أرى فيها طيارا أسود. تملكني شعور غريب. فكيف ينبغي لرجل أسود أن يقود طائرة؟ بعد لحظات انتبهت الى أنني وقعت فريسة التفرقة العنصرية التي تقول إن الأفريقيين أدنى من غيرهم من البشر وإن قيادة الطائرة مهنة لا يمارسها الا البيض. جلست في مقعدي وأنّبت نفسي على ما جال في خاطري من أفكار. وما أن صعدت الطائرة في الجو حتى هدأت أعصابي وأخذت أستمتع بمشاهدة تضاريس إثيوبيا، وتخيلت المحاربين الإثيوبيين مختبئين في تلك الجبال والغابات أثناء حربهم ضد المستعمر الايطالي.

- ٤٧ -

يعود تاريخ إثيوبيا، أو الحبشة كما كانت تعرف قديما، الى ما قبل ميلاد المسيح، ويقال إنها تعود الى أيام أبناء النبي سليمان وبلقيس ملكة سبأ . وتعتبر الموطن الأصلي للقومية الأفريقية رغم خضوعها للاحتلال الأجنبي عدة مرات، ولكنها، على العكس من دول أفريقية أخرى، تصدت له في كل مرة . فقد تصدت للإيطاليين في القرن الماضي بقيادة مينيليك Menelik. وفي عام ١٩٣٠ اعتلى عرش إثيوبيا الأمبراطور هيلاسيلاسي وأصبح القوة الحقيقة التي حددت معالم تاريخ إثيوبيا المعاصر . كنت في السابعة عشرة عندما قاد موسيليني حملته ضد إثيوبيا، وقد أثار ذلك في نفسي الحقد والكراهية تجاه ذلك الطاغية البغيض وتجاه الفاشية ككل. أجبر هيلاسيلاسي على الفرار عند احتلال الإيطاليين لإثيوبيا عام ١٩٣٦ ولكنه عاد إليها بعد أن طردهم الحلفاء منها عام ١٩٤١ .

ظلت إثيوبيا تحتل مكانة خاصة في ذاكرتي وكنت متشوقا لزيارتها أكثر من شوقي لزيارة انجلترا أو فرنسا أو أمريكا . أحسست بأنني أزور منبع وجودي الأول لأتعرف على جذوري وهويتي الأفريقية الأصيلة . أما مقابلة الأمبراطور شخصيا فستكون بمثابة مصافحة التاريخ.

لم تكن أديس أبابا عاصمة أمبراطورية كما يوحي به لقبها، بل كانت على العكس تماما لكل ما هو جليل ومهيب . كان بها عدد قليل من الشوارع المعبدة، وكان عدد الماعز والخراف التي تتجول فيها يفوق عدد السيارات . لم يكن فيها من المباني ما يمكن أن يقارن بأدنى مباني جوهانسبيرغ، باستثناء القصر الأمبراطوري والجامعة وفندق راس الذي نزلنا فيه . ولم تكن إثيوبيا المعاصرة نموذجا يحتذى في الديمقراطية، إذ لا توجد بها أحزاب سياسية أو هيئات شعبية ولا فصل بين السلطات، بل كان فيها الأمبراطور فقط، وكان الأمبراطور فوق الجميع.

قبل افتتاح المؤتمر تجمعت الوفود في مدينة صغيرة اسمها ديربا زيد Derba Zaid حيث أقيمت منصة ضخمة في الميدان الرئيسي وأخذت مكاني الى جانب أوليفر في ركن من أركانها بعيدا عن المنصة الرئيسية . فجأة سمعنا صوت بوق يرتفع عن بعد تلاه عزف موسيقي من فرقة ماسية تصحبها طبول أفريقية . أخذت الموسيقى تقترب من المنصة وسمعنا أصوات مئات من الأقدام تدك الأرض . وفجأة ظهر في ركن الميدان ضابط يلوح بسيف يومض في ضوء الشمس يتبعه خمسمائة جندي أسود في صفوف من أربعة جنود يرتدي كل منهم بزة عسكرية ويحمل على كتفه بندقية مصقولة . وصل الجنود أمام المنصة فارتفع صوت بأوامر بالأمهرية توقف على إثرها ذلك الحشد من الجنود لتحية رجل عجوز يرتدي بزة مزخرفة تخطف الأبصار. إنه صاحب الجلالة أمبراطور إثيوبيا وأسد يهوذا هيلاسيلاسي.

كانت تلك أول مرة أشاهد فيها جنودا سودا يقودهم ضباط سود ويصفق لهم زعماء سود ضيوف على رئيس دولة أسود. كانت لحظات رائعة، وكنت آمل في أن ما أشاهده أمامي هو الصورة التي يحملها المستقبل لبلادي.

في صباح يوم الاستعراض ذهبت وأوليفر الى مكتب خاص باستصدار أوراق اعتماد المنظمات المشاركة في المؤتمر، وفوجئنا بأن وفد أوغندا اعترض على مشاركتنا بحجة أننا منظمة قبيلية تمثل الكوسا. كان رد فعلي هو دحض ذلك الادعاء فورا وبكل ازدراء ولكن أوليفر رأى أن نبين بكل بساطة أن منظمتنا قامت لتوحيد كل الأفريقيين وتضم أعضاء من جميع فئات الشعب. أضفت الى ذلك أن رئيس المنظمة الزعيم لوتولي من الزولو، وسمح لنا بالمشاركة في المؤتمر. فطنت آنذاك الى أن كثيرا مما يعرفه الناس في أفريقيا عن حزبنا صادر عن رجال حزب المؤتمر القومي الأفريقي.

افتتح صاحب الجلالة الأمبراطور المؤتمر رسميا وكان يرتدي بزة عسكرية مطرزة بمختلف الزخارف الحريرية والذهبية والفضية. فوجئت بقصر قامة الأمبراطور، ولكن ما أحاط به من وقار وروح ثقة جعله يظهر وكأنه عملاق أفريقي. كانت تلك أول مرة أشاهد فيها من كثب بروتوكولات الدولة الرسمية وأخذت بها. وقف الأمبراطور منتصبا في سكون تام، وكان يحني رأسه قليلا علامة على الإنصات. كان الوقار هو السمة الغالبة على كل تصرفاته وحركاته.

جاء دوري لمخاطبة المؤتمر بعد الأمبراطور مباشرة وكنت المتحدث الوحيد من بين الوفود ذلك الصباح. طرحت جانبا، ولأول مرة منذ عدة أشهر، شخصية ديفيد موتساماي وعدت الى شخصيتي الحقيقية: نلسون مانديلا. استعرضت في خطابي تاريخ النضال الوطني في جنوب أفريقيا وأشرت الى المذابح البشعة التي ارتكبت في حق شعبنا ابتداء من مذبحة بولهوك Bulhoek عام ١٩١٢، التي قتل فيها مائة وثلاثة وثمانون من الفلاحين الأبرياء على يد الجيش والشرطة، وحتى شاربفيل بعد ذلك بأربعين عاما. شكرت الدول المشاركة على ما تمارسه من ضغوط على حكومة جنوب أفريقيا وخصصت بالذكر غانا ونيجيريا وتانجانيقا التي تزعمت الحملة لطرد جنوب أفريقيا من منظمة الكومنويلث. كما استعرضت خلفيات قيام منظمة أومخونتو وي سيزوى (أمكا) موضحا أن جميع أبواب النضال السلمي قد أوصدت في وجوهنا، وقلت:

– إن قيادة النضال ترتكب جريمة في حق شعبها إن ترددت في صقل أسلحتها السياسية لأن تلك الأسلحة فقدت مفعولها. لقد اهتزت جنوب أفريقيا كلها ليلة السادس عشر من ديسمبر من العام الماضي تحت ضربات حركة أومخونتو وي سيزوى.

هنا سمعت رئيس وزراء أوغندا يصيح قائلا:

– أذيقوهم الويل!

واصلت كلامي بالحديث عن تجربتي الشخصية فقلت:

- خرجت قبل أيام من جنوب أفريقيا حيث عشت لأكثر من عشرة أشهر بعيدا عن أسرتي وأصدقائي، مطاردا من قبل السلطات كالمجرم في وطني. وعندما فرض علي أن أعمل في الخفاء أعلنت أنني لن اغادر الوطن وسأواصل النضال سرا. لقد كنت أعني ما أقول وسوف أوفي بوعدي كاملا.

استقبل تأكيد عزمي على العودة الى جنوب أفريقيا بالتصفيق والهتاف. لقد سمح لنا بالحديث في بداية المؤتمر كي يتمكن الحاضرون من تقييم قضيتنا وتحديد ما يمكن أن يقدم إلينا من دعم. كان هناك تردد مفهوم لدى كثير من الدول الأفريقية في دعم النضال المسلح في أي مكان، ولكن كلمتي أقنعت الحاضرين بأن المناضلين في جنوب أفريقيا لا بديل أمامهم سوى حمل السلاح.

اجتمعت وأوليفر في لقاء خاص مع كينيث كاوندا Kenneth Kaunda زعيم حز ب الاستقلال الوطني المتحد لروديسيا الشمالية United National Independence Party of Northern Rhodesia ورئيس جمهورية زامبيا فيما بعد. كان كاوندا - كجيوليوس نايريري من قبل - قلقا من انقسام المناضلين في جنوب أفريقيا واقترح أن نوحد قوانا وجهودنا عند خروج سوبوكوى من السجن. لقد حاز حزب المؤتمر القومي الأفريقي على الأضواء في نظر الزعماء الأفريقيين من خلال أحداث شاربفيل بصورة لا تتناسب مع أثر الحزب ودوره المحدود داخل جنوب أفريقيا. وعبر كاوندا الذي كان يوما ما عضوا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي عن قلقه من تحالفنا مع الشيوعيين البيض وأشار الى أن ذلك ينعكس سلبيا على الحزب في الساحة الأفريقية. فالناس يرتابون من الشيوعية ليس في الغرب وحسب بل في أفريقيا كذلك، وكان ذلك مفاجأة بالنسبة إلي، وهو رأي سمعته مرارا وتكرارا أثناء تلك الرحلة.

حاولت أن أبين لكاوندا أن دعم حزبه لحزب المؤتمر القومي الأفريقي لم يكن في محله، ولكن كاوندا وضع يده على كتفي وقال:

- حديثك لي يا نلسون عن هذا الموضوع كمن يبيع الماء في حارة السقائين. فأنا أدعم حزبكم وأنا من أتباع الزعيم لوتولي ولكنني لست الصوت الوحيد في حزب الاستقلال الوطني، وعليك أن تتحدث الى سايمون كيبوييوى Simon Kapwepwe فإن أقنعته فستسهل عليّ مهمتي بدرجة كبيرة.

سايمون كيبوييوى هو الرجل الثاني في الحزب فاتخذت ترتيبات لمقابلته في اليوم التالي وطلبت من أوليفر أن يصحبني إليه ولكنه قال لي:

- إنه من الأفضل يانلسون أن تقابله بمفردك كي تتحدثا بكل صراحة.

قضيت اليوم بأكمله مع كيبوييوى وسمعت منه أغرب كلام سمعته في حياتي إذ قال:

- أعجبنا كثيرا بكلمتك في المؤتمر وبجميع أعضاء وفد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ولو حكمنا على منظمتكم من خلال ذلك فقط لوقفنا الى صفكم بكل تأكيد. ولكن وصلتنا

من حزب المؤتمر القومي الأفريقي تقارير عنكم تبعث على القلق وتفيد بأن حركة (أمكا) انبثقت عن الحزب الشيوعي وحزب الأحرار وما الهدف منها إلا استخدام الأفريقيين وقودا للحرب.

أسقط في يدي، واستثارني ذلك الكلام فأعربت له عن أستغرابي لتصديقه ذلك الادعاء فرد يقول:

- أولا وقبل كل شيء، من المعروف أنه يوجد عداء مستحكم بين حزب الأحرار والحزب الشيوعي ولا يمكن أن يجتمعا للعب الورق ناهيك عن النضال. ثانيا، أود أن أقول لك إنني أنا شخصيا كنت - ولا فخر - المحرك الرئيسي وراء تأسيس حركة (أمكا).

اختتمت حديثي بالتعبير عن خيبة أملي في حزب المؤتمر القومي الأفريقي لبثه أكاذيب من هذا القبيل. وتمكنت من إقناع كيبوييوى بتصحيح معلوماته عن الحزب ووعد بعقد اجتماع يطرح فيه هو شخصيا قضيتنا، وكان ما قال فعلا. تركز الحديث مرة أخرى حول نقص المعلومات في الساحة الأفريقية عما يجري داخل جنوب أفريقيا وحول جرأة حزب المؤتمر القومي الأفريقي على تشويه سمعة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ودعني كيبوييوى في نهاية المؤتمر متمنيا لنا التوفيق. كان مؤتمرا ناجحا ولكن من واجبنا بذل جهد كبير لطرح قضيتنا بشكل متكامل.

طالما حلمت أيام الدراسة بزيارة مصر مهد الحضارة الأفريقية وكنز الكنوز في الجمال والعمارة والفن. كنت أحلم بالأهرام وتمثال أبي الهول ونهر النيل أعظم أنهار أفريقيا. اتجهنا بالطائرة الى القاهرة وكان في صحبتي أوليفر وروبرت ريشا الذي قضى معي بقية الرحلة كلها. قضيت صباح اليوم الأول بكامله في المتحف اتفحص الأعمال الفنية والتحف التقليدية وأسجل المعلومات والملاحظات وأتعرف على أولئك الرجال الذين صنعوا حضارة وادي النيل القديمة الرائعة. لم يكن اهتمامي بدافع المتعة وحسب، بل لإيماني بضرورة أن يتسلح الأفريقيون بالمعلومات والأدلة لدحض مزاعم البيض الباطلة بأن الأفريقيين لا حضارة لهم ولا تاريخ يقارن بما عند الغرب. تعرفت في بحر ساعات على ما صنعه المصريون من أعمال فنية ومعمارية عظيمة يوم أن كان البيض يعيشون في الكهوف.

كانت مصر نموذجا هاما بالنسبة إلينا فقد شاهدنا فيها من كثب برامج التحول الاقتصادي الإشتراكية التي وضعها الرئيس جمال عبدالناصر. فقد قلص من ملكية الأراضي الخاصة وأمم قطاعات من الاقتصاد ومهد للتصنيع وأقام التعليم على أسس ديمقراطية وأسس جيشا حديثا، وهي الاصلاحات والانجازات بعينها التي كنا نأمل أن تتحقق يوما ما في جنوب أفريقيا. والأهم بالنسبة إلينا آنذاك أن مصر كانت البلد الأفريقي الوحيد الذي يملك قوة عسكرية بحرية وجوية يمكن أن تضاهي قوة جنوب أفريقيا.

بعد يوم واحد من وصولنا الى القاهرة غادر أوليفر الى لندن على أمل أن نلقاه من جديد في غانا. وقبل أن نواصل جولتنا تداولت مع روبرت ريشا ما سنطرحه من أفكار في

كل بلد نزوره. كنت أميل الى عرض الوضع السياسي في جنوب أفريقيا على حقيقته وبكل موضوعية دون إغفال الانجازات التي ساهم بها حزب المؤتمر القومي الأفريقي. وكلما حللنا ببلد كنت أختلي بنفسي في الفندق لمذاكرة البيانات والمعلومات الخاصة بسياسات تلك الدولة وتاريخها وقادتها. أما روبرت فقد اتبع برنامجا مختلفا تماما، إذ كان يغادر الفندق فورا ليتجول في الشوارع ليتعلم مما يرى ومن خلال حديثه مع الناس. كنا على طرفي نقيض، إذ كنت أؤثر الزي غير الرسمي الذي تعودت عليه أثناء حياتي السرية وارتداء ملابس الكاكي شبه العسكرية، بينما كان روبرت مولعا بارتداء البذل الأنيقة الفاخرة.

التقينا في تونس بوزير الدفاع وكان كثير الشبه بالزعيم لوتولي، ولكن في المظهر فقط. فبينما كنت أحدثه عن الوضع في جنوب أفريقيا ذكرت قادة حزب المؤتمر القومي الأفريقي ووجود روبرت سوبوكوى في السجن، فقاطعني قائلا:

- عندما يخرج هذا الرجل من السجن سوف يقضي عليكم!!

رفع روبرت حاجبيه في استغراب، وقال بعد خروجنا من ذلك اللقاء إنني عرضت قضية حزب المؤتمر القومي الأفريقي بأحسن مما يعرضها قادة ذلك الحزب أنفسهم، ولكنني كنت حريصا على إعطاء الوزير الصورة كاملة. التقينا في اليوم التالي بالرئيس التونسي الحبيب بورقيبة فتجاوب فورا مع قضيتنا وعرض علينا تسهيلات للتدريب العسكري وخمسة آلاف جنيه استرليني لاقتناء أسلحة.

كانت العاصمة المغربية الرباط محطتنا التالية، وظهرت علينا بأسوارها العتيقة الساحرة ومتاجرها الحديثة ومساجدها الفاخرة، مزيجا رائعا من الملامح الأفريقية والأوروبية والشرقية. والرباط هي ملتقى المناضلين وحركات التحرير من كل أنحاء القارة الأفريقية، إذ التقينا فيها بمناضلين من الموزمبيق وأنغولا والجزائر وجزر الرأس الأخضر. وكانت المقر الرئيسي لجيش التحرير الجزائري. قضينا أياما في صحبة الدكتور مصطفى رئيس البعثة الجزائرية في المغرب فحدثنا عن تاريخ المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين.

الوضع في الجزائر أقرب ما يكون لوضعنا لأن الجزائريين يواجهون مستوطنين أجانب يتحكمون في مصير أغلبية من السكان الأصليين. حكى لنا الدكتور مصطفى عن بداية نضال جبهة التحرير الجزائرية بهجمات محدودة عام ١٩٥٤ بعد هزيمة الفرنسيين في ديان بيان بو في فيتنام. كانت الجبهة تعتقد في البداية أنها قادرة على هزيمة الفرنسيين عسكريا ولكنها اكتشفت فيما بعد أن ذلك غير ممكن.

وبناء عليه لجأت جبهة التحرير الجزائرية الى الحرب الفدائية. وأشار الدكتور مصطفى الى أن حرب العصابات لا تهدف الى تحقيق نصر عسكري شامل بقدر ما تهدف الى حشد القوى السياسية والاقتصادية من أجل الإطاحة بالعدو. ونصحنا الدكتور مصطفى بالا نغفل - ونحن نخطط للعمل العسكري - عن الجانب السياسي للحرب. وقال إن قيمة دعم الرأي العام العالمي تعادل أحيانا قيمة أسطول كامل من الطائرات المقاتلة.

ذهبنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة وجدة الصحراوية على الحدود الجزائرية وهي المركز الرئيسي للجيش الجزائري في المغرب، حيث زرنا وحدة عسكرية على الجبهة، وتمكنت باستخدام المنظار من رؤية الجنود الفرنسيين في الجانب الآخر من الحدود. وأقر بأنني تخيلت أنني أراقب جنود قوات الدفاع التابعة لحكومة جنوب أفريقيا.

بعد يومين من ذلك التاريخ شاركت ضيفا في استعراض عسكري على شرف السيد أحمد بن بيلا الذي خرج من السجون الفرنسية قبل فترة قصيرة وأصبح بعد الإستقلال أول رئيس للجزائر. كان استعراضا مختلفا تماما عن ذلك الذي شاهدته في أديس أبابا. فلا وجود للبزات العسكرية الأنيقة والانضباط العسكري الدقيق بل كان استعراضا لتاريخ حركة النضال الجزائرية بكل مراحلها.

ظهر في الاستعراض عتاة المقاتلين بالعمائم والأحذية الصحراوية ممن قضوا سنوات طويلة في النضال المسلح. كانوا يحملون أسلحتهم التي يقاتلون بها من خناجر وبنادق وفؤوس ورماح. وظهر بينهم شبان يحملون أسلحة حديثة من مدافع مضادة للدبابات وأخرى مضادة للطائرات، ولكن حتى هؤلاء لم يكونوا يمشون بأناقة الجنود الإثيوبيين ودقتهم. إنهم جنود قوة فدائية خاضوا نيران المعارك واعتنوا بأساليب الحرب أكثر من عنايتهم بالملابس والاستعراضات الفاخرة، وكان ذلك سر فوزهم. ورغم إعجابي بالجنود الإثيوبيين في أديس أبابا أحسست في قرارة نفسي بأن القوة التي نحن بصدد إنشائها أقرب للقوة التي شاهدتها في وجدة، وتمنيت أن يقاتل جنودها بالبسالة نفسها التي قاتل بها هؤلاء الجنود.

ظهرت في آخر الاستعراض فرقة موسيقية في حالة مهلهلة يقودها رجل طويل القامة ضخم الجثة يشع ثقة يدعى السوداني، وكان أسودا كسواد الليل. كان السوداني يلوح بعصاه فوقفنا نحن الضيوف نصفق له ونهتف مما أثار استغراب مضيفينا، فانتبهت الى أننا إنما وقفنا نهتف له لأنه أسود. لقد فعلت قوة الشعور القومي والعرقي فعلها مرة أخرى إذ انتفضنا نحن الأفريقيين بصورة لا إرادية نهتف لذلك الرجل الأفريقي دون غيره. أخبرنا فيما بعد أن السوداني كان مقاتلا بارعا ويقال إنه أسر بمفرده فرقة كاملة من الجيش الفرنسي. ولكننا هتفنا له بسبب لونه وليس لبطولته.

اتجهنا من المغرب الى باماكو عاصمة مالي ومنها الى غينيا، وكانت الرحلة من مالي الى غينيا أشبه برحلة في حافلة منها في طائرة إذ كانت ممرات الطائرة تغص بالدجاج وكانت النساء يطفن الطائرة جيئة وذهابا يبعن ما لذ وطاب من الفول السوداني والخضار المجففة. كانت رحلة على الطريقة الديمقراطية استمتعت بها كثيرا.

المحطة التالية هي سيراليون ووصلتها أثناء انعقاد البرلمان فقررت حضور الجلسة، واشير علي بالجلوس في مقعد قريبا من رئيس المجلس. بعد لحظات اقترب مني أحد الموظفين وطلب التعرف على هويتي فقلت له هامسا:

– أنا ممثل الزعيم لوتولي من جنوب أفريقيا.

صافحني بحرارة ثم هرع يخبر رئيس المجلس وجاء يقول إنني جلست خطأ في مقعد غير مخصص للزوار ولكن المجلس يتشرف بالسماح لي بالجلوس فيه كاستثناء خاص.

رفعت الجلسة بعد نحو ساعة من الزمن وقمت لتناول الشاي مع أعضاء المجلس، ولكنني فوجئت بعد لحظات بجميع الأعضاء يقفون طابورا لمصافحتي. تملكني شعور بالرضى ولكنني سمعت أحد الأعضاء يقول لي بهمس:

– إنه لشرف عظيم أن أصافح يد الزعيم المبجل لوتولي الحائز على جائزة نوبل للسلام.

يا للهول! قد التبس الأمر على الموظف فظن أنني الزعيم لوتولي. بعد لحظات جاء لتحيتي رئيس الوزراء سير ميلتون مارغاي Sir Milton Margai وقدمني ذلك الموظف إليه على أنني الزعيم لوتولي، فحاولت أن أخبره بأنني لست الزعيم لوتولي ولكنه لم يقبل ولم يكن أمامي خيار سوى أن أستمر بالتظاهر بأنني الزعيم لوتولي. وعندما قابلت رئيس الجمهورية فيما بعد شرحت له ما كان من التباس في هويتي فتفهم الأمر وتقدم بمساعدات مادية سخية.

وفي ليبيريا التقيت بالرئيس تابمان Tubman الذي لم يكتف بتقديم خمسة آلاف دولار لبرنامج التسليح والتدريب بل سألني بصوت منخفض:

– هل معك ما يكفي لمصاريفك الشخصية؟

أقررت بأنني في حاجة لبعض المال فجاء أحد مساعديه فورا بظرف يحتوي أربعمائة دولار نقدا. ومن ليبيريا اتجهت الى غانا حيث التقيت مع أوليفر من جديد ونزلنا ضيفين على المندوب السامي لغينيا عبدالله ديالو Abdoulaye Diallo. وعندما أخبرته بأنني لم أقابل الرئيس سيكوتوري أثناء زيارتي لغينيا بادر فورا باتخاذ ترتيبات لعودتنا إليها. أعجبنا إعجابا كبيرا بسيكوتوري الذي كان يقيم في بيت متواضع وكان يرتدي بدلة مهلهلة في حاجة ماسة للتنظيف. عرضنا عليه قضيتنا وتاريخ حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة (أمكا) وطلبنا منه مساعدة للحركة قدرها خمسة آلاف دولار. استمع الى حديثنا بعناية فائقة ثم أجاب بنبرة رسمية وكأنه يلقي خطابا بقوله:

– إن حكومة غينيا وشعبها يساندان نضال إخواننا في جنوب أفريقيا بكل ما في وسعهما، وقد أعلنا ذلك رسميا أمام الأمم المتحدة.

قام من مقعده واتجه الى خزانة الكتب فأخرج نسختين من كتاب له أهدى كلا منا نسخة ثم شكرنا وأشار بنهاية الزيارة فخرجنا.

أصابنا انقباض شديد. فهل استدعينا من بلد آخر للحضور الى غينيا لمجرد أن يهدينا أحمد سيكوتوري نسخا من كتابه؟ أحسسنا بأن الزيارة كانت مضيعة للوقت، ولكن بعد فترة قصيرة من الزمن زارنا مسؤول في قسم الشؤون الخارجية في الفندق وقدم لنا حقيبة

مقفلة. فتحنا الحقيبة وإذا بها محشوة بالنقود. تبادلت مع أوليفر نظرات ابتهاج ولكنه تبرم وقال:

- إنها بالعملة الغينية يانلسون، ولا تساوي شيئا خارج غينيا.

اقترح أوليفر بأن نأخذ النقود لأحد أصدقائه في سفارة تشيكوسلوفاكيا لتحويلها الى عملة قابلة للصرف في الخارج.

لم يكن يضاهي رشاقة زوارق الصيد الهيفاء وهي تعبر ميناء داكار سوى أناقة الحسناوت السينغاليات اللاتي كن يتبخترن في شوارع المدينة بفساتينهن الفضفاضة وخمرهن الجميلة. انطلقت للتجوال في السوق المجاورة فغمرتني روائح العطور والتوابل التي عبقت بها المتاجر والمحلات. يمتاز أهل السنغال بالوسامة والأناقة وقد استمتعت وأوليفر أيما استمتاع بتلك الزيارة القصيرة لذلك البلد الجميل. المجتمع السنغالي نموذج فريد ومزيج ثقافي متميز لعناصر مختلفة: فرنسية ومسلمة وأفريقية.

بينما كنا في الطريق لزيارة الرئيس ليوبولد سينغور Leopold Senghor أصيب أوليفر بنوبة ربو حادة ورفض العودة الى الفندق فصعدت السلم حاملا إياه على ظهري الى مكتب الرئيس. أبدى الرئيس قلقا شديدا لحاله وأصر على عرضه على طبيبه الخاص فورا.

نُصحت بأن أحذر من سينغور نظرا لما أشيع عن وجود جنود من السنغال يحاربون مع الجيش الفرنسي في الجزائر، ونظرا لولعه هو شخصيا بعادات ومفاتن النظام الأرستقراطي الفرنسي القديم. من الصعب أن تتخلص الشعوب الناشئة بالكامل من آثار المستعمر ونظمه وتقاليده، ولا أستثني نفسي من ذلك. سينغور رجل علم وشاعر يشار إليه بالبنان، وأخبرنا بأنه بصدد جمع مواد ومعلومات عن تاريخ البطل الأفريقي شاكا وأشبع غرورنا بأسئلته الكثيرة عن ذلك المحارب العظيم ومكانته في تاريخ جنوب أفريقيا. عرضنا عليه باختصار الوضع الراهن في جنوب أفريقيا وطلبنا منه مساعدات مالية ومرافق للتدريب العسكري، فأجاب بأنه عاجز عن تلبية أي طلب قبل أن يجتمع البرلمان.

أشار علينا سينغور بالتحدث الى وزير العدل السيد دابوسيه Daboussier فيما يتعلق بالتدريب العسكري وقدم إلينا فتاة فرنسية جميلة لتتولى الترجمة أثناء لقائنا بالوزير. لم أرد بشيء واعتراني شعور بالقلق لعدم ارتياحي لمناقشة موضوع حساس مثل التدريب العسكري في حضور فتاة صغيرة السن لا أعرفها ولم يكن بوسعي أن أطمئن اليها. أحس سينغور باضطرابي فقال:

- لا تقلق ياماندیلا، فالفرنسيون هنا في السنغال متعاطفون تعاطفا كاملا مع طموحات الأفريقيين.

وصلنا مكتب الوزير فوجدنا عددا من السكرتيرات الأفريقيات في مكتب الاستقبال سألت إحداهن الفتاة الفرنسية عن سبب مجيئها فقالت إنها أرسلت من قبل الرئيس للترجمة. احتد الجدال بين السيدات والتفتت إحدى الأفريقيات الي تسألني:

- هل تتكلم الإنجليزية ياسيدي؟

- نعم، أتكلم الإنجليزية.

- والوزير كذلك يتكلم الإنجليزية وبإمكانك إذن التحدث معه مباشرة دون حاجة الى مترجم.

استاءت الفتاة الفرنسية لذلك وتحولت جانبا. قابلت الوزير ووعد بتلبية مطالبنا. لم يقدم لنا سينغور في نهاية المطاف ما طلبناه منه ولكنه زودني بجواز سفر دبلوماسي وتكفل بثمن تذاكر السفر من داكار الى محطتنا التالية: لندن.

- ٤٨ -

أقر بأنني مفتون بالنظام الإنجليزي. فما أذكر الديمقراطية الغربية والحرية إلا ويتبادر الى ذهني النظام البرلماني البريطاني. والرجل الإنجليزي هو بالنسبة لي نموذج الشهامة والنبل (الجنتلمان). ورغم أن بريطانيا هي مهد الديمقراطية البرلمانية فإن تلك الديمقراطية هي التي ساهمت في فرض النظام الجائر البغيض على أبناء قومي. إنني أبغض الاستعمار البريطاني ولكنني لا أرفض نمط الحياة البريطانية وأساليبها.

كانت هناك عدة أسباب تلح على ذهابي الى إنجلترا، علاوة على رغبتي الشخصية في رؤية ذلك البلد الذي طالما قرأت وسمعت عنه الكثير. كنت قلقا على حالة أوليفر الصحية واقنعته بعرض نفسه على طبيب هناك، وكنت في شوق لرؤية زوجته أديلايد Adelaide وأطفالهما، ورؤية يوسف دادو الذي أصبح مقيما في لندن وممثلا للحزب في بريطانيا. وكنت أعلم أيضا أنني في لندن سوف أحصل على معلومات وافية عن حرب العصابات لا يتسنى لي الحصول عليها في أي مكان آخر.

عدت في لندن الى التخفي من جديد كي لا تعلم السلطات في جنوب أفريقيا عن وجودي هناك حيث تمتد حبال قوات الأمن والاستخبارات. ومع ذلك فلم أعش في عزلة، إذ قضيت عشرة أيام حافلة بأعمال خاصة بالحزب وبلقاء أصدقاء قدامى وزيارة المعالم السياحية. اخذتنا ماري بينسون Mary Benson، وهي صديقة من مواليد بريتوريا كتبت الكثير عن نضالنا، في جولات كثيرة في لندن، معقل تلك القوة التي هيمنت يوما ما على ثلثي الكرة الأرضية. زرنا كنيسة ويستمينستر وساعة بيغ بن ومبنى البرلمان فاخذت بجمال تلك المعالم وهيبتها ولكنني احسست بمشاعر متضاربة حيال ما تمثله تلك المؤسسات. ضحكنا لدى رؤية تمثال الجنرال سماتس بالقرب من كنيسة ويستمينستر وقلنا في مزاح ربما أستبدل يوما ما بتمثال لكل منا.

اخبرني كثير من الأصدقاء بأن صحيفة الأوبزيرفر Observer الأسبوعية برئاسة ديفيد أستر David Astor تظهر في تقاريرها ميلا نحو حزب المؤتمر القومي الأفريقي، وتشير في افتتاحياتها الى حزبنا بأنه حزب الأمس. رتب أوليفر لقاء بيني وبين ديفد أستر في بيته وتحدثنا حديثا طويلا عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. لست أدري إن كان لحديثي أثر عليه ولكن أسلوب الصحيفة في نقل أخبار الحزب تغير الى الأحسن. كما اقترح أستر أن التقي بعدد من الشخصيات السياسية فالتقيت في صحبة النائب العمالي دينيس هيلي Denis Healey بزعيم حزب العمال هيو غايتسكيل Hugh Gaitskell وجو غريموند Jo Grimond زعيم حزب الأحرار.

لم أتمكن من مقابلة يوسف دادو إلا في الأيام الأخيرة من الزيارة، ولم يكن لقاءً

سعيدا . واجهتني وأوليفر مجموعة صعوبات في كل مراحل الرحلة . فقد تساءل عدد كبير من الزعماء الأفريقيين عن علاقتنا بالشيوعيين البيض والهنود ومنهم من أوحى إلينا باعتقاده بأن الشيوعيين يسيطرون على الحزب . لم تكن سياسة الحزب اللاعنصرية لتشكل معضلة لولا بروز حزب المؤتمر القومي الأفريقي المعادي للبيض وذي الإتجاه القومي الصارخ . ففي بقية الدول الأفريقية كان من الأسهل على زعمائها استيعاب موقف وآراء حزب المؤتمر القومي الأفريقي مقارنة بموقف وآراء الحزب الوطني الأفريقي . سبق لأوليفر أن ناقش هذه القضية مع يوسف دادو ولكن يوسف لم يكن مرتاحا لآراء أوليفر، وكان رأي أوليفر ان يُظهر الحزب استقلاليته باتخاذ مجموعة من المواقف والسياسات مستقلا عن بقية أعضاء حلف المؤتمر Congress Alliance، ووافقته في ذلك الرأي .

قضيت ليلتي الأخيرة في لندن في مناقشة هذه القضايا مع يوسف وأوضحت له أننا في هذه المرحلة التي نعد فيها للنضال المسلح سنعتمد على دعم مالي وتدريب عسكري من دول أفريقية أخرى، ولذا فعلينا ان نأخذ في الاعتبار آراء تلك الدول أكثر من ذي قبل. أشار يوسف الى أنني وأوليفر غيّرنا سياسة الحزب وأننا نميل الى التخلي عن اللاعنصرية التي كانت أساس ميثاق الحرية . كان ردي أنه على خطأ وأننا لا نرفض سياسة الحزب اللاعنصرية، وكل ما ندعو إليه هو أن الحزب في حاجة الى أن يتميز بمواقفه وأن يصدر تصريحات مستقلة عن تحالف المؤتمر . فقد اعتاد الحزب بالاشتراك مع حزب المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا وحزب المؤتمر الشعبي للملونين أن يصدر بيانات مشتركة حول القضايا التي تمس الأفريقيين وحدهم، وهذا التقليد يجب أن يتغير . لم يكن يوسف مرتاحا لذلك وظل يتساءل:

– وماذا عن السياسات؟

قلت إنني لا أتحدث عن السياسات ولكن عن صورة الحزب لدى الآخرين . فستظل المنظمات تعمل جنبا الى جنبا ولكن من الضروري أن يبرز الحزب متميزا عن بقية الأحزاب والتنظيمات الأخرى.

أسفت لمغادرة أصدقائي في لندن وأخذت أتاهب لمرحلة أخرى من الرحلة أغرب وأكثر غموضا، وهي مرحلة التدريب العسكري . فقد رتبت لقضاء ستة أشهر للتدريب العسكري في أديس أبابا . استقبلني هناك وزير الخارجية إيفو Yefu استقبالا حارا وأخذني الى ضاحية تسمى كولفى Kolfe وهي المقر الرئيسي لكتيبة مكافحة الشغب الإثيوبية حيث سأتلقى دروسا في الجندية . ورغم أنني كنت أمارس الملاكمة كهاو فإن معرفتي بفنون القتال كانت بدائية جدا . تولى تدريبي ملازم أول يدعى وندوني بيفيكادو Wandoni Befikadu وهو ضابط محنك شارك في الحرب السرية ضد الإيطاليين . كان برنامج التدريب شاقا ويستمر من الثامنة صباحا حتى الواحدة ظهرا، موعد الغداء والاستحمام، ثم من الثانية حتى الرابعة مساء . ومن الرابعة حتى آخر المساء كنت أتلقى دروسا في العسكرية على يد العقيد تاديسى Tadesse الذي كان يشغل منصب مساعد قائد الشرطة ولعب دورا رئيسيا في إفشال محاولة انقلاب ضد الأمبراطور هيلاسيلاسي.

تعلمت استعمال البندقية الرشاشة والمسدس وتدربت على التصويب مع جنود حرس الأمبراطور في كولفى ومع الكتيبة بكاملها في موقع آخر خاص بالتصويب على بعد خمسين ميلا منها. تدربت على التفجير والضرب بالمدفعية، وعلى نصب المتفجرات وزرع الألغام، كما تدربت على تفاديها. أحسست بأنني أصبحت جنديا وصرت أفكر كما يفكر الجندي، وهو أسلوب يختلف اختلافا تاما عن أسلوب تفكير الرجل السياسي.

استمتعت أكثر ما استمتعت بـ "مسيرات الإجهاد" التي يزود فيها الجندي ببندقية واحدة وعدد من الرصاصات وكمية محدودة من الماء ويطلب منه الوصول الى هدف معين خلال فترة زمنية محددة. تعرفت خلال هذه المسيرات على طبيعة المنطقة الخلابة التي تكسوها الغابات الكثيفة والمرتفعات. إثيوبيا بلد متخلف جدا معماريا يستعمل أهله المحاريث الخشبية ويعيشون على النزر من الطعام والبيرة المعدة محليا. كانت حياتهم تشبه حياة أهل الريف في جنوب أفريقيا، فحياة الفقراء تتشابه في كل مكان.

تحدث العقيد تاديسى في دروسه عن القوات غير النظامية وعن قيادة الجيوش والإنضباط بين الجنود. كنا نتناول العشاء مرة فقال لي:

- تذكر جيدا يامانديلا أنك تؤسس جيش تحرير وليس جيشا رأسماليا تقليديا، وجيش التحرير يقوم على المساواة بين الجنود، وعليك أن تعامل جنودك بأسلوب يختلف تماما عن أسلوب معاملة الجنود في الجيوش الرأسمالية. ففي الميدان عليك ممارسة سلطاتك بثقة ورباطة جأش تماما كما هو الحال في الجيوش التقليدية، أما أثناء ساعات الراحة فيجب أن تتعامل بمساواة كاملة حتى مع أدنى الجنود رتبة. فعليك أن تأكل مما يأكلون وألا تتناول طعامك منفردا في مكتبك بل يجب أن تأكل مع الجنود وأن تشرب مع الجنود وألا تعزل نفسك عنهم أبدا.

كلام معقول لا غبار عليه أعجبت به أيما إعجاب. ولكن بينما كان العقيد يلقي عليّ ذلك الدرس جاء أحد الضباط يسأله عن أحد زملائه الآخرين فنظر إليه العقيد بازدراء وقال:

- الا ترى أنني أتحدث مع شخص مهم؟ الا تعلم انه لا ينبغي لك أن تقاطعني أثناء الأكل؟ انصرف الى غير رجعة!!

قال ذلك وواصل حديثه معي بنفس الروح التعليمية السابقة.

كان من المقرر أن تستمر الدورة التدريبية ستة أشهر ولكنني تسلمت بعد ثمانية أسابيع فقط برقية من الحزب يطلب فيها مني الرجوع الى الوطن. لقد أخذ النضال المسلح يتصاعد وأصبح من الواجب وجود قائد حركة (أمكا) في الساحة.

اتخذ العقيد تاديسى ترتيبات سريعة لسفري على طائرة للخطوط الجوية الإثيوبية الى الخرطوم. وقبل أن أسافر قدم لي هدية وهي عبارة عن مسدس رشاش ومائتي طلقة.

شكرته على الهدية وعلى التدريب، ورغم "مسيرات الإجهاد" وجدت صعوبة في حمل تلك الذخيرة التي يعادل وزنها وزن طفل صغير.

قابلني في الخرطوم موظف في الخطوط الجوية البريطانية وأخبرني بأن رحلتي الى دار السلام سوف تتأخر الى اليوم التالي وأنه حجز لي غرفة في فندق فاخر في المدينة. أزعجني ذلك لأنني كنت أفضل الإقامة في فندق متواضع بعيدا عن الأنظار.

مررت في شرفة الفندق بمجموعة من النزلاء البيض حاملا مسدسي داخل السترة وتلك الكمية الهائلة من الذخيرة مطوية حول خاصرتي. كان ذلك قبل ظهور أجهزة التدقيق الإلكترونية. كما كنت أحمل في جيوبي عدة آلاف من الجنيهات فأحسست كأن أولئك الجالسين ينظرون إلي بعيون من أشعة أكس وأنني معرض للقبض علي في أي لحظة. ولكنني وصلت غرفتي بسلام فحططت رحالي وطلبت ما طاب من الأكل والشراب. وظل وقع خطوات خدم الفندق يثير الرعب في بدني.

اتجهت من الخرطوم الى دار السلام حيث التقيت بدفعة من واحد وعشرين جنديا من رجال (أمكا) في طريقهم الى إثيوبيا لتلقي تدريبات عسكرية. كانت لحظات مفعمة بالفخر والحماس إذ رأيت رجالا تطوعوا لجيش كنت قائما على تأسيسه. لقد وضعوا حياتهم رهن إشارتي في معركة توشك أن تندلع، وهي معركة خطيرة بالنسبة لأول دفعة من المقاتلين في ذلك الجيش. كانوا شبابا غالبيتهم من المدن، وكانوا فخورين ومتحمسين. تناولنا طعام العشاء حيث ذبحت عنزة تكريما لي وتحدثت الى أولئك الشباب عن رحلتي وأكدت على التزامهم بحسن السلوك والانضباط لأنهم يمثلون حركة التحرر في جنوب أفريقيا. قلت لهم إن التدريب العسكري يجب أن يسير جنبا الى جنب مع التدريب السياسي، فالثورة ليست مجرد ضغط على الزناد ولكنها حركة تهدف الى إقامة مجتمع العدل والإنصاف. أدى الجنود التحية العسكرية وكانت أول مرة أتلقى فيها التحية العسكرية من جنودي.

خصص الرئيس جوليوس نايريري لي طائرة أقلتني الى امبيا Mbeya ومنها الى لوباتسي مباشرة، ولكن الطيار أخبرني بأننا سنهبط في كانيي Kanye وهو تغيير مفاجيء أثار قلقي. استقبلني في كانيي الحاكم المحلي برفقته ضابط أمن وكلاهما من البيض. سألني الحاكم عن اسمي فأجبته: ديفيد موتساماي. فرد يقول:

- كلا. أرجوك أن تخبرني باسمك الحقيقي.

قلت مرة أخرى: اسمي ديفيد موتساماي، فرد الحاكم يقول:

- أرجوك أن تخبرني باسمك الحقيقي لأن التعليمات التي عندي تفيد باستقبال السيد مانديلا وأن أقدم له ما يمكن من مساعدة ووسائل نقل. إذا لم تكن أنت السيد مانديلا فسوف أضطر الى اعتقالك لأنه غير مسموح لك بدخول البلاد. فهل أنت السيد مانديلا أم لا؟

وقعت في حيرة، إذ لربما وجدت نفسي رهن الاعتقال في كلا الحالتين. قلت للحاكم:

– إذا كنت مصرا على أنني نلسون مانديلا وليس ديفيد موتساماي فليس بإمكاني أن أخالفك ما تقول.

ابتسم الرجل وقال:

– كنا في انتظارك بالأمس.

أخذني الحاكم الى حيث كان الرفاق في انتظاري، وانطلقنا برا الى لوباتسي حيث التقيت بجو موديسى Joe Modise وأحد أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي يدعى جوناس ماتلو Jonas Matlou كان مقيما هناك. أخبرني الحاكم بأن الشرطة في جنوب أفريقيا على علم بأنني عائد الى البلاد واقترح أن أغادر في اليوم التالي. شكرته على ما قدمه لي من مساعدة ونصائح، وعندما وصلت بيت ماتلو أخبرت رفاقي بأنني عازم على السفر تلك الليلة. رافقني في الرحلة الى جوهانسبيرغ سيسيل ويليامز Cecil Williams، وهو رجل أبيض يعمل في الإخراج المسرحي وعضو في حركة (أمكا)، فانطلقنا واستلمت عجلة القيادة كسائقه الخاص.



الفصل السابع

ريفونيا

- ٤٩ -

عبرنا الحدود فأخذت نفسا عميقا . إن لهواء الوطن بعد الغياب عنه نكهة لذيذة . كانت ليلة صافية من ليالي الشتاء وظهرت النجوم وكأنها ترحب بي هنا ترحيبا أحر من ترحيبها بي في البلاد الأفريقية الأخرى . ورغم أنني تركت عالما استنشقت فيه نسيم الحرية لأول مرة في حياتي وعدت الى عالم سوف أعيش فيه طريدا، إلا أنني شعرت بارتياح عميق للعودة الى الأرض التي ولدت عليها والتي فيها قدري ومستقبلي.

تخترق الحدود بين بيتشوانالاند وشمال غرب ترانسفال عشرات من الطرق الخالية من العلامات، كان سيسل على دراية تامة بأسهلها وأقصرها . وزودني أثناء الرحلة بالكثير من الأخبار عما جرى من أحداث في غيابي . استغرقت الرحلة الليل بأكمله وعبرنا الحدود عند منتصف الليل فوصلنا مزرعة ليليازليف عند الفجر، ولا زلت أرتدي البذلة الكاكي المهلهلة.

لم يكن أمامي وقت طويل للراحة والتأمل . في الليلة التالية عقد اجتماع سري للجنة العمل قدمت فيه تقريرا عن رحلتي . كان لقاءً مشهودا حضره وولتر سيسولو وموسى كوتاني وغوفان امبيكي ودان اتلومى وادجيه بي ماركس ودوما نوكوى . قدمت ملخصا عاما عن الرحلة وعددت الأموال التي استلمناها وعروض التدريب العسكري، ثم قدمت تفاصيل الاعتراضات التي واجهتني بشأن تعاون حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مع البيض والهنود ومع الشيوعيين على وجه الخصوص . كان صدى ما قاله لي زعماء زامبيا لا يزال يتردد في أذني إذ قالوا إنهم يعلمون أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أقوى وأكثر شعبية من حزب المؤتمر القومي الأفريقي ولكنهم قادرون على تفهم الإتجاه القومي الأفريقي البحت الذي يمثله حزب المؤتمر القومي وأنهم في حيرة من الإتجاه اللاعنصري الذي يمثله حزب المؤتمر الوطني ومن علاقاته مع الشيوعيين . وقلت في اجتماع اللجنة إنني وأوليفر متفقان على أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي يجب أن يظهر للعالم أكثر استقلالا كي يطمئن حلفاؤنا الجدد في القارة الأفريقية لأنهم هم الذين سيمولون تدريب عناصر حركة (أمكا). وعرضت اقتراحا بإعادة تشكيل تحالف المؤتمر بما يبرز الحزب زعيما لهذا الحلف خاصة فيما يتعلق بالشؤون التي تمس الأفريقيين بصورة مباشرة.

إنه اقتراح على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة ويتطلب أخذ رأي جميع أفراد القيادة فيه . ألحت لجنة العمل أن أذهب الى ديربان لتقديم تقرير للزعيم لوتولي . وافق الجميع ما عدا غوفان امبيكى الذي نصح بإرسال شخص آخر، ولم يكن غوفان آنذاك مقيما في مزرعة ليليازليف ولكنه حضر الاجتماع بصفته عضوا في القيادة العليا لحركة (أمكا). وقال إنه من الخطورة بمكان أن أذهب أنا شخصيا الى ديربان وعلى التنظيم ألا يعرض سلامتي للخطر خاصة وأنني قد عدت حديثا من الخارج متأهبا لدفع العمل في حركة (أمكا). رفض الجميع - وأنا على رأسهم - تلك النصيحة القيمة.

انطلقت في الليلة التالية من ريفونيا بصحبة سيسل منتحلا شخصية سائقه الخاص. خططت لعقد سلسلة من الاجتماعات السرية في ديربان، كان أولها مع مونتغومري نايكر وإسماعيل مير لأعطيهما فكرة عامة عن نتائج رحلتي وأتدارس معهما المقترح الجديد. كان كلاهما مقربا للزعيم لوتولي الذي كان بدوره يثق فيهما وفي آرائهما. وكنت حريصا على أن أخبر الزعيم بأنني التقيت بأصدقائه وأن أنقل إليه ردود فعلهم. انزعج إسماعيل ومونتغومري لاعتقادي بأن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في حاجة الى البروز كقائد لبقية أحزاب حلف المؤتمر والى أن ينفرد بإصدار بيانات مستقلة حول القضايا التي تمس الأفريقيين، وكان كلاهما ضد أي فكرة تؤدي الى تفكك الحلف.

ذهبت الى غروتفيل حيث يقيم الزعيم والتقينا في بيت سيدة هندية في المدينة. شرحت الوضع بالتفصيل للزعيم فانصت في صمت حتى انتهيت، ثم قال إنه لا يحبذ فكرة أن يملي السياسيون الأجانب علينا سياسة الحزب. وقال إنه توصل الى سياسة اللاعنصرية هذه لأسباب وجيهة ولا يرى من الحكمة تغيير سياستنا لتتناسب مع رغبات حفنة من الزعماء الأجانب.

قلت للزعيم إن هؤلاء السياسيين الأجانب لا يملون سياسة على الحزب ولكنهم يقولون إنهم غير قادرين على فهمها. وقلت إن خطتي هي إدخال بعض التغييرات السطحية ليسهل على حلفائنا الآخرين فهم أفكار الحزب وتقبل سياساته. وكنت أرى أن تلك إنما هي مناورة دفاعية، إذ لو قررت الدول الأفريقية مساندة تنظيم صغير وضعيف مثل حزب المؤتمر القومي الأفريقي فلربما أصبح ذلك الحزب بين عشية وضحاها تنظيما كبيرا وقويا.

لم يكن من عادة الزعيم اتخاذ قرارات فورية، وأحسست بأنه يحتاج الى مهلة من الوقت للتفكير في ما قلت وتدارسه مع بعض أصدقائه .ودعت الزعيم ونصحني بالإحتياط لنفسي. انطلقت لاجتماعاتي السرية الأخرى وكان آخرها اجتماع القيادة العامة الإقليمية لحركة (أمكا) في ديربان.

قائد قيادة ديربان هو خبير التخريب برونو امتولو Bruno Mtolo ولم أكن قابلته من قبل ولكن كتب لي أن ألتقي به مرة أخرى في وقت لاحق وتحت ظروف مختلفة تماما. أخبرت القيادة عن رحلتي عبر أفريقيا وعن الدعم الذي حصلنا عليه وعروض التدريب العسكري. أوضحت أن عمليات (أمكا) ستقتصر في الوقت الراهن على عمليات التخريب، وإذا لم تؤت هذه العمليات نتائجها المرجوة فقد ننتقل الى مرحلة حرب العصابات.

التقيت في آخر ذلك المساء في بيت الصحافي المصور ادجي آر نايدو G R Naidoo، حيث كنت أقيم، بكل من اسماعيل مير وزوجته فاطمة ومونتغومري نايكر وادجيه ان سينغ في سهرة استقبال وتوديع في آن واحد إذ كنت عازما على السفر الى جوهانسبيرغ في اليوم التالي. كانت سهرة ممتعة والأمسية الأولى التي التمست فيها الراحة والاسترخاء منذ فترة طويلة. نمت نوما هادئا والتقيت مع سيسل عصر يوم الأحد الخامس من أغسطس لنبدأ رحلتنا الطويلة الى جوهانسبيرغ في سيارته الأوستن ذات الحالة الجيدة.

كنت أرتدي معطفي الأبيض الخاص بسائقي السيارات، وكنا نتبادل قيادة السيارة . كان الجو صافيا باردا باعتدال فسرحت مع جمال الطبيعة في ناتال التي تظل خضراء حتى في أيام الشتاء . سوف أجد الوقت للقاء ويني والأطفال . وكم كنت أتمنى لو شاركتني ويني الاستمتاع بجمال أفريقيا ولم يكن بإمكاني إلا أن أحكي لها ما فعلت وما شاهدت.

ما إن تركنا ضواحي ديربان الصناعية خلفنا حتى ظهرت لنا المرتفعات والمناظر الرائعة الخلابة في الوديان المحيطة بالمدينة، وظهرت أمامنا مياه المحيط الهندي الزرقاء الداكنة. ديربان هي الميناء الرئيسي للمنطقة الصناعية في جنوب أفريقيا ويمر الطريق الرئيسي المؤدي منها الى جوهانسبيرغ بمحاذاة خط سكة الحديد لمسافة طويلة . وهنا راودتني فكرة بأن خطوط سكة الحديد هدف ممتاز لعمليات التخريب فسجلتها في تلك المفكرة الصغيرة التي كانت تصحبني حيثما ذهبت.

كنا مستغرقين في الحديث عن عمليات التخريب عندما مررنا بمدينة هوفيك Howick على بعد عشرين ميلا شمال غرب بيترماريتسبيرغ . وفي سيدارا Cedara وهي مدينة صغيرة بعد هوفيك لاحظت سيارة من نوع فورد في-٨ بها عدد من الركاب البيض اجتازتنا مسرعة . التفت بصورة عفوية الى الخلف فرأيت سيارتين تغصان برجال بيض . وفجأة أخذت السيارة التي أمامنا تشير علينا بالوقوف وأحسست في لحظتها أنها نهاية مطاردتي وان سبعة عشر شهرا من "الحرية" أوشكت على الانتهاء.

خفض سيسل من سرعة السيارة والتفت إلي يسألني:

- من يكون هؤلاء الرجال؟

لم أجبه لأن كلا منا يعرف الجواب تمام المعرفة . لقد اختاروا مخبأهم بمهارة . كانت الى يسارنا ضفة منحدرة كثيفة الشجر كان بإمكانهم إجبارنا على الدخول فيها إن قررنا الهروب. كنت جالسا الى يسار السائق وراودتني للحظات فكرة الهروب الى الغابة ولكنني لو فعلت لأطلق علي الرصاص وقتلت خلال لحظات.

توقفت السيارة واقترب منا رجل طويل نحيل متجهم الوجه اتجه الى نافذة الراكب الأمامي مباشرة . لم يكن حالقا ذقنه وبدا كأنه لم ينم لفترة طويلة، واستنتجت أنه كان في انتظارنا منذ عدة أيام . عرفني بنفسه في صوت هادىء قائلا إنه الضابط فورستر Vorster من شرطة بيترماريتسبيرغ وابرز أمر اعتقال . سأل عن اسمي فقلت ديفيد موتساماي فهز رأسه ثم سألني بأدب عدة أسئلة عن أين كنت وإلى أين أنا ذاهب . حاولت تفادي الإجابات دون أن أعطيه معلومات مفيدة فاعتلى وجهه الغضب وقال:

- آخ! انت نلسون مانديلا وهذا سيسل ويليامز، وهذا أمر بإلقاء القبض عليكما.

اخبرنا الضابط بأن شرطيا برتبة رائد سيصحبنا الى بيرماريتسبيرغ . لم تكن الشرطة في تلك الأيام دقيقة في عملها فلم يأبه فورستر الى أن يفتشني تفتيشا شخصيا . كنت حاملا مسدسا بذخيرته، وفكرت مرة أخرى في الهرب ولكن فرص نجاتي كانت محدودة لكثرة

عدد رجال الشرطة . أخفيت المسدس ومفكرتي الخاصة خلسة بين مقعدي ومقعد سيسل ولسبب ما لم تعثر عليهما الشرطة إطلاقا، وكان ذلك من حسن الحظ وإلا تعرض عدد كبير من الناس للاعتقال.

في مركز الشرطة أدخلت الى مكتب الضابط فورستر حيث يوجد عدد من الضباط كان من بينهم وكيل ضابط تروتار Truter الذي كان أحد الشهود في قضية الخيانة . ترك تروتار انطباعا طيبا بين المتهمين لأنه عرض سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي عرضا دقيقا ولم يبالغ أو يكذب . تبادلنا التحية في نبرات ودية.

لم أقر بأي شيء بعد غير أن اسمي ديفيد موتساماي فقال تروتار:

– لماذا يانلسون تصر على التمادي في هذه المسرحية . فأنت تعلم جيدا أنني أعرف من أنت . وكلنا نعرف من أنت .

أجبت بأنني أعطيت اسمي وهو الاسم الذي لن أحيد عنه . طلبت محاميا فرفض طلبي في اقتضاب ورفضت بدوري الإدلاء بأي أقوال .

وضع سيسل في زنزانة منفصلة، ووجدت فرصة للتأمل في وضعي . كنت أعلم جيدا أن الاعتقال وارد في أي لحظة، ولكن حتى المناضل من حقه الإنكار . وفطنت تلك الليلة وأنا في زنزانتي بأنني لست مستعدا للأسر والسجن . أصبحت قلقا مشدود الأعصاب . لقد وشى أحدهم بي عند الشرطة وأخبرهم عن تحركاتي إذ كانوا على علم بأنني في ديربان وأنني عائد الى جوهانسبيرغ . كانت الشرطة تعتقد أنني عدت الى جنوب أفريقيا منذ عدة أسابيع قبل أن أعود فعلا . فقد نشرت الصحف في يونيو بالخط العريض: "عودة زهرة الربيع السوداء" وأنا لم أزل في أديس أبابا . هل كان القصد من ذلك هو الخداع؟

عمدت السلطات الى مضايقة ويني اعتقادا منها أنها على علم برجوعي الى البلاد، وكنت أعلم أنهم يقتفون أثرها وأنهم فتشوا البيت عدة مرات . خمنت أنهم سيتوقعون أن أزور الزعيم لوتولي بعد عودتي الى البلاد مباشرة، وكانوا على صواب . ولكن شكا أصابني بأنهم كانوا على علم بوجودي في ديربان . كانت الحركة مخترقة من قبل مخبري السلطة وحتى ذوي النية الحسنة لم يكونوا منضبطين في الحديث كما يجب . كما أنني كنت متهاونا الى حد ما إذ كان عدد كبير من الناس على علم بوجودي في ديربان وقد شاركت في سهرة في آخر ليلة قضيتها هناك، وأخذت أؤنب نفسي بشدة على التراخي الذي أصاب احتياطاتي الأمنية . أخذت أقلب جميع الإحتمالات . هل كان هناك مخبر في ديربان؟ أم في جوهانسبيرغ؟ هل هو من داخل الحركة، أم صديق أم قريب؟ التخمين في هذه الأمور المجهولة لا طائل منه، ومن فرط إرهاقي الذهني والبدني استسلمت لنوم عميق . لم أكن تلك الليلة – ٥ أغسطس ١٩٦٢ – بالذات في حاجة للقلق من عثور الشرطة عليّ فقد أصبحت في قبضتها.

في الصباح استعدت بعض قواي وأعددت نفسي لما ينتظرني من محنة في ذلك اليوم. فينبغي الا أظهر أمام من اعتقلوني - تحت أي ظرف من الظروف - شعورا بالقنوط أو خيبة الأمل. في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحا مثلت أمام القاضي المحلي فأحالني رسميا على سلطات جوهانسبيرغ. كانت جلسة عادية هادئة ترأسها القاضي وكأنه يبت في مخالفة مرور. لم تتخذ الشرطة أي إجراءات أمنية فوق العادة أثناء الرحلة الى جوهانسبيرغ فجلست بدون قيود في المقعد الخلفي للسيارة بينما جلس اثنان من رجال الأمن في المقعد الأمامي. علم أصدقائي باعتقالي فأحضرت فاطمة مير شيئا من الطعام الى مركز الشرطة تقاسمته مع الضابطين اللذين رافقاني في السيارة. بل لقد توقفنا في مدينة فولكسراست Volksrust وسُمح لي بالخروج من السيارة للترويح على قدمي. لم أحدث نفسي بالهرب من أناس عاملوني تلك المعاملة الحسنة، ولم أكن لأستغل ثقتهم في.

ولكن عندما اقتربنا من جوهانسبيرغ تغير الجو شيئا ما، وسمعت في راديو الشرطة إعلان القبض عليّ والأمر بإزالة الحواجز من الطرقات المؤدية الى ناتال. عند الغروب استقبلتنا في ضواحي جوهانسبيرغ فرقة من رجال الشرطة لمرافقتنا. فجاة وضعت القيود في يدي وأخذت من السيارة الى عربة شرطة مقفلة بها نوافذ صغيرة معتمة ومقواة بشباك من الأسلاك. انطلق الموكب عبر طريق شائك غير معتاد في اتجاه ميدان مارشال ويبدو أن الشرطة كانت متوجسة من الوقوع في كمين.

أودعت زنزانة انفرادية وشرعت فورا في الإعداد لخطة اليوم التالي عندما سمعت سعالا في زنزانة مجاورة. لم أدرك أن سجينا آخر موجود قريبا مني وحسب بل أحسست بأن ذلك السعال ليس غريبا عني. نهضت جالسا وناديت:

- وولتر؟

- نعم، هل هذا أنت يانلسون؟

ضحكنا معا في مزيج من الإرتياح والمفاجأة وخيبة الأمل والسعادة. علمت أن وولتر اعتقل بعدي بقليل، واتفقنا أن ذلك لم يكن محض صدفة. لم يكن ذلك هو المكان المثالي لاجتماع لجنة العمل ولكنه كان الأنسب بالتأكيد، فانصرم الليل سريعا وأنا أحكي لوولتر قصة اعتقالي وتفاصيل اجتماعاتي التي عقدتها في ديربان.

مثلت في اليوم التالي أمام أحد القضاة لتمديد حجزي رسميا. حضر الى المحكمة كل من هارولد وولبى وجو سلوفو بعد أن سمعا باعتقالي فتشاورنا داخل حجرة في أسفل المبنى. وقفت أمام القاضي نفسه مرات عديدة في الماضي بحكم مهنتي كمحام ونشأت بيننا علاقة احترام متبادل، وكان في المحكمة عدد من المحامين كنت أعرف بعضهم معرفة جيدة. تمر بالإنسان أحيانا أحداث بسيطة ولكنها تشبع غروره وإعجابه بنفسه، ولا أظن أنني محصن ضد الإطراء الشخصي. وجدت نفسي، ذلك الرجل الأول المطلوب من قبل الشرطة وطريد العدالة مقيد اليدين الهارب من القانون لأكثر من سنة، وجدت نفسي أعامل

بكل احترام وتقدير من قبل القاضي وجميع المحامين والموظفين في تلك المحكمة. كانوا جميعا يعرفونني: نلسون مانديلا المحامي والوكيل القانوني وليس نلسون مانديلا الخارج عن القانون. لقد رفع ذلك من معنوياتي بدرجة كبيرة.

ظهر على القاضي أثناء المداولات التردد والقلق وكان يتفادى النظر اليّ مباشرة. كما بدا الارتباك على بقية المحامين والوكلاء. وهنا خطر علي خاطر: إن سبب ارتباك أولئك الرجال ليس مجرد كوني زميلا لهم في المهنة أهين، وإنما هو كوني إنسانا عاديا يعاقب على أفكاره وما يؤمن به. لقد فطنت لأول مرة للدور الحاسم الذي يمكن أن العبه من موقعي ذاك داخل المحكمة والفرص المتاحة لي باعتباري متهما ورمزا للعدالة في محكمة الجلاد وممثلا للمبادىء السامية من حرية وعدالة وديمقراطية في مجتمع تخلى عن تلك الفضائل والمبادىء. أيقنت في تلك اللحظة بأنني قادر على مواصلة النضال ولو من داخل قلعة العدو.

عندما سئلت عن من سيتولى الدفاع عني أجبت بأنني سأتولى الدفاع عن نفسي بنفسي وأن جو سلوفو سيقوم بدور المستشار. تمثيل نفسي في الدفاع سيمكنني من ترسيخ ذلك الدور الذي حددته لنفسي ومن الاستفادة من المحاكمة لعرض موقف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الأخلاقي في معارضة العنصرية. لن أحاول الدفاع عن نفسي بأكثر مما أحاول أن أضع الدولة نفسها في قفص الاتهام. استمعت للتهم المقدمة ضدي بتركيز واهتمام. وشملت التهم تحريض العمال الأفريقيين على الاضراب ومغادرة البلاد بدون وثائق سفر صحيحة. عقوبة "جرائم" من هذا القبيل في جنوب أفريقيا الخاضعة لنظام التفرقة العنصرية ربما بلغت عشر سنوات سجن، ورغم ذلك فقد استقبلتها بارتياح إذ كان من الواضح أن الدولة لا تملك أدلة كافية تربطني بحركة (أمكا) وإلا قدمت إلي تهما في جرائم أخطر كالخيانة أو التخريب.

لم ألمحويني إلا عند مغادرتي قاعة المحكمة. بدت على وجهها الكآبة والحزن، ولا شك في أنها كانت تفكر في الشهور والسنوات القاسية التي تنتظرها، وفي عيشها وحيدة وقيامها على تربية طفلين صغيرين في مدينة قاسية جافة مثل جوهانسبيرغ. هناك فرق كبير بين التفكير في تلك الصعوبات ومواجهتها فعلا في ميدان الحياة. لم يكن بمقدوري أن أهديها أكثر من ابتسامة عريضة خاطفة لأطمئنها أنني لست قلقا وأنه لا ينبغي لها هي أيضا أن تقلق. لا أتخيل أن ذلك خفف عليها شيئا مما هي فيه من ألم ومعاناة.

أخذت من المحكمة الى سجن قلعة جوهانسبيرغ، وعندما خرجت من المبنى متجها لصعود العربة المقفلة شاهدت مئات الناس يرددون هتافات الحزب المعهودة: أماندلا 'Amandla' وانغاويتو 'Ngawethu' أي "القوة" و "القوة لنا" على التوالي!! ارتفعت الأصوات بالصياح والغناء واحتشد الناس حول العربة يضربون عليها بأيديهم وهي تتحرك ببطء مغادرة مبنى المحكمة. كان اعتقالي الخبر الأول في جميع الصحف، وظهرت عناوين الصفحات الأولى تقول: "الشرطة تنقض لإنهاء سنتين من المطاردة" – "نلسون مانديلا رهن الاعتقال". لم يعد من يسمى "زهرة الربيع السوداء" حرا طليقا كما كان.

سمح لويني بعد أيام بزيارتي فلبست أجمل ثيابها ولم يظهر على وجهها ما ظهر عليه من قبل من كآبة ووجوم . أحضرت معها ملابس نوم (بيجامة) جديدة فاخرة وثوبا من الحرير يليق بصالون فاخر وليس بسجن . لم أجد الشجاعة الكافية لأقول لها إنه ليس من اللائق أن أرتدي تلك الملابس داخل السجن، وكنت على ثقة أن هديتها كانت تعبيرا عن حبها ووعدها بالتضامن والوقوف الى جانبي. شكرتها وتحدثنا في عجالة عن شؤون الأسرة خاصة فيما يتعلق بمعيشتها وطفليها . ذكرت أسماء عدد من الأصدقاء الذين بإمكانهم مساعدتها وزبائن مدينين لي بأموال، وطلبت منها أن تخبر الأطفال بالحقيقة كاملة وبأنني سأغيب فترة طويلة . قلت إننا لسنا أول أسرة تواجه مواقف من هذا القبيل وإن من سبقونا خرجوا منها أكثر قوة وصلابة . أكدت لها على شرعية قضيتنا وإخلاص أصدقائنا لنا وأنني بفضل حبها وإخلاصها سوف أتمكن من تجاوز هذه المحنة مهما كانت النتائج . تعانقنا عناقا طويلا حارا فيه تعبير عن كل ما يجيش داخلنا من عواطف وكأنه اللقاء الأخير . كان الأمر كذلك الى حد ما، فقد شاءت الأقدار أن نفترق فراقا أطول مما كان أي منا يتخيل أو يتوقع . سمح لي الضابط بمرافقة ويني جزءا من مسافة الطريق الى الباب الرئيسي حيث امتد بصري وراءها وهي تغادرني وحيدة كلها فخر وعزة نفس.

- ٥٠ -

كنت في القلعة تحت إشراف العقيد ميِنّار Minnaar وهو رجل أفريكاني فيه دماثة، ويعتبره زملاؤه "المتشددون" لبراليا الى حد كبير. أخبرني بأنه سيسمح لي بالإقامة في مستشفى السجن لأنه أكثر الأماكن راحة وسيزودني بكرسي ومنضدة كي أتمكن من التحضير للقضية. أجل، المستشفى مريح، إذ كان بإمكاني النوم على سرير - وهو ما لم يتوفر لي في السجن قط - ولكن الدافع الحقيقي وراء سخاء العقيد هو أن المستشفى أكثر مكان آمن يمكن أن أحتجز فيه. فلكي تصل الى المستشفى عليك اختراق حائطين منيعين كل منهما تحت الحراسة المسلحة. داخل الحائطين هناك أربع بوابات ضخمة مقفلة بإحكام. ترددت في الصحافة تكهنات بأن الحركة ستعمل على تهريبي من السجن، وكانت السلطات تبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون ذلك.

كما ترددت في الصحف وداخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أقوال طائشة تفيد بأن شخصا ما من داخل الحركة هو الذي وشى بي لدى الشرطة. هناك من اتهم مضيفي في آخر زيارة لديربان ادجي آر نايدو ولكنني أعتقد أنه اتهام لا أساس له من الصحة. كما بالغت الصحافة في تهويل فكرة أن الشيوعيين البيض والهنود هم الذين وشوا بي لدى السلطات لعدم ارتياحهم لما اقترحته من ضرورة تبني حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لسياسة ذات اتجاه قومي أفريقي أكثر. ولكنني أعتقد أن الحكومة هي التي زرعت تلك القصص المختلقة بهدف شق صفوف حركة المؤتمر، وهي في رأيي محاولة شريرة لخلق الفتنة. ناقشت هذا الأمر في ما بعد مع وولتر ودوما وجو سلوفو وأحمد كاثرادا، بل ومع ويني كذلك وسررت بأنهم جميعا يشاطرونني الرأي ذاته. كانت ويني دعيت لافتتاح المؤتمر السنوي لمؤتمر الشباب الهندي في ترانسفال وبإيعاز مني فندت في كلمتها تلك الإشاعات بما لا يدع مجالا لأدنى شك، وأسهبت الصحف في الحديث عن جمال ويني وبلاغة حديثها. وقالت في تلك الكلمة:

- إننا لن نضيع الوقت في البحث عن أدلة على من باع مانديلا أو خانه، فهذه الدعاية تهدف الى إشعال نار الفتنة بيننا لنتصارع بدلا من أن نتوحد لصد طغيان الوطنيين.

من أكثر القصص شيوعيا في هذا الصدد تلك التي تقول أن موظفا في القنصلية الأمريكية على علاقة بوكالة الاستخبارات المركزية هو الذي أبلغ السلطات عني. لم تثبت هذه القصة إطلاقا ولم تتوفر لي عن صحتها أي أدلة يوثق بها. ورغم أن وكالة الاستخبارات المركزية تتحمل المسؤولية في عدد كبير من العمليات الدنيئة لدعم الهيمنة الأمريكية إلا أنني لا أستطيع أن أحملها مسؤولية وقوعي في الأسر. حقيقة الأمر هي أنني تهاونت في كتمان تحركاتي واتصالاتي، وباستعادة تلك الأحداث يظهر لي أن السلطات كان بإمكانها تحديد مكاني خلال تلك الرحلة الى ديربان بعدة وسائل. ولعل الغريب حقا هو أنني لم أقع في شراكها قبل ذلك بكثير.

قضيت يومين فقط في مستشفى القلعة ثم نقلت الى بريتوريا. كانت الزيارات مفتوحة

في جوهانسبيرغ وكان يفد علي عدد كبير من الزوار كل يوم . والزوار يرفعون من روح السجين المعنوية وغيابهم يخلف الحزن والكآبة . كان الهدف من نقلي الى بريتوريا هو إبعادي عن موطن إقامتي وحرماني من زيارات الأهل والأصدقاء.

وضعت القيود في يدي وصعدت إلى سيارة شحن قديمة وكان بصحبتي سجين آخر. كانت العربة قذرة وجلس كل منا على إطار عربة ملوث بشحم السيارات يزحف من جانب الى آخر . لفت نظري اختيار السلطات لرفيقي وكان يسمى انكاديمنغ Nkadimeng وهو عضو في واحدة من أخطر عصابات الإجرام في سويتو . لم يكن من المعتاد أن تسمح السلطات باختلاط المجرمين والسجناء السياسيين ولكنها كانت تهدف الى استثارتي بالجمع في عربة واحدة بيني وبين انكاديمنغ الذي افترضت أنه مخبر شرطة . كنت في حالة مزرية وأعصابي مشدودة عندما وصلنا سجن بريتوريا وزاد من اضطرابي أن وضعوني مع رفيقي ذاك في زنزانة واحدة . صرت أطالب بفصلنا ونجحت بعد لأي في الحصول على زنزانة خاصة أستطيع فيها أن أعد لقضيتي.

سمح لي بالزيارة مرتين في الأسبوع فقط، ورغم بعد المسافة جاءت ويني لزيارتي بانتظام وكانت في كل مرة تحضر ملابس نظيفة وما لذّ من الطعام . كانت بذلك تعبر لي عن وقوفها الى جانبي وكلما لبست قميصا نظيفا أحسست بحبها وإخلاصها يغمرني . كنت أدرك مدى صعوبة السفر الى بريتوريا أثناء النهار وفي وسط الأسبوع خاصة في وجود طفلين صغيرين يحتاجان لرعاية وعناية. زارني كثير من الأصدقاء وخاصة السيدة بيلاي Pillay التي كانت تطبخ لي وجبة الغداء كل يوم.

كان يتجمع لدي قدر كبير من مختلف الأطعمة والملذات وكنت أحس بالخجل أمام غيري من المساجين فرغبت أن أشركهم معي في ما كان يأتيني من طعام، ولكن التعليمات لا تسمح بذلك إطلاقا. وللتحايل على ذلك كنت أقدم الطعام للسجانين أملا في أن يتساهلوا في تنفيذ التعليمات . قدمت مرة لأحد السجانين الأفريقيين تفاحة من نوع ممتاز فنظر الي بعبوس وقال:

- لا أريدها.

عند السجانين الأفريقيين نزعة تتراوح بين التعاطف والقسوة متأثرين في ذلك بسلوك زملائهم البيض، وكأنهم يسعون الى بزّهم في كلتا الحالتين . بعد فترة رأى ذلك السجان أحد زملائه البيض قد أخذ التفاحة التي رفضها هو فعدّل من موقفه في المرات التالية، وبذلك تمكنت من تزويد بقية السجناء بالطعام.

علمت عبر طاحونة الإشاعات داخل السجن أن وولتر قد أحضر هو الآخر الى بريتوريا ورغم انفصال كل منا عن الآخر استطعنا التواصل وتبادل المعلومات . تقدم وولتر بطلب إطلاق سراحه بكفالة وأيدته في ذلك الرأي، إذ إن الخروج بكفالة كان موضوعا حساسا داخل دوائر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. فهناك من كان يرى رفض الكفالة في جميع الأحوال لأنها ربما فُسرت بأنها ضعف واستغلال للتسهيلات القانونية . لم أكن من أنصار

اتباع هذا الرأي في جميع الأحوال ورأيت أن تؤخذ كل حالة على حدة .ومنذ أن أصبح وولتر أمينا عاما للحزب كنت مؤمنا بضرورة خروجه من السجن بكفالة لأنه كان عضوا مهما جدا في التنظيم ولا ينبغي أن يقبع داخل السجون . فالكفالة في هذه الحالة قضية عملية وليست مسألة نظرية، وكانت حالته تختلف عن حالتي . فقد كنت أعمل في الخفاء ولم يكن هو يعمل في الخفاء . وقد أصبحت أنا رمزا شعبيا للتمرد والنضال بينما كان وولتر يعمل من وراء الكواليس . وافق وولتر على عدم تقديم طلب بإطلاق سراحي بكفالة، لأن الطلب سيرفض على أي حال ولم أكن لأقوم بأي عمل من شأنه أن يشعر الناس بأنني لم أكن على استعداد لمواجهة نتائج أسلوب العمل السري الذي اخترته منهجا للنضال.

اتفقت مع وولتر على ذلك الترتيب وبعد فترة قصيرة نقلت من جديد الى سجن القلعة في جوهانسبيرغ حيث حدد موعد المثول أمام المحكمة في أكتوبر . للسجن مزايا محدودة جدا، ولكن العزلة تعين على القراءة والدراسة . التحقت بدراسة الليسانس في القانون عن طريق المراسلة، وهي شهادة تؤهل المرء للمرافعة أمام المحاكم . كان أول عمل قمت به في سجن بريتوريا هو توجيه رسالة لسلطات السجن أخبرهم فيها بأنني أنوي الالتحاق بالدراسة وأطلب منهم السماح لي باقتناء نسخة من كتاب قانون الإساءة الشخصية (قانون تورتس) The Law of Tortsأحد الكتب المقررة للدراسة.

بعد بضعة أيام دخل زنزانتي العقيد أوكامب Colonel Aucamp آمر سجن بريتوريا وهو من أسوأ مسؤولي السجن سمعة فخاطبني بنبرة كلها تعال وكبرياء قائلا:

– لقد أصبحت الآن في أيدينا يامنديلا، فلماذا ترغب في الحصول على كتاب عن المشاعل (كلمة torches بالإنجليزية تعني "مشاعل" وهي قريبة في النطق من تورتس Torts)، اللهم إلا إذا كنت ترغب أن تستفيد به في عمليات التخريب؟

لم أفهم شيئا مما قال إلا بعد أن أبرز نسخة من رسالتي التي طلبت فيها كتابا عن ما أسماه قانون تورتشس "Law of Torches" فابتسمت وأخذه الغضب لسخريتي منه . فكلمة تورتش torch الإنجليزية تقابلها في لغة الأفريكانا كلمة تورتس toorts وهي قريبة في جرسها من كلمة تورتس torts الموجودة في عنوان الكتاب . شرحت للعقيد أن كلمة تورتس torts الإنجليزية هي اسم لفرع في القانون، وليست المشعل الذي يستخدم في تفجير القنابل، فغادر الزنزانة في سخط.

كنت ذات يوم في فناء السجن أزاول تمرينات رياضية من هرولة وحركات سويدية وغيرها فاقترب مني رجل هندي وسيم طويل القامة يدعى موسى ديناث Moosa Dinath كنت عرفته معرفة سطحية كرجل أعمال سيء السمعة . كان موسى يقضي عقوبة السجن لمدة سنتين بتهمة الاحتيال، ولولا السجن لما نشأت بيني وبينه صداقة . اعتاد موسى أن يرافقني في الجري في الساحة وسألني يومها إن كنت لا أمانع في أن يتقدم بطلب لمسؤول السجن بنقله قريبا مني في مستشفى السجن . رحبت بالفكرة اعتقادا مني بأن السلطات لن تسمح له بذلك ولكنني كنت مخطئا .

كان أمرا في غاية الغرابة أن يسمح لمجرم من أمثال ديناث بالإقامة بجوار سجين سياسي ينتظر المحاكمة. لم أبد أي اعتراض لأنني كنت في حاجة الى الرفقة. كان ديناث ثريا واعتاد أن يدفع رشاوى لضباط السجن مقابل امتيازات عديدة منها ارتداء ملابس مخصصة للسجناء البيض وأكل طعامهم والإعفاء من أشغال السجن كلها.

شاهدت ذات ليلة العقيد مينّار، قائد السجن ومن أنصار الأفريكان المعروفين، وقد أتي بشخصه لمرافقة ديناث الى خارج السجن حيث قضى الليلة ولم يعد إلا في صباح اليوم التالي. لم أكن لأصدق ذلك لولا أنني شاهدته بعيني.

كان ديناث يتحفني بحكايات غريبة عن خزعبلاته المالية وعن الفساد المالي بين الوزراء، مما أكد لي أن التفرقة العنصرية سم ينفث الإنحلال الأخلاقي في جميع المجالات. كنت أتفادى الحديث معه في أي قضايا سياسية أو ذات طبيعة حساسة على احتمال أن يكون هو الآخر مخبرا يعمل لصالح السلطات. طلب مني مرة أن أحكي له عن رحلتي الى أفريقيا فتفاديت الموضوع. تمكن ديناث من توظيف ما لديه من وساطات للخروج مبكرا من السجن وأطلق سراحه بعد أربعة أشهر فقط من عقوبة السجن سنتين.

الهروب من السجن يحقق هدفين في آن واحد. فهو يمكن المناضل من استعادة حريته لمواصلة عمله النضالي، ويعطي دفعة معنوية هائلة للنضال ككل، ويوجه ضربة دعائية محكمة للعدو. وقد كانت فكرة الهروب من السجن تراودني بشكل مستمر، وكنت اتفحص تضاريس المبنى أثناء زياراتي المتكررة لمكتب قائد السجن وأدرس بعناية تحركات الحراس ونوع المفاتيح والأقفال الموجودة على الأبواب. أعددت رسما مفصلا للمبنى مع التركيز على تحديد موقع مستشفى السجن والبوابات المؤدية الى خارجه، وهربت تلك الخريطة خارج السجن حيث سلمت للحركة بغية دراستها والتخلص منها بعد ذلك مباشرة.

وضعت خطتان للهروب: إحداهما من بنات أفكار موسى ديناث تجاهلتها بالكامل، والأخرى من إعداد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وصلتني عن طريق جو سلوفو. وتشمل الثانية رشاوى ونسخ من مفاتيح أبواب السجن ولحية مزيفة سوف تخبأ في إحدى السترات التي ترسل لي داخل السجن حتى أضعها على وجهي بعد الخروج من مبنى السجن. درست الخطة بدقة وعناية وقررت أنها غير ناضجة وأن فرص إخفاقها عالية جدا. والإخفاق سيكون قاتلا بالنسبة للتنظيم. نقلت رأيي الى جو في إحدى لقاءاتي به، وكتبت أقول إن (أمكا) ليست مستعدة بما يكفي لتنفيذ عملية من هذا القبيل، وإنها لن تتحقق حتى وإن قامت بها فرقة عسكرية خاصة. واقترحت تأجيل الخطة الى ما بعد إداتني عندما تخف الإحتياطات الأمنية المحيطة بي. وقلت أخيرا:

- أرجو إعدام هذه الورقة بعد الإنتهاء من قراءتها.

قبل جو وزملاؤه بنصيحتي ولكنه قرر الاحتفاظ برسالتي كوثيقة تاريخية ظهرت في ما بعد في وقت غير مناسب البتة.

- ٥١ -

عقدت الجلسة الأولى للمحكمة يوم الإثنين ١٥ أكتوبر ١٩٦٢، وشكل الحزب لجنة شعارها "أطلقوا سراح مانديلا" كما بدأ حملة نشطة لهذا الغرض. نظمت الاحتجاجات في جميع أنحاء البلاد وظهر ذلك الشعار مكتوبا على جدران المباني. ردت الحكومة بمنع كل التجمعات الخاصة بقضيتي ولكن الحركة تجاهلت المنع وواصلت الحملة.

عكفت لجنة "تحرير مانديلا" على الترتيب لمظاهرة جماهيرية ضخمة أمام المحكمة يوم الافتتاح وكانت الخطة أن يصطف الناس على جانبي الطريق الذي سوف تمر منه الشاحنة المقفلة التي ستنقلني إلى المحكمة. وفهمت من التقارير التي وصلتني ومن همسات حراس السجن أن أعدادا كبيرة من الناس ستشارك في المظاهرة.

جاءني يوم السبت وأنا أعد لمحاكمة يوم الإثنين الأمر بحزم أمتعتي فورا لأن المحكمة ستعقد في بريتوريا. لم تعلن السلطات عن ذلك رسميا ولولا أنني تمكنت من تسريب الخبر عن طريق أحد السجانين المتعاطفين ما كان أحد ليعلم أنني غادرت جوهانسبيرغ.

تجاوبت الحركة بسرعة مع ذلك التطور، وما أن افتتحت مداولات المحاكمة في ذلك الكنيس اليهودي العتيق حتى غصت قاعة المحكمة بالأنصار والمتعاطفين. لقد أصبح ذلك الكنيس خلال السنوات الأربع التي قضيتها في محاكمة الخيانة بمثابة بيتي الثاني. لم يتمكن مستشاري القانوني جو سلوفو من الحضور لأنه كان ممنوعا من مغادرة جوهانسبيرغ فحل محله المحامي القدير بوب هيبل Bob Hepple.

دخلت قاعة المحكمة صباح الإثنين بملابس الكوسا التقليدية المصنوعة من جلد النمر بدلا من البذلة وربطة العنق. هب الحاضرون وقوفا رافعين قبضاتهم في الهواء بالتحية الأفريقية المعهودة: أمندلا 'Amandla' وانغاويتو 'Ngawethu' أي "القوة" و "القوة لنا!!" كان لهيئتي التي ظهرت بها فعل السحر في الجماهير ومن بينهم عدد كبير من أهلي وأصدقائي الذين قدموا من أقاصي ترانسكاي. ظهرت ويني هي الأخرى بغطاء الرأس التقليدي وثوب الكوسا المتدلي الى الكعبين.

اخترت الزي التقليدي لإبراز المعنى الرمزي لكوني رجلا أفريقيا أسودا يحاكم في محكمة الرجل الأبيض. كنت أحمل على كتفيّ تاريخ قومي وثقافتهم وتراثهم، وشعرت يومها أنني تجسيد للقومية الأفريقية ووريث ماضي أفريقيا القاسي النبيل كله ومستقبلها المجهول. وارتداء جلد النمر فيه تحقير لمظاهر عدالة البيض المتكلفة. كنت على يقين من أن ظهوري بذلك الزي سيخيف السلطة كخوف كثير من البيض من ثقافة أفريقيا وحضارتها.

عاد الهدوء الى قاعة المحكمة وافتتحت الجلسة فحييت محامي الادعاء السيد بوش Mr Bosch التحية الرسمية، وكنت أعرفه منذ أيام عملي كمحام، كما حييت القاضي

السيد فون هيردن Mr von Heerden الذي لم يكن غريبا عليّ هو الآخر. قدمت من فوري طلبا بتأجيل القضية أسبوعين لأنني نقلت الى بريتوريا دون إعطائي مهلة لإشعار فريق الدفاع الخاص بي فوافق القاضي على أسبوع واحد فقط.

بينما كنت في طريقي عائدا الى الزنزانة أخبرني أحد الحراس البيض في ارتباك بأن قائد السجن العقيد جايكوبز Colonel Jacobs يأمرني بتسليم زيي التقليدي فأجبته:

- يمكنك أن تخبره بأنني لن أسلمه.

بدأ الحارس يرتعش وكاد يتوسل إلي أن أسلمه زي جلد النمر قائلا بأنه سوف يفصل من عمله إن لم أسلمه إياه. أشفقت عليه وقلت:

- اسمعني جيدا. إذهب الى آمرك فاخبره بأن مانديلا قال ذلك وليس أنت.

وبعد فترة قصيرة ظهر العقيد جايكوبز شخصيا وطلب مني أن أسلمه "البطانية" على حد قوله. أخبرته بأنه لا يملك أي سلطة على الزي الذي اختار الظهور به في المحكمة وإذا ما حاول أن يستولي عليه بالقوة فسأقدم شكوى ضده أمام المحكمة العليا. لم يجرؤ الضابط بعد ذلك على المطالبة بتلك "البطانية"، ولكن السلطات سمحت لي بارتداء ذلك الزي في المحكمة فقط ولم تسمح لي بارتدائه خارجها خوفا من أن يثير ذلك حماس بقية السجناء.

* * *

استؤنفت المحاكمة بعد أسبوع وسمح لي بمخاطبة المحكمة قبل المرافعة فقلت:
- أرجو ان اتمكن من توضيح أن هذه القضية هي محاكمة لطموحات الشعب الأفريقي، وهذا هو السبب الذي دفعني الى تولي الدفاع عن نفسي بنفسي.

كان الهدف أن أوضح لهيئة المحكمة وللمراقبين وللصحافة أنني أنا الذي أحاكم الدولة. ثم طلبت تنحية القاضي بناء على إيماني بأنني غير ملتزم أخلاقيا بالامتثال لقوانين صادرة عن برلمان لا أملك حق التمثيل فيه، وبأنه من المستحيل تحقق العدالة في محاكمة يترأسها قاض أبيض. وجاء في كلمتي أيضا:

ما هو السر في مثولي امام هذه المحكمة التي يترأسها قاض أبيض، ويقوم بالادعاء فيها وكيل نيابة أبيض، ويحرسني فيها حراس بيض؟ هل يستطيع أي إنسان جاد ومنصف أن يدعي بأن العدالة تتحقق في جو من هذا القبيل؟ ما هو السر في عدم محاكمة أفريقي واحد في تاريخ هذا البلد أمام محكمة يديرها أناس من دمه ولحمه؟ سأكشف لكم اليوم أيها السادة عن السر في ذلك كله. إن الهدف الحقيقي من هذه التفرقة العنصرية القاسية هو تحقيق العدالة في إطار سياسة الدولة مهما كانت تلك السياسة تتعارض مع الأعراف القانونية المعمول بها في المحاكم في جميع بلدان العالم المتحضر. أيها السادة، إنني أبغض التفرقة العنصرية في جميع أشكالها أشد البغض، وحاربتها طول حياتي. إنني أحاربها الآن، وسأحاربها وأتصدى لها ما حييت. إنني أبغض النظام المحيط بي في هذه القاعة بغضا شديدا لأنه يشعرني بأنني رجل أسود يحاكم في محكمة الرجل الأبيض، وهو ما يجب ألا يكون.

استدعى الادعاء ما يربو عن مائة شاهد من جميع أنحاء البلاد بما في ذلك شهود من ترانسكاي وجنوب غرب أفريقيا. كان فيهم الشرطي والصحافي ومدير الناحية والطبّاع. أدلى غالبيتهم بأدلة ذات قيمة فنية لإثبات مغادرتي البلاد بطريقة غير قانونية وأنني حرضت العمال الأفريقيين على الاضراب خلال حملة الاعتصام في المنازل لمدة ثلاثة أيام في مايو ١٩٦١. كانت الأدلة غير قابلة للنقض ولم أحاول في الواقع تفنيد التهمة أو ردها في الحالتين.

استدعى الادعاء السيد بارنارد Mr Barnard السكرتير الخاص لرئيس الوزراء للإدلاء بشهادة خاصة بالرسالة التي وجهتها الى رئيس الوزراء أطلب فيها أن يدعو الى عقد مؤتمر وطني عام وأخبره بأنه إن لم يفعل فسنقيم إضرابا لمدة ثلاثة أيام. بدأت حديثي بتلاوة نص الرسالة التي وجهتها الى رئيس الوزراء أطلب منه أن يدعو الى عقد مؤتمر وطني لمندوبين عن جميع فئات شعب جنوب أفريقيا لوضع دستور غير عنصري للبلاد، ثم شرعت في استجواب السيد بارنارد:

منديلا: هل أحلت الرسالة على رئيس الوزراء؟

الشاهد: أجل، فعلت.

مانديلا: هل أصدر رئيس الوزراء أي رد على هذه الرسالة؟

الشاهد: كلا، لم يرد على صاحبها.

مانديلا: حسنا، لم يرد رئيس الوزراء على الرسالة. هل ياترى توافقني على أن هذه الرسالة تثير قضايا ذات أهمية كبيرة للغالبية العظمى من سكان هذا البلد؟

الشاهد: كلا، لا أوافق.

مانديلا: ألا توافق؟ ألا توافق على أن قضايا حقوق الإنسان والحريات المدينة ذات أهمية حيوية بالنسبة لشعب جنوب أفريقيا؟

الشاهد: أجل، ذلك صحيح فعلا.

مانديلا: هل ورد ذكر تلك القضايا في الرسالة؟

الشاهد: أجل، أظن ذلك.

مانديلا: أنت تتفق معي إذن على أن هذه الرسالة تثير قضايا مثل حق الحرية والحريات المدنية وغيرها...

الشاهد: أجل الرسالة تثير تلك القضايا.

مانديلا: ولكنك تعلم كذلك أن الأفريقيين لا يتمتعون بالحقوق المذكورة في هذه الرسالة، أليس كذلك؟ إنهم محرومون من حق المشاركة في الحكم.

الشاهد: من بعض الحقوق....

مانديلا: لا يوجد عضو برلمان أفريقي.

الشاهد: هذا صحيح.

مانديلا: ليس من حق أي أفريقي أن ينتخب لعضوية مجلس محلي أو مجلس بلدية؟

الشاهد: صحيح.

مانديلا: لا يملك الأفريقيون حق الاقتراع في هذا البلد؟

الشاهد: ليس لهم حق الاقتراع في الانتخابات البرلمانية.

مانديلا: نعم، وهذا ما أقصده . إنني أعني البرلمان وغيره من الهيئات الحكومية في الدولة ومجالس المناطق والمجالس البلدية . لا يملك الأفريقيون حق الاقتراع في أي من هذه الهيئات؟

الشاهد: نعم، هذا صحيح.

مانديلا: ألا توافقني إذن في أن تقصير رئيس الوزراء في أي بلد متحضر في العالم في الرد على رسالة تتناول قضايا تمس الغالبية من سكان ذلك البلد هو موقف مخز؟ هل توافقني على ذلك؟

الشاهد: كلا .لا أوافقك.

مانديلا: ألا توافقني على أن تجاهل رئيس الوزراء لرسالة تتناول قضايا في غاية الحيوية وتمس الغالبية العظمى من مواطني بلده هو أمر شاذ وغير طبيعي؟

الشاهد: رئيس الوزراء لم يتجاهل تلك الرسالة.

مانديلا: أرجوك الإجابة على السؤال فقط .هل تعتبر أنه من اللائق ألا يستجيب رئيس الوزراء لمطالب تتعلق بقضايا حيوية بالنسبة للغالبية العظمى للمواطنين في بلاده؟ هل هذا خطأ في رأيك؟

الشاهد: لقد استجاب رئيس الوزراء للرسالة.

مانديلا: يا سيد برنارد، لا أرغب في أن يسوء أدبي معك . أرجو أن تلزم نفسك بالإجابة على أسئلتي فقط . والسؤال الذي أطرحه عليك هو : هل توافق على أنه من غير اللائق إطلاقا لرئيس وزراء ألا يرد على رسالة تثير قضايا حيوية تمس الغالبية العظمى من سكان بلده؟

لم يتفق السيد برنارد معي إطلاقا، واكتفى بقوله إن نبرة الرسالة كانت عدوانية وغير مؤدبة، وذلك هو السبب في عدم رد رئيس الوزراء عليها.

ألح الادعاء والقاضي طول فترة المداولات في معرفة عدد الشهود الذين سأستدعيهم

للمحكمة، وكنت أجيب في كل مرة بأنني سأستدعي شهودا بعدد شهود الادعاء أو أكثر. وعندما اختتم الادعاء عرض القضية خيم السكون على قاعة المحكمة في انتظار مرافعة الدفاع. نهضت واقفا، وبدلا من استدعاء الشاهد الأول أعلنت في نبرة هادئة أنني لن أستدعي أي شهود وقفلت ملف الدفاع. تتابعت الهمهمات في القاعة وقال محامي الادعاء في تعجب:

- يا الله!!

لقد خدعت المحكمة منذ البداية لأنني كنت أعلم في قرارة نفسي أن التهم صحيحة وأن أدلة الدولة قوية فلم أر من فائدة في محاولة استدعاء شهود للدفاع عن نفسي وإثبات براءتي. لقد تمكنت أثناء استجواب شهود الادعاء ومن خلال احتجاجاتي على القاضي رئيسا للمحكمة أن أقول كل ما كنت أريد أن أقوله بشأن غياب العدالة في هذه المحاكمة، ولم أر مبررا لاستدعاء شهود لتفنيد حقائق غير قابلة للجدل أصلا.

فوجيء القاضي بذلك الإعلان وسألني في حيرة:

- هل لديك أي أقوال أخرى؟

- يا سيادة القاضي، إنني أقر وأعترف بأنني لم أرتكب أي جريمة.

- هل هذا كل ما لديك؟

- يا سيدي القاضي، لو كان لدي غير هذا لقلته.

خلط محامي الادعاء أوراقه استعدادا لتقديم العرض الختامي للقضية في موعد لم يكن يتوقع أن يقدمه فيه. وجه خطابا مختصرا لهيئة المحكمة وطالب بإدانتي في التهمتين. رفعت الجلسة الى اليوم التالي كي تتاح لي فرصة تقديم ما يسمى دفاع تخفيف العقوبة قبل إصدار القاضي حكمه في القضية.

كنت صباح اليوم التالي قبيل استئناف جلسة المحكمة أتشاور مع مستشاري القانوني بوب هيبل في مكتب صغير خارج قاعة المحكمة فأثنينا على قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الصادر في اليوم السابق بفرض عقوبات على جنوب أفريقيا لأول مرة. كما أخبرني بوب أن عمليات تخريب نفذت في بورت إليزابيث وديربان احتفاء بقرار الأمم المتحدة واحتجاجا على محاكمتي. وبينما نحن في خضم هذا الحديث دخل علينا محامي الادعاء السيد بوش وطلب من بوب مغادرة المكتب ليخلو بي.

بمجرد أن خرج بوب بادرني بوش بقوله:

- لم أكن راغبا في المجيء الى المحكمة اليوم يا منديلا. إنني لأول مرة في حياتي أبغض وظيفتي. إنه يؤلمني أن أطالب المحكمة أن تصدر عليك حكما بالسجن.

مد يده ليصافحني وأعرب عن أمله أن تسير الأمور على ما يرام، فشكرته على مشاعره الطيبة وأكدت له أنني لن أنسى له هذا الموقف.



كانت السلطات في حالة تأهب .وبدا أن عدد الحاضرين من الجمهور قد زاد عن ذي قبل، وكانت جميع المقاعد المائة والخمسين المخصصة لغير الأوروبيين مشغولة . وكانت ويني بين الحاضرين بثوبها التقليدي مع بعض أقاربي من ترانسكاي . وتجمع خارج المحكمة مئات المتظاهرين ومثل عددهم من رجال الشرطة.

دخلت قاعة المحكمة ورفعت قبضة يدي بالتحية المعهودة: أماندلا 'Amandla' "القوة" فردت عليّ جمهور الحاضرين: نغاويتو 'Ngawethu' "القوة لنا"اضرب القاضي بمطرقته على المنصة آمرا بالهدوء، وعندما صمت الحاضرون لخص التهم ثم طلب مني أن أتحدث.

استغرق دفاعي من أجل تخفيف العقوبة نحو ساعة من الزمن . لم يكن حديثي دفاعا قانونيا وإنما كان تصريحا سياسيا . كان هدفي أن أبين أمام المحكمة الأسباب والدوافع التي جعلتني أصل إلى ما أنا عليه آنذاك، ودفعت بي الى القيام بما قمت به من أعمال، وأؤكد استعدادي لو أتيحت لي الفرصة من جديد أن أكرر التجربة مرة أخرى . قلت في كلمتي ما يلي:

قبل سنوات طويلة عندما كنت صبيا في قريتنا بترانسكاي كان حكماؤنا في القرية يقصون علينا حكايات أيام زمان المجيدة قبل وصول الرجل الأبيض الى هذه الديار . عاش أهلنا في سلام وفي ظل ديمقراطية ملوكهم وحاشيتهم المقربين، وكانوا يتنقلون بحرية في البلاد كلها بلا حواجز أو عوائق . كانت البلاد بلادنا قلبا وقالبا، وكنا نعيش على أرضها وفي غاباتها وأنهارها، نستخرج ثرواتها المعدنية من تحت الرمال، وكانت لنا كل كنوز هذا البلد الجميل . اسسنا حكومتنا وحكمنا أنفسنا بأنفسنا، نظمنا جيوشنا وتجارتنا وحرفنا . كان الحكماء يقصون علينا حكايات الحروب التي خاضها أسلافنا دفاعا عن أرض الوطن والبطولات التي أظهرها القادة والجنود في تلك الملاحم العظيمة.
لقد فتنت بنظام المجتمع الأفريقي القديم في هذا البلد وكان له أعمق الأثر في تشكيل نظرتي السياسية وتطورها . كانت الأرض الوسيلة الرئيسية للإنتاج وكانت ملكا للقرية كلها ولم تكن هناك ملكية شخصية على الإطلاق . لم تكن هناك طبقات، ولم يكن هناك أغنياء وفقراء أو استغلال إنسان لإنسان آخر . كان الجميع احرارا متساوين وكان ذلك أساس الحكم في ذلك المجتمع . ظهر الاعتراف بهذا المبدأ في دستور المجلس الذي كان يعرف باسم امبيزو Imbizo أو بيتسو Pitso أو كغوتلا Kgotla والذي يحكم شؤون القبيلة كلها .كان المجلس ديمقراطيا صرفا وكان يشارك في مداولاته جميع أفراد القبيلة. الزعيم والرعية والمحارب والطبيب كلهم يشارك في المجلس ويسعى للتأثير في قراراته. وكان للمجلس من الثقل والنفوذ ما يحول دون إقدام القبيلة على اتخاذ أي خطوة هامة دون الرجوع إليه.
كان في ذلك المجتمع الكثير من البدائية وعدم الاستقرار، وليس بإمكانه بالتأكيد تلبية مطالب الحياة المعاصرة، ولكنه كان يملك بذور الديمقراطية الثورية التي لا يعيش أحد في ظلها عبدا أو مستعبدا، ويختفي في كنفها الفقر والخوف والحاجة . هذا هو التاريخ الذي ما زلت حتى يومنا هذا وكل زملائي ننهل من معينه في نضالنا السياسي.

وشرحت للمحكمة كيف انضممت الى حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي عبرت سياساته الديمقراطية واللاعنصرية عن أعمق ما في نفسي من مباديء وقناعات . وبينت الصعوبة التي كنت أواجهها كمحام في التوفيق بين الالتزام بالقانون وإرضاء ضميري الشخصي . قلت:

إن حياة الإنسان الأفريقي بأكملها في هذا البلد تدفع به باستمرار الى صراع بين ضميره من جهة والقانون من جهة أخرى . وهذا الصراع لا يوجد في جنوب أفريقيا وحدها، فهو ينشأ لدى كل ذي ضمير وعقل وتفكير ونخوة في كل مكان . ففي بريطانيا حديثا حوكم وسجن رجل من علية القوم برتراند راسل وهو من أكبر فلاسفة الغرب المعاصرين للأسباب نفسها التي أقف اليوم أمامكم هنا بسببها، وهي إرضاؤه لضميره رغم أنف القانون احتجاجا على السياسة التي تتبعها الحكومة بشأن الأسلحة النووية. لم يجد أمامه من خيار إلا مخالفة القانون ومواجهة ما يترتب على ذلك من تبعات . وهكذا حالي أنا، وحال كثيرين غيري من الأفريقيين في هذا البلد . إن القانون كما يطبق، وكما تطور وتبلور على مدى حقب تاريخية متعاقبة، وعلى الأخص القانون كما وضعته وصاغته حكومة الحزب الوطني هو قانون في رأينا غير أخلاقي وجائر لا يُحتمل . ضمائرنا تملي علينا أن نحتج عليه وأن نعارضه وأن نسعى الى تغييره . إنه ليس من طبيعة البشر في تصوري أن يقفوا مكتوفي الأيدي صامتين بلا حراك في وجه الجور، وليس بمقدورهم عدم الاحتجاج على الظلم أو عدم الكفاح من أجل المجتمع الصالح والحياة الكريمة كما يرونها ويطمحون إليها.

وعددت بشيء من التفصيل المناسبات التي لا حصر لها التي لجأت فيها الحكومة الى القانون للتنغيص علي في حياتي وعرقلة مهنتي وعملي السياسي عن طريق الحظر والتقييد والمحاكمات.

لقد أصبحت بحكم القانون مجرما لا لشيء ارتكبته وإنما بسبب ما أؤمن به وما يعتقده فكري وضميري . هل من الغريب أن أوضاعا من هذا القبيل تجعل المرء مطاردا من قبل القانون؟ هل غريبا أن رجلا مثلي أصبح في نظر الحكومة طريد العدالة يضطر الى أن يعيش – كما عشت لعدة أشهر – حياة الخارج عن القانون، كما أفادت الأدلة المقدمة أمام هذه المحكمة؟

لم يكن من السهل علي خلال الفترة الماضية أن أفصل نفسي عن زوجتي وأطفالي، وأن أودع تلك الأيام السعيدة عندما كنت في نهاية يوم كامل من العمل المرهق أتوق الى الجلوس مع أسرتي حول مائدة الطعام، وأن أعيش بدلا من ذلك حياة رجل مطارد باستمرار من قبل الشرطة بعيدا عن أحبائي وخلاني داخل تراب وطني أترقب في كل لحظة أن أضبط أو يلقى علي القبض . كانت تلك الحياة أتعس وأشقى من حياة السجن، ولا يمكن لأي إنسان سويّ العقل أن يختار ذلك النمط من الحياة بمحض إرادته ويفضله على الحياة العادية بين أسرته ومجتمعه كما يعيش الناس في أي مجتمع متحضر.
ولكن، يأتي الوقت الذي يحرم فيه المرء – كما حرمت – من حق الاستمتاع بالحياة العادية، وأن يعيش حياة المطارد من القانون لأن الحكومة قررت استخدام القانون لفرض ذلك النمط من الحياة عليه. لقد أجبرت على ذلك الوضع الذي كنت فيه ولست نادما على

ما اتخذته من قرارات . وسيكون ذلك مصير آخرين في هذا البلد على يد القوة نفسها المتمثلة في اضطهاد الشرطة والإجراءات الإدارية التعسفية التي تتبعها الحكومة.

استعرضت أمام المحكمة المناسبات التي لا حصر لها التي قدمنا فيها مظالمنا للجهات الرسمية وتجاهل تلك الجهات لنا وتغاضيها عنا . أشرت الى اعتصامات عام ١٩٦١ كآخر وسيلة في أيدينا بعد أن رفضت الحكومة اتخاذ أي خطوات للتحدث معنا أو تلبية مطالبنا. الحكومة هي التي استثارت العنف باستعمالها العنف في مواجهة مطالبنا السلمية . وبينت أن تصرفات الحكومة هي السبب في اتخاذنا مواقف متشددة . وعبرت عن افتخاري طول حياتي السياسية بالنضال الى جانب رجال لهم من القدرات والمساهمات ما يفوق قدراتي ومساهماتي بكثير . لقد دفع كثير من الرجال قبلي الثمن بسبب ما يعتقدون، وسيدفع كثيرون غيري الثمن من بعدي.

وأخبرت المحكمة قبل إصدار حكمها بأن الحكم الذي ستصدره في حقي مهما كان لن يغير من تجردي وحبي الشديد للنضال.

إنني لا اعتقد يا سيادة القاضي بأن هذه المحكمة في معاقبتها لي على التهم الموجهة إليّ يجب أن تعتبر أن العقوبات تردع الرجال من اتباع ما يعتقدون أنه الحق . فالتاريخ شاهد على أن العقوبات لا تردع الرجال في القضايا التي تمس ضمائرهم، ولن تردع عقوبة مهما كانت أبناء شعبي أو زملائي الذين عشت معهم النضال.

أنا على أتم استعداد لتقبل الجزاء رغم علمي بقسوة وشقاء الأوضاع داخل السجون في هذا البلد بالنسبة للمواطن الأفريقي . لقد عشت في هذه السجون وأعلم فداحة التفرقة العنصرية التي تمارس ضد الأفريقيين حتى وراء القضبان . ورغم ذلك فإن هذه الاعتبارات لن تثنيني عن الطريق الذي اخترته ولن تثني آخرين أمثالي . فالحرية في أوطانهم بالنسبة للرجال هي قمة ما تصبو إليه نفوسهم وليس بإمكان أي قوة أن تحيد بالمؤمنين عما آمنوا به.

إن بغضي للأوضاع المزرية التي يعاني منها أبناء شعبي خارج السجن في كل بقعة من هذا البلد لأقوى وأشد من خوفي من الأوضاع السيئة التي سألقاها داخل السجن. . . .

سيدي القاضي . مهما كانت العقوبة التي تراها جزاء مناسبا للجريمة التي سأدان بها أمام هذه المحكمة، فاعلم أنني عند انقضائها سأظل - كما هي حال الرجال المؤمنين - اتحرك بما يمليه ضميري عليّ. سيظل بغضي للتفرقة العنصرية ضد أمتي يحرك مشاعري وضميري بعد أن أخرج من السجن كي أواصل النضال بكل الوسائل من أجل إزالة كل مظاهر الظلم حتى تمحى من الوجود بالكامل. .

لقد أديت واجبي تجاه قومي وتجاه جنوب أفريقيا، ولا شك عندي في أن التاريخ سيذكر أنني بريء وأن المجرمين الذين ينبغي أن يقفوا أمام هذه المحكمة هم أعضاء الحكومة.

ما أن انتهيت حتى أمر القاضي برفع الجلسة لمدة عشر دقائق لإعداد النطق بالحكم، وقبل مغادرة القاعة القيت بنظرة نحو الجمهور . لم يساورني أدنى شك حول العقوبة التي سألقاها . بعد عشر دقائق تماما وفي جو مشحون بلغ التوتر فيه قمته أعلن القاضي الحكم التالي: ثلاث سنوات سجن لتحريض الناس على الاضراب وسنتان سجن لمغادرة البلاد

بدون جواز سفر، أي مجموع العقوبة خمس سنوات سجن بدون عفو. كانت العقوبة قاسية فارتفعت الأصوات بالعويل في القاعة. رفعت الجلسة فقمت واتجهت نحو الجمهور رافعا قبضتي بالتحية المعهودة قائلا "أماندلا" ثلاث مرات، وانطلقت الجماهير من تلقاء نفسها تردد ذلك النشيد الوطني الأفريقي: "اللهم احفظ أفريقيا". تعالت الأصوات بالغناء والزغاريد وأخذ الناس يرقصون داخل المحكمة وخارجها فأنساني ذلك الضجيج أنني في طريقي الى قضاء أطول عقوبة سجن لأسباب سياسية صدرت حتى ذلك التاريخ في حق مواطن أفريقي.

سمح لي بفترة قصيرة من الوقت ودعت فيها ويني ولم تكن هذه المرة ضجرة أو مكتئبة إطلاقا بل كانت معنوياتها عالية فلم تذرف الدموع وظهرت عليها ملامح الثقة وكأنها رفيق نضال وليست زوجة، وكانت مصممة على أن تشجعني وتثبت من عزيمتي. غادرت مبنى المحكمة في عربة الشرطة المقفلة والجماهير تغني: "اللهم احفظ أفريقيا".

- ٥٢ -

لا يسلب السجن الإنسان حريته وحسب بل يحاول أن ينتزع هويته. فكل واحد يرتدي بدلة من نفس الطابع ويأكل نوع الطعام نفسه ويتبع الجدول اليومي نفسه من العمل والروتين. السجن نظام استبدادي قهري لا يقبل الاستقلال أو تميز الشخصية. وعلى المناضل بحكم أنه مناضل وبحكم كونه إنسانا أن يقاوم طغيان السجن وأن يحول دون أن تسلب منه كل تلك الخصائص.

نقلت من المحكمة رأسا الى سجن بريتوريا المحلي، ذلك المبنى الكئيب البشع الذي عرفته حق المعرفة. جئته اليوم سجينا مدانا وليس مجرد متهم ينتظر المحاكمة وقوبلت فيه بكل جفوة وغلظة. نزعت عني ملابسي وتمكن العقيد جايكوبز أخيرا أن يستولي على زيي التقليدي، وصرفت لي بدلة السجن الرسمية الخاصة بالأفريقيين وهي عبارة عن سروالين قصيرين وقميص من الكاكي الخشن وسترة من قماش القِنّب وزوج من الجوارب وحذاء صندل وقبعة من القماش. تصرف السراويل القصيرة للأفريقيين دون غيرهم لأن السلطات تعتبر الرجل الأفريقي "صبيا".

أخبرت السلطات بأنني غير مستعد تحت أي ظرف من الظروف أن أرتدي السروال القصير وبأنني على استعداد للاحتجاج على ذلك أمام المحكمة. وعندما أحضر طعام العشاء – وهو عبارة عن دقيق الشوفان المخلوط بالحليب البارد – رفضت أن آكله. فكر العقيد جايكوبز في الأمر مليا ثم اقترح الحل التالي: يمكنني أن أرتدي السروال الطويل وأن أتناول طعامي الخاص بشرط أن أعزل عن بقية السجناء. وأضاف قائلا بنبرة ساخرة:

– كان المقرر أن تظل مع بقية السجناء السياسيين، ولكنك الآن ستكون بمفردك يا أستاذ. أرجو أن تستمتع بسجنك الانفرادي.

أجبته بأن العزلة لا تضيرني طالما ارتديت وأكلت ما أريد.

عشت لعدة أسابيع في عزلة تامة لم أر وجه سجين آخر أو أسمع صوته. كنت أقضي ثلاثا وعشرين ساعة كل يوم داخل زنزانة مقفلة ونصف ساعة تمرين في الصباح ونصف ساعة أخرى في المساء. لم أعش في عزلة من قبل قط، وكانت الساعة تمر وكأنها سنة. لم يكن في الزنزانة ضوء طبيعي وكان فيها مصباح كهربائي يتيم يشتعل أربعا وعشرين ساعة في اليوم. لم تكن لدي ساعة ولطالما التبس علي الليل والنهار. لم يكن لدي شيء أقرأه ولا أدوات للكتابة، ولم يكن حولي أحد أتحدث معه. تحت ظروف من هذا القبيل ينطوي عقل المرء على نفسه فتجيش في فؤاده رغبة جامحة للانشغال بأي أمر خارج دائرته الشخصية. وإني لأعرف أناسا فضلوا الجلد على العزلة. ولكنني بعد فترة من السجن الانفرادي وجدتني استمتع بصحبة الحشرات التي كانت تعيش داخل الزنزانة وأوشك أن أتحدث الى الصراصير.

الشخص الوحيد الذي كنت أراه أحيانا هو حارس السجن الأفريقي الكهل، وحاولت أحد الأيام رشوته بتفاحة كي يتحدث إلي فناديته بأدب واحترام قائلا:

– يا أبي. ألا تقبل هذه التفاحة هدية مني؟

أدار ظهره عني ورد على كل محاولاتي بالصمت، ولكنني ألححت في خطابه فقال في تبرم:

– طلبت سروالا طويلا وطعاما أفضل فحصلت على ما تريد وما تزال ترغب في المزيد.

أجل، إنه على صواب، فلا يحط من إنسانية الإنسان وقدره شيء أكثر من حرمانه من عشرة البشر. وجدت نفسي بعد عدة أسابيع من السجن الانفرادي على استعداد لأن أدوس على كبريائي وأتنازل للعقيد جايكوبز عن سروالي الطويل مقابل إنهاء عزلتي.

لقد تأملت طويلا في مصيري وأحسست أن موقعي كمناضل هو بين أهلي وأبناء قومي وليس في حبسي منفردا وراء القضبان. فالعزلة تعني أن حصيلة خبرتي وتجربتي وعلاقاتي في أفريقيا ستذهب سدى ولن توظف لصالح النضال، ولعنت حظي لأن ذلك كله لن يفيد في تكوين جيش لتحرير البلاد.

شرعت أحتج بشدة على وضعي في السجن وألحت في طلبي الانضمام الى بقية المساجين وكان من بينهم روبرت سوبوكوى زعيم حزب المؤتمر القومي الأفريقي. وبعد مثابرة على الطلب استجابت سلطات السجن لمطلبي مع تحذير شديد اللهجة من العقيد جايكوبز بأن العواقب ستكون وخيمة إن عدت الى تصرفاتي الرعناء من جديد. تنفست الصعداء وأقبلت على تناول مخلوط دقيق الشوفان بنهم لم أعهده في نفسي من قبل!!

* * *

كنت في شوق الى التحدث الى سوبوكوى وغيره من السجناء السياسيين، وغالبيتهم من حزب المؤتمر القومي الأفريقي، لظني بأنه من الممكن الوصول داخل السجن الى ذلك التقارب والوفاق الذي أخفقنا في تحقيقه خارجه. فأوضاع السجن حرية بأن تخفف من حدة النقاش والجدال وأن تعين الرجال على تحقيق التقارب والاتفاق أكثر من غيرها.

التقينا في فناء السجن وتبادلنا التحيات بحرارة. كان هناك، الإضافة الى سوبوكوى، جون غوتسيوى John Gaetsewe وهو من أبرز عناصر اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا، وآرون موليتى Aaron Molete عضو حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وهو صحافي بجريدة نيو آيدج، وستيفن تيفو Stephen Tefu وهو شيوعي معروف من اتحاد نقابات العمال وعضو حزب المؤتمر القومي الأفريقي. طلب مني روبرت سوبوكوى أن أعطيهم لمحة عن جولتي في أفريقيا ففعلت بكل سرور، وكنت صريحا فيما يتعلق بصورة حزب المؤتمر القومي الأفريقي وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في الساحة الأفريقية. وأشرت في ختام حديثي الى أن هناك قضايا أود أن نطرحها للنقاش. ولكن سلطات السجن فصلت بيني وبين سوبوكوى وباعدت بين زنزانتينا بأقصى مسافة ممكنة.

ومع ذلك استطعنا أن نلتقي بين الفينة والأخرى في فناء السجن وأثناء فترات الراحة. إني احترم سوبوكوى كل الاحترام وأعتبره رجلا متزنا ومعقولا، ولكننا اختلفنا اختلافا بينا حول القضية الراهنة ألا وهي الأوضاع داخل السجن. فقد رأي سوبوكوى أن الاحتجاج على الأوضاع السيئة داخل السجن اعتراف بحق الدولة في سجنه أصلا، وكان ردي أن العيش في أوضاع مزرية أمر غير مقبول في جميع الأحوال، وأن السجناء السياسيين على مدى التاريخ اعتبروا من واجبهم الكفاح من أجل تحسين أوضاع السجن. كان رأي سوبوكوى أن أوضاع السجن لن تتغير إلا إذا تغيرت أوضاع البلاد وهذه حقيقة لا جدال فيها، ولكنني لم أجد مبررا للتواني في خوض المعركة الوحيدة المتاحة أمامنا في هذه الظروف. لم نتوصل الى حل ولكننا اتفقنا على توجيه مذكرة مشتركة لآمر السجن حملناها شكوانا على الأوضاع داخل السجن.

لم تخر عزيمة سوبوكوى داخل السجن إطلاقا، ولكنه كان حساسا سرعان ما يغضب وأرجع ذلك الى ستيفن تيفو الذي أصبح شوكة في ظهر سوبوكوى يضايقه ويسخر منه ويتحداه باستمرار. وتيفو رجل ذو مزاج صعب في أحسن الأحوال فهو متشائم مجادل متعجرف، ولكنه بيّن واسع المعرفة وخبير بتاريخ روسيا. وهو فوق ذلك كله رجل محارب مستعد لنزال أي إنسان بما في ذلك أصدقاؤه المقربون. كان الشجار ينشب بين تيفو وسوبوكوى كل يوم.

كنت حريصا على مناقشة سياسة حزب المؤتمر القومي الأفريقي مع سوبوكوى خاصة شعاره القائل: "الحرية في عام ١٩٦٣". فقد حل عام ١٩٦٣ ولم تتحقق الحرية. قلت لسوبوكوى مرة:

- يا أخي، ليس هناك أخطر من قائد ينادي بمطالب يعلم جيدا أنها لن تتحقق، لأن ذلك يخلق آمالا زائفة لدى الناس.

قلت ذلك بكل أدب واحترام، ولكن تيفو حشر نفسه في النقاش وأخذ يكيل النقد والإهانات لسوبوكوى، فقال له:

- لقد وجدت نظيرك في مانديلا يا بوب. إنك تعلم جيدا أنه على صواب في ما يقول.

وواصل تيفو الحديث بذلك الأسلوب مما أزعج سوبوكوي فنهره قائلا:

- دعني لوحدي.

ولكن تيفو لم ينته واستطرد يقول:

- إن الجماهير في انتظارك يا بوب، وسيقتلونك لأنك خدعتهم. إنك هاو ولست رجل سياسة حقيقيا.

لم يدخر تيفو جهدا في تنفيري منه كذلك. كان يشتكي كل يوم للحراس إما من الأكل أو من الأوضاع أو من الحرارة أو من البرودة. سأله أحد الحراس يوما:

– لماذا تشتكي كل صباح؟

– أشتكي لأنه من واجبي أن أشتكي.

– ولكن انظر الى مانديلا، فهو لا يشتكي كل يوم.

رد تيفو بازدراء:

– آه، مانديلا ما هو إلا صبي صغير خائف من الرجل الأبيض. لم أكن أعرف من هو مانديلا حتى استيقظت صباح ذات يوم فوجدت الجرائد تقول: مانديلا، مانديلا، مانديلا. سألت نفسي: من هو مانديلا هذا؟ سأخبرك من يكون مانديلا. إنه رجل صنعتموه أنتم لأسباب لا أفهمها. هذا هو مانديلا!!

* * *

بعد أسبوعين التحق بنا في السجن وولتر سيسولو الذي حوكم في جوهانسبيرغ بتهمة التحريض على الاضراب أثناء وجودي في بريتوريا، وحكم عليه بالسجن ست سنوات. توفرت لنا عدة فرص للحديث داخل السجن وناقشنا تقدم وولتر بطلب إطلاق سراحه بكفالة مع استمرار استئنافه قيد النظر وهو الخط الذي أيدته أنا شخصيا تأييدا كاملا. وبعد أسبوعين أطلق سراح وولتر بكفالة وأصدرت الحركة تعليماتها له بمواصلة العمل السياسي في الخفاء وتولي زعامة النضال، فقام بذلك خير قيام.

بعد خروج وولتر بفترة قصيرة كنت يوما في طريقي الى مستشفى السجن في رفقة سوبوكوى فلمحت المناضل الهندي المشهور نانا سيتا في الساحة على بعد نحو خمس وعشرين ياردة مني. ونانا سيتا هو الذي قاد حملة التحدي في بوكسبيرغ Boksburg عام ١٩٥٢ . لقد أدانته محكمة بريتوريا لأنه رفض إخلاء بيته الذي يملكه والذي عاش فيه لأكثر من أربعين عاما لمجرد أنه كان في حي أعلنت السلطات عن تحويله الى حيّ للبيض فقط بموجب قانون مناطق المجموعات العرقية. رأيته يمشي منحني الظهر حافيا رغم إصابته بالتهاب العظام مما جعلني أحس بالألم وأنا أرتدي الصندل. وددت لو ذهبت لتحيته ولكننا كنا نمشي تحت رقابة حراس السجن.

وفجأة أغمي عليّ فوقعت على أرض صلبة وأصبت بجرح في عيني اليسرى. كانت فحوص طبية قد أجريت لي في سجن القلعة في جوهانسبيرغ وأسفرت عن إصابتي بارتفاع ضغط الدم، وصرف لي دواء في شكل أقراص لذلك الغرض، وقد كان سبب الإغماء هو تناولي جرعة أكبر من المقرر من تلك الأقراص فمنعت من تناولها وأمرت بالتخفيف من تناول الملح في الطعام فتحسنت حالتي.

كان ذلك اليوم هو موعد أول زيارة تقوم بها ويني للسجن منذ صدور الحكم، وأصررت على مقابلتها رغم إصابتي. كانت قلقة جدا على صحتي ولكنني أكدت لها أنني في حالة جيدة وحكيت لها عما جرى. ولكن رغم ذلك انطلقت شائعات بأن حالتي الصحية تدهورت.

- ٥٣ -

عقد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أثناء محاكمتي مؤتمره السنوي لأول مرة منذ عام ١٩٥٩ وذلك في أثناء محاكمتي في أكتوبر ١٩٦٢ . ونظرا الى أن التنظيم كان ممنوعا في جنوب أفريقيا انعقد المؤتمر في لوباتسى بالقرب من حدود بيتشواناالاند مع جنوب أفريقيا. كان المؤتمر منعطفا في تاريخ الحزب لأنه أعلن بصراحة عن العلاقة بين الحزب وحركة (أمكا) المسلحة . ومع أن الحزب أكد على أن "منهجنا الأساسي لا يزال هو النضال السياسي الجماهيري" فقد أشار الى (أمكا) بأنها "الجناح العسكري لنضالنا" . كان الهدف من الإعلان هو مواجهة العمليات الإرهابية غير المسؤولة التي كانت تقوم بها منظمة بوقو Poqo. وبوقو في لغة الكوسا تعني "مستقل" أو "الواقف وحده" وكانت المنظمة معروفة بصلتها غير الرسمية مع حزب المؤتمر القومي الأفريقي وكانت عملياتها الإرهابية تستهدف البيض والمتعاونين معهم من الأفريقيين. وكان حزب المؤتمر القومي الأفريقي حريصا على إظهار توجهاته الصدامية للشعب مع تأكيده على أن عملياته محكمة ومسؤولة.

أما الحكومة فقد قررت الدفع ببرنامج "التنمية المنفصلة" لتقدم للعالم الدليل على أن سياسة التفرقة العنصرية توفر لكل مجموعة من المجموعات العرقية المختلفة "حريتها" الخاصة . وكان أقليم ترانسكاي هو النموذج لتلك السياسة، وفي يناير ١٩٦٢ أعلن رئيس الوزراء فيروود أن جنوب افريقيا تعتزم منح ترانسكاي "الحكم الذاتي"، وفي عام ١٩٦٣ أصبحت ترانسكاي منطقة "حكم ذاتي" . في نوفمبر ١٩٦٣ أجريت انتخابات لاختيار المجلس التشريعي لترنسكاي واختار الناخبون بنسبة أكثر من ثلاثة الى واحد أعضاء مناهضين لسياسة الحكم الذاتي.

ومع ذلك فقد أرست الحكومة دعائم نظام البانتوستان الذي عارضه الناخبون ولكنهم شاركوا فيه بالتصويت فقط . ورغم أنني كنت ممن يبغضون نظام البانتوستان غير أنني رأيت أن على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الاستفادة من النظام ومن المشاركة فيه كمنبر تطرح عبره سياسات الحزب خاصة وأن غالبية زعمائنا قد كممت أفواههم عن طريق السجن أو الحظر أو النفي.

تصاعدت عمليات الإرهاب ضد سلطات البانتو، كما ارتفعت درجة تأهب الحكومة ويقظتها . تولى وزارة العدل جون فورستر الذي اعتقل لمعارضته مساندة الحكومة للحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو رجل أبعد ما يكون عن اللين والعاطفة . كانت سياسة القبضة الحديدية عنده هي الرد الوحيد على عمليات التخريب.

في ١ مايو ١٩٦٣ أصدرت الحكومة تشريعات الهدف منها "قصم ظهر" حركة (أمكا) المسلحة، على حد قول رئيس الوزراء فورستر . فقد نص قانون تعديل القانون العام - المعروف أيضا بقانون الاعتقال لمدة تسعين يوما - على إسقاط حق المثول أمام المحكمة،

وخول كل ضابط في الشرطة سلطة اعتقال أي شخص دون الحاجة الى أمر رسمي بالقبض على أساس الإشتباه في ارتكابه جريمة سياسية . والمعتقل يمكن حجزه لمدة تسعين يوما دون محاكمة أو تهمة ولا يسمح له بالدفاع أو الحماية ضد اعترافه على نفسه بالإعتراف . وبين فورستر أن مدة الحجز يمكن أن تمدد الى "ما لا نهاية" . لقد حول هذا القانون جنوب أفريقيا الى دولة بوليسية فاقت سلطاتها وصلاحياتها سلطات وصلاحيات أي دكتاتور في العالم . وبناء عليه أصبحت الشرطة أكثر وحشية في أساليبها، فتعرض السجناء للضرب وبدأنا نسمع عن استعمال الصدمات الكهربائية والخنق وغيرهما من وسائل التعذيب . كان الصوت الوحيد ضد ذلك القانون في البرلمان هو صوت هيلين سوزمان Helen Suzman عضو الحزب التقدمي الليبرالي .

رفعت عقوبة العضوية في التنظيمات المنوعة، وأقرت عقوبة تتراوح بين السجن خمس سنوات والإعدام لجريمة "نشر أفكار" الشيوعية أو أي تنظيمات محظورة . أعيد اعتقال السجناء السياسيين السابقين . ففي مايو ١٩٦٣ انتهت فترة سجن سوبوكوى التي دامت ثلاث سنوات ولكن بدلا من إطلاق سراحه أعادت الحكومة اعتقاله من جديد وسجنته في جزيرة روبن.

كما دعم فورستر قانون التخريب في يونيو ١٩٦٢ الذي خول السلطات حق الاعتقال في البيوت وبفرض أنواع أقسى من الحظر غير قابلة للنقض أمام المحاكم، وكبل حريات المواطنين مثلما هي مكبلة في أكثر الأنظمة الفاشية تطرفا في العالم . أصبحت عقوبة التخريب الدنيا خمس سنوات سجن بدون عفو والعقوبة القصوى الإعدام . ونظرا للعبارات الفضفاضة التي صيغ بها القانون فقد أصبح التعدي وحيازة السلاح بدون ترخيص جرائم تخريبية . كما نص قانون آخر أصدره البرلمان على تحريم نشر أي كلام أو تصريح لشخص آخر تحت الحظر السياسي، وبذلك لم يعد شرعيا نقل أي كلام قلته أو نشره في الصحف. وفي أواخر عام ١٩٦٢ منعت صحيفة نيو آيدج من النشر وأصبحت حيازة أي مطبوعة ممنوعة عملا إجراميا بعقوبة أقصاها سنتان سجن . وصدرت تشريعات لفرض الإقامة الجبرية في البيوت وكان أشهر من نفذت فيها تلك التشريعات المناضلة السياسية البيضاء هيلين جوزيف Helen Joseph .

- ٥٤ -

جاء ذات ليلة في أواخر مايو أحد الحراس الى زنزانتي وأمرني بحزم أمتعتي .سألته الى أين الرحيل؟ فلم يجب . بعد نحو عشر دقائق كنت في مكتب الاستقبال حيث وجدت ثلاثة سجناء سياسيين آخرين هم ستيفن تيفو وجون غاتسيوى وآرون موليتى . أخبرنا العقيد أوكامب باقتضاب بأنه تقرر نقلنا الى مكان آخر فسأله تيفو:

- إلى أين؟

- الى الجزيرة.

هناك جزيرة واحدة وهي جزيرة روبن سيئة السمعة.

قيدنا بالسلاسل وصعدنا عربة كالصندوق بلا نوافذ ولا يوجد بها سوى إناء واحد لقضاء الحاجة، ولم يكن ذلك من المستساغ أو اليسير على أربعة رجال مقيدين بسلسلة واحدة في عربة متحركة . استغرقت الرحلة الى كيب تاون بقية تلك الليلة ووصلنا رصيف الميناء عند العصر.

كانت أرصفة الميناء في كيب تاون تغص برجال الشرطة المسلحين وضباط الأمن يكسو وجوههم التوتر العصبي . سافرنا وقوفا في مخزن عبّارة عتيقة من الخشب تضربها أمواج الشاطيء من جانب الى جانب في سقفه فتحة واحدة صغيرة يدخل منها الضوء والهواء. وكان لتلك الفتحة غرض آخر إذ تعمد الحراس التبول علينا من خلالها . صعدنا العبّارة قبل غروب الشمس فظهرت الجزيرة أمامنا في الأفق لأول مرة خلابة تكسوها الخضرة وكأنها منتجع سياحي.

"الجزيرة" . هكذا يشير أهل الكوسا لجزيرة روبن، ذلك النتوء الصخري البارز في عرض البحر على بعد ثمانية عشر ميلا عن شاطيء كيب تاون . وهكذا يعرفها الجميع. سمعت عن الجزيرة لأول مرة وأنا طفل . واشتهرت بين الكوسا باسم ماكانا قائدهم العسكري الشهير في حرب الكوسا الرابعة (والذي يعرف أيضا باسم انكسيلي) وقد نفاه البريطانيون إليها بعد أن قاد جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل ضد غراهامزتاون Grahamstown عام ١٨١٩ . وحاول ماكانا الهرب بواسطة الزورق ولكنه مات غرقا قبل أن يصل الشاطيء . خُلدت تلك الحادثة في نسيج لغة الكوسا التي يتذكر أهلها تلك "المحاولة اليائسة" في العبارة التالية: "أؤكوزا كوكا انكسيلى" Ukuza kuka Nxele .

لم يكن ماكانا أول بطل أفريقي ينفى الى الجزيرة، ففي حرب الخوي خوي Khoi Khoi ضد المستوطنين الهولنديين عام ١٦٥٨ نفى يان فون رايبيك Jan van Riebeeck إليها المحارب الأفريقي أوتشوماو Autshumao المعروف عند الأوروبيين باسم هاري "واثب البحر" Harry the Strandloper . لقد استأنست بذكرى أوتشوماو إذ يقال إنه الرجل الأول والوحيد الذي تمكن من الهرب من جزيرة روبن في زورق صغير ذي مجداف ووصل الى الشاطيء بسلام.

وكلمة روبن Robben بالهولندية تعني عجل البحر الذي كان يتجمع بالمئات حول الجزيرة قادما مع تيارات المحيط الهندي الباردة القادمة شمالا من القطب الجنوبي. استعملت الجزيرة فيما بعد لنفي المصابين بالجذام، ثم استعملت لإيواء المصابين بالأمراض العقلية ثم قاعدة بحرية. وفي الآونة القريبة الماضية قررت الحكومة استعمالها سجنا من جديد.

استقبلنا مجموعة من الحراس من ذوي الجثث الضخمة يهتفون: هذه هي الجزيرة، وعليها ستموتون!! ظهر أمامنا مجمع بناء ضخم تحيط به مجموعة من بيوت الحراسة ووقف على جانبي الطريق المؤدي الى المبنى الرئيسي طابور من الحراس المسلحين. كان الجو متوترا جدا. صاح سجان أحمر الوجهه يقول:

- أنا سيدكم في هذه الجزيرة.

كان ذلك الرجل أحد الأخوَيْن كلينهانس Kleynhans المعروفَيْن بقسوتهما في معاملة السجناء، وكان جميع السجّانين يتحدثون لغة الأفريكانا وإن أجبت أحدهم بالإنجليزية قال لك:

- أنا لا أفهم لغة محبي الكافار (السود).

اتجهنا نحو مبنى السجن والحراس يصيحون: اثنان، اثنان، أي يأمروننا أن نمشي في طابور زوجي فوجدت نفسي الى جانب تيفو والحراس يصرخون: هاس! هاس! Haas! Haas! وهي كلمة تستعمل لسوْق المواشي.

كانوا يدفعوننا الى أن نهرول فالتفتت الى تيفو قائلا في همس إنه علينا ألا نستجيب للأمر وإلا وضعنا أنفسنا تحت رحمتهم فهز رأسه موافقا. كان علينا أن نشعرهم منذ البداية بأننا لسنا مجرمين بل سجناء سياسيون نعاقب بسبب ما نعتقد.

أشرت لتيفو أن نتقدم الصف وتعمدنا تخفيف السرعة فاندهش الحراس، وصرخ كلينهانس:

- انصتوا جيدا. هذه ليست جوهانسبيرغ ولا بريتوريا. أنتم الآن في جزيرة روبن ولن نسمح بأي عصيان هنا. هاس! هاس!

تجاهلنا ما قال وواصلنا المشي ببطء، فأمرنا الحارس بالتوقف وأدار لنا وجهه يقول:

- أنصتوا جيدا. إننا لن نتردد في قتلكم. ليس هذا مقام مزاح أو تهريج. إن أزواجكم وأولادكم وأباءكم وأمهاتكم لن يعرفوا مصيركم. هذا آخر إنذار هاس! هاس!

ما إن فرغ حتى أجبته قائلا:

- عليك أداء واجبك وعلينا أداء واجبنا.

كنت مصرا على ألا نستسلم لأولئك الحراس. وما أن قلت ذلك حتى كنا قد وصلنا الزنزانات، فدخلنا حجرة كبيرة أرضيتها مغطاة بالماء الى ارتفاع بضع بوصات. صرخ الحراس:

- انزعوا ملابسكم!

كلما نزعنا قطعة من ملابسنا انتشلها حارس ليفحصها ثم يرميها في الماء. بعد ذلك أمرنا الحراس بارتداء ملابسنا وقد تشبعت بالماء.

دخل الحجرة ضابطان كان أقلهما رتبة نقيب يدعى غيريك Gericke وكان من الواضح أنه مستعد لمعاملتنا بخشونة. اتجه الى أصغرنا سنا آرون موليتى، وهو إنسان وديع ودمث، فقال له:

- ما السبب في طول شعرك؟

لم يجبه آرون، فصرخ الضابط:

- إنني أخاطبك أنت. ما السبب في طول شعرك؟ طول الشعر مخالف للتعليمات. كان ينبغي عليك أن تقص شعرك. ما السبب في طوله بهذا الشكل؟

توقف لحظة ثم اتجه ببصره نحوي وأشار قائلا:

- يجب أن يكون شعرك بطول شعر هذا الغلام...

واجهته بقولي:

- طول الشعر تحدده الأنظمة...

وقبل أن أفرغ من كلامي صرخ في استنكار:

- لا ينبغي لك أن تخاطبني بهذا الأسلوب إطلاقا أيها الغلام.

وأخذ يقترب نحوي فاصابني الهلع لإحساسي بأنه يوشك أن يصفعني وأنا عاجز على حماية نفسي. تمالكت نفسي وقلت:

- إن تجرأت على أن تلمسني بإصبع واحد فساشتكيك لأعلى محكمة في البلاد، وعندها ستصبح بائسا كبؤس فأر الكنيسة.

بمجرد أن شرعت في الحديث توقف عن الحركة، وما أن أتممت حتى كان يتفرس في وجهي باندهاش كبير. وأصبت أنا أيضا بالدهشة. فقد انتابني الخوف ولم أتكلم من شجاعة بل من تظاهر بالشجاعة. فالإنسان في مثل هذه المواقف عليه أن يظهر بمظهر القوة رغم ما يعتريه من مشاعر في داخل نفسه. سألني الضابط:

- أين بطاقتك.

أخرجتها وناولتها له، وقد بدا عليه التوتر بوضوح، فقال:

- ما اسمك؟

أشرت برأسي الى البطاقة وقلت:

- اسمي مكتوب في البطاقة.

- ما هي المدة التي ستقضيها في الجزيرة؟

- مكتوب عندك في البطاقة.

نظر في البطاقة ثم قال:

- خمس سنوات. محكوم عليك بخمس سنوات سجن وتتصرف بهذا التبجح؟ هل تفهم ماذا تعني خمس سنوات في السجن؟

- هذا شأن يخصني. أنا مستعد أن أقضي خمس سنوات في السجن ولكنني لست مستعدا لأن أهان وعليك أن تتصرف في حدود القانون.

لم يكن يعرف هويتنا أو أننا سجناء سياسيون، أو أنني محام. لم أفطن آنذاك الى أن الضابط الآخر، وكان طويل القامة هادئا، قد غادر الحجرة أثناء تلك المواجهة بيني وبين زميله. علمت في ما بعد أن اسمه ستاين Steyn وأنه الآمر الأعلى لجزيرة روبن. أما النقيب فقد غادر الحجرة بعد ذلك في هدوء.

بقينا بمفردنا ولم يتمالك ستيفن تيفو نفسه وقد اهتزت أعصابه فراح يتكلم بلا انقطاع:

- لقد أغضبت البوير (يعني الرجل الأبيض)، وأصبحنا في وضع سيء.

وبينما كان تيفو يتكلم دخل ضابط ضخم الجثة برتبة ملازم يدعى بريتوريوس Pretorious واندهشنا لمخاطبته لنا بلغة الكوسا وكان يتقنها جيدا قائلا:

- فحصنا سجلاتكم ويبدو أنها ليست سيئة، باستثناء واحد...

ثم التفت نحو ستيف تيفو وقال:

- سجلك أنت قذر.

انفجر ستيف قائلا:

- من أنت كي تخاطبني بهذا الأسلوب؟ أوتقول إن سجلي قذر، وإنك اطلعت على ملفي؟ كل تلك الإدانات كانت في قضايا أدافع فيها عن حقوق أبناء شعبي. أنا لست مجرما بل أنت المجرم!

حذر الملازم ستيف من أنه سيشتكيه إن خاطبه بذلك الأسلوب مرة أخرى، وقبل أن يغادر الحجرة أخبرنا بأنه سيضعنا في زنزانة واحدة واسعة بها نوافذ مطلة على الخارج. ثم أضاف محذرا:

- ولكنني أنصحكم بألا تتحدثوا مع أي إنسان آخر من خلال تلك النوافذ، وخاصة أنت يا مانديلا.

نقلنا الى الزنزانة وكانت من أحسن ما رأيت. نوافذها كبيرة وعلى ارتفاع مناسب. كان بإمكاننا رؤية المساجين الآخرين والحراس وهم يمرون بجوار النافذة. كانت حجرة متسعة تكفينا جميعا، وكان بها مراحيض خاصة وحمامات مستقلة بها دُش.

كان يوما مرهقا، وبعد وجبة من مخلوط دقيق الشوفان آوى كل منا الى فراشه على أرض الحجرة واستسلم رفاقي للنوم. وبينما أنا كذلك سمعت نقرات على شباك النافذة. رفعت بصري فرأيت رجلا أبيض يشير إلي أن تعال، ولكنني تذكرت تنبيه الملازم لنا قبل قليل بعدم التحدث مع أحد من خارج الزنزانة فلم أغادر الفراش.

بعد لحظات سمعته ينادي في همس:

- يانلسون. تعال!

إنه يناديني باسمي. قمت الى النافذة وكأن الرجل اطلع على ما يجول في خاطرني فبادرني قائلا في همس:

- أنا أحد حراس السجن، وأنا من الملونين من بولمفونتاين!

واستطرد ينقل لي أخبار زوجتي، وذكر لي أن الصحف في جوهانسبيرغ نشرت خبرا أن ويني ذهبت لزيارتي في سجن بريتوريا ولم يخبروها بأنني نقلت الى جزيرة روبن فشكرته على تلك المعلومات. ثم سألني:

- هل تدخّن السجائر؟

فأجبته بالنفي فامتعض وجهه، ولكنني استدركت فقلت:

- ولكن رفاقي يدخنون.

تهللت أساريره وقال إنه سيعود بعد قليل ومعه شيء من التبغ وشطائر. استيقظ كل من في الزنزانة. تقاسم تيفو وجون غاتسيوى التبغ واشتركنا جميعا في الشطائر.

واظب ذلك الحارس على زيارتنا - ومعه التبغ والشطائر - كل ليلة تقريبا لعدة أسابيع. كانت مخاطرة كبيرة منه ونبّه عليّ بأنه لن يتعامل إلا معي شخصيا.

* * *

لم نعرف عدد السجناء الموجودين في الجزيرة، وفي غضون بضعة أيام علمنا أن بها نحو ألف سجين كلهم من الأفريقيين الذين وصلوا إليها حديثا. كان أغلبهم من المجرمين ولكنني كنت على ثقة بأن هناك عددا من السجناء السياسيين ايضا فرغبت أن أتصل بهم وكان ذلك متعذرا لأننا كنا معزولين تماما. كنا في الأيام الأولى نقضي يومنا داخل زنزانة مقفلة، فطالبنا بالسماح لنا بالخروج للعمل كبقية السجناء وجاءت الموافقة على ذلك ولكننا فُصلنا عن بقية سكان الجزيرة وكنا تحت مراقبة كلينهانس. أول عمل قمنا به هو ردم أنابيب مدت حديثا في الأرض، وكان ذلك في مكان مرتفع شيئا ما فظهرت أمامنا أجزاء من الجزيرة بجمالها وطبيعتها الخلابة.

كان كلينهانس يكلفنا كل يوم بعمل أشق من سابقه وكان يعاملنا بفظاظة كما لو كنا خيولا أو ثيرانا. كان ستيف تيفو أكبرنا سنا ودفع به الإعياء في إحدى المرات الى إلقاء المسحاة على الأرض فانبرى كلينهانس لتعنيفه فورا، فرد عليه ستيف بالأفريكانا:

- إنك جاهل لا تتقن حتى لغتك الأم، ولا يمكنك أن تصدر لي الأوامر. سأعمل حسب قدرتي، وهذا كل ما في وسعي، ولن أقدر على أكثر من ذلك.

ثم التقط المسحاة بكل اعتزاز وواصل الحفر. عمل ستيف بالتدريس وكان يدرس لغة الأفريكانا التي يتقنها جيدا، وكان يتقن اللغة الهولندية الفصحى كذلك، وكان يخاطب الحراس بكل تعالٍ وبلغة بليغة غالبيتهم لا يتقنها ولا يفهمها. ولكنهم كانوا أذكى من أن يدخلوا معه في مهاترات لغوية.

كان بين حراس الجزيرة البيض أخَوان باسم كلينهانس عرف عنهما أنهما اعتديا على بعض السجناء، وكان الذي يتولى حراستنا أكبرهما ويبدو أنه أمر بمعاملتنا بشيء من الحكمة والتعقل فلم يمس أحدا منا بسوء. أما الأخ الأصغر فلم يكن بتلك الدرجة من التعقل. كنا يوما راجعين الى الزنزانة بعد نوبة طويلة من العمل الشاق فمررنا ببضع مئات من السجناء ينقلون التراب في عربات يدوية. أمرنا جميعا بالتوقف ودخل الأخَوان كلينهانس في حديث خاص. وبينما نحن كذلك أمر الأخ الأصغر أحد السجناء بمسح حذائه وهو يخاطب أخاه. تعرفت على بعض السجناء في المجموعة الأخرى وهم الذين حكم عليهم بالإعدام في تمرد الفلاحين في منطقة سيخوخونيلاند عام ١٩٥٨ فأدرت وجهي لأتمعن في وجوه أولئك السجناء. انطلق الأخ الأصغر نحوي وكل ملامحه تقول إنه ينوي ضربي، ولكنني رفضت أن أتراجع وقد بلغت عزة نفسي مداها. وقبل أن يصلني بقليل لحق به أخوه الأكبر وأمسك به يجره إليه، ثم همس في أذنه بكلمات أنهت ذلك الموقف.

زارنا ذات يوم ثيرون Theron وهو مسؤول عام السجون والمشرف على شؤون جزيرة روبن وقد جاء ليستمع لشكاوانا. وكان ثيرون رجلا متجهما لا يحب التعامل مع السجناء وجها لوجه، ولم أكن لأزيده نفورا منا ولكنني عقدت العزم على مواجهته بلا تملق فقلت:

- نشكرك على المجيء للإستماع لآرائنا لأن هناك مجموعة مشكلات أعتقد أنه بإمكانك حلها.

ذكرت له تلك المشكلات فرد قائلا:

- سأدرس الأمر وسأبذل جهدي لمعالجة هذه القضايا.

ويبدو أنه أحس بأنه بالغ في التودد إلينا فالتفت نحو تيفو - وكان بطنه بارزا الى الأمام - وهو يغادر الحجرة قائلا:

- سوف يختفي هذا البطن أثناء وجودك في السجن.

استخدم ثيرون الكلمة التي يشار بها لبطن الماشية والحيوانات.

لم يحفل ستيف بما قاله رئيس السجون ولم يكن ليفوته الرد على تلك الشتيمة، فقال:

- اعلم يا حضرة النقيب أنني لن أتأثر بأي كلام توجهه لي لأنني أنتمي لأعظم منظمة ثورية سياسية في العالم وهي الحزب الشيوعي الذي يفخر بسجل حافل في خدمة الشعوب المظلومة في جميع أنحاء العالم. أما أنت والحزب الوطني التعيس فمآلكم الى مزبلة التاريخ عندما نحكم نحن العالم. فأنا مشهور في العالم أكثر من رئيس دولتك الوغد. فمن تكن أنت؟ إنك مجرد موظف بسيط لا يستحق أي اهتمام، وعندما أغادر السجن سوف لن أتذكر حتى اسمك.

أشاح ثيرون بوجهه وانصرف.

* * *

خففت علينا زيارات حارسنا الملون الليلية الكثير من قسوة الجزيرة، ورغم تلك الرفاهية النسبية لم يكن ستيف راضيا. كان كثير التدخين وغالبا ما يقضي الليل كله يدخن فيستهلك كل ما عنده من التبغ، وذلك بخلاف غاتسيوى الذي كان يقتصد في التدخين فيوفر حصته من التبغ. في إحدى الأمسيات كان تيفو في حالة قلقة فواجهني يقول:

- إنك تنقص من حقي يانلسون وتعطي غاتسيوى كمية أكبر من التبغ.

لم يكن على صواب فقلت لنفسي أداعبه قليلا:

- حسنا. من الآن فصاعدا سأقسم التبغ الى قسمين وأدعك تختار أحدهما.

فاصبح ذلك هو النظام المتبع منذ تلك اللحظة وكان ستيف يقف كل ليلة في حيرة عاجزا عن اختيار ما يراه الأكبر من القسمين، وبعد تفكير عميق يأخذ احدهما وينصرف ليواصل التدخين. ورغم أن هذه الطريقة كانت في رأيي عادلة - ومسلية كذلك - لم تكن ترضي تيفو وكان بمجرد أن يصل صاحبنا الحارس يحوم قريبا منه ليتأكد من أنني لا أخفي تبغا بدون علمه، وكان ذلك يزعج الحارس فقال لي مرة:

- ارجوك. لن أتعامل إلا معك. المسألة مسألة أمن.

طمأنته ونبهت على تيفو بألا يقترب من الحارس عندما أستلم منه التبغ.

جاء الحارس في الليلة التالية فاقترب تيفو من النافذة وخاطب الحارس قائلا:

- من الآن فصاعدا اعطني نصيبي من التبغ مباشرة.

ارتبك الحارس وقال:

- يا منديلا، خرقت الإتفاق. لن أحضر لك شيئا بعد اليوم.

نهرت تيفو كي يصمت، وواصلت الحديث مع الحارس قائلا:

- لا تؤاخذه إنه رجل عجوز وتصرفاته غير طبيعية (مشيرا بإصبعي الى رأسي) فلا تعيره أي اهتمام.

هدأ قليلا وناولني التبغ والشطائر وحذرني من ألا يتكرر ما حدث تلك الليلة وإلا فهي آخر مرة يزودنا فيها بشيء.

أحسست تلك الليلة أنه من الضروري معاقبة تيفو فقلت له:

– اسمعني جيدا. كدت تحرمنا من المؤونة ولذلك فلن أعطيك شيئا منها الليلة، ولن نعطيك شيئا حتى تغير من تصرفاتك.

ظل تيفو صامتا وجلس على انفراد في أحد أركان الحجرة، وجلسنا نحن في ركن آخر نأكل الشطائر ونقرأ الصحيفة التي أتي لنا بها الحارس تلك الليلة، وبعد فترة من الوقت غلبنا النعاس فنمنا. عند منتصف الليل تقريبا أحسست بيد تهز كتفي، وإذا به تيفو يوقظني بصوت خافت:

– نلسون ...نلسون. لقد طعنتني في موضع ضعف بحرمانك لي من التبغ. أنا رجل عجوز ضحيت من أجل حبي لأبناء قومي، وأنت قائدنا هنا في السجن. كيف تسمح لنفسك بأن تعاقبني بهذه الطريقة. هذا ليس من العدل، يانلسون.

لقد طعنني هو في موضع ضعف، وأحسست بأنني قد أسأت استعمال سلطتي. لقد كافح ذلك الرجل فعلا، وبأكثر مما كافحت أنا. أعطيته ما تبقى من الشطائر، وأيقظت غاتسيوى وطلبت منه أن يتقاسم التبغ مع تيفو. كان تيفو رجلا ذا مزاج صعب، ولكنه غيّر من تصرفاته منذ تلك الليلة.

تكونت لدي من خلال العمل في السجن صورة أحسن عن أوضاع بقية السجناء. نقلت السلطات الى الزنزانة المقابلة مجموعة من شباب حزب المؤتمر القومي الأفريقي وكان بإمكاننا التحدث إليهم من وراء القضبان أثناء الليل. كان من بينهم نقابيني أميني Nqabeni Menye أحد أقربائي من امكيكيزويني لم أكن رأيته منذ كان رضيعا عام ١٩٤١ .

تحدثنا عن ترانسكاي وأخبرني عن أحوال الأسرة. وبينما كنت أتحدث إليه وحوله مجموعة من أصدقائه الشباب سألني:

– ما هو التنظيم الذي تنتمي إليه ياعمّ؟

فأجبته أنني أنتمي الى حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فانقبضت وجوه الشبان من حوله وابتعدوا عن النافذة. عاد بعد قليل يسألني إن كنت في يوم من الأيام عضوا في حزب المؤتمر القومي الأفريقي فأجبته بالنفي فأخبرني بأنه كان يظن أنني التحقت بحزب المؤتمر القومي الأفريقي أثناء جولتي في أفريقيا. أخبرته بأنني لم التحق بذلك الحزب وأنني كنت دائما عضوا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وأنني سأظل كذلك ما حييت. أزعجهم كلامي فانصرفوا.

علمت في ما بعد أن حزب المؤتمر القومي الأفريقي أشاع أنني التحقت بالحزب عندما زرت دولا أخرى في أفريقيا. لم أفاجأ بتلك الإشاعات ولكنها لم تفرحني أيضا. وفي

السياسة كثيرا ما يسيء المرء تقدير جهل الناس ببعض التطورات والمواقف. سألني قريبي بعد فترة إن كنت التقيت بروبرت سوبوكوى في بريتوريا فقلت إنني التقيت به وكانت بيننا مناقشات ممتعة وبناءة، ففرح هو وأصدقاؤه بذلك وهدأت نفوسهم. ودعوني تلك الليلة وكان ذلك آخر لقاء لي بهم.

فبعد بضع ساعات من تلك الليلة جاءنا أحد الحراس وطلب منا حزم أمتعتنا. أخذ زملائي الثلاثة وبقيت بمفردي في الزنزانة. وفي السجن من النادر أن تعطى الوقت الكافي لتوديع رفاقك. وربما تعيش شهورا في صحبة شخص ما ثم يختفي عنك فجأة الى الأبد. إن السجن يحط من إنسانية الإنسان لأنه يجبره على التقوقع والإنطواء على نفسه.

أصبحت وحيدا وزاد قلقي. فالجماعة توفر الحماية وعندما يكون الإنسان بمفرده فهو بلا شهود. فطنت الى أنني لم أتسلم طعام العشاء تلك الليلة فطرقت الباب قائلا:

- يا حارس، أين عشائي. لم أتسلم عشائي الليلة.

صاح الحارس:

- يجب أن تناديني بيا سيدي.

نمت تلك الليلة خاوي البطن.

أخذوني في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي الى بريتوريا. أصدر قسم السجون بيانا يقول إنني نقلت من الجزيرة حماية لي لأن سجناء أعضاء في حزب المؤتمر القومي الأفريقي كانوا يخططون للإعتداء عليّ. كان الادعاء باطلا، وإنما أحضرت الى بريتوريا لأسباب خاصة بالسلطات اتضحت بعد ذلك بوقت قصير.

وضعت في الحبس الانفرادي في سجن بريتوريا المحلي، ولكن السجناء لا تعوزهم الحيل. لم يمض وقت طويل حتى صارت تصلني رسائل سرية من أعضاء في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي منهم هنري فازي Henry Fazzie أحد أعضاء حركة (أمكا) الذين تلقوا تدريبات عسكرية في إثيوبيا وألقي القبض عليه وهو يحاول دخول جنوب أفريقيا. وكان فازي من أوائل من حوكموا بموجب قانون التخريب.

بذلت جهدي من خلال شبكة الإتصالات غير الرسمية داخل السجن أن أعينهم في تحضير الدفاع عن قضيتهم وأشرت عليهم بالإتصال بهارولد ولب. علمت في ما بعد أن ولب رهن الاعتقال هو الآخر، وكانت تلك أول مرة أحس فيها بأن أمرا على قدر كبير من الخطورة قد حدث. وفي أحد الأيام كنت في طريقي الى الزنزانة بعد نهاية فترة التمرين فلمحت في فناء السجن أندرو أملانغيني Andrew Mlangeni الذي قابلته قبل ذلك في سبتمبر ١٩٦١ وهو يغادر البلاد لتلقي التدريب العسكري. يالها من كارثة: من ياترى غير هؤلاء ألقي القبض عليه؟

في أوائل عام ١٩٦١ فرض حظر سياسي على ويني لمدة سنتين، وسمعت عن طريق

أحد السجناء أن ويني اتهمت بمخالفة الحظر وربما تعرضت للسجن أو الإقامة الجبرية. ويني عنيدة، والحظر سيزيد من عنادها. لم أشك في أنها خالفت الحظر، ولم أكن لأنصحها بخلاف ذلك ولكنني قلقت قلقا شديدا لاحتمال قضائها فترة من الوقت في السجن.

في صباح أحد الأيام من يوليو ١٩٦٣ كنت أمشي في الممر عائدا الى زنزانتي فرأيت توماس ماشيفانى Thomas Mashifane الذي كان رئيس العمال في مزرعة ليليازليف. حييته بحرارة رغم علمي أن السلطات رتبت لذلك اللقاء حتى تتأكد من أنني أعرفه، ولكن ليس أمامي سوى أن أسلم عليه. وجود ماشيفانى في السجن يعني أن السلطات اكتشفت سر ريفونيا.

بعد يومين استدعيت لمكتب السجن فوجدت وولتر وغوفان امبيكى وأحمد كاثرادا وأندرو ملانغيني وبو هيبل وريموند مهلابا، وهو عضو القيادة العليا لحركة (أمكا) الذي عاد حديثا من التدريب في الصين، وإلياس موتسولايدي، عضو حركة (أمكا)، ودينيس غولدبيرغ، مهندس وعضو حزب مؤتمر الديمقراطيين، ورستي بيرنستاين، المهندس المعماري وعضو مؤتمر الديمقراطيين، وجيمي كانتر، المحام وصهر هارولد ولبى كذلك. قدمت إلينا جميعا تهمة التخريب وتقرر مثولنا أمام المحكمة في اليوم التالي. كنت حتى ذلك التاريخ قضيت تسعة أشهر من فترة سجن مدتها خمس سنوات.

* * *

شيئا فشيئا تجمعت لدي فكرة عما جرى. في عصر يوم ١١ يوليو دخلت عربة تابعة لمغسلة مزرعة ليليازليف ولم يكن أحد يتوقع وصولها. أوقف الحارس الأفريقي الشاب تلك العربة فانقض عليه عشرات من الشرطة المسلحين وكلابهم. أحاطت الشرطة بالمكان ودخل عدد منهم الى المبنى الرئيسي وأحد المباني الخارجية حيث وجدوا نحو عشرة أشخاص جالسين حول طاولة يتدارسون بعض الأوراق. قفز وولتر من إحدى النوافذ محاولا الهرب فاعترضه أحد كلاب الشرطة. شملت الاعتقالات أيضا آرثر غولدريتش الذي دخل المزرعة بسيارته أثناء مداهمة الشركة لها.

فتش رجال الشرطة المزرعة بكاملها واستولوا على مئات الوثائق والأوراق ولكنهم لم يعثروا على أي أسلحة. كانت على الطاولة وثيقة من أهم الوثائق وهي الخاصة بعملية مايبأي Operation Mayibuye التي تحتوي على خطة لتنظيم حرب عصابات في جنوب أفريقيا. لقد تمكنت السلطات بضربة واحدة من أسر القيادة العليا لحركة أومخونتو وي سيزوى (أمكا) بكاملها، واعتقل الجميع بموجب قانون الحجز لمدة تسعين يوما.

لم يكن جو سلوفو وبرام فيشر لحسن الحظ في المزرعة رغم ترددهما عليها عدة مرات في اليوم. ولم يكن غريبا أن اكتشفت المزرعة بل الغريب أنها لم تكتشف قبل ذلك التاريخ. فالحكومة طورت من أساليبها وتشددت في عملياتها، فلجأت للتنصت على خطوط التلفونات ومراقبة الأماكن والأفراد على مدار الساعة. كانت المداهمة نصرا كبيرا للدولة.

لم يسمح لنا في اليـوم الأول من المحاكمة بتكليف مـحامين . مثلنا أمام أحـد القضـــاة فوجـه إلينا تهمة التـخريب . بعد عـدة أيام سمح لنا بمقابلة فريق الدفـاع المتكـــون مـــن بـــرام فيشر وفيرنون بيـرانجيه وجول جوفيه Joel Joffe وجورج بيزوس وآرثـر شـاكالســـون Arthur Chaskalson . ظللت مفصولا عن الباقين لأنني سجين وكانت جلسات المحكمة أول فرصة منذ سجني أتحدث فيها مع زملائي في الحزب.

كان برام فيشر مكتئبا، وقال لنا في صـوته الهادئ إننا نواجه محاكمة في غاية الخطورة وإن الدولة أخـبرته بأن الادعـاء العـام سيطـالب بأقصى عـقـوبة ممكنة يسـمح بها القـانون. وأضاف برام أنه بالـنظر الى الجو العام في الـبلاد فإن ذلك الإحـتمال وارد بدرجـة كبـيرة، فـعشنا مـنذ تلك اللحظة في ظل المشـانق. مجرد احـتمال صدور أحكام بالإعـدام يغير كل شيء، وبنينا كل تحركاتنا منذ تـلك اللحظة على أن ذلك هو الإحتمال الأكبر فـقد صدرت أحكام بالسجن المؤبد في قضايا أقل خطورة من قضيتنا.

لم يتهاون مسؤولو السجن في تذكيرنا بأننا ربما واجها حكم الإعدام . طرق باب زنزانتي أحد الحراس قبيل موعد النوم تلك الليلة ليقول:

- مانديلا . لا تقلق على النوم، فسوف تنام نوما طويلا جدا جدا.

انتظرت قليلا ثم قلت:

- كلنا، بمن فينا أنت، سوف ننام نوما طويلا جدا جدا.

وكان في تلك الكلمات بعض من عزاء.

- ٥٥ -

في التاسع من أكتوبر ١٩٦٣ نقلنا في عربة شرطة محصنة في وسطها حاجز للفصل بين السجناء البيض والأفريقيين الى قصر العدالة في بريتوريا وهو مقر جلسات المحكمة العليا. كان طرفا القضية هما "الدولة" من جهة و"القيادة العليا العامة وآخرون" من جهة أخرى وعرفت فيما بعد بقضية "الدولة ضد نلسون مانديلا وآخرين" كما اشتهرت باسم محاكمة ريفونيا . بالقرب من مبنى المحكمة يوجد تمثال بول كروغر Paul Kruger رئيس جمهورية ترانسفال الذي حارب الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر، وفي أسفل التمثال نقشت عبارة من إحدى خطبه تقول: "إننا نطرح قضيتنا أمام العالم بأسره بكل ثقة، وسواء انتصرنا أم متنا فسوف تشرق الحرية على أفريقيا كما تشرق الشمس من وراء سحب الصباح".

تقدمت العربة وسط موكب من عربات الشرطة تتقدمه سيارة فخمة تقل كبار المسؤولين. كان قصر العدالة يغص برجال الشرطة المسلحين . أدخلنا المبنى من الخلف عبر بوابة حديدية ضخمة حتى لا يرانا الحشد الكبير من الأنصار والمشجعين الذين تجمعوا أمامه . وقفت طوابير رجال الشرطة المسلحين في جميع أنحاء المبنى، وبينما كنا نغادر العربة سمعنا أصوات الحشود تدوي بالغناء والهتاف والتهليل. أودعنا زنزانات أسفل قاعة المحكمة قبل افتتاح المحاكمة التي وصفتها الصحف المحلية والعالمية أهم محاكمة سياسية في تاريخ جنوب أفريقيا.

خرجنا من الزنزانات يرافق كلا منا إثنان من الحراس . دخلنا تلك القاعة الفخمة ذات السقف العالي، وكلما دخل متهم اتجه الى الجمهور محييا بتحية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . تعالت هتافات: "القوة" و "القوة لنا" و "فلتعد أفريقيا"، مما رفع من معنوياتنا. سجلت الشرطة أسماء جميع من دخل قاعة المحكمة وعناوينهم والتقطت صورهم أثناء مغادرتهم القاعة . كانت القاعة تغص أيضا برجال الصحافة المحلية والعالمية وعشرات من ممثلي حكومات دول الأجنبية.

دخلنا قاعة المحكمة واصطف عدد من رجال الشرطة للفصل بيننا وبين الجمهور . استأت كثيرا لخروجي في المحكمة بملابس السجن الرثة ونظرا لأنني مدان فلم يكن من حقي ارتداء ملابسي العادية. سمعت من كثيرين في ما بعد عن هيئتي المزرية بشكل عام ذلك اليوم ليس بسبب المظهر والملابس وحدها . فقد دخلت السجن الانفرادي لعدة شهور ونقص وزني بمقدار نحو خمسة عشر كيلوغراما. حاولت جهدى أن أبتسم للجمهور عندما دخلت القاعة وكانت رؤيتي لذلك الحشد من الأنصار أحسن دواء لما كنت أعانيه من كآبة وانكسار.

كانت درجة التأهب الأمني عالية جدا . فقبل بضعة اسابيع نجح كل من آرثر غولدريتش وهارولد ولب وموسي مولا Mosie Moola وعبدالحي جاسات Abdulhay Jassat في

الهروب من السجن بعد رشوتهم لأحد الحراس . فر آرثر وهارولد الى سوازيلاند Swaziland متنكرين كقسيسين ومنها الى تانجانيقا . جاء هروبهما في خضم عاصفة من الهيستيريا حول العمل السري وكان الموضوع الرئيسي في الصحف ومصدر إحراج كبير للحكومة ودفعة قوية لمعنويات النضال والمناضلين.

تولى رئاسة محاكمة ريفونيا قاضي قضاة ترانسفال السيد قورتس دي فيت Quartus de Wet وظهر في ثوبه الأحمر القاني الفضفاض جالسا تحت قبة خشبية . كان دي فيت آخر القضاة الذين عينهم الحزب المتحد قبل مجيء الحزب الوطني للسلطة ولم يكن محسوبا على الحكومة . كان دي فيت عابس الوجه مقطب الجبين سريع الانفعال . أما محامي الادعاء فكان الدكتور بيرسي يوتار Dr Percy Yutar نائب المدعي العام في ترانسفال الذي يطمح أن يكون المدعي العام لجنوب أفريقيا . ويوتار رجل صغير الحجم أصلع الرأس أنيق الهيئة يحتد صوته كلما غضب أو انفعل . كان مغرما بالدراما واستعمال التعبيرات اللغوية الفخمة الفضفاضة.

وقف يوتار يخاطب هيئة المحكمة فقال:

- سيدي القاضي، أفتتح قضية المدعي فيها الدولة والمدعى عليه هو القيادة العليا العامة وآخرون.

كنت المتهم رقم واحد . قدم يوتار لائحة الاتهام تحريريا للمحكمة وطلب توجيه التهم إلينا في الحال ومحاكمتنا فوريا . كانت تلك أول مرة نتسلم فيها نسخة من لائحة الاتهام، وكان الادعاء قد حجبها عنا رغم أنه سلم نسخة منها لصحيفة راند ديللي ميل نشرتها ذلك اليوم بالخط العريض على صفحتها الأولى . تركزت التهم حول الإشتراك في أكثر من مائتي عملية تخريب تهدف الى الثورة العنيفة واجتياح البلاد باستخدام القوة العسكرية . وادعت الدولة أننا أطراف في مؤامرة للإطاحة بالحكومة.

وجهت إلينا تهم التخريب والمؤامرة ولم توجه إلينا تهمة الخيانة العظمى هذه المرة لأن القانون - خلافا لقضايا الخيانة العظمى- لا ينص على فحص تمهيدي مفصل في محاكمة قضايا التخريب والمؤامرة (وهذا من صالح الدفاع الى حد كبير). ولكن العقوبة القصوى واحدة في الحالتين وهي الإعدام . في حالة الخيانة العظمى على الدولة إثبات القضية إثباتا قاطعا لا يتطرق إليه شك معقول وعليها تقديم شاهدين إثنين على كل تهمة . أما بموجب قانون التخريب فالبينة على الدفاع لإثبات براءة المتهم .

نهض برام فيشر وطلب من المحكمة تأجيل الجلسة لعدم توفر الوقت الكافي للدفاع لتحضير حيثيات مرافعته . وأشار الى أن عددا من المتهمين احتجزوا في السجن الانفرادي لمدد غير مقبولة، وأن الدفاع لم يتسلم لائحة الاتهام إلا ذلك اليوم بينما ظلت الدولة تعد للقضية لمدة ثلاثة أشهر . وافق القاضي على منح الدفاع مهلة ثلاثة أسابيع حتى ٢٩ أكتوبر.

انزعجت لعدم حضور ويني الى المحكمة ذلك اليوم بسبب الحظر على نشاطها وتحديد

إقامتها في جوهانسبيرغ، وكانت تحتاج الى إذن من الشرطة التي رفضت السماح لها بالمجيء الى بريتوريا . وعلمت أيضا أن الشرطة داهمت بيتنا واعتقلت أحد أقرباء ويني الشبان . ولم تكن ويني الزوجة الوحيدة التي تعرضت لمضايقات، فقد اعتقلت كل من ألبيرتينا سيسولو وكارولاين موتسوليدي بموجب قانون الاعتقال تسعين يوما، كما ألقي القبض على ماكس إبن وولتر . كان اعتقال الزوجات والأطفال من أكثر الوسائل وحشية التي استعملتها الحكومة للضغط على المناضلين . استطاع كثير من الرجال تحمل ما أنزلته بهم السلطات من عقوبات ومعاملات في السجون ولكنهم لم يكونوا يحتملون أن تلقى أزواجهم وأولادهم ذلك المصير.

تقدمت ويني باستئناف الى وزارة العدل فسمحت لها بحضور المحاكمة شريطة ألا ترتدي ملابسها التقليدية . فها هي الحكومة نفسها التي تدعي تشجيعها لثقافتنا في مناطقنا الخاصة بالأفريقيين تمنع ويني من ارتداء أزياء الكوسا داخل المحكمة.

سمح لنا خلال الأسابيع الثلاثة التالية بالاختلاط من أجل التحضير للقضية . وجدت نفسي بين رفاقي من جديد وأعطاني ذلك دفعة جديدة من الحيوية . كما سمح لأهلينا بالزيارة لفترتين في الأسبوع كل منهما لمدة نصف ساعة ووجبة واحدة في اليوم من خارج السجن . عادت السيدة بلاي إلينا بطعامها اللذيذ ولم يمض وقت طويل حتى استعدت وزني وعافيتي.

بينما كنا نعد للقضية داخل السجن كانت الحكومة تحاكمنا في الصحافة . لا يسمح عادة للصحافة أن تتناول قضية قيد النظر، ولكن نظرا الى أن المتهمين في قضية ريفونيا اعتقلوا بناء على قانون الاعتقال تسعين يوما فهم لا يعدون من الناحية الفنية البحت متهمين في جريمة وبذلك تكون الحكومة في حل من حظر تناول القضية . وصمنا الجميع وعلى رأسهم وزير العدل بأننا ثوريون نستخدم العنف، وكانت عناوين الصحف تتحدث باستمرار عن "الثورة بوسائل عسكرية".

عدنا الى المحكمة يوم ٢٩ أكتوبر، وتجمعت الحشود من جديد تهتف وتهلل، وكانت الاستعدادات الأمنية عالية كذلك، وحضر عدد من كبار شخصيات السفارات الأجنبية. كنت مفعما بالحيوية بعد ثلاثة أسابيع في صحبة رفاقي وظهرت في المحكمة مرتديا بذلة هذه المرة وفي حالة صحية ونفسية أفضل من السابق . فقد اعترض محامينا على مجيئنا الى المحكمة بملابس السجن ونجحنا في الحصول على موافقة لارتداء ملابسنا الخاصة . حيينا الجمهور بتحيتنا المعهودة فحذرتنا السلطات من تكرار ذلك وإلا فستصر على ظهورنا في المحكمة بملابس السجن . وللتحايل على الموضوع عكست السلطات الترتيب المعتاد في ظهور المتهمين قبل القاضي في قاعة المحكمة، فصار القاضي يدخل أولا ثم نتبعه نحن وقد افتتحت الجلسة وليس بمقدور أحد أن يهتف أو يتكلم.

بادر محامينا برام فيشر بالهجوم منذ اللحظة الأولى فانتقد لائحة الاتهام بأنها مهلهلة

وضعيفة وتحتوي على أمور سخيفة وغير منطقية كالادعاء بأنني شاركت في أعمال تخريب في تواريخ كنت أثناءها في السجن في بريتوريا . أسقط في يدي المدعي العام يوتار ونظر إليه القاضي دو فيت ليرد على ما قاله برام ولكن بدلا من الرد راح يلقي ما وصفه القاضي ساخرا بأنه "خطبة سياسية" . نفد صبر القاضي وأعرب عن ذلك بوضوح للادعاء العام قائلا :

– أساس مرافعتك كما فهمته يا سيد يوتار هو أنك تؤكد أن المتهمين مذنبون.

أسقط القاضي التهم ورفع الجلسة.

وجدنا أنفسنا من الناحية القانونية الفنية أحرارا تلك اللحظة وعمت الفوضى قاعة المحكمة، ولكن ألقي القبض علينا من جديد قبل أن يغادر القاضي مقعده . وضع الملازم سوانبول Swanepoel يده على كتف كل واحد منا وقال:

– مقبوض عليك بتهمة التخريب.

أخذنا كالقطيع الى زنزاناتنا . ورغم ذلك فقد كان قرار المحكمة ضربة موجعة للحكومة، وأصبح عليها أن تعود الى نقطة الصفر في القضية التي كانت تصفها بأم القضايا.

أعادت الدولة صياغة لائحة الاتهام وعادت المحكمة للانعقاد من جديد في ديسمبر . نما لدينا شعور خلال ذلك الفاصل الزمني بأن عداوة القاضي دي فيت نحونا ازدادت، وأن سخط الحكومة أدى الى ممارسة ضغوط أقوى عليه . تليت التهم الجديدة التي ادعت بأننا جندنا أفرادا لارتكاب أعمال تخريب والقيام بحرب عصابات من أجل إشعال ثورة وسيلتها العنف . كما ادعت بأننا تآمرنا لدعم ثورة شيوعية وجمعنا أموالا لهذا الغرض من دول أجنبية . وأشار المدعي العام يوتار بشيء من الدراما أن كميات الذخيرة التي سعى المتهمون للحصول عليها تكفي لتفجير جوهانسبيرغ عن بكرة أبيها.

طلب مسجل المحكمة ردنا على التهم . اتفقنا ألا نرد بالطريقة المعهودة وإنما نستغل الفرصة لإظهار استيائنا من الإجراءات المتبعة . وجه إلينا السؤال المعتاد:

– المتهم رقم واحد، نلسون مانديلا، بماذا تجيب: مذنب أم بريء؟

وقفت وقلت:

– سيدي القاضي، الحكومة هي التي ينبغي أن تكون في قفص الاتهام . أما أنا فأدفع بالبراءة.

– المتهم رقم إثنان، وولتر سيسولو، بماذا تجيب: مذنب أم بريء؟

– الحكومة هي المسؤولة عما يجري في البلاد . أما أنا فلست مذنبا.

قال القاضي دي فيت إنه لا يرغب في الإستماع الى خطب سياسية وعلينا أن نقصر ردودنا على الدفع بالذنب أو البراءة فقط . تجاهل المتهمون تعليماته وعبر كل منهم على رأيه بأن الحكومة هي المجرمة قبل أن يرد على التهمة الموجهة إليه.

زيادة في تهويل دراما المحاكمة قررت الحكومة إذاعة كلمة محامي الادعاء يوتار في راديو جنوب أفريقيا الرسمي، ووضعت لاقطات الصوت أمام محامي الادعاء وأمام القاضي. ولكن ما إن تنحنح يوتار لافتتاح المرافعة حتى نهض برام فيشر من مقعده وطالب بإزالة لاقطات الصوت بناء على أن إذاعة وقائع المحكمة ستؤثر على عدالة الإجراءات، وأن وجودها لا يليق بكرامة المحكمة. ورغم إلحاح يوتار على إبقائها أمر القاضي دو فيت بإزالتها.

أشار يوتار في كلمته الى أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي دأب منذ لجوئه الى العمل السري على تبني سياسة عنف تهدف الى القيام بعمليات تخريب تؤدي الى حرب عصابات ثم احتلال عسكري للبلاد. وأكد على أننا خططنا لنشر آلاف الوحدات من المدربين على حرب العصابات في جميع أنحاء البلاد لتكون طليعة انتفاضة عارمة يتبعها اجتياح عام تقوم به وحدات عسكرية تابعة لقوة أجنبية. وتابع يقول:

- في خضم الفوضى والإضطراب وغياب القانون التي تنشأ عن ذلك خطط المتهمون لتشكيل حكومة ثورية مؤقتة تستولي على إدارة البلاد وتتولى السيطرة عليها.

واستطرد يقول إن العقل المدبر لهذه الخطة الكبرى هو أومخونتو وي سيزوى (أمكا)، ومقرها الرئيسي في ريفونيا، تحت الإشراف السياسي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي.

ووصف يوتار بأسلوبه الرنان كيف جندنا أعضاء حركة (أمكا) وكيف خططنا لانتفاضة عامة عام ١٩٦٣ (وهذا خلط بيننا وبين حزب المؤتمر القومي الأفريقي)، وكيف أنشأنا محطة إرسال إذاعي قوية في ريفونيا، ومسؤوليتنا الجماعية على مائتين واثنتين وعشرين عملية تخريب. كما ذكر أن إلياس موتسوليدي وأندرو ملانغيني كانا مسؤولين عن التجنيد في منطقة الكيب، وشرح بالتفصيل إنتاجنا لأنواع مختلفة من القنابل والمتفجرات وتحصيلنا للأموال في الخارج.

قدمت الدولة خلال الأشهر الثلاثة التالية مائة وثلاثة وسبعين شاهدا، وأدخلت في ملف القضية آلاف الأوراق والوثائق والصور الفوتوغرافية بما في ذلك كتب أساسية عن الماركسية وتاريخ حرب العصابات وخرائط ومسودات وجواز سفر صادر باسم شخص يدعى ديفيد موتساماي. كان أول الشهود مصور تابع للشرطة التقط صورا في ريفونيا، ثم تبعه خدم لأسرة غولدريتش من العاملين في بيت مزرعة ليليازليف ظلوا رهن الحجز طول تلك المدة رغم أنهم لا علاقة لهم بالتوجهات السياسية لصاحب البيت. تعرف الخدم الى هوية الغالبية منا وأشاروا إلينا واحدا واحدا، غير أن السيد جيليمان Mr Jelliman، في محاولة جريئة لحمايتي، تظاهر بأنه لم يراني في المزرعة عندما طلب منه الإشارة بإصبعه الى المتهم رقم واحد. طلب منه الادعاء التفرس في الوجوه مرة أخرى وبعناية أكبر ولكن جيليمان أصر:

- لا أظن أنه موجود في القاعة.

تساءلنا في ما بيننا عن الأدلة التي ستقدمها الدولة لإثبات التهم الموجهة إلينا. فقد قضيت معظم فترة التخطيط الذي جرى في ريفونيا إما خارج البلاد أو داخل السجن. وقد الححت على وولتر عندما التقيت به في سجن بريتوريا أن ينقل جميع أوراقي وكتبي من المزرعة. ولكن عندما تقدم راستي بيرنستاين في الأسبوع الأول من المحاكمة بطلب لإخلاء سبيلي بكفالة رفض الادعاء وأبرز بيرسي يوتار الخريطة التي رسمتها أثناء اعتقالي في سجن القلعة وملحقاتها من تعليقات حول طريقة الهرب من السجن. وقال يوتار إن الوثيقة دليل على أن جميع المعتقلين كانوا يخططون للهرب. كان ذلك دليلا على أن شيئا من أوراقي لم ينقل من مزرعة ريفونيا، وعلمت فيما بعد أن زملائي قرروا الاحتفاظ بتلك الأوراق لقيمتها التاريخية. ولكنها كلفت راستي بيرنستاين مصاريف الكفالة.

كان الشاهد الرئيسي للدولة هو برونو امتولو، أو "السيد س" كما كان يشار إليه في المحكمة. عند التعريف به أشار يوتار الى أن استجواب "السيد س" سيستمر لمدة ثلاثة أيام ثم أضاف بطريقة مسرحية أن حياة الشاهد "في خطر أكيد". طلب يوتار أن يدلي الشاهد بأقواله في جلسة مغلقة وأن يسمح للصحافين بالحضور شريطة الا يكشفوا عن هوية الشاهد.

امتولو رجل طويل القامة حسن البنية ذو ذاكرة ممتازة، وهو من زولو ديربان اصبح قائد حركة (أمكا) في إقليم ناتال. كان خبيرا بعمليات التفجير والتخريب وممن ترددوا على ريفونيا. قابلته مرة واحدة عندما ألقيت كلمة في مجموعة من عناصر (أمكا) في ناتال بعد عودتي من جولة أفريقيا. أقنعتني الأدلة التي قدمها بحقي أن الدولة ستتمكن من إدانتي بدون أدنى شك.

بدأ امتولو بقوله إنه من عناصر حركة (أمكا) الذين مارسوا التخريب، وأنه فجر مكتب البلدية وعمود طاقة وخط كهرباء، وشرح بتفصيل رائع عمل المتفجرات والألغام والقنابل اليدوية وأسلوب (أمكا) في العمل السري. وقال امتولو رغم أنه لم يفقد إيمانه بمباديء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي إلا أنه فقد ثقته بالتنظيم وبحركة (أمكا) حين تبين له أنهما أداة في يد الحزب الشيوعي.

أدلى أمتولو بشهادته بكثير من البساطة وبما يبدو للمستمع أنه وضوح كامل، ولكنه حبّر وزخرف. ولا شك في أن ذلك تم بتعليمات من الشرطة. فقد أخبر المحكمة أنني قلت في لقائي مع القيادة الإقليمية في ناتال أن على جميع جنود (أمكا) أن يكونوا شيوعيين ممتازين وألا يعلنوا آرائهم على الملأ. في الواقع لم أقل شيئا من هذا إطلاقا، ولكن الهدف من شهادة أمتولو كان الربط بين حركة (امكا) من جهة والحزب الشيوعي من جهة أخرى. بدت قدرته على تذكر التفاصيل دقيقة جدا بحيث يبدو للرجل العادي أنها صحيحة ودقيقة، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك.

ذهلت لخيانة أمتولو بل لم أستبعد أن ينهار أعتى رجال الحزب أمام وسائل التعذيب البوليسية التي تستخدمها الشرطة . ولكن أمتولو لم يمس بسوء، لقد ذهب الى أبعد من ذلك وجر أناسا لم ترد أسماؤهم في أوراق القضية إطلاقا . إنني أدرك أنه من الممكن أن يغير الإنسان من موقفه أو قناعاته، أما أن يخون هذا العدد من الناس وأكثرهم أبرياء، فهو أمر لا يمكن تبريره.

اكتشفنا أثناء الإستجواب أن أمتولو احترف السرقة قبل انضمامه لحركة (أمكا) وسجن ثلاث مرات في جرائم سطو . ولكن رغم ذلك فقد كانت شهادته ضارة إلى ابعد الحدود لأن القاضي اقتنع بأقواله ووثق من صحتها، وهي أقوال أدانتنا جميعا.

كانت الركيزة الأساسية لدعوى الدولة ضدنا وثيقة خطة العمل التي تتكون من ست صفحات استولت عليها السلطات في ريفونيا . كانت الوثيقة على الطاولة أمام أعضاء القيادة العليا عندما داهمتهم الشرطة في المزرعة . وتحدد تلك الخطة المسماة عملية مايبوي Operation Mayibuye في شكل عام خطة الإعلان المحتمل عن قيام حرب عصابات وما يمكن أن تؤدي إليه من انتفاضة جماهيرية ضد الحكومة . وتقضي الخطة إبتداء بنزول قوات غير نظامية صغيرة في أربع مناطق مختلفة من جنوب أفريقيا والهجوم على أهداف محددة مسبقا . وحددت الخطة تجهيز قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مجند في حركة (أمكا) داخل البلاد لدعم قوى من الخارج قوامها مائة وعشرون جنديا.

ارتكزت حجة الادعاء بشكل أساسي على مصادقة اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي على عملية مايبوي التي اصبحت خطة عمل حركة (أمكا)، وأصررنا من جانبنا على أن الخطة كانت لا تزال قيد الدراسة حين جرت الاعتقالات ولم يصادق عليها رسميا. ومن وجهة نظري الشخصية فإن الخطة إضافة الى أنها مجرد مسودة لم يصادق عليها لم تكن عملية في كل جوانبها وأهدافها ووسائلها . فلم أكن في تلك المرحلة مؤمنا بأن حرب العصابات كانت خيارا قابلا للتطبيق.

وضعت الخطة في غيابي ولذا فلم أعرف عنها إلا القليل، وكان هناك خلاف داخل مجموعة قضية ريفونيا أنفسهم بشأن ما إذا كان الحزب قد تبنى الخطة سياسة رسمية له أم لا . فقد أصر غوفان الذي صاغ الخطة بالتعاون مع جو سلوفو على أن الحزب وافق عليها وشعر بأنه من الخطأ أن نتجادل في المحكمة حول كونها ما زالت تحت الدراسة، بينما ذهب بقية المتهمين الى أن الخطة رغم صدورها عن القيادة العليا لم تصادق عليها الهيئة التنفيذية للحزب أو حتى رئيسه الزعيم لوتولي.

* * *

رغم خطورة القضية وصرامة العقوبة المحتملة كانت معنوياتنا مرتفعة، وتبادلنا كثيرا من النكات عن الشنق والإعدام . كان دينيس غولدبيرغ Dennis Goldberg، وهو أصغرنا سنا، صاحب نكتة لا يستطيع كبتها وغالبا ما يفاجئنا بنكاته في أوقات الجد . فعندما ذكر أحد

شهود الإثبات أن ريموند مهلابا كان يتخفى في ملابس رجال الكنيسة أصبح دينيس يناديه بالقسيس مهلابا.

كنا نتخاطب بالرسائل المكتوبة التي كنا عادة نرميها في سلة المهملات . كان أحد ضباط القسم الخاص المشرفين علينا هو الملازم سوانبول، وهو رجل بدين ذو وجه أحمر، وكان دائما يشك في أننا نتحدث عنه شخصيا في ما نتبادله من رسائل . وبينما كان يراقبنا يوما ما شرع غوفان امبكي في كتابة رسالة بطريقة تظاهر بأنها سرية ثم سلمني الرسالة بحركة مسرحية . قرأتها ثم هززت رأسي في تدبر وحكمة وسلمتها لأحمد كاثرادا فقرأها ثم أخرج عود ثقاب من جيبه وتظاهر بأنه سيحرقها . فجأة اندفع سوانبول الى داخل الحجرة وانتشل الورقة من يد كاثرادا وحذره من إشعال النار في الورق داخل الحجرة . انصرف بعد ذلك والورقة في يده يقرأها وكأن فاز بغنيمة . رجع غاضبا بعد لحظات وقال:

- سوف أنتقم منكم جميعا!

كتب غوفان في تلك الورقة العبارة التالية: "أليس سوانبول رجلا وسيما؟"

ظلت الحياة خارج السجن تسير كعادتها ونحن في انتظار المحاكمة . كانت باربرا Barbara زوجة جيمي كانتور Jimmy Kantor على وشك الوضع، وكان جيمي محاميا جرّت به الدولة الى القضية لسبب واحد فقط وهو أنه صهر هارولد ولبى.

وصلتني صباح ذات يوم في قفص الاتهام الرسالة التالية:

بحثت مع باربرا بإسهاب موضوع تعميد المولود الجديد، واتفقنا على أنه يشرفنا أن تقبل بمهمة أب في العماد للمولود الجديد سواء كان ذكرا أم أنثى، وذلك بالإضافة الى المهمات سيئة السمعة الأخرى التي توليتها في الماضي.

أرسلت ردي الى جيمي بالبريد المستعجل:

ساكون سعيدا جدا بقبول المهمة وأنا الذي أتشرف بذلك وليس المولود الجديد . ووالله لن تتجرأ السلطات على إعدامي بعد اليوم!

- ٥٦ -

واصل الإدعاء بيان وقائع الدعوى طول موسم أعياد الميلاد لعام ١٩٦٣ وحتي ٢٩ فبراير ١٩٦٤ . وكان أمامنا شهر أو بعض شهر لفحص الأدلة وإعداد الدُفُوع . لم تلمسنا أدلة الإثبات جميعا بالدرجة نفسها . فلم تكن هناك أي أدلة تدين جايمس كانتور الذي لم يكن عضوا في الحزب وكان ينبغي الا يظهر في المحاكمة أصلا . وكانت الأدلة الخاصة بتورط راستي بيرنستاين وريموند مهلابا وأحمد كاثرادا في التآمر ضعيفة وقررنا ألا يدلوا بأي اعترافات تؤدي الى إدانتهم . لم تكن هناك أدلة إثبات تذكر ضد راستي وكل ما هنالك أنه كان موجودا في ريفونيا مع الآخرين . أما الستة الباقون فلا مناص من إقرارهم ببعض التهم.

كان برام محامي الدفاع متشائما بدرجة عالية، وأكد أن الدولة ستصر على عقوبة الإعدام حتى وإن أثبت الدفاع أن الحزب لم يقر فكرة حرب العصابات وأن سياسة التخريب لم تكن تهدف الى إزهاق الأرواح . اختلف أعضاء فريق الدفاع حول إدلائنا نحن بشهادات أمام المحكمة وأكد بعضهم على أن ذلك سيضر بقضيتنا . ولكن جورج بيزوس أشار الى أن القاضي سيحكم بأقصى عقوبة فعلا إن لم يدل المتهمون بشهاداتهم ويقنعوا القاضي بأنهم لم يقروا خطة حرب العصابات.

أكدنا منذ البداية على أننا لن نستخدم المحاكمة لاختبار نزاهة القانون بل كمنبر نعرض من خلاله سياساتنا وما نعتقده من أفكار . فلن ننكر مثلا مسؤوليتنا عن بعض الأعمال التخريبية، أو تخلي بعضنا عن أساليب اللاعنف . لم يكن همنا النجاة من العقوبة أو تخفيفها بل كان همنا تعزيز القضية التي نناضل من أجلها مهما كان الثمن الذي سندفعه نحن كأفراد . لن ندافع عن أنفسنا بالمعنى القانوني ولكن بالمعنى الأخلاقي، وكانت المحاكمة بالنسبة لنا وسيلة من وسائل مواصلة النضال . فنحن على استعداد تام للإقرار بما هو معروف لدى الدولة ولكننا سنرفض تقديم أي معلومات نعلم أن من شأنها أن تضر بغيرنا.

قررنا محاجّة الدولة في ادعائها الأساسي بأننا شرعنا فعلا في تنظيم حرب عصابات. سنقر بأننا وضعنا خطة احتياطية لتنظيم حرب عصابات في حالة فشل سياسة التخريب، وسنصر على أن تلك السياسة لم تخفق لأنها لم تجرب بقدر كاف . سننكر اتهام الدولة لنا بقتل أبرياء على أساس أن تلك الإدعاءات إما مختلقة بالكامل أو أن الأحداث التي راح ضحيتها أبرياء كانت من عمل طرف آخر . وسنؤكد على أننا لم يكن لدينا تصور لتدخل قوات عسكرية أجنبية . ولدعم هذا كله رأينا أنه لا مناص من تقديم شرح واف للمحكمة عن عملية مايبوى.

أما في ما يتعلق بي شخصيا فقد كانت لدى الدولة أدلة كافية لإدانتي . فهناك وثائق بخط يدي تؤكد أنني غادرت البلاد بطريقة غير قانونية، وأنني اتخذت ترتيبات لتنظيم

تدريبات عسكرية لرجال الحركة، وأنني كنت من وراء تأسيس حركة (أمكا). وكانت هناك وثيقة بخط يدي بعنوان: "كيف تكون شيوعيا جيدا" اعتبرتها الدولة دليلا على أنني عضو في الحزب الشيوعي. وحقيقة الأمر أن العنوان مقتبس من كلام للمنظر الصيني ليو شاو شي Liu Shao Chi كنت استشهدت به في نقاش دار بيني وبين موسى كوتاني يتعلق بإقبال المواطن العادي في جنوب أفريقيا على الشيوعية. كان رأيي أن الأدبيات الشيوعية مملة ونخبوية وموجهة للقاريء الغربي في الوقت الذي ينبغي أن تكون بسيطة واضحة تخاطب الجماهير الأفريقية، وكان موسى مصرا على أن ذلك غير ممكن. ولكي أثبت وجهة نظري اخترت مقالة لذلك المفكر الصيني بعنوان "كيف تكون شيوعيا جيدا" وأعدت كتابتها بما يناسب الجمهور الأفريقي.

كنت الشاهد الأول وهذا يعني أنني سأكون النموذج الذي يحتذيه الآخرون ويبني عليه الدفاع مرافعاته. وفي جنوب أفريقيا ينص القانون على أن يدلي الشاهد بأقواله في شكل إجابات على أسئلة تطرح عليه، ولكنني لم أكن أرغب أن أقيد نفسي بذلك التقليد. اتفقنا على أن أقرأ بدلا من ذلك مذكرة من داخل قفص الاتهام وأن يدلي زملائي بشهاداتهم ويُستجوبون حسب الأسلوب المتبع.

ونظرا الى أن الشاهد الذي يقدم مذكرة من قفص الاتهام لا يخضع للإستجواب أو المساءلة من قبل هيئة المحكمة فليس لمذكرته وزن كوزن الأقوال التي تقدم بالأسلوب المعتاد. والغاية من اختيار تقديم مذكرة هي عادة تفادي الإستجواب. ولكن محامينا حذروني من أن ذلك سوف يجعل وضعي القانوني مهزوزا لأن القاضي سيغض الطرف عن كل ما أقوله في المذكرة لإثبات براءتي. إلا أن ذلك لم يكن هدفنا الأساسي، وكنا نعتقد أنه من المهم أن نفتتح مرافعتنا بمذكرة لفلسفتنا السياسية وأفكارنا بما يحدد اتجاه القضية كلها. كنا في لهفة لمواجهة محامي الإدعاء بيرسي يوتار وكان الأهم من ذلك أن نستغل منبر المحكمة لعرض مظالمنا بقوة ووضوح.

اتفقنا على ذلك كله في مشاورات جرت عن طريق تبادل الرسائل المكتوبة لأن حجرة المداولات كانت ملغمة بأجهزة التنصت. لقد استفدنا من التنصت في الحقيقة في تزويد السلطات بمعلومات خاطئة أو مضللة، فأكدنا باستمرار على أنني سأدلي بشهادة أمام المحكمة مما دفع الإدعاء الى الإنهماك في التحضير لاستجوابي. وفي حديث مفتعل ومسموع بيني وبين محامينا جول جوفي طلبت منه سجل قضية الخيانة لأستعين به في تحضير أقوالي كي ينشغل يوتار بدراسة الأسفار الضخمة من وقائع تلك المحاكمة.

عكفت على تحضير كلمتي التي سألقيها أمام المحكمة نحو أسبوعين، وكانت أكثر شغلي في المساء داخل الزنزانة. فرغت من إعدادها ثم قرأتها على رفاقي من المتهمين فوافقوا عليها واقترحوا بعض التعديلات ثم طلبت من برام فيشر أن يلقي عليها نظرة. أظهر برام قلقا بعد أن فرغ من قراءتها فطلب من أحد المحامين المرموقين وهو هال هانسون Hal Hanson أن يطلع عليها فقرأها وعلق عليها بقوله:

- إذا كان مانديلا سيقرأ هذا الكلام في المحكمة فسيؤخذ من الباب الخلفي فورا الى حبل المشنقة.

عزز ذلك الرأي من مخاوف برام فجاءني في اليوم التالي ونصحني بشدة أن أعدل فيها. كان شعوري أن مصيرنا الشنق مهما قلنا، وعليه فيجب أن نقول ما نعتقد أنه الحق. كان الجو العام في البلاد كئيبا، وكانت الصحف تتكهن بأننا سنواجه الإعدام. توسل إليّ برام ألا أقرأ الفقرة الأخيرة من الكلمة ولكنني أصررت على قراءتها.

أخذنا يوم الإثنين ٢٠ أبريل الى قصر العدالة تحت إجراءات أمنية مشددة لنشرع في مرافعتنا. حضرت الى المحكمة ويني وبصحبتها أمي فحييتهما بهزة رأسي عند دخولنا قاعة المحكمة التي كانت تغص بالمتفرجين.

أعلن برام فيشر أن المتهمين قبلوا ببعض الأدلة التي قدمتها الدولة ضدهم فاهتاجت القاعة. ثم قال إن الدفاع يرفض أدلة أخرى بما فيها الإدعاء بأن حركة أومخنتو وي سيزوي (أمكا) هي الجناح العسكري لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. واستطرد برام فيشر يقول:

- لقد بذل قادة (أمكا) وقادة الحزب قصارى جهدهم للفصل بين المنظمتين فصلا كاملا، وإن لم ينجحوا في ذلك في جميع الأحوال.

كما رفض بشدة الإدعاء بأن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي كان يتلقى أوامر أو توجيهات من الحزب الشيوعي، وقال إن الدفاع سيدحض الإدعاء بأن غولدبيرغ وكاثرادا وبيرنستاين ومهلابا كانوا أعضاء في (أمكا). كما قال إن الدفاع سوف يقدم الدليل على أن (أمكا) لم تتبن في الحقيقة عملية مايبوي وأنها لم تشرع في تنظيم حرب عصابات.

وهنا قاطعه القاضي دي فيت متسائلا في استغراب:

- هل حقا سينكر الدفاع ذلك؟

- أجل، سننكر ذلك وسنقدم الدليل على أنه في الوقت الذي بدأت الإستعدادات لحرب عصابات لم يتبن التنظيم أي خطة لذلك، وكان الأمل دائما في إمكانية تفادي تلك الخطوة بالكامل.

ثم استطرد برام يقول في صوت منخفض:

- وستبدأ مرافعة الدفاع، يا سيدي القاضي، بمذكرة من قفص الاتهام يقدمها المتهم رقم واحد الذي شارك شخصيا في تأسيس حركة (أمكا) وسيشرح أمام المحكمة تفاصيل نشأة تلك المنظمة.

ارتعد يوتار واقفا وصاح يقول:

- سيدي القاضي! سيدي القاضي!

لقد استاء لكوني لن أدلي بأقوال أمام المحكمة لأنه بلا شك أعد نفسه إعدادا جيدا لاستجوابي . قال يوتار وقد أعوزته الحيلة :

– يا سيدي القاضي . إن مذكرة القفص ليس لها الوزن نفسه الذي تحمله أقوال متهم أدى يمينا أمام المحكمة.

رد عليه القاضي دي فيت بفتور قائلا :

– أظن يا دكتور يوتار أن محامي الدفاع له من الخبرة ما يكفي لأن يشير على موكليه بما يراه مناسبا بدون مساعدة منك.

عاد يوتار الى مقعده خائبا ورد برام قائلا :

– لسنا – نحن وموكلونا – في غفلة عن أحكام قانون الجنايات . أقدم لكم نلسون مانديلا.

وقفت وأدرت بوجهي نحو قاعة المحكمة وبدأت في قراءة المذكرة ببطء.

أنا المتهم الأول.

أحمل شهادة الليسانس في الآداب وعملت محاميا في جوهانسبيرغ لعدة سنوات مع شريك آخر هو السيد أوليفر تامبو . أنا حاليا سجين مدان أقضي حكما بالسجن لمدة خمس سنوات لمغادرة البلاد بدون إذن ولتحريض الشعب على الاضراب في أواخر مايو ١٩٦١ .

وأود أن أقر فورا بانني أحد الذين ساهموا في تشكيل حركة أومخونتو وي سيزوى (أمكا) وقمت بدور بارز في أعمالها حتى اعتقالي في أغسطس ١٩٦٢ .

أود في البداية أن أقول إن ما جاء في ادعاءات الدولة من أن النضال في جنوب أفريقيا قائم بفعل مؤثرات أجنبية أو شيوعية لا أساس له من الصحة . لقد قمت بما قمت به كفرد وكقائد لأبناء شعبي نتيجة لما عشته في جنوب أفريقيا، وبسبب أصولي الأفريقية التي أعتز بها وليس بسبب ما قاله أي إنسان من خارج جنوب أفريقيا.

كنت في صباي وشبابي في ترانسكاي أستمع الى أحاديث حكماء قبيلتي عن ماضي قومنا المجيد. سمعنا قصصا عن الحروب التي خاضها أسلافنا دفاعا عن وطنهم وأرضهم . سمعنا عن بطولات دينغاني وبامباثا وهينتسا وماكّانا وسقوانغتي ودالاسيلى وموشيويشو وسيخوخوني التي كانت محط فخر الأمة الأفريقية قاطبة واعتزازها . لقد بعث ذلك فيّ الأمل بأن الحياة ستوفر لي فرصة كي أخدم قومي وأساهم مساهمة متواضعة في نضالهم من أجل الحرية . كان ذلك هو الدافع الأساسي في كل ما قمت به فيما يتعلق بالتهم الموجهة ضدي في هذه القضية.

بعد هذه المقدمة لا بد أن اتجه فورا للحديث بإسهاب عن موضوع العنف . إن بعض ما استمعت له هذه المحكمة حتى الآن صحيح وبعضه الآخر باطل . فلا أنكر أنني خططت لأعمال تخريب، ولكنني لم أخطط لها بروح التهور أو لأنني أعشق العنف، بل خططت لتلك الأعمال بعد روية ودراسة متأنية للوضع السياسي القائم بعد سنوات طويلة من الطغيان والاستغلال والظلم الذي ألحقه الرجل الأبيض بأبناء قومي.

تعمدت أن أبين للمحكمة أننا لم نلجأ للعنف من منطلق اللامسؤولية أو بدون تفكير فيما يترتب على استعمال وسائل العنف . كما أكدت خصوصا على عزمنا على ألا تؤدي أعمالنا الى إزهاق الأرواح.

لقد دأبنا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على المناداة بالديمقراطية اللاعنصرية وابتعدنا عن كل عمل من شأنه أن يوسع الهوة بين الأعراق أكثر مما هي عليه . ولكن الحقيقة المرة هي أن خمسين سنة من العمل السلمي لم تجلب على الأفريقيين شيئا سوى المزيد من التشريعات القمعية والمزيد من الحرمان من حقوقهم . ربما كان عسيرا على هذه المحكمة أن تفهم أن الجماهير ظلت تحدث نفسها بالعنف لسنوات طويلة، وتتطلع الى اليوم الذي ستحارب فيه الرجل الأبيض لتستعيد أرضها، وإننا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي دأبنا على إقناع الجماهير بتفادي العنف وباستعمال الوسائل السلمية . وعندما تدارسنا هذا الأمر في مايو ويونيو من عام ١٩٦١ لا ننكر أن سياستنا لتحقيق مجتمع لاعنصري بالوسائل السلمية لم تحقق شيئا، وأن أتباعنا بدأوا يفقدون الثقة في ذلك المنهج وأخذت تراودهم أفكار إرهابية تبعث على القلق.

تكونت حركة أومخونتو في نوفمبر ١٩٦١ . وعندما اتخذنا ذلك القرار ثم أعددنا له الخطط كانت تركة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من العمل السلمي والانسجام العنصري نصب أعيننا . لقد أحسسنا بأن البلاد تسير نحو حرب أهلية يتقاتل فيها البيض والسود. لقد فزعنا للوضع القائم آنذاك، إذ إن الحرب الأهلية تعني تدمير كل ما كان الحزب يسعى الى بنائه، وسوف يكون في ظلها تحقيق الوئام والسلم بين الأجناس والأعراق أصعب من أي وقت مضى . كانت آثار الحروب الماضية لا تزال قائمة أمامنا، وقد استغرق تضميد جروح حرب جنوب أفريقيا (بين البوير والإنجليز) أكثر من خمسين عاما. فكم من السنين يا ترى تحتاج آثار حرب أهلية بين المجموعات العرقية كي تختفي؟ تلك الحرب التي لا يمكن خوضها دون خسائر كبيرة في الأرواح من الجانبين.

وقلت إن العنف حمل لنا الأمل الوحيد في وئام عنصري في البلاد، وإن رد الحكام البيض على جهودنا الأولى كان قاسيا وسريعا فأعلنوا أن العنف جريمة يعاقب عليه بالموت. وقلت إننا لم نكن نرغب في حرب أهلية ولكننا كنا في حاجة الى الاستعداد لها.

أكدت لنا التجربة أن التمرد سيعطي الحكومة فرصا لا حصر لها للانتقام العشوائي من أبناء قومنا. إن ارتواء تراب جنوب أفريقيا بدماء الأبرياء من الأفريقيين هو الذي أقنعنا بأن من واجبنا الإعداد لاستعمال القوة في المدى البعيد لحماية أنفسنا ضد القوة . فإذا كان ولا بد من الحرب فإننا نود أن نخوضها بشروط تعود بأفضل النتائج على أبناء قومنا . وكان الخيار الوحيد الذي يضمن لنا أفضل النتائج بأقل خسارة في الأرواح من الجانبين هو حرب العصابات . ولذا فقد قررنا ضمن خططنا المستقبلية أن نستعد لمواجهة احتمالات قيام حرب عصابات.

كل البيض يتلقون التدريب العسكري ولكن الأفريقيين محرومون منه . لقد كان من الضروري في نظرنا إعداد نواة من رجال مدربين يشكلون طليعة قيادية في حالة نشوب حرب عصابات . لقد كان لزاما علينا الإعداد لأوضاع من هذا القبيل قبل فوات الأوان وتعذر القيام بتلك الاستعدادات اللازمة.

وأخبرت المحكمة أنني في تلك الفترة غادرت البلاد للمشاركة في مؤتمر الحركة القومية لتحرير أفريقيا الشرقية والوسطى والجنوبية Pan-African Freedom Movement for East Central and Southern Africa (PAFMECSA) ولتلقي تدريبات عسكرية. وقلت إن الهدف من التدريب العسكري هو التحسب لقيام حرب عصابات لأنني كنت عازما على القتال الى جانب أبناء قومي رغم إيماني في ذلك الوقت بأن عمليات التخريب لم تستنفذ أغراضها وينبغى أن تتواصل.

وأوضحت للمحكمة الخط الفاصل بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة (أمكا)، ومحاولتنا الجادة في الفصل بينهما. تلك كانت خطتنا ولكن الواقع لم يكن بتلك السهولة إذ نظرا للحظر على النشاط السياسي والسجن الذي فرضته الحكومة على كثير من الأعضاء اضطر هؤلاء الى العمل في التنظيمين في آن واحد. أدى ذلك الى صعوبة التمييز بين التنظمين أحيانا لكنه لم يلغ الفرق بينهما إلغاء كاملا. لقد فندت ادعاءات الدولة بأن أهداف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وغاياته هي نفسها أهداف الحزب الشيوعي وغاياته.

لقد ظلت أيديولوجية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي دائما هي القومية الأفريقية كما عبر عنها شعار: "فلنلق بالرجل الأبيض في البحر". والقومية الأفريقية التي يؤمن بها الحزب تعني حرية الشعب الأفريقي وعيشه على أرضه، وأهم وثيقة أصدرها الحزب هي ميثاق الحرية الذي لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال مخططا لإقامة دولة اشتراكية... فلم يدعُ الحزب في أي وقت من الأوقات إلى ثورة في النظام الاقتصادي في البلاد ولم يشجب - حسب علمي - المجتمع الرأسمالي...

فالحزب - خلافا للحزب الشيوعي - فتح عضويته للأفريقيين فقط. هدفه الأول والوحيد أن يحقق الأفريقيون الوحدة والحقوق السياسية الكاملة. أما هدف الحزب الشيوعي فهو إزاحة الرأسماليين واستبدالهم بحكومة من الطبقة العاملة. كما يؤكد الحزب الشيوعي على الفوارق الطبقية بينما يسعى حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الى التوفيق فيما بينها.

لا ننكر وجود تعاون وثيق أحيانا بين حزبنا والحزب الشيوعي ولكن ذلك لا يعني أكثر من توافق في الهدف، وهو في هذه الحالة إنهاء سيطرة البيض، ولا يعني بالضرورة تطابقا في المصالح. وفي التاريخ البشري أمثلة كثيرة من هذا التوافق لعل أبرزها التعاون بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي في حربهم ضد هتلر. لم يجرؤ أحد حتى هتلر نفسه على القول بأن ذلك التعاون أحال تشيرشل أو روزفيلت شيوعيا أو أداة في يد الشيوعية، أو أن بريطانيا وأمريكا تعملان من أجل تحقيق عالم تحكمه الشيوعية.

لعله من الصعب على البيض في جنوب أفريقيا بما لديهم من تعصب دفين ضد الشيوعية أن يتفهموا أسباب قبول المتمرسين من السياسيين الأفريقيين للشيوعيين كحلفاء. أما بالنسبة لنا فالسبب واضح. إن الاختلافات النظرية القائمة بين المناضلين الذين يحاربون الظلم والطغيان ترف لا طاقة لنا به في هذه المرحلة. كما أن الشيوعيين - علاوة على ذلك - ظلوا لعشرات السنين الجماعة السياسية الوحيدة في جنوب أفريقيا المستعدة لمعاملة الأفريقيين كبشر متساويين معهم. رضوا بأن يأكلوا معنا وأن يتحدثوا إلينا وأن يعيشوا ويعملوا بيننا. لهذه الأسباب يساوي كثير من الأفريقيين اليوم بين الحرية والشيوعية.

قلت للمحكمة إنني لست شيوعيا وإنني أعتبر نفسي دائما وطنيا أفريقيا . لم أنكر أن فكرة المجتمع الخالي من الطبقات قد استهوتني، أو أنني تأثرت بالفكر الماركسي، وكان ذلك ديدن كثير من زعماء الدول الأفريقية حديثة الاستقلال الذين قبلوا بنوع من الاشتراكية كي تلحق شعوبهم بالدول المتقدمة في الغرب.

> تعلمت من خلال قراءاتي في الفكر الماركسي وأحاديثي مع الماركسيين أن الشيوعيين يعتبرون النظام البرلماني الغربي نظاما رجعيا خاليا من الروح الديمقراطية . أما أنا فعلى العكس من ذلك من المعجبين بذلك النظام.
>
> فالميثاق الأعظم Magna Charta وعريضة الحقوق Petition of Rights وقانون الحقوق Bill of Rights كلها وثائق يبجلها أنصار الديمقراطية في العالم كله . إنني أكن أعظم الاحترام للمؤسسات السياسية البريطانية ولنظام العدالة في بريطانيا، وأعتبر البرلمان البريطاني أعظم مؤسسة ديمقراطية في العالم . كما أن إعجابي باستقلال القضاء في بريطانيا وحياده يزداد يوما بعد يوم . وأنني أحمل المشاعر نفسها تجاه الكونغرس الأمريكي والنظام الأمريكي للفصل بين السلطات واستقلال القضاء.

تحدثت بالتفصيل عن الفروق الهائلة بين حياة السود والبيض في جنوب أفريقيا . فبينما يعيش السود على أقل من مستوى الكفاف في التعليم والصحة والدخل وغيرها من مجالات الحياة نجد البيض يعيشون على أعلى المستويات في العالم ويسعون الى ترسيخ ذلك الوضع . قلت إن البيض غالبا ما يدعون أن الأفريقيين في جنوب أفريقيا أحسن حالا من الأفريقيين في بقية دول القارة، ولكنني قلت إن مشكلتنا ليست أننا فقراء مقارنة ببقية شعوب أفريقيا بل هي أننا فقراء مقارنة بالبيض في بلادنا وأن التشريعات القائمة تحول بيننا وبين تصحيح هذا الإختلال في التوازن.

> إن ما يشعر به الأفريقيون من تغييب لكرامتهم هو نتيجة مباشرة لسياسة سيادة البيض. فسيادة البيض تعني تدنّي السود، والتشريعات الصادرة للمحافظة على سيادة البيض تعزز من هذه الفكرة. فالأعمال اليدوية في جنوب أفريقيا بلا استثناء يقوم بها الأفريقيون. فكلما أراد الرجل الأبيض نقل شيء ما أو تنظيفه نظر حوله بحثا عن رجل أفريقي يقوم بالعمل نيابة عنه بغض النظر عما إذا كان ذلك الأفريقي يعمل له أم لغيره. . .
>
> إن الأفريقيين يطالبون بنصيبهم العادل في جنوب أفريقيا كلها . إنهم يطالبون بالأمن والحماية وبحقوقهم في المجتمع . كما يطالبون قبل كل شيء بحقوقهم السياسية التي بدونها يصبح عجزنا عجزا مزمنا . إنني أعلم أن هذا الكلام يعني الثورة من وجهة نظر البيض لأن السود سيمثلون غالبية الناخبين، وهذا ما يجعل الرجل الأبيض يخشى الديمقراطية...
>
> هذه إذن هي الأهداف التي يناضل من أجلها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . ونضال الحزب نضال وطني قومي بمعنى الكلمة، وهو نضال من أجل الشعب الأفريقي وينطلق من معاناته وتجربته . إنه نضال من أجل حق الحياة.

كنت حتى تلك اللحظة أقرأ من الورق فوضعت أوراقي على منضدة محامي الدفاع ورفعت بصري الى القاضي فخيم على قاعة المحكمة هدوء كامل . لم تغادر عيناي وجه القاضي دي فيت وأنا أرتجل هذه الكلمات التي ختمت بها خطابي:

لقد جردت نفسي طول حياتي للنضال من أجل الشعب الأفريقي . لقد كافحت ضد هيمنة البيض كما كافحت ضد هيمنة السود . لقد عشت تواقا الى مجتمع ديمقراطي حر، يعيش فيه الجميع في وئام ومساواة . إنه هدف أرجو أن أعيش له وأن أحققه . وهو الهدف الذي سأموت من أجله إن لم يكن من ذلك بد.

عم القاعة صمت تام . جلست دون أن ألتفت الى الجمهور وكنت أشعر بأن الأنظار كلها مسلطة عليّ. بدا لي أن الصمت تواصل عدة دقائق، ولكنه في الحقيقة لم يستمر سوى نحو ثلاثين ثانية انطلقت بعدها من الجمهور تنهيدة جماعية عميقة ارتفع بعدها عويل النساء.

استغرق إلقاء المذكرة أكثر من أربع ساعات وحتى الرابعة عصرا وهو الموعد المعتاد لرفع الجلسة. ولكن بمجرد أن عاد الهدوء الى القاعة طلب القاضي دو فيت دعوة الشاهد الثاني وذلك للتخفيف من وقع أثار كلمتي على الحاضرين، ولم يكن ليسمح بأن تكون الكلمة الوحيد والأخيرة التي تلقى في المحكمة ذلك اليوم . ولكن جهوده أخفقت في ذلك، وعندما ختمت كلمتي وجلست كانت تلك المرة الأخيرة التي وجه فيها القاضي عينيه نحوي .

حظيت الكلمة باهتمام واسع في الصحافة المحلية والأجنبية ونشرت حرفيا تقريبا في صحيفة راند ديللي مايل Rand Daily Mail وذلك رغم أن نقل كلامي كان محظورا بأمر القانون . حددت المذكرة خط الدفاع الذي اخترناه وسلبت الإدعاء من جميع أسلحته لأنه أعد مرافعته على أساس أنني سأدلي بأقوالي كشاهد وسأنفي مسؤوليتي عن أعمال التخريب . أما الآن فقد اتضح أننا لن نحاول الإعتماد على أحكام القانون لتفادي المسؤولية عن أعمال ارتكبناها بكل فخر ومع سبق الإصرار والتعمد.

الشاهد الثاني هو وولتر سيسولو، وقضى قدره بأن يتحمل الاستجواب العنيف الذي أعده محامي الادعاء يوتار ليواجهني به. تعرض وولتر لوابل من الأسئلة العدوانية الاستفزازية ولكنه ارتفع عن مكائد يوتار الوضيعة وتمكن من عرض سياستنا ببساطة ووضوح . فأكد على أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لم يتبن عملية مايبوى وسياسة حرب العصابات، وأخبر المحكمة أنه هو شخصيا عارض مصادقة الحزب عليها بناء على أنها كانت سياسة سابقة لأوانها.

ثم جاء دور غوفان فشرح بكل اعتزاز سجل عضويته الحافل للحزب الشيوعي . سأله محامي الادعاء لماذا لم يعترف بأنه مذنب في التهم الأربع الموجهة إليه طالما أنه أقر بالمشاركة في كثير من النشاطات المتعلقة بتلك التهم؟ فأجاب بما يلي:

– أولا أحسست بأنه عليّ أن أقف هنا وأقسم اليمين وأشرح الأسباب التي دفعتني الى الإنضمام لهذه التنظيمات . هناك جانب أخلاقي لهذا الأمر . وثانيا فإن اعترافي بالذنب يعني بكل بساطة اعترافي بذنب أخلاقي بينما لا أرى من الناحية الأخلاقية أن هناك شعورا بالذنب في ما أدليت به من أقوال.

كما أقر أحمد كاثرادا وراستي بيرنستاين بعضويتهما في الحزب الشيوعي وفي حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . ورغم أن راستي اعتقل في مزرعة ريفونيا لم تكن لدى الدولة

مستمسكات ضده سوى أنه شارك في تركيب هوائية للبث الإذاعي في المزرعة. أما أحمد كاثرادا فقد نفى في أقواله البارعة ارتكب أي أعمال تخريب أو تحريض آخرين على ارتكابها وقال إنه يدعم تلك الأعمال إن كانت تدفع بالنضال الى الأمام.

اندهشنا جميعا - كما ذكرت من قبل - لاعتقال المتهم رقم ثمانية، جايمس كانتور، ومحاكمته معنا. فهو صهر وشريك المحامي هارولد ولب الذي قدم مكتبهما للمحاماة خدمات قانونية كثيرة لنا ولكن لم يكن له أي دور في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أو حركة (امكا). ومن ثم فلم تكن هناك أي أدلة ضده، واستنتاجي الوحيد هو أن الدولة كانت باتهامه وسجنه تهدف الى استفزاز المحامين التقدميين.

كان جايمس متأنقا في لباسه وكان يرتدي ربطة عنق حريرية فاخرة بينما كنت أرتدي ربطة عريضة من الطراز القديم، فقلت لجايمس:

- ما رأيك في أن نتبادل ربطات العنق؟

وفي جلسة النطق بالحكم ظهر جايمس بالربطة التي أهديته إياها، وعندما أعلن القاضي براءته رفع الربطة بيده يلوح بها تحية ووداعا.

رايموند مهلابا من أبرز الشخصيات القيادية في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة (أمكا) في منطقة الكيب الشرقية، ولكنه أنكر أنه كان عضوا في (أمكا) أو أنه على علم بأي نشاط تخريبي لأن الدولة لم تكن لديها أدلة كافية ضده. كما اتفقنا على ألا يدلي المتهم رقم تسعة إلياس موتسوليدي والمتهم رقم عشرة أندرو املانغيني بأقوال لأنهما كانا عضوين عاديين في حركة (أمكا) ولن يضيف أي منهما شيئا جديدا لما قاله الآخرون. لقد صمد إلياس موتسوليدي رغم تعرضه للضرب والتعذيب داخل السجن. أما أندرو املانغيني فقد أقر بدون قَسَم أنه قام بتوصيل رسائل وتعليمات نيابة عن حركة (أمكا) وأنه انتحل شخصية قسيس لتأدية تلك المهمة. كما أخبر المحكمة بأنه هو الآخر تعرض للاعتداء والصعق الكهربائي داخل السجن. كان آندرو آخر شاهد في القضية، واكتفى الدفاع بما قدم من بيانات فلم يبق بعدها سوى المرافعات الختامية والنطق بالحكم.

في يوم ٢٠ مايو سلم محامي الإدعاء يوتار عددا من النسخ المجلدة من كلمته الختامية للصحافة ونسخة منها لمحامي الدفاع. ورغم أناقة التجليد كانت الكلمة عبارة عن مختصر مشوش لما قاله الادعاء في المرافعة ليس فيه توضيح كاف للتهم ولا تقييم مفيد للأدلة. وكانت مليئة بالسباب والشتائم العاطفية الانفعالية. وجاء فيها قوله:

- إن أسلوب الخداع الذي انتهجه المتهمون كان مذهلا. إذ رغم أنهم يمثلون أقل من واحد في المائة من سكان البانتو إلا أنهم أخذوا على عاتقهم إخبار العالم بأسره أن الأفريقيين في جنوب أفريقيا يواجهون القمع والظلم والضعف.

بل لقد ظهرت الحيرة على وجه القاضي دو فيت نفسه فقاطعه مرة قائلا:

- الا تعترف يا سيد يوتار بأنك أخفقت في تقديم الأدلة على أن الحزب اتخذ قرارا بشأن حرب العصابات، أليس كذلك؟

أسقط في يدي يوتار لأنه كان يعتقد أن العكس تماما هو الصحيح. كما أصابتنا نحن كذلك الدهشة وبعث سؤال القاضي في نفوسنا الأمل. حاول يوتار أن يقنع المحكمة في تعثر أن الحزب اتخذ استعدادات للقيام بحرب عصابات، فرد عليه دو فيت في ضجر قائلا:

- أجل، أعرف ذلك، وهذا هو ما أقر به الدفاع نفسه، ولكن المتهمين يقولون إنهم قبل اعتقالهم لم يتخذوا قرارا للشروع في حرب عصابات. فهل أفهم من كلامك أنك لا تملك دليلا ينقض ذلك القول وأنك تقبل به؟

رد يوتار في صوت مختنق:

- الرأي رايك يا حضرة القاضي.

خلص يوتار الى القول بأن القضية ليست قضية خيانة عظمى من الطراز الأول ولكنها قضية قتل ومحاولة قتل، وهما تهمتان لم ترد أي منهما في لائحة الاتهام. وأعلن في إحدى ثوراته الهادرة قوله:

- إنني لأتجرأ على القول بثبوت كل صغيرة وكبيرة من الادعاءات التي تتضمنها لائحة الاتهام.

كان يعلم وهو ينطق بتلك الكلمات أنها باطلة لا تمت الى الحقيقة بصلة.

أول من تحدث من فريق الدفاع آرثر شاسكالسون فرد على بعض الجوانب القانونية التي أثارها الإدعاء. فرفض ما قاله يوتار ونفى أن للقضية أي علاقة بالقتل مذكرا المحكمة بأن سياسة (أمكا) الواضحة كانت تفادي إزهاق الأرواح. وعندما أشار آرثر الى أعمال تخريب نفذتها منظمات أخرى وحُمل المتهمون مسؤوليتها قاطعه القاضي دو فيت ليقول إنه قبل بذلك كحقيقة ثابتة، وكان ذلك أيضا نصرا غير متوقع.

ثم تحدث برام فيشر وكان متحفزا للرد على أخطر اتهامين في إدعاء الدولة وهما أننا شرعنا في تنظيم حرب عصابات وأن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة (أمكا) كانا تنظيما واحدا. ورغم أن القاضي عبر عن إيمانه بأن حرب العصابات لم تبدأ فعلا كان ولا بد من الإحتراز. ولكن ما أن بدأ فيشر يتحدث حتى تدخل القاضي بغضب قائلا:

- ظننت أنني أوضحت موقفي تجاه هذا الأمر. أنا أقبل أنه لم يتخذ أي قرار ولم يحدد موعد لقيام حرب عصابات.

انتقل برام فيشر للحديث في النقطة الثانية فقاطعه القاضي مرة أخرى ليقول إنه قبل أيضا بحقيقة أن المنظمتين كانتا منفصلتين. لم يكن برام مستعدا لذلك الموقف من القاضي، فجلس لأن القاضي قبل بدفوعاته قبل أن ينطق بها. علت وجوهنا الفرحة رغم أننا كنا نواجه عقوبة الإعدام، ورفعت الجلسة لمدة ثلاثة أسابيع ليقرر فيها القاضي حكمه في القضية.

- ٥٧ -

كان العالم كله يتـابع أحداث محاكمة ريفـونيا، وأقيمت من أجلنا في كاثيـدرائية سانت ـل في لندن صلوات طول الليل، وانتخبني طلاب جامعة لندن غـيابيا رئيسا لاتحاد الطلبة. وفي الأمم المتحدة نادت مجموعة من الخبـراء بعقد مؤتمر وطني في جنوب أفريقيا ينبثق عنه بر'ن يمثل الشـعب هناك تمثيـلا حقيـقيـا وطالـبت بعفـو عام عن جـميع المناهضين للـتفـرقة العـصـرية. كما أصدر مجلس الأمن الدولي قبل يومين من نطق القاضي دو فيت بالأحكام قـرارا امتنع عن التـصـويت عليه أربعـة أعضـاء منهم بريطانيـا والولايات المتـحدة، ويدعـو حكومة جنوب أفريقيا الى إنهاء المحاكمة والعفو عن المتهمين.

أعددت خـلال الأيام التي سبـقت موعد اسـتئناف جلسـات المحكمة مجـموعـة أبحاث ضمن امتحانات جامعـة لندن لشهادة الليسانس في الحقوق. ربما بدا من الغـريب أن أؤدي امتـحانات أياما قبل مـوعد النطق بالحكم، وقد بدا ذلك غـريبا فعلا لحـراس السجن الذين طالما ذكروني بأنني لن أحتاج لشهادة في القانون حيث أنا ذاهب، ولكنني واصلت الدراسة طول فترة المحاكمة وكانت لدي رغبة في دخول الامتحانات. كنت مصرا على ذلك وفطنت فيما بعد الـى أن ذلك كان سبيلي للحيلولة دون الاستسلام للتـشاؤم والسلبية. كنـت أدرك أنني لن أمـارس العمل القـانوني في القريب ولكنني لـم أكن مستـعدا للتـفكير في البـديل. اجتزت الامتحانات بنجاح.

اجتمعنا من جديد في قصر العدالة يوم الخميس ١١ يونيو وكنا على يقين بأن الإدانة هي الحكم الوحيد بالنسبة لستة منا على الأقل. السؤال الوحيد كان عن العقوبة، ما هي؟

دخل القـاضي دو فـيت في صلب الموضـوع مـباشـرة، وكـان يتكلم بصـوت منخـفض وبنبرات سريعة:

- لقد سجلت أسباب الأحكام التي انتهيت إليها ولا أنوي قراءتها في المحكمة. المتـهم رقم واحــد: مذنب في جـميع التـهم الأربعة. المتـهـم رقم اثنان: مذنب فـي جميع الـتهم الأربعة. المتهم رقم ثلاثة: مذنب في جميع التهم الأربعة.....

أدين كـاثرادا في تهمـة واحـدة فقط ولم تثبت التـهم على راستي بيـرنسـتاين فـأخلت المحكمة سبيله. واستطرد دو فيت يقول:

- لا أعتزم أن أبت في العقوبة في هذه الجلسة، والمجال مفتوح للدولة وللدفاع لرفع ما يريدون من تقارير للمحكمة في الساعة العاشرة من صباح غد.

رفعت الجلسة.

كنا نأمل أن يحصل كاثرادا ومـهلابا على حكم بالبراءة، ولكن إدانتهـما دليل آخر - إن كانت هنـاك حاجة الى دليل - علـى أن الدولة عاقدة العـزم على اتخاذ مـوقف متـشدد في

القضية . والسؤال هو: طالما أدان القاضي مهلابا في التهم الأربعة رغم ضعف الأدلة المقدمة ضده فما الذي يمنعه من إصدار أحكام بالإعدام بحق من كانت الأدلة ضدهم دامغة لا مجال لنكرانها؟

جلسنا ليلتنا تلك نقلب الأمر، وقررت أنا وولتر وغوفان بألا نستأنف الدعوى مهما كانت العقوبة. صعق المحامون من ذلك الموقف، ولكننا كنا مؤمنين بأن الاستئناف سيضعف من موقفنا الأخلاقي المبدئي الذي اتخذناه في هذه القضية . فقد أصررنا منذ البداية على اعتزازنا بما قمنا به من أعمال، وعلى أننا قمنا بها من منطلقات مبدأية أخلاقية، ولذا فلن نناقض ذلك القول بالاستئناف ضد الحكم. عقوبة الإعدام ستفجر رد فعل جماهيريا عارما لم نكن نرغب في إجهاضه، والاستئناف بعد ذلك الموقف المتحدي الشجاع الذي اتخذناه في المحكمة سوف يكون صدمة بل وخيبة أمل كبرى للجماهير . فالرسالة التي نريد توصيلها الى الناس هي أن كل شيء يهون في سبيل نضالنا من أجل الحرية.

لم يكن فريق الدفاع راضيا على قرارنا ذاك وكان رأيهم أن ندرس الأمر جيدا، إلا انني وولتر وغوفان كنا نود مناقشة الكيفية التي سيتم بها النطق بالحكم في صباح اليوم التالي. ماذا يمكننا أن نفعل لو صدر حكم بالإعدام؟ رد المحامي بأن القاضي بعد النطق بالحكم سوف يسألني بحكم أنني المتهم رقم واحد السؤال التالي:

– هل لديك أي سبب تقدمه لعدم صدور حكم الإعدام في حقك؟

قلت لفريق الدفاع سيكون في تلك الحالة لدي كثير أقوله ردا على ذلك السؤال. سأقول إنني على استعداد لمواجهة الموت لأنني واثق من أن موتي سيدفع بالنضال الذي وهبت له حياتي . وسأقول إن أرواحنا لن تذهب سدى، وربما خدمنا النضال ونحن شهداء بأفضل مما خدمناه أحياء . رد المحامون بأن كلاما من هذا القبيل سيجعل الاستئناف أمرا صعبا فأكدت على أننا لن نطلب الاستئناف.

أما إذا لم يكن الحكم بالإعدام فهناك مبررات عملية لعدم الاستئناف، أولها احتمال أن نخسر القضية، وأن تقضي محكمة الاستئناف بأن دو فيت كان متساهلا وأننا نستحق عقوبة الإعدام . فالاستئناف في هذه الحالة سيجهض الضغوط العالمية القائمة من أجل إطلاق سراحنا.

عقوبة الإعدام هي إذن الاحتمال الأقرب من وجهة نظر الدولة . فقد سمعنا ما قاله جون فورستر وزير العدل لبعض أصدقائه من أن أكبر خطأ ارتكبه رئيس الوزراء سماتس أثناء الحرب العالمية الثانية هو أنه لم يأمر بإعدامه بجريمة الخيانة . ثم قال إن الحزب الوطني لن يرتكب خطأ كهذا أبدا.

كنت على استعداد لتقبل عقوبة الإعدام . ولكي يكون الإنسان مستعدا لأمر ما فعليه أن يتوقع حدوثه، فلا يمكن أن يكون المرء مستعدا لشيء لا يعتقد بأنه سيحدث فعلا . كنا جميعا مستعدين لا لأننا كنا شجعانا ولكن لأننا كنا واقعيين . تذكرت ما قاله شكسبير: "تقبل الموت برضى كامل، ليصبح الموت عذبا كعذوبة الحياة" .

- ٥٨ -

مر زهاء سنة كاملة على اعتقالات ريفونيا المشؤومة. دخلنا قاعة المحكمة للمرة الأخيرة يوم الجمعة ١٢ يونيو ١٩٦٤، تحت إجراءات أمنية مشددة فوق العادة. شق الموكب شوارع المدينة بسرعة عالية وسط عويل صفارات الإنذار، وأغلقت جميع الشوارع المؤدية الى قاعة المحكمة. كانت الشرطة تفحص الأوراق الشخصية لكل شخص يقترب من قصر العدالة وأقامت نقاط تفتيش في محطات الحافلات والسكة الحديد المجاورة. ورغم تحرشات الشرطة احتشد أمام مبنى المحكمة ما يقرب من ألفي شخص رافعين لافتات كتب عليها: "نحن مع قادتنا". وفي داخل القاعة كان مدرج المشاهدين يغص بالحضور مما اضطر رجال الصحافة المحلية والعالمية الى الوقوف.

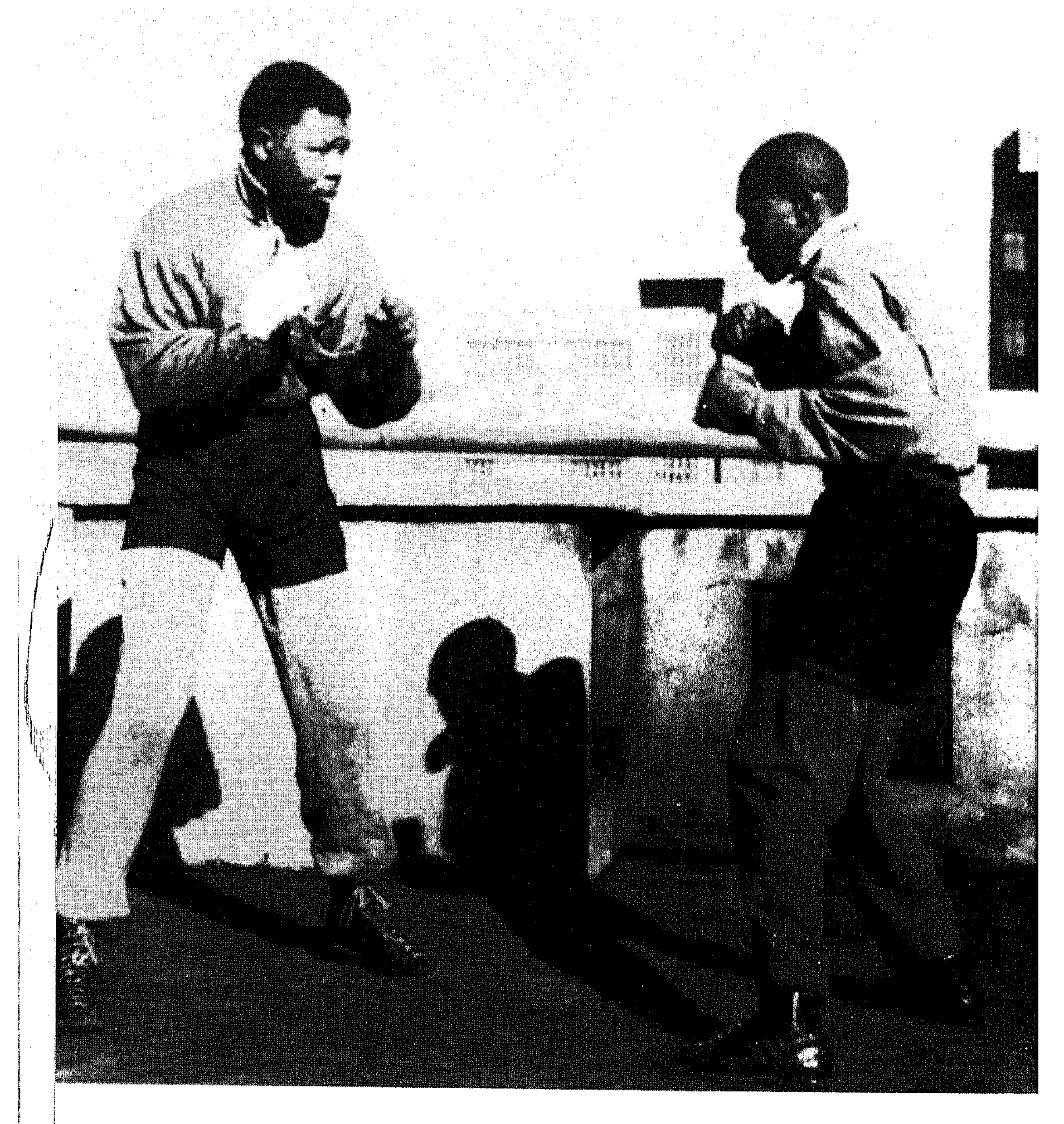
لوحت بيدي محييا ويني وأمي التي تكبدت السفر من ترانسكاي، وكان من المبهج وجودهما في القاعة. لا شك في أنه شعور غريب أن تقطع سيدة تلك المسافة الطويلة لترى إن كان سيُحكم على ابنها بالإعدام. ورغم اعتقادي بأن أمي لم تفهم كل حيثيات القضية وما يدور في الساحة آنذاك فلم تبخل علي لحظة واحدة بدعمها ومساندتها. كذلك الأمر بالنسبة لويني، فقد زادتني صلابتها قوة الى قوتي.

نادى مسجل المحكمة على القضية: "الدولة ضد نلسون مانديلا وآخرين"، وقبل النطق بالحكم استمعت المحكمة الى التماس لتخفيف العقوبة من كل من هارولد هانسون والكاتب المعروف ألن باتون Alan Paton رئيس حزب الأحرار. كان هانسون بليغا في كلمته التي قال فيها إن الأمم لا تواجه الضيم بالكبت. وقال بينما كانت الوسائل التي لجأ إليها المتهمون مخالفة للقانون لم تكن غاياتهم أو أهدافهم إجرامية. وحث القاضي نفسه على تذكر أن أبناء شعبه الأفريكان أنفسهم قد استخدموا القوة في نضالهم من أجل حريتهم.

ورغم أن باتون لم يكن من أنصار العنف فقد قال إنه لم يكن أمام المتهمين سوى خيارين اثنين: أن يحنوا رؤوسهم ويخنعوا أو يقاوموا بالقوة. وقال إنه يجب على المحكمة أن تظهر الرحمة تجاه المتهمين وإلا فإن مستقبل جنوب أفريقيا كله سيتحول الى ظلام.

لم يكن دو فيت على ما يبدو منصتا لأي من الرجلين. فلم يرفع بصره عن الورق ولم يدون شيئا فيه وكان يبدو منغمسا في تفكير عميق. لقد بت في الأمر وكان يتأهب للإفصاح عما توصل إليه من رأي.

أشار بهزة رأسه إلينا كي نقف. حاولت أن تلتقي عيناي بعينيه ولكن لم يدر بصره نحونا إطلاقا وكان يحدق في وسط القاعة. بدا وجهه شاحبا وكان يتنفس بثقل. تبادلنا النظرات وقد أيقن كل منا أن العقوبة هي الإعدام وإلا فما سبب ارتباك هذا الرجل المعروف بهدوئه. نطق القاضي فقال:



أثناء التمرين على الملاكمة مع جيري مولوي.



مع روث فيرست زوجة جو سلوفو أمام مبنى المحكمة.



لحظة النصر مع موسى كوتاني أمام المحكمة بعد سحب التهم الموجهة ضدنا. لم تدم فرحتنا بالنصر، فبعد ثلاثة أشهر فقط وجد تسعة وعشرون منا أنفسهم متهمين من جديد في عام ١٩٥٦.





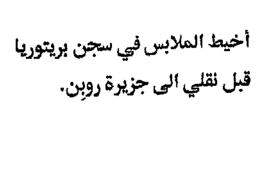
واصلت العمل السياسي في الخفاء
بعد رجوعي من جولة خارج جنوب
أفريقيا عام ١٩٦٢.



بعد المحاكمة الثانية لجأت الى العمل السري وأطلق عليّ لقب "زهرة الربيع السوداء".

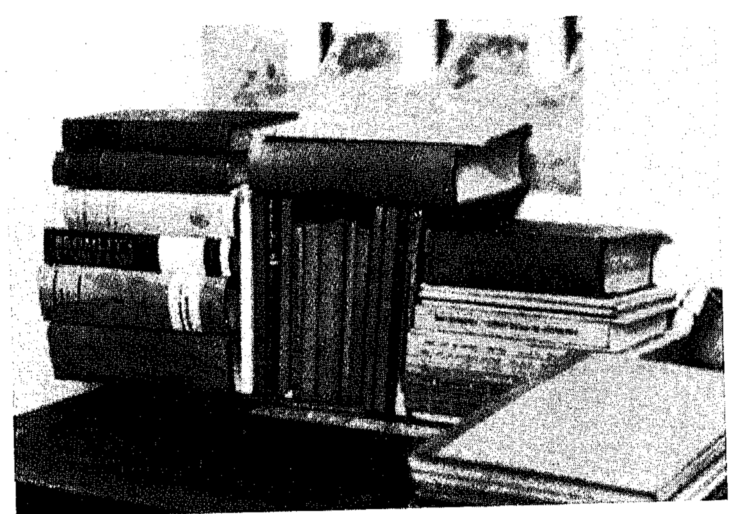


أوليفر تامبو وروبرت ريشا في مطار دار السلام بعد إعلان حظر نشاط حزب المؤتمر الوطني الأفريقي عام ١٩٦٢.





أخيط الملابس في سجن بريتوريا
قبل نقلي الى جزيرة روبن.

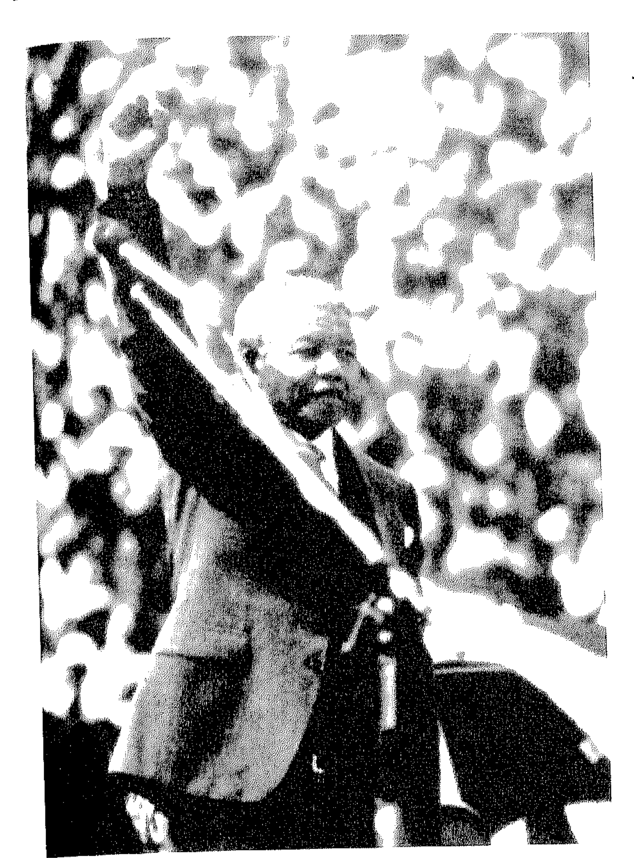


بعض كتبي التي جاورتني في الزنزانة
خلال سنواتي الطويلة في سجن جزيرة روبن.



في نقاش مع وولتر سيسولو في ساحة السجن بجزيرة روبن عام ١٩٦٦.

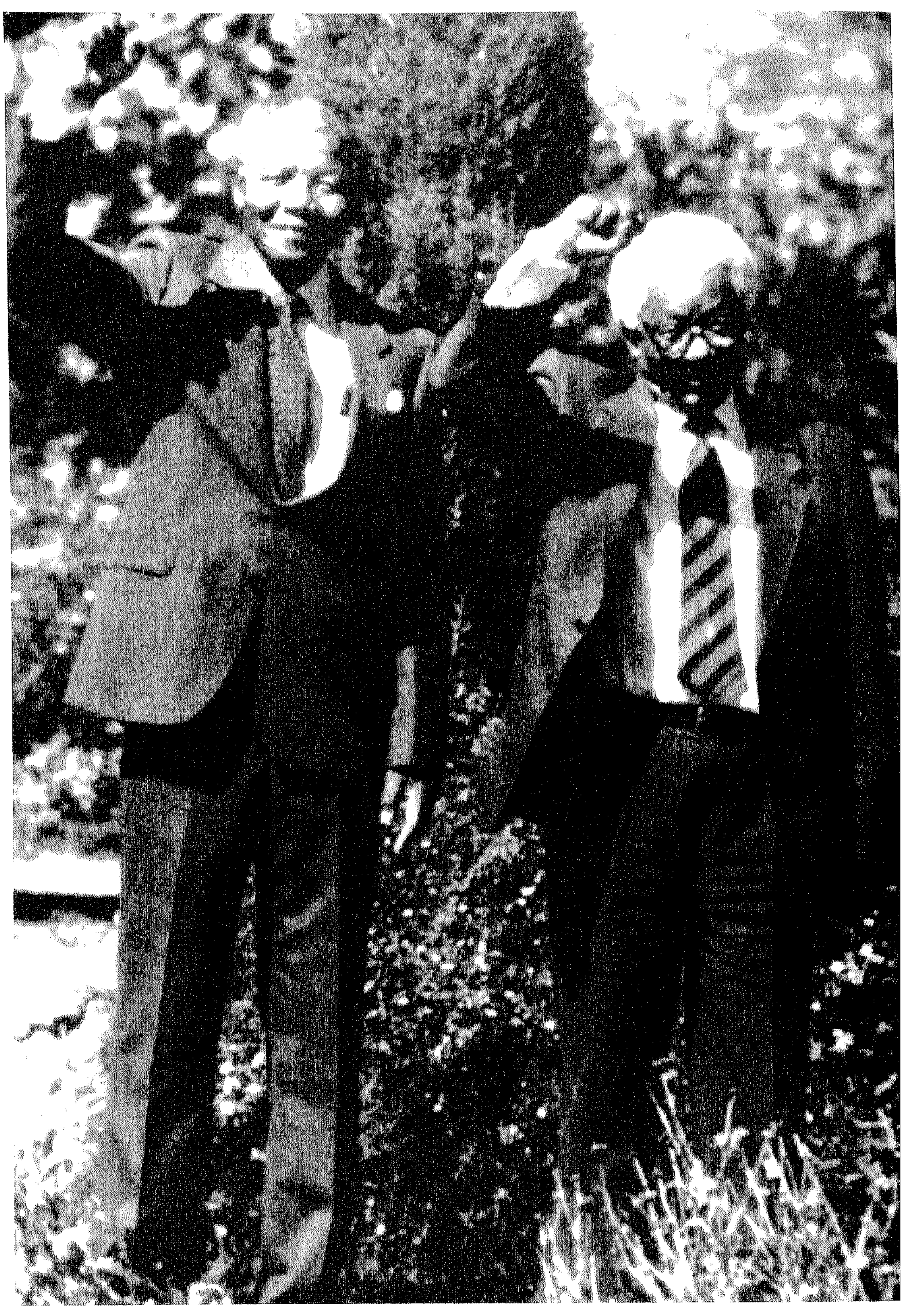
ساحة السجن في جزيرة روبن.



أخيراً، الحرية. فبراير ١٩٩٠.

في بيتي في أورلاندو.





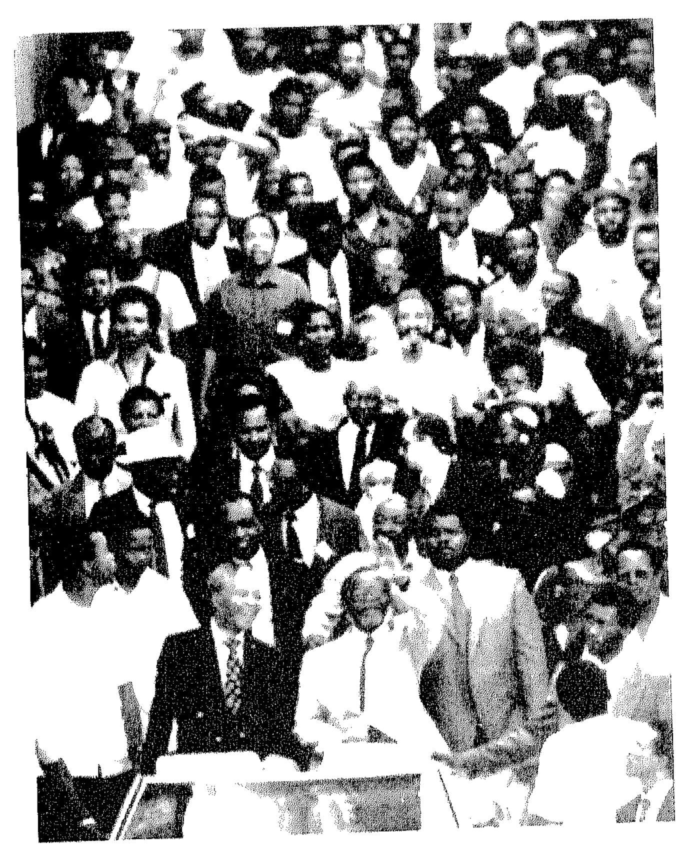
قضيت بصحبة وولتر سيسولو في جزيرة روبن ما يقرب من عشرين عاماً. وها نحن أحرار نرفع أيدينا بالتحية التقليدية في حديقة بيت الأسقف ديزموند توتو في كيب تاون ونستعد لمواصلة الكفاح خارج السجن من جديد.



عاد أوليفر تامبو الى أرض الوطن
عام ١٩٩٠ بعد ثلاثين عاما قضاها
في المنفى.



في حديث خاص مع وولتر سيسولو:
اثنان من رفاق النضال القدامى.



التجمع الشعبي الكبير الذي أقيم لاستقبال أوليفر تامبو في جوهانسبيرغ.

استمعت أثناء هذه المحاكمة الى الكثير عن مظالم السكان غير الأوروبيين . وقد أخبرني المتهمون وكلهم من زعماء السكان غير الأوروبيين - كما أخبرني محاموهم - بأن دافعهم الأساسي هو التخفيف من تلك المظالم . ولكنني لست مقتنعا اقتناعا كاملا بأن دوافع المتهمين كانت كلها - كما يدّعون - من أجل خير الآخرين . فالذين يخططون للثورة عادة ما يستولون على الحكم، ولذلك لا يمكن تجاهل الطموحات الشخصية كأحد الدوافع في هذا الصدد.

توقف دو فيت لحظة وكأنه يلتقط أنفاسه ثم واصل الحديث بصوت يكاد لا يسمع :

إن مهمة هذه المحكمة - كمهمة كل محكمة في أي بلد آخر - هي تطبيق القانون والنظام، وتطبيق قوانين الدولة التي تعمل في ظلها . إن الجرم الذي أدين به المتهمون وهو التآمر هو في جوهره خيانة عظمى، إلا أن الدولة رأت ألا تقدم لهم تلك التهمة . وعليه، وبعد دراسة الأمر دراسة وافية، رأيت ألا أفرض العقوبة القصوى وهي العقوبة المناسبة في جريمة من هذا القبيل . ولكن واجبي يحتم عليّ ألا أسمح بأي تساهل آخر في تحديد العقوبة . وعليه فالعقوبة هي السجن مدى الحياة بالنسبة لجميع المتهمين.

تبادلنا النظر مبتسمين . تنفس الحاضرون الصعداء عندما قال دو فيت إنه لن يحكم بالإعدام وأصاب بعض الحاضرين الفزع لأنهم لم يسمعوا كلمات دو فيت بوضوح، وصاحت زوجة دينيس غولدبيرغ تسأله:

- ما هو الحكم؟

أجابها بصوت عال :

- المؤبد! مدى الحياة! مدى الحياة!

التفت نحو المدرج العام وابتسمت أبحث عن ويني وأمي ولكن الوضع في القاعة كان في حالة من الفوضى شديدة وقد علا الضجيج والصراخ وراحت الشرطة تدفع الناس هنا وهناك . لم أر أثرا لويني أو أمي . رفعت يدي بتحية الحزب المعهودة بينما اندفع الجمهور الى خارج القاعة لنقل الخبر للآخرين . أخذ الحراس يأمروننا بمغادرة القاعة فنظرت نظرات أخيرة يائسة باحثا عن ويني فلم أجدها.

كنا مقيدين بالسلاسل في الحجرة الواقعة تحت قاعة المحكمة . كانت الشرطة في حالة ارتباك وتوتر شديد بسبب الحشد الكبير من الناس الذي تجمع خارج المحكمة . بقينا في تلك الحجرة لأكثر من نصف ساعة أملا في انتظار أن تتمكن الشرطة من صرف الجماهير ثم أخرجنا من باب خلفي لنصعد عربة سوداء انطلقت بنا تحيط بها الدراجات النارية من الجانبين . سلكت العربة طريقا غير معتاد تفاديا للناس ورغم ذلك كنا نسمع الهتافات: "القوة" و "اللهم احفظ أفريقيا" . رفعنا أيدينا مقبوضة من وراء النافذة آملين في أن يراها الجمهور.

أصبحنا جميعا سجناء مدانين . فصل عنا دينيس غولدبيرغ لأنه أبيض وأخذ الى جزء آخر من السجن، أما البقية فأودعوا نزنزانات في سجن بريتوريا المحلي معزولين عن بقية السجناء عزلا تاما. وبدلا من الهتافات والأهازيج لم نعد نسمع سوى قرقعة الأبواب والمفاتيح.

استلقيت تلك الليلة على فراشي على الأرض واستعرضت بيني وبين نفسي الأسباب من وراء قرار دو فيت . لا شك في أن المظاهرات التي نظمت في مختلف أنحاء جنوب أفريقيا والضغوط الدولية كان لها دور في التأثير على تفكيره . فقد احتجت على المحاكمة نقابات العمال الدولية، وهددت اتحادات عمال الموانى في جميع أنحاء العالم بالامتناع عن التعامل مع بضائع جنوب أفريقيا . وكتب رئيس الوزراء الروسي ليونيد بريجنيف لنظيره في جنوب أفريقيا الدكتور فيرفوت يطلب منه الرحمة تجاهنا . وفي الولايات المتحدة احتج أعضاء في الكونغرس، بينما ظهرت مسيرة احتجاج في لندن شارك فيها خمسون من أعضاء البرلمان البريطاني . وأشيع أن أليك داغلاس هيوم وزير الخارجية البريطاني قد بذل مساع من وراء الكواليس لمساندة قضيتنا . ووجه أديلاي ستيفنسون ممثل أمريكا في الأمم المتحدة خطابا جاء فيه أن حكومته ستبذل كل ما في طاقتها للحيلولة دون صدور أحكام بالإعدام .

لقد بدا لي وأنا أقلب الأمر أنه بمجرد أن قبل دو فيت بفكرة أن حرب العصابات لم تبدأ وأن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة (أمكا) منظمتان منفصلتان، أصبح من الصعب فرض عقوبة الإعدام لأنها ستمثل في هذه الحالة إفراطا في القسوة .

قال فيرفوت أمام البرلمان إن برقيات الاحتجاج والإعتراضات التي وردت من جميع أنحاء العالم لم يكن لها تأثير على الحكم النهائي في القضية، وتفاخر بأنه رمى كل البرقيات التي وردت من الدول الاشتراكية في سلة المهملات.

قبل نهاية المداولات أعرب القاضي دو فيت عرَضا لمحامينا برام فيشر عن أن المرافعة أثارت اهتماما واسع النطاق في جميع أنحاء العالم . وربما كان ذلك اعترافا منه - بطريقته الخاصة - بأثر الضغوط العالمية . وكان يعلم جيدا أنه في حالة إعدامنا سيعتبره غالبية الناس القاتل الحقيقي.

ولكن دو فيت تعرض لضغوط أشد من قبل البيض كذلك . فهو من الأفريكان البيض ومن نتاج النظام ومنهج التفكير القائم في جنوب أفريقيا . لم يكن مجبرا على الخروج عن النظام الذي نشأ عليه، ولكنه رضخ لتلك الضغوط بإصدار حكم بالسجن المؤبد وقاومها في الوقت نفسه بعدم إصدار أحكام بالإعدام.

دهشت واستأت للأحكام التي أصدرها دو فيت بحق كاثرادا وموتسوليدي واملانغيني، إذ كنت أتوقع أن يخلي سبيل كاثرادا وأن يصدر أحكاما أخف بكثير بحق إلياس وأندرو اللذين كانا أعضاء حديثي العهد في حركة (أمكا). إن ما ارتكبه هؤلاء الثلاثة جميعا لا

يقارن بما ارتكبه واحـد فقط من الباقين . وعليه فقد كلف قرار عـدم استئناف الحكم كلا من أحمد وأندرو وإليـاس الكثير إذ كان من المرجح أن تخفف محكمـة الاستئناف من الإحكام الصادرة بحقهم.

كان السجناء الأفريقيون في سجن بريتوريا يختمون المساء كل ليلة وقبل أن تطفأ الأنوار بأهازيجهـم الوطنية التي تتـغنى بالحرية، وكنا نحن أيضـا نشترك في ذلك الـكورس المهيب. ولكن تلك الأصـوات سرعان مـا تخفت مع خفـتان الأنوار وكـأنها تتـثل لأوامر مكتـومة فيخيم الصـمت على السجن كله من جديد . ولكن فجأة ترتفع أصـوات هنا وهناك تصيح: "أماندلا" أي "القوة" فيرد مئات من السجناء دفعة واحدة: "انغويتو" أي "القوة لنا" .

كنا نحن الذين بدأنا هذا التقليد داخل السجن ولكن آخرين لا نعرفهم ساروا عليه تلك الليلة، وكانت أصواتهم قوية مدوية وكأنها تمدنا بالعزم والتصميم لما نحن مقدمون عليه.

الفصل الثامن

جزيرة روبن:
السنوات الحالكة

- ٥٩ -

عند منتصف الليل كنت بمفردي في الزنزانة مستلقيا في فراشي أتفحص السقف، وكانت مشاهد المحاكمة تمر متتالية أمام عيني. سمعت وقع أقدام في الممر، ثم طرقا على باب الزنزانة وظهر وجه العقيد أوكامب من وراء القضبان يناديني:

- مانديلا. هل أنت مستيقظ؟

أجبت أن نعم، فاستطرد يقول:

- إنك رجل محظوظ. سنأخذك الى مكان تسترد فيه حريتك. سيكون بإمكانك التحرك بدون قيود وستجاور المحيط وسترى الماء والسماء وليس الجدران الكئيبة.

لم يكن يقصد التهكم عليّ ولكنني كنت أعلم جيدا أن المكان الذي يعنيه لن يوفر لي الحرية التي أتوق إليها وأرجوها. استطرد يقول في شيء من الغموض:

- ستحصل على كل ما تريد طالما ابتعدت عن المشاكل.

راح أوكامب يوقظ الآخرين وكانوا جميعا في حجرة واحدة وطلب منهم حزم أمتعتهم. بعد خمس عشرة دقيقة كنا في طريقنا نخترق متاهة من الممرات في سجن بريتوريا، وقرقعة أبوابه الحديدية تدوي في آذاننا.

كنا سبعة - وولتر وريموند وغوفان وكاثرادا وأندرو وإلياس وأنا - وما أن خرجنا من مبنى السجن حتى وضعت القيود في أيدينا وتكدس بعضنا على بعض في عربة من عربات الشـــرطة. كان ذلك بعد منتصف الليل ولم نكن مُتعبين ولم يكن الجو كئيبا كل الكآبة. جلسنا على أرضية العربية المكسوة بالغبار نردد الأغاني والأهازيج والأناشيد ونتذاكر المواقف التي مرت بنا أثناء المحاكمة. قدم لنا الحراس شطائر ومشروبات باردة ورافقنا في العربة الملازم فان فيك. كان رجلا لطيفا وفي لحظة من لحظات الهدوء أعرب لنا عن رأيه في مستقبلنا قائلا:

- لن تظلوا في السجن مدة طويلة. هناك طلبات ملحة لإطلاق سراحكم. ما هي إلا سنة أو سنتان وتخرجون من السجن وتعودون أبطالا قوميين. ستهتف لكم الجماهير وسيتقرب إليكم الجميع وستهفو لصحبتكم النساء. آخ! كل المؤشرات تقول إن مستقبلكم زاهر!!

لم نرد أو نعلق على ما قال، وأعترف بأن كلامه سرّني غاية السرور، ولكن توقعاته كانت خاطئة بما يقرب من ثلاثين عاما.

رحلنا عن بريتوريا تحت جنح الليل في هدوء وسرية وتحت حراسة مشددة، وبعد أقل من نصف ساعة وجدنا أنفسنا في مطار عسكري صغير خارج المدينة. دفعونا بعجالة داخل

طائرة نقل عسكرية ضخمة عتيقية من نوع داكوتا. لم تكن مزودة بتدفئة وكنا نرتعد من البرد. بعض زملائي لم يركب الطائرة من قبل وبدا عليهم قلق من الرحلة يفوق قلقهم من المكان الذي نقصده، وكانت المطبات الجوية التي قابلناها على ارتفاع خمسة عشر ألف قدم تبدو أخطر بكثير من قبوعنا في زنزانة مقفلة داخل أسوار عالية.

بعد الطيران نحو ساعة طلع الفجر وظهرت معالم الأرض بوضوح، فتجمعنا حول النوافذ الدائرية الصغيرة لمشاهدة العالم من تحتنا. كنا نطير في تجاه الجنوب الشرقي فوق سهول أورينج فري ستايت الجرداء المستوية وشبه جزيرة الكيب بمرتفعاتها الخضراء. كنت أنظر الى تلك المواقع بعين القائد الميداني الذي يبحث عن المواقع التي يمكن أن تختفي فيها جيوش حرب العصابات.

دار جدال مستمر داخل الحزب منذ تأسيس حركة (أمكا) حول ما إذا كان الريف في جنوب أفريقيا صالحا لتحرك قوات غير نظامية، كان رأي غالبية أعضاء القيادة العليا أن الريف غير صالح لتلك المهمة. وبينما كنا نحلق فوق منطقة الغابات الجبلية التي تعرف باسم ماتروسبيرغ Matroosberg في إقليم الكيب صحت لرفاقي إنها منطقة صالحة للقتال. تحمس الرجال وتجمعوا حول النافذة لإلقاء نظرة على تلك المنطقة الكثيفة بالغابات والتي بدا أنها صالحة لتحرك قوات عسكرية غير نظامية.

في غضون دقائق كنا نحلق فوق كيب تاون، وظهرت تحتنا بيوت كعلب الثقاب في منطقة كيب فلاتس Cape Flats والعمارات الشاهقة في وسط المدينة، كما ظهر السطح العلوي لجبل تايبل ماونتن Table Mountain المنبسط، ثم مياه المحيط الأطلسي الزرقاء الداكنة في تايبل باي Table Bay حيث برزت في الأفق معالم جزيرة روبن.

هبطت بنا الطائرة في أحد أطراف الجزيرة. كان الطقس غائما وعندما نزلنا من الطائرة لفحت وجوهنا ريح الشتاء الباردة. استقبلنا الحراس بأسلحتهم الرشاشة، وكان الجو هادئا ولكنه مفعم بالتوتر بخلاف الاستقبال الصاخب الذي استقبلت به عند وصولي قبل ذلك بسنتين.

أخذنا بالسيارة الى السجن القديم وهو بناء من الحجر منعزل، حيث طلب منا نزع ملابسنا ونحن وقوف خارج المبنى. من طقوس السجن المهينة للإنسان تغيير ملابسه عند انتقاله من سجن الى سجن آخر. بعد أن نزعنا ملابس سجن بريتوريا رمانا الحراس ببدل الكاكي الخاصة بسجناء جزيرة روبن.

نظام التفرقة العنصرية يسرى على ملابس السجن كذلك. استلم كل منا ما عدا أحمد كاثرادا سروالا قصيرا وقميصا صوفيا خفيفا وجاكيت من قماش القِنّب. وفي العادة تصرف للأفريقيين صنادل مصنوعة من إطارات السيارات ولكننا في هذه المرة أعطينا أحذية. أما كاثرادا، وهو الهندي الوحيد بيننا، فقد تسلم سروالا طويلا وجوربا. وتصرف السراويل

القصيرة للأفريقيين لتذكيرهم بأنهم "صبيان". ارتديت السروال القصير منذ أول يوم ولكنني عاهدت نفسي بأن أتخلص منه خلال فترة وجيزة.

كان الحراس يشيرون ببنادقهم الى حيث يريدوننا أن نتجه وكانت أوامرهم مقتضبة لا تزيد عن كلمة واحدة في كل مرة: "امش"!، "تحرك"!، "اسكت"!، "قف"!.. وما إلى ذلك. لم يهددوننا بالطريقة المتعجرفة التي قابلتها في زيارتي السابقة للجزيرة وكانت وجوههم خالية من التعابير.

مكثنا في مبنى السجن القديم فترة مؤقتة. كانت السلطات توشك على استكمال تشييد مبنى منفصل بالكامل تتوفر فيه احتياطات أمنية من الدرجة الأولى خاص بالسجناء السياسيين. وبعد أن دخلنا المبنى الجديد لم يسمح لنا بالخروج أو الاتصال بأي من السجناء الآخرين.

في اليوم الرابع لوصولنا إلى الجزيرة، قيدت أيدينا وحملنا في عربة شحن مغطاة الى سجن داخل السجن. دخلنا مبنى من طابق واحد كأنه قلعة من حجر على شكل مستطيل يتوسطه فناء أرضه من الأسمنت، طوله نحو مائة قدم وعرضه ثلاثون قدما تقريبا. أقيمت زنزانات على ثلاثة من جوانب الفناء وعلى الجانب الرابع حائط ارتفاعه عشرون قدما تعلوه شرفة عليها خفر بصحبتهم كلاب حراسة.

قسمت الزنزانات الى ثلاثة عنابر: (أ) و (ب) و(ج) كل عنبر في جانب من جوانب الفناء، ووضعنا في عنبر (ب) الواقع في الجانب الشرقي من الساحة. خصصت لكل منا زنزانة بمفرده على جانبي ممر طويل به نحو ثلاثين زنزانة يطل نصفها على الفناء الداخلي للمبنى. كان هناك نحو أربعة وعشرين سجينا في الزنزانات الانفرادية، ولكل زنزانة نافذة مساحتها نحو قدم مربع تغطيها قضبان حديدية. للزنزانة بابان وبوابة معدنية بها قضبان من حديد من الداخل وباب خشبي سميك من الخارج. كانت البوابة الحديدية فقط تقفل أثناء النهار أما في الليل فيقفل الباب الخشبي كذلك.

يبدو أن الزنزانات بنيت على عجل فكانت الرطوبة تكسو جدرانها. ذكرت ذلك مرة لآمر السجن فرد عليّ بأن أجسامنا سوف تمتص الرطوبة. صرفت لكل منا ثلاث بطانيات خفيفة عفا عليها الزمن حتى كادت أن تصبح شفافة. أما الفراش فهو قطعة واحدة من السّيزال أو القش، ثم صرف لكل منا فيما بعد حصير من اللباد كنا نضعه فوق حصير السيزال لأنه أريح للبدن. كانت الزنزانات باردة في ذلك الوقت من العام وكانت البطانيات لا تقينا البرد فكنا ننام بملابسنا كاملة.

كانت زنزانتي في أول الممر مطلة على الفناء الكبير وبها نافذة على ارتفاع معقول. كان طول الزنزانة ثلاث خطوات، وعندما أستلقي للنوم كانت قدماي تلمس ذا الجدار ورأسي يلمس الجدار المقابل. أما عرضها فكان نحو ستة أقدام بينما كان سمك حيطانها قدمين على الأقل. علقت الى جانب باب الزنزانة ورقة بيضاء كتب عليها اسم السجين ورقمه، وكتب

على بطاقتي: ان مانديلا ٤٦٦/٦٤ ويعني ذلك أنني السجين رقم ٤٦٦ لعام ١٩٦٤ . كنت سجينا سياسيا في السادسة والأربعين من عمري أقضي حكما بالسجن مدى الحياة . كتب لي أن تكون تلك الحجرة الضيقة مثواي لزمن لم أعرف مداه.

التحق بنا عدد آخر من السجناء السياسيين كانوا مقيمين في القسم العام من السجن بالقرب من العنبر (ب)، وكان القسم العام يضم عنبر (و) وعنبر (جـ) ويؤوي نحو ألف سجين غالبهم من المجرمين، وكان ربعهم تقريبا سجناء سياسيين انضم بعضهم إلينا في العنبر (ب). كنا مفصولين عن السجناء الآخرين لسببين: لأول أمني والثاني سياسي . افقد كانت السلطات تخشى أن "نلوث" عقول بقية السجناء بأفكارنا السياسية.

كان ممن التحق بنا جورج بيك George Peake أحد مؤسسي المنظمة الشعبية للملونين في جنوب أفريقيا وأحد المتهمين في قضية الخيانة، وكان عضوا في مجلس بلدية مدينة كيب تاون . أدين في قضية وضع متفجرات خارج سجن كيب تاون . وكان منهم دينيس بروتوس أحد المناضلين السياسيين الملونين، وهو شاعر وكاتب من بورت إليزابيث سجن لخرقه الحظر السياسي المفروض عليه . وكان منهم بيللي نير Billy Nair من أوائل الذين انضموا لحزب المؤتمر الهندي في ناتال الذي حكم عليه في قضية تخريب وكان عضوا في منظمة (أمكا).

التحقت بنا بعد أيام قليلة دفعة جديدة من السجناء منهم نيفيل أليكساندر Neville Alexander من أبرز المفكرين الملونين وعضو حركة وحدة غير الأوروبيين Non-European Unity Movement التي انبثقت عنها مجموعة راديكالية صغيرة عرفت بنادي يو تشي تشان Yu Chi Chan Club في كيب تاون، وكان أعضاؤها يدرسون فن حرب العصابات . ويحمل نيفيل شهادة جامعية في الآداب من جامعة كيب تاون وشهادة الدكتوراة في الأدب الألماني من جامعة توبنغان الألمانية . كما التحق بنا فيكيل بام Fikile Bam طالب القانون في جامعة كيب تاون وعضو نادي يو تشي تشان، وزيفانيا موتوبينغ عضو اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر القومي الأفريقي، وكان يعمل مدرسا في أورلاندو ومن أشد المعارضين لتعليم البانتو ومن أكثر زعماء الحزب تعقلا واتزانا . كما جاورنا ثلاثة فلاحين متقدمين في السن من ترانسكاي أدينوا في قضية محاولة اغتيال كيه دي ماتانزيما، رئيس حكومة الحكم الذاتي في ترانسكاي.

كنا نحو عشرين سجينا عرفت بعضهم وبعضهم لم أعرف . ومن أكثر المناسبات بهجة في السجن تلك التي يلتقي فيها المرء بأصدقاء قدامى . ولكن الجو خلال الأسابيع الأولى كان قاسيا فلم نكن قادرين حتى على تبادل التحية . كان عدد الحراس يفوق عدد السجناء وكانوا ينفذون أنظمة السجن وقواعده تنفيذا حرفيا يصاحبه التهديد والوعيد والاستفزاز.

باشرنا منذ الأسبوع الأول العمل الذي سيشغلنا لعدة أشهر . ففي الصباح من كل يوم يفرغ الحراس عند مدخل ساحة السجن أكداسا من الحجارة بحجم الكرة الطائرة، وكانت مهمتنا نقل الحجارة بالعربات اليدوية الى وسط الساحة . زودونا بعد ذلك بمطارق لتكسير تلك الحجارة الى حصي صغير . قسمنا الى أربعة صفوف تفصل بينها مسافة ياردة ونصف

تقريبا وأمرنا بأن نجلس القرفصاء وأعطي كل منا إطارا سميكا من المطاط نكسر فيه الأحجار كي لا تتناثر ولكنها لم تكن تفي بالغرض. كنا نضع على رؤوسنا أغطية سلكية لحماية أعيننا ووجوهنا.

كان الحراس يمرون بيننا للحفاظ على الهدوء، وجاء في الأسابيع الأولى حراس من الأقسام الأخرى بل ومن سجون أخرى للإشراف علينا والتفرس في وجوهنا وكأننا عينة غريبة من الحيوانات البرية. كان العمل مملا ومرهقا. لم يكن شاقا بحيث يولد في أجسامنا الدفء ولكنه كان قاسيا بما يكفي لأن يخلف الألم في كل جزء من أجزاء الجسم.

كان شهرا يونيو ويوليو أكثر شهور السنة كآبة في جزيرة روبن. فقد حل فصل الشتاء وبدأ موسم الأمطار، ولم تكن درجة الحرارة لتزيد عن ٤٠ درجة فاهرينهايت. كنت أرتعد من البرد حتى في وجود الشمس وفهمت تماما ماذا يعني قولهم أن يحس المرء البرد في عظامه. كنا نتوقف عن العمل للغداء، ولم نُطعم في الأسبوع الأول سوى شوربة نتنة، وسمح لنا عند العصر بتدريبات رياضية لمدة نصف ساعة تحت إشراف دقيق من الحراس فكنا نزاول المشي السريع في طابور واحد حول الساحة.

في اليوم الأول أمر أحد الحراس أحمد كاثرادا بأن يدفع عربة محملة بالحصى الى شاحنة موقوفة عند مدخل السجن، وكان أحمد نحيفا لم يتعود على العمل الشاق فلم يستطع دفع العربة. صاح الحارس يحثه على أن يحرك العربة فتمكن من تحريكها ببطء وكادت العربة أن تنقلب وراح الحراس يضحكون. رأيت أحمد مصرا على ألا يعطيهم مبررا للضحك فنهضت لمساعدته. وقبل أن تصدر الأوامر لي بالجلوس تمكنت من أن أقول له أن يحرك العربة ببطء وأن يحافظ على توازنها، وشيئا فشيئا استطاع أن يدفع بها الى الأمام، وتوقف الحراس عن الضحك.

في اليوم التالي وضع المسؤولون حاوية ضخمة في وسط الفناء وطلبوا منا ملأها بالحجارة الى النصف قبل نهاية الأسبوع. ضاعفنا الجهود ونجحنا في إنجاز المهمة. وفي الأسبوع التالي أعلنوا أن علينا ملأها الى ثلاثة أرباع حجمها، فثابرنا على العمل ونجحنا في المهمة مرة أخرى. وفي الأسبوع التالي أمرنا بملئها كاملة فأحسسنا بالإجحاف والتزمنا الصمت. نجحنا في المهمة للمرة الثالثة ولكن بعد أن استفزنا الحراس. تبادلنا الهمسات واتفقنا على عدم الإمتثال لأوامر من هذا القبيل. وفي الأسبوع التالي بدأنا أول احتجاج لنا في الجزيرة بالإبطاء في انجاز العمل. فكنا نعمل بنصف السرعة التي اعتدنا أن نعمل بها احتجاجا على الأوامر المجحفة التي كانت تصدر إلينا. تنبه الحراس لذلك فهددوننا، ولكننا رفضنا الإسراع في العمل وواصلنا العمل ببطء طول المدة التي قضيناها في العمل في الساحة.

طرأت على الجزيرة تغيرات عن عام ١٩٦٢ عندما قضيت فيها أسبوعين. فقد كان عدد السجناء آنذاك أقل، وكانت الجزيرة تبدو كأنها سجن تجريبي وليس سجنا بمعنى الكلمة. أما

الآن فقد أصبحت أقسى وأتعس موقع في جنوب أفريقيا لمعاقبة المذنبين. أصبحت جزيرة روبن محطة شقاء ليس للسجناء وحسب بل للسجانين أيضا. لم يعد فيها حراس من الملونين يتعاطفون مع السجناء ويسربون إليهم التبغ والطعام. أصبحت الغالبية العظمى من الحراس من البيض الناطقين بالأفريكانا الذين يعتبرون أنفسهم أسيادا والسجناء عبيدا. أمرونا أن نناديهم بكلمة "يا سيد"، ورفضنا ذلك. كان الفصل العرقي في الجزيرة كاملا، فلم يكن هناك حراس سود ولا سجناء بيض.

الانتقال من سجن الى آخر يتطلب فترة من الزمن للتكيف، ولكن الذهاب الى جزيرة روبن كان بمثابة السفر الى بلد آخر غريب. فعزلتها أحالتها عالما فريدا يختلف اختلافا كاملا عن العالم الذي قدمنا منه. خفتت في جو الجزيرة القاسي تلك الروح المعنوية العالية التي حملناها معنا من بريتوريا وبدأنا نواجه الحقيقة فحياتنا من الآن لن تزداد إلا شقاء وتعاسة وكآبة. كنا في بريتورتا نحس بصلتنا مع أنصارنا وأسرنا، أما في الجزيرة فقد كنا مقطوعين معزولين. كان عزاؤنا الوحيد هو وجودنا معا في مجموعة واحدة. ولكن سرعان ما تحول ضجري وقنوطي الى شعور بأن معركة جديدة من نوع آخر قد بدأت.

اعترضت منذ اليوم الأول على إجباري على ارتداء السروال القصير. طالبت بمقابلة آمر السجن وأعددت قائمة من الشكاوى، وتجاهل الحراس احتجاجاتي. ولكنني قبل نهاية الأسبوع الثاني وجدت سروالا طويلا من الكاكي مرميا على أرض الزنزانة ففرحت به أكثر من فرحي ببذلة فاخرة. وقبل أن أرتديه تحققت مما إذا كان قد صرفت لرفاقي ايضا سراويل طويلة.

علمت أنه لم يصرف لهم ما صرف لي فأعدت السروال الى الحارس وأصررت على أن يسمح لكل السجناء الأفارقة بارتداء السراويل الطويلة. رد علي الحارس في ضجر:

- لقد طلبت سروالا طويلا وعندما أعطيته رفضت أن ترتديه؟

تحاشى الحارس أن يلمس سروالا لبسه رجل أسود فجاء آمر السجن شخصيا الى الزنزانة ليلتقط السروال، وقال:

- حسنا يا مانديلا. سوف ترتدي الملابس نفسها التي يرتديها الجميع.

أجبته بقولي مادام راضيا بأن أرتدي سروالا طويلا لما لا يسمح للجميع بارتداء سراويل طويلة كذلك، فلم يرد علي بشيء.

- ٦٠ -

في نهاية الأسبوع الثاني أخبرونا بأن المحاميين برام فيشر وجول جوفي قادمان لزيارتنا في اليوم التالي . اقتادونا الى حجرة الزيارات لمقابلتهما، وكان الغرض من الزيارة ذي شقين: الإطمئنان على أحوالنا ثم التأكد من أننا لا زلنا مصرين على عدم الرغبة في استئناف الأحكام الصادرة بحقنا . لقد غبنا عن برام وجول أسبوعين فقط ولكنني أحسست وكأننا غبنا عنهم سنوات، وظهرا كما لو كانا مخلوقين من كوكب آخر.

جلسنا في حجرة خالية ووقف أحد الحراس خارج الباب . تملكتني رغبة في احتضان الزائرين ولكن وجود الحارس منعني من ذلك . أخبرتهما بأننا جميعا في حالة جيدة وأكدت لهما اعتراضنا على الاستئناف لنفس الأسباب التي شرحناها سابقا بما في ذلك رغبتنا في الا يؤثر استئنافنا على محاكمات أعضاء آخرين في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . بدا لي انهما استسلما للأمر الواقع وإن كنت أعلم أن برام كان من رأيه أن نستأنف الحكم.

في ختام حديثنا سألت برام عن زوجته موللي. ولكن ما إن ذكرت اسمها حتى نهض برام وأدار بوجهه عني وغادر الحجرة فجأة . بعض دقائق عاد برام الى الحجرة وقد تمالك نفسه واستأنف حديثه معي دون أن يجيب على سؤالي.

انفض الاجتماع وبينما كنت عائدا الى زنزانتي سألني الحارس:

- هل استغربت لتصرف برام فيشر؟

فأجبته أن نعم، فأخبرني أن موللي توفيت في حادث مرور قبل أسبوع، وأن برام كان يقود السيارة وحاول تفادي حيوانا اعترض طريقه فوقعت السيارة في نهر على جانب الطريق، وماتت موللي غرقا.

صعقنا للخبر . كانت موللي سيدة رائعة كريمة، منكرة لذاتها لا تعرف التعصب . ساندت زوجها في مواقف لا تعد ولا تحصى . كانت له زوجا وزميلا ورفيقا، ولم يكن موتها المحنة الوحيدة في حياة برام، فقد توفي ابن له شاب في سن المراهقة نتيجة إصابته بالتليف المثاني.

رد فعل برام عندما سألته عن زوجته هو الرد المتوقع من رجل مثله . فهو صلب لا يستسلم للعاطفة ولا يلقي بآلامه ومشاكله على أصدقائه . لقد أظهر برام شجاعة فائقة وقدم تضحية لا نظير لها إذ دفعه ضميره وهو افريكاني الى التخلي عن تراثه فنبذه قومه . فقد كافحت أنا ضد الظلم ولكنني لم أقف ضد قومي كما وقف هو.

أخبرت الضابط بأنني أرغب في إرسال تعزية لبرام فوافق . كانت تعليمات السجن الخاصة بكتابة الرسائل آنذاك صارمة للغاية، ولم يسمح لنا إلا بالكتابة الى أقرب أفراد العائلة بمعدل رسالة واحدة من خمسمائة كلمة كل ستة أشهر . سررت لموافقة الضابط ولكنه لم يكن عند وعده . فقد كتبت الرسالة وسلمتها للسلطات ولكن برام لم يتسلمها.

في غضون شهر استقرت حياتنا على روتين ثابت، فالروتين هو الطابع الأساسي لحياة السجن، كل يوم كسابقه، وكل أسبوع كالأسبوع الذي مضى، وتتداخل الشهور والسنون. كل ما يخرج عن هذا النمط يثير إزعاج السلطات فالروتين هو علامة السجن الناجح.

والروتين مريح للسجين وهذا ما يجعله فخا خطيرا كذلك. وهو كالعشيقة الحلوة التي لا تُقاوم، ويعين على مرور الوقت بسرعة. الساعات بكل أنواعها ممنوعة في الجزيرة فلم نكن نعرف الوقت بالتحديد وكنا نعتمد على الأجراس وصفارت الحراس وصيحاتهم في تحديده. بل كنا نجد صعوبة في تحديد اليوم والشهر أحيانا، فكان أول ما قمت به كتابة تقويم على جدار الزنزانة لأن فقدان المرء لحاسة الزمن يجعل من السهل عليه أن يفقد عقله.

وفي السجن تخف حركة الزمن. ورغم أن بطء الزمن ارتبط عادة بالفراغ والكسل غير أن الحال لم يكن كذلك في الجزيرة. فكنا مشغلوين طول الوقت تقريبا في العمل أو الدراسة أو البت في المنازعات. ورغم ذلك كان الزمن يمر ببطء، ويعود ذلك الى أن الأمور التي يمكن إنجازها خارج السجن في ساعات أو أيام ربما استغرقت شهورا أو سنينا داخله. فإن طلبت فرشة أسنان مثلا فربما استلمتها بعد ستة أشهر أو سنة. كان أحمد كاثرادا يقول إن الدقائق في السجن تمر وكأنها سنون، بينما تمر السنون وكأنها دقائق. ولربما بدت ساعات من اليوم يقضيها المرء في تكسير الحجر في فناء السجن وكأنها دهر كامل تنقضي فيه السنوات بسرعة هائلة دون أن يدري المرء أين ذهبت الشهور.

التحدي الكبير الذي يواجه كل سجين، وخاصة السجين السياسي، هو كيف يحافظ على سلامة عقله وبدنه ويخرج من السجن دون أن يفقد إيمانه وقناعاته بل يزيدها وينميها. وأول ما يجب أن يحسن المرء إتقانه لتحقيق ذلك هو الوسائل التي تضمن له البقاء. فعليه أن يعرف أهداف عدوه وغاياته قبل أن يتبنى أي خطة لإحباطها. فالغرض الأساسي من السجن هو كسر عزيمة الإنسان وتحطيم معنوياته، وتعمد السلطات من أجل ذلك الى استغلال كل ضعف وإجهاض كل بادرة وإلغاء كل المعالم الفردية الذاتية لتقضي على تلك الشرارة التي تجعل منا بشرا وأفرادا متميزين.

كان بقاؤنا مرهونا بقدرتنا على فهم أهداف السلطات ونشر ذلك الفهم فيما بيننا جميعا. فمن الصعب بل من المستحيل على شخص واحد أن يتصدى للنظام بمفرده، ولا أدري إن كان بإمكاني أن أقاوم كما قاومت لو كنت بمفردي. إن أكبر خطأ وقعت فيه السلطات هو سماحها لنا بالعيش معا كمجموعة واحدة، لأن ذلك عزز من تصميمنا وعزيمتنا. كان كل منا يساند الآخر، وكنا نستمد القوة من بعضنا البعض. كنا نتقاسم الأفكار والمعلومات والأخبار فتتضاعف قوانا الفردية أضعافا كثيرة. هذا لا يعني أننا كنا متساويين في درجة تحملنا للمشاق والصعوبات، فلكل رجل قدرته ولكل رجل طريقته في مواجهة المحن والضغوط. ولكن القويّ منا رفع من قدرة الضعيف وأصبح الجميع بذلك أقوياء. وكان على كل منا أن يبني حياته الخاصة في السجن، وقد حافظنا على النظام من تلقاء أنفسنا أكثر مما حافظ عليه الحراس وهذا ما اعترفت به السلطات نفسها.

إن على القائد أحيانا القيام بأعمال لا ترضي الآخرين وربما ظلت نتائجها مجهولة لعدة سنوات. وهناك انتصارات تتمثل أمجادها في كونها غير معروفة إلا لدى أصحابها. ويظهر هذا بوضوح في المعتقل عندما يكون عزاء المرء الوحيد هو إخلاصه لما يؤمن به حتى وإن لم يكن أحد غيره يعلم بذلك.

أصبحت الآن أعيش على هامش النضال، ولكنني أدركت في قرارة نفسي أنني لن أتخلى عن النضال. أصبحت أتحرك في ساحة صغيرة ومختلفة جمهوري الوحيد فيها هو رفاقي والطاغوت المسلط علينا. اعتبرنا نضالنا في المعتقل نسخة مصغرة من نضالنا الكبير، وعلينا أن نكافح هنا كما كنا نكافح في الخارج. فلم تزل العنصرية هي العنصرية والقمع هو القمع، وما علي إلا أن أخوض المعركة بشروط ومعطيات جديدة.

السجن والسجان شريكان في مؤامرة واحدة هدفها الأول سلب الإنسان كرامته. وكان ذلك في حد ذاته ضمانا بأنني سأنتصر لأن أي إنسان أو مؤسسة تحاول أن تسلب مني كرامتي سوف تخفق لأنني لن أتخلى عنها مهما كان الثمن وتحت أي ضغوط. لم يدر بخلدي قط أنني لن أخرج من السجن يوما. ولم أعتقد أن عقوبة السجن المؤبد تعني فعلا السجن مدى الحياة وأنني سأموت وراء القضبان. ربما كنت رافضا ذلك الاعتقاد لأنه أمر سيء لا يحتمل التفكير، ولكنني كنت موقنا قدماي ستمشيان يوماً ما على العشب الطري وسأستمتع بنور الشمس الساطعة وأنا حر طليق.

إنني في قرارة نفسي إنسان متفائل، وإن كنت لا أدري إن كان ذلك في طبيعتي أم في طبعي. ومن علامات التفاؤل أن يحافظ المرء على رأسه مرفوعا نحو السماء، وأن تكون خطاه متجهة الى الأمام. لقد مرت بي لحظات عديدة اهتزت خلالها ثقتي في الإنسانية ولكنني لم ولن أستسلم لليأس، فذلك هو السبيل الى الإخفاق والموت المحقق.

- ٦١ -

كنا نستيقظ عند الخامسة والنصف كل صباح على دقات جرس نحاسي وصوت حارس يصيح من أقصى الممر: قوموا! استيقظوا! تعودت على الاستيقاظ مبكرا في الصباح ولم يكن ذلك يزعجني. لا يسمح لنا بالخروج من الزنزانات قبل السابعة إلا ربعا، وقد نظف كل منا زنزانته وطوى فراشه. لم يكن في الزنزانات ماء جار ولا مراحيض، وكنا نستخدم لذلك الغرض أوانٍ صحية قطر فتحتها عشر بوصات ولها غطاء من الفخار مقعر يوضع فيه ماء نستخدمه للحلاقة وغسل أيدينا ووجوهنا. في السابعة إلا ربعا نخرج من الزنزانات فنفرغ الأواني مما فيها ونغسلها جيدا في الأحواض الموجودة في أقصى الممر وإلا فاحت رائحتها. الأمر الوحيد الممتع في غسل الأواني الصحية هو القدرة على اختلاس بضع كلمات همسا مع الآخرين، خاصة وأن الحراس كانوا يبتعدون عنا قليلا أثناء غسل الأواني.

خلال الأشهر الأولى كان الفطور يُقدم لنا في الزنزانات ويحضره سجناء القسم العام، وكان عبارة عن كمية من ثريد الذرة في إناء صغير يرميها السجين من خلال قضبان الزنزانة بحركة رشيقة تتطلب مهارة وخفة حتى لا يراق العجين.

بعد ذلك أصبحنا نتناول طعام الفطور في فناء السجن، وكان يوضع في براميل معدنية، ويقدم إلينا ما يوصف بأنه قهوة وهو في الحقيقة مشروب من الذرة المطحونة بعد تحميصها وغليها في الماء. وكنت أستغل فرصة انتظار الفطور في الجري هرولة حول فناء السجن.

طعام السجن - أسوة بكل شيء آخر - خاضع للتفرقة العنصرية. فقد كان يقدم للملونين والهنود طعام أفضل مما يقدم للافريقيين، وإن كان الفارق رمزيا الى حد كبير. كانت السلطات تدعي بأنها تقدم للسجناء غذاءً متكاملا، بيد أنه كان في الواقع يتراوح بين اللامستساغ وغير القابل للأكل. كان الطعام من أسباب احتجاجاتنا المتكررة، وكان رد الحراس المعهود هو:

- إن ما تأكلونه هنا أفضل مما كنتم تأكلونه في بيوتكم!

قبل أن ننتهي من تناول الفطور يصيح الحراس: اصطفوا! اصطفوا! فيقف كل منا أمام زنزانته للتفتيش، وكان علينا أن نقفل أزرار السترة وأن نرفع قبعاتنا تحية للحراس عند مرورهم أمامنا. وفي حالة التقصير في ذلك أو عدم ترتيب الزنزانة تكون العقوبة الحبس الانفرادي أو الحرمان من وجبات الطعام.

بعد التفتيش نخرج لتكسير الأحجار في الساحة حتى الظهر بدون استراحة، وإن تباطأنا في العمل صرخ الحراس يقرعوننا. عند الظهر يقرع الجرس إيذانا بحلول موعد الغداء، فيأتي الحراس بالطعام في براميل على عربة يدوية. تقدم للأفريقيين أكواز الذرة المسلوقة وللهنود والملونين جريش الذرة المصحوب أحيانا بالخضار.

يقدم إلينا عند الغداء شراب كنا نسميه "شراب القوة" يحضر من مسحوق الذرة وقليل من الخميرة المخلوط بالماء أو الحليب وهو ذو طعم لذيذ، ولكن سلطات السجن كانت تصرف لنا كميات صغيرة من المسحوق لا تكاد تغير لون الماء. كنت احتفظ بنصيبي من المسحوق على مدى عدة أيام ريثما تتجمع لدي كمية كافية ولكن الحراس كانوا يستولون عليها إن اكتشفوها وأعاقب.

نواصل العمل بعد الغداء حتى الرابعة عندما يطلق الحراس صفارتهم حادة الصوت لنصطف من جديد للتفتيش. يسمح لنا بعد ذلك بنصف ساعة من الوقت للتنظيف، وكنا نستحم بماء البحر من دُشّين في أقصى الممر حيث يوجد أيضا ثلاثة أحواض معدنية كبيرة مطلية بالزنك وحنفية واحدة. لم نكن نستعمل الماء الساخن، وكان الواحد منا إما يقف أو يجلس في الحوض فيزيل عن جسمه الغبار وأثار عمل اليوم. الإستحمام بالماء البارد في الطقس البارد ليس بالأمر المستساغ ولكننا كنا نحاول الاستمتاع به قدر المستطاع، فكنا نغني احيانا مما يخفف من الشعور ببرودة الماء، وكانت تلك الفرصة الوحيدة للحديث فيما بيننا خلال الأشهر الأولى.

عند الرابعة والنصف تماما نسمع طرقات على الباب السميك في نهاية المرر إيذانا بوصول طعام العشاء. كان السجناء من المجرمين العاديين يقدمون لنا الطعام فنعود لتناوله في زنزاناتنا. ووجبة العشاء هي الأخرى من ثريد الذرة ومعه قطعة من جزر أو غير ذلك وأحيانا يحتاج المرء أن يفتش عنها تفتيشا. وغالبا ما يقدم لنا النوع نفسه من الخضار على مدى أسابيع، وغالبا ما يكون غير صالح للأكل فيسبب لنا المغص. وكانت تقدم لنا مرة كل يومين قطعة واحدة من اللحم وغالبا ما تكون غضروفا.

تقدم للملونين والهنود مع العشاء قطعة من الخبز وشيء من السمن النباتي، أما الأفريقيون فلا يقدم لهم الخبز باعتباره أكلا للأوروبيين فقط.

كنا نحصل على كميات أقل من تلك التي تحددها أنظمة السجن، والسبب في ذلك شيوع السرقة بين العاملين في المطبخ. فالطباخون - وجميعهم من المجرمين العاديين - كانوا يحتفظون بأفضل الطعام لأنفسهم ولأصدقائهم من السجناء الآخرين. وكانوا أحيانا يقدمون الأطعمة الشهية للحراس مقابل خدمات أو تسهيلات معينة.

عند الثامنة يقفل حارس الليل باب الممر من الداخل ويسلم المفتاح من خلال فتحة صغيرة لحارس آخر خارج الباب ثم يعبر الممر جيئة وذهابا يأمرنا بالنوم. لا تُطفأ مصابيح الزنزانات في الجزيرة أبدا، وسمح فيما بعد لمن كانوا يحضرون للحصول على شهادات دراسية أن يذاكروا دروسهم حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلا.

كنا أحيانا نتبادل الأحاديث قبل النوم وكان الحارس يصرخ فينا يأمرنا بالصمت. وكان يعبر الممر جيئة وذهابا ليطمئن على أن كلاً منا في فراشه، وكنا أحيانا ننثر الرمل في الممر كي نتمكن من سماع خطوات الحارس فنكف عن الحديث أو نخفي أي ممنوعات. لم يكن يجلس حتى يعم الصمت العنبر كله فيخلد هو أيضا للنوم حتى الصباح.

- ٦٢ -

ذات صباح، وبعد أيام من مقابلتنا مع برام وجول، اقتادونا الى المكتب الرئيسي وهو مبنى بسيط من الحجر يبعد عن العنبر مسافة ربع ميل تقريبا. وقفنا في طابور لأخذ بصماتنا وهو إجراء روتيني في السجن. وبينما كنا كذلك لفت نظري أحد الحراس ممسكا بآلة تصوير، وبعد الانتهاء من أخذ البصمات أمرنا الحارس المسؤول بالاصطفاف للتصوير. أشرت على زملائي بالتزام أماكنهم واتجهت الى الحارس قائلا:

- هل لك أن تبرز لي تصريحا من مفوض السجون يخولكم بالتقاط صور لنا؟

وكان مثل هذا التصريح شرطا لأخذ صور السجناء.

الإلمام بالتعليمات والقواعد مفيد في جميع الأحوال، لأن الحراس أنفسهم أحيانا جاهلون بها ويصيبهم الارتباك إن أحد تحداهم. فوجيء الحارس بطلبي ووقف عاجزا عن إبراز التصريح المكتوب أو تقديم رد مقنع. هدد بأنه سيعاقبنا إن لم نوافق على التصوير، فأكدت له أنه لن يصور ما لم يبرز الإذن الرسمي، وانتهى الأمر على ذلك.

كنا نعارض - كقاعدة عامة - التقاط صور لنا في السجن لأن ظهورنا بتلك الهيئة مهين، ولكنني وافقت على التقاط صورة واحدة فقط طول فترة بقائنا في الجزيرة.

ذات صباح بدلا من المطارق قدم لنا الحارس المسؤول إبرا وسلكا وكوما من ملابس السجن القديمة، وأمرنا بإصلاحها. اتضح لنا فورا أن معظم تلك الملابس قد عفا عليها الزمن ولا ينفع فيها ترميم. أثار الأمر استغرابنا وتساءلنا عن الأسباب التي دعت إليه. عند الحادية عشرة تقريبا فتحت بوابة السجن الرئيسية ودخل آمر السجن وبصحبته رجلان بملابس رسمية، وأعلن الآمر أنهما صحافي ومصور من صحيفة ديللي تلغراف الصادرة في لندن. جاء إعلانه بطريقة توحي لسامعيه وكأن زيارات من ذاك القبيل أمر روتيني في الجزيرة.

ارتبنا من هذه الزيارة رغم أنها الأولى من نوعها وذلك لأن الضيفين كانا تحت رعاية الحكومة، ولعلمنا بأن التلغراف صحيفة محافظة ويستبعد أن تتعاطف مع قضيتنا. كنا نعلم جيدا أن هناك قلقا كبيرا في الأوساط العالمية بشأن وضعنا وأنه من مصلحة الحكومة أن تثبت للعالم أننا نعامل معاملة حسنة.

تجول الصحافيان بهدوء في الساحة يتفحصان وجوهنا، ولم نرفع رؤوسنا وتظاهرنا بالانهماك في الخياطة. وبعد أن طافا بالساحة كلها أمسك أحد الحراس بكتفي وقال:

- تعال يامانديلا وتحدث مع الرجلين.

كنت في ذلك الوقت أتحدث نيابة عن بقية زملائي، بينما كانت أنظمة السجون تنص



على أن يتحدث كل سجين باسمه فقط، وكان الهدف من ذلك إلغاء روح التضامن القائمة بيننا وإضعاف قوتنا كمجموعة. اعترضنا على ذلك ولم نحرز تقدما يذكر في تجاوز تلك التعليمات، بل لم يكن يسمح لنا أن نتحدث بصيغة الجمع عند مخاطبة سلطات السجن. ولكن عندما كانت السلطات خلال الشهور الأولى تفضل التفاهم مع سجين واحد يمثل بقية السجناء كنت أنا ذلك السجين.

تحدثت الى الصحافي واسمه نيومان Mr Newman عشرين دقيقة تقريبا، وكنت صريحا في حديثي عن أوضاع السجن وعن محاكمة ريفونيا. كان شخصا لطيفا وطلب عند نهاية المقابلة التقاط صورة لي فترددت ثم وافقت لعلمي أن الصورة ستنشر خارج جنوب أفريقيا وربما خدمت قضيتنا، خاصة لو كان التقرير متعاطفا معنا ولو بقدر بسيط. وافقت على التصوير بشرط أن يكون وولتر سيسولو الى جانبي، والتقطت لنا صورة ونحن نتحدث عن قضية لا أذكرها. لم أطلع على تقرير الصحيفة ولم أسمع عنه شيئا. وما أن عبر الصحافيان بوابة السجن حتى رفع الحراس الملابس من أمامنا، وجاءوا بالمطارق والحجارة من جديد.

كانت زيارة وفد الديلي تلغراف بداية لسلسلة من الزيارات الصحافية. فقد كانت الحكومة في أعقاب محاكمة ريفونيا حريصة على أن تثبت للمجتمع الدولي أننا نعامل معاملة حسنة. نشرت تقارير صحافية تتحدث عن الأوضاع غير الإنسانية في الجزيرة وعن تعرضنا للإعتداء والتعذيب مما أربك الحكومة وأحرجها، فعمدت الى دعوة زوار أجانب لزيارة الجزيرة كي تدحض تلك الإدعاءات.

زارنا محام بريطاني من الذين دافعوا عن استقلال ناميبيا أمام المحكمة الدولية، ثم زارنا السيد هايننغ Mr Hynning ممثل نقابة المحامين الأمريكية. كان مجيء الأمريكيين الى جنوب أفريقيا آنذاك أمرا مثيرا للانتباه وكنت متشوقا لمقابلة ممثل تلك المنظمة القانونية الفذة.

وفي اليوم المحدد لزيارة هايننغ أمرنا بالخروج الى الساحة. وصل الزائر بصحبة مفوض السجون الجنرال ستاين الذي كانت زياراته للجزيرة نادرة جدا. كان ستاين غريبا على خدمة السجون فهو أنيق المظهر يرتدي بذلا راقية. كان مؤدبا معنا ويخاطبنا باحترام بل ويرفع قبعته عند التحية وهو ما لا يصدر عن أي شخص آخر في السجون. ورغم ذلك فهو مصدر ما نعانيه بتجاهله لما نلقاه من قمع واضطهاد، إذ أنه يغض النظر بالكامل عما يجري في الجزيرة. فغيابه المعتاد جرّأ المسؤولين القساة علينا وأعطاهم تفويضا على بياض للقيام بكل ما يحلو لهم القيام به. عرفنا الجنرال بالزائر ثم طلب منا بطريقته المؤدبة المعهودة:

- تفضلوا يا حضرات واختاروا متحدثا يتكلم باسمكم.

بادر عدد من السجناء بذكر اسمي فأشار لي الجنرال ستاين بيده فقمت واقفا.

بدا هايننغ، مقارنة بالجنرال ستاين، أقرب الى البدانة رث الهيئة. شكرته على الزيارة وعبرت له عن تشرفنا بحضوره ثم لخصت شكاوانا وعلى رأسها أننا سجناء سياسيون ولسنا مجرمين وينبغي معاملتنا على هذا الأساس. وعددت له مآخذنا على الطعام وأوضاعنا

المعيشية ونظام تشغيلنا. ولكن هاينينغ ظل يقاطعني أثناء الكلام. وعندما أشرت الى الساعات الطويلة التي نقضيها في أعمال لا معنى لها، قال إننا كسجناء علينا أن نعمل وإننا، علاوة على ذلك، كسالى على أغلب الإحتمالات.

وعندما كنت أشرح المشاكل الخاصة بالزنزانات قاطعني قائلا إن أوضاع السجون في أمريكا أسوأ بكثير منها في جزيرة روبن التي تعتبر جنة عند المقارنة بها. وأضاف أننا مدانون بعدل وأننا محظوظون في أنه لم يحكم علينا بالإعدام وهو العقوبة التي نستحقها على الأغلب.

كان السيد هاينينغ يتصبب عرقا بشكل ملحوظ وظن بعضنا أنه ربما كان ثملا. تحدث بلهجة حسبتها من لهجات سكان الجنوب، ومن الغريب أنه كان يبصق أثناء حديثه وهو تصرف لم يره أحد منا قط من قبل.

وأخيرا نفد صبري فقاطعته قائلا:

- كلا يا سيدي. إنك تسيء فهم ما أقول.

استاء هاينينغ لاعتراضي على كلامه، بينما كان ستاين يراقب ويستمع دون أن يعلق بشيء. كان من الصعب في ظل تلك الظروف أن يتحكم المرء في أعصابه فهاج زملائي لما صدر عن هاينينغ واستاؤوا للسماح له بزيارتنا أصلا. كانت الزيارات، مهما كان نوعها، ترفع في العادة من معنوياتنا ولكن زياة هاينينغ أحبطت عزيمتنا، وربما كان ذلك هو الغرض الذي كانت ترمي إليه السلطات. فمقابلة شخص يمثل هيئة عريقة وبهذه القدرة المحدودة على الفهم والاستيعاب أمر يثير الكآبة. أخيرا أدار هاينينغ وجه وانصرف دون أن يودعنا، ولكننا لم نأسف على رحيله.

ظل هاينيغ موضوع نقاش بيننا لعدة سنوات وكان كثيرون يتندرون بتقليد هيئته وحديثه. لم نسمع عنه بعد ذلك ولم يكسب لنقابة المحامين الأمريكية صديقا واحدا في جزيرة روبن.

- ٦٣ -

تقسم الادارة السجناء الى أربع فئات: (أ) و (ب) و (جـ) و (د). الفئة (أ) هي الأعلى ويتمتع أصحابها بأكثر الامتيازات، والفئة (د) هى الأدني وتتلقى أقل الامتيازات. يُصنف جميع السجناء السياسيين أو الذين تشير لهم الادارة بسجناء "الأمن" من الفئة (د) لدى أول دخولهم السجن. ومن الامتيازات التي يحددها ذلك التصنيف الزيارات والرسائل والدراسة وإمكانية اقتناء المشتريات والنثريات، وكلها تشكل عصب الحياة الرئيسي في كل سجن. وعادة يحتاج السجين لعدة سنوات كي يُنقل من الفئة (د) الى الفئة (جـ).

كنا نبغض نظام التصنيف، فهو نظام فاسد ومهين وهو وجه آخر من وجوه قمع السجناء عموما والسجناء السياسيين خصوصا. ولكن رغم انتقادنا له لم يكن بإمكاننا تجاهله فهو من المعالم الثابتة للحياة في السجون، فطالبنا بأن يدرج جميع السجناء السياسيين تحت فئة واحدة. إذا كنت من الفئة (د) وشكوت من أنك لا تتسلم إلا رسالة واحدة كل ستة أشهر قيل لك ارفع من مستوى تصرفاتك لتنقل الى الفئة (جـ) وسوف تتسلم رسالتين كل ستة أشهر. أما إذا اشتكيت من أنك لا تحصل على ما يكفي من الطعام فسوف تُذكّر بأنك لو كنت من الفئة (أ) لسُمح لك بجلب أموال من خارج السجن واقتناء مأكولات إضافية من دكان السجن. إن القدرة على اقتناء المشتريات والكتب مفيدة حتى بالنسبة للمناضلين.

كانت التصنيفات عادة تتناسب مع الفترة التي يقضيها المرء في السجن. فالمحكوم عليه بثمان سنوات مثلا يصنف من الفئة (د) لمدة سنتين ثم يقضي بعد ذلك سنتين في كل فئة من الثلاث الباقية (جـ) و(ب) و(أ). ولكن ادارة السجن كانت تستخدم التصنيفات سلاحا ضد السجناء السياسيين فتهددهم بإدراجهم في فئة أقل من أجل التحكم في تصرفاتهم.

كنت قضيت في السجن زهاء سنتين عند وصولي الى الجزيرة ولكنني صنفت من الفئة (د). ورغم حرصي على الامتيازات التي توفرها الفئات الأعلى رفضت أن أغير من تصرفاتي. فقد كان الخنوع وعدم الشكوى أقصر طريق الى فئة أعلى، وكان الحراس يعيرونني بقولهم:

- آخ يا مانديلا. أنت صاحب مشاكل، وستظل في الفئة (د) طول عمرك.

يُستدعى السجناء مرة كل ستة أشهر للمثول أمام هيئة السجن لإعادة تقييم التصنيف. ومهمة الهيئة النظر في سلوك السجين في ضوء الأنظمة المعمول بها، ولكننا اكتشفنا أن الهيئة تفضل أن تتصرف كمحكمة سياسية وليس مجرد هيئة لتقييم السلوك. في أول جلسة لي أمام الهيئة سئلت عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ومعتقداتي السياسية. ورغم أن ذلك لا علاقة له بنظام التصنيف أبت عزة نفسي إلا أن أجيب طمعا في إقناع بعض أولئك المسؤولين بأفكاري. كانت تلك من المرات القليلة التي نعامل فيها كآدميين وانسجمت أنا

شخصيا مع الحديث، ولكنني فطنت فيما بعد الى أن ذلك لم يكن سوى وسيلة لاستخلاص معلومات وأنه فخ وقعت فيه. بعد ذلك اتفقنا جميعا على الامتناع عن مناقشة أي قضايا سياسية مع هيئة السجن.

كنت سجينا من الفئة(د)ولي الحق في استقبال زائر واحد وإرسال وتسلم رسالة واحدة فقط كل ستة أشهر، وكان ذلك في رأيي من أكثر أنظمة السجن قسوة. فالاتصال بالأسرة حق إنساني ولا يجوز تقييده بأنظمة السجن التعسفية، ولكن هكذا هي حياة السجون.

الزيارات والرسائل محصورة في أقرب أفراد العائلة، ولم يكن ذلك مجرد تقييد مزعج بل كان عنصريا كذلك لأن منزلة أفراد العائلة الواحدة تختلف عند الأفريقيين عن المفهوم السائد لدى الأوروبيين أو الغربيين. فالأسرة عندنا تتسع لتشمل كل من له قرابة أو اشتراك في النسل.

الأخبار غير المفرحة عن الأسرة لها وقع مؤلم على السجين، ولكن الأسوأ من ذلك عدم تسلمه الأخبار أصلا. فمواجهة الكوارث والمآسي التي يتخيلها المرء أصعب كثيرا من مواجهة الأحداث الحقيقية مهما كانت كئيبة أو مؤلمة. إن تسلم رسالة تحمل خبرا محزنا أفضل بكثير من عدم تسلم رسالة أصلا.

وحتى هذا التقييد التعيس كانت الادارة تسيىء استعماله. كنا نتشوق الى وصول البريد بفارغ الصبر، وكان موعد ذلك مرة في الشهر، ولكن ربما مرت ستة أشهر دون وصول رسالة واحدة. وعدم تسلم الرسالة الوحيدة المسموح بها مرة كل ستة أشهر هو في هذا ذاته صدمة تدفع بالمرء في دوامة من القلق والتساؤلات. ماذا ياترى قد أصاب زوجتي وأطفالي؟ ماذا ياترى قد أصاب أمي وأخواتي؟ فعندما لا أتسلم رسالة أحس بجفاف روحي كجفاف الصحراء. وكان المسؤولون أحيانا يتعمدون تأخير تسليم الرسائل نكاية في السجناء. ولا زلت أذكر ما كان يقوله الحراس:

- يا مانديلا. وصلتنا رسالة لك ولكننا لا نستطيع تسليمها لك بعد.

يقال ذلك دون تفسير أو توضيح، وكان ذلك الموقف يتطلب كل ما في وسعي من رباطة الجأش كي لا انفجر في وجه الحارس، وكنت أحيانا أشتكي من خلال القنوات الرسمية فتسلم لي رسائلي.

كنا نفرح بالرسائل عند وصولها، فهي كالغيث ينعش الصحراء في فصل الصيف. لم أكن اندفع لانتشال الرسائل بل كنت أتسلمها على مهل. ورغم شوقي الشديد لفتحها وقراءتها فورا لم أكن لأعطي المسؤولين الفرصة لمشاهدة تلهفي عليها، فأعود الى زنزانتي على تؤدة وكأن في ذهني مشاغل أخرى كثيرة تلهيني عن قراءة الرسالة.

تسلمت خلال الأشهر الأولى رسالة واحدة من ويني ولكن بعد أن عمل فيها قلم الرقيب عمله فلم يبق منها سوى التحية. كان الرقباء يستعملون الحبر لإخفاء الكتابة ولكنهم تخلوا عن ذلك عندما اكتشفوا أننا كنا نزيل الحبر بالماء ونقرأ ما تحته ولجؤوا الى قص

فقرات كاملة بالمقص ونظرا الى أن معظم الرسائل كانت تكتب على وجهي الورق فقد كنا نفقد الكلام المكتوب على الوجه الآخر أيضا. وكان الحراس يتلذذون بتسليمنا رسائل مقطعة إربا إربا. وكانت المراقبة تعطل توصيل الرسائل شهرا كاملا أحيانا لأن بعض المراقبين لم يكونوا يحسنون قراءة الإنجليزية. كما خضعت ردودنا هي الأخرى للمراقبة وكانت تصل إلينا مخرمة ممزقة.

بعد ثلاثة شهور من وصولي الجزيرة وفي آخر شهر أغسطس أخبرت بحضور زائر في اليوم التالي ولم يذكروا لي اسمه. كما أخبر وولتر كذلك الخبر نفسه. تملكني أمل بأن يكون الزائران هما ويني وألبيرتينا.

سعت ويني منذ لحظة سماعها بنقلنا الى الجزيرة في الحصول على إذن زيارة، ونظرا الى أنها كانت تحت الحظر السياسي هي الأخرى كان عليها الحصول على إعفاء خاص بذلك من وزير العدل إذ لا يجوز لها من الناحية القانونية الاتصال بي بأي شكل من الأشكال.

زيارة الجزيرة أمر محفوف بالمتاعب حتى في حالة تعاون الادارة. الزيارات محددة بنصف ساعة والسجناء السياسيون غير مسموح لهم بملامسة زوارهم إن جمعتهم حجرة واحدة.

لم يكن هناك نظام محدد للزيارات. فربما تسلمت زوجة السجين إشعارا بأن موعد الزيارة في اليوم التالي وهي غير مستعدة فتضطر الى إلغائها. وإذا رتب أحد أفراد العائلة زيارة مسبقا فربما تعمدت السلطات تأخير إصدار التصريح الى ما بعد إقلاع الطائرة مثلا، ونظرا الى أن غالبية أسر المساجين معدمة وتقيم بعيدا عن منطقة الكيب فإن التكاليف غالبا ما تكون أكثر مما تطيق. وهناك سجناء لم يروا زوجاتهم لعدة سنوات، هذا إن رأوهم أصلا، أثناء فترة السجن، وعرفت رجالا قضوا عشر سنوات أو أكثر دون أن يستقبلوا زائرا واحدا.

كانت حجرة الزيارة صغيرة وخالية من النوافذ، وكانت مقسمة الى صفين من مقصورات صغيرة خمس منها على كل صف وبين الصفين حاجز به ألواح من الزجاج السميك المعتم بحيث يكون بين كل مقصورتين لوح. يجلس كل من السجين وزائره على جانبي اللوح الزجاجي المثقب ثقوبا صغيرة يستطيع منها سماع صاحبه. كنا نضطر الى رفع أصواتنا كي نسمع ثم ركبت الادارة لاقطات ومكبرات صوت وهي إضافة مشكورة.

نودي عليّ وعلى وولتر عند الضحى فذهبنا الى مكتب الزيارة وجلسنا في آخر. انتظرت بتلهف، وفجأة ظهر وجه ويني المشرق خلف الزجاج. كانت ويني ترتدي أحسن ثيابها عند الزيارة وغالبا ما ترتدي ملابس جديدة وأنيقة. وكان أكثر ما يؤلمني عدم قدرتي على أن أمسك بيد زوجتي وأن أتحدث إليها برقة وأن أخلو بها لنفسي لحظات. كان علينا أن نتواصل بهذه الطريقة وتحت عيون أناس كنا نبغضهم أشد البغض.

أدركت فورا أن ويني تعاني نفسيا ولا شك أن رؤيتها لي في تلك الحال زاد لها هما وكآبة. إن مجرد الوصول الى الجزيرة أمر شاق، فما بالك بإجراءات السجن القاسية والإهانات الصادرة عن الحراس وجفاف اللقاء الخالي من كل عاطفة.

علمت أن حظرا جديدا فرض على ويني مما ترتب عليه فصلها من عملها في مكتب رعاية الأطفال، وأن مكتبها فتش من قبل الشرطة قبيل فصلها من الوظيفة لأن السلطات كانت على يقين بأنها على اتصال معي سرا. كانت ويني مغرمة بعملها كمرشدة اجتماعية وكانت تؤدي من خلاله خدمات جمة للنضال كإيجاد أسر للأطفال اليتامى وتوظيف العاطلين وتوفير العناية الصحية للمعوزين. تأثرت لفرض حظر ثان عليها ولما تلاقيه من مضايقات، وأحسست بعجز ينخر فؤادي لعدم قدرتي على توفير العناية لها ولأطفالها في الوقت الذي تسعى الدولة الى مضاعفة همومها ومسؤولياتها.

تعثر الحديث ولم يخفف من ذلك وقوف حارسين على رأسها وثلاثة حراس على رأسي. لم يقتصر دورهم على المراقبة بل تعداه الى المضايقة والاستفزاز. تنص التعليمات على التحدث إما بالإنجليزية أو الأفريكانا ويمنع التحدث باللغات الأفريقية وعلى اقتصار الحديث عن الأمور العائلية. وربما أدى التطرق لأي أمور ذات صبغة سياسية الى إنهاء المقابلة فورا. وإذا ذكر أحد اسما غير معروف لدى الحراس قاطعوه يسالونه عن هويته والعلاقة التي تربطه به. وكان ذلك يتكرر كثيرا لأن الحراس عموما جهلة بالأسماء الأفريقية وتنوعها. ومما يبعث على الإحباط تضييع تلك الدقائق الثمينة في شرح الأسماء والصلات العائلية للحراس. ولكن جهلهم جاء من صالحنا لأنه ساعدنا على إعطاء أسماء مستعارة لشخصيات كنا نرغب في الحديث عنها متظاهرين بأنهم أقارب أو من أفراد العائلة.

كانت الزيارة الأولى مهمة لأنني كنت أدرك أن ويني كانت قلقة على صحتي خاصة وأنها سمعت قصصا بأننا كنا نتعرض لسوء المعاملة. طمأنتها على صحتي رغم خفة وزني عما كنت عليه. وكانت هي الأخرى أخف وزنا وأوعزت ذلك الى التوتر النفسي، فقد كانت تتعمد تخفيف الوزن وكنت أنصحها بعكس ذلك. سألتها عن الأطفال واحدا واحدا، وعن أمي وأخواتي وعن أفراد عائلتها هي.

وفجأة سمعت الحارس من ورائي يصيح:

– انتهى وقت الزيارة! انتهى وقت الزيارة!

التفت نحوه ولم أصدق ما يقول إذ من المستحيل أن يكون انقضى نصف ساعة من الزمن. ولكنه كان على حق. فالزيارات كانت تنتهي في غمضة عين، ولكنني – رغم السنوات الطويلة التي قضيتها في السجن – كنت أفزع كل مرة ينادي فيها الحارس بأن الوقت قد انتهى!

غادر كل منا كرسيه وودع كل منا الآخر، وكم كنت أتمنى الإنتظار مكاني للحظات بعد أن تغادر ويني لأحس أكثر بحضورها ولكنني كنت أخفي على الحارس تلك المشاعر. في الطريق الى زنزانتي أستعرض في ذهني ما تحدثنا عنه وأظل أعود الى لحظات تلك الزيارة يوما بعد يوما وأسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر. كنت أعلم أنني لن أرى زوجتي لمدة ستة أشهر أخرى ولكن الأقدار شاءت ألا أراها بعد تلك الزيارة لمدة سنتين كاملتين.

- ٦٤ -

وقفنا ذات صباح في يناير في طابور الحضور الذي يسبق العمل ولكن بدلا من الاتجاه الى الساحة أمرنا بالصعود في شاحنة مغطاة وكانت تلك أول مرة نغادر فيها المبنى. لم يعلن عن المكان المقصود ولكنني احسست بأنني أعرف الى أين نحن ذاهبون. بعد دقائق توقفت الشاحنة وإذا بنا في مَقلَع الحجر الجيري، أي المَحْجَر، وهو الموقع الذي زرته أول مرة في زيارتي السابقة للجزيرة عام ١٩٦٢ . والمَحْجَر عبارة عن حفرة ضخمة كفوهة بركان محفورة في مرتفع صخري، وكان يشع بياضا. ظهرت في أعلى المَحْجَر الأعشاب وأشجار النخيل وفي أسفله سهل به عدد من أكواخ الصفيح.

استقبلنا آمر السجن العقيد فيسيلس Colonel Wessels وهو رجل لا لون له، همه الوحيد الالتزام الحرفي بقواعد السجن. أخبرنا أن العمل الذي سنقوم به سوف يستغرق ستة أشهر نكلف بعدها بأعمال خفيفة حتى نهاية مدة السجن. لقد أخطأ الحساب بنسبة كبيرة إذ قضينا في المَحْجَر ثلاثة عشر عاما.

أعطينا فؤوسا ومجارف وإرشادات مقتضبة عن حفر الجير وهو عملية ليست بسيطة، ولم نستخرج في ذلك اليوم سوى كمية محدودة. والجير هو عبارة عن ترسبات متكلسة من صدف البحر والمرجان مدفونة على شكل طبقات من الصخر. والمطلوب منا الحفر بحثا عن الجير ثم استخراجه بالمجرفة، وكان العمل يتطلب جهدا أكبر من الذي تطلبه كسر الحجارة في فناء السجن. كان يبلغ منا التعب مبلغه فكنا نستسلم للنعاس بمجرد تناول وجبة العشاء في الرابعة والنصف مساء ثم نستيقظ في الصباح التالي متعبين منهكين.

لم يقدم لنا أي تفسير لنقلنا من العمل في السجن الى المَحْجَر، وربما كان السبب الحاجة الى الجير لبناء الطرق في الجزيرة. ناقشنا الموضوع وكان الأغلبية يروى أنه وسيلة لفرض الانضباط ولإشعارنا بأننا لا نختلف عن بقية السجناء الذين يعملون في مقالع الحجر، وأننا سندفع ثمن جريمتنا كما يدفعون، كما كانت محاولة منهم لتحطيم معنوياتنا.

ولكن الأسابيع الأولى في المَحْجَر جاءت بنتائج عكسية تماما، إذ بعثت فينا روحا جديدة من الحيوية. كنت أفضل العمل في الهواء الطلق ورؤية العشب والأشجار والطيور المحلقة في الجو واستنشاق نسيم البحر. كان ممتعا أن يستخدم المرء عضلاته ويحس لفيح الشمس على ظهره، اضافة الى الشعور بالرضا عند إنجاز العمل.

بعد أيام صرنا نسير الى المَحْجَر مشيا على الأقدام وكان في تلك الرحلة التي استغرقت عشرين دقيقة متعة أخرى وإحساس أعمق بالجزيرة. كنا نشاهد الأشجار والشجيرات الكثيفة التي تغطي الأرض ونستنشق رائحة أشجار الأوكالبتوس ونشاهد الظباء وبقر الوحش يرتع في الحقول. لم أجد كما وجد غيري كدا في المشي الى المَحْجَر كل يوم.

رغم أن الهدف من العمل في المَحْجَر كان إشعارنـا بالمساواة ببقية السجناء إلا أن الادارة ظلت تعاملنا كالجـذامى الذين عمـروا هذه الجزيـرة في العصـور الغابرة. كلمـا اقتـربنا من مجـرمين عاديـين يعملون قـريبا من الطريق أمـرهم الحراس بالتـواري وراء الأشجـار كي لا يروننا وكأن مجـرد رؤيتهم لنا ستؤثر على سلوكـهم. وكنا أحيانا نلمح أحد السـجناء رافعا قبضته بتحية حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

كـان الطريق يتفـرع فرعين قـبل المَحْجَر بقليل فـيذهب السـجناء الآخرون يمينا في اتجـاه مَحْجَر الحجـر. أصبح هذا المفـترق في وقت لاحـق نقطة اتصال مـهمـة بيننا وبينهم. وعند المفترق كنا نشاهـد أيضا البيت الأبيض الصغير الذي يؤوي روبرت سـوبوكوى زعيم حزب المؤتمر القـومي الأفريـقي. خصص البـيت قـبل سنوات لأحد الحـراس السـود والآن يسكنه سوبوكـوى بمفرده وتحيط به أعـشاب كثيفة وتبـدو الأرض من حوله مهـملة ولولا الحارس الواقف أمامه لظننت أنه مهجور.

انقضـت مدة حكم سـوبوكوى عام ١٩٦٣ ولـكن وزير العدل صـار مخولا بمـوجب ما عرف ببند سـوبوكوى من قانون تعديل القـانون العام لسنة ١٩٦٣ بأن يمدد اعتقـال السجين السيـاسي الى أمد غيـر محدد. وهذا ما فـعلوه في حالة سوبوكـوى تماما، فقـد عاش ست سنوات حياة غير مـستقرة على الجزيرة إذ كان حرا لكن حريتـه مسلوبة. كنا أحيانا نراه من بعيد يتمشى في حديقته.

عندما نصل المَحْجَر في الصـباح نتجه الى كـوخ من الصفيح فنلتقط الـفؤوس والمجارف والعربات اليدوية ثم نلتقي مجموعـات من ثلاثة أو أربعة أشخاص عند سفح الجبل، وكان الحـراس بأسلحتـهم الرشاشـة يراقبـوننا من على منصـات عاليـة. كمـا يجول حـراس غيـر مسلحين بيننا يستحثوننا على العمل ويصرخون فينا وكأننا عجول.

مع ارتفـاع الشمـس عند الحادية عـشرة يصيـبنا الإرهاق ونغـرق في سـيول من العـرق فيـستـحثنا الحرس علـى الحفر أكـثر من ذي قـبل. وقبيل الظهـيرة نجـمع الجير فـي العربات فندفعها الى الشاحنة التي تقله.

عند منتـصف النهار تدوي صـفارة فنتـجمـع عند أسفل الجـبل. كنا نجلس على الأرض لتناول الغداء تحت مظلة من الصفيح بينما يجلس الحـراس تحت مظلة أكبر يتناولون طعامهم على مائدة جالسين على الكراسي. كانت تأتينا براميل الذرة المسلوقـة فيأخذ كل منا نصيبه، وكانت تحلق فوقنا رؤوسنا مـئات من طيور النورس وربما وقع روثها في طبق أحدنا فـحرمه من طعامه ذلك اليوم.

يستمر العمل حتى الرابعة عندما نحمل الجير في العربات الى الشاحنة وقد كسا وجوهنا وملابسنا الجـير الأبيض وكأننا أشبـاح. ثم نعود الى الزنزانات فنزيل الجيـر بالماء البارد دون أن نتخلص من الغبار تخلصا كاملا.

لم يكن أسـوأ من الحـرارة في المَحْجَر إلا نور الشـمس الـذي ينعكس قـويا على الجيـر

فيخترق العيون مما تتعذر معه الرؤية. كنا نقضي معظم الوقت مغمضي العينين وكانت عيوننا تحتاج الى فترة طويلة من الوقت بعد انتهاء العمل كي تتكيف مع النور الطبيعي من جديد.

بعد أيام من بداية العمل في المحْجَر تقدمنا بطلب لتزويدنا بنظارات شمسية فرفض كما توقعنا لأنه لم يسمح لنا آنذاك حتى بنظارات للقراءة. وكنت أشرت لآمر السجن مرة إنه ليس من المعقول أن يسمح لنا بالقراءة ولا يسمح لنا بنظارات تساعدنا عليها.

كررنا طلب النظارات الشمسية ولم نحصل عليها إلا بعد نحو ثلاث سنوات، وذلك بعد موافقة طبيب العيون على أنها ضرورية لحماية عيوننا. ومع ذلك فقد كان علينا أن نشتري النظارات من أموالنا الخاصة.

لم تكن المعارك التي خضناها داخل السجن من أجل النظارات الشمسية والسراويل الطويلة والقراءة والتساوي في الطعام وغيرها، سوى روافد لمعركتنا الكبرى خارج السجن. فالحملة من أجل تحسين أوضاع السجن هي جزء من الكفاح ضد نظام التفرقة العنصرية. إنها معركة واحدة ضد الظلم حيثما وجد ومهما كان حجمه، كنا نخوضها من أجل حماية إنسانيتنا.

***

التحق بنا في العنبر (ب) بعد ذلك بقليل عدد من السجناء السياسيين البارزين كان من بينهم أعضاء في حركة (أمكا) اعتقلوا في يوليو ١٩٦٤ وأدينوا بارتكاب ما يزيد عن خمسين عملية تخريب فيما عرف بمحاكمة ريفونيا الصغرى. ضمت القائمة ماك ماهاراج Mac Maharaj عضو الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا ومن أذكى عناصر حركة النضال، ولالو شيبا Laloo Chiba عضو القيادة العليا لحركة (أمكا) والزميل المخلص الذي كان له دور كبير داخل السجن، وويلتون مكاواي Wilton Mkwayi الذي أفلت من محاكمة الخيانة خطأ عند إعلان حالة الطوارىء عام ١٩٦٠ وغادر جنوب أفريقيا سرا لتلقي التدريب العسكري ثم أصبح القائد الأعلى لحركة (أمكا) في أعقاب محاكمة ريفونيا. والتحق بنا إدّي دانيالز Eddie Daniels وهو من الأعضاء الملونين في حزب الأحرار وقد أدين في عمليات تخريب قامت بها حركة المقاومة الأفريقية African Resistance Movement وهي منظمة إرهابية صغيرة تضم أعضاء من حزب الأحرار. وأصبح إدّي من أعز أصدقائي داخل السجن.

ولكن الادارة نقلت مقابل ذلك الى عنبرنا عددا من السجناء المجرمين أدينوا في قضايا اغتصاب وقتل وسرقات، وكانوا أعضاء في عصابات الإجرام في الجزيرة المعروفة باسم بيغ فايفز Big Fives (الخمسة الكبار) أو توينتي آيتس Twenty Eights (الثمانية والعشرون) التي كانت تبث الرعب بين السجناء. كانوا مفتولي العضلات متعجرفين تظهر على وجوههم الأخاديد من أثر ضربات سكين أصيبوا بها في المعارك التي كانت تنشب بينهم. كان دورهم

التحـريض والإستفزاز وإثارة الفتن فـيما بيننا والاستيلاء على نصيـبنا من الطعام ومنعنا من الدخول في مناقشات سياسية. كان أحدهم يعرف باسم بوغارت Bogart تشبها بممثل الفتوة الأمريكي المشهـور، وكانت زنزانته مقابل زنزانـة وولتر فاشتكاه وولتر للمـسؤولين لأنه كان يستولى على فطوره كل يوم ولا طاقة له بمنعه من ذلك.

كـان أعضـاء العصـابات يعـملون منفصـلين عنا في المَحْجَر، وإذا بهم ذات يوم يرددون أغنية من أغاني العمال الشعبية المشهورة تقول كلماتها: "مـاذا كنت تريد في ريفونيا". أما الشطرة الثانية فـتقول: "هل كنت تطمع أن تصبح أنت الحكومة". غـيروا بعض الكلمات الأصلية وكانوا يغنون بحمـاس ونبرات ساخرة، وكان واضحا أن الحراس كـانوا يشجعونهم أملا في استفزازنا وإثارتنا.

أراد البعض أن ننتـقم ولكننا اخترنا أن نواجـههم بالسلاح نفسه وكان بيننا من يفـوقهم قدرة على الغناء فوضعنا خطة للرد، وبدأنا في ترديد أحد الأناشيد الحماسية عن قطار قادم من روديسيـا الجنوبية. لم يكن النـشيد سـياسيـا ولكنه أصبح تحت تلك الـظروف كذلك إذ كانت الإشارة الى قطار محمل بالفدائيين قادم لقتال جيش جنوب أفريقيا.

تواصلت معـركة الغناء عدة أسابيع وأصـبحنا نردد أغان سيـاسية صريحة كـأغاني جنود حرب العـصابات التـي تشبه النـضال بالقطار المقـبل بسرعـة وأغان عن مـيثاق الحـرية وعن ترانسكاي التي جـاء فيـهـا: "للنضال طريقـان: طريق مـاتانزيما وطريق مـانديلا، فـأيهـمـا ستختار؟"

خفف الغناء من مـشقة العمل وكـانت هناك أصوات ممتازة وددت أن أضع فأسي جـانبا وأستمع إليها. كنا مـتفوقين على فرقة العصابات وكانوا سرعـان ما يصمتون ونواصل نحن الغناء والترنيم. كان أحد الحراس يتقن لغة الكوسا وكان يفهم ما نقول فصدرت أوامر بمنعنا من الغناء، كما منع التصفير، فواصلنا العمل في صمت.

لم أعتبر أعضـاء العصابات الإجرامية منافسين لنا بل خامات يمـكن تجنيدها. فقد التحق بالحزب أحد السجناء غير السياسيين يدعى جو "ماي بايبي" "Joe My Baby" ولعب دورا قيما في تهريب مواد من السجن وإليه.

علمنا ذات يوم أن بوغارت ضُرب ضربا مبرحا من قبل أحد الحراس في المَحْجَر وكانت علامـات الضرب واضحة على وجـهه. اقترب مني في ممـر العنبر وطلب المساعدة فـوافقت فورا على أن أرفع قضيته للادارة.

كنا دائما نبـحث عن وسائل نتصـدى بها للادارة، والضـرب من الحوادث التي يمكن أن نرفع بها شكوى لآمـرية السجن. علمنا بعد ذلك بفـترة أن عضوا في حـزب المؤتمر القومي الأفـريقي يدعى غـانيـا Ganya تعرض للضـرب فوجهت رسالة احـتجاج نيابة عنه بصـفتي محـاميا الى مـفوض السجـون. استدعـيت للمكتب الرئيسي حـيث واجهني مـسؤولون في السجن أنكروا وقـوع الحادث وطلبوا مني أن أخبـرهم كيف سـمعت الخبـر. أصررت على

إقصاء الحارس الذي ضرب غانيا عن الجزيرة فرفضوا بحجة عدم وجود أدلة ضده، ولكنه نقل من الجزيرة بعد ذلك بفترة قصيرة.

شجعتني تلك الحادثة، وعندما طلب مني بوغارت مساعدته طلبت مقابلة آمر السجن فورا. استدعيت للمكتب الرئيسي في اليوم التالي حيث أخبرني الآمر بأنه حُقق في القضية وبت فيها، فقلت فورا:

- هذا مخالف للقواعد. لا بد من إجراء محاكمة.

- كلا. حاولنا أن نأخذ أقوال المدعي - كما تسميه - فانكر أنه تعرض لأي اعتداء.

- مستحيل، فقد تحدثت معه أمس وأكد لي أنه اعتدي عليه.

- إذن، تفضل شاهد بنفسك.

أشار الآمر الى أحد الضباط فأدخل بوغارت الى الغرفة - وكان وجهه معصوبا بالضمادات - فسأله الآمر إن كان تعرض للضرب، فأجاب بصوت خافت دون أن تقابل عيناه عيناي:

- كلا ياسيدي! لم أتعرض الى اعتداء قط.

أشار الآمر له بالإنصراف فانصرف ثم التفت الى قائلا:

- ما قولك الآن يا منديلا؟ القضية أقفلت.

نجح آمر السجن في إهانتي ولا شك في أنه رشا بوغارت بشيء من الطعام أو التبغ كي يتخلى عن شكواه. عمدت منذ ذلك التاريخ على أن يتقدم السجين الي بطلب تحريري موقع عليه قبل أن أقرر المرافعة عنه أمام ادارة السجن.

- ٦٥ -

اكتشفنا في يوم من أيام صيف عام ١٩٦٥ شحما في وجبة الفطور وقطعا من اللحم في وجبة العشاء. وفي اليوم التالي صرفت لبعض السجناء قمصان جديدة، وبدت معاملة الحراس لنا في العنابر وفي المَحْجَر أكثر ودا واحتراما. ارتبنا في الأمر، ففي السجن لكل تحسن في الأوضاع سبب. أخبرنا بأن وفدا من الجمعية الدولية للصليب الأحمر سيزور الجزيرة في اليوم التالي.

إنها مناسبة هامة جدا، وأهم من كل الزيارات الرسمية السابقة. فجمعية الصليب الأحمر منظمة عالمية مسؤولة ومستقلة تصغى لها القوى الغربية ومنظمة الأمم المتحدة. كما أن ادارة السجن كانت تحترم جمعية الصليب الأحمر، وأعني بذلك أنها كانت تخشاها لأن السلطات في جنوب أفريقيا لا تحترم إلا من تخشاه. وادارة السجن لم تثق في أي منظمة لها تأثير على الرأي العام العالمي ولم تعتبرها هيئات شرعية تتقصى الحقائق وعليها أن تتعامل معها بصدق وأمانة، بل اعتبرت أنها متطفلة تتدخل في شؤونها وعليها تضليلها وذر الرماد في عيونها بقدر المستطاع. فقد كان الهدف الأول والوحيد للسلطات هو تفادي الشجب والنقد الدولي.

كانت جمعية الصليب الأحمر آنذاك المنظمة الوحيدة التي استمعت لشكاوانا واستجابت لها، وهو أمر في غاية الحيوية لأن الادارة تجاهلتنا بالكامل. نصت القوانين على أن من واجب الادارة وضع إجراءات رسمية لتسجيل شكاوانا، وقامت بذلك فعلا ولكن في إطار روتيني بحت. كان الحارس المسؤول يدخل العنبر صباح كل يوم سبت فينادي:

- الشكاوى والطلبات! الشكاوى والطلبات!

كنا نصطف ونعرض عليه شكاوانا الرسمية الخاصة بالطعام وبالملابس وبالزيارات واحدا واحدا فيهز رأسه في كل مرة قائلا:

- حسنا! حسنا! الذي يليه.

لم يكن يكتب شيئا. وإذا تحدثنا نيابة عن تنظيماتنا كان المسؤول يرد بقوله:

- لا وجود هنا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي أو حزب المؤتمر القومي الأفريقي!

قبيل موعد زيارة وفد جمعية الصليب الأحمر قدمنا قائمة شكاوى رسمية لمفوض السجون، وكان مسموحا لنا آنذاك باستخدام الورق وقلم الرصاص لكتابة الرسائل فقط. تشاورنا في القائمة أثناء العمل في المَحْجَر وفي المراحيض، وقدمناها للحارس المسؤول عن العنبر فرفض تسلمها واتهمنا بخرق قواعد السجن. كانت إحدى الشكاوى أن الادارة لم تستمع لمظالمنا.

في يوم الزيارة استدعيت للمكتب الرئيسي لمقابلة ممثل الصليب الأحمر السيد سين Mr Senn وكان مديرا للسجون في بلده السويد ثم هاجر الى روديسيا، وكان في منتصف الخمسينات من العمر يمتاز بالهدوء وبعض الإرتباك لا يبدو عليه الإرتياح في موقعه.

لم يكن اللقاء مراقبا وهو عامل هام جعله يتميز عن كل اللقاءات السابقة. طلب الاستماع الى كل شكاوانا ومظالمنا وأنصت بعناية فائقة مدونا كل صغيرة وكبيرة. ورغم ذلك فقد ساد تلك الزيارة بعض توتر إذ لم يكن أحدنا يعرف ما ينبغي أن يتوقعه من الآخر.

احتججت بشدة عن الملابس مؤكدا أننا لم نقبل بارتداء السراويل القصيرة وأننا نطالب بملابس مناسبة بما في ذلك الجوارب والملابس الداخلية التي لا تصرف لنا. وأشرت الى مآخذنا على الطعام وشكاوانا الخاصة بالزيارات والرسائل والدراسة والتمارين الرياضية والعمل الشاق وتصرفات الحراس. تقدمت بعدد من الطلبات كنت موقنا بأن الادارة لن تستجيب لها كرغبتنا في نقلنا الى سجون قريبة من أهلنا وذوينا.

بعد نهاية اللقاء اجتمع سين بمفوض السجون ومعاونيه وبقيتُ انتظر، وافترضت أنه نقل إليهم ما شرحت له، وإنه بين لهم ما يراه معقولا من تلك الشكاوى والطلبات. بعد تلك الزيارة لاحظنا تحسنا في الملابس وصرفت لنا سراويل طويلة. ولكن سين لم يكن تقدميا بأي شكل من الأشكال ويبدو أنه تأثر خلال سنواته التي قضاها في روديسيا بالعنصرية. فقبل أن أعود الى زنزانتي ذكرته بأن السجناء الأفارقة لا يحصلون على خبز، فظهر عليه الإرتباك ونظر الى العقيد آمر السجن ثم قال لي:

– كما تعلم يا مانديلا الخبز ضار جدا للأسنان، والذرة أفضل بكثير لصحتك وتقوي أسنانك.

زارنا في السنوات اللاحقة ممثلون عن الصليب الأحمر أكثر ليبرالية بذلوا أقصى جهدهم لتحسين أوضاعنا. كما لعبت الجمعية دورا حيويا على صعيد آخر لا يقل أهمية بالنسبة لنا وهو توفير المال أحيانا لزوجاتنا وأقاربنا الذين لم يكن بوسعهم زيارتنا في الجزيرة.

ساد القلق بعد وصولنا الجزيرة خوفا من عدم السماح لنا بالقراءة في المعتقل، ولكن بعد شهور قليلة دعت الادارة الراغبين في القراءة الى التقدم بطلباتهم. تقدم أغلب السجناء ولبيت طلباتهم رغم أنهم سجناء من فئة (د). كانت الدولة في نشوة النصر بعد نجاح محاكمة ريفونيا وظنت بأن السماح لنا بالقراءة لا ضرر من ورائه، ولكنها ندمت على ذلك القرار فيما بعد. استثنيت من منع الدراسات العليا لوجود سابقة أثناء سجني في بريتوريا.

سجل كثير من سجناء العنبر لدراسات جامعية بينما التحق آخرون للدراسات الثانوية. وكان بيننا رجال على مستويات عالية من التعليم مثل غوفان امبيكي ونيفيل أليكساندر. في غضون شهور قليلة كان الجميع يحضرون لشهادة دراسية من نوع أو آخر، وتحولت الزنزانات في المساء الى قاعات مطالعة.

غير أن سماحهم لنا بالقراءة جاء مشروطا بعدة شروط. فمنعت الدراسات السياسية

والعسكرية، ولم يسمح لنا بتسلم أموال إلا من أهلينا وأسرنا. ولم يكن المعوزون من السجناء يملكون المال لتسديد الرسوم واقتناء الكتب، وأصبح المال عنصرا أساسيا في قدرة المرء على مواصلة الدراسة. كما لم يسمح لنا بإعارة الكتب بعضنا لبعض فحرم المعوزون منا من الحصول على الكتب.

دار جدل طويل بشأن قبول الامتيازات الخاصة بالدراسة. فقد رأى بعض أعضاء حركة الوحدة أننا نقبل العطية من الحكومة على حساب كرامتنا، وأصروا على أن التعليم لا ينبغي أن يكون مشروطا بل هو حق مطلق للجميع. لم أعترض على المبدأ ولكنني لم أقبل بأن نرفض الدراسة بالكامل. فإن من واجبنا كمناضلين وكسجناء سياسيين أن نرفع من مستوياتنا والدراسة هي إحدى الوسائل لتحقيق ذلك.

سمح للسجناء بالالتحاق بجامعة جنوب أفريقيا أو بكلية النتائج السريعة Rapid Results College الخاصة بالمرحلتين الإعدادية والثانوية. وكان التحاقي بجامعة لندن نعمة لم تخل من نقمة، فمن جهة أتيحت لي فرصة الإطلاع على كتب لم تكن متوفرة في جنوب أفريقيا، ومن جهة أخرى اعتبرت الادارة أكثر تلك الكتب غير مناسبة ومنعت وصولها اليّ.

كان الحصول على الكتب نفسه معاناة. فربما تقدم المرء بطلب كتاب من مكتبة في جنوب أفريقيا ووصله بعد انتهاء مدة الإعارة بسبب بعد الجزيرة وعدم انتظام الخدمات البريدية والتعطيل المتعمد من قبل المراقبين في السجن. وكان الحراس يعيدون الكتاب الذي انقضى أجله الى مصدره دون إشعار المستعير. وربما غُرّم السجين لتأخير إرجاع الكتاب دون أن يتسلمه!!

كما سمح لنا بطلب الدوريات ذات العلاقة بموضوع الدراسة، ولكن الادارة كانت متشددة جدا في مراقبتها ولم تسمح إلا بكتب محدودة جدا. ولكن ذات يوم أوعز ماك ماهاراج الى أحد الرفاق بأن يطلب مجلة الإكونومست Economist اللندنية فضحكنا لذلك الإقتراح، ولكن ماك ابتسم وقال إن الادارة تميز الكتب بعناوينها فقط. وفي غضون شهر بدأت تصلنا مجلة الإكونومست ونقرأ فيها ما كنا نتلهف له من أخبار. اكتشفت الادارة خطأها وأوقفت الإشتراك. وما أن شرعنا في الدراسة حتى بدأنا نطالب بمستلزماتها من مقاعد وكراسٍ وما اليها، ورفعت شكوى بذلك الى الصليب الأحمر، ووافقت الادارة بعد لأي على تركيب مقاعد في كل زنزانة كان ارتفاعها عن الأرض بمستوى الصدر تقريبا.

لم تكن المقاعد مريحة خاصة بعد قضاء يوم في العمل في المحجر. اشتكى كثير من الرفاق من المقاعد وكان أشدهم شكوى أحمد كاثرادا الذي أضاف أن المقاعد كانت منحدرة لا تثبت عليها الكتب. قام آمر السجن بزيارة مفاجئة لزنزانة كاثرادا وطلب كتابا رماه على المقعد فلم يتحرك الكتاب. طلب كتابا آخر ووضعه فوق الأول حتى وصل العدد الى أربعة كتب ولم يحدث شيء، فالتفت الى أحمد وقال:

- آخ! المقاعد سليمة لا عيب فيها.

انصرف، ولكن بعد نحو ستة أشهر لانت الادارة فخفضت من ارتفاع المقاعد وزودتنا بكراسٍ نجلس عليها للمطالعة.

من الشكاوى التي تقدمت بها للصليب الأحمر عشوائية الحراس في اتهام السجناء بمخالفة قواعد السجن وأنظمته التي يعاقب عليها بالحبس الانفرادي أو بالحرمان من الطعام أو بعض الامتيازات الأخرى. لم يكن الحراس عموما يتهاونون في هذا الأمر إذ كان من حق السجين أن يترافع أمام هيئة قضائية ربما طلبت - بناء على خطورة التهمة - مجيء أحد القضاة من كيب تاون للاستماع للمرافعة. كانت السلطات آنذاك ترفض المرافعات وعندما تقدمت بالشكوى للصليب الأحمر تغير الوضع، وإن لم أواجه أنا شخصيا تلك التجربة بعد.

كنا نقضي عطلة الأسبوع كلها داخل الزنزانات باستثناء نصف ساعة في اليوم للتمرينات الرياضية. وعند رجوعي من التمرينات ذات يوم لمحت صحيفة تركها أحد الحراس المتعاطفين على كرسي في أقصى الممر، وافترضت أنه تركها عمدا. وقيمة الصحف بالنسبة للسجين السياسي أعظم من قيمة الذهب أو الماس، يهفو إليها أكثر من شوقه للطعام أو التبغ، كما أنها أكثر الممنوعات قيمة في الجزيرة. فالأخبار هي المادة الفكرية الخام للنضال. منعنا من الأخبار بجميع أنواعها وكانت نفوسنا تهفو إليها. وكان وولتر يبدو محروما أكثر مني عند غياب الأخبار، وحاولت الادارة أن تفرض منعا باتا للأخبار كي تحول بيننا وبين معرفة أي شيء من شأنه أن يرفع معنوياتنا أو يطمئننا على أن الناس في الخارج يذكروننا وتشغلهم قضيتنا.

وكنا نشعر أنه من واجبنا متابعة ما يدور من تطورات سياسية في البلاد فكافحنا كفاحا مريرا من أجل حقنا في الإطلاع على الصحف. خبِرنا مع مرور السنين وسائل كثيرة للحصول على الصحف، فقد كان الحراس يلفون طعامهم في أوراق الجرائد وكانوا يرمون بها في الزبالة فنحاول صرف أنظارهم عنها لنلتقطها سرا ونخفيها داخل ملابسنا.

ومن أنجع الوسائل للحصول على الجرائد رشوة الحراس، وهي الحالة الوحيدة التي سمحتُ فيها لأحد باستعمال وسائل غير أخلاقية للحصول على معلومات. لم يكن الحراس يرفضون المال إطلاقا وتلك فرصة ثمينة بالنسبة لنا.

شكلت حيازة الصحف مخالفة كبيرة، والأخطر من ذلك تداولها عندما نحصل عليها. كان يكلّف أحدُنا - في العادة أحمد كاثرادا أو ماك ماهاراج - بقراءة الصحيفة. وقد اخترع كاثرادا مسؤول الاتصالات طرقا ذكية لتمرير المعلومات. كان يقرأ الصحيفة فيقص منها المواد المناسبة لتوزع سرا على البقية ويكتب كل منا ملخصا لما قرأ ثم تمرر الملخصات على الجميع، وأصبحت فيما بعد تسرب الى القسم العام من السجن. أما في حالات تأهب الادارة فيكتب أحمد أو ماك ملخصا للأخبار للتوزيع علينا ثم يتخلص من الصحيفة بتمزيقها ورميها في المرحاض الذي لم يكن يخضع للفحص من قبل الحراس.

أعود الى قصة الصحيفة التي التقطتها في الممر فأقول خرجت من زنزانتي مسرعا والتفتت يمنة ويسرى ثم خطفتها وأخفيتها داخل قميصي. ولكن بدلا من إخفائها حتى موعد النوم فرَدتها وانهمكت في قراءتها كالطفل يأكل الحلو قبل الوجبة الرئيسية.

انهمكت في القراءة فلم أحس بالزمن ولم أسمع وقع أقدام الضابط واثنين من الحراس وجدتهم فجأة أمامي قبل أن اتمكن من إخفاء الصحيفة. مُسكت متلبسا بالجريمة وقال لي الضابط:

- مانديلا، أنت متهم بحيازة ممنوعات وستدفع الثمن.

شرع الحارسان في تفتيش الزنزانة تفتيشا دقيقا بحثا عن مزيد من الممنوعات. وبعد يومين وصل أحد القضاة من كيب تاون، وأخذت الى غرفة المحاكمة وكانت الادارة واثقة من أن القضية محسومة لصالحها. لم أترافع وحكم علي بثلاثة أيام حبس انفرادي والحرمان من الطعام.

لا أظن أن الحارس الذي ترك تلك الصحيفة تعمد نصب كمين لي كما يعتقد بعض الرفاق الآخرين. وفي المحكمة خضعت لاستجواب عنيف عن كيفية حصولي على الصحيفة فامتنعت عن الإجابة، ولو أنني كنت ضحية خدعة متعمدة لكانت الادارة على علم بها وبكيفية حصولي على الصحيفة.

* * *

كانت زنزانات العزل في جناح آخر من المبنى ورغم قربها كانت تبدو نائية. وفي العزل يحرم الإنسان من الرفقة والتمرينات الرياضية والطعام ولا يقدم له سوى عصير الأرز (وهو ماء يغلي فيه الأرز) ثلاث مرات في اليوم لمدة ثلاثة أيام، وتعد الوجبات المعتادة وليمة بالمقارنة.

أصعب أيام العزل هو اليوم الأول. فالجسم لا يحتمل الحرمان مما اعتاد عليه من طعام، وأحسست في اليوم الثاني أنني تعودت على غياب الأكل وينتهي اليوم الثالث دون رغبة في الطعام. لم يكن ذلك النوع من الحرمان غريبا على الأفريقيين في حياتهم اليومية، فقد كانت تمر الأيام في بداية حياتي في جوهانسبيرغ أحيانا دون تناول طعام يذكر.

وجدت كما أشرت قبل قليل أن السجن الإنفرادي من أصعب جوانب الحياة في السجن. فهو فترة لا نهاية لها ولا بداية ولا يصاحب الإنسان فيها سوى عقله الذي ربما بدأ يخدعه. هل أنا في حلم أم في حقيقة؟ يشرع المرء في الشك في كل شيء. هل اتخذت القرار الصحيح؟ هل كان الأمر يستحق التضحية؟ وفي العزلة لا يجد المرء مهربا من هذه التساؤلات.

ولكن الجسم البشري له قدرة خارقة على التكيف مع الظروف الشاقة. وجدت أن المرء بإمكانه تحمل ما لا يُحتمل طالما ظلت معنوياته عالية وعزيمته صلبة، حتى عندما يبدأ جسمه

في الإستسلام للضعف. والسر في مواجهة الحرمان هو الإيمان القوي الذي يملأ الفؤاد حتى وإن كانت المعدة خاوية.

في بدايات الاعتقال كان الحبس الانفرادي عادة مستديمة، وكنا ندان ونعاقب لأتفه الأسباب ولو لاختلاس نظرة أو عدم الوقوف سهوا عند دخول الحارس. وقضى بعض أعضاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي أياما طويلة في الحبس الإنفرادي لتعمدهم مخالفة القواعد، وكانت الادارة تعتقد أن العزلة هي العلاج الناجع لروح التحدي والتمرد.

جاءت المرة الثانية التي جربت فيها الحبس الإنفرادي بعد الأولى بوقت قصير. فقد كنا كما ذكرت آنفا نجد صعوبة في توصيل شكاوانا للادارة التي اقتنعت بأنها قادرة على تجاهل مظالمنا في ذلك السجن النائي، وأن تغاضيها عن الشكاوى سوف يثبط من عزيمتنا ويفقدنا الأمل وأن العالم الخارجي سينسى قضيتنا.

جاء آمر السجن ذات يوم الى المحجر وكان برفقته شخص آخر لم نتعرف عليه مباشرة، ووقف كلاهما يراقبنا عن بعد. همس لي أحد الزملاء بأن الزائر هو العميد أوكامب Brigadier Aucamp (وهو غير العقيد أوكامب الذي أشرف علينا في سجن بريتوريا أثناء محاكمة ريفونيا) من المكتب الأعلى للسجون.

أوكامب قصير القامة ممتلىء البدن وكان يرتدي بذلة بدلا من البزة العسكرية، واعتاد زيارة الجزيرة مرة كل عامين، وكنا عند زيارته نقف عند باب الزنزانة رافعين لوحات كتبت عليها بياناتنا الشخصية.

رأيت أن وجود أوكامب فرصة فريدة لرفع شكاوانا اليه، لأنه يملك الصلاحية للرد عليها. وضعت فأسي على الأرض واتجهت إليه ففزع الحراس وتجمعوا حولي. كنت مدركا أنني أخالف القواعد ولكنني حسبت أن الحراس سيفاجؤون بتصرفي ولن يحاولوا اعتراض طريقي، وهذا ما حصل.

اقتربت من الرجلين فصاح آمر السجن قائلا:

- مانديلا، عد الى مكانك، فلم يطلبك أحد.

تجاهلت كلامه واتجهت بالخطاب الى أوكامب، وقلت إنني أقدمت على هذا التصرف غير المعتاد لأن شكاوانا تذهب أدراج الرياح. قاطعني الآمر قائلا:

- مانديلا، إنني آمرك أن تعود الى مكانك.

أدرت وجهي نحوه وقلت بهدوء:

- أما وقد وصلت، فلن أعود.

كنت آمل ان يستمع أوكامب لما سأقول ولكنه تفحصني بكل برود ثم اتجه الى الحراس وقال:

- اقبضوا عليه!

واصلت الحديث والحراس يقتادونني وآمر السجن يقول:

- خذوه الى الزنزانة.

حوكمت للمرة الثانية ولم أترافع، وكانت العقوبة أربعة أيام حبس انفرادي. في تلك الحادثة درس كنت أعلمه ولكنني تجاهلته لشدة ما ألم بي من قنوط وإحباط. والدرس هو أنه لا يوجد إنسان في الدنيا وخاصة المسؤول في السجن يرضى بأن توضع سلطته في المحك أمام الناس. فلكي يستجيب أوكامب لما أقول كان عليه أن يهين مرؤوسه. ومسؤولو السجون أكثر استجابة للالتماسات الشخصية التي تصلهم مباشرة. فطنت الى أن أفضل وسيلة لتغيير الأوضاع في الجزيرة هي التأثير على المسؤولين في مفاوضات خاصة بعيدا عن أنظار الآخرين. تعرضت أحيانا الى النقد لتساهلي في التعامل مع المسؤولين في السجن ولكنني تقبلت ذلك النقد مقابل إدخال بعض التحسينات على الأوضاع.

- ٦٦ -

أهم شخص في حياة أي سجين ليس هو وزير العدل ولا مفوض السجون ولا حتى آمر السجن بل هو الحارس في العنبر. فإن شعرت بالبرد واحتجت الى بطانية إضافية يمكنك أن تقدم مذكرة لوزير العدل ولكن لن تلقى استجابة. وإذا اتجهت الى مفوض السجون سوف يرد بأن ذلك مخالف للقواعد. وإذا اتجهت الى آمر السجن فسوف يرد بأن عليه إن أعطاك بطانية إضافية أن يعطي كل سجين آخر بطانية إضافية. أما إذا تقدمت بطلبك الى الحارس الجالس في أقصى الممر وكانت علاقتك به طيبة فسيذهب الى المخزن ويأتيك ببطانية.

حرصت على أن أعامل الحراس بالحسنى في جميع الأحوال لأن عداءهم لا يعود بخير. ومن سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي توعية كل الناس بمن فيهم الخصوم. ونحن نؤمن بأن لدى كل الناس القابلية للتغيير، فكنا نبذل كل ما في وسعنا لكسب حراس السجن وتغيير مواقفهم.

كنا في العموم نعامل الحراس كما يعاملوننا. فمن راعى منهم شعورنا راعينا شعوره. ولم يكن جميع الحراس مرعبين، بل شعرنا منذ الأيام الأولى أن بينهم منصفين. ورغم ذلك تظل صداقة الحراس أمرا صعبا لأنهم في الغالب يغضبون التودد الى السود. ونظرا لفائدة وجود حراس متعاطفين نحونا كنت كثيرا ما أنصح الزملاء بإعطاء حراسا بأعينهم اهتماما خاصا.

كان أحد الحراس في المحجر فجا وعدائيا تجاهنا، وكان ذلك يزعجنا لأن فترة العمل فرصة نتبادل فيها الأحاديث والآراء وحارس من هذا النوع يشكل عائقا كبيرا في هذا الصدد. طلبت من أحد الرفاق أن يتقرب إليه حتى لا يقطع علينا أحاديثنا. شيئا فشيئا لان ذلك الحارس وارتاح لصاحبنا. وذات يوم طلب الحارس من زميلنا أن يعطيه سترته يجلس عليها، فأشرت لزميلي أن يلبي طلبه مع علمي أنه لا يحبذ ذلك.

بعد ذلك بأيام ظهر علينا الحارس ونحن نتناول طعام الغداء فرمي لنا بشطيرة كانت في يده قائلا:

- خذوا!!

كان ذلك أسلوبه للتعبير عن وده نحونا، ولكنه أوقعنا في حيرة. هو من جهة يعاملنا كحيوانات برميه الطعام إلينا، ومن جهة أخرى كنا جياعا وفي حاجة لكل كسرة خبز. فهل نقبل الإهانة ونلتقط الشطيرة أم نرفض كرم الحارس ونهينه وهو يريد التقرب إلينا؟ رأيت رفيقنا صديق الحارس راغبا في التقاط الشطيرة فأشرت له برأسي أن يأخذها.

نجحت الخطة، وخفّ توجس الحارس منا، بل وأخذ يستفسر عن أخبار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. من المسلم به أن من يعمل في خدمة السجون لا شك أنه تعرض لتأثير

الدعاية الرسمية واقتنع بأننا ارهابيون شيوعيون غايتنا الإلقاء بالرجل الأبيض في البحر. ولكن حينما شرحنا له أننا لسنا عنصريين وأننا نهدف الى المساواة في الحقوق وإعادة توزيع الثروة حكّ رأسه وقال:

– والله إنها لسياسة أعقل من سياسة الوطنيين (الحزب الوطني الحاكم)!!

اكتسابنا الحراس إلى جانبنا سهل علينا مهمة من أخطر المهمات في الجزيرة وهي الاتصالات. فكنا نعتبر من واجبنا التواصل المستمر مع السجناء غير السياسيين في العنبرين (و) و (ز)، وكنا كسياسيين نسعى الى تعزيز تنظيمنا داخل السجن مثلما كنا نعمل خارجه. والاتصالات ضرورية إن كنا نود التنسيق فيما بيننا بشأن الإحتجاجات والتظلم والشكاوى. ونظرا لكثرة حركة السجناء في القسم غير السياسي فقد كانوا على علم بآخر التطورات في حركة النضال، بل وبأخبار أهلينا وأصدقائنا في الخارج.

والاتصال بين السجناء في الأقسام المختلفة مخالفة كبيرة للقواعد، ولكننا اكتشفنا طرقا عديدة للتحايل عليها. فسجناء القسم العام كانوا يحضرون طعامنا كل يوم واستطعنا أن نتبادل معهم الرسائل بالهمس. وشكلنا شبكة اتصالات سرية من كل من أحمد كاثرادا وماك ماهاراج ولالو شيبا وغيرهم تولت تنظيم هذا الجانب من حياتنا.

وضع أحمد وماك خطة ذكية لتبادل الرسائل إذ لاحظا أن الحراس يرمون بعلب الثقاب الفارغة في الطريق الى المحجر فعمدا الى جمعها. خطرت على ماك فكرة تكوين جيب سري في العلبة تخفى فيه الرسائل الصغيرة. تولى لالو، الذي كان يعمل خياطا، كتابة رسائل مشفرة بخط رفيع توضع في جيب العلبة، ثم تسلم العلب لجو غقابي Joe Gqabi ليرميها في مواقع استراتيجية محددة يمر بها سجناء القسم العام. وعندما يصل السجناء حاملين الطعام يُهمس لهم بالاشارة فيلتقطون تلك العلب وبداخلها الرسائل. وكنا نتسلم الردود بالطريقة نفسها. كانت وسيلة معرضة للفشل خاصة عند سقوط المطر، ولكننا سرعان ما طورنا وسائلنا.

كنا نتحين اللحظات التي يغفل فيها الحراس خاصة أثناء فترات الأكل وبعدها مباشرة. كنا نأخذ الطعام من القدور بأنفسنا فاتفقنا على أن يضع سجناء القسم العام الرسائل ملفوفة في ورق بلاستك في قاع القدر وكنا نرد عليهم بلف رسائلنا في أوراق البلاستك ذاتها ووضعها في أسفل أكوام الصحون بعد استعمالها. كنا نتعمد بعثرة الصحون والأكل للتمويه وكان الحراس يشتكون من ذلك ولكنهم لم يحققوا في الأمر.

كانت المراحيض والحمامات مجاورة لزنزانات الحبس الإنفرادي حيث يعاقب بعض سجناء القسم العام فيستعملون المراحيض والحمامات نفسها. اخترع ماك طريقة تلف بها الرسائل في قطع من البلاستيك تلصق داخل مقعد المرحاض، وكنا نشجع رفاقنا من السجناء السياسيين على مخالفة القواعد كي يسجنوا انفراديا فيجمعوا الرسائل ويستبدلوها بالردود، ولم يكترث الحراس بتفتيش ذلك الجزء من السجن.

كما اخترعنا وسائل للكتابة المشفرة في حالة عثور الادارة على الرسائل، منها الكتابة بالحليب الذي يجف بسرعة وتظهر الصفحة بيضاء ولكن الكتابة تظهر عند رشها بمحلول التنظيف الذي كان يصرف لنا. ولسوء الحظ لم يكن الحليب يصرف لنا بانتظام باستثناء أحد السجناء أصيب بقرحة فكنا نستعمل الحليب الذي يحصل عليه.

والطريقة الأخرى هي الكتابة المشفرة بخط رفيع جدا على ورق المراحيض. فالأوراق صغيرة ويمكن إخفاؤها بسهولة، وانتشرت هذه الطريقة بين السجناء. عندما اكتشفت الادارة أسرارنا اتخذت قرارا استثنائيا بتخفيض كمية ما يصرف لنا من ورق المراحيض. كان غوفان مريضا آنذاك فلم يرافقنا الى المحجر، وأوكلت إليه مهمة توزيع الأوراق على السجناء.

ومع ذلك كله تظل أفضل الوسائل هي أسهلها: الدخول الى مستشفى السجن. كان في الجزيرة مستشفى واحد فقط، ولم يكن من اليسير الفصل بين السجناء فيه، وكنا نختلط بغيرنا من بقية الأقسام والعنابر مما هيأ لنا فرصة تبادل الأخبار والمعلومات عن المنظمات والنشاطات السياسية وغيرها من قضايا الساعة داخل السجن وخارجه.

كانت هناك قناتان للاتصال بالعالم الخارجي: السجناء الذين انقضت مدة سجنهم ويعدون لمغادرة الجزيرة، والزوار. فالسجناء المغادرون كانوا يهربون الرسائل في ملابسهم وأمتعتهم، أما الزوار فكانوا يعرضون أنفسهم للخطر كذلك. وكنا أحيانا نسرب الرسائل للمحامين إذ كنا نختلي بهم ولا يسمح للحراس بالبقاء في الحجرة عند مقابلتهم لنا. كما أنهم لا يخضعون للتفتيش. وكنا في هذه اللقاءات نتواصل بالكتابة كما كنا نفعل أثناء محاكمة ريفونيا لأن الحجرات كانت ملغمة بأجهزة التنصت. فربما قال أحدنا للمحامي: "أرجو إخبار. . . ." ثم يكتب: (أ. ب.) أي أوليفر تامبو على الورق، ثم يستطرد: "أننا نوافق على خطته للتقليل من حجم. . ." ثم يكتب: اللجنة التنفيذية.

علمنا في أغسطس ١٩٦٦ بواسطة رسالة وصلتنا ملفوفة في قطعة بلاستيك في قاع أحد القدور أن سجناء القسم العام أضربوا عن الطعام احتجاجا على سوء الأوضاع في السجن. لم تكن الرسالة واضحة فلم تحدد تاريخ الاضراب أو أسبابه، ولكننا كنا على أهبة الإستعداد لمساندة أي اضراب مهما كانت أسبابه. انتشر الخبر بيننا وعقدنا العزم على الانضمام للاضراب ابتداء من الوجبة التالية. والاضراب عن الطعام يقوم على شيء واحد فقط وهو الامتناع عن الأكل.

لم يعلم سجناء القسم العام على الأغلب بمشاركتنا إياهم اضرابهم إلا بعد يوم أو أكثر، ولكننا كنا على يقين أن الخبر سيرفع من معنوياتهم لأن الادارة لن تخبرهم عن اضرابنا بل ستؤكد لهم العكس تماما وهو أسلوب معتاد في إدارة السجون. ففي الأزمات تقوم الادارة بالتمويه وبث الاشاعات المضللة من أجل إشعال الفتنة بين السجناء في الأقسام المختلفة، فقالت تلك المرة إن أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مؤيدون للاضراب بالإجماع، ولكن بعض أعضاء المؤتمر القومي الأفريقي في القسم العام معارضون له.

في اليوم الأول للاضـراب رفضنا تناول الوجبات المعتادة التي كانت تصرف لنا. وفي اليوم الثاني لاحظنا أن كميات الطعام زادت وأضيفت الى الوجبة أنواع أخرى من الخضار. وفي اليوم الثالث ظهرت قطع اللحم، وما أن وصل اليوم الرابع حتى كانت القدور تلمع بالدهن وتعلوها قطع اللحم المغرية وخضار بأنواع وألوان مختلفة يتصاعد بخارها عاليا. كان طعاما يسيل اللعاب وتتفتح له الشهية ووقف الحراس يتبادلون الابتسامات ونحن نرفض الإقدام على تناول الطعام. قاومنا ذلك الإغراء الشديد رغم عناء العمل في المحجر. وتناهت الينا أخبار عن إغماء بعض السجناء في القسم العام ونقلهم في عربات يدوية الى المستشفى.

استدعيت لمقابلة العقيد فيسيل. كانت تلك اللقاءات حساسة جدا لأن رفاقي كانوا يعلمون أن ادارة السجن ستحاول التأثير عليّ لإنهاء الاضراب. دخل فيسيل في الموضوع مباشرة وطالب أن يعرف سبب اضرابنا. بينت له اننا كسجناء سياسيين نعتبر الاحتجاج لتحسين أوضاع السجن امتدادا لمعركتنا ضد التفرقة العنصرية، فرد يقول:

- ولكنك لا تعرف أسباب اضراب السجناء في القسم الآخر.

أجبته بأن ذلك لا يهمنا وأن سجناء الأقسام الأخرى هم اخواننا وأن نضالنا واحد. شخّر تعبيرا عن ازدرائه وغضبه وأمرني بالإنصراف.

في اليوم التالي وصلتنا أخبار عن تطورات غريبة جدا. فقد أعلن الحراس مقاطعة الطعام ورفضوا دخول المقصف الخاص بهم. لم يكن اضرابهم تضامنا معنا، ولكنهم رأوا أنهم أولى بالاضراب منا، ومن حقهم - طالما هو من حقنا - المطالبة بتحسين مستوى الطعام وأوضاع المعيشة في الجزيرة. اتسع الخرق على الإدارة فتوصلت الى تسوية مع الحراس وبعد يومين آخرين طلبت من سجناء القسم العام تعيين ثلاثة ممثلين للتفاوض بشأن التغييرات. أعلن سجناء القسم العام انتصارهم وأنهوا الاضراب عن الطام، فحذونا حذوهم في اليوم التالي.

كان ذلك أول وأنجح اضراب قمنا به في الجزيرة. لم تكن الاضرابات وسيلة ناجحة في جميع الأحوال وكنت أعتبرها من الوسائل العاطفية أو الرومانتيكية غير العملية للاحتجاج. فلكي ينجح الاضراب يجب أن يسمع به الناس خارج السجن وإلا مات السجناء جوعا دون أن يعلم أحد بمصيرهم. فتسريب أخبار الاضرابات للصحف في الخارج يولد ضغوطا لصالحنا، وكانت المشكلة - خاصة في السنوات الأولى - هي صعوبة إشعار الناس في الخارج بأننا مضربون داخل السجن.

والاضراب عن الطعام في رأيي عمل سلبي جدا. فنحن نعاني أصلا وبالاضراب نعرض صحتنا للخطر بل نغازل الموت. كنت دائما أفضل الوسائل الإيجابية القائمة على التحدي والمواجهة كالاضراب عن العمل أو الامتناع عن التنظيف والقيام بأعمال تضر بالادارة ولا تجلب الضرر الينا. فعندما تطلب الإدارة تكسير الحجر نرفض تكسير الحجر،

وعندما تطلب تنظيف فناء السجن نتركه مليئا بالقاذورات. هذه هي الوسائل التي تغيظ الادارة أما تجويع أنفسنا فكان في اعتقادي يدخل مزيدا من السعادة والراحة على نفوس المسؤولين.

طالما احتج انصار الاضراب عن الطعام بأنه وسيلة من وسائل الإحتجاج المعتمدة في جميع أنحاء العالم وارتبطت بزعماء مثل المهاتما غاندي في الهند. كنت غالبا في الأقلية – وتندر بعض الزملاء بأنني لا احتمل ان تفوتني وجبة واحدة – ولكنني بمجرد الاتفاق على القرار كنت أسانده وأدفع به بكل ما أملك كأي واحد من مؤيديه. بل كنت أحيانا احتج على بعض المتهاونين الذين لم تكن لديهم الرغبة في الإلتزام بالاضراب. قال لي أحدهم ذات يوم:

– إنني أريد أن آكل يا ماديبا. ما الذي يجبرني على الجوع وقد ضحيت من أجل النضال سنوات عديدة؟

كان بعضهم يأكل خلسة، وكنا نعلم ذلك. فبعد يوم أو يومين من الاضراب لا يحتاج المرء الى الذهاب الى المرحاض. ومع ذلك رأينا في الصباح من ذهب الى الحمام. كانت لدينا عيون تراقب الوضع لأننا نعلم أن بيننا ضعفاء لا قبل لهم بتحمل تلك الأعباء

- ٦٧ -

في خضم الاضراب عن الطعام في يوليو ١٩٦٦ زارتني زوجتي الزيارة الثانية وذلك بعد سنتين تقريبا من زيارتها الأولى، وكادت الزيارة ألا تتم. واجهت ويني مضايقات مستمرة منذ زيارتها الأولى عام ١٩٦٤ وتعرض أخوها وأخواتها لمضايقات الشرطة، وحاولت السلطات منع أي من أفراد أسرتها أن يقيم معها. علمت ببعض تلك التطورات آنذاك ولكنني لم أعلم بأكثرها إلا فيما بعد. كنت على علم بأسوأ الأخبار لأنني كنت بعد العودة من العمل في المحجر أحيانا أجد قصاصات جرائد عما تعانيه ويني موضوعة بعناية خاصة على سريري من قبل حارس مجهول.

بذلت السلطات جهدها بكل حنق وخسة لتعكر زيارات ويني. فقد منعت من زيارتي على مدى سنتين بأوامر من المحاكم المحلية ونتيجة الحظر المتكرر الذي منعها من التنقل. وعلمت من المحامي أن السلطات أخبرت ويني بأنه لن يسمح لها بزيارتي إلا بعد حيازتها على تصريح مرور، فرفضت لأنها كانت من معارضي سياسة الحكومة في فرض تصريحات مرور للنساء منذ عام ١٩٥٠ . من الواضح أن السلطات كانت تسعى لإهانتها وإهانتي، ولكنني رأيت أن لقاءنا أهم من مقاومة خزعبلات السلطات فقبلت ويني باستخراج تصريح. لقد اشتقت إليها كثيرا وكنت في حاجة الى الإطمئنان عليها، وكانت هناك أمور عائلية نحتاج الى بحثها.

كانت القواعد التي تحكم زيارات ويني طويلة ومعقدة. فهي ممنوعة من السفر بالقطار أو بالسيارة وكان عليها أن تسافر بالطائرة وهذا يعني تكاليف أعلى. وكان عليها أن تسلك أقصر الطرق الى مركز شرطة كيب تاون حيث توقع على مجموعة من الأوراق والاستمارات، وعليها بعد الانتهاء من الزيارة المثول في المركز نفسه وتوقيع مزيد من الأوراق والاستمارات. وقرأت في إحدى تلك القصاصات أن ضابطا من القسم الخاص اقتحم بيتنا في أورلاندو وكانت ويني ترتدي ملابسها فغضبت ودفعت الضابط خارج غرفة النوم فرفع ضدها قضية بتهمة الإعتداء عليه، فطلبت من زميلي وصديقي جورج بيزوس أن يترافع عنها ففعل. قرأنا عن ذلك في الصحف وكان بعض الزملاء يتندر بشغف ويني بالقتال والمواجهة قائلا:

- إنك لست الملاكم الوحيد في الأسرة يا ماديبا.

استغرقت الزيارة نصف ساعة فقط وكان لدينا الكثير نتحدث عنه. كانت ويني منفعلة وغاضبة من أثر خشونة المعاملة في كيب تاون ولإجبارها على الركوب في مخزن العبّارة للوصول الى الجزيرة حيث أثر فيها دخان المحرك. بذلت كل جهدها للظهور بأحسن مظهر ولكنها بدت نحيفة شاحبة.

أخبرتني عن دراسة زيني وزيندزي وعن صحة أمي المتدهورة وأوضاعنا المالية. سجلت

ويني البنتين في مدرسة مصنفة على أنها "هندية"، والسلطات تضايق مدير المدرسة لمخالفة النظم بقبوله تلميذتين "أفريقيتين". اتفقنا على إرسالهما الى مدرسة داخلية في سوازيلاند وكان ذلك شاقا على ويني إذ كانت تستقي منهما دعما وقوة معنوية. ورغم قلقي عليها وجدت عزائي في أنهما ستتلقيان تعليما أفضل هناك. ستعيش ويني وحيدة تحت رحمة من يتظاهرون لها بالود ويكنون لها السوء، وهي التي من طبعها الوثوق في الآخرين.

وللتحايل على قواعد الزيارة تحدثنا عن أمور غير عائلية باستخدام أسماء معروفة لنا وغير مفهومة من قبل الحراس. فربما سألتها:

- هل سمعت شيئا عن أحوال نغوتيانا حديثا، وهل هي بخير؟

ونغوتيانا هو أحد اسماء ويني التقليدية ولكن السلطات لا تعلم ذلك. تواصل ويني الحديث عن نغوتيانا (وتعني نفسها) وإن استفسر الحارس من هي نغوتيانا قلنا واحدة من أفراد العائلة. وإن اردت أن استفسر عن نشاط الحزب سألتها:

- كيف حال الوضع في الكنيسة؟

فتحدثني عنها بما تراه مناسبا، ثم أسألها:

- وكيف حال الكهان والقسيسين؟ وهل ألقوا مواعظ جديدة؟

وهكذا كنا نستطرد في الحديث بهذا الأسلوب المرتجل الذي استطعنا بواسطته أن نتبادل قدرا كبيرا من المعلومات.

وكالعادة عندما يصيح الحارس بانتهاء الوقت يخيل إلي أن اللقاء دام دقائق معدودة. كدت أقبل الشباك ولكنني تمالكت نفسي. كنت دائما أفضل أن تغادر ويني أولا حتى لا تراني والحراس يقتادونني، ولاحقتها بنظراتي وهي تهمس كلمات الوداع مخفية ألمها عن الحراس.

بعد الزيارة استعرضت شريطها كله في ذهني: الزي الذي كانت ترتديه، حديثها، حديثي. جلست وكتبت لها رسالة راجعت فيها بعض ما تحدثنا عنه في اللقاء ومذكرا إياها بمدى حبي لها وقوة تعلقي بها. ذكرت شجاعتها. كانت رسائلي الوسيلة الوحيدة التي أعبر بها عن حبي لها وأعطيها ما تحتاجه من مدد عاطفي.

بعد الزيارة بفترة قصيرة علمت أن السلطات اتهمت ويني بعدم المثول أمام مركز الشرطة في كيب تاون وبرفض إعطاء عنوانها عند المغادرة. كانت ويني أعطت عنوانها في العبّارة وعندما طلب منها أن تعطي عنوانها مرة أخرى في طريق العودة رفضت بحجة أنها قد فعلت ذلك.

اعتقلت ويني وأطلق سراحها بكفالة ثم قدمت للمحاكمة وحكم عليها بالسجن سنة كاملة مع وقف التنفيذ، باستثناء أربعة أيام، مما تسبب في فصلها من وظيفتها كمرشدة اجتماعية للمرة الثانية ففقدت بذلك مصدر رزقها.

بذلت سلطات الدولة قصارى جهدها لمضايقتي بمختلف الطرق أملا في إضعاف مقاومتي. في أواخر عام ١٩٦٦ تقدمت الجمعية القانونية في ترانسفال بإيعاز من وزير العدل باقتراح لشطب اسمي من قائمة المحامين المسموح لهم بمزاولة القضاء بسبب إدانتي في محاكمة ريفونيا. لم يثن السلطات إخفاقها في المرة السابقة بسبب إدانتي إبان حملة التحدي.

علمت بمحاولة الجمعية القانونية بعد صدورها بفترة. كانت الجمعية القانونية في ترانسفال هيئة محافظة جدا وكانت تسعى لمعاقبتي في ظرف كانت تعتقد بأنني لن أستطيع أن أدافع فيه عن نفسي. لم يكن من المتيسر لسجين في جزيرة روبن أن يترافع امام المحكمة، ولكن ذلك هو ما كنت أنوي القيام به تماما.

أخبرت الادارة بأنني سأعترض على القرار وسأقوم بالمرافعة بنفسي. أشعرت إدارة السجن بأنني لكي أعد مرافعتي فعليهم إعفائي من العمل في المحجر وتزويدي بمنضدة وكرسي ومصباح للقراءة. وطلبت السماح لي بالاتصال بمكتبة غنية بكتب القانون كما طلبت أن أنقل الى بريتوريا.

كانت خطتي إغراق إدارة السجن وسلطات القضاء بطلبات مشروعة كنت أدرك أنهم سيجدون من الصعب تلبيتها. كانت السلطات دائما تقلق عندما أعلن أنني سأترافع بنفسي أمام المحكمة لأن الضجة الإعلامية التي تصاحب المحاكمة سوف تؤكد للعالم أنني لازلت أكافح من أجل القيم التي ناضلت في سبيلها طول حياتي.

جاء الرد الأولي:

- مانديلا، لماذا لا تعين محاميا يترافع نيابة عنك؟ فهو أقدر على تولي القضية. لماذا ترهق نفسك؟

تجاهلت ذلك كله وقدمت طلبا تحريريا لمقرر المحكمة العليا بالسجلات والوثائق والكتب والمراجع التي أحتاج إليها. كما طلبت قائمة بشهود الدولة وملخصات للشهادات التي سيدلون بها.

استلمت ردا يقول إن المقرر يطلب التعرف على طبيعة المرافعة قبل الموافقة على طلبي. كان ذلك أمرا مدهشا، فلم يكن مطلوبا من المحامي أن يشرح طبيعة مرافعته قبل المحاكمة إطلاقا، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إجبار أي محام على الكشف عن دُفُوعه قبل أن يقف أمام المحكمة. كتبت ردا قلت فيه إن طبيعة المرافعة ستتضح بعد تقديم أوراقي وليس قبل ذلك.

كانت تلك بداية سلسلة من المراسلات بيني وبين المقرر ومحامي الإدعاء الممثل للجمعية القانونية. لم أتراجع عن أي طلب من الطلبات التي تقدمت بها، كما تصلبت الادارة في موقفها فرفضت إعفائي من العمل في المحجر وتزويدي بمنضدة وكرسي، وقالت إنها لن تسمح لي تحت أي ظرف من الظروف بالذهاب الى بريتوريا لاستعمال المكتبة القانونية.

عذبت الجمعية القانونية ومقرر المحكمة العليا بطلباتي وأصرت السلطات على رفضها. وأخيرا وبعد شهور من المراسلات وبدون أي ضجيج أخبرت بإشعار روتيني أن الجمعية سحبت القضية. تحولت القضية الى شيء آخر لم يكن في حسبانهم. لقد حسبوا أنني لا أملك القوة أو الإمكانيات والوسائل التي أدافع بها عن نفسي، وكانوا مخطئين.

قرأت بالتفصيل عن ردود الفعل الرسمية لوقوفي ضد قرار الجمعية القانونية. كنا نتسلم صحيفة يومية وكأنها ترسل خصيصا إلينا في الزنزانات.

كان حارس الليل رجلا هادئا كبيرا في السن نسبيا وكان من أتباع جماعة شهود يهوه، ونشأت بينه وبين ماك ماهاراجا علاقة ودية. دخل ذات ليلة على ماك في زنزانته وقال إنه يرغب في الاشتراك في مسابقة في إحدى الصحف تتطلب تحضير مقالة قصيرة، وطلب من ماك أن يساعده في كتابتها. وأشار الحارس العجوز الى أنه سيكافيء ماك إن وافق على إعانته على تلك المهمة. وافق ماك وكتب المقالة، وبعد أسبوعين جاء الشيخ الى ماك فرحا وأخبره بأنه وصل الى الدوري النهائي في المسابقة، وطلب من ماك أن يكتب له مقالة أخرى ووعده أن يحضر له دجاجة كاملة مطبوخة. رد ماك بأنه سوف يفكر في الموضوع.

جاء ماك في اليوم التالي وأطلعني وولتر على تفاصيل الموضوع فشجعه وولتر على قبول الدجاجة ولكنني شعرت بتردد من طرف ماك لأن ذلك يعني قبوله بمعاملة خاصة. وعند المساء أخبر ماك الحارس بأنه سيكتب المقالة مقابل علبة سجايرفوافق العجوز وأحضر العلبة في الليلة التالية.

في اليوم التالي أخبرنا ماك بأنه أصبح يملك القوة للتأثير على الحارس العجوز، وعندما استفسرنا عن التفاصيل قال:

- لأن بصمات أصابعه على علبة السجاير، وبإمكانْي الآن ابتزازه.

رد وولتر في استنكار بأن ذلك أسلوبا غير أخلاقي، ولكنني لم انتقد ماك، وسألته ماذا سيبتز من الحارس فرفع حاجبيه وقال:

- جرائد.

تبادلت النظرات مع وولتر الذي أعتقد أنه الوحيد في الجزيرة الذي كان يعشق الصحف والجرائد كما أعشقها. كان ماك قد ناقش الموضوع مع لجنة الاتصالات، ورغم تحفظنا على أسلوب ماك لم نبذل جهدا لمنعه من تنفيذ الخطة.

وفي المساء أخبر ماك الحارس أن بصمات أصابعه على علبة السجاير وإذا لم يتعاون فسيكشفه أمام آمر السجن. فزع الحارس لاحتمال فصله من الوظيفة وفقدانه المعاش فوافق على تقديم أي خدمة يطلبها ماك. وظل ذلك الرجل يسرب إلينا صحيفة يوميا لمدة ستة أشهر نقل بعدها للعمل في مكان آخر. كان ماك يلخص الأخبار في صفحة واحدة توزع على الجميع، ولم يفز ذلك الحارس المنحوس في المسابقة.

من الصعب تحديد ما إذا كنا نقضي الوقت في المحجر في العمل أم في الحديث. مع حلول عام ١٩٦٦ اصبح الحراس يتراخون في اتباع القواعد فكنا نتحدث بدون قيود ما لم نتوقف عن العمل. كنا نتجمع في مجموعات صغيرة من أربعة أو خمسة أشخاص ونتحدث طول اليوم في كل موضوع تحت الشمس، مهم أو سخيف.

لا شيء في السجن يبعث على الرضا سوى شيء واحد وهو توفر الوقت للتأمل والتفكير. ففي خضم زحمة النضال نادرا ما يجد المرء وهو يتفاعل مع الظروف والمتغيرات باستمرار الفرصة للتأمل على مهل في حيثيات قراراته ومواقفه وسياساته. أما السجن فيوفر الوقت بأكثر مما يتصور المرء كي يراجع الإنسان نفسه فيما عمل وما لم يعمل.

كنا نخوض في مناقشات سياسية لا تنقطع، منها ما يفض في يوم واحد ومنها ما تواصل لسنوات. كنت دائما أستمتع بالحوار والمناظرات ولا أتردد في المشاركة فيها. من أول وأطول المواضيع التي دار حولها النقاش علاقة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بالحزب الشيوعي. كان بعضنا، وخاصة عناصر حركة (أمكا) الذين تدربوا في دول اشتراكية، يعتقد أن الحزب والحزب الشيوعي تنظيما واحدا، وكان من بينهم عناصر قيادية بارزة في الحزب مثل غوفان امبكي وهاري غوالا Harry Gwala.

لم يكن للحزب وجود مستقل في جزيرة روبن. فلم يكن هناك داع داخل السجن للتمييز بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي الذي وجد كإطار خارجي. لم يتغير موقفي الشخصي في هذا الصدد على مدى سنوات طويلة. حزب المؤتمر الوطني الأفريقي حركة تحرير جماهيرية مفتوحة لكل من يحمل الأهداف نفسها التي يدعو إليها الحزب.

مع الوقت اكتسب النقاش حول ذلك الموضوع كثيرا من الحدة والتوتر. اقترح البعض حلا بأن نكتب لقيادة الحزب المنفية في لوساكا، وأعددنا مذكرة من اثنتين وعشرين صفحة أرفقناها برسالة تحمل توقيعي لإرسالها الى لوساكا. كانت عملية محفوفة بالمخاطر، ولكننا استلمنا ردا يؤكد الفصل بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي، واضمحل النقاش حول ذلك الموضوع تدريجيا.

ومن المواضيع التي تكرر النقاش حولها: هل من الضروري أن تقتصر قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على عناصر من الطبقة العاملة؟ رأى البعض أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي حركة جماهيرية تقوم في أساسها على جماهير العمال، وعليه فإن القيادة ينبغي أن تنبثق من القاعدة نفسها. وكان رأيي أنه ليس من الديمقراطية أن نحدد هوية القيادة بأن تكون من العمال أو من المفكرين البرجوازيين. فلو أصرت الحركة على قاعدة كهذه لفقدت كثيرا من قادتها من أمثال الزعيم لوتولي وموسى كوتانى والدكتور دادو. فالثوريون ينتمون الى جميع الطبقات.

لم تكن كل المناقشات سياسية، ومن المسائل التي دار حولها نقاش مستفيض مسألة

الختـان. هناك من رأى أن الختان المتبـع بين قبائل الكوسا وغـيرها ليس إلا تشويهـا بدنيا لا ضرورة له، بل إنه ارتداد الى القـبلية التي يسعى حزب المؤتمر الوطني الأفـريقي الى القضاء عليها. كان ذلك الـرأي وجيها ولكن الرأي الغالب، وهو ما أقول به، هـو أن الختان تقليد حضاري ثقافي لا يقتصر فقط على مزايا صحيـة بل تصحبه أثار نفسية هامة. فهو يعزز من الرابطة الجماعية بين الناس ويرسخ قيما إيجابية في الإنسان.

تواصل الحـوار لعدة سنوات وكـان كثـير من الرفـاق مؤيدين للخـتان. وذات مـرة أقام سـجين كان يمارس الخـتان وهو خـارج السجن حـفلة ختـان جمـاعيـة ختن فيـها عـددا من السجناء الشبـاب واحتفينا بذلك بإعداد الـشاي والبسكويت وقضى المختـونون أياما مرتدين البطانيات كما هي العادة في القرى.

ومن المواضـيع التي كـنا نعـود الى نقـاشـا مـرة بعـد مـرة هي: "هل وجـدت نمور في أفـريقـيـا؟" قال البعض إنـه رغم الاعتقاد الشائع بـأن النمور عاشت في أفريقـيا فإن ذلك أسطورة وإن أصول النمـور تعود الى آسيـا وشبه القـارة الهندية. أجل كانت أفريقـيا تغص بحيوان الـببر ولكن، لم يوجد فـيها نمور. وقال آخرون إن أصـول النمور تعود الى أفـريقيا وبعضها لا يزال يعـيش فيها، وادعى بعضهم أنهم رأوا تلك الحيوانات الجبارة الجميلة رأي العين في غابات أفريقيا.

كان رأيي أنـه رغم عدم وجود نمـور في أفريقـيا المعاصـرة توجد في لغـة الكوسا كـلمة تصف هذا الحيـوان وهي غير تلك التي تـصف الببر. وحـيث أن الكلمة موجـودة في اللغة فلا بد أن الحيوان موجود في أفريقيا، وإلا فكيف يكون اسم لغير مسمى؟ دار النقاش حول هذ الموضـوع بلا هوادة. وأذكر أن مـاك رد ذات مرة بانفـعال قـائلا إن هناك كلمة في لـغة الهندي تصف مركبا يطير في الجـو وذلك قبل اختراع الطائرات فهل هذا يعني أن الطائرات كانت موجودة في الهند القديمة قبل اختراعها؟

- ٦٨ -

"زيتوليلى"، الهادىء.

هكذا كنا ندعو ذلك الحارس الودود صاحب الصوت الخافت الذي يتولى حراستنا في المحجر. كان يقف بعيدا ولم يكترث لما نقول طالما كنا محافظين على النظام. لم يتعرض لأحدنا بإهانة إن رآه متكئا على فأسه أو يتحدث مع زميله. وكنا نعامله بالمثل.

قال لنا ذات يوم من أيام عام ١٩٦٦:

- أيها الرجال، لقد جرفت الأمطار التربة عن الطريق، ونحتاج اليوم الى عشرين كيلوغراما من الجير. هل بإمكانكم أن تقوموا بالمهمة؟

كان حجم العمل قليلا تلك الأيام ورأينا أن نلبي طلبه لأنه تقدم به بأدب واحترام. أحسسنا ربيع ذلك العام أن الادارة خففت من سياستها الحديدية التي كانت ديدنها في الجزيرة. كما خفت الى حد ما حدة التوتر الذي كان قائما بين السجناء والحراس.

كان ذلك الهدوء مؤقتا إذ اختفى فجأة ذات يوم في شهر سبتمبر. ألقينا فؤوسنا واتجهنا لتناول طعام الغداء. وبينما كان أحد سجناء القسم العام يدفع بعربة الطعام نحونا همس لأحدنا بقوله:

- فيرفورد مات!

لم يزد عن ذلك حرفا واحدا. انتشر الخبر كالنار في الهشيم، ونظر بعضنا الى بعض في اندهاش ونظرنا الى الحراس فلم يبد عليهم وكانهم يعلمون أن أمرا جللا قد حدث.

لم نعرف أسباب وفاة رئيس الوزراء، وعلمنا في وقت لاحق أن رجلا أبيض مجهولا يعمل ساعيا في البرلمان طعنه بالسكين حتى الموت، وتساءلنا عن الأسباب التي دفعته الى ذلك. ورغم أن فيرفورد كان يعتبر الأفريقيين أقل درجة من الحيوانات إلا أننا لم نبتهج لموته كثيرا. فلم يكن من سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أو من سياستي أنا شخصيا دعم الاغتيال السياسي لأنه أسلوب بدائي في مواجهة الخصوم.

فيرفورد هو بحق المنظر الأول والمؤسس الأكبر لسياسة التفرقة العنصرية الشاملة. فهو الذي تزعم إنشاء مناطق البانتوستان (مناطق الحكم الذاتي العرقية المعزولة المخصصة للسود تحت نظام التفرقة العنصرية) ونظام تعليم البانتو. وهو الذي قاد الحزب الوطني في انتخابات ١٩٦٦ للحصول على أغلبية أكبر والفوز بمائة وستة وعشرين مقعدا في البرلمان مقابل تسعة وثلاثين مقعدا للحزب المتحد، ومقعد واحد فقط للحزب التقدمي.

وكما هي العادة في الجزيرة وصلتنا الأخبار قبل أن تصل الحراس وفي اليوم التالي كان واضحا أنهم سمعوا الخبر إذ صبوا جامّ غضبهم علينا، وبرز التوتر من جديد على أشده

بعد أن كان خافتا لعدة أشهر. وشنت الادارة حملة قمع ضد السجناء السياسيين وكأن أيدينا هي التي أمسكت بالسكين الذي قتل فيرفورد.

كانت الادارة دائما تتوهم أننا على علاقة بقوى مختلفة خارج السجن. وازداد انزعاجها بفعل العمليات الفدائية التي قامت بها ضد قوات شرطة جنوب أفريقيا المنظمة الشعبية لجنوب غرب أفريقيا (سوابو) South West African People's Organisation (SWAPO) وهي حليف من حلفاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ربما كان من حقنا أن نشعر بالفخر لاعتقاد الحكومة بأن منظمتنا العسكرية الوليدة لديها من الإمكانيات ما يمكنها من التخلص من رئيس الوزراء. إن شكوك الادارة لا تزيد عن كونها انعكاسا لغياب الأمن والطمأنينة الذي يعيشه أولئك المسؤولون ذوو الأفق الضيق والنظر القصير الذين يلقون باللوم في مشاكلهم على خصم يسمى المؤتمر الوطني الأفريقي وليس على سياساتهم الخرقاء.

لم تأت العقوبة التي أنزلت بنا في شكل سياسة رسمية ولكنها أعادت الى السجن ذلك الجو القاسي الذي ساد في الجزيرة عند وصولنا إليها. استبدل الحارس "الهادئ" بضابط صارم متوحش يدعى فان رينسبيرغ van Rensburg وصل الجزيرة بالطائرة خلال أربع وعشرين ساعة من الاغتيال. وصلتنا أخبار سمعته قبل أن نراه إذ كان اسمه بين السجناء صنوا للوحشية والقسوة.

كان فان رينسبيرغ ضخما فظا أرعن، لا يتكلم ولكنه يصرخ، ولاحظنا منذ يومه الأول أن معصمه موشوم بالصليب النازي، ولكنه لم يكن في حاجة الى تلك الشارة لإثبات وحشيته. كانت مهمته الأساسية تنغيص حياتنا الى أقصى حد ممكن وقد راح يؤديها بكل رغبة وحماس.

عمد فان رينسبيرغ كل يوم خلال الأشهر التالية الى معاقبة أحد السجناء لعدم الامتثال للأوامر أو التكاسل في العمل، وكان أول أمر يبت فيه مع الحراس عند كل صباح هو من الذي سيعاقب ذلك اليوم. كانت سياسة استفزاز متعمدة يقع بواسطتها الاختيار على الضحية بغض النظر عن مستوى أدائه أو مثابرته على العمل. وفي الطريق الى الزنزانات كان فان رينسبيرغ يصيح باسمي أو باسم سيسولو أو كاثرادا قائلا:

- مطلوب للمثول أمام آمر السجن فورا.

أصبحت المحكمة الإدارية في الجزيرة تعمل ساعات اضافية، وشكلنا من طرفنا لجنة قضائية تتكون مني ومن فيكيلى بام Fikile Bam وماك ماهاراجا الذي درس القانون وكان ماهرا في محاصرة الادارة. أما فيكيلى فكان يحضر لشهادة في القانون وكان متوقد الذهن واسع الحيلة وكان رئيس لجنة السجناء في القسم. كانت مهمة اللجنة القضائية تقديم النصح والإرشاد للسجناء بشأن تصرفاتهم أمام المحكمة الإدارية.

لم يكن فان رينسبيرغ حصيفا، وبينما كان قادرا على الاستبداد بنا في المحجر كنا أذكى وأشطر منه في المحكمة. كانت خطتنا ألا ندخل معه في جدال في الميدان بل نرد على

التهم أمام المحكمة حيث تتاح لنا فرصة شرح قضيتنا لضباط يفوقونه علما وتنورا. وفي المحكمة يقرأ الرئيس التهمة، وربما كانت "التكاسل عن العمل في المحجر" فيبتسم فان رينسبيرغ ابتسامة رضا. كانت نصيحتي للرفاق بعد تلاوة التهم أن يطلبوا أمرا واحدا فقط وهو "تفاصيل إضافية"، إذ كان ذلك من حق كل متهم. ورغم تكرر هذا الطلب كان فان ريسبيرغ يفاجأ به في كل مرة، وترفع الجلسة كي يتمكن فان رينسبيرغ من جمع "تفاصيل إضافية" عن التهمة.

***

كان فان رينسبيرغ حقودا انتقاميا بكل المعايير. فكان يختار اللحظة التي نجلس فيها لتناول طعام الغداء ليبول بالقرب منا، ولعله من حسن حظنا أنه لم يكن يبول في الأكل مباشرة. على كل حال، رفعنا شكوى ضده للإدارة.

كانت السخرية إحدى وسائل الإنتقام المتوفرة للسجناء، وأصبح فان رينسبيرغ مهزلة الجميع. كنا نسميه "الحقيبة" وهو الاسم الذي كان يطلق على العلب التي يحمل فيها طعام الحراس. وكان من عادة الحارس تكليف من يرتاح له من السجناء فيحمل "حقيبته" باعتبار حمل الحارس علبة غدائه بنفسه إهانة لا تليق، ولكننا كنا جميعا نرفض حمل "حقيبة" فان رينسبيرغ فعرف بيننا بذلك الإسم.

وذات يوم ذكر ويلتون امكواي في حديثه سهوا "الحقيبة" وعلى مسمع من فان رينسبيرغ فصرخ هذا يقول:

- من هو "الحقيبة"؟

صمت ويلتون هينهة ثم قال:

- أنت. أنت هو"الحقيبة".

- ولماذا تدعونني "الحقيبة"؟

- لأنك تحمل "حقيبتك" بنفسك. السجناء يحملون "حقائب" حراسهم ونحن نرفض أن نحمل "حقيبتك" فسميناك "الحقيبة".

فكر فان رينسبيرغ مليا ولم يغضب بل قال في هدوء:
- اسمي ليس "الحقيبة" بل هو دِك نك Dik Nek.

بعد صمت قصير استغرقنا في الضحك. فكلمة "ديك نك" بالأفريكانا تعني "العنق السميكة" ويشار بها الى الشخص الأرعن. ويبدو أن "الحقيبة" لغبائه لم يفطن الى أنه أهين.

لم تتوفر لنا حرية الحديث في عهد فان رينسبيرغ كما توفرت لنا من قبل ولكننا كنا نتحدث على أي حال، وفي المحجر ذات يوم استأنفنا مناقشة موضوع ما إذا كانت أفريقيا الموطن الأصلي للنمر. كان أندرو ماسوندو Andrew Masondo من كيب تاون زعيم

المعارضين للرأي القائل بأن أفريقيا هي الموطن الأصلي للنمر. واندرو هو أحد قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وعمل محاضرا في كلية فورت هير، ويميل أحيانا الى الحدة، فأصر على رأيه بشيء من العنف. احتد النقاش ورمى السجناء بفؤوسهم ومجاريفهم وانهمكوا في الحديث. أثار ذلك انتباه الحراس فصاحوا يأمروننا بالعودة الى أماكن عملنا ولكننا تجاهلناهم لاستغراقنا في النقاش. وبعد قليل ظهر "الحقيبة" فصرخ فينا بالإنجليزية - وهو لا يتقنها - قائلا:

- إنكم تتكلمون كثيرا وتعملون بعدد قليل!!

لم يلتقط الرجال فؤوسهم بل استغرقوا في الضحك لركاكة الجملة الإنجليزية التي نطق بها "الحقيبة"، ولكنه اشتاط غضبا وأرسل يطلب حضور آمر السجن الرائد كيليرمان Major Kellerman.

وصل كيليرمان في غضون دقائق فوجدنا على ما نحن عليه. ونظرا لحداثة عهده في الجزيرة فقد كان حريصا على إرساء قواعد صحيحة للتعامل. أخبره أحد الحراس بأنني واندرو ماسوندو تخلينا عن العمل فأمر بعقابنا بتهمة التكاسل ومخالفة الأوامر ووضعت القيود في أيدينا ووضعنا في الحبس الانفرادي.

منذ تلك الحادثة أصبح "الحقيبة" يحمل ضغينة خاصة نحوي. كنت وفيكيلى بام ذات يوم نعمل معا في موقع منفصل عن بقية السجناء، وكنا نتدارس ما قرأناه البارحة في مادة القانون. وفي آخر النهار وقف فان رينسبيرغ أمامنا وقال:

- فيكيلى بام ونلسون مانديلا. مطلوب منكما المثول أمام آمر السجن.

ذهبنا الى مكتب الضابط آمر السجن حيث أعلن فان رينسبيرغ قائلا:

- هذان الرجلان متهمان بمخالفة الأوامر لامتناعهما عن العمل اليوم كله.

سأل الضابط إن كانت لدينا أقوال فأجبته:

- إننا يا حضرة الضابط نرفض التهمة. فقد كنا نعمل طول اليوم ولدينا أدلة على ذلك مهمة جدا في الدفاع عن أنفسنا.

امتعض الضابط لما قلت ورد قائلا:

- إنكم جميعا تعملون في مكان واحد، فمن أين لكما بالأدلة؟

أوضحت أننا كنا ذلك اليوم نعمل منفصلين عن بقية السجناء وبإمكاننا أن نريه بالتحديد مقدار العمل الذي قمنا به. أكد "الحقيبة" بسذاجته أننا كنا فعلا نعمل منفصلين عن الآخرين، ووافق الضابط على معاينة المكان فركبنا السيارة الى المحجر.

وعند وصولنا ذهبنا الى حيث كنا نعمل وأشرنا الى الكدس الكبير من الصخر والجير الذي استخرجناه ذلك اليوم وقلت:

- أنظر بعينيك. هذا ما أنجزناه من عمل اليوم.

لم يكن "الحقيبة" فحص ما أنجزناه من قبلُ فانزعج وصاح يقول:

- كلا. هذا عمل أسبوع كامل.

بدت على الضابط ملامح الشك فاتجه الى "الحقيبة" قائلا:

- أرني إذن ما أنجزه مانديلا وبام اليوم.

حار "الحقيبة" جوابا وإذا بالضابط يقرعه في حضورنا - وهو ما لم أشاهده إلا نادرا - بقوله:

- إنك تقول كذبا.

وأسقط التهمة ضدنا على الفور.

وذات يوم في أوائل عام ١٩٦٧ كنا نستعد للذهاب الى المحجر إذ أخبرنا "الحقيبة" بأن الرائد كيليرمان أصدر تعليمات بمنع الكلام أثناء العمل وفي الطريق الى المحجر. صاح بعنجهية:

- من الآن فصاعدا: ولا كلمة واحدة!

استقبلنا الخبر بغضب وفزع شديد. فبالكلام والنقاش فقط كان العمل في المحجر محتملا. وبطبيعة الحال لم نتمكن من مناقشة الموضوع في الطريق الى المحجر، ولكن قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ومسؤولي المجموعات السياسية الأخرى تمكنوا من التوصل سرا الى خطة لمواجهة الموقف.

وبينما كنا بصدد وضع الخطة ظهر علينا الرائد كيليرمان شخصيا وجاء الى حيث كنا نتناول الطعام. لم نحظ من قبل قط بزيارة في ذلك الكوخ المتواضع من ضابط بتلك الرتبة. تنحنح في ارتباك وأعلن أن الأمر الخاص بمنع الكلام صدر خطأ وبإمكاننا الحديث في المحجر بشرط ألا نرفع أصواتنا. قال ذلك ثم أدار وجهه وانصرف. سررنا لإلغاء الأمر ولكننا ارتبنا في الدوافع التي أدت اليه.

ظل "الحقيبة" متساهلا يتودد الينا بقية النهار وأعلن أنه تعبيرا عن حسن النية سوف يسحب كل التهم المعلقة ضد أي منا.

واكتشفت يومها أنهم نقلوني من الزنزانة رقم ٤ عند بداية الممر الى الزنزانة رقم ١٨ على الطرف الآخر منه. وجدت كل امتعتي ملقاة في وسط الزنزانة الثانية. كالعادة لم تقدم لنا الأسباب.

توقعنا أن نكون بصدد استقبال زائر آخر، وأن الإدارة لم تكن ترغب في أن أكون أنا أول سجين يلقاه أو يتحدث اليه عند دخوله العنبر. فإذا رغب الزائر في الإستماع الى شكاوى المساجين بإمكان الإدارة إنهاء الزيارة قبل أن يصل الى الزنزانة رقم ١٨ وعليه اتفقنا على أن يخبر كل سجين ذلك الزائر بأن السجين رقم ١٨ سيتكلم باسم الجميع.

في صباح اليوم التالي وبعد تناول الفطور أعلن "الحقيبة" بأننا لن نذهب الى المحجر يومنا ذاك. وبعد لحظات ظهر الرائد كيليرمان ليخبرنا بأن السيدة هيلين سوزمان Helen Suzman في طريقها إلينا. والسيدة سوزمان هي عضو البرلمان الوحيد من الحزب التقدمي الليبرالي وهي الصوت الوحيد الذي يمثل معارضة حقيقية لحزب الوطنيين الحاكم. بعد أقل من خمس عشرة دقيقة دخلت السيدة سوزمان بقامتها القصيرة (خمسة أقدام وبوصتان) باب الممر وكان برفقتها الجنرال ستاين مفوض السجون. أخذت تقابل السجناء وكلما سألت سجينا إن كانت لديه شكاوى أجابها قائلا:

- لدي شكاوى كثيرة ولكن نلسون مانديلا المقيم في آخر الممر هو المتحدث باسمنا جميعا.

أصيب الجنرال ستاين بالفزع، وما هي إلا لحظات حتى كانت السيدة سوزمان عند زنزانتي. صافحتني بحرارة وعرفتني بنفسها بطريقة ودية.

خلافا للقضاة ورجال القانون المسموح لهم بالاتصال بالسجناء مباشرة، كان على أعضاء البرلمان الحصول على إذن لزيارة السجن. والسيدة سوزمان من القلائل - إن لم تكن عضو البرلمان الوحيد - الذين اهتموا بأوضاع السجناء السياسيين، وقد جاءت لتتحقق بنفسها من بعض ما كان يشاع عن الأوضاع في الجزيرة.

نظرا لأن تلك كانت زيارتها الأولى للجزيرة حاولت أن أخفف عليها الصدمة، ولكنها كانت على ثقة كبيرة بنفسها ولم يبد عليها أي انزعاج أو ارتباك واقترحت أن ندخل في صلب الموضوع مباشرة. وقف الجنرال ستاين وآمر السجن بجوارها عندما بدأت أتحدث معها بكل صراحة عن رغبتنا في تحسين نوعية الطعام والمساواة بين كل السجناء فيه، وفي الحصول على ملابس أفضل، وعن الحاجة الى مستلزمات أفضل للمطالعة، وعن غمط حقنا في الحصول على الأخبار والصحف، وعن أمور أخرى كثيرة. تحدثت إليها عن قسوة الحراس وذكرت فان رينسبيرغ بالاسم، وأشرت الى وشم الصليب النازي الذي يظهر على معصمه .ردت السيدة سوزمان رد المحامي قائلة:

- لا ينبغي يا سيد مانديلا أن نذهب الى تفسيرات بعيدة لأننا لا ندري متى وضع ذلك الوشم على معصمه، ولربما وشمه أبواه وهو صغير.

أكدت لها أن ذلك غير صحيح.

ليس من عادتي أن أشكو حارسا بعينه، فالمرء يتعلم في السجن أن الأفضل الكفاح في سبيل مباديء عامة بدلا من الدخول في معارك شخصية صغيرة. ومهما كان الحارس قاسيا فهو إنما ينفذ أوامر السياسة المتبعة في السجن. ولكن فان رينسبيرغ كان نسيجا وحده وكنا نحس بأن غيابه سيخفف من الضيم الذي يلقاه كل واحد منا.

اصغت السيدة سوزمان لما قلت باهتمام وسجلت ملاحظات في مفكرة صغيرة ووعدت برفع الأمر الى وزير العدل . اتجهت بعد ذلك لفحص الزنزانات والتحدث الى بعض

السجناء الآخرين. كان مشهدا غريبا ومفرحا أن نرى تلك السيدة الجريئة تدخل زنزاناتنا وتتجول في أنحاء السجن. إنها المرأة الأولى والوحيدة التي تفضلت بتشريف زنزاناتنا بوجودها.

أصيب فان رينسبيرغ بفزع طول مدة زيارة السيدة سوزمان. أخبرني أحمد كاثرادا أنه أثناء حديثي مع السيدة سوزمان اعتذر فان رينسبيرغ عن كل ما صدر عنه من تصرفات في الماضي، ولكن ندمه لم يعمر طويلا إذ أخبرنا في اليوم التالي بأنه سيعيد رفع كل التهم السابقة ضدنا. علمنا في وقت لاحق أن السيدة سوزمان طرحت قضيتنا أمام البرلمان، وفي غضون أسابيع قليلة من زيارتها نقل "الحقيبة" الى خارج الجزيرة.

- ٦٩ -

لم أتوهم في يوم من الأيام أن النضال سيكون قصيرا أو سهلا . كانت السنوات الأولى في الجزيرة شاقة بالنسبة للتنظيم في الخاريج وبالنسبة لنا داخل السجن. وفي أعقاب محاكمة ريفونيا دمرت معظم أجهزة الحركة السرية، كما اكتشفت أجزاء كثيرة من التنظيم وقضي عليها . أما الذين نجوا من اعضاء الحركة فقد كانوا يسابقون العدو من أجل البقاء على قيد الحياة . لقد سجن جميع قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تقريبا، ومن لم يسجن كان يعيش في المنفى خارج البلاد.

وفي السنوات التي أعقبت ريفونيا تسلمت البعثة الخارجية للحزب مهمة قيادة التنظيم ككل بعد أن كان دورها مقصورا على جمع الأموال والعلاقات الدبلوماسية وترتيب برامج التدريب العسكري. ولم تقتصر مسؤولية البعثة الخارجية على تكوين تنظيم في المنفى بل شملت أيضا مهمة أصعب وهي العمل على إحياء نشاطات الحزب السرية داخل جنوب أفريقيا.

ومن جهة أخرى صارت الدولة أقوى . زادت قوة الشرطة وأصبحت وسائلها أكثر وحشية ودقة واتسعت قوة دفاع جنوب أفريقيا . استقرت الأوضاع الاقتصادية ولم يعد البيض قلقين على حياتهم . وكان لحكومة جنوب أفريقيا حلفاء أقوياء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية راضين بالمحافظة على الوضع القائم وحمايته.

أما في مناطق أخرى عديدة من العالم فقد تعاظم الكفاح ضد الإستعمار، وفي منتصف وأواخر الستينات قام النضال المسلح في مختلف مناطق أفريقيا الجنوبية . ففي ناميبيا (جنوب غرب أفريقيا آنذاك) قامت منظمة سوابو بأولى عملياتها للتغلغل في قطاع كيبريفي، وفي الموزمبيق وأنغولا انتشرت جماعات حرب العصابات، وفي زيمبابوي (روديسيا) كانت الحرب ضد حكم الأقلية البيضاء على أشدها بينما كانت حكومة إيان سميث Ian Smith البيضاء تلقى الدعم والحماية من قوة دفاع جنوب أفريقيا . واعتبر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي المعركة في زيمبابوي امتدادا لمعركتنا داخل جنوب أفريقيا . وفي عام ١٩٦٧ علمنا أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أنشأ تحالفا مع حزب الاتحاد الشعبي الأفريقي في زيمبابوي (زابو) Zimbabwe African People's Union (ZAPU) الذي أقامه جوشوا نكومو Joshua Nkomo.

وفي ذلك العام عبرت فرقة من جنود (أمكا) - الذين كانوا يتدربون في تانزانيا وزامبيا - نهر زامبيزي الى روديسيا بنية الدخول منها الى جنوب أفريقيا . عرفت تلك الفرقة - وهي الأولى- بكتيبة لوتولي وكانت هي رأس الحربة في النضال المسلح . وبينما كانت كتيبة لوتولي، ترافقها قوات زابو، تتحرك جنوبا اكتشفتها قوات الجيش الروديسي ونشبت بين الطرفين معارك حامية لعدة أسابيع سقط فيها ضحايا من الجانبين . تفوقت القوات الروديسية وأسرت عددا من جنودنا، بينما انسحب آخرون الى بيتشوانالاند التي أصبحت بوتسوانا

المستقلة فيما بعد. مع بداية عام ١٩٦٨ دخلت روديسيا كتيبة أكبر من السابقة تابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي واشتبكت في قتال مع الجيش الروديسي وقوات شرطة جنوب أفريقيا التي كانت مرابطة في روديسيا.

وصلتنا أنباء تلك الاشتباكات على شكل إشاعات ولم نسمع القصة كاملة إلا بعد أن التحق بنا في السجن عدد من الرجال الذين شاركوا فيها. ورغم أن قواتنا لم يحالفها النصر احتفينا بمجرد قدرة كوادر حركة (أمكا) على الاشتباك مع العدو في معركة حدد هو شروطها. كان ذلك منعطفا هاما في مسيرة النضال. سجن معنا أحد قادة فرقة لوتولي وهو جاستِس بانزا 'Justice' Panza فأعطانا فكرة وافية عما تلقوه من تدريبات عسكرية ودورات سياسية وعن بطولات الفرقة في ميدان المعارك. أحسست - كقائد أعلى سابق لحركة (أمكا) - بالفخر والإعتزاز.

قبل وصول أخبار معارك (أمكا) في الخارج وصلنا خبر وفاة الزعيم لوتولي في جنوب أفريقيا في يوليو ١٩٦٧ وسمح لي بكتابة رسالة تعزية لزوجته. كانت ملابسات موته مثيرة للتساؤل، إذ داهمه قطار سكة حديد بالقرب من مزرعته حيث اعتاد أن يتمشى. تركت وفاة لوتولي فراغا في التنظيم، فقد كان حائزا على جائزة نوبل للسلام وشخصية عالمية مرموقة حازت على احترام السود والبيض على حد سواء، وهو لهذه الأسباب مجتمعة رجل لا يُعوض. ولكن التنظيم وجد، من جهة أخرى، في أوليفر تامبو رجلا يحل محله بجدارة. فقد كان أوليفر كسلفه بيّن الحديث بلا غرور، واثقا من نفسه ولكن في تواضع. كان تجسيدا لشعار الزعيم لوتولي: "دع شجاعتك تزيد مع الخطر".

نظمنا حفلا متواضعا لتأبين الزعيم في العنبر (ب) ساده الهدوء والوقار وسمحنا لكل من يرغب في الكلام أن يتكلم. ولكن، عندما قام نيفيل أليكساندر من حركة الوحدة لغير الأوروبيين ليلقي كلمته كان واضحا أنه لم يقم للثناء على الزعيم ولكن لدفنه. فبدون حتى التعبير عن الأسى لرحيل ذلك الرجل اتهمه بأنه عميل للرجل الأبيض بناء على قبوله تسلم جائزة نوبل للسلام.

إضافة الى الشطط الذي جاء في كلمة نيفيل، فقد كانت كلمة مناقضة تماما لروح التعاون التي كنا نسعى الى تنميتها بين التنظيمات في الجزيرة. فقد دأبت منذ وصولي هناك على التوصل الى نوع من التفاهم بيننا وبين منافسينا في النضال. ورأيت أن وجودنا في الجزيرة فرصة لتذويب الخلافات الحادة التي نشأت بين حزب المؤتمر القومي الأفريقي وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وكنت أؤمن بأن توحيد التنظيمين في الجزيرة يمكن أن يكون نموذجا للتوحيد بينهما في حركة التحرير ككل.

ولكن العلاقات مع حزب المؤتمر القومي الأفريقي كانت منذ البداية تنحو نحو التنافس لا التعاون. سبقنا في الجزيرة أعضاء من حزب المؤتمر القومي الأفريقي اعتبروا مجيئنا تعديا على حرمة وجودهم هناك، وسمعنا من بعض أعضائنا أن غالبية البارزين من سجناء حزب

المؤتمر القومي الأفريقي أسفوا لعدم تنفيذ حكم الإعدام فينا.

كان عدد سجناء المؤتمر القومي الأفريقي أثناء إقامتي الأولى في الجزيرة عام ١٩٦٢ يفوق عدد سجناء المؤتمر الوطني الأفريقي، وفي عام ١٩٦٧ انعكست الصورة. ولكن ذلك لم يزد اعضاء المؤتمر القومي الأفريقي إلا تصلبا في مواقفهم فكانوا يجاهرون بعدائهم للشيوعيين والهنود. دارت مساجلات طويلة في السنوات الأولى بيني وبين زيف موتوبينغ Zeph Mothopeng العضو السابق في اللجنة التنفيذية العامة للمؤتمر القومي الأفريقي. كان يقول إن المؤتمر القومي الأفريقي يتبع منهجا أكثر صدامية وينبغي أن يقتدي بذلك أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي. فقد أكد المؤتمر القومي الأفريقي على أن التفاوض مع الادارة خيانة، ولكن ذلك لم يمنعهم من الانتفاع بنتائج المفاوضات التي درات. وفي عام ١٩٦٧ عقدت محادثات مع سيلبي انغندانى Selby Ngendane حول قضية الوحدة. كان انغنداني خارج السجن معارضا بشدة لميثاق الحرية، أما داخل السجن فقد لان شيئا ما، خاصة بعد أن جاورنا في القسم، وكتب كل منا رسالة لأعضاء حزبه في القسم العام يدعوهم فيها للوحدة. كما تعاون حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تعاونا مثمرا مع كلارنس ماكويتو Clarence Makwetu الذي كان معنا في القسم والذي أصبح فيما بعد رئيسا لحزب المؤتمر القومي الأفريقي. وماكويتو شخص متزن وحصيف وعضو سابق في رابطة الشباب التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ودارت بيننا مناقشات طويلة حول توحيد الحزبين ولكن محادثاتنا تعرقلت بعد إطلاق سراح ماكويتو وتولي جون بوكيلا John Pokela قيادة الحزب في الجزيرة.

أسفرت الترتيبات الأمنية لحزب المؤتمر القومي الأفريقي عن نتائج مضحكة. جاءت تعليمات من بريتوريا ذات مرة بعزلي عن بقية السجناء في المحجر، وانفردت بطعامي وعملي وحراستي، فلاحظنا أن ذلك أدى الى ثورة بين أعضاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي فقرروا من عند أنفسهم عزل رئيسهم زيف موتوبينغ أيضا وأفردوه في أكله وعمله.

كان أعضاء المؤتمر القومي الأفريقي يرفضون المشاركة في اجتماعات لا تحمل الطابع الحزبي، وقاطعوا الاجتماعات الخاصة بالشكاوى وتلك التي كنا نتبادل فيها الأخبار الصحافية. كنت أتضايق كثيرا من تلك التصرفات، واكتشفنا أن أعضاء المؤتمر القومي الأفريقي على جهل تام بما يطرأ من تغيرات على الحزب خارج السجن. رفضوا أن يصدقوا ما قلناه من أن حزبهم في المنفى فتح أبواب عضويته للبيض والهنود وكان ذلك بمثابة الردة في عرف الحزب. كما هزأوا مما نشر في الصحف أن باترك دانكن Patrick Duncan (وهو من البيض) أصبح عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب واعتبرو ذلك دعاية مغرضة يبثها المؤتمر الوطني الأفريقي.

* * *

شكل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تنظيما خاصا في جزيرة روبن عرف باسم القيادة

العليا High Command أو باسمه الرسمي الجهاز الأعلى High Organ ضم أبرز قادة الحزب الموجودين في الجزيرة وأعضاء اللجنة التنفيذية العامة سابقا وهم أنا وولتر سيسولو وغوفان امبيكي وريموند امهلابا. كما اخترت أنا رئيسا للجهاز الأعلى.

قررنا منذ نشأة الجهاز الأعلى ألا يسعى الى التأثير على سياسة الحزب خارج الجزيرة. فلم تكن لدينا الامكانيات التي تؤهلنا لتقييم الوضع في البلاد ككل، ورأينا أنه ليس من الإنصاف أو الحكمة أن نصدر أي آراء أو تعليمات تخص أمورا لا نعلم عنها شيئا. تركزت صلاحياتنا في البت في الأمور المتعلقة بشكاوى السجناء ومظالمهم والاضرابات والبريد والطعام وغيرها من الأمور اليومية التي تمس السجناء. ورأينا أن نعقد اجتماعات عامة لكل الأعضاء كلما سنحت الفرصة باعتبار أن ذلك أمرا حيويا لسلامة التنظيم. ولكن نظرا الى خطورة عقد اجتماعات من ذاك القبيل عمد الجهاز الأعلى في أغلب الأحيان الى اتخاذ القرارات ثم تعميمها على جميع الأعضاء. اعتمد التنظيم نظام الخلايا وتضم كل خلية ثلاثة أعضاء.

قام الجهاز الأعلى في السنوات الأولى بدور اللجنة الممثلة لجميع السجناء السياسيين في القسم. وفي عام ١٩٦٧ رفعنا مذكرة نطالب فيها برفع مستوى المعاملة وقع عليها جميع السجناء تقريبا بمن في ذلك أعضاء المؤتمر القومي الأفريقي وحركة الوحدة وحزب الأحرار الذي كان يمثله أدّي دانيالز. حاز ذلك الترتيب على رضا الجميع حتى اعترض نيفيل أليكساندر بأن الجهاز الأعلى ليس ديقراطيا ولا يمثل السجناء تمثيلا صحيحا ويجب استبداله بهيئة أخرى.

تبلور اقتراح نيفيل بعد فترة في لجنة للسجناء تضم أعضاء من جميع الأحزاب السياسية، وساد التخوف من أن المؤتمر الوطني الأفريقي سوف يسعى للسيطرة على اللجنة فوضعت قواعد تحدد سلطات اللجنة بأنها استشارية بحت وأن قراراتها غير ملزمة. ورغم ذلك وجدنا من الصعب الاتفاق على سياسة مشتركة تجاه المشكلات القائمة. اقترحنا ترشيح فيكيلي بام، عضو نادي يو تشي تشان، لترأس الاجتماعات وأن تكون رئاسة اللجنة دورية. عرفت اللجنة فيما بعد باسم أولوندي Ulundi وتولت مهام لجنة تأديبية لجميع السجناء السياسيين.

أثارت التركيبة العرقية للجهاز الأعلى بعض الجدل لأن الأعضاء الدائمين الأربعة كانوا من أصل كوسا. جاء ذلك صدفة وليس عمدا إذ توافق أن كان أبرز قادة المؤتمر الوطني الأفريقي في الجزيرة والذين كانوا أعضاء في اللجنة التنفيذية العامة للحزب، وعددهم أربعة، كلهم من الكوسا. ولم يكن صحيحا أن يختار عضو أقل مرتبة في الحزب لمجرد أنه ليس من الكوسا. ومع ذلك فقد أقلقني طغيان الكوسا في تركيبة الجهاز الأعلى لأنه يكرس التصور الخاطيء بأننا منظمة من الكوسا.

طالما حيرني وأغاظني النقد الذي يوجه الى المؤتمر الوطني الأفريقي بأنه تنظيم عرقي

يسيطر عليه أبناء الكوسا، وهو تصور قائم على الخبث والجهل بتاريخ الحزب. ودحضا لهذا الإعتقاد أشير الى حقيقة تولى رئاسة الحزب قادة من الزولو والباسوت Basotho والبدي Pedi والتسوانا Tswana والى أن اللجنة التنفذية ضمت في جميع الأوقات أعضاء من قبائل مختلفة. أذكر أنني كنت في فناء السجن يوما، وكان سجناء من القسم العام يعملون فوق السطوح فصاح أحدهم يقول:

– أنت أيها الشيخ الكبير! لماذا لا تتحدث إلا مع أبناء الكوسا؟

وقعت التهمة علي نفسي كلسعة الحية، فرفعت بصري نحوهم وقلت:

– كيف لكم أن تتهمونني بالتفرقة العنصرية. نحن جميعا أمة واحدة.

كان جوابا شافيا ولكن الصورة انطبعت في ذهني، ومنذ ذلك الحين كنت في حضور سجناء القسم العام أتعمد الحديث مع كاثرادا أو أدّي دانيالز أو غيرهما ممن ليسوا من الكوسا.

رأينا فيما بعد ضرورة اضافة عضو خامس للجهاز الأعلى يكون بالتناوب، وكان غالبا من غير الكوسا. فكان كاثرادا مثلا العضو الخامس في الجهاز لأكثر من خمس سنوات، كما تولاه لالو شيبا لفترة، وكانت تلك نهاية النقد الموجه للحزب بأنه يحابي أبناء الكوسا وحدهم.

لم أفرض هيمنتي على الجهاز الأعلى بأي شكل من الأشكال بل لقد رفض عدد من المقترحات التي كنت من المتحمسين لها بشدة. كان ذلك هو الوضع الصحيح ولكنني أحسست بالإحباط أحيانا وكانت هناك قضيتان لم أنجح في إقناع زملائي بالموافقة عليهما. فقواعد السجن تنص على وقوف السجين في حضور الضباط وكنت أدعو الى عدم الإلتزام بتلك القاعدة لأن من المهين لنا أن نعترف بعدونا وهو لا يعترف بنا كسجناء سياسيين. ولكن زملائي رأوا أنها قضية ثانوية وأن سلبيات المقاومة تفوق أي منافع يمكن أن تجنى منها.

كما رفض الجهاز الأعلى أمرا آخر كنت من المتحمسين له. فقد كان الحراس ينادون السجين إما باسمه الأول أو بلقبه فقط وهو أسلوب – في رأيي – فيه حط من قدر السجين، ورأيت أن نصر على استعمال الحراس لفظ "السيد" عند مخاطبتنا. دافعت عن رأيي على مدى سنوات ولكن دون جدوى، وأصبح الموضوع مدعاة للتندر فيما بيننا إذ كان بعض الزملاء يخاطبني بقوله: يا سيد مانديلا!!

- ٧٠ -

طالما تراءى لنا نحن السجناء أن الزمن قد توقف، ولكنه لم يتوقف بالنسبة لمن هم خارج السجن. فطنت لذلك عند زيارة أمي لي في ربيع عام ١٩٦٨ ولم أكن رأيتها منذ نهاية محاكمة ريفونيا. التغيرات التي تطرأ على الانسان تدريجية وغير محسوسة، وعندما يعيش المرء بين أفراد عائلته نادرا ما يلاحظ تلك التغيرات. أما إذا ما انقطع عنهم لعدة سنوات فإن التغيرات تقع عليه وقع الصاعقة. فجأة ظهرت علامات الشيخوخة على أمي.

تكبدت أمي مشاق السفر من ترانسكاي في صحبة ابني ماكغاتو وابنتي ماكازيوى واختي مايبل Mabel. ونظرا لعدد الزوار ومجيئهم من مكان بعيد وافقت ادارة السجن على تمديد فترة الزيارة من نصف ساعة الى خمس وأربعين دقيقة.

لم أر ابني وابنتي منذ ما قبل المحاكمة واندهشت لرؤيتهما وقد كبرا في غيابي. وكنت فخورا بهما وظللت أنظر اليهما رغم مرور السنين طفلين صغيرين كعهدي بهما قبل دخولي السجن. أجل تغيرا، ولكنني لم أتغير.

فقدت أمي قدرا كبيرا من وزنها مما أثار قلقي على صحتها، وظهر الإنهاك على وجهها. أما أختي مايبل فهي الوحيدة التي ظلت كما عرفتها من قبل. ورغم سعادتي لرؤيتهم جميعا وللتحدث معهم في شؤون العائلة انتابني قلق شديد لتدهور صحة أمي.

أعربت لماكغاتو وماكازيوى عن رغبتي في أن يواصلا دراستهما وسألت مايبل عن أحوال الأقارب في ترانسكاي. وكالعادة، انقضى الوقت دون أن نحس به، وانتهى اللقاء ولم تبق معي سوى ذكراه. ولكن الأمر الوحيد الذي أقلقني على كل حال هو صحة أمي، وخشيت أن تكون تلك المرة الأخيرة التي ألقاها فيها.

بعد بضعة أسابيع استدعيت لمكتب السجن لأتسلم برقية من ابني ماكغاتو يخبرني فيها بوفاة أمي إثر نوبة قلبية. تقدمت لفوري بطلب إذن لحضور جنازتها في ترانسكاي فرفض، وقال لي آمر السجن:

- أنا أعلم أنك يا مانديلا رجل توفيّ بوعدك ولن تحاول الهرب ولكنني لا أثق في قومك وأخشى أن يحاولوا خطفك.

لم يزدني ذلك الكلام إلا غماً على غمّ، وتألمت لعدم حضوري جنازة أمي وكان من واجبي دفنها بحكم أنني ابنها الأكبر.

عاودتني ذكرى أمي كثيرا طول الأشهر التالية. لقد عاشت حياة قاسية، وكنت قادرا على إعالتها وأنا أعمل في المحاماة ولكنني عجزت عن ذلك بعد أن سجنت. لم أولها ما يجب من الرعاية والاهتمام.

وفاة الأم تفرض على المرء أن يستعرض الماضي ويعيد تقييم حياته. إن ما عاشت فيه

أمي من فقر وشقاء جعلني أتساءل من جديد إن كنت قد اخترت الطريق الصحيح في حياتي. هل كان اختياري تقديم مصلحة الآخرين على مصلحتي الشخصية ومصلحة أسرتي اختيارا صائبا؟ ظل ذلك لغزا أزليا. لم تفهم أمي لفترة طويلة أسباب تجردي الكامل للعمل النضالي. لم يبد أحد غيري من أفراد أسرتي الرغبة في الالتحاق بحركة النضال ولكن انخراطي أنا في النضال أجحف بهم ونغص عيشهم.

تساءلت وكان الجواب هو الجواب. من الصعب على المرء في جنوب أفريقيا أن يتجاهل حاجات الآخرين ولو كان ذلك على حساب أسرته. لقد اخترت طريقي ومع مرور الوقت ساندتني أمي في ذلك الاختيار. ولكن ذلك لم يخفف من الأسى والحزن الذي انتابني للتقصير في توفير قدر أكبر من الراحة والسعادة لها، ولم يخفف من الألم الذي انتابني لعدم قدرتي على أن أواريها التراب في مثواها الأخير.

في الساعات الأولى من صباح ١٢ مايو ١٩٦٩ أيقظت شرطة الأمن ويني من نومها في بيتنا في أورلاندو واعتقلتها بدون تهمة بموجب قانون الإرهاب لعام ١٩٦٧ الذي أعطى الحكومة صلاحيات لم يسبق لها مثيل للاعتقال والحجز دون محاكمة. جرها رجال شرطة الأمن وابنتاها زيني وزيندزي متعلقتين بملابسها، ووضعت في الحبس الانفرادي في بريتوريا ومنعت من الكفالة والزيارات وخضعت على مدى الأسابيع التالية للاستجواب العنيف المتواصل. جاء إعتقال ويني ضمن حملة واسعة شملت البلاد كلها واعتقل فيها عشرات من بينهم إحدى أخوات ويني.

وجهت التهم رسميا الى ويني بعد ستة أشهر وتمكنتُ من إرسال تعليمات لجول كارلسون Joel Carlson، المحامي المعروف بمناهضته القديمة للتفرقة العنصرية، بالترافع عنها. وجهت السلطات إلى ويني وعشرين آخرين تهمة السعي لإحياء تنظيم المؤتمر الوطني الأفريقي بموجب قانون مكافحة الشيوعية. التحق بفريق الدفاع كل من جورج بيزوس وآرثر شاسكالسون Arthur Chaskalson اللذين شاركا في مرافعات محاكمة ريفونيا. وفي أكتوبر، أي بعد سبعة عشر شهرا من الإعتقال، سحبت الدولة التهمة بدون تقديم أي أسباب وأطلق سراح ويني. بعد أسبوعين صدر بحقها أمر حظر ووضعت تحت الإقامة الجبرية، ورفض طلب تقدمت به فورا لزيارتي.

لم أكن أتالم في السجن لشيء أكثر من ألمي لدخول ويني هي الأخرى السجن. تظاهرت برباطة الجأش وقوة العزيمة ولكنني كنت في داخل نفسي في غاية القلق والاضطراب. لم أتعرض لاختبار أصعب مما تعرضت له عندما كانت ويني في الحبس الإنفرادي. ورغم أنني كنت دائما أنصح غيري بعدم القلق لما هو خارج عن إرادتهم لم يكن بوسعي الاتعاظ بتلك النصيحة. سهرت ليال طويلة أتساءل: ما الذي تتعرض له ويني على يد السلطات؟ هل هي قادرة على تحمل ما تلقاه من عنت؟ من يقوم برعاية ابنتينا؟ من سيتولى تسديد الفواتير؟ عشت في دوامة من العذاب بسبب تلك الأسئلة التي لا سبيل لي للتعرف على إجاباتها.

سمح لي العميد أوكامب - تعطفا منه نحوي - بكتابة رسائل الى ويني واستلمت منها رسالة أو رسالتين، ولم يكن من العادة السماح للموقوفين للمحاكمة بكتابة الرسائل. أقررت له بالجميل مع يقيني بأن السلطات لم تسمح بذلك بدافع الخير والإنسانية بل لأنها كانت تقرأ الرسائل علها تستقي منها بعض المعلومات التي تعينها في حبك التهمة ضد ويني.

منيت في تلك الفترة أيضا بمحنة أخرى. بعد ثلاثة أشهر من اعتقال ويني استدعيت صباح ذات يوم بارد في يوليو ١٩٦٩ الى المكتب الرئيسي في الجزيرة لأتسلم برقية من جملة واحدة من ابني ماكغاتو يخبرني فيها بأن ابني الأكبر ماديبا تيمبيكيلى - وكنا ندعوه تيمبي - قتل في حادث مرور في ترانسكاي. كان عمر تيمبي آنذاك خمسة وعشرين عاما وكان أبا لطفلين.

ماذا عسى أن يفعل المرء حيال مصيبة كهذه؟ لم أزل مكدودا من أثر اعتقال زوجتي ومن حزني على وفاة أمي عندما حلت بي تلك الفاجعة! لا أملك العبارات التي أصف بها ما أصابني من أسى وحزن لما فقدت. لقد أصبح فؤادي فارغا فراغا لا يملؤه شيء أبدا.

عدت الى زنزانتي واستلقيت على فراشي. لا ادري كم من الوقت مكثت على تلك الحال ولكنني لم أخرج للعشاء. زارني بعض الزملاء ولكنني لم أتكلم مع أحد، ثم جاء وولتر فجلس الى جانب السرير فأعطيته البرقية ليقرأها. لم يقل شيئا ولم يزد عن أن امسك بيدي ولا أدرى كم من الوقت بقي بجانبي. لا يجد المرء ما يقول في تلك الحال.

طلبت من ادارة السجن السماح لي بحضور جنازة ابني، وكان من واجبي كأب أن اطمئن على بلوغ روح ابني مثواها الأخير في سلام. اقترحت أن يرسلوا معي فرقة حراسة وأتعهد لهم بأنني سوف أعود. رفض طلبي، ولم يسمحوا لي إلا بالكتابة الى إيفيلين أم تيمبي، فكتبت لها رسالة حاولت قدر وسعي أن أواسيها وأخفف آلامها وأشاركها ما تعانيه من أسى وحزن.

عادت بي الذاكرة الى ذلك اليوم الذي زارني فيه تيمبي وكنت متخفيا في بيت في سيريلدين Cyrildene كنت استعمله للقيام ببعض أعمال خاصة بالحزب. لم أكن رأيته منذ فترة طويلة لانشغالي بالعمل السياسي السري ومهنتي في المحاماة. دخلت على حين غفلة فوجدته قد ارتدى سترة قديمة لي وصلت الى ركبتيه. كان فخورا بارتداء ملابس أبيه كما كنت أنا يوما فخورا بارتداء ملابس أبي. وعندما كنت أودعه وقف وقفة اعتزاز وكأنه قد بلغ أشده وقال:

- سوف أتولى رعاية الأسرة في غيابك.





الفصل التاسع

جزيرة روبن:
بداية الأمل

- ٧١ -

لم يكن الخط البياني لتحسن الأوضاع داخل السجن ثابتا في كل الأوقات. كان التقدم متعثرا وغالبا ما تعقبه انتكاسات. فربما مرت سنوات قبل أن تتحرك خطوة واحدة نحو الأفضل ثم إذا بهذه الخطوة تلغى في يوم واحد. كنا كمن يدفع صخرة عظيمة الى أعلى الجبل ليراها في لحظات تتدحرج الى أسفله. ولكن الأوضاع تحسنت وكسبنا عددا من المعارك المحدودة التي أحدثت في مجموعها تغييرا ملحوظا في الجو العام في الجزيرة. لم نكن نحن نسير شؤون الجزيرة ولكن الادارة لم تكن لتسيرها بدوننا، وفي أعقاب رحيل فان رينسبيرغ أصبحت حياتنا في الجزيرة أكثر احتمالا.

في غضون السنوات الثلاث الأولى صرفت للجميع سراويل طويلة. وفي عام ١٩٦٩ تسلم كل منا بدلة خاصة به بدلا من حصولنا على ملابس مختلفة كل أسبوع. البدل الجديدة كانت حسب المقاس وسمح لنا بغسلها بأنفسنا. كما سمح لنا بالخروج الى الساحة في أي وقت أثناء عطلة الأسبوع. ورغم أن الطعام لم يوحد أصبح السجناء الأفارقة يحصلون على الخبز في الصباح أحيانا، كما سمح لنا أن نتشارك في الطعام فاختفت الفروق. صرفت لنا ألعاب الورق وكنا نلعبها يومي السبت والأحد من كل أسبوع. صرنا نتحدث بحرية في المحجر ولا نقاطع إلا نادرا. عندما يعلم الحراس بمجيء آمر السجن كانوا يطلقون صفاراتهم تنبيها لنا فنلتقط الفؤوس ونواصل العمل. نجحنا في تحييد أسوأ الحراس ووثقنا علاقات الود مع الطيبين منهم رغم أن السطات اكتشفت ذلك فعمدت الى مداولة الحراس كل بضعة أشهر.

أصبحنا أحرارا نلتقي ونتبادل الزيارات متى شئنا. لم تكن اجتماعات الجهاز الأعلى واجتماعات الأعضاء ولجنة أولوندي تنفض إلا إذا أصبحت معرضة للاكتشاف من قبل الحراس. بدا السجن وكأنه يدار من قبل السجناء وليس من قبل إدارته الرسمية.

الأفريكاني رجل صارم متدين يخاف ربه. والبند الوحيد الذي لا يتغير في برنامج الأسبوع هو قدّاس صباح الأحد. كانت الادارة تعتبره واجبا ملزما وكأن اللعنة ستحل بالمسؤولين أنفسهم إن لم يطمئنوا على أدائنا لهذا الواجب الديني كل أحد.

ففي صباح كل أحد يحضر قسيس ليعظنا، وكان القساوسة ينتمون الى كنائس ومذاهب مختلفة منها الأنجليكانية والهولندية الإصلاحية والميثودية وغيرها. وكانوا موظفين تابعين لمصلحة السجون التي تطلب منهم شيئا واحدا فقط لا غير وهو الحديث في الأمور الدينية دون غيرها. كان الحراس يحضرون القداس وإن حاد القس في حديثه عن ذلك لم يدع للوعظ مرة أخرى.

في السنتين الأوليين لم يكن يسمح لنا بمغادرة زنزاناتنا حتى للدروس الدينية، وكان القس يقف عند مدخل الممر ليلقي خطبته. في السنة الثالثة كان القداس يعقد في الساحة،

وكانت تلك آنذاك الفرصة الوحيدة المسموح لنا فيها بالخروج الى الساحة باستثناء فترات الترويح الرياضية ومدتها نصف ساعة في اليوم. المتدينون بيننا قليلون ولكن أحدا لم يعترض على الخطب الطويلة إذ كنا نستمتع بوجودنا في الهواء الطلق.

بمجرد أن أصبح القداس يقام في الساحة أصبح الحضور اختياريا، وكان بعض السجناء يتخلف إلا إذا كان القس من طائفته. ومع أنني من أتباع الكنيسة الميثودية كنت أواظب على حضور كل اللقاءات الدينية باختلاف مذاهبها.

زارنا قس انجليكاني يدعى الأب هيوز Father Hughes وهو شخص فظ ضخم البنية من مقاطعة ويلز البريطانية، عمل قسيسا في فرقة الغواصات اثناء الحرب العالمية الثانية. لم يكن مرتاحا للوعظ في الممر واعتبره منافيا لآداب العبادة. في زيارته الأولى قرأ علينا بصوته الجهوري مقتطفات من الخطابات التي وجهها عبر الأثير رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشيرشل للجنود البريطانيين في جبهات القتال، وجاء فيها:

سوف نقاتل على الشواطيء، سوف نقاتل في المطارات. سوف نقاتل في الحقول والشوارع، وسوف نقاتل في الجبال. ولكننا لن نستسلم أبدا.

أما خطبه في الساحة فكانت رائعة، وكان يتعمد تطعيمها بنتف من الأخبار استفدنا منها كثيرا. فربما قال مثلا: إن رئيس وزراء جنوب أفريقيا يعد جيشا كبيرا كما أعد فرعون مصر جيشه قديما.

اعتدنا تلاوة الترانيم بعد الخطبة، ويخيل إليّ أن الدافع الرئيسي لحرص الأب هيوز على زيارتنا رغبته في الاستماع الينا نرتل الترانيم. كان يُحضر أرغُنا صغيرا يعزف عليه، وكان يثني على غنائنا ويساويه بأداء فرق المرتلين في موطنه الأصلي ويلز.

أما القس الميثودي فهو السيد المبجل جونز Reverend Jones وهو رجل قلق عبوس اشتغل بالوعظ في الكونغو إبان الثورة، ويبدو أن تجربته هناك هي سر كآبته. كان يؤكد في خطبه على المصالحة بما معناه أننا في حاجة الى أن نتصالح مع البيض.

لاحظت ذات يوم أدّي دانيالز وقد انتابه قلق أثناء خطبة القس جونز، فلما طفح به الكيل انتفض قائلا:

- نحن لسنا في حاجة الى أن نوعظ بالمصالحة، فقد ظللنا نسعى للمصالحة خمسة وسبعين عاما.

كانت تلك قاصمة الظهر ولم يعد القس جونز لزيارتنا بعد ذلك أبدا.

لم يكن القس جونز الضحية الوحيدة لفورات أدي. زارنا ذات أحد القس الملون الأخ سبتمبر Brother September وتطوع سجين اسمه هيني فيريس Hennie Ferris لقراءة الصلوات وكان متحدثا بليغا فابتهج الأخ سبتمبر لحماسه وتقواه. بدأ هيني حديثه بلغة عالية فصيحة ثم طلب من الجمع أن يغمضوا أعينهم للدعاء، فامتثل الجميع للأمر بما في

ذلك الأخ سبتمبر. وبينما نحن على تلك الحال اتجه أدي ماشيا على أطراف قدميه الى حقيبة الأخ سبتمبر وأخرج منها عدد ذلك اليوم من صحيفة صانداي تايمز Sunday Times. لم ينتبه أحد لما قام به أدي ولكن الأخ سبتمبر لم يحضر معه صحيفة بعد ذلك اليوم أبدا.

القس أندريه شيفر Reverend Andre Scheffer من رجال بعثة الكنيسة الإصلاحية الهولندية في أفريقيا، الموازية للكنيسة الإصلاحية الهولندية التي تنتمي إليها الغالبية العظمى من الأفريكان، وكانت البعثة متخصصة في خدمة الأفريقيين فقط. وكان القس رجلا محافظا حاد الطبع، واعتاد الوعظ أمام سجناء القسم العام. وذات يوم دخل قسمنا فسألناه لماذا يرفض التحدث إلينا فقال بازدراء:

– إنكم تعتقدون أنكم مناضلون من أجل الحرية، ويبدو أنكم كنتم سكارى أو تحت أثر المخدرات عندما ألقي القبض عليكم. أنكم لا تستحقون أن تكونوا مناضلين!

رغم ذلك تحديناه أن يأتي ويتحدث إلينا فاستجاب بعد فترة في أواخر الستينات.

كان القس شيفر متحررا في جانب واحد فقط وهو أسلوبه العلمي في تفسير الدين. أعجبت بذلك الأسلوب لأن أكثر الناس يستخدم العلم لتفنيد الدين بينما استخدم هو العلم وسيلة لتعزيز معتقداته الدينية. تحدث في إحدى خطبه عن الحكماء الثلاثة الذين قدموا من المشرق وقادهم نجم الى بيت لحم فقال إن ذلك ليس خرافة أو مجرد أسطورة، واستشهد بأدلة فلكية علمية على ظهور مذنب في ذلك الوقت في السماء سلك المسار المبيّن في الكتاب المقدس.

مع تكرار زياراته أصبح القس شيفر أكثر تعاطفا نحونا. كان لاذعا في سخريته، يهوى التهكم علينا وكان يقول مازحا:

– مهمة الرجل الأبيض في هذا البلد هي في الحقيقة أشق وأصعب من مهمة الرجل الأسود. كلما برزت مشكله كان علينا ان نجد لها حلا. أما أنتم السود فكلما واجهتكم مشكلة وجدتم لها عذرا بقولكم: انغابيلونغو Ingabilungu!!

استغرقنا في الضحك لا لأن نطقه للكلمة كان مضحكا وحسب ولكن لأنها تعني في لغة الكوسا: "الرجل الأبيض هو السبب". فهو يعني أننا نلقي باللوم في كل مصائبنا على الرجل الأبيض، وأنه علينا أن ننظر الى داخل أنفسنا وأن نتحمل مسؤولية أعمالنا، وهو ما أعتقده تماما وأثني عليه.

يوم عيد الميلاد بالنسبة للسنة كأيام الأحد بالنسبة لبقية أيام الأسبوع، فهو اليوم الوحيد الذي أظهرت فيه الادارة أي نوع من الود والإنسانية نحونا. وهو يوم لا نذهب فيه الى المحجر ويسمح لنا فيه بشراء بعض الحلوى. لم تقدم لنا وليمة عيد الميلاد التقليدية ولكننا كنا نحصل على كوب اضافي من القهوة مع وجبة العشاء.

وسمحت لنا إدارة السجن بإقامة حفلة غنائية وإجراء المسابقات وتنظيم مسرحية

بالمناسبة. كان مسؤول فرقة الطرب هو سيلبي انغينداني من أعضاء حزب المؤتمر القومي الأفريقي الذي كان عضوا في رابطة الشباب التابعة للمؤتمر الوطني الأفريقي، وكان يتمتع بمواهب فنية عالية وصوت جميل وأذن موسيقية.

اختار سيلبي الأغاني ووزع الأدوار وأشرف على العرض كله، وأقيم الاحتفال في ساحة السجن صباح يوم عيد الميلاد. كنا نجمع بين الأغاني والأهازيج التقليدية الانجليزية والأفريقية اضافة الى بعض أناشيد المعارضة، ولم تكن الإدارة تعير برنامج الحفل اهتماما كبيرا أو تفرق بين الأغاني والأناشيد. كان الحراس هم الجمهور، وكان استمتاعهم بالحفل لا يقل عن استمتاعنا.

كان الإنطباع السائد عن سيلبي قبل دخوله السجن أنه معارض سياسي من الوزن الخفيف، ولكنه ظهر على حقيقته داخل السجن. وهو من ذوي الروح المرحة الذين يتمنى عشرتهم من كُتب عليه السجن.

والسجن بوتقة تختبر فيها شخصيات الرجال، فمنهم من لا يزيده السجن إلا همة وصلابة ومنهم من يكشف السجن عن أنه غير ما يبدو أو يدّعي.

إضافة الى الحفل الموسيقي تجرى مسابقات في الداما والشطرنج والسكرابل (تركيب كلمات من حروف منفصلة) والبريدج (من ألعاب الورق). شاركت في مسابقات الداما وكسبت الجائزة الكبرى في بعض السنوات، وكانت جائزتي قطعة من الحلوى. أسلوبي في اللعب بطيء ومدروس واتبع استراتيجية متحفظة جدا. كنت ادرس بعناية احتمالات كل حركة ونتائجها وأقضي وقتا طويلا في التأمل والتفكير قبل أن أنتقل الى الحركة التالية. الغريب أن هذا هو منهجي المفضل في العمل السياسي كذلك، وإن لم أكن ممن يحبذون مقارنات من هذا القبيل.

كان أغلب المنافسين يميل الى السرعة في اللعب وكانوا يضجرون لأسلوبي البطيء. دون ديفيز Don Davis هو أكثر من تباريت معه، وهو من حركة وحدة غير الأوروبيين، نشأ في كيمبيرلي موطن مناجم الماس. كان صارما مقداما شديد الحساسية، وكان ماهرا في لعبة الداما. أما أسلوبه في اللعب فكان عكس أسلوبي تماما. كان يلعب بتوتر وانفعال فيتصبب وجهه عرقا، وكان يحرك أفراده بسرعة وكأن السرعة لها قيمة أو أثر على النتيجة، وغالبا ما كانت نهائيات دوري الداما السنوية تجرى بين ديفيز ومانديلا.

كان دون يدعوني باسم قيبو Qhipu لعادة التزمتها أثناء لعب الداما. كنت أدرس رقعة الداما وأفكر في كل الإحتمالات وعندما أحدد الحركة أصيح "قيبو"! ومعناها: هجوم!! ثم العبها. كان ذلك يزعج دون فسماني بذلك الاسم من باب السخط وليس من قبيل الملاطفة.

تنافسنا في مباريات عديدة وكان دون يدعوني فورا الى مباراة ثانية، حتى لو فاز بالأولى. كان لا يمل لعب الداما ولا يهدأ له بال حتى أوافق على اللعب ضده فصرت

اقضي معظم وقتي في لعب الداما وكان ذلك على حساب اهتماماتي الأخرى. وعندما أخفقت مرة في امتحان مادة من المواد سألني بعض الزملاء عن الأسباب فقلت: "دون ديفيز"، فضحك الجميع.

كانت فرقة هواة التمثيل في جزيرة روبن تقدم عملا خاصا كل عام في عيد الميلاد، وبواسطتها أحييت موهبتي في التمثيل المسرحي التي ظلت كامنة منذ أن أديت دور جون ويلكس بووذ John Wilkes Booth على مسرح كلية فورت هير. كان الإنتاج من النوع الذي يمكن أن يوصف اليوم بفن "الحد الأدنى" minimalist إذ لم يكن لدينا سوى النص المكتوب. فلا خشبة مسرح ولا مناظر ولا أزياء.

شاركت بعدد من الادوار أهمها كريون ملك الثيب في تراجيديا أنتيغون Antigone لسوفوكليس Sophocles. سبق لي أن قرأت بعض المسرحيات الإغريقية القديمة ووجدتها رفيعة المستوى، وتعلمت منها أن شخصية الإنسان تقاس بمدى قدرته على مواجهة المحن والصعوبات، وأن البطل هو ذلك الرجل الذي لا يستسلم لليأس حتى أمام أصعب الضروف وأحلكها.

عندما وقع الاختيار على مسرحية أنتيغون بادرت بالتطوع وأعطيت دور كريون ذلك الملك المتقدم في السن الذي خاض حربا أهلية من أجل تاج دولته في مدينته المحبوبة. وكريون عموما شخص صادق ووطني تنضح خطبه في أوائل حياته بالحكمة والحصافة التي يقول فيها إن التجربة هي أم القيادة وإن واجب المرء تجاه أمته أهم من ولائه لفرد من الأفراد. وقال مرة.

لا يمكن على كل حال معرفة الرجل معرفة حقيقية: شخصيته ومبادئه وحصافته، حتى يظهر على حقيقته من خلال سياسته للناس ووضعه للتشريعات. التجربة هي المحك.

ولكن كريون يعامل أعداءه بلا رحمة. أمر بأن جثمان بولينيكس، أخو أنتيغون الذي تمرد على المدينة، لا يستحق الدفن. تتمرد عليه أنتيغون لإيمانها بوجود شريعة أعلى من قانون الدولة، ولكن كريون يرفض الإستماع الى رأيها أو الى أي رأي آخر سوى ما تمليه عليه شياطينه. هذا التصلب والتعامي لا يليقان بشخصية القائد. فعلى القائد أن يهذب العدل بالرحمة. شخصية أنتيغون تجسد نضالنا لأنها كانت تناضل من أجل الحرية بطريقتها الخاصة، وتحدت القانون لجوره.

- ٧٢ -

بدأ الحراس يدخلون في أحاديث معنا. لم أكن أبدأ الحديث مع الحراس ولكن إن سألني أحدهم سؤالا حاولت أن أجيبه عليه، إذ من الأيسر أن تعلم إنسانا إذا كانت لديه رغبة في العلم. كانت تلك الأسئلة مصحوبة بشيء من الضيق، وكانوا يتبعونها بقولهم:

- حسنا يامانديلا! ماذا تريد بالتحديد؟

أو بقولهم:

- أنت يامانديلا لك مكان يؤويك ويأتيك من الطعام ما يكفيك، فلماذا تصر على خلق المشكلات؟

كان ذلك يفتح لي مجال الحديث معهم في السياسة وكنت أهدف الى شرح سياسة المؤتمر الوطني الأفريقي وإزالة الغموض والتعصب اللذين يحيطان بصورته في أذهانهم.

وصل في عام ١٩٦٩ حارس أبدى رغبة خاصة في التعرف عليّ. ووصلتني إشاعات حول خطة يعدها الحزب لتهريبي من السجن وأن رجلا من أتباع الحزب اخترق حراس الجزيرة كي يتمكن من مساعدتي. بعد فترة من الزمن أبلغني ذلك الحارس أنه يخطط لتهريبي من السجن.

شرح لي تفاصيل الخطة شيئا فشيئا وقال إنه ذات ليلة سيدس مخدرا لحارس منارة الجزيرة كي يصل قارب الى الشاطيء، وسيعطيني مفتاحا لأخرج من العنبر واتجه الى القارب. وفي القارب سأجد معدات غطس استعملها للسباحة الى المرفأ في كيب تاون ومن هناك سوف يرافقني أحدهم الى مطار محلي أغادر منه البلاد الى دولة أخرى.

استمعت الى تفاصيل الخطة كلها ولم أعبر له عن اعتقادي بأنها خيالية وغير محكمة. تشاورت في الأمر مع وولتر واتفقنا على أن الحارس لا يؤتمن جانبه. لم أفصح للحارس بإنني لم أقبل الخطة، ولكنني لم أقدم على تنفيذ أي جزء منها، ويبدو أنه فهم ردّي، وسرعان ما نقل الحارس من الجزيرة.

كان حدسنا في محله. علمنا فيما بعد أن الحارس كان عميلا لوكالة استخبارات جنوب أفريقيا المعروفة باسم مكتب أمن الدولة Bureau of State Security (BOSS). كان الهدف من الخطة أن أهرب من الجزيرة ثم أقتل في اشتباك مع قوات الأمن في المطار الذي كان من المفترض أن أغادر منه البلاد. كانت الخطة من ألفها الى يائها من بنات أفكار مكتب أمن الدولة بما في ذلك الإشاعات الخاصة بالترتيبات التي أعدها المؤتمر الوطني الأفريقي لتهريبي. ولم تكن تلك المحاولة الأخيرة للتخلص مني.

لا تزيد فترة عمل آمر السجن في العادة عن ثلاث سنوات، ومع حلول عام ١٩٧٠

تولى مسؤولية السجن عدد من الضباط. وفي ذلك العام كان آمر الجزيرة هو العقيد فان آرد Colonel van Aarde وهو شخص ظريف مسالم اتسم عهده باليسر والحرية. ولكن مع نهاية العام رأت الحكومة تغيير الجو في الجزيرة وجاءت بالعقيد بير بادينهورست Colonel Pier Badenhorst.

كان ذلك تطورا لا يبشر بخير. كان بادينهورست معروفا بأنه قمعي وبأنه أقسى ضابط في مصلحة السجون قاطبة، وكان اختياره يعني شيئا واحدا فقط وهو أن الحكومة أصبحت تشعر بأن الانضباط في الجزيرة لم يعد على المستوى المطلوب، وأن هناك حاجة الى يد قوية حازمة تعيد النظام والانضباط إليها. فالهدف إذن أن يجعلنا مجيء بادينهورست نحِنّ الى أيام "الحقيبة" من جديد.

كلما عين آمر جديد طلبت مقابلته لأؤكد له أهمية قضيتنا ولأقيم شخيصته، ولكن طلبي لمقابلة بادينهورست رفض، وكان أول آمر سجن يرفض ذلك.

شعرنا بأثار بادينهورست قبل أن نراه، ألغيت التعليمات الخاصة بالدراسة وأوقات الفراغ وكان واضحا أنه يهدف الى سحب كل التسهيلات والامتيازات التي فزنا بها على مدى سنوات طويلة. نقل الحراس القدامى ليحل محلهم حراس اختارهم بادينهورست على مزاجه، وكانوا أصغر سنا وأكثر رعونة ملتزمين بحرفية القواعد والتعليمات ومصرين على مضايقتنا وتحطيم معنوياتنا. بعد أيام قليلة من تعيين بادينهورست داهم الحراس زنزاناتنا وفتشوها واستولوا على الكتب والأوراق. ألغيت بعض وجبات الطعام بدون سابق انذار، وتحرش الحراس بالسجناء في الطريق الى المحجر.

دأب بادينهورست على رد عجلة الزمن في الجزيرة الى ما كانت عليه في أوائل الستينات. كان يرد على كل سؤال بالنفي، ومن طلب مقابلة محاميه وضع في الحبس الإنفرادي، وضرب بالشكاوى عرض الحائط، وألغيت الزيارات بدون تقديم أي مبررات، وتدهور مستوى الطعام، وارتفعت درجة المراقبة.

بعد أسبوع من وصول بادينهورست ظهر علينا في المحجر فجأة بدون مقدمات. نزل من سيارته وتفحصنا من بعيد، فوقفنا نحن نتفرسه. صاح لي بادينهورست قائلا:

- مانديلا ! أخرج إصبعك من دُبُرك!!

استأت لتلك العبارة فاتجهت نحوه، وقبل أن أصل اليه عاد الى سيارته وانطلق مسرعا.

أصدر تعليماته من السيارة باللاسلكي وفي غضون دقائق قليلة وصلت عربة محملة بالحراس نقلتنا الى العنبر (ب). أمرنا بالصمت ونحن في العربة وعندما وصلنا الساحة أمرنا بالوقوف في طابور وظهر بادينهورست أمامنا يمشي جيئة وذهابا. ما كان بادينهورست لينطق جملة واحدة خالية من سباب أو بذاءة، وكانت جملته المفضلة: "بَظر أمك".

قال بادينهورست بصوته الخشن إنه مستاء جدا لما رآه من كسل في المحجر، وعليه

سينزل تصنيف كل شخص بمعدل درجة واحدة. ورغم بغضنا لنظام التصنيف فقد بلغ غالبية السجناء الفئة (جـ) التي يسمح فيها بالقراءة. لقد ندمت الادارة على سماحها لنا بالقراءة وكان بادينهورست مصمما على تصحيح ذلك الخطأ.

أحسست بعد أن هدأ غضبي أن استفزاز بادينهورست لي في المحجر كان متعمدا. فقد جيء به الى الجزيرة ليعيد إليها الانضباط فاستهدف بالذات الشخص الذي افترض أنه سبب كل الفوضى والمشاكل. حاله كحال المعلم في فصل من المشاغبين يعمد الى أكثر التلاميذ مشاكسة فيؤدبه.

- ٧٣ -

في أواخر مايو ١٩٧١ جيء الى السجن بعدد من رجال المنظمة الشعبية الأفريقية لجنوب غرب أفريقيا (سوابو SWAPO) إحدى المنظمات الحليفة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي التي تناضل من أجل استقلال ناميبيا، وأودعوا الحبس الانفرادي. كان على رأسهم انديمبا توافو Andimba Toivo أحد مؤسسي المنظمة ومن أعتى مناضليها. علمنا بأنهم بدأوا إضرابا عن الطعام احتجاجا على عزلهم وقررنا الانضمام اليهم على الفور. أغاظ قرارنا بادينهورست وادارة السجن واعتبروا عملنا مخالفة للأوامر وغير مقبول.

وفي ساعة متأخرة من ليلة ٢٨ مايو استيقظنا على صياح وطرقات عنيفة على أبواب الزنزانات، وأصوات الحراس يصرخون: استيقظوا ! استيقظوا ! أمرنا بخلع ملابسنا والوقوف صفا أمام الحائط في فناء السجن. كانت تبدو على الحراس الثمالة وكانوا يرغون ويزبدون بقيادة حارس نزق ذي نزعة سادية يدعى فوري Fourie وكنا ندعوه فيما بيننا "قاطع الطريق".

كانت ليلة شديدة البرد ووقفنا لمدة ساعة كاملة عراة نرتعد ريثما فتشت زنزاناتنا واحدة واحدة. ظل الحراس يكيلون علينا السباب والشتائم طول الوقت وأصيب غوفان بآلام حادة في الصدر فوقع مغشيا عليه. فزع فوري للحادث فأمرنا بالرجوع الى الزنزانات.

لم يعثر الحراس على شيء، ولكن التفتيش كان على ما يبدو لمجرد ارضاء نزوة فوري السادية. علمنا فيما بعد أنه تحرش بالسجناء في القسم العام، كما علمنا في اليوم التالي أن الحراس اعتدوا بالضرب المبرح على سجناء في القسم العام قبل أن يأتوا لتفتيشنا، وأنهم اعتدوا على انديمبا توافو الذي رد عليهم بالضرب فطرح أحد الحراس أرضا وعوقب على ذلك عقابا شديدا.

سجلنا شكوى رسمية على ما حدث تجاهلتها الادارة بالكامل. استقر ذلك الحادث في ذاكرتي رغم أنه ليس الوحيد من نوعه، بل أصبحت المداهمات من هذا القبيل في عهد بادينهورست هي القاعدة وليس الاستثناء.

عقدنا العزم على ألا ندع الأوضاع تتدهور تماما تحت ادارة بادينهورست. سربنا رسائل لزملائنا في الخارج للمطالبة بنقله من الجزيرة، واقترحنا تشكيل وفد يقابله نيابة عنا. اتفقنا على ذلك بعد شهور من المداولات فاختار كل تنظيم عضوين لتمثيله في الوفد، وقد مثلت أنا وولتر المؤتمر الوطني الأفريقي.

وافق بادينهورست على مقابلتنا فهددناه بالاضراب عن العمل والاضراب عن الطعام وبكل سلاح في أيدينا إن لم يعد الإمتيازات التي كنا نتمتع بها من قبل. لم يزد عن قوله إنه سينظر في طلباتنا. اعتبرنا اللقاء نصرا لصالحنا إذ ظهر على بادينهورست الضجر وكان يعلم أن شكاوانا انتشرت بين الناس خارج السجن. وسرعان ما أثمرت تلك الجهود.

أحسسنا بعد بضعة أسابيع أن زائرا مهما سيزرو الجزيرة لأنه سمح لنا ذلك اليوم باتقاء المطر أثناء العمل في المحجر ولم يكن ذلك معهودا. أخبرنا في اليوم التالي أن ثلاثة قضاة سيزورون الجزيرة، وطلبت منا الادارة تعيين متحدث فوقع الاختيار عليّ لتك المهمة. وبينما كنت أعد للقائي مع القضاة علمت من مصدر موثوق أن سجينا في القسم العام اعتدى عليه أحد الحراس بالضرب المبرح.

وصل القضاة وهم يان ستاين Jan Steyn وام إي ثيرون M E Theron ومايكل كوربيت Michael Corbett من قسم القضاء في اقليم الكيب التابع للمحكمة العليا، يصحبهم مفوض السجون والجنرال ستاين والعقيد بادينهورست. اجتمعت بهم في ذلك اليوم عند المحجر.

قدمني الجنرال ستاين للقضاة وقال إن السجناء اختاروني ممثلا لهم فأشار القضاة الى أنه من الطبيعي أن يتحدثوا معي في لقاء خاص. رددت بأنه ليس لدي ما أخفيه بل أنني في الواقع أرحب بوجود الجنرال ستاين والعقيد بادينهورست. لاحظت أنهم دهشوا لما قلت وأضفت أنه من حق الجنرال والعقيد أن تتاح لهما فرصة الاستماع لما سأقدمه ضدهما من تهم. قبل القضاة بذلك على شيء من المضض.

بدأت بعرض ما وصلني من تفاصيل عن الإعتداء الذي جرى حديثا في القسم العام وأشرت الى قسوة الضرب ومحاولة التعتيم على الجريمة. لم أكد استطرد في حديثي حتى بدأ بادينهورست يتململ قلقا، وعندما انتهيت سأل بغطرسة وصوت أجش:

- هل شهدت الاعتداء فعلا بنفسك؟

أجبت بهدوء بأنني لم أشهد الحادث ولكنني أثق بمن أخبرني عنه. شخر ورفع إصبعه في وجهي قائلا:

- خذ حذرك يامنديلا. فالحديث عن أمور لم ترها بعينيك ربما أدى بك الى متاعب. لا شك أنك تعلم جيدا ما أقصد.

تجاهلت قول بادينهورست ووجهت حديثي الى القضاة قائلا:

- يا حضرات. ها أنتم تشاهدون بأعينكم الرجل الذي يتولى ادارة السجن. وطالما هو قادر على تهديدي في حضوركم، فتخيلوا ما عساه أن يفعله في غيابكم.

اتجه القاضي كوربت الى زميليه وقال:

- السجين على صواب حقا.

أحصيت لهم شكاوى أخرى تتعلق بالطعام والعمل والدراسة. لا شك أن بادينهورست كان يكتم غيضه ولكنه بدا وكأنه اتعظ شيئا ما. وعند نهاية اللقاء شكرني القضاة وودعتهم.

لا أدري ما قاله القضاة أو ما فعلوه بعد ذلك، ولكن بادينهورست بدا في الشهور التي

تلت ذلك اللقاء وقد قُلّمت مخالبه. خفت حدة المعاملة، وعلمنا بعد ثلاثة أشهر من زيارة القضاة أنه سينقل من الجزيرة.

استدعيت للمكتب الرئيسي قبل مغادرة بادينهورست ببضعة أيام. كان الجنرال ستاين في زيارة للجزيرة وطلب الاستماع لشكاوانا. عرضت عليه قائمة من المطالب في حضور بادينهورست، وعندما انتهيت تحدث بادينهورست إلي مباشرة قائلا بأنه سيغادر الجزيرة، ثم أضاف:

- اتمنى لكم حظا سعيدا.

لست أدري إن ظهرت على وجهي علامات الاندهاش ولكنني استغربت لما سمعت. كانت تلك كلمات بادينهورست الإنسان، وظهر جانب من شخصيته لم نكن نعرفه من قبل. شكرته وتمنيت له التوفيق في أعماله.

تأملت في تلك اللحظات بعد ذلك طويلا. بادينهورست هو بلا شك أقسى وألعن آمر عاشرناه في الجزيرة، إلا أن جانبا آخر من شخصيته ظهر أمامي ذلك اليوم، كان مغمورا ولكنه موجود. ذكرني ذلك بأن في أعماق كل إنسان، حتى أكثر الناس وحشية وقسوة، قدْرا من الإنسانية، وأنه بإمكان كل انسان أن يتغير إذا ما لمستَ جوانب الخير في قلبه ونفسه. لم يكن بادينهورست شريرا بكل ما تعنيه تلك الكلمة، ولكن وحشيته فرضت عليه من قبل نظام غير إنساني. كان يتصرف بوحشية لأنه كان يلقى مكافأة على وحشيته.

- ٧٤ -

أعلن في السجن أن العقيد ويلمس Colonel Willemse سيخلف العقيد بادينهورست آمرا للسجن فطلبت اللقاء به وزرته في مكتبه بعد أيام من وصوله في الجزيرة. ورغم أنه لم يكن - كما يبدو - شخصا تقدميا، إلا أنه كان مؤدبا ومعقولا ويختلف تماما عن سلفه. ساد الأمل بأن حقبة بادينهورست لن تتكرر وأنها كانت ردة موقتة في الاتجاه العام نحو أوضاع أفضل داخل السجن.

كما رحلت تلك الزمرة من الحراس التي عاصرت دولة بادينهورست واستأنفنا نشاطاتنا السابقة في المحجر وداخل القسم. غير أن ويلمسى، الرجل المعقول، صعق عندما اكتشف أن الأحاديث تستهلك معظم وقتنا في المحجر.

استدعيت لمكتبه بعد عدة أسابيع فقال لي:

- يا مانديلا، أرجوك أن تساعدني. اصحابك لا يشتغلون كما ينبغي، ولا يطيعون الأوامر، ولا يقومون إلا بما يحلو لهم من أعمال. أنتم في سجن ولا بد من الانضباط، ليس لمصلحتنا فحسب بل لمصلحتكم أنتم كذلك. لا بد من وجود نظام وإلا جاءت الادارة بآمر آخر للسجن من نوع الذي كان قبلي.

كلام معقول. استمعت اليه ثم قلت إن طلبه وجيه ولكنني قبل أن أرد عليه احتاج الى عقد اجتماع عام للسجناء. لم تكن قواعد السجن تسمح بذلك والموافقة على عقد الاجتماع تتطلب مرونة أكثر من المعتاد من طرفه في تفسير تلك القواعد. لم يكن ذلك خافيا على ويلمس فطلب مهلة للتفكير في الموضوع.

في غضون أيام وصلتني إشارة من ويلمس بالموافقة على الطلب وعقد الاجتماع ذات عصر في فناء السجن بلا حراس يراقبوننا. نقلت للزملاء ما قاله لي ويلمسى وأشرت الى أن تنازلا بسيطا من طرفنا في هذه المرحلة سوف يؤدي الى تحسن الأوضاع على المدى البعيد. اتفق الجميع على أن نتظاهر على الأقل بأننا نعمل، وأن يتناسب حجم العمل مع طاقاتنا وامكانياتنا. ذلك هو ما اتفقنا عليه مع الادارة ولم نتسلم أى شكاوى او اعتراضات من آمر السجن بعد ذلك.

توالى خلال عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ وصول جنود حركة (أمكا) الى الجزيرة ممن خبروا القتال وكانوا على علم بأوضاع الحركة في المنفى. ومع أسفى لرؤية أعضاء الحزب يودعون السجن كنت متشوقا لسماع تقارير الوافدين الجدد. كنت أتوق توقا شديدا لأخبار أوليفر تامبو ومعسكرات التدريب وانجازات (أمكا) واخفاقاتها.

كان الوافدون الجدد من العناصر الصدامية المتشددة ولم يتقبلوا نظام الحياة في السجن بسهولة. كان من أوائلهم جيمي ابريل Jimmy April الذي تدرب على يد جو سلوفو

وخاض معارك ضد العدو في روديسيا. وكان جيمي ممن سربتهم الحركة بهويات وأوراق مزورة فألقي القبض عليه داخل جنوب أفريقيا.

أتحفنا جيمي بحكايات الحرب والقتال، وحدثني على انفراد عن المشاكل التي تواجهها حركة (أمكا). ونظرا الى أنني كنت مؤسس الحركة وأول قائد أعلى لها كانت أحاديث جيمي وزملائه معي أكثر صراحة وتفصيلا. أخبرنا عن سخط الجنود في المعسكرات وعن تجاوزات من قبل مسؤولي الحركة. طلبت منه أن يتكتم على الأمر وتمكنت من تسريب رسالة الى أوليفر نصحت فيها بضرورة إجراء اصلاحات في أوضاع المعسكرات.

كنت ذات يوم في اجتماع مع آمر السجن في مكتبه فلمحت جيمي أمام أحد المكاتب الأخرى فبادرني قائلا:

- إنهم يرفضون أن يسلموني رسالتي.

- بأي حجة؟

- يدعون بأنها تحتوي أمورا غير مسموح لي بالاطلاع عليها.

دخلت مكتب الضابط المسؤول لمناقشة الموضوع، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة اندفع جيمي نحو الضابط يصرخ:

- اعطني رسالتي!!

أخذ جيمي يدافعني كي يصل الى مقعد الضابط ويأخذ الرسالة بيده. قبض الضابط على الرسالة ووقف ورائي وكأنه يحتمي بي. ربما بدا الموقف وكأنه مشهد من فيلم هزلي ولكنه كان وقتها مثيرا للفزع. التفت الى جيمي وقلت بهدوء وحزم:

- أرجوك أن تعدل عن هذا. هدىء من روعك. سأتولى الأمر واضمن لك أن تحصل على رسالتك. والآن أرجوك أن تغادر المكتب.

آتت كلماتي ثمارها وغادر جيمي المكتب، فانشغلت بالتفاهم في الموضوع مع الضابط وكان في غاية الانزعاج. كان الموقف غريبا بالنسبة لي، إذ وجدت نفسي وسيطا بين قومي وبين من آليت أن احاربهم طول حياتي. تطرف العناصر الجديدة التي وفدت الى السجن هو الذي وضعني في هذا الموضع مرة بعد مرة. فبينما كنا نفخر ونتنعش بحماس أولئك الرجال وروحهم الصدامية جعلت تصرفاتهم ومواقفهم أحيانا حياتنا صعبة لا تطاق. في بحر أسبوع أعاد لي الضابط رسالة جيمي.

- ٧٥ -

أمرنا ذات صباح بالركوب في إحدى الشاحنات بدلا من المشي على الأقدام الى المحجر. انطلقت الشاحنة في اتجاه مختلف وأمرنا بالنزول بعد رحلة استغرقت خمس عشرة دقيقة لنجد أنفسنا على الشاطيء الصخري للمحيط وأشعة الشمس تتراقص فوق الماء. وظهرت عن بعد عمارات كيب تاون الشاهقة تعكس أشعة الشمس المتلألئة في الأفق. إنه خداع بصر، ولكن كيب تاون، والجبل المائدة قابع وراءها، بدت قريبة في متناول اليد.

أخبرنا الضابط المسؤول أن مهمتنا جمع الطحالب التي دفعت بها الأمواج الى الشاطيء والتي تعلقت بالصخور وأحجار المرجان. كانت الطحالب طويلة لزجة ذات لون بني يميل الى الأخضر، يصل طول بعضها الى ثمانية أقدام ووزنها الى نحو ثلاثين رطلا. وضعنا الطحالب بعد سحبها من الماء على شكل صفوف على امتداد الشاطيء ثم حملناها الى الشاحنة بعد تجفيفها. أخبرنا فيما بعد أنها تصدر الى اليابان حيث تستخدم سمادا لتغذية التربة.

لم يكن العمل شاقا للوهلة الأولى ولكنه أصبح كذلك مع مرور الأسابيع والشهور. ولكن ذلك لم يكن ليضيرنا لما فزنا به من متعة وسعادة بين تلك المناظر البديعة الخلابة. رأينا السفن تشق طريقها في المحيط وحاملات النفط الضخمة تتهادى في الأفق. ورأينا طيور النورس تصطاد السمك وعجول البحر تداعب الأمواج. وضحكنا من طيور البطريق العجيبة بمشيتها الهزلية وكأنها طوابير من المجندين وشاهدنا بإعجاب تغيرات الطقس المثيرة فوق الجبل المائدة بسحبه الدائبة الحركة وشمسه المتميزة.

مياه البحر في فصل الصيف منعشة دافئة. أما في الشتاء فالخوض فيها بالرجلين عمل شاق لقوة التيارات الجليدية الوافدة من القطب المتجمد الجنوبي. ولطالما تجرّحت أقدامنا على الصخور والأخاديد التي كانت تغطي مساحات كبيرة من الشاطيء. ومع ذلك فقد كنا نفضل العمل على شاطيء البحر بدلا من المحجر رغم أننا لم نكن نقضي سوى أيام معدودة هناك كل مرة.

والمحيط كنز لا حدود له. عثرنا على مرجانيات وقواقع وصدفيات بديعة كنت أحمل شيئا منها الى الزنزانة. وذات مرة عثر أحد السجناء على قارورة نبيذ لم تفتح من قبل، وعلمت أنها كانت كالخل في مذاقها. وسمحت الإدارة لجيف ماسيمولا Jeff Masemola من المؤتمر القومي الأفريقي - وهو نحات وفنان بارع - بأن يجمع قطع الخشب التي يجرفها التيار فنحت منها صورا وأشكالا وتماثيل رائعة اشتراها منه بعض الحراس. وصنع لي جيف خزانة كتب خاصة ظللت أستخدمها سنوات عديدة، وكانت الإدارة تدعي أمام الزوار بأنها هي التي زودتني بها.

كان جـو العمل عـلى الشاطيء أكـثر رخـاوة ولينا منه في المحجـر. وكنا نفضل العـمل هناك لأن نوعـية الأكل كانـت أفضل. كنا نحـمل معنا كـميات وفـيرة من الماء الـعذب كل صباح، وكنا نحمل برمـيلا نستعمله قدرا لإعداد وجـبة خاصة نجمع فيهـا بين أنواع مختلفة من الرخويات والأسماك والمحار.

كـان الأبالون Abalone، وهو نوع من الرخويات، طعامي المفضل، وكان من طـبيعتها التشـبث بالصخـور فيضطر المرء أن يتـزعهـا منها انتزاعـا. وكان فتـحها يتطلب قوة، وإن طبخت أكثر مما يجب تعذر أكلها.

كنا نجـمع ما نصطاده في ذلك البـرميل ثم يتـولى ويلتون امكواي مـهمة الإشـراف على الطبخ. وعندما يجـهز الطعام يأتي الحراس ليـشاركوننا الأكل وكـأننا في نزهة على شاطيء البحـر. ضحكنا كثـيرا عندما قـرأنا في إحدى الصحف المهـربة عن زفاف أميـرة بريطانيا آن Princess Anne وعريسـها مارك فـيليبس Mark Philips عام ١٩٧٣ وعن الوجـبات الشهـية الخاصة التي أعدت لتلك المناسبة وشملت الأسماك والرخويات التي كنا نأكلها كل يوم.

كنا ذات يوم نتناول غداءنا جـالسين على الشاطيء إذ ظهر علينا فجـأة الملازم تيريبلانش Lieutenant Terblanche آمر السجن آنذاك. تظاهرنا بالاستغراق في العمل ولكن الحيلة لم تنطل عليه وسرعـان ما اكتشف قدر السـمك يغلي على النار. رفع غطاء القدر وألقى نظرة على ما فيه ثم أخرج قطعة سمك فأكلها وقال:

- ما ألذّها!!

- ٧٦ -

عرفت جزيرة روبن في معجم النضال باسم "الجامعة". ولم يكن ذلك لما تعلمناه من الكتب، أو لما درسه السجناء من لغات انجليزية وافريكانا وفنون وجغرافيا ورياضيات، أو لحصول أشخاص من أمثال بيللي ناير وأحمد كاثرادا ومايك دينغاكي وأدّي دانيالز على عدد من الشهادات الجامعية. ولكن أصل تلك التسمية يعود الى ما تعلمناه من بعضنا بعضا. أصبحنا نحن المدرسة والمعهد والكلية والأساتذة والمناهج والدورات. وكنا نفرق بين الدراسات الأكاديمية الرسمية والدراسات السياسية غير الرسمية.

نشأت جامعتنا تلك بحكم الضرورة. فمع وفود الشباب الى الجزيرة انتبهنا الى قلة علمهم بتاريخ المؤتمر الوطني الأفريقي. شرع وولتر، وهو أكبر الأحياء علما بتاريخ الحزب، يلقي عليهم دروسا عن نشأة التنظيم وبداياته. كان حكيما في عرضه مراعيا لظروف ومستويات تلاميذه. ومع مرور الوقت تحولت تلك الدروس التاريخية الى منهج متكامل أعده الجهاز الأعلى عن تاريخ المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة النضال تستغرق دراسته سنتين، وعرف باسم المنهج (أ). وشمل المنهج (أ) دورة تولى تدريسها أحمد كاثرادا عن "تاريخ النضال الهندي". كما أعد أحد الرفاق مادة عن تاريخ الملونين في جنوب أفريقيا. وأعد ماك ماهاراج الذي تخصص في دراسة جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) دورة عن الماركسية.

لم تكن أوضاع التدريس على ما يرام. كانت الدروس تلقى أثناء العمل في المحجر أحيانا وربما تحلق الطلاب حول المحاضر أحيانا أخرى. كان أسلوب التعليم سقراطيا فكانت الأفكار والنظريات تطرح وتناقش وتفسر من خلال الأسئلة والأجوبة.

احتلت الدورة التي قدمها وولتر الصدارة فيما تعلمناه في الجزيرة. كان الكثير من الشباب حديثي العهد بالحزب الذين وفدوا على الجزيرة يجهلون أن الحزب دخل ساحة النضال منذ العشرينات والثلاثينات. تدرج بهم وولتر في دروسه من تاريخ تأسيس الحزب عام ١٩١٢ حتى يومنا ذاك. وكانت تلك الدروس بالنسبة لغالبية أولئك الشباب هي كل ما تعلموه عن تاريخ العمل السياسي.

انتشر خبر الدورات الدراسية بين سجناء القسم العام ووصلتنا استفسارات من أعضائنا هناك. كانت تلك بداية دورات بالمراسلة خاصة بسجناء القسم العام. كانت تهرب إليهم الدروس والمحاضرات وتأتي منهم الإستفسارات والملاحظات.

كانت العملية مفيدة لهم ولنا على حد سواء. فرغم محدودية تعليمهم الرسمي كان أولئك الرجال على دراية تامة بمحن الدنيا ومشاقها. كانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية نظرية. أشار الأستاذ في إحدى المحاضرات الى أن أساس الإشتراكية هو مبدأ: "من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته"، فجاء استفسار يقول: "حسنا ولكن ماذا

يعني ذلك عمليا؟ فإذا كنت أملك أرضا ولا أملك مالا وكان جاري يملك مالا ولا يملك أرضا، فمن منا أكبر حاجة؟" كانت تلك الأسئلة في غاية الأهمية لأنها أجبرتنا على التفكير بعمق وتمحيص وجهات النظر تمحيصا جيدا.

أما أنا فقد ألقيت لعدة سنوات دروسا في الاقتصاد السياسي، حاولت فيه تتبع تطور الإقتصاد البشري منذ القدم، ابتداء بالتجمعات البشرية القديمة ومرورا بالإقطاع ثم الرأسمالية فالاشتراكية. أنا لست عالما بأي حال من الأحوال ولا أتقن التدريس، وأفضل أن أسأل فأجيب بدلا من أن ألقي محاضرات. لم يكن منهجي في التدريس عقائديا ولكنني كنت منحازا الى الإشتراكية التي اعتبرتها آنذاك أرقى ما توصل اليه البشر في تنظيم الحياة الإقتصادية.

كما واصلت الى جانب التدريس عملي في القضاء والمحاماة. وخطر لي أحيانا أن أضع لافتة باسمي على باب الزنزانة، لأنني كنت أقضي ساعات طويلة كل أسبوع في تحضير المذكرات القانونية والشكاوى نيابة عن السجناء رغم أن قواعد السجن تمنع نشاطا من هذا القبيل. وطلب مساعدتي سجناء من مختلف الاتجاهات والمشارب السياسية.

لا يضمن القانون في جنوب أفريقيا للمتهم حق التمثيل القانوني، وقد أودع آلاف المواطنين الأصليين السجن كل عام بسبب حرمانهم من التمثيل أمام القضاء. قليل من الأفريقيين كان قادرا على تحمل رسوم المحامي ولم يكن أمام غالبيتهم إلا القبول بما تصدره المحاكم. فكم من سجين في القسم العام صدر بحقه حكم لعدم توفر من يترافع عنه في المحكمة، فلجأ كثير منهم إليّ لأعد لهم مذكرات استئناف، وكانت تلك أول مرة يتعاملون فيها مع رجال القانون.

كانت تتسرب إليّ رسائل من سجناء القسم العام يطلبون فيها مساعدتي، فأطلب من السجين أن يوافيني بتفاصيل القضية والتهمة والأدلة وغيرها. ونظرا لسرية تلك الاتصالات كانت المعلومات تصل متقطعة وعلى فترات متباعدة، وربما امتدت الاستشارة القانونية التي كانت تستغرق نصف ساعة في مكتب مانديلا وتامبو القديم الى سنة أو أكثر من سنة في الجزيرة.

كنت أشير على "زبائني" بالكتابة الى المحكمة العليا والمطالبة بسجل القضية ناصحا بأن يخبروا مقرر المحكمة بأنهم غير قادرين على تحمل أي مصاريف ويرغبون في الحصول على السجل مجانا، وكان المقررون أحيانا يلبون تلك الطلبات.

بعد الحصول على سجل القضية أعد مذكرة الاستئناف بناء على خلل في الإجراءات أو التحيز أو عدم كفاية الأدلة. أوجه بعد ذلك خطابا للقاضي بخط يدي ثم أرسله الى القسم العام، ونظرا الى أن قواعد السجن لا تسمح لي بإعداد أي مرافعات لصالح شخص آخر كنت أشير على السجين المعني بإعادة كتابة الخطاب بخط يده. وإن كان السجين لا يجيد الكتابة – وكان غالبية السجناء كذلك – كلفت أحدا غيري يكتب نيابة عنه.

كنت أستمتع كثيرا بتوظيف مهاراتي القانونية وقد أدت جهودي في بعض الحالات الى تغيير الأحكام بالكامل أو تخفيف العقوبات، وكان ذلك مصدر رضا كبير. فالسجن معد لسلب الإنسان من جميع قوته، ولكن ذلك النشاط كان وسيلة لقلب ذلك المفهوم رأسا على عقب. لم أقابل السجناء الذين كنت أقدم لهم خدماتي ولكن كان بعض سجناء القسم العام الذين يقومون على خدمتنا أثناء وجبات الطعام يهمس في أذني كلمات شكر على ما قدمت له من خدمة.

- ٧٧ -

لم ترعو السلطات عن اضطهادها لزوجتي. في عام ١٩٧٢ اقتحم ضابط في شرطة الأمن بيتنا رقم ٨١١٥ في أورلاندو ويست. وألقيت الحجارة مرة من خلال النافذة، وأطلق الرصاص على باب المنزل. وفي عام ١٩٧٤ وُجهت لويني تهمة خرق الحظر المفروض عليها الذي يمنعها من استقبال الزوار ما عدا أولادها أو طبيبها. كانت تعمل آنذاك موظفة في مكتب محاماة فتطوع أحد الأصدقاء بتوصيل زيني وزيندزي إليها في المكتب أثناء استراحة الغداء، فأدى ذلك الى تقديمها للمحاكمة والحكم عليها بالحبس ستة أشهر قضتها في سجن كرونستاد Kroonstad Prison وكان أحسن حالا من سجن بريتوريا، وسمحت السلطات لزيني وزيندزي بزيارتها خلال عطلة الأسبوع. كتبت لي ويني تقول إنها أحست بالإنعتاق داخل السجن هذه المرة، وأن السجن عزز من إصرارها على ملازمة النضال.

بعد خروج ويني من السجن عام ١٩٧٥ تمكنا من خلال المراسلة وعبر اتصالات جرت مع المحامين إعداد خطة تتمكن بها زيندزي من زيارتي. نصت قواعد السجن على عدم السماح بزيارة الأطفال بين الثانية والسادسة عشرة. وعندما نقلت الى جزيرة روبن كان أعمار جميع أطفالي في تلك المرحلة من العمر. لم يكن المنطق وراء تلك القاعدة منطقا خبيثا إذ افترض المشرع أن زيارة طفل في تلك السن للسجن ربما كانت لها آثار نفسية سلبية عليه. ولكن تلك القاعدة لم تكن أقل سلبية على السجين. فحرمان المرء من رؤية أطفاله مصدر أسى عميق.

في عام ١٩٧٥ بلغت زيندزي الخامسة عشرة، وكانت الخطة أن تستخرج أمها شهادة ميلاد تثبت أنها بلغت السادسة عشرة كي يسمح لها بزيارتي. سجلات الميلاد بالنسبة للأفريقيين لم تكن تحفظ بدقة ولم تواجه ويني صعوبة في الحصول على شهادة ميلاد تبين أن زيندزي ولدت قبل تاريخ ميلادها الحقيقي بسنة، ثم تقدمت لطلب الزيارة وحصلت على الموافقة الرسمية.

في شهر ديسمبر، وقبل موعد زيارة زيندزي بأسابيع، زارتني أم ويني. قلت لها عرضا أثناء الحديث إنني متلهف لزيارة زيندزي. أم ويني مدرسة سابقة، فنظرت إلي في استغراب وقالت بنبرة فيها تبرم:

- كلا. زيندزي لا تستطيع زيارتك لأنها لم تبلغ السادسة عشرة بعد.

اتضح لي على الفور أنها ليست على علم بالخطة، وحاولت التعتيم على الموضوع لوجود حارس وراء كل منا، فهمهمت قائلا:

- لا عليكِ! مسألة بسيطة.

ولكن تلك المرأة العنيدة لم تكن لتدع الأمر يمر دون أن تقول كلمتها الأخيرة فيه فخاطبتني باسم مكونيانيسي Mkonyanisi، وهي صيغة التحبب لزوج البنت في لغة الكوسا، وقالت:

– لقد أخطأت الحساب يامكونيانيسي، فزيندزي لم تتجاوز الخامسة عشرة.

نظرت إليها نظرة فزع ويبدو أنها فهمت ما أرمي إليه فانصرفت للحديث في مواضيع أخرى.

لم أر زيندزي منذ كان عمرها ثلاث سنوات، وهي لم تعرفني إلا من خلال الصور. ارتديت يوم زيارتها قميصا نظيفا واعتنيت بمظهري عناية أكثر من المعتاد. لعله كان زهوا مني، ولكنني لم أكن راغبا في أن تراني أصغر بناتي شيخا كبيراً.

لم أكن رأيت ويني منذ أكثر من سنة وسررت لظهور علامات الصحة والعافية على وجهها. وكانت سعادتي غامرة برؤية ابنتي الصغرى وقد أصبحت فتاة فاتنة يافعة، وأخذت لشبهها الكبير بأمها الجميلة.

كانت زيندزي خجولة ومترددة، ولم يكن من السهل عليها أن ترى لأول مرة أبا لم تعرفه، أحبها عن بعد، وبدا وكأنه مِلك لكل الناس ولا حق لها فيه. ولا شك في أنها شعرت في أعماقها بحنق وغضب تجاه الأب الذي كان غائبا طول طفولتها وشبابها، ولكنني رأيت منذ اللحظات الأولى في تلك الفتاة كل علامات القوة والتوقد، وتلك هي شخصية أمها عندما كانت في سنها.

أحسست بأنها ستكون قلقة شيئا ما فحاولت جهدي أن ألطف الجو، فأشرت عند دخولها الحجرة الى حراس السجن الذين يتبعونني في كل خطوة وقلت:

– هل قابلتِ طابور الشرف الخاص بي؟

سألتها عن حياتها وتعليمها وأصدقائها وحاولت أن أعود بها الى تلك الأيام التي انمحت من ذاكرتها عندما كنت ألاعبها أيام الأحد وأمها تطهو طعامنا. ذكرتها بمواقف ومغامرات بسيطة وهي رضيعة في أورلاندو وبأنها كانت حتى في تلك السن نادرا ما تبكي أو تصرخ. ورأيت من خلال الزجاج أنها كانت تغالب الدمع.

كانت اللحظة الوحيدة المحزنة في تلك الزيارة عندما أخبرتني ويني بوفاة برام فيشر متأثرا بمرض السرطان بعد إطلاق سراحه من السجن بفترة قصيرة. ورغم غياب بصمات الحكومة فقد كانت مضايقاتها المتواصلة وراء تدهور صحته واستسلامه للمرض الذي عجل بوفاته في سن مبكرة من العمر. ظلت السلطات تضطهده حتى بعد موته ولم تتورع عن الاستيلاء على رفاته.

كان برام نقيّ المذهب، وقرر بعد محاكمة ريفونيا أن العمل السري هو أفضل وسيلة يخدم بها النضال. فقد تألم لدخولنا السجن وبقائه هو حرا طليقا. نصحته أثناء المحاكمة

ألا يختار ذلك الطريق مؤكدا أنه يقدم في قاعات المحاكم أعظم خدمة للنضال. فهو أفريكاني، ابن قاضي قضاة، يكافح من أجل حقوق المستضعفين. ولكن برام لم يتحمل أن يرى معاناة الآخرين بينما هو يعيش في حرية، مثله كمثل القائد العسكري الذي يصر على القتال جنبا الى جنب مع جنوده في ساحة المعركة. فلم يكن برام ليطالب غيره بتضحيات لم يكن هو شخصيا مستعدا لتقديمها.

اختفى برام بعد أن أطلق سراحه بكفالة ثم ألقي القبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة التآمر لارتكاب عمليات تخريب. سعيت الى مراسلته داخل السجن ولكن التعليمات لا تسمح بتبادل الرسائل بين السجناء. وعندما أثبتت الفحوصات الطبية إصابته بالسرطان أذعنت الحكومة لحملة في الصحف لإطلاق سراحه لاعتبارات إنسانية. ظل برام تحت الإقامة الجبرية في بيت أخيه في بلومفونتاين، وتوفي بعد أسابيع من إطلاق سراحه.

لقد قدم برام فيشر، حفيد رئيس وزراء مستعمرة أورينج ريفر Orange River Colony بكل الاعتبارات أعظم تضحية ممكنة. فمهما عانيتُ أنا في سبيل الحرية فقد كنت أستمد قوتي من أنني أناضل الى جانب قومي ومن أجلهم. أما برام فقد كان إنسانا حرا، حارب قومه لضمان حرية الآخرين.

بعد شهر من تلك الزيارة أشعرتني ويني أن طلبها زيارتي رفض بناء على سبب سخيف وهو أنني لا أرغب في لقائها. طلبت على الفور مقابلة آمر السجن آنذاك الملازم برنس Lieutenant Prins لأسجل احتجاجي على ذلك الرد.

لا يمكن وصف برنس بأنه رجل محنك أو لبق. شرحت له الأمر بكل موضوعية وهدوء، وقلت إن الوضع كما هو عليه غير مقبول، ومن حق زوجتي أن يسمح لها بزيارتي.

لم يبد على برنس أنه كان ينصت إليّ، إذ أجابني قائلا:

- آخ يامانديلا! زوجتك إنما تلهث وراء الشهرة، ليس إلا!!

أعربت له عن استيائي مما قال، وقبل أن اختتم كلامي تفوّه بعبارات بذيئة في حق زوجتي مما أثار انفعالي على الفور.

نهضت من على الكرسي ودرت حول المقعد لأصل إليه فأخذ يتراجع ولكنني تداركت نفسي، وبدلا من الهجوم عليه بيدي - كما هي رغبتي - ألقيت عليه بوابل من الشتائم واللعنات. لقد خرجت عن حدودي وخالفت المباديء التي ألزمت بها نفسي. وصفته بأنه حقير عديم الشرف وأنني لن أتردد في ضربه إن تجرأ على ترديد تلك العبارات أبدا، ثم انصرفت في عاصفة من الغضب.

رأيت أمام المكتب أحمد كاثرادا وأدّي دانيالز فلم أحييهما واتجهت فورا الى زنزانتي. لقد أسكتُ برنس ولكنه دفعني الى فقدان ضبط نفسي وهو ما اعتبرته هزيمة أمام خصمي.

في صباح اليوم التالي وبعد تناول الفطور دخل زنزانتي حارسان قالا إنني مطلوب في المكتب الرئيسي. وصلت المكتب فأحاط بي عدد من الحراس المسلحين وكان الملازم برنس في انتظاري والى جانبه مدعي عام السجن. كان الجو متوترا وبادرني مدعي عام السجن بقوله:

- مانديلا، علمت أنك استمتعت بمغامرتك أمس، أما اليوم فالوضع مختلف تماما. أنت متهم بشتم آمر السجن وتهديده، وهذه تهمة خطيرة.

ناولني وثيقة الدعوى ثم أضاف::

- هل لديك أي أقوال؟

- كلا، وبإمكانك التحدث مع محاميّ.

لم ينبس برنس ببنت شفة، وطلبت أن أعود الى زنزانتي.

أدركت على الفور أنه ينبغي عليّ تحضير دعوى مضادة ضد الجميع ابتداء من الملازم حتى وزير العدل اتهمهم فيها بسوء السلوك والإدارة. ساضع نظام السجون كله في قفص الإتهام كمؤسسة عنصرية قائمة لتكريس سيادة الرجل الأبيض. سأحيل الدعوى الى قضية عامة وسأضطرهم الى الندم على توجيه التهمة اليّ ابتداء.

طلبت من جورج بيزوس أن يترافع عني ورتبت لاجتماع معه في المستقبل القريب، وأخبرت الإدارة بأنني سأعطيه تعليمات مكتوبة. وعندما سئلت عن السبب أجبت بصراحة لأنني أعتقد أن الحجرة ملغمة بأجهزة التنصت. رفضت الإدارة طلبي وأصرت على أن أتحدث معه شفويا، فقلت إنه ليس من حقها منعي من الكتابة وإن تصرف الإدارة يؤكد ما لدي من شكوك في نيتها.

حقيقة الأمر هي أن الادارة كانت تخشى أن يسرب جورج المعلومات المكتوبة للصحافة، وكان ذلك في الواقع جزءا من استراتيجيتنا. كما كانت تخشى أنني أستعمل جورج قناة للاتصال مع أوليفر تامبو في لوساكا، وافترضت أن ما أكتبه سيحتوي على معلومات أخرى حساسة. لقد سبق لي أن استعملت جورج لذلك الغرض ولكن الوثيقة المعنية في تلك الحالة لم تحتو على أي معلومات من ذاك القبيل.

حدد موعد المحاكمة التأديبية وجاء قاض من كيب تاون لترأسها. أخبرت يوما قبل المحاكمة أن محاميّ سوف يصل الى الجزيرة في اليوم التالي وبإمكاني تسليمه أقوالي مكتوبة. التقيت بجورج صباحا في المكتب الرئيسي وتشاورنا في بعض النقاط قبيل افتتاح الجلسة. ولكن، ما أن بدأت المحاكمة حتى أعلن محامي الإدعاء أن إدارة السجن قررت سحب الدعوى. أعلن القاضي رفع الجلسة وانصرف فجأة. تبادلت نظرات الاستغراب والدهشة مع جورج، وهنأنا أنفسنا بما اعتبرناه نصرا. وبينما كنت اضم أوراقي دخل أحد الضباط وأشار الى وثائق المرافعة وقال:

- سلمني ذلك الملف.

رفضت قائلا إنه ملف خاص بيني وبين محاميّ، ثم صحت لمحامي الإدعاء قائلا:

- أرجو إعلام هذا الرجل أن الوثائق محمية بموجب حصانة العلاقة بين المحامي وموكله، وأنه من حقي ألا أسلمه إياها.

ثنّى محامي الإدعاء على كلامي ولكن نظرا الى أن الجلسة رفعت والمحكمة ليست في حالة انعقاد فإن الضابط كان أعلى سلطة في الحجرة آنذاك. انتزع الضابط الأوراق ولم يكن في وسعي أن أحول دون ذلك. من الواضح أن الادارة سحبت الدعوى بهدف واحد فقط وهو الحصول على تلك الوثائق التي لم تكن تحتوي - كما اكتشفوا فيما بعد - أي معلومات لم تكن معروفة لديهم.

رغم أن الهروب من السجن لم يكن في يوم من الأيام واردا إلا أنه ظل من المواضيع التي شغلت تفكيرنا طول فترة وجودنا في الجزيرة. وكانت قريحتا ماك ماهاراجا وأدّي دانيلز - ذانك الرجلان الجريئان صاحبا الحيل البارعة - غالبا ما تتفتقان عن خطط مختلفة، وطالما تدارسا الاحتمالات. كانت الأفكار محفوفة بالمخاطر، ولكن ذلك لم يثننا عن التفكير والتقييم والدراسة.

قطعنا في الموضوع شوطا لا بأس به. فقد تمكن جيف ماسيمولا، ذلك الحرفيّ الممتاز، من صنع مفتاح يفتح معظم الأقفال في القسم. فقد ترك أحد الحراس سهوا ذات يوم مفتاحا على المقعد عند مدخل الممر فأسرع جيف وأخذ بصمة له على قطعة صابون ثم صنع على غرارها مفتاحا آخر. أصبحنا بذلك قادرين على دخول غرف الحبس الإنفرادي وبعض المخازن الواقعة خلف زنزاناتنا. ولكننا لم نستعمل المفتاح قط لمغادرة القسم لأن العائق الأكبر في طريقنا كان هو البحر المحيط بالجزيرة.

في عام ١٩٧٤ تفتق ذهن ماك عن طريقة لعبور خندق المحيط. فعندما كان في إحدى زياراته لطبيب الأسنان في كيب تاون اكتشف أن قرابة عائلية تربط الطبيب بأحد السجناء السياسيين. كان الطبيب متعاطفا ورفض الكشف عن ماك إلا بعد أن تفك القيود عن قدميه. ولاحظ ماك أن نافذة غرفة الإنتظار في الطابق الثاني من العيادة تطل على زقاق صغير يمكن الهروب منه.

التقى ماك بعد رجوعه ببعضنا وألح في أن نطلب مواعيد لزيارة طبيب الأسنان ففعلنا. أخبرنا بعد فترة بأن موعدا قد حدد لأراجع فيه طبيب الأسنان في كيب تاون مصحوبا بماك وويلتون امكواي وسجين رابع. كان ثلاثتنا على استعداد للهرب في تلك الزيارة ولكن رابعنا رفض الإشتراك في المحاولة. أصابتنا ريبة حول ذلك الرجل وانتابني قلق لعلمه بما كنا نخطط له.

نقل ثلاثتنا في قارب الى كيب تاون ووصلنا عيادة طبيب الأسنان تحت حراسة مشددة. كلنا تلقى تدريبات عسكرية ولم نشك في قدرتنا على تنفيذ خطة الهرب. وكان ماك يحمل

سكينا وكان مستعدا لاستعماله إذا دعت الحاجة. أخلى الحراس العيادة من المراجعين، وطالبنا برفع القيود عن أقدامنا فرفعت.

قادنا ماك الى النافذة وعاينا الزقاق الذي سنبدأ منه هروبنا، ولكنه لاحظ أمرا أثار قلقه: كان الزقاق خاليا من المارة رغم أننا في النهار وفي قلب كيب تاون، على حين كان الزقاق يعج بالمارة والسيارات في زيارته السابقة. بادر ماك بقوله:

- إنه فخ!!

وذلك كان انطباعي أيضا، ولكن ويلتون كان في قمة الحماس للهرب فاتهم ماك بالهلوسة وخاطبني قائلا:

- قد جُننت ياماديبا.

ولكن رأي كان من رأي ماك، واكتفينا بإجراء كشف عام على الأسنان واستغرب الطبيب لمجيئي لأن أسناني كانت في حالة جيدة.

بينما كان ماك يميل الى الروح العملية والواقعية في خططه كانت خطط أدّي دانيالز مغالية في الخيال. لم يكن يسمح للطائرات بالتحليق في سماء الجزيرة ولكننا اكتشفنا في منتصف عام ١٩٧٠ أن الطائرات تعبر أجواء الجزيرة بل والطائرات المروحية التي كانت تتنقل بين الشاطيء وناقلات النفط العملاقة. جاءني أدّي بخطة يستخدم فيها الحزب طائرة مروحية مطلية بألوان القوات العسكرية الجوية لجنوب أفريقيا تنقلني من الجزيرة الى سقف سفارة إحدى الدول المتعاطفة معنا في كيب تاون تمنحني اللجوء السياسي. لم تكن الفكرة طائشة، وطلبت من إدّي أن يسرب التفاصيل الى أوليفر في لوساكا، ففعل ولكننا لم نتسلم الرد.



- ٧٨ -

كانت احتفالات السجناء بأعياد ميلادهم في جزيرة روبن مناسبات متواضعة جدا. فبدلا من الكعك والهدايا كنا نقتطع شيئا من وجباتنا اليومية فنجمعه جميعا ثم نقدمه لصاحب الحفل. كان يوم عيد ميلادي وعيد ميلاد فيكيلي بام في تاريخ واحد هو ١٨ يوليو، فكنت في أعياد الميلاد السنوية احتفظ ببعض الحلوى نتقاسمها في ذلك الاحتفال المشترك. مر عيد ميلادي الخمسين عام ١٩٦٨ دون كبير احتفاء، أما في عيد ميلادي السابع والخمسين في عام ١٩٧٥ فاتحني ولتر سيسولو وأحمد كاثرادا بمقترح يهدف الى تخليد عيد ميلادي الستين.

من القضايا التي كانت تشغلنا باستمرار هي المحافظة على إحياء ذكر النضال في نفوس الناس. فقد تمكنت الحكومة خلال العقد المنصرم من إسكات معظم الصحف اللبرالية وظل قائما تحريم نشر تصريحات أو صور المناضلين الخاضعين للحظر أو الموجودين داخل السجون. ومخالفة ذلك كانت كفيلة بأن تودع محرر الصحيفة السجن وتؤدي الى إغلاق الصحيفة الى الأبد.

كنا ذات يوم في فناء السجن فاقترح ولتر وأحمد أن أسجل مذكراتي. وأشار أحمد الى أن أنسب موعد لنشر تلك المذكرات هو ذكرى ميلادي الستين، بينما ذكر ولتر أن قصة حياتي - لو رويت بصدق وأمانة - فسوف تذكر الناس بما كنا - ولا نزال - نناضل من أجله. وقال إنها ربما حركت همم الجيل الجديد من المناضلين ونفوسهم. استهوتني الفكرة وفي نقاش لاحق وافقت على الشروع في تنفيذها.

عندما أعقد العزم على القيام بشيء ما فإنني أميل الى أن أبت فيه على الفور فتفرغت بالكامل للمشروع الجديد. وضعت لنفسي جدولا غير معهود، فكنت أكتب أكثر الليل وأنام بالنهار، وربما نمت لفترة قصيرة بعد العشاء حتى العاشرة مساء ثم جلست للكتابة حتى يحين موعد الفطور. أما في أيام العمل في المحجر فقد كنت أنام بعد الرجوع من العمل حتى موعد طعام العشاء ثم أجلس للكتابة. بعد مرور بضعة أسابيع أخبرت الادارة بأنني مصاب بوعكة صحية ولن أتمكن من العمل في المحجر، فوافقت ولم تبد اهتماما بالموضوع وأصبح بإمكاني النوم بالنهار.

نظمنا فريقا لمراجعة مسودة المذكرات، فكنت أدفع بما أكتبه كل يوم الى أحمد كاثرادا ليراجعه ثم يقرأه على وولتر ويسجلا ملاحظاتهما. لم يتردد أي منهما في انتقاد ما أكتب وكنت بدوري أتقبل ملاحظاتهما بصدر رحب، وغالبا ما أعدل النص بناء على ذلك. بعد المراجعة الأولى يحال النص المعدل على لالو شيبا كي يختزل بمهارته الفائقة كل عشر صفحات فولسكاب مما كتبت في صفحة واحدة بخط رفيع جدا، ثم يتولى ماك ماهاراجا تهريب المادة الى خارج السجن.

ارتاب الحراس في أمري وسألوا ماك ذات يوم عن سبب سهري الليالي فهز كتفيه

متظاهرا بالجهل. كنت أكتب بمعدل سريع ولم أتردد في استعمال ما اخترت من كلمات وتعبيرات. انتهيت في غضون أربعة أشهر من مسودة أولية سجلت فيها أحداث حياتي منذ ولادتي وحتى نهاية محاكمة ريفونيا مع بعض أحداث حقبة جزيرة روبن.

عشت تجارب حياتي من جديد أثناء تدويني لها. استعدت في سكون الليل ما عشته وسمعته وأنا شاب غض في قونو ومكيكيزويني، وعشت لهفتي ورهبتي عندما حللت بجوهانسبيرغ، وعواصف تأسيس رابطة الشباب، والتأجيل المتكرر لمحاكمة الخيانة، ثم دراما ريفونيا. كنت كأنني في حلم من أحلام اليقظة فحاولت أن أنقل كل ما أحس وأتذكر على الورق بأقصى قدر من البساطة والصدق والوضوح.

تمكن ماك ببراعة من إخفاء المادة كلها في أغلفة دفاتر وكتب كان يستعملها لدراسته، ثم هربها معه عندما أطلق سراحه عام ١٩٧٦ . كان الترتيب المتفق عليه أن يشعرنا ماك سرا بوصول المادة سالمة الى خارج البلاد حتى نتخلص من الأصل الموجود معنا داخل السجن وبلغ حجمه خمسمائة صفحة. لم يكن أمامنا سوى حل واحد فدفنا الورق في حديقة في فناء السجن. فقد أصبحت المراقبة في الفناء متقطعة وغير دقيقة وكان الحراس يقضون الوقت في الحديث في أحد المكاتب بالجانب الشمالي من الساحة وتتعذر عليهم رؤية ما يجري في الجانب الآخر. اخترت ردم الأوراق في تلك البقعة أثناء ممارستي لرياضة المشي في الصباح الباكر.

ولتفادي حفر حفرة كبيرة قررنا توزيع الأوراق على ثلاث حفر وغلفنا كل جزء في قطعة من البلاستك ووضعناها في علب الكاكاو الفارغة. كان لزاما علينا إنجاز العمل خلال فترة قصيرة من الزمن فطلبت من جيف ماسيمولا صناعة أدوات للحفر فزودني خلال أيام بقضبان مدببة من الحديد.

انطلقنا ذات صباح بعد تناول الفطور نحو الحديقة في الجانب الجنوبي من الساحة وكان برفقتي أحمد كاثرادا وولتر وإدّي دانيالز وتظاهرنا بالحديث في أمور عامة، وكان كل منا يخفي جزءا من المادة تحت قميصه. وبإشارة مني بدأ الجميع يحفر. حفرت بالقرب من أنبوب التصريف حتى بلغت الأنبوب وأودعت تحته أكبر الأكياس، وحفر الآخران حفرتين لردم الجزأين الباقيين.

انتهينا من المهمة مع حلول موعد الإنطلاق الى المحجر. وما أن انطلقت الى العمل ذلك الصباح حتى انتابني شعور مفعم بالارتياح لإخفائنا المذكرات، ولم أعد الى التفكير في أمرها منذ ذلك الحين.

مرت بضعة أسابيع، وذات صباح بعيد قيامي من النوم سمعت أصوات معاول وفؤوس في الساحة. حان موعد الخروج من الزنزانات للغسيل فذهبت الى نهاية الممر، ألقيت نظرة خاطفة خارج الباب وإذا بي أرى فرقة من سجناء القسم العام يحفرون في الحديقة. أصابني الفزع لأنهم كانوا يحفرون في المواقع التي دفنا فيها المذكرات.

اتضح أن الإدارة قررت تشييد سور أمام زنزانات العزل لأنها اكتشفت أن السجناء بإمكانهم التحدث من داخلها مع السجناء في الساحة، وكان ذلك الفريق يحفر خندقا صغيرا لأساس السور.

أخبرت وولتر وأحمد كاثرادا خلسة أثناء الغسل عما يجري من حفر في الساحة، ورأى كاثرادا أن الأوراق معرضة للاكتشاف ما عدا الجزء المردوم تحت أنبوب التصريف. وصل طعام الفطور وأمر الحراس سجناء القسم العام بمغادرة الساحة لمنع أي اتصال بيننا وبينهم.

أخذ كل منا صحنه ثم اتجهنا نحو الحديقة وكأننا في حديث خاص، فوجدنا الحفر يوشك أن يصل الى موقع الكيسين الصغيرين. التحق بنا جيف دانيالز وانتبه فورا للمشكلة.

لم يكن أمامنا سوى الحفر لاستخراج الأوراق دون جلب انتباه الحراس. أخرجنا الكيسين أما الكيس الثالث فيحتاج الى وقت أطول ولكننا كنا على يقين بأنه في مكان آمن ولن يصلوا إليه.

أخفينا الأوراق في ملابسنا وعدنا الى زنزاناتنا. ونظرا الى أن دانيالز معفى من العمل في المحجر يومه ذاك سلمناه الأوراق ليتخلص منها بأسرع ما يمكن. وافق أدّي رغم ما يترتب على ذلك من خطر عليه شخصيا، وتنفست الصعداء وحاولت أن أطرد الموضوع عن ذهني بقدر المستطاع.

عدنا من المحجر وبدلا من أن أذهب الى الحمام كالعادة اتجهت في هدوء الى موقع الحفر وفزعت لما رأيت. لقد أزاحوا أنبوب التصريف بكامله ولا بد من أنهم عثروا على الكيس الأكبر. وبدون أن أدري وجدت نفسي مراقبا من قبل عدد من الحراس أخبروني في وقت لاحق بأن رد فعلي أكد لهم بأنني أعلم أن شيئا ما كان مخفيا في ذلك الموقع. عدت الى المبنى واتجهت الى الحمام فأخبرت وولتر وكاثرادا باعتقادي أن الأوراق كشفت. وعلمت أن أدّي تخلص من الجزأين الآخرين.

استدعيت في صباح اليوم التالي الى المكتب الرئيسي لمقابلة آمر السجن وكان الى جانبه أحد كبار المسؤولين في مصلحة السجون وصل لتوه من بريتوريا. وبدون أي تحية أو مقدمات قال آمر السجن:

– مانديلا، لقد عثرنا على مذكراتك.

لم أرد بشيء، فأبرز رزمة أوراق وسألني:

– هذا خطك، أليس كذلك؟ إننا على يقين بأن هذا من صنعك.

– إذن عليكم إثبات ذلك.

هزأوا لردي وأكدوا أنهم على يقين كذلك من أن التعليقات والملاحظات الهامشية هي من عمل وولتر سيسولو وأحمد كاثرادا، فأجبت بأن عليهم إثبات ذلك إن كانوا ينوون عقابنا. رد الآمر قائلا:

- لسنا في حاجة الى إثباتات، فالأدلة بين أيدينا.

ورغم أن آمر السجن لم يفرض أي عقوبات ذلك اليوم إلا أنه استدعى ثلاثتنا بعد ذلك بفترة قصيرة للمثول أمام نائب مفوض مصلحة السجون الجنرال رو General Rue فقال إننا بكتابة المذكرات أسأنا استعمال الميزات الممنوحة لنا. وعليه فكل الميزات الخاصة بالدراسة ستتوقف الى أجل غير محدد. امتدت مدة حرماننا من تلك الميزات في واقع الأمر الى أربع سنوات.

* * *

أمضى ماك ماهاراجا ستة أشهر تحت الإقامة الجبرية في جنوب أفريقا بعد إطلاق سراحه في ديسمبر وبادر بإرسال المذكرات الى انجلترا في أول فرصة. تمكن بعد ذلك من التسلل الى لوساكا لمقابلة أوليفر تامبو ومنها الى لندن حيث أقام ستة أشهر. أثناء تلك الفترة وبمساعدة سكرتيرة أعاد طباعة المادة كلها وترتيبها بصورة لائقة، ثم عاد الى لوساكا وسلمها لأوليفر.

انقطعت أخبار المذكرات ولم يصلني عنها شيء من لوساكا ولم أدر ما فعل أوليفر بها. ورغم أن تلك المذكرات لم تنشر أثناء وجودي في السجن فهي تشكل المادة الأساسية لهذا الكتاب.

- ٧٩ -

زارني في عام ١٩٧٦ ضيف غير عادي هو جيمي كروغر Jimmy Kruger وزير السجون في جنوب أفريقيا والعضو البارز في أعضاء الحكومة. لم تقتصر أهمية كروغر على نفوذه في سياسة السجون بل إنه يعتبر من أهم أركان الدولة في التعامل مع حركة التحرير في جنوب أفريقيا.

كنت على معرفة طفيفة بأسباب الزيارة. فقد كانت الحكومة تبذل جهودا جبارة من أجل إنجاح سياستها الخاصة بتنمية المناطق العرقية المنفصلة والمناطق شبه المستقلة. وكان أقليم ترانسكاي - بقيادة قريبي الذي كان يوما ما ولي أمري كيه دي ماتانزيما K D Matanzima - النموذج الأول الذي تفخر به الحكومة في هذا الصدد. وكان ماتانزيما قد قمع كل أشكال المعارضة الشرعية تقريبا لحكمه في الإقليم. وأذكر أن آمر السجن اقترح عليّ ذات مرة مازحا فقال:

- من الأولى بك يامانديلا أن تتقاعد في ترانسكاي وتقيم هناك في راحة لفترة طويلة.

واتضح أن ذلك هو المقترح نفسه الذي جاء به جيمي كروغر.

وكروغر رجل بدين فظ الحديث لا تظهر عليه كياسة الوزير أو لباقته. استغليت فرصة الإجتماع لشرح أوضاعنا وشكاوانا وبدا على كروغر شيء من الاهتمام. ذكرته بالمذكرة التي رفعناها إليه عام ١٩٦٩ والتي لم يرد عليها، فهز كتفيه دون مبالاة. وتحدثت بالتفصيل عن سوء الأوضاع في الجزيرة مؤكدا أننا لسنا مجرمين بل سجناء سياسيين ونتوقع أن نعامل كذلك. ولكن كروغر هزأ بكل ذلك وقال:

- دعك من هذا كله! كلكم شيوعيون وإرهابيون.

عرجت في الحديث بعد ذلك على تاريخ حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والأسباب التي دفعت بنا الى استعمال العنف. كان من الواضح أنه يكاد لا يعرف عن الحزب شيئا يذكر، وأن القليل الذي يعرفه عنه مصدره الدعاية التي تبثها صحافة اليمين. وصعق كروغر عندما قلت إن المؤتمر الوطني الأفريقي منظمة أقدم من الحزب الوطني الحاكم. وأشرت عليه بأن يقرأ ميثاق الحرية إن كان فعلا يؤمن بأننا شيوعيون، فظر اليّ مشدوها لأنه لم يسمع قط عن ميثاق الحرية. اندهشت أشد الاندهاش لمدى الجهل الذي يمكن أن يصل إليه وزير في الحكومة. وكان ينبغي الا أندهش لأن رجال الحزب الوطني معروفون برفض كل ما يعجزون عن فهمه.

أثرت موضوع إطلاق سراحنا وذكرته بقضية المتمردين الأفريكان عام ١٩١٤ الذين لجأوا الى العنف رغم وجود ممثلين لهم في البرلمان وقدرتهم على عقد الاجتماعات والتصويت في الانتخابات. فقد أطلق سراح الجنرال دو فيت General de Wet والجنرال

كيمب General Kemp بعد إدانتهما بالخيانة العظمى رغم قيادتهما قوات من اثني عشر الف جندي اجتاحت المدن والقرى وكانت سببا في موت أعداد لا تحصى من الناس .وذكرته بقضية روبي ليبرانت Robey Leibbrandt الذي أسس منظمة سرية إبان الحرب العالمية الثانية مناهضة لوقوف جنوب أفريقيا الى جانب الحلفاء وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ثم صدر العفو عنه بعد ذلك مباشرة. وبدا كروغر جاهلا بتلك الحقائق والأحداث التاريخية المتعلقة بقومه كجهله بميثاق الحرية. فكيف يمكن التفاوض مع من لا يشاركك الإطار نفسه من الفكر والمعلومات؟

نحى كروغر كل ما قلت جانبا وقال:

- ذلك كله تاريخ عفا عليه الزمن.

جاء كروغر وفي جعبته عرض محدد، ورغم اشتهاره بالتسرع والفظاظة فقد قدم مقترحه بأدب واحترام قائلا بكل بساطة إن مدة سجني يمكن أن تختصر بشكل كبير لو اعترفت بشرعية حكومة ترانسكاي وأبديت استعدادا للإقامة هناك.

انصت بأدب أنا كذلك حتى أنهى كلامه، ثم قلت إنني أولا أرفض سياسة نظام البانتوستان رفضا قاطعا، ولن أساندها بأي شكل من الأشكال. وثانيا إنني من جوهانسبيرغ والى جوهانسبيرغ وحدها سوف أعود. جادلني كروغر في الأمر طويلا ولكن دون جدوى. عاد بعد شهر بالمقترح نفسه فرفضت بدوري قبوله مرة أخرى. إنه عرض لا يقبله إلا خارج أو مرتد.

- ٨٠ -

رغم مثابرتنا في جمع الأخبار والمعلومات لم تكن متابعتنا لما يجري في الساحة متكاملة. كانت الصورة عما يدور في العالم الخارجي تصلنا مشوشة لأننا كنا نسمع بها من خلال الإشاعات التي ربما أكدتها التقارير الصحافية أو أكدها بعض الزوار.

في يونيو عام ١٩٧٦ بدأنا نسمع أخبارا عن انتفاضة عارمة في جنوب أفريقيا. كانت الإشاعات التي تصلنا خيالية وصعبا تصديقها، وكانت تقول إن شباب سويتو أطاحوا بالحكومة العسكرية وألقى الجنود باسلحتهم وفروا. ولم نعلم حقيقة ما جرى إلا بعد أن بدأ بعض السجناء من الشبان الذي شاركوا في أحداث ١٦ يونيو يفدون الى الجزيرة.

خرج في يوم ١٦ يونيو ١٩٧٦ خمسة عشر ألف تلميذ من تلاميذ المدارس في سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة بتدريس نصف الدروس في المدارس الثانوية بلغة الأفريكانا. لم يكن التلاميذ راغبين في تلقي دروس بلغة حكومة الطغاة ولا المدرسون في التدريس بها. لم تجد الالتماسات والمذكرات الصادرة عن أولياء الأمور والمدرسين أذانا صاغية. تصدت لأولئك التلاميذ كتيبة كاملة من قوات الشرطة وبادرت بإطلاق النار عليهم دون إنذار فقتلت هيكتور بيترسون Hector Pieterson البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وعددا آخر من التلاميذ. رد التلاميذ بالعصي والحجارة وعمت الفوضى فقتل وجرح مئات من الأطفال وقتل اثنان من البيض رميا بالحجارة.

انتشر صدى تلك الأحداث في جميع مدن وضواحي وقرى جنوب أفريقيا، وتداعت أعمال الشغب والعنف في طول البلاد وعرضها. أصبحت جنائز الضحايا مناسبات للتجمع والتعبير عن التضامن الشعبي والسخط الجماعي. وفجأة توهجت روح الاحتجاج والتمرد في نفوس الشبان فقاطع التلاميذ الدروس في المدارس في جميع أنحاء البلاد. انضم رجال حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الى جماهير الطلاب لدعم موجة الاحتجاج. لقد عاد شبح تعليم البانتو ليبث الرعب في قلوب مؤسسيه إذ كانت تلك الحشود الغاضبة من التلاميذ باكورة انتاجه.

ما أن حل شهر سبتمبر حتى كانت زنزانات الحبس الإنفرادي تغص بالشبان الذين اعتقلوا إبان الانتفاضة. وحصلنا من المصادر الأصلية بالتهامس عبر الجدران على تفاصيل كاملة لما حدث، وسررنا كثيرا لما سمعناه. فقد تفجرت في السبعينات روح التمرد الشعبي التي ظلت خامدة طول الستينات. لقد تسرب غالبية أولئك الشباب الى خارج البلاد للإنخراط في قواتنا العسكرية، وتلقى آلاف منهم التدريب العسكري في معسكراتنا في تانزانيا وأنغولا وموزمبيق. لا شيء يرفع معنويات السجين أكثر من علمه أن الناس يؤيدون القضية التي سُجن من أجلها.

كانت الدفعات الجديدة من السجناء نمطا يختلف عمن سبقهم. كانوا شجعان صداميين

استبدت بهم الروح العدوانية، ولا يمتثلون للأوامر. وكانوا يرفعون قبضاتهم بتحية الحزب: "أماندلا" (القوة) كلما سنحت الفرصة، وكان ديدنهم المواجهة وليس التعاون. عجزت ادارة السجن عن التعامل معهم أو السيطرة عليهم فأحالوا الجزيرة رأسا على عقب. أذكر أنني أثناء محاكمة ريفونيا قلت لأحد ضباط الأمن إذا لم تصلح الحكومة سياساتها فإن جيل المناضلين الذي سيأتي من بعدنا سوف يجعلها تحن إلينا. أجل، لقد جاء ذلك اليوم في جزيرة روبن.

رأينا في أولئك الشباب روح الثورة الغاضبة، وكانت ويني قد نبهتني لذلك في إحدى زياراتها قبل الانتفاضة بعدة أشهر. فقد أخبرتني بطريقة مشفرة أن هناك جيلا جديدا من الشباب الغاضب المفعم بروح التحدي والمواجهة من ذوي الإتجاه القومي الأفريقي. وقالت إنهم غيروا طبيعة النضال بالكامل ويجب أن أكون على علم بوجودهم.

فقد راع أولئك الشباب ما رأوه من أوضاع وحشية في الجزيرة ولم يجدوا مبررا لقبولنا بالعيش في ظلها. قلنا إنها أفضل بكثير مما كانت عليه عام ١٩٦٤، ولكن ريبهم فينا لم يكن أقل من ريبهم في إدارة السجن، وتجاهلوا كل نصائحنا لهم بالانضباط واعتبروها من علامات الضعف والتخاذل.

لا شك في أنهم اعتبرونا نحن - اصحاب محاكمة ريفونيا - معتدلين. ولم يكن وصفنا بالاعتدال مستساغا بل كان غريبا بعد أن كنا نوصم بالراديكالية والثورية على مدى سنوات طويلة. كان أمامي خياران في التعامل مع أولئك الشباب: إما أن أقرعهم لوقاحتهم، وإما أن استمع إلى ما عندهم، فاخترت الأسلوب الأخير.

طلبت من سترينين مودلي Strinin Moodley من منظمة طلاب جنوب أفريقيا South African Students' Organisation وساتس كوبر Saths Cooper من مؤتمر الشعوب السوداء Black People's Convention أن يقدموا لنا ابحاثا عن حركتهم وفلسفتهم في العمل. أردت أن أفهم الدوافع التي جاءت بهم الى النضال وما هي أهدافهم ونظرتهم للمستقبل.

بعد وصول الشباب الى الجزيرة بقليل طلب مني آمر السجن أن اتحدث اليهم بهدف تهدئتهم وأن أبين لهم أنهم في سجن وعليهم القبول بأنظمة السجن وقواعده، فأجبته بأنني لن أفعل. فلو فعلت لاعتبروني متعاونا مع العدو الظالم.

رفض الشباب الالتزام بأبسط قواعد السجن. خرجت يوما من مكتب آمر السجن فرأيت أحدهم لم يكن تجاوز الثامنة عشرة من العمر مع أحد المسؤولين. كان يرتدي قبعته في حضور كبار الضباط، ولم يقف عندما دخل الضابط الحجرة فخالف التعليمات في كلا الحالتين.

خاطبه الضابط قائلا:

- أرجو أن تزيح قبعتك من على رأسك.

تجاهله الشاب فأعاد الضابط الأمر بنبرة فيها حدة فالتفت اليه الشاب وقال:

- لماذا؟

كدت ألا أصدق ما سمعت. إنه سؤال تمردي فوجيء به الضابط كذلك ولكنه أجاب:

- لأنه مخالف للتعليمات.

- ولماذا وضعت هذه التعليمات؟ وما هو الغرض منها؟

ما عاد الضابط يحتمل تلك الأسئلة فاندفع خارجا من الحجرة قائلا:

- تفاهم معه أنت يامانديلا.

رفضت التدخل نيابة عن الضابط وأشرت للسجين برأسي إشارة تفيد أنني أؤيد موقفه.

كانت تلك بدايات تعرفنا على حركة الوعي بالهوية السوداء Black Consciousness Movement التي ساهمت في ملء الفراغ النضالي لدى الشباب الذي برز نتيجة لمنع المؤتمر الوطني الأفريقي والمؤتمر القومي الأفريقي والحزب الشيوعي. وكانت الحركة منهجا فلسفيا أكثر منها تنظيما حركيا وتعود أصولها الى فكرة تحرير السود أنفسَهم أولا من عقدة النقص المتأصلة في نفوسهم نتيجة ثلاثة قرون من سيطرة البيض المتواصلة. عندها فقط ستنمو ثقة السود بأنفسهم فيهبوا لتحريرها من الظلم. وبينما كانت الحركة تدعو الى مجتمع لاعنصري أقصت البيض من القيام بأي دور في تحقيق ذلك المجتمع.

لم تكن تلك الأفكار غريبة عني بالكامل، وهي صورة لأفكار كنت أؤمن بها وأدعو إليها إبان تأسيس رابطة الشباب التابعة للمؤتمر الوطني الأفريقي قبل ربع قرن من الزمان. فقد كنا نحن كذلك قوميين أفريقيين، وأكدنا على الاعتزاز بالهوية العرقية والثقة في جنسنا، ورفضنا مساهمة البيض معنا في النضال. إن حركة الوعي بالهوية السوداء في واقع الأمر ما هي إلا تعبير عن الموقف نفسه تجاه تلك المشكلات التي لم تختف عن الوجود.

ولكنني كنت على ثقة بأن هؤلاء الشباب سيتجاوزون كثيرا من التقييدات التي تفرضها عليهم الحركة كما تجاوزنا نحن تلك النظرة التي كانت سائدة لدى رابطة الشباب. لقد رحبت بحماسهم وروحهم الصدامية ولكن فلسفتهم بتركيزها على عنصر اللون الأسود كانت في رأيي طائفية وأدت الى آراء ومواقف غير ناضجة. اعتبرت أن دوري هو دور الناصح الأكبر الذي يمكن أن يعين في تقريب وجهات نظرهم من وجهة نظر حركة المؤتمر غير عنصرية. فقد كنت أعلم جيدا أن الضجر سيستبد بهم يوما ما وسوف يفقدون الأمل في حركة الوعي بالهوية السوداء لأنها لا تقدم برنامج عمل ولا وسائل يعبرون بها عن تذمرهم واحتجاجاتهم.

ورغم أننا اعتبرنا كوادر حركة الوعي بالهوية السوداء بيئة خصبة لتجنيد أعضاء لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي إلا أننا لم نقدم على ذلك، لعلمنا بأن ذلك من شأنه أن ينفرهم

وينفر أتباع الأحزاب والتنظيمات الأخرى الموجودين في الجزيرة. فمنهجنا هو التقرب والتودد للآخرين والثناء على جهودهم وإنجازاتهم وليس وعظهم أو إغرائهم للانضمام الى حزبنا. فمن جاء منهم بأسئلة محددة عن مواقف الحزب تجاه سياسة نظام البانتوستان أو عما قيل في ميثاق الحرية عن القومية أجبناه، وقد وردتنا أسئلة كثيرة من ذاك القبيل.

اتصلت ببعض أولئك الشباب بواسطة الرسائل المهربة، وكان بعضهم يتساءلون عن الأوضاع في مسقط رأسي: ترانسكاي. كما تراسلت شخصيا مع عدد من العناصر البارزة في النضال. فقد سمعنا عن بطولات "المرعب" باتريك ليكوتا Patrick 'Terror' Lekota أحد قادة منظمة طلاب جنوب أفريقيا الذي أرسلت له رسالة أرحب فيها بقدومه الى الجزيرة.

فاز ليكوتا بلقبه ذاك في ميادين الكرة ولكنه امتاز كذلك بقدرة فائقة في الحوار والجدال. اختلف مع بعض زملائه بشأن التميز العنصري للحركة وأخذت أفكاره تقترب من أفكار المؤتمر الوطني الأفريقي، وبعد أن وصل الجزيرة أعرب عن استعداده للإنضمام للحزب فلم نشجعه على ذلك ليس لأننا لا نرغب في ذلك ولكن لشعورنا بان ذلك سيؤدي الى توترات كبيرة بين سجناء القسم العام.

ولكن ليكوتا أصر على قراره فأعلن انضمامه للحزب، وتعرض بعد ذلك الى اعتداء بمذراة في الحديقة على يد أعضاء في حركة الوعي بالهوية السوداء. وجهت الادارة التهمة رسميا للمعتدين وأعدت لمحاكمتهم، فأشرنا على ليكوتا بألا يرفع دعوى عليهم، وسحبت القضية. أحسست أن قضية من ذاك القبيل لن تخدم الا مصالح السلطة، وسعيت الى أن يعتبر كل أولئك الشباب المؤتمر الوطني الأفريقي مظلة ينضوي تحتها الجميع بمختلف آرائهم وانتماءاتهم.

تدفقت علينا الطلبات بعد ذلك من شباب حركة الوعي بالهوية السوداء الراغبين في الإنضمام الى الحزب بمن فيهم الذين شاركوا في التخطيط للاعتداء على ليكوتا. أما ليكوتا نفسه فقد صعد في سلم قيادة الحزب في القسم العام وأخذ يدرّس سياسات الحزب لغيره من السجناء. أكدت لنا شجاعة أولئك الشباب وبصيرتهم قوة ما كنا نؤمن به من مبادىء وآراء، وعززت من اعتقادنا بأنها تمثل الأمل الأكبر في توحيد حركة النضال من أجل الحرية الكاملة.

تواصل الصراع السياسي بين سجناء القسم العام ونشبت منازعات بين أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي والمؤتمر القومي الأفريقي وحركة الوعي بالهوية السوداء. تعرض عدد من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي للضرب ورفعت الادارة دعاوى ضد عدد منهم وحدد موعد لانعقاد المحكمة الإدارية للجزيرة، ووكّل أعضاء الحزب محاميا من خارج السجن للدفاع عنهم. ورغم أنني لم أكن شاهد عيان لما حدث طلب مني أن أكون شاهد تزكية فيما يتعلق بسلوك المتهمين فوجدت نفسي في موقف حرج. لم أكن لأتردد في الإدلاء

بشهادة لصالح رفاقي ولكنني لم أكن لأتخذ أي موقف من شأنه أن يرفع من حدة الخصومات والكراهية التي نشأت بين الحزب والمنظمات الأخرى.

لم أكن اعتبر نفسي مجرد زعيم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، بل اعتبرت نفسي داعية من دعاة الوحدة، وواسطة خير وسلم، وكنت متحفظا على الانحياز لأي جانب من الجوانب في ذلك النزاع ولو كان ذلك الجانب هو الحزب الذي أنتمي إليه. فلو أنني وقفت شاهدا نيابة عن الحزب لضعفت فرص قدرتي على تحقيق التصالح بين المجموعات المختلفة. فإذا كنت أدعو الى الوحدة فيجب علي أن أتصرف كرجل يؤمن بالوحدة ولو كان ذلك على حساب علاقتي ببعض زملائي من داخل الحزب.

قررت ألا اقف شاهدا في المحاكمة وخيب ذلك ظن بعض زملائي فيّ ولكنني قدرت أن الأمر من الأهمية مما يجعلني أتحمل سخط أولئك الزملاء. فقد كان الأمر الأهم هو إشعار شباب حركة الوعي بالهوية الأفريقية بأن النضال واحد لا يتجزأ وأننا جميعا نواجه عدوا واحدا.

- ٨١ -

كانت الادارة قلقة ومشغولة عنا بالسيطرة على أولئك الأشبال فتركونا وشأننا. دخلنا السنة الثانية في إضراب جزئي عن العمل في المحجر مطالبين بإلغاء الأعمال اليدوية في السجن بالكامل. وكنا نطالب بالاستفادة من أوقاتنا في التحصيل العلمي أو تعلم الحرف المختلفة، وتجاهلنا روتين العمل في المحجر فكنا نقضي الوقت كله في الحديث والسمر. وفي أوائل ١٩٧٧ أعلنت الادارة عن إلغاء الأعمال اليدوية في السجن، وأصبح بإمكاننا البقاء في القسم أثناء النهار. نظمت الإدارة أعمالا نؤديها في فناء السجن ولكنها لم تكن سوى ورقة التوت للتغطية على هزيمتها أمامنا.

جاء ذلك النصر نتيجة لاحتجاجاتنا المتواصلة ولاعتبارات منطقية عملية محضة. كانت الادارة تفضل تخصيص حارس واحد لكل ثلاثة سجناء، وكان هناك عجز في عدد الحراس حتى قبل وصول سجناء ما بعد أحداث سويتو. وبعد وصول هؤلاء زادت الحاجة الى الحراس، إذ كان كل واحد من أولئك الشباب العتاة يحتاج حارسا خاصا به. وبقاؤنا داخل القسم يعني التقليل من عدد الحراس.

وفر لنا إلغاء الأعمال اليديوية حرية جديدة. فقد صرت قادرا على القراءة أو كتابة الرسائل أو الحديث مع زملائي أو إعداد مذكرات قانونية. كما تمكنت من مزاولة أفضل هوايتين عندي في الجزيرة: زراعة البساتين ورياضة التنس.

فلكي يتحمل المرء حياة السجن عليه أن يجد أعمالا تشغله وترضيه يوميا داخل السجن. فربما وجد راحة البال في غسل ملابسه أو تنظيف الممر أو ترتيب زنزانته بأفضل ما يمكن. فالنشوة التي يحققها المرء خارج السجن من خلال أعمال ونشاطات مهمة ومعتبرة بإمكانه أن يحقق مثلها من خلال أعمال بسيطة ومتواضعة داخله.

طلبت من إدارة السجن منذ الأيام الأولى لوصولي الجزيرة أن تسمح لي بإنشاء حديقة في فناء السجن، وظلت الادارة رافضة لذلك دون تقديم أي أسباب. أخيرا وافقت فاخترنا قطعة صغيرة من الأرض بمحاذاة السور الجنوبي للفناء.

تربة الفناء جافة صخرية وكان علي التخلص من كثير من الأحجار لإعدادها للغرس. علق بعض الزملاء بقولهم إنني في حقيقة نفسي عامل مناجم لأنني أعمل في المحجر بالنهار وأقضي أوقات فراغي في الحفر في الحديقة.

زودتنا الادارة بالحبوب فغرست الطماطم والفلفل والبصل وهي نباتات لا تحتاج الى تربة خصبة أو عناية متواصلة. كان المحصول زهيدا في البداية ولكنه تحسن مع الوقت. لم تندم الإدارة على قرارها إذ أصبحت أموّن الحراس بأجود ما أنتجه من الطماطم والبصل.

كنت دائما ميالا الى زراعة البساتين ولم تتوفر لي فرصة مزاولتها إلا وراء قضبان

السجن. كانت أول تجربتي الفلاحية في كلية فورت هير كجزء من برنامج الجامعة للنشاطات اليدوية. عملت في حديقة أحد الأساتذة واستمتعت كثيرا بالإحتكاك بالتربة الذي ساعد في التخفيف من ارهاقي الفكري. ولكنني ما أن وصلت جوهانسبيرغ حتى انشغلت بالدراسة ثم الوظيفة ولم أجد الوقت ولا الأرض لإنشاء حديقة ورعايتها.

طلبت كتبا عن البستنة والفلاحة عموما ودرست فنونها وأنواع السماد المختلفة. لم تتوفر لي كل المواد التي قرأت عنها ولكنني تعلمت بطريقة التجربة والخطأ. حاولت زراعة الفول السوداني واستخدمت أنواعا مختلفة من التربة والأسمدة فلم أنجح وأقلعت عن الفكرة، وكان ذلك مثالا لما أخفقت فيه من محاولات.

والحديقة من الأمور القليلة التي يستطيع المرء أن يتحكم فيها داخل السجن. فزراعة البذور ورعايتها وهي شتلة صغيرة تنمو وتترعرع ثم جني ثمارها حين تثمر يبعث في النفس شعورا بالرضا بسيطا في حقيقته عميقا ثابتا في أثره. وأعطاني شعوري بأنني صاحب تلك الحديقة الصغيرة وراعيها إحساسا قويا بالحرية.

كانت الحديقة الى حد ما تعبيرا مجازيا عن جوانب كثيرة من حياتي. فالرجل القائد عليه أن يرعى حديقته. فهو يزرع البذور ثم يرعى الغريسة ويعتني بها حتى تثمر فيجني ثمارها. والقائد كالمزارع يتحمل مسؤولية نتاج ما يزرع، وعليه أن يحمي عمله ويصرف عنه مخاطر الأعداء، وأن يحافظ على ما هو صالح منه وأن يتخلص مما هو ضار أو لا أمل فيه.

كتبت الى ويني رسالتين عن شجرة طماطم جميلة اعتنيت بها عناية خاصة وهي شتلة صغيرة نمت واصبحت نبتة صلبة العود وأثمرت ثمارا حمراء قانية. ولكنها فجأة إما بسبب الإهمال أو لخطأ ما أخذت توهن وتذبل ولم أقدر مهما بذلت من جهد على انقاذها من الموت. وعندما ماتت اقتلعت جذورها ونظفتها ثم ردمتها في احدى زوايا الحديقة.

قصصت على ويني قصة تلك النبتة بإسهاب وتفصيل ولا أدري ما هي المعاني التي استقتها منها، ولكنها حين كتبتها كانت تتجاذبني أفكار ومشاعر مختلطة. لم أكن لأرضى بأن تنتهي علاقتنا نهاية تلك النبتة، ومع ذلك انتابني شعور بأنني لم أوفق في المحافظة على كثير من علاقاتي الهامة في الحياة. فالمرء يجد نفسه أحيانا عاجزا عن إنقاذ ما حكم عليه بالموت.

من النتائج غير المتوقعة لإلغاء الأعمال اليدوية في السجن ازدياد وزني. فرغم قلة العمل في المحجر في السنوات الأخيرة كان المشي من المحجر وإليه كفيل بأن يساعدني على المحافظة على رشاقتي.

أؤمن بأن الممارسة المستمرة للرياضة بمختلف أنواعها هي مفتاح سلامة الجسم والعقل معا. في سنوات عمري الأولى كنت أصب جامّ غضبي على كيس الملاكمين بدلا من أن أصبه على رفيق أو أحد رجال الشرطة. فالتمرينات الرياضية تمتص الغضب والتوتر وهما

العدوان اللدودان لصفاء الذهن وسكون النفس. فكلما كانت حالتي الصحية والبدنية جيدة كلما وجدت نفسي مهيأة للعمل والتفكير بطريقة أفضل، ولذا أصبحت التمرينات الرياضية المنتظمة جزءا أساسيا في حياتي. وكانت الحاجة داخل السجن الى متنفس مما أنا فيه من ضيق وكآبة أمرا في غاية الضرورة والأهمية.

حاولت في الجزيرة أن أحافظ على برنامجي المعتاد للتمرينات الرياضية الذي يستمر من الإثنين الى الخميس ثم الراحة في بقية أيام الأسبوع. فكنت أمارس الهرولة صباحاً داخل الزنزانة لمدة خمس وأربعين دقيقة ثم أقوم بعدد من التمرينات الرياضية المختلفة لعضلات الذراعين والرجلين أكررها عشرات المرات.

كنت في رسائلي الى أولادي أحثهم على مزاولة التمرينات الرياضية وأن يمارسوا رياضة معينة ككرة السلة أو كرة القدم أو التنس لصرف تفكيرهم عما ينغص عليهم حياتهم. ورغم إخفاقي في إقناع أولادي في كل الأحوال تمكنت من التأثير على بعض الخاملين من زملائي. مزاولة التمرينات الرياضية لم تكن أمرا معتادا بين أبناء جيلي من الأفريقيين، ولكن مع مرور الزمن حتى وولتر أخذ يشاركنا فيها في ساحة السجن. وأعلم أن بعض زملائي الأصغر سنا إنما انخرطوا في التمرينات فقط لشعورهم بانهم أقدر عليها من شيخ مثلي.

حرصت منذ لقاءاتي الأولى مع جمعية الصليب الأحمر وغيرها من والمنظمات وكذلك المسؤولين على التأكيد على ضرورة توفير تسهيلات للتمرينات الرياضية. ولكننا لم نحصل على شيء منها حتى منتصف السبعينات، ويعود الفضل في ذلك الى جهود جمعية الصليب الأحمر.

بعد توقف العمل في المحجر بقليل اقترح أحد الحراس إنشاء ميدان للتنس في فناء السجن وكانت المساحة مناسبة تماما للغرض. كلف سجناء القسم العام بطلاء الأرضية الاسمنتية باللون الأخضر وبتخطيط الميدان بالطريقة المعهودة. وبعد أيام نصبت الشبكة وأصبح فجأة على أبواب زنزاناتنا ملعب تنس خاص بنا كملعب ويملدون الشهير.

مارست لعبة التنس في فورت هير ولكنني لم أتقنها جيدا. فقد كانت ضرباتي الأمامية قوية نسبيا ولكن الخلفية ضعيفة، ولكنني واصلت ممارسة اللعبة لتمرين بدني لأنها كانت البديل الأفضل والوحيد لمشوارنا من المحجر وإليه. كنت من القلائل في قسمنا الذين حافظوا على ممارسة التنس، وكنت أفضل اللعب في أقصى الحلبة ولا أقترب من الشبكة إلا لتسديد ضربة عنيفة مضمونة النتيجة.

بإلغاء الأعمال اليدوية أصبح لدي متسع من الوقت للقراءة والدرس ولكن لم يعد بإمكاني الوصول الى كتبي التي كنت أدرسها. فعندما حرمت من الدراسة كنت أحضر لليسانس الحقوق من جامعة لندن التي شرعت فيه أثناء محاكمة ريفونيا. منعت من الدراسة أربع سنوات وربما أهلني ذلك للحصول على الرقم القياسي في تحضير شهادة جامعية.

كان لحرماني من الدراسة فوائد لم تكن في الحسبان، إذ صرت أقرأ كتبا أخرى كثيرة ما

كنت لأقرأها لولا ذلك القرار. فعوضا عن كتب القانون المعقدة وجدت نفسي مستغرقا في قراءة القصص والروايات.

كانت محتويات مكتبة الجزيرة محدودة، فكانت مليئة بروايات بوليسية لا حصر لها وبكل أعمال دافني دو مورييه Daphne du Maurier وقلة آخرين. فلا وجود لأي كتب سياسية أو كتب عن الشيوعية أو الاشتراكية. فالرقيب لم يكن يسمح بأي كتاب في عنوانه كلمة "أحمر" مثلا، ولم يسمح بتداول كتاب حرب العوالم The War of the Worlds لصاحبه اتش دجي ويلز H G Wells وهو من كتب الخيال العلمي لوجود كلمة "حرب" في العنوان.

دأبت على قراءة كتب عن جنوب أفريقيا أو أعمال لكتاب من جنوب أفريقيا. قرأت كل الرويات المسموح بها للكاتبة نادين غورديمر Nadine Gordimer وتعلمت الكثير عن أحاسيس ومشاعر البيض اللبراليين. قرأت رويات أمريكية وأذكر منها على وجه الخصوص رواية عناقيد الغضب Grapes of Wrath للكاتب جون ستاينبك John Steinbeck ووجدت تشابها كبيرا بين أوضاع العمال المهاجرين التي تحكيها تلك الرواية وعمال المزارع في جنوب أفريقيا.

أما الكتاب الذي عدت الى قراءته المرة تلو المرة هو كتاب تولوستوي Tolstoy العظيم الحرب والسلام War and Peace (وسمح بتداوله في السجن رغم وجود كلمة حرب في العنوان). لقد أعجبت بدرجة خاصة بشخصية الجنرال كوتوزوف الذي قلل جميع من في القصر الروسي من شأنه. فقد انتصر على نابليون لأنه لم تستهويه قيم القصر الزائفة الزائلة، واتخذ قراراته بناء على فهم عميق لرجاله وأمته. وعلمني ذلك أن المرء كي يقود قومه عليه أن يعرفهم حق المعرفة.

- ٨٢ -

علمت في أعقاب انتفاضة طلاب سويتو أنه قد أصبح لويني وصديقي القديم وطبيبي الخاص الدكتور انتاتو موتلانا دور بارز في نشاط جمعية أولياء الأمور السود التي تضم أصحاب المهن وزعماء الكنائس المحليين. وكانت الجمعية توجه الطلاب وتتوسط نيابة عنهم لدى جهات مختلفة. ويبدو أن السلطات كانت مرتابة تجاه الجمعية كارتيابها تجاه المتمردين من الطلاب. في أغسطس، أي بعد أقل من شهرين من اندلاع الأحداث اعتقلت ويني بموجب قانون الأمن الداخلي Internal Security Act واحتجزت خمسة أشهر بدون تهمة في سجن القلعة بجوهانسبيرغ. تمكنت خلال تلك الفترة من الكتابة الى ويني وابنتيْ اللتين كانتا تدرسان في سوازيلاند معبرا عن مساندتي وتضامني، وحزنت كثيرا لاعتقالها مع أنها لم تتعرض تلك المرة لأذى، وخرجت ويني من المعتقل في ديسمبر وهي أشد إصرارا وحماسا لمواصلة النضال.

استأنفت ويني نشاطها السياسي رغم الحظر الرسمي وانزعجت السلطات لشعبيتها الواسعة بين الشباب في سويتو. وللحد من نفوذها قررت السلطات نفيها في الداخل. ففي ١٧ مايو ١٩٧٧ وصلت شاحنة وبضع سيارات تابعة للشرطة أمام بيتنا في أورلاندو ويست، وأخذ الشرطة يحملون الأثاث في الشاحنة. لم يكن ذلك اعتقالا أو حجزا أو تحقيقا ولكنه نفي لويني الى ضاحية براندفورت Brandfort النائية بإقليم فري ستايت. أخبرني كاثرادا بهذه التفاصيل التي حصل عليها من أحد رجال الدين الهندوس زاره في السجن.

تبعد براندفورت نحو مائتين وخمسين ميلا جنوب غرب جوهانسبيرغ والى الشمال من بلومفونتاين في إقليم فري ستايت. بعد رحلة طويلة شاقة تركت الشرطة ويني وزيندزي وأمتعتهما أمام بيت من الصفيح من ثلاث حجرات في ضاحية براندفورت الأفريقية الكئيبة. وجدت ويني نفسها خائفة غريبة منبوذة في تلك الضاحية التعيسة المتخلفة التي يعيش أهلها تحت قبضة أصحاب المزارع البيض، وحيث اللغة هي السيسوتو التي لا تتكلمها.

حزنت، وغضبت للوضع الذي آلت إليه ويني. فعندما كانت في سويتو كنت قادرا على الأقل أن أتخيلها وهي في المطبخ تعد الطعام أو جالسة تقرأ كتابا في بيت أعرفه حق المعرفة. وكان في ذلك عزاء لي. وفي سويتو - رغم الحظر - لنا أصدقاء وأقارب. أما في براندفورد فهي وزيندزي وحيدتان في عزلة تامة.

مررت بضاحية براندفورد ذات مرة في طريقي الى بلومفونتاين ولم تلفت انتباهي إذ لا شيء فيها يثير الانتباه عدا أنها مقفرة بائسة، ولم يخطر ببالي آنذاك أن المنزل رقم ٨٠٢ سيكون يوما ما ذا أهمية في حياتي. أصبحت أشعر من جديد أن ويني باتت في سجن مثلي.

بينت لي ويني في رسائلها شقاء العيش في براندفورد. فالمنزل خال من الكهرباء والمراحيض والمياه الجارية. الضاحية خالية من المحلات التجارية وأصحاب الدكاكين يعاملون الأفريقيين بروح عدوانية، وكان سكانها من البيض في الغالب يتحدثون الأفريكانا ومحافظين غلاة.

ظلت ويني وزيندزي تحت الرقابة الأمنية المتواصلة وتعرضتا لمضايقات، وما هي إلا شهور حتى ضجرت زيندزي - وهي غير خاضعة لحظر سياسي - من تحرشات السلطة. وبالتعاون مع محامي ويني تقدمت في سبتمبر بطلب مستعجل لمنع قوات الأمن المحلية في براندفورد من التحرش بابنتي إذ بينت إفادات مشفوعة بأيمان أن الشرطة اقتحمت البيت وهددت زيندزي. قضى القاضي بأن زيندزي من حقها استقبال الزوار في أمان.

ويني قادرة على التكيف بسرعة وتمكنت خلال فترة قصيرة من الزمن كسب ود أهل الضاحية بمن فيهم بعض البيض المتعاطفين. فقد كانت تقدم الطعام لسكان الضاحية بمساعدة منظمة "عملية مكافحة الجوع" Operation Hunger وأسست دارا لحضانة الأطفال وجمعت التبرعات لإنشاء مركز صحي في الضاحية التي لا يعرف سكانها الطبيب.

في عام ١٩٧٩ تزوجت زيني (كبرى بناتنا أنا وويني) الأمير تامبوموزي Prince Thumbumuzi أحد أبناء الملك سوبوزا Sobhuza ملك سوازيلاند، وقد تعرفت عليه أثناء دراستها هناك. لم أتمكن من داخل السجن من القيام بواجب الأب في تلك المناسبة. فتقاليدنا تقضي بأن يقابل أبو العروس الخطيب ويقيم شخصيته وامكانياته، ويحدد المهر الذي يدفعه العريس لأهل العروس. وفي يوم الزفاف يكون الأب وكيلا لابنته وهو الذي يقوم بتزويجها. لم تكن لدي أي اعتراضات على العريس الذي اختارته وطلبت من صديقي ومستشاري القانوني جورج بيزوس أن يحل محلي في مراسم الزفاف وأنبته ليقابل الأمير ويستفسر منه كيف سيعول ابنتي في المستقبل.

قابل جورج الأمير في مكتبه ثم جاء للتشاور معي في الجزيرة، ونظرا الى أن زيني كانت دون الواحدة والعشرين فقد كان عليّ بحكم القانون أن أوافق على زواجها. التقيت بجورج واستغرب لوجود أحد الحراس معنا في الحجرة فأوضحت له أن التعليمات تتطلب ذلك لأن الزيارة عائلية وليست قانونية. وأكدت لجورج في دعابة أنه لا أسرار بيني وبين الحراس.

أخبرني جورج عن الحب العميق المتبادل بين زيني وخطيبها وعن مستقبله المشرق. فوالده الملك سبوزا من الزعماء التقليديين المتنورين وعضو في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. بين لي جورج بعض طلبات أسرة العريس وكان يؤكد على أن ابنتي ستتزوج أميرا من السوازي. فطلبت منه أن يخبر العريس بأنه سيتزوج أميرة من التيمبو.

كان لزواج زيني من أسرة سوازي الملكية فوائد جمة إذ منحت بمجرد زواجها ميزات دبلوماسية وصار باستطاعتها أن تزورني متى شاءت. وزارتني فعلا في شتاء ذلك العام

بصحبة زوجها وابنتها المولودة حديثا، ونظرا لكونه أميرا سمح لنا باللقاء في حجرة المقابلات وليس في الغرف المخصصة للزيارات حيث تفصل بيننا الحواجز الزجاجية. انتظرت مجيئهم بكل شغف واشتياق.

كانت لحظة رائعة عندما دخلوا الحجرة. نهضت من على الكرسي وما أن رأتني زيني حتى رمت بطفلتها في حضن أبيها واندفعت نحوي لتأخذني في حضنها. كانت تلك أول مرة احتضن فيها ابنتي مذ كانت في سن ابنتها تقريبا. كدت أصاب بدوران، وأحسست أن صفحات الزمن قد طويت كما تطوى في رويات الخيال العلمي لأجد نفسي في احضان ابنتي وقد صارت امرأة. احتضنت بعد ذلك ابني وزوج ابنتي وسلمني حفيدتي الصغيرة التي لم أفارقها طول مدة الزيارة. حملت تلك المولودة بين يدي الخشنة التي لم تمسك لسنوات طويلة إلا الفؤوس والمجارف، وغمرتني سعادة لا توصف. كنت تلك اللحظات أسعد إنسان بين الخليقة كلها.

كان للزيارة غرض رسمي وهو أن أختار اسما للمولودة الجديدة، إذ كانت التقاليد تتطلب ذلك، فاخترت لها اسم زازيوى Zaziwe ويعني "الأمل". كان لذلك الاسم مغزى خاص بالنسبة إليّ لأن الأمل لم يفارقني لحظة واحدة طول حياتي في السجن، وأحسست آنذاك أنه لن يفارقني أبدا. أصبحت على يقين بأن تلك المولودة من جيل جديد في جنوب أفريقيا يرى التفرقة العنصرية ظاهرة من ظواهر الماضي الغابر. ذلك هو الحلم الذي كنت أعيشه.

- ٨٣ -

عشت سنتين بعد عام ١٩٧٦ في عالم من الأحلام والذكريات، ولا أدري إن كان ذلك نتيجة للتطورات الهائلة داخل السجن التي أعقبت انتفاضة سويتو أم للهزات التي شهدتها أسرتي خارجه. وفي السجن يجد المرء الفرصة لاستعراض الماضي فتصبح الذاكرة خليلا وعدوا في آن واحد. عادت بي الذاكرة الى لحظات ذقت فيها قمة السعادة وعميق الحزن. توالت الأحلام فبت أقضي ليالي بكاملها أعيش ساعات النشوة ولحظات الكآبة التي مرت بي في ماضي حياتي.

كان يراودني كابوس بعينه، رأيتني فيه وقد أطلق سراحي ولكن من سجن في جوهانسبيرغ وليس جزيرة روبن. اجتزت البوابة الى الشارع فلم أجد أحدا في انتظاري. لم يكن في المدينة إنسان واحد ولا سيارة ولا سيارة أجرة. انطلقت ماشيا في اتجاه سويتو، ومشيت ساعات طوالا قبل أن أصل أورلاندو ويست، وهناك انعطف بي الطريق نحو رقم ٨١١٥ . أخيرا يقابلني بيتي ولكنه خال ليس فيه شيء، وكأنه بيت أشباح. كل الأبواب والنوافذ مفتوحة ولا حياة لمن تنادي.

لم تكن كل أحلامي كئيبة كالحة كهذا الحلم. ففي عام ١٩٧٦ كتبت لويني عن حلم أكثر بهجة وسعادة فقلت:

> رأيت ليلة ٢٤ فبراير في المنام أنني وصلت رقم ٨١١٥ فوجدت البيت مليئا بالشبان يرقصون رقصات تقليدية وحديثة. فوجئوا بوصولي فحياني بعضهم بحرارة بينما اختفى بعضهم الآخر خجلا. وجدت غرفة النوم تغص بأفراد عائلتي وأصدقائي المقربين، وكنت أنت مستلقية على السرير وظهر ماكغاتو (ابني) شابا نضرا نائما بالقرب من الجدار المقابل.

ربما تذكرت في ذلك الحلم أسبوعين في شهر ديسمبر عام ١٩٥٦ وكان ماكغاتو في السادسة من عمره عندما تركت ماخولو (أم زوجتي الأولى إيفيلين) في البيت بمفردها. كان ماكغاتو يقيم مع أمه في أورلاندو إيست ولكنه قبل رجوعي بأيام ذهب الى ماخولو وكان ينام في سريري. كان يشعر بحنين قوي نحوي خفف منه نومه في سريري

بينما كنت أسعد بتذكر اللحظات المفرحة كنت أتحسر للألم الذي عاشت فيه أسرتي بسبب غيابي الطويل عنها. جاء في رسالة كتبتها عام ١٩٧٦ ما يلي:

> استيقظت من نومي صباح ٢٥ فبراير وكلي شوق اليك والى الأطفال كالعادة. كثيرا ما أفكر فيك هذه الأيام كأخت وأم وصديق وراع. إنك لا تتصورين الى أي مدى ترتسم صورتك في ذهني ماديا وروحيا. إنني أذكر كلماتك الحلوة كل يوم وغضك الطرف عن تصرفاتي الحمقاء التي كانت كفيلة بأن تنفر امراة غيرك. أذكر ذلك اليوم وأنت حامل بزيندزي تحاولين بصعوبة قص أظافرك. أذكر تلك المواقف واللحظات بخجل وإحساس بالإثم لأنه كا ينبغي علي أن أعينك وأقص أظافرك. لست أدري إن كنت أعي ذلك ولكن

لسان حالي كان يقول: لقد قمت بواجبي، وطفل آخر في الطريق، وما تواجهينه أنت من صعوبات بسبب الحمل فهو شأنك الخاص لا دعوة لي به. عزائي الوحيد هو علمي بأنني كنت مشغولا بدرجة لم أجد فيها وقتا حتى للتفكير. ولكنني أسأل نفسي: كيف ياترى ستكون الأمور عندما أعود الى بيتي؟

صورتك الجميلة تطل عليّ من الجانب الأيسر وأنا أكتب هذه الكلمات. أنفض عنها الغبار كل صباح وأحتضنها كما كنت أحتضنك إذ كنا معا. إنه شعور لذيذ. ها هو أنفي يلامس أنفك كي أستشعر تلك الهزات الكهربائية التي كانت تسري في دمي كلما فعلت ذلك. أما نوليتا فهي قبالتي على المنضدة، فكيف للحزن أن يتملكني أو ينالني الوهن وأنا بين هاتين الحسناواتين ترعاني أعينهما صباح مساء.

نوليتا هي الإنسان الوحيد من خارج الأسرة الذي احتفظت بصورته في السجن. كشفت عن هويتها لزيندزي في رسالة كتبتها عام ١٩٧٦، فقلت:

هل ياترى حدثتك أمك عن رفيقتي الأخرى في الزنزانة نوليتا من جزر اندامان Andaman Islands؟ صورتها انضمت الى صورتك وصور زيني ونديندي وناندي وماندلا (وثلاثتهم أحفادي) وماكي وصورة أمك. إنها الموضوع الوحيد الذي تختصر أمك الكلام عنه لأنها تغار منها وتعتبرها منافسة لها ولا تصدق أنني حصلت على صورتها من مجلة ناشيونال جيوغرافيك National Geographic.

فكرت طويلا في اليوم الذي سوف أخرج فيه من السجن، واستغرقت في الخيال أتصور كل عمل وكل حركة سأقوم بها. كانت تلك من أمتع أحلام يقظتي التي سجلتها على الورق في عام ١٩٧٦:

وددت لو أخذتك معي في رحلة طويلة طويلة يوم ١٢ يونيو ١٩٥٨ وأتمنى هذه المرة أن نكون بمفردنا. لقد طال فراقي عنك مدة طويلة وأول شيء أقدم عليه عند عودتي هو أن آخذك بعيدا عن ذلك الجو الخانق وننطلق وحدنا تستنشقين الهواء النقي الطلق وتستمتعين بمناظر جنوب أفريقيا الطبيعية الخلابة وعشبها الأخضر وشجرها وأزهارها البرية ذات الألوان المتعددة وأنهارها المتلألئة وحيواناتها البرية التي ترعى حرة في الحقول والمروج. نتحدث الى الناس البسطاء على قارعة الطريق. أول محطة سوف تكون المثوى الأخير لـلأم راديبى Ma Radebe وسي كيه CK (وهما والدا ويني)، وأرجو أن يكونا مدفونين جنبا الى جنب، كي نزورهما وندعو لهما بالخير إذ كانا السبب في ما أنعم به اليوم من سعادة وحرية. وهناك سأقص عليك كل القصص والحكايات التي طالما وددت أن أقصها عليك. وهناك ستستمعين وسوف ألزم نفسي بالحديث عن أمور حلوة وقورة بناءة. ومن هناك ننطلق الى مفاكانيسوا Mphakanyiswa ونوسكيني Nosekeni (أبي وأمي) حيث نعيد الكرة. بعد ذلك سنكون مفعمين بالانتعاش والقوة كي نعود الى رقم ٨١١٥ .

عندما سمحت لنا الادارة باستلام صور أفراد العائلة أرسلت لي ويني ألبوما للصور جمعت فيه بكل عناية صورها وصور الأبناء والأحفاد. أصبح الألبوم من أعز ما أملك أعود إليه كلما زاد حنيني لأولئك الذين أحببتهم الحب كله.

ولكن في السجن كل ميزة يصحبها ألـم، إذ كلما فتش الحراس زنزانتي سحبوا الصور. وأخيرا امتنعوا عن ذلك السلوك فجمعت الصور وصار الألبوم منتفخا بصور جميع أفراد العائلة.

لا أذكر أول من استعار ذلك الألبوم من السجناء، ولكن الجميع علموا أنني أحتفظ بألبوم صور لعائلتي فأصبح تحفة تتناول بين السجناء حتى في القسم العام.

نادرا ما كان سجناء القس العام يستقبلون الزوار أو يتسلمون الرسائل ولم أكن لأبخل عليهم بفرصة يشاهدون فيها صورا من العالم خارج السجن. ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبح الألبوم مزقا واختفت بعض الصور التي لا تعوض. فالرجال كانوا في أمس الحاجة لأشياء ذات طبيعة شخصية تزين غرفهم الكئيبة ولم يكن بوسع أحدهم أن يتمالك نفسه عن الاحتفاظ بإحدى تلك الصور. فلما اختفت بعض صور بدأت في جمعها من جديد.

كان بعض السجناء يطلب مني صورة واحدة بدلا من الألبوم كله. جاء يوما أحد شباب حركة الوعي بالهوية السوداء، وكان ممن يقدمون لنا الطعام منتزلاء القسم العام، فأخذني جانبا وقال:

- ماديبا، إنني أريد صورة من الصور إيّاها!!

فوعدته بأن أرسل إليه صورة، فقال بلهف:

- متى؟

فقلت في نهاية الأسبوع فبدا راضيا وانصرف، ولكنه توقف فجأة ثم عاد يقول:

- اسمع ياماديبا. لا أريد صورة العجوز. أريد صورة إحدى الفتاتين :زيندزي أو زيني. تذكر جيدا، لا ترسل لي صورة العجوز!!

- ٨٤ -

في عام ١٩٧٨ وبعد خمس عشرة سنة من الإلحاح في المطالبة بالأخبار عرضت الادارة حلا وسطا. فبدلا من أن نتلقى صحفا أو نستمع للإذاعات الخارجية تقرر إنشاء إذاعة داخلية تتضمن ملخصا للأخبار يذاع عبر نظام الاتصال الداخلي للسجن.

كانت البرامج أبعد ما تكون عن الموضوعية أو الشمول، إذ تولى جمع الأخبار وتلخيصها القائمون على المراقبة في الجزيرة. كانت الأخبار كلها في صالح الحكومة وشرا ووبالا على كل من هو ضدها.

كان أول تقرير عن وفاة روبرت سوبوكوى زعيم حزب المؤتمر القومي الأفريقي. تلته أخبار عن انتصار قوات إيان سميث Ian Smith في روديسيا واعتقال معارضين للحكومة في جنوب أفريقيا. ورغم كونها أخبارا موجهة فقد سررنا بها وصرنا نفاخر بالقراءة فيما بين السطور واستنتاج الحقائق بالتخمين وملء الفراغات.

وعلمنا في تلك السنة أن بي دبليو بوتا P W Botha قد حل محل جون فورستر رئيس للوزراء، ولكن إذاعة السجن لم تخبرنا بأن فورستر استقال نتيجة كشف الصحافة تلاعبا بأموال الدولة في وزارة الإعلام. لم أكن أعرف الكثير عن بوتا باستثناء أنه وزير سابق للدفاع عرف بعدوانيته وبدعمه للحملة العسكرية ضد أنغولا عام ١٩٧٥ . لم يصلنا آنذاك ما يشير الى ميوله الإصلاحية إطلاقا.

قرأت منذ فترة قصيرة كتابا في مكتبة السجن عن قصة حياة فورستر واكتشفت أنه كان رجلا مستعدا للتضحية في سبيل ما يعتقده، فقد سجن لموقفه المساند لألمانيا في الحرب العالمية الثانية. لم نأسف لرحيله إذ وصل بالمعركة ضد الحرية الى أبعد آفاق الكبت والظلم والعبودية.

ورغم أخبار إذاعتنا الموجهة وصلتنا الأخبار التي لم تكن الادارة ترغب أن نعرفها. سمعنا عن انتصارات حركات التحرير في موزامبيق وأنغولا عام ١٩٧٥، واستقلال تلك الدولتين وبروز حكومة ثورية في كل منهما. لقد بدأ المد الثوري يتجه نحونا.

وفي إطار التوجه نحو الانفتاح دخلت السينما الى الجزيرة، فكنا نشاهد الأفلام كل أسبوع على قطعة من القماش في غرفة كبيرة بجانب الممر قبل أن توفر الإدارة شاشة حقيقية. كانت الأفلام تسلية ممتعة ساعدتنا في الهروب من كآبة الحياة في السجن.

شاهدنا أفلاما صامتة وأفلاما من هوليوود غير ملونة وأفلام الكاوبوي الأمريكية عمرها أقدم من عمري. كان من بينها فلم "علامة زورو" The Mark of Zorro بطولة دوغلاس فيربانكس Douglas Fairbanks الذي أنتج عام ١٩٢٠ . وكانت الادارة تتحاشى جلب الأفلام التاريخية ذات الرسالة الأخلاقية. شاهدنا بعد ذلك أفلاما ملونة حديثة منها الوصايا

العشر The Ten Commandments بطولة تشارلتون هيستون Charlton Heston في دور موسى، وفيلم أنا والملك The King and I بطولة يول بريــــنار Yul Brynner، وفيلم كيلوبترا Cleopatra بطولة ريتشارد بيرتون Richard Burton وإليزابيث تايلور Elizabeth Taylor.

استغربنا لاختيارهم فيلم "أنا والملك" لأنه يعرض الصراع بين القيم الشرقية والقيم الغربية، ويوحي بأن أمام الغرب الكثير ليتعلمه من الشرق. وأثار فيلم "كيلوبترا" جدالا طويلا فاعترض البعض عن قيام ممثلة أمريكية بشعرها الأسود وعينيها البنفسجيتين - رغم جمالها - بدور ملكة مصر. وقالوا إن الفيلم نموذج للدعاية الغربية التي تسعى الى إخفاء حقيقة أن كيلوبترا كانت امرأة أفريقية. وأكدت لهم صواب ذلك الرأي بأنني عندما زرت مصر رايت تمثالا ظهرت فيه كيلوبترا ببشرة سمراء.

وشاهدنا بعد ذلك أفلاما محلية أنتجت في جنوب أفريقيا شارك فيها ممثلون سود كنا نعرفهم من أيام زمان. اتسم عرض تلك الأفلام بالصراخ والهتاف عند ظهور أحد أولئك الممثلين. وسمح لنا باختيار برامج وثائقية - وكنت مغرما بها - فصرت أفضلها على الأفلام (علما بأنني لا يمكن أن يفوتني فيلم فيه صوفيا لورين). غالبا ما كان أحمد كاثرادا يتولى اختيار البرامج الوثائقية وكان مسؤولا عن مكتبة القسم. أعجبت كثيرا ببرامج عن المعارك البحرية الكبرى في الحرب العالمية الثانية تضمن لقطات عن تدمير اليابانيين للسفينة البريطانية برينس أوف ويلز Prince of Wales. لقد حرك مشاعري مشهد ظهر فيه وينستون تشيرشل يبكي إثر سماعه خبر غرق السفينة. انطبع ذلك المشهد في ذاكرتي مدة طويلة. فهو مثال على أن القائد من حقه أحيانا أن يظهر حزنه أمام الجمهور دون أن ينقص ذلك من قدره في أعين الناس.

شاهدنا برنامجا عن جماعة من الأمريكيين المغرمين بالدراجات النارية تعرف باسم "ملائكة الجحيم" Hell's Angels ظهروا فيه متهورين محبين للعنف ساخطين على المجتمع. وظهرت فيه الشرطة مؤدبة مهذبة يؤتمن جانبها. بمجرد انتهاء الفلم بدأ نقاش حول مغزاه. انتقد الزملاء بدون استثناء أعضاء تلك الجماعة لعدم احترامهم للقانون. وفجأة نهض ستريني مودلي، من شباب حركة الوعي بالهوية السوداء الأذكياء، واتهم الحاضرين بأنهم تخلفوا عن عجلة الزمن لأن "ملائكة الجحيم" هم طلبة سويتو عام ١٩٧٦ الذين تمردوا على السلطة. وعنفنا قائلا إننا من شيوخ المفكرين من أبناء الطبقة الوسطى وإننا منحازون الى جانب السلطة اليمنية بدلا من الوقوف الى صف جماعة "ملائكة الجحيم".

أثارت تهم ستريني زوبعة كبيرة وعارضه عدد من السجناء قائلين إنه من المستحيل الدفاع عن أعمال تلك الجماعة وأنها سبة لنضالنا أن يقارن بأعمال عصابة معادية للمجتمع لا أخلاق لها. فكرت مليا فيما قاله ستريني ومع أنني لم أوافقه الرأي وقفت للدفاع عنه. فهم جماعة تمثل التمرد على السلطة مهما كانت مآخذنا عليها.

* * *

لم يكن يهمني شان جماعة "ملائكة الجحيم" بل القضية الأكبر التي أثارها ستريني. وهي أن أفكارنا وعقولنا توقفت عند حد معين لم يعد يمثل روح الثورة. ظللنا في السجن خمسة عشر عاما، وأنا شخصيا قرابة ثمانية عشر عاما. لقد انقضى العهد الذي تركناه خارج السجن، وأصبحنا نواجه خطر تحجر أفكارنا في عالم الزمن. فالسجن نقطة سكون في عالم متحرك ومن السهل على المرء أن يظل في السجن عند نقطة بعينها بينما العالم يتغير ويتقدم.

سعيت دوما لأن أفتح ذهني للجديد من الأفكار ولا أرفض موقفا لأنه جديد أو مختلف. وحافظنا طول بقائنا في الجزيرة على مواصلة الحوار فيما بيننا، وطرحنا أفكارنا ومبادءنا للبحث والنقاش والصقل والتمحيص. لم نجمد بل تطورنا مع الأحداث.

ورغم الانفتاح الذي شهدته الجزيرة لم تظهر مؤشرات تدل على أن الحكومة أخذت تصلح من سياساتها. ولكنني مع ذلك لم أشك في أنني سأستعيد حريتي. أجل، لقد عشنا في موقع واحد ولكنني صرت على يقين بأن العالم يتغير لصالحنا وليس لصالح غيرنا. لقد أكد لي ذلك البرنامج أنني يوم أخرج من السجن لن أظهر أمام الناس تحفة سياسية متحجرة قد عفا عليها الزمن.

بعد مرور خمسة عشر عاما أعلنت ادارة السجن عام ١٩٧٩ عبر الإذاعة الداخلية توحيد الطعام الذي يقدم للأفريقيين والملونين والهنود. ولكن نظرا الى أن تأخير تحقيق العدالة كالحرمان منها تماما لم يكن هناك ما يدعو الى الاحتفاء بذلك الإعلان الذي جاء تحت ضغوط وتأخر كثيرا عن موعده.

ستقدم نفس الكمية من السكر الى جميع السجناء وهي ملعقة ونصف. وبدلا من زيادة الكمية التي كان يحصل عليها الأفريقيون قللت الادارة من الكمية التي تقدم للهنود والملونين. وقبل ذلك بقليل صار الأفريقيون يحصلون على الخبز في الصباح غير أن ذلك لم يغير في الأمر شيئا لأننا كنا نتقاسم الخبز على أي حال.

تحسن مستوى الأكل منذ أكثر من سنتين مضتا ولم يكن ذلك بفضل الادارة. ففي أعقاب أحداث سويتو قررت السلطات أن تصبح الجزيرة مركز "السجون الأمنية" في جنوب أفريقيا. انخفض عدد سجناء القسم العام بشكل كبير، وصار السجناء السياسيون يؤدون واجبات العمل في المطابخ لأول مرة. وما أن استلم هؤلاء مسؤولية إدارة المطبخ وإعداد الطعام حتى تحسن مستوى الأكل بشكل ملحوظ. والسبب في ذلك اختفاء ظاهرة تهريب المواد الغذائية للرشوة وشراء ذمم الحراس التي انتشرت بين سجناء القسم العام واستخدامها كما ينبغي في إعداد الطعام الذي يقدم للسجناء. زادت كميات الخضار واللحم في الطعام وانتبهنا عند ذلك الى ما كان ينبغي أن يقدم إلينا من طعام طول السنوات الماضية.

- ٨٥ -

في صيف عام ١٩٧٩ كنت ألعب التنس في فناء السجن فأصبت بألم حاد في قدمي اليمنى حال دون مواصلتي اللعب. عرضت على الطبيب فقرر عرض حالتي على أخصائي في كيب تاون. أصبحت السلطات أكثر حرصا على صحتنا خوفا من أن يتوفى السجين داخل السجن فيكون ذلك مدعاة لشجب المجتمع الدولي لسياسة الدولة.

ورغم تلهفنا على زيارة كيب تاون لم أكن راغبا أن أزورها سجينا. كنت أرسف في القيود في زاوية نائية في القارب يحفني خمسة حراس مسلحين. كان البحر هائجا فتمايل القارب بشدة وبدا كانه شارف على الانقلاب. لمحت سترة نجاة خلف اثنين من الحراس كل منهما في سن حفيدي فآليت على نفسي إن انقلب القارب أن استولي عليها ولو اضطررت لارتكاب أفظع إثم على وجه الأرض كي أنجو بحياتي. ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك.

استقبلنا في الميناء عدد آخر من الحراس المسلحين وبعض من جمهور الناس. أحسست بالذلة وأنا أرى الخوف والاستياء على وجوه الناس وهم يشاهدون سجينا يرافقه الحراس. وجدت في نفسي الرغبة لإخفاء وجهي وإحناء رأسي تفاديا لعيونهم ولكنني رأيت أن ذلك تصرفا غير لائق.

فحصني طبيب شاب وسألني إذا كنت قد أصبت في عقب قدمي من قبل فأخبرته أنني أصبت مرة من قبل وأنا ألعب الكرة في كلية فورت هير. نُقلت الى المستشفى المحلي وكانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها المستشفى مريضا أو أعرض نفسي على طبيب. فعندما كنت شابا لم يكن هناك أطباء أفريقيون وكان عرض أحدنا نفسه على طبيب أبيض من ضرب الخيال.

كنت آنذاك اعتبر التردد على الطبيب ليس من خصائص الرجولة، والأسوأ من ذلك الخضوع لإجراءات طبية من أي نوع. وفي فورت هير نصح الطبيب بإجراء عملية ففزعت ولم أسمح له بذلك فرد قائلا:

- أنت حر! ولكن هذه الإصابة ستعود لتقلقك في كبر سنك.

كشف الفحص بالأشعة عن قطع عظمية صغيرة ربما ظلت هناك من أيام فورت هير، وقال الطبيب إن بإمكانه استخراجها في الحال باستخدام تخدير موضعي فوافقت على الفور.

أجريت العملية بنجاح ثم أعطاني الطبيب إرشادات للعناية بقدمي. قاطعه الحارس قائلا إنه عليّ الرجوع الى الجزيرة حالا مما أزعج الطبيب الجراح وقال بكل ثقة إنه لن يأذن لي بمغادرة المستشفى وعليّ أن أقضي ليلتي هناك. استاء الحارس ولكنه أذعن لقرار الطبيب.

كانت أول ليلة أقضيها في المستشفى ليلة هادئة طيبة. أولتني الممرضات اهتماما أكثر مما

ينبغي ونمت نوما عميقا. وفي الصباح قالت الممرضات إنه بإمكاني الاحتفاظ بالبيجاما والثوب فشكرتهن وقلت إن زملائي سوف يحسدونني على ما أنا فيه.

كانت رحلة مفيدة لأنني أحسست في ذلك المستشفى بذوبان الحساسيات بين السود والبيض. عاملني الطبيب والممرضات معاملة طبيعية وكأنهم ظلوا يعاملون السود على قدم المساواة طول حياتهم. كان ذلك الأمر جديدا وغريبا على حسي، وكان مبعث أمل وتفاؤل، وأكد ما ظللت أؤمن به منذ زمن بعيد وهو أن التعليم هو أعدى أعداء التعصب. فالطبيب والممرضات أناس متعلمون والعلم لا يترك مجالا للتميز أو الحقد العنصري.

أسفت لعدم سنوح الفرصة للاتصال بويني قبل خروجي الى المستشفى. فقد أثار قلقها ما أشيع في الصحف من أنني على فراش الموت، ولكنني كتبت أطمئنها بعد أن عدت الى الجزيرة.

في عام ١٩٨٠ سمح لنا باقتناء الصحف وكان ذلك فوزا آخر له ثمنه كذلك. نصت التعليمات الجديدة على السماح لكل سجين من الفئة (أ) باقتناء صحيفة واحدة باللغة الانجليزية وأخرى بالأفريكانا، وذلك بشرط الا يسمح لسجين من أي فئة أخرى الاطلاع عليها وإلا حجبت عليه تلك الميزة. اعترضنا على ذلك الشرط ولكن بدون جدوى.

صرنا نتسلم صحيفتي كيب تايمز Cape Times ودي بيرغر Die Burger المحافظتين. كان ضباط الرقابة يفحصون الأعداد بكل دقة يوميا وينزعون ما يرونه غير مناسب فكنا نتسلمها مخرمة. وأصبحنا بعد فترة نتسلم صحفا أخرى مثل ستار Star والراند ديلي ميل Rand Daily Mail والصانداي تايمز Sunday Times التي كانت تخضع لرقابة أشد من الصحفتين السابقتين.

نشرت صحيفة جوهانسبيرغ صانداي بوست Johannesburg Sunday Post في مارس ١٩٨٠ تقريرا بعنوان "أطلقوا سراح مانديلا". ذيل التقرير بمذكرة للمطالبة بإطلاق سراحي وسراح زملائي من السجناء السياسيين دعت الصحيفة قراءها للتوقيع عليها. ففي الوقت الذي كان نشر صوري وكلامي ممنوعا أشعلت البوست فتيل حملة عامة لطرح مسألة إطلاق سراحي للنقاش.

أصل الفكرة هو أوليفر تامبو وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في لوساكا، وكانت الحملة حجر الزاوية في استراتيجية جديدة لوضع قضيتنا على رأس قائمة اهتمامات الرأي العام من جديد. قرر الحزب تنظيم الحملة لإطلاق سراحنا على الجانب الشخصي والتركيز على شخص بعينه. فلا شك في أن ملايين من الذين ضموا أسماءهم للحملة فيما بعد لم يكونوا يعرفون شيئا عن نلسون مانديلا. (يقال إن بعض الشبان في لندن ظن أن اسمي هو "فري" عندما قرأ لافتات تقول بالانجليزية "فري مانديلا" أي "أطلقوا سراح مانديلا"). هناك من بين السجناء من اعترض على التركيز على الجانب الشخصي واعتبره خيانة لجماعية التنظيم والنضال، بينما فهمته الغالبية على أنه وسيلة للتعبئة الشعبية.

قبل ذلك بسنة منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق الإنسان في الهند، وكانت تلك فرصة أخرى لإحياء النضال من جديد. منعت بطبيعة الحال - كما منعت ويني - من الذهاب الى الهند لتسلم الجائزة وقام أوليفر بذلك نيابة عني. بدأ ينتابنا إحساس بانبعاث الحزب من جديد، وصعّدت حركة امخونتو وي سيزوى (أمكا) أعمالها الفدائية التي قطعت مراحل طويلة من التطور. ففي يونيو فجرت عناصر (أمكا) محطة التكرير الضخمة في ساسولبيرغ Sasolburg جنوب جوهانسبيرغ. نفذت الحركة عملية تفجير واحدة كل أسبوع في عدد من المواقع الاستراتيجية من البلاد، شملت محطات الطاقة في ترانسفال ومراكز الشرطة في جيرمستون Germiston ودايفيتون Daveyton ونيو برايتون New Brighton وغيرها، كما فجرت قاعدة عسكرية في ضواحي بريتوريا، وهي كلها مواقع استراتيجية يضمن تفجيرها جذب انتباه الرأي العام وانزعاج السلطة. أعلن وزير الدفاع الجنرال ماغناس مالان Magnus Malan بدعم من رئيس الوزراء بي دبليو بوتا سياسة جديدة عرفت باسم "الهجوم الشامل" أساسها تحويل البلاد بأكملها الى ثكنة عسكرية لمواجهة حركة التحرير النضالية.

كما تواصلت حملة "أطلقوا سراح مانديلا"، فرشحت عام ١٩٨١ مع كل من الأميرة آن Princess Anne ابنة ملكة بريطانيا وجاك جونز Jack Jones أمين عام اتحاد نقابات العمال في بريطانيا للرئاسة الفخرية لجامعة لندن وكان ترتيبي الثاني بعد ابنة الملكة بواقع ٧١٩٩ صوتا. كتبت الى ويني في براندفورت أقول إنني كنت آمل أن أفوز بذلك المنصب كي يتحول كوخها المتواضع الى قصر كبير يضاهي في حجمه قصر ويندسور الملكي في بريطانيا.

زادت الحملة من تنامي الأمل في نفوسنا. ففي أوائل السبعينات، عندما كاد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أن يختفي من الساحة، كنا نغالب أنفسنا كي لا نستسلم للقنوط. لقد أخطأنا الحساب إذ اعتقدنا أن جنوب أفريقيا سوف تتحول مع حلول عقد السبعينات الى بلد ديمقراطي غير عنصري. ولكن الأمل انبعث من جديد في بداية الثمانينات. كنت في بعض الأيام أخرج الى الساحة عند الصباح فتستقبلني طيور النورس والعصافير والأشجار والأعشاب وكل المخلوقات في تلك الجزيرة بالتهلل والابتسام. وفي تلك اللحظات التي تجسد أمامي فيها جمال عالمي ذلك الصغير، رغم عزلته في تلك البقعة النائية من العالم، كان يغمرني اليقين بأنني وقومي سوف نصبح يوما أحرارا طلقاء.

- ٨٦ -

ربيت في صغري كما ربي أبي من قبلي لأكون مستشارا للملك التيمبو. ورغم أنني اخترت طريقا مختلفا في حياتي فقد سعيت بطريقتي الخاصة أن أكون أهلا لتلك المسؤولية. حاولت التواصل مع الملك من داخل السجن واسداء النصيحة اليه بقدر المستطاع. وكلما تقدمت بي السن اتجهت أفكاري نحو ترانسكاي ومرتفعاتها الخضراء. ورغم أنني رفضت أن أعيش هناك تحت رعاية الحكومة ووصايتها كنت أحلم بالرجوع يوما ما الى ترانسكاي الحرة. ولذا فقد فزعت عندما علمت عام ١٩٨٠ أن قريبي كيه دي ماتانزيما رئيس وزراء ترانسكاي أطاح بالملك ساباتا دالينديبو زعيم التيمبو الأكبر.

تقدم مجموعة من أعيان التيمبو بطلب لزيارتي فسمحت لهم السلطات التي طالما كانت حريصة على ارضاء الزعماء التقليديين اعتقادا منها أنه كلما زاد اهتمامي بالشؤون القبيلية في ترانسكاي كلما ضعف التزامي بحركة النضال الوطني.

دأبت الحكومة على دعم قوة زعماء القبائل التقليدين لتعادل بها نفوذ حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ورغم أن كثيرا من زملائي كان يرى التبرؤ من أولئك الزعماء كنت أميل الى مواصلتهم وتوثيق الروابط معهم، فليس هناك تعارض بين القيادة التقليدية وعضوية الحزب. تركزت أهم وأطول المناقشات التي دارت بيننا في الجزيرة وأكثرها حساسية حول مشاركة الحزب في المؤسسات التي تدعمها الدولة. فقد رأي البعض أن ذلك تواطؤا مع الحكومة بينما كنت أوكد على ضرورة التميز بين المباديء والأساليب. كان الجانب الأهم من الموضوع في تصوري يتعلق بالأسلوب وليس بالمبدأ، والسؤال الصحيح هو : هل يصبح الحزب أقوى بالمشاركة في هذه المؤسسات أم بمقاطعتها؟ وكان رأيي أننا سنكون أقوى بالاشتراك.

التقيت بزعماء القبائل في غرفة كبيرة في القسم الخاص بالزيارات وشرحوا لي طبيعة الأزمة التي يواجهونها .كانت قلوبهم مع ساباتا ولكنهم كانوا يخافون ماتانزيما. بعد الإستماع اليهم نصحتهم بالوقوف الى جانب ساباتا ضد ماتانزيما الذي اغتصب السلطة من الملك بكل صفاقة وبدون شرعية. أبديت تعاطفا معهم ولكنني لم أكن لأتغاضى عما فعله ماتانزيما، وطلب منهم أن ينقلوا لساباتا دعمي ومساندتي، وأن ينقلوا لماتانزيما عدم رضاي عما ارتكبه من أعمال.

كان ماتانزيما أيضا راغبا في زيارتي لمناقشة موضوع ساباتا وشؤون أخرى تتعلق بالأسرة، وتقدم بطلب زيارة منذ عندة سنوات. لكن زيارته سوف تترتب عليها مضاعفات سياسية، ولذا فقد عرضت موضوع زيارته منذ أول طلب على الجهاز الأعلى وعلى رجال الحزب في القسم. لم يحفل بعضهم بالأمر وقالوا إنه من أقربائي ومن حقه أن يزورني. أما ريموند وغوفان وأحمد كاثرادا فقالوا رغم أنه بالإمكان إعتبار الزيارة زيارة عائلية سوف

يفسرها كثيرون في الداخل والخارج على أنها دعم مني للرجل ومواقفه السياسية. فذلك هو غرض ماتانزيما من الزيارة وهو السبب في أنها غير مقبولة.

تفهمت الموقف وكنت موافقا على كثير من النقاط التي أثارها الزملاء ولكنني كنت راغبا في لقاء ماتانزيما. إنني أولي اللقاءات المباشرة وجها لوجه أهمية كبرى، وربما بالغت في ثقي بقدرتي في مثل هذه اللقاءات أن أقنع الآخرين أو أغير من مواقفهم. وكان أملي أن أتمكن من إقناع ماتانزيما بأن يعدل في سياساته ومواقفه.

اتفق الزملاء في القسم على ألا يعترضوا على الزيارة. واحتراما للأعراف الديمقراطية تشاورنا مع زملائنا في القسم العام من السجن فعارضوا الفكرة بشدة. وقال ستيف تشويت Steve Tshwete وهو من أبرز شخصيات الحزب في القسم العام إن الزياة ستعزز موقف ماتانزيما سياسيا ولذا لا يجب أن تتم. وأشار آخرون الى أن ماتانزيما قد سعى الى إثبات دعمي غير المباشر له بتعيينه والد ويني، كولومبس ماديكيزيلا، وزيرا للزراعة في حكومته، وأن الزيارة ستزيد من تأكيد ذلك الدعم. رضخت لرأي الأعضاء في القسم العام وأخبرت الادارة بأنني لن أتمكن من استقبال ماتانزيما.

في مارس ١٩٨٢ أخبرتني إدارة السجن بأن زوجتي أصيبت في حادث سيارة وأخذت الى المستشفى. لم تتوفر معلومات كافية عن حالتها الصحية ولا عن ملابسات الحادث. اتهمت الادارة بحجب المعلومات عني وباستخدامها المعلومات سلاحا ضدي، وتقدمت بطلب مستعجل لمقابلة المحامي. كنت قلقا على صحة ويني حتى زارني محاميّ وصديقي دولله عمر Dullah Omar يوم ٣١ مارس وطمأنني على صحتها.

كانت الزيارة قصيرة ولكنني ظللت قلقا على ويني وانتابني شعور بالعجز لعدم قدرتي على أن أكون بجانبها أقوم على رعايتها.

بعد وصولي الزنزانة بقليل زارني، على غير المعتاد، آمر السجن وبرفقته عدد من المسؤولين. لم يكن آمر السجن يزور السجناء في زنزاناتهم. وقفت عند وصولهم ودخل الآمر الزنزانة فعلا، وكادت تضيق بنا، وخاطبني قائلا:

- أريدك يا مانديلا أن تحزم أمتعتك.

سألته عن السبب فأجاب ببساطة:

- قررنا نقلك.

- إلى أين؟

- لست مخولا بان أخبرك بذلك.

ألححت في الطلب فقال إنه تلقى تعليمات من بريتوريا بنقلي الى خارج الجزيرة فورا. انصرف آمر السجن واتجه الى زنزانات كل من وولترسيسولو وريموند مهلابا وأندرو ملانغيني ونقل لهم تعليمات مشابهة.

***

انزعجت وانتابني قلق وأنا أتساءل عن مغزى ذلك القرار وأخمن الى أين ستكون وجهتنا. وفي السجن يمكن للمرء أن يسأل ويعترض على التعليمات الى حد معين ثم لا خيار له بعدها إلا الإذعان. لقد مر علي في الجزيرة أكثر من ثمانية عشر عاما ثم بدون سابق إنذار أو ترتيب اتلقى خبرا مفاجئا بأنني سأنقل منها.

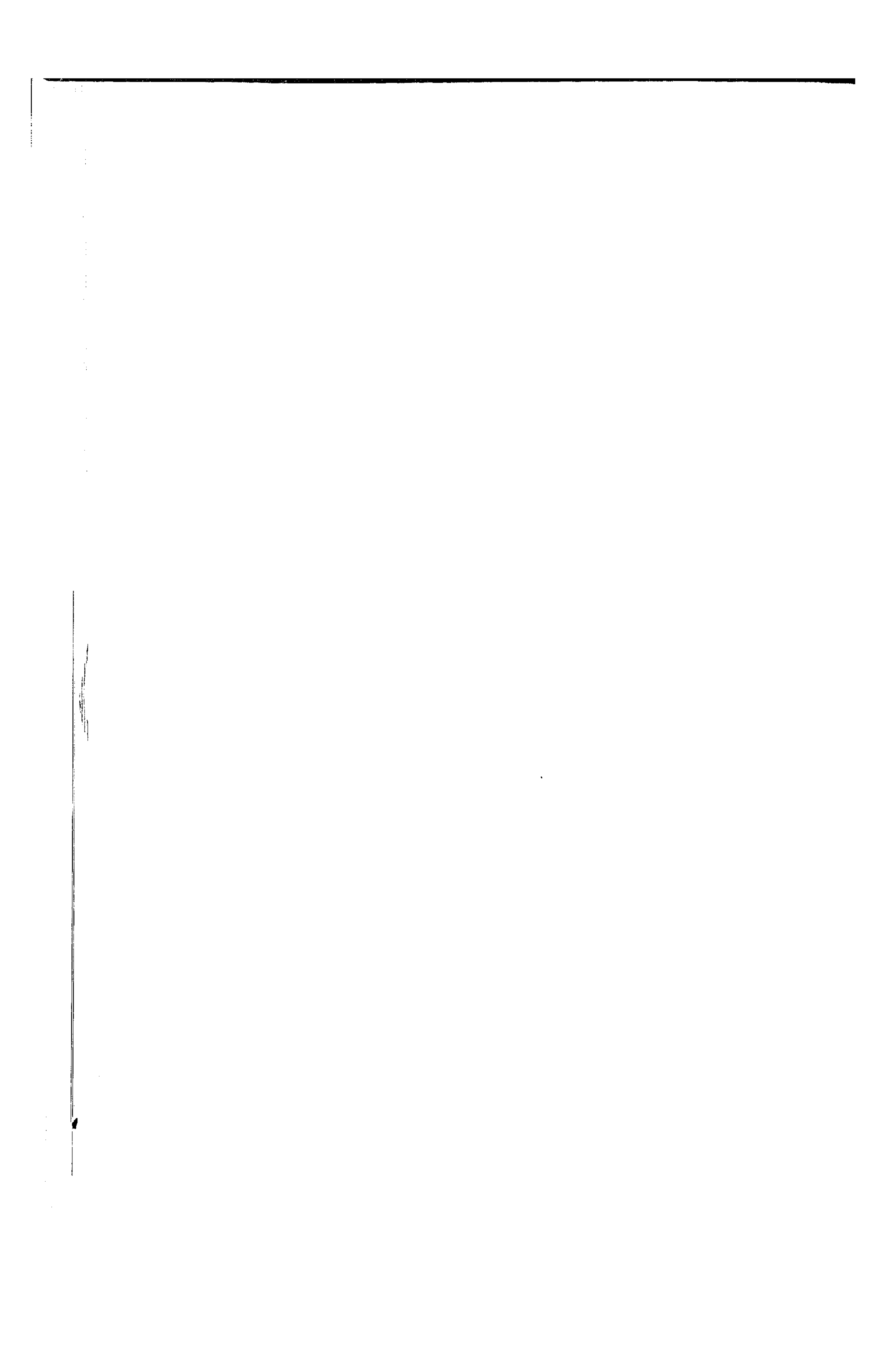
أعطينا صناديق كرتون كبيرة نضع فيها أشياءنا، وكانت بضعة صناديق كافية لحمل كل ما تجمع لدي من ممتلكات على مدى تلك السنوات، وحزمت أمتعتي في غضون نصف ساعة.

لم نتمكن من توديع بقية الزملاء الذين قضينا معهم سنوات طوالا، وهذا جانب آخر من الجوانب المهينة للإنسان في السجن. فعلاقات الود والصداقة بين السجناء لا تعني شيئا بالنسبة لادارة السجن.

في غضون دقائق معدودة كنا على ظهر العبارة التي أقلتنا الى كيب تاون. ألقيت ببصري على الجزيرة وهي تتوارى خلفنا ولم أدر إن كنت سوف أعود إليها مرة أخرى. الإنسان يتعود على كل شيء، وقد تعودت على الجزيرة. لقد قضيت فيها ما يقرب من عقدين من الزمن، ورغم أنها لم تكن موطني - فموطني جوهانسبيرغ - فقد صار مكانا وجدت فيه راحتي. التغيير بالنسبة إلي أمر صعب، وهكذا كان رحيلي عن الجزيرة رغم ما اتسمت به الحياة فيها من كآبة في بعض الأحيان.

في المرفأ أحاط بنا الحراس المسلحون ونقلنا على الفور الي عربة شحن بلا نوافذ. وقفنا في العربة المظلمة على مدى رحلة استغرقت أكثر من ساعة. عبرنا عدة نقاط تفتيش ثم توقفت العربة وفتح بابها الخلفي فخرجنا الى مكان مظلم وصعدنا سلما من الاسمنت ثم دخلنا بابا حديديا الى منطقة أمن. سألت أحد الحراس أين نحن فقال:

- أنتم في سجن بولسمور Pollsmoor Prison.



الفصل العاشر

حوار مع العدو



- ٨٧ -

سجن بوللسمور سجن أمني من الدرجة الأولى ويقع في أقاصي ضاحية توكاي Tokai على بعد بضعة أميال جنوب شرق كيب تاون. وتوكاى ضاحية مزدهرة مخصصة للبيض تمتاز بخضرة أرضها وبيوتها الفارهة الأنيقة. ويحتل مبنى السجن موقعا متوسطا في تلك المنطقة الخلابة من إقليم الكيب بين جبال كونستانتيابيرغ Constantiaberg الى الشمال وبساتين العنب الشاسعة الى الجنوب. غير أن ذلك الجمال لا يراه السجين من وراء جدران السجن الاسمنتية العالية، وفهمت لأول مرة ما انتاب الكاتب البريطاني الشهير أوسكار وايلد Oscar Wilde من رهبة عندما أشار الى "تلك الخيمة الزرقاء التي يسميها السجناء سماء".

وسجن بوللسمور له وجه حديث أما قلبه فبدائي متخلف. فقد كانت المباني المخصصة للحراس وموظفي السجن حديثة ونظيفة أما القسم الخاص بالسجناء فهو قديم تكسوه القاذورات. كل نزلاء بوللسمور من المجرمين ويعاملون معاملة قاسية جدا. فصلونا عنهم، وكانت معاملتنا مختلفة.

لم نتعرف على معالم المكان الجديد إلا في صباح اليوم التالي. خصص لنا نحن الأربعة أحسن قسم في السجن وهو حجرة كبيرة مستطيلة الشكل، طولها نحو خمسين قدما وعرضها نحو ثلاثين قدما، في الطابق الثالث - وهو الأعلى - من المبنى حيث كنا بمفردنا في الطابق بأكمله. كانت الغرفة نظيفة حديثة البناء، بها قسم منفصل يضم مرحاضا وحوضا للبول وحوضين للغسيل وحمامين دوش. كان في الحجرة أربعة أسرة بمستلزماتها وأربعة مناشف وكلها كماليات فارهة بالنسبة لرجال أمثالنا قضوا ثمانية عشر عاما ينامون على فُرُش هزيلة على أرضية صخرية. كانت الغرفة مقارنة بجزيرة روبن كغرفة في فندق من فئة خمسة نجوم.

وكانت في الطابق شرفة مفتوحة واسعة وكأنها ملعب كرة صغير بجدران اسمنتية بيضاء على ارتفاع اثني عشر قدما تقريبا فكنا لا نرى الا السماء ورؤوس جبال كونستانتيابيرغ وخاصة الجزء المعروف باسم عين الفيل Elephant's Eye. كنا نخرج الى الشرفة بالنهار وكنت أحيانا أرى تلك الجبال رأسا لبقية العالم الخارجي كله.

كانت نقلة بعيدة ومفاجئة لم نعرف لها تفسيرا. والمرء في السجن يتوقع التغيرات المفاجئة ولكنه لا يتعودها. ورغم وجودنا على البر الرئيسي من البلاد أحسسنا بعزلة أكبر. لقد تعودنا على الجزيرة وأصبحت محور نضالنا. صار كل منا يبحث عن السلوى لدى الآخرين وقضينا الأسابيع الأولى نقلب الأمور ونتساءل عن سبب نقلنا من الجزيرة. كنا نعلم أن السلطات قلقة وخائفة من تأثيرنا على السجناء الشباب، ولكن يبدو أن للنقل دوافع استراتيجية تهدف الدولة من خلالها الى قطع رأس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في

جزيرة روبن. فقد أصبحت الجزيرة ذاتها رمزا أسطوريا من رموز النضال مما دفع بالسلطة الى القضاء على ذلك الرمز بإبعادنا عنها. كان وولتر وريموند أعضاء مثلي في الجهاز الأعلى، ولكن ما هو تفسير وجود ملانغيني معنا ولم يكن عضوا في الجهاز ولا عنصرا قياديا بارزا في الجزيرة حتى مع افتراض أن السلطات لم تكن تعلم ذلك لضعف تنظيمها الإستخباري في بعض الجوانب.

عزز من افتراضنا وصول أحمد كاثرادا عضو الجهاز الأعلى الى بوللسمور بعد شهور قليلة. والأهم من ذلك أن كاثرادا كان المسؤول عن الاتصالات وصاحب الفضل في توفير قنوات الاتصال بيننا وبين السجناء الجدد.

بعد أسابيع من وصول كاثرادا انضم إلينا سجين لا نعرفه ولم يكن من سجناء الجزيرةوهو باتريك ماقوبيلا Patrick Maqubela وهو محام شاب وعضو في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في إقليم الكيب الشرقي. تأهل ماقوبيلا للمحاماة على يد رجل القانون المرموق غريفيثس مزينغي Griffiths Mxenge الذي ترافع لصالح أعداد كبيرة من أعضاء الحزب واغتيل بالقرب من ديربان قبل ذلك بعام. كان ماقوبيلا يقضي حكما بالسجن عشرين عاما بتهمة الخيانة، ونقل الى بولسمور من دايبكلوف Diepkloof في جوهانسبيرغ حيث تسبب في أزمات كثيرة لنشاطه في تنظيم السجناء هناك.

ارتبنا لدى وصول ضيفنا الجديد وأصابنا شك بأن تكون السلطات زرعته بيننا. ولكن سرعان ما تبين لنا خطأ ذلك الاستنتاج. فقد كان باتريك متوقد الذهن لطيف المعشر لا يهاب أحدا، وساد بيننا انسجام كامل. ولا شك في أنه لم يكن من اليسير على باتريك أن يجد نفسه بين مجموعة من الشيوخ قد تجمدت شخصياتهم على أنماط ثابتة من السلوك وتقاسموا العيش على مدى عقدين من الزمن.

أصبحنا في عالم من الحجر والإسمنت وصرت أحن الى جمال الطبيعة الفسيحة التي اعتادتها نفوسنا في جزيرة روبن. ولكننا عوضنا عن ذلك بطعام أفضل. فبعد أكل عجين الذرة ثلاث مرات في اليوم كانت كل وجبة في بوللسمور وليمة بذاتها لكثرة ما فيها من خضار ولحم. كما سمح لنا بالاطلاع على عدد كبير من الصحف والمجلات منها مجلة تايم Time الأمريكية والغارديان ويكلي Guardian Weekly اللندنية التي كانت نوافذ نطل منها على العالم الأكبر. أحضروا لنا مذياعا يلتقط المحطات المحلية وحدها ولا يلتقط المحطة التي كنا نريد وهي محطة الاذاعة العالمية البريطانية BBC World Service. سمح لنا بالخروج الى الشرفة طول النهار فيما عدا ما بين الثانية عشرة والثانية ظهرا وهو موعد غداء الحراس. لم نكن مجبرين على أداء أي نوع من العمل. كانت بالقرب من الحجرة غرفة صغيرة بها كرسي ومقعد وخزانة للكتب كنت أستعملها للمطالعة والكتابة أثناء النهار.

كنت أستيقظ في الخامسة صباحا وأقضي ساعة ونصف ساعة في التمرينات الرياضية في الحجرة المشتركة، وحافظت على برنامجي السابق من هرولة الى حركات سويدية الى قفز

بالحبل. لم يكن زملائي يستيقظون مبكرا ووجدت نفسي بعد مدة شخصا غير مرغوب فيه بينهم.

زارتني ويني في بوللسمور وسررت بذلك خاصة وأن حجرة الزيارة الطف وأفضل من نظيرتها في الجزيرة. فالحاجز الزجاجي أكبر وبإمكان المرء أن يرى كل النصف الأعلى من ضيفه، ولاقطات الصوت متقدمة يسمع الصوت عبرها بيسر ووضوح. كما يحس المرء عبر الشباك الكبير بالفة ودفء أكبر مع ضيفه، وهو شعور يبعث في النفس الراحة والطمأنينة وإن كان وهميا من نسج الخيال.

كانت الرحلة الى بوللسمور أيسر منها الى الجزيرة وصار من السهل على ويني وبقية أفراد العائلة زيارتي، وكانت مراقبة الزيارات أكثر إنسانية. أشرف على زيارات ويني الضابط جايمس غريغوري James Gregory وكان في السابق رقيبا في الجزيرة. لم أكن أعرفه عن قرب بينما كان هو يعرفنا جيدا لأنه كان المسؤول عن مراقبة الوارد والصادر من رسائلنا في الجزيرة.

وفي بوللسمور توثقت علاقتي بغريغوري ووجدته رجلا لطيفا ليست فيه فظاظة الحراس. كان مؤدبا يتحدث بصوت خفيض، واتسمت معاملته لويني بالأدب والاحترام، وبدلا من أن يطلق تلك الصرخة المعهودة عند انتهاء الزيارة كان يقول بكل أدب:

- بقي من الوقت خمس دقائق ياسيد مانديلا.

جاء في الكتاب المقدس المسيحي أن البستان خلق قبل البستاني، ولكن في بوللسمور كان العكس هو الصحيح. انشأت لي في بوللسمور حديقة كانت من أكثر النشاطات التي أدخلت علي البهجة والسعادة. وكانت السبيل الى الهروب من الحجارة والاسمنت الذي كان يحيط بنا من كل جانب. أجرينا مسحا كاملا للشرفة الفسيحة التي كانت تنعم بنور الشمس طول النهار وتقدمت بطلب إنشاء حديقة فيها فوافقت الادارة. طلبت من إدارة السجن تزويدي بستة عشر برميلا فارغا من براميل الزيت بحجم أربعة وأربعين جالونا، وقص كل منها نصفين وتعبئة كل نصف بتربة مبللة غنية بالسماد فأصبح لدينا اثنان وثلاثون وعاء ضخما لزراعة الزهور والنباتات الخفيفة.

زوعت البصل والباذنجان والكرنب والقرنبيط والفاصوليا والسبانخ والجزر والخيار والشمندر والخس والطماطم والفلفل والفراولة وغيرها كثير. بلغ عدد النباتات ما يقرب من تسعمائة نبات وكانت الحديقة أكبر بكثير من نظيرتها في جزيرة روبن.

اشتريت بعض الحبوب وحصلت على بعضها الآخر من آمر السجن العميد مانرو Brigadier Munro وحراس السجن الذين كانوا مغرمين بالنباتات والخضار. كما زودوني بأنواع جيدة من السماد لتغذية التربة.

كنت ارتدي قفازي وطاقيتي الشمسية كل صباح واتجه الى الحديقة أعمل فيها لمدة ساعتين. وكل يوم أحد أقدم للمطبخ كمية من الخضار لاستعمالها في أكل سجناء القسم

العام. كما أهديت كميات كبيرة من انتاجي للحراس وكانوا يحضرون أكياسا وحقائب يحملون فيها الخضار.

كانت مشاكلنا في بوللسمور أخف بكثير من تلك التي واجهناها في الجزيرة. كان العميد مانرو رجلا طيبا متعاونا سعى بكل ما في وسعه لتوفير ما نطلبه بقدر المستطاع. ولكن رغم ذلك لم نعدم من يهول المشكلات الصغيرة ويضخمها. ذكرت لويني خلال إحدى زياراتها في عام ١٩٨٣ أنني أعطيت حذاء ضيقا آلمني في إصبعي فأقلقها ذلك، وعلمت بعد ذلك بقليل بأن صحفا كتبت تقول إن اصبعا من أصابع قدمي بتر. ونظرا لصعوبة الاتصالات يصبح من السهل أحيانا المبالغة في المعلومات والأخبار وتهويلها في الخارج. فلو كان بإمكاني الاتصال هاتفيا بزوجتي وتزويدها بالخبر الصحيح لما راجت تلك الشائعات. زارتني هيلين سوزمان بعد ذلك بقليل فسألتني عن اصبع قدمي، فقلت في نفسي ليس من رأى كمن سمع فخلعت جوربي ورفعت قدمي عالية كي تراها من خلال الحاجز الزجاجي وحركت إصبعي حركات سريعة لأثبت لها أنه بخير.

اشتكينا من وجود الرطوبة في الحجرة وتعرضنا للبرد، فكتبت الصحف تقول إن الحجرة طفحت فيها المياه. وطالبنا بالسماح لنا بالاتصال ببقية السجناء، وألححنا في طلبنا المعتاد بأن نعامل كسجناء سياسيين.

في مايو ١٩٨٤ حدث أمر أنساني كل المتاعب السابقة. زارتنيويني وزيني وابنة زيني الصغرى، وبدلا من قسم الزيارة المعتاد أخذني الضابط غريغوري الى حجرة مستقلة بها منضدة صغيرة وخالية من الحواجز. أخبرني بصوت خافت أن السلطات غيرت سياسة الزيارات، وكانت أول مرة تسمح بما عرف بالزيارات المفتوحة.

تركني في الغرفة وذهب الى ويني وطلب أن يتحدث إليها على انفراد ففزعت ظنا منها أن شرا قد أصابني. اصطحبها الى الحجرة وفجأة دخلت عليّ ووجدتها بين أحضاني. عانقت زوجتي وقبلتها لأول مرة بعد تلك السنوات الطويلة. إنها اللحظة التي راودتني في الحلم ألف مرة ومرة، وأحسست أنني لا زلت في حلم. أسلمت نفسي لها ونسيت كل ما حولي، وصمت كل شيء عدا قلبي وقلبها. ما كنت أرغب أن أدعها تفلت من ذراعي لولا شوقي لعناق ابنتي فأخذتها في أحضاني ثم حملت ابنتها في حجري. لقد مرت إحدى وعشرون سنة لم ألمس فيها زوجتي لمسة واحدة.

- ٨٨ -

أصبحنا في بوللسمور على اتصال أفضل بما يدور من أحداث في الخارج، وعلمنا أن النضال في تصاعد وأن جهود العدو لكبته ومواجهته في تصاعد هي الأخرى. في عام ١٩٨١ هاجمت قوات دفاع جنوب أفريقيا مكاتب حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في مابوتو Maputo بموزمبيق وقتلت ثلاثة عشر شخصا من بينهم نساء وأطفال. وفي ديسمبر ١٩٨٢ فجرت حركة (أمكا) مركز الطاقة النووية في كوبيرغ Koeberg، وكان تحت الإنشاء، في ضواحي كيب تاون، واستهدفت عددا من المواقع العسكرية والمؤسسات العنصرية في البلاد. كما هاجمت القوات العسكرية في الشهر ذاته أحد مراكز الحزب في ماسيرو Maseru بلوسوتو، وقتلت اثنين وأربعين شخصا بينهم أكثر من عشر نساء وأطفال.

وفي أغسطس ١٩٨٢ قتلت روث فيرست في مابوتو، حيث كانت تعيش في المنفى، إثر انفجار رسالة مفخخة في وجهها. وروث هي زوجة جو سلوفو ومن أبرز وأشجع المناهضين للتفرقة العنصرية، وقد قضت عدة أشهر في الحبس. كانت سيدة ذات جاذبية وشخصية قوية تعرفت عليها إيام دراستي في جامعة ويتس، وقد كشفت جريمة قتلها مدى وحشية الدولة في مطاردتها للمناضلين.

في مايو ١٩٨٣ نفذت (أمكا) أول عملية تفجير بالسيارات المفخخة في قاعدة جوية ومكتب للاستخبارات العسكرية في قلب العاصمة بريتوريا. وجاء ذلك ردا على الهجمات العسكرية ضد مواقع الحزب في ماسيرو وغيرها وتصعيدا واضحا للعمل المسلح. قتل في ذلك الهجوم تسعة عشر شخصا وجرح أكثر من مائتين.

كان قتل المدنيين مؤلما، وفزعت فزعا شديدا لارتفاع عدد الضحايا، ولكنني كنت أعلم جيدا أن تلك نتيجة لا مفر منها لقرار المضي في النضال المسلح. الخطأ البشري عنصر أساسي في الحرب وثمنه باهظ في جميع الأحوال. وقد كان علمنا بهذه الحقيقة المرة هو السبب في ترددنا في اتخاذ ذلك القرار الخطير باستخدام السلاح. ولكن العمل المسلح - كما قال أوليفر إبان ذلك الحادث - فرض علينا فرضا بحكم العنف الذي مارسه النظام العنصري ضدنا.

كان كل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة يعمل على محورين: عسكري وسياسي. فعلى الجبهة السياسة واصلت الحكومة استراتيجية "فرق تسد" بمحاولاتها التفريق بين الأفريقيين والملونين والهنود. وفي استفتاء أجري في نوفمبر ١٩٨٣ ساند البيض خطة بي دبليو بوتا لإنشاء برلمان من ثلاث غرف يضم، إضافة الى البيض، ممثلين عن الهنود والملونين. وكان الهدف من ذلك استيعاب الهنود والملونين في النظام السياسي وفصلهم عن الأفريقيين، غير أن العملية كلها كانت صورية لأن قرارات وأعمال الهنود والملونين البرلمانية خاضعة للنقض من قبل البيض. ومن أهداف تلك الخطة أيضا إيهام العالم الخارجي بأن

الحكومة تسعى الى إدخال إصلاحات على النظام العنصري. ولكن حيلة بوتا لم تنطل على أفراد الشعب، فقاطع أكثر من ثمانين في المائة من الناخبين الهنود والملونين الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٨٤ .

برزت في تلك الأونة حركات سياسية شعبية قوية داخل جنوب أفريقيا ذات صلات بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، كان أهمها الجبهة الديمقراطية المتحدة United Democratic Front التي اختارتني رئيسا لها. تكونت الجبهة لتنسيق الاحتجاج ضد الدستور العنصري الجديد لعام ١٩٨٣ وانتخابات البرلمان الثلاثي المنفصل لعام ١٩٨٤، ولكنها سرعان ما أصبحت منظمة قوية جمعت تحت ظلها ما يزيد عن ستمائة منظمة مناهضة للعنصرية من النقابات العمالية والجمعيات الشعبية والكنسية والاتحادات الطلابية.

وشهد الحزب بعثا جديدا في شعبيته، إذ أشارت استطلاعات الرأي العام أنه أكثر المنظمات السياسية شعبية بين الأفريقيين رغم منع نشاطه منذ ربع قرن من الزمان. لقد استولى النضال ضد العنصرية في جنوب أفريقيا على اهتمام العالم. ففي عام ١٩٨٤ منح الأسقف ديزموند توتو Bishop Desmond Tutu جائزة نوبل للسلام (ورفضت السلطات تسليم رسالة مني للأسقف أهنئه فيها بالجائزة). وتعرضت حكومة جنوب أفريقيا لضغوط عالمية نتيجة العقوبات الاقتصادية التي فرضتها عليها الدول في جميع أنحاء العالم.

دأبت الحكومة على "جس نبضي" منذ عدة سنوات ابتداء من محاولات الوزير كروغر إقناعي بالإقامة في ترانسكاي. لم يكن ذلك في إطار التفاوض، بل كان محاولة لعزلي عن الحزب. فقد قال لي كروغر عدة مرات:

- بإمكاننا التعاون معك يامانديلا، ولكن ليس بإمكاننا التعاون مع زملائك. فكن معقولا وتجاوب معنا.

لم اتجاوب مع تلك العروض والمحاولات، ولكن مجرد استمرارها - بدلا من الهجوم - كان دليلا على أنها مقدمات لمفاوضات حقيقية.

بدأت الحكومة تختبر الأجواء. في أواخر عام ١٩٨٤ وأوائل عام ١٩٨٥ زارني اثنان من أبرز الشخصيات السياسية الغربية هما لورد نيكولاس بيثيل Lord Nicholas Bethell عضو مجلس الشيوخ البريطاني وعضو البرلمان الأوروبي، وساموبل داش Samuel Dash استاذ القانون في جامعة جورجتاون Georgetown University والمستشار السابق في لجنة ووترغيت في مجلس الشيوخ الأمريكي. كانت الزيارتان بموافقة وزير العدل الجديد كوبي كوتسي Kobie Coetsee الذي برز باعتباره أحد شخصيات الجيل الجديد من الأفريكان.

التقيت باللورد بيثيل في مكتب آمر السجن حيث علقت على أحد جدرانه صورة ضخمة للرئيس بوتا. وبيثيل رجل مرح ممتلىء الجسم، وقد مازحته في أول لقاء بسبب بدانته فصافحته قائلا إنه يبدو وكانه من نسل وينستون تشيرشل، فسر لذلك وضحك.

سألني اللورد بيثيل عن أوضاعنا في السجن فأخبرته تفصيلا. تحدثنا عن النضال المسلح

وبينت له أن مسؤولية نبذ العنف تقع على الحكومة مؤكدا أننا نستهدف مواقع عسكرية ولا نتعرض للأبرياء. كان معنا في الحجرة يراقب الحديث الرائد فريتز فان سيتيرتFritz van Sittert فأشرت إليه وقلت:

- إنني لن أسمح على سبيل المثال لعناصرنا باغتيال الرائد فريتز.

كان فريتز مؤدبا قليل الكلام فانتفض لتلك الإشارة.

أما لقائي مع الأستاذ داش فقد بينت فيه ما رأيته حدا أدنى لدولة غير عنصرية في جنوب أفريقيا ويشمل ذلك: توحيد الأراضي وإلغاء المستوطنات العرقية، وإلغاء الانتخابات العرقية، وضمان حق الاقتراع لكل مواطن. سألني الأستاذ داش إن كنت مرتاحا لما أعربت عنه الحكومة من نية في إلغاء قوانين الزواج المختلط وغيرها من قوانين النظام العنصري فقلت:

- إن هذه خطوات لا قيمة لها. فلست أطمح الى الزواج من سيدة بيضاء أو أن أسبح في حمام مخصص للبيض. إن مطلبنا الأساسي هو المساواة السياسية.

وقلت لداش بكل صراحة إننا في الوقت الراهن لا نملك القدرة على هزيمة الحكومة في ميدان المعركة، ولكن بإمكاننا أن نجعل حكمها للبلاد أمرا في غاية الصعوبة.

زارني اثنان من محرري صحيفة واشنطن تايمز Washington Times الأمريكية المحافظة، وكانت زيارة غير موفقة. فلم يكن هدفهما الأول كما يبدو هو التعرف على أفكاري ووجهة نظري بل إثبات أنني شيوعي أو إرهابي، وكانت كل أسئلتهما تصب في ذلك الاتجاه. وعندما حاولت أن أبين لهما أنني لست شيوعيا أو إرهابيا حاولا إقناعي بأنني لست مسيحيا كذلك. فأشارا الى أن القسيس الأمريكي الأسود مارتن لوثر كينغ Martin Luther King لم يلجأ الى استعمال العنف. قلت إن البيئة التي ناضل فيها مارتن لوثر كينغ تختلف اختلافا كاملا عن البيئة التي أناضل فيها. فالولايات المتحدة بلد ديمقراطي فيه ضمانات دستورية بالمساواة في الحقوق تحمي الاحتجاج السلمي (رغم التعصب العنصري ضد السود)، أما جنوب أفريقيا فهي دولة بوليسية يقوم دستورها لحماية التمييز العنصري ويرد جيشها على العمل السلمي بقوة السلاح. قلت إنني مسيحي طول حياتي، وإن المسيح نفسه لم يجد بديلا لاستعمال القوة عندما عجز عن طرد المرابين من المعبد. لم يكن المسيح رجل عنف ولكن أعوزته الحيلة في مواجهة الشر فلجأ الى القوة. ولكنني لا أعتقد أنهما اقتنعا بما قلت.

وجد بي دبليو بوتا نفسه يواجه اضطرابات في الداخل وضغوطا من الخارج فأقدم على إجراء فاتر جدا كحل وسط. ففي نقاش في البرلمان في ٣١ يناير ١٩٨٥ أعلن الرئيس على الملأ استعداده لإطلاق سراحي إن أنا "رفضت العنف وسيلة سياسية رفضا غير مشروط"، وشمل العرض جميع السجناء السياسيين. ثم قال وكأنه يتحداني علنا:

- ولذا فإن حكومة جنوب أفريقيا لم تعد العائق أمام حرية السيد مانديلا، ولكن العائق هو مانديلا نفسه.

وصلتني إشارات من السلطات بأن الحكومة مقدمة على تقديم عرض يتعلق بإطلاق سراحي ولكنني لم أتوقع أن يأتي ذلك في إعلان رسمي من رئيس الدولة أمام البرلمان. كان ذلك حسب تقديري العرض المشروط السادس من نوعه على مدى السنوات العشر الماضية. بعد الإستماع لكلمة الرئيس في الاذاعة تقدمت بطلب لأمر السجن بلقاء مستعجل مع زوجتي ومحاميّ اسماعيل أيوب قبل أن أعد ردي على ما عرضه الرئيس.

مضى أسبوع قبل أن يسمح لويني واسماعيل بزيارتي فوجهت خطابا في تلك الأثناء الى وزير الخارجية بيك بوتا Pik Botha أرفض فيه شروط إطلاق سراحي. كما عكفت على إعداد ردي الرسمي على الرئيس. حرصت من خلال الرد على تحقيق أكثر من هدف لأن عرض الرئيس كان محاولة لدك اسفين بيني وبين زملائي بإغرائي بالقبول بسياسة يرفضها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. أردت أن أؤكد للحزب ولأوليفر تامبو على وجه الخصوص أن ولائي للحزب أمر غير قابل للنقاش. وأردت أن أوحي للحكومة بأنني في الوقت الذي أرفض فيه عرضها نظرا للشروط المرتبطة به، فإنني أؤمن بأن المفاوضات وليس الحرب هي السبيل الى الحل. كان بوتا يهدف الى الإلقاء بالمسؤولية على العنف على كاهلي ولكنني أردت التأكيد أمام العالم على أننا إنما نستجيب للعنف الذي يمارس ضدنا. وكنت أود أن أبين أنني لو غادرت السجن لأجد الأوضاع والظروف نفسها التي كانت قائمة عندما دخلته فسأضطر الى مواصلة النشاطات والأعمال نفسها التي اعتقلت بسببها.

التقيت بويني واسماعيل يوم الجمعة، وكان من المقرر أن تنظم الجبهة الديمقراطية المتحدة يوم الأحد لقاء شعبيا في استاد يابولاني Jabulani Stadium في سويتو يعلن فيه ردي الرسمي على عرض الحكومة. راقب الزيارة حراس لم أكن أعرفهم معرفة جيدة، وعندما بدأنا نبحث ردي على الرئيس قاطعنا أحدهم يذكرنا بعدم التحدث في غير الشؤون العائلية. تجاهلت ما قال فعاد بعد دقائق ومعه حارس برتبة أعلى لم أكن أعرفه، فأمرني ألا أتحدث في أمور سياسية. أشرت الى أنني أبت في قضية ذات أهمية قومية تتعلق بعرض من رئيس الدولة، وإن كان يصر على منعي من مواصلة النقاش فإن عليه الحصول على موافقة رئيس الدولة شخصيا. خاطبته بنبرة جافة قائلا:

- إذا لم تتصل الآن برئيس الدولة هاتفيا وتحصل منه على أمر بإيقاف الحديث، فأرجوك ألا تقاطعنا مرة أخرى.

تركنا الحارس وشأننا، فسلمت لاسماعيل وويني الخطاب الذي أعددته. أعربت في الخطاب عن شكري للجبهة الديمقراطية المتحدة على جهودها الرائعة وحييت الأسقف توتو على نيله جائزة نوبل للسلام وقلت إنها جائزة للشعب بأكمله. قرأت الرد ابنتي زيندزي يوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥ وسط هتاف الجماهير الذين لم يسمح لهم القانون في جنوب أفريقيا بسماع كلامي أو قراءته لأكثر من عشرين عاما.

زندزي كأمها متحدثة ممتازة. افتتحت الخطاب بقولها إن الأجدر لو كان أبوها في الميدان

ليلقي الخطاب بنفسه. ولكنني كنت فخورا بأنها هي التي ألقته نيابة عني. جاء في الخطاب ما يلي:

أنا عضو في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كنت وسأظل عضوا في هذا الحزب طول حياتي. أوليفر تامبو أعز عليّ من أخي وهو أعز صديق ورفيق لأكثر من خمسين عاما. وأوليفر يتمنى حريتي أكثر من أي إنسان آخر وأنا على يقين بأنه مستعد لفداء حريتي بحياته...

إنني لأستغرب للشروط التي تعتزم الحكومة أن تقيدني بها. فأنا لست برجل عنف. ولم نلجأ الى النضال المسلح إلا عندما سُدت في وجوهنا جميع أبواب المقاومة الأخرى. فليرنا بوتا أنه يختلف عن أسلافه : مالان وسترايدوم وفيرفورد. فلينبذ بوتا العنف وليعلن أمام الملأ استعداده للقضاء على نظام التفرقة العنصرية، وليرفع الحظر عن منظمة كل الشعب، حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وليطلق سراح جميع المسجونين والمبعدين عن أرض الوطن والمنفيين بسبب معارضتهم لنظام التفرقة العنصرية. فليضمن بوتا حرية العمل السياسي كي يختار الشعب من يحكمه.

إنني أعتز بحريتي أيما اعتزاز، ولكنني أكثر حرصا على حريتكم. لقد سقطت أرواح الكثيرين منذ أن دخلت السجن، وقد عانى الكثيرون من أجل الحرية، وأنا مدين لأراملهم وأبنائهم اليتامى وأمهاتهم الثكلى وآبائهم الذين حزنوا عليهم وذرفوا الدموع. لست وحدي الذي عانيت طول هذه السنين الكئيبة الضائعة، ولا أحب الحياة أقل مما تحبونها. ولكنني لن أفرط في حقي الأصيل، ولست مستعدا لأن أفرط في حق هذا الشعب في أن يعيش حرا....

ماذا تعني تلك الحرية التي يعرضونها عليّ إذا ظل حزب كل الشعب محظورا؟ وماذا تعني تلك الحرية التي سأعيش بمقتضاها مع أسرتي وما تزال زوجتي مبعدة في براندفورد؟ وماذا تعني تلك الحرية مادمت في حاجة الى إذن رسمي لكي أعيش في مدينة ما؟ وأي حرية تلك التي تعرض عليّ والعالم لا يحترم جنسيتي كمواطن من جنوب أفريقيا؟

إن الأحرار وحدهم هم القادرون على التفاوض، أما السجناء فلا حق لهم أن يبرموا الاتفاقيات. وعليه فلن أتعهد بشيء مادمت لا أملك حريتي، ومادمتم أنتم ياأبناء هذا الشعب لا تملكون حريتكم. فحريتكم هي حريتي ولا يمكن الفصل بينهما. إنني عائد.

- ٨٩ -

عرضت في عام ١٩٨٥ على الطبيب لإجراء فحص عام فأحالني على جراح الجهاز البولي فنصح بإجراء عملية على البروستاتا، وقال إنها عملية روتينية سهلة. تشاورت مع أسرتي واتفقنا على إجراء العملية.

نقلت الى مستشفى فولكس Volks Hospital في كيب تاون تحت حراسة مشددة. وصلت ويني بالطائرة والتقينا قبل العملية. ولكن كانت هناك زيارة أخرى مفاجئة من زائر غير متوقع هو كوبي كوتسي وزير العدل. كنت قبل ذلك بقليل وجهت خطابا الى كوتسي الح فيه على عقد لقاء لمناقشة المباحثات بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة ولم أتسلم الرد. جاء صباح ذلك اليوم الى المستشفى بدون إشعار سابق وكأنه يزور صديقا قديما أقعده المرض بضعة أيام. كان لطيفا ومؤدبا للغاية، وقضينا أكثر الوقت في المجاملات. كنت في غاية الاندهاش رغم تظاهري بعكس ذلك تماما. لقد بدأت الحكومة، بأسلوبها البطيء المتردد، تقتنع بضرورة التوصل الى اتفاق مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكانت زيارة كوتسي هي غصن الزيتون في تلك العملية.

لم نتطرق الى الحديث في الأمور السياسية ولكنني أشرت الى وضع زوجتي. فقد ذهبت ويني في أغسطس الى جوهانسبيرغ لتلقي علاج طبي، ولم يكن يسمح لها بالسفر خارج براندفورد إلا لزيارتي أو زيارة الطبيب. وأثناء وجودها في جوهانسبيرغ تعرض بيتها للتدمير والهجوم بالقنابل الحارقة، فلم تعد تملك بيتا تقيم فيه. قررت الإقامة في جوهانسبيرغ رغم أنها ممنوعة من ذلك، وبعد أيام تسلمت خطابا من شرطة الأمن يقول إن بيتها في براندفور قد رمم وعليها الرجوع إليه فرفضت الامتثال لذلك الأمر. فكان الطلب الذي تقدمت به الى كوتسي هو السماح لويني بالبقاء في جوهانسبيرغ وعدم إجبارها على الرجوع الى براندفورد. قال إنه لن يعد بشيء ولكنه سينظر في الأمر فشكرته.

قضيت في المستشفى بضعة أيام للإستجمام، وعندما حان الوقت لمغادرته جاء آمر السجن العميد مانرو شخصيا لمرافقتي، وهو أمر غير معتاد، فثارت في نفسي شكوك.

وفي الطريق قال لي مونرو وبصورة عرضية جدا:

- لن نعود بك يامانديلا الى أصدقائك.

فسألته ماذا يعني فأجاب:

- من الآن فصاعدا ستكون بمفردك.

سألته عن الأسباب فهز رأسه قائلا:

- لست أدري، فقد وصلتني هذه التعليمات للتو من القيادة العامة.

تطور غامض جديد، ولكن بدون مقدمات أو تفسير.

في بوللسمور أخذت الى زنزانة مختلفة في الطابق الأرضي من المبنى وفي جناح مختلف تماما. وضعت تحت تصرفي ثلاث غرف يتبعها حمام منفصل، إحداها للنوم والثانية للمطالعة والثالثة للتمرينات الرياضية. أصبحت بمقاييس السجن أعيش في قصر ولكن الغرف كانت مشبعة بالرطوبة ونصيبها من ضوء الشمس ضئيل جدا. لم استفسر من العميد عن شيء لعلمي أن القرار لم يكن قراره. وجدت نفسي في حاجة الى تأمل ما يكمن وراء ذلك التطور وما هي الأسباب التي دعت الحكومة لاتخاذ تلك الخطوة.

ربما كنت مبالغا لو قلت إن ما حدث بعد ذلك كان مفاجئا، ولكنني فطنت خلال الأيام والأسابيع التالية الى أن ظروفي الجديدة نعمة وليست نقمة. لم أكن سعيدا ببعدي عن زملائي وصرت أحن الى حديقتي والى الشمس المشرقة في شرفتنا بالطابق الثالث. ولكن عزلتي تلك هيأت لي الفرصة لإنجاز مهمة طالما فكرت فيها لمدة طويلة، وهي الدخول في مفاوضات مع الحكومة. لقد صرت مؤمنا بأن الوقت قد حان للدفع بالنضال الى الأمام عن طريق التفاوض. فما لم نبدأ حوارا في المستقبل القريب فسيجد كل من الطرفين نفسه في ليل بهيم من الظلم والعنف والقتال. خلوتي إذن فرصة ذهبية لاتخاذ الخطوة الأولى على ذلك الطريق بعيدا عن الأنظار التي ربما كان من شانها اجهاض جهودي في ذلك الاتجاه.

حاربنا حكم الأقلية البيضاء ثلاثة أرباع قرن، وخضنا النضال المسلح لأكثر من عقدين من الزمن. أزهقت أرواح كثيرة من الطرفين، وظل العدو محافظا على قوته وتصميمه. ورغم قنابله ودباباته فلا بد أن العدو احس بانه يرتكب خطأ تاريخيا فادحا. فالحق في صفنا، ولكننا لا نملك القوة بعد، وأصبح واضحا في ذهني أن النصر العسكري حلم بعيد إن لم يكن مستحيلا. والواقع أنه لم يعد من الحكمة أو المعقول أن يستمر الطرفان في فقدان آلاف - إن لم نقل ملايين - الأرواح في حرب لا ضرورة لها. ولا بد أن الحكومة قد آمنت بأن الوقت قد حان للحوار.

والحوار موضوع حساس جدا لأن كلا الطرفين يعتبره علامة ضعف وخيانة. لن يقبل أي من الطرفين بالجلوس الى طاولة المحادثات ما لم يقدم الطرف الآخر تنازلات هامة. فقد أكدت الحكومة مرارا وتكرارا على أننا منظمة ارهابية من الشيوعيين، وكان ذلك الادعاء جزءا من عقيدة الحزب الوطني الحاكم. أما حزب المؤتر الوطني الأفريقي فقد أكد مرارا وتكرارا على أن الحكومة فاشية عنصرية لا مجال للحديث معها حتى ترفع الحظر عن الحزب وتطلق سراح جميع السجناء السياسيين بدون شروط وأن تسحب قواتها من مدن الضواحي الأفريقية.

قرار الحوار مع الحكومة قرار ذو أهمية خاصة لا يمكن البت فيه إلا في لوساكا حيث قيادة الحزب ولكنني شعرت بالحاجة الى الشروع في الحوار ولا أملك الوقت أو الوسيلة للاتصال بأوليفر. كان من الضروري أن يبادر أحد من طرفنا الى اتخاذ الخطوة الأولى على

طريق الحوار، وجاءت خلوتي هذه لتعطيني الحرية والثقة، ولو لفترة قصيرة، لأن أقوم بتلك المبادرة في جو من الكتمان والسرية.

أصبحت في نوع من العزلة الحالمة. لم يكن يفصلني عن زملائي سوى ثلاثة طوابق ولكنهم كما لو كانوا في جوهانسبيرغ. كنت احتاج الى تقديم طلب رسمي لزيارتهم يوافق عليه المكتب الرئيسي في بريتوريا وربما استغرق ذلك عدة أسابيع. وإن زرتهم فعليّ مقابلتهم في صالة الزيارة. كان وضعا غريبا ذلك الذي صار فيه زملاء الأمس زوار اليوم. عشنا معا عدة سنوات امتدت أحاديثنا فيها الى ساعات كل يوم، وأصبحنا الآن في حاجة الى إذن رسمي وتحديد مواعيد لكي نلتقي ونتحدث تحت رقابة عيون الحراس.

طلبت لقاء بزملائي بعد أيام من اقامتي في زنزانتي الجديدة فوافق آمر السجن فالتقينا لمناقشة ملابسات نقلي. أعرب وولتر وأحمد وريموند عن غضبهم وكانوا يرغبون في تقديم احتجاج شديد اللهجة والمطالبة بإعادة الوضع لما كان عليه سابقا. كان ردي على غير ما يتوقعون إذ قلت إنني لا أرى داعيا لمعارضة هذا القرار. أشرت الى أن سكني الجديد أفضل بكثير من السابق وربما كان ذلك سابقة تتبع بالنسبة لجميع السجناء السياسيين. ثم قلت بشيء من الغموض:

– لعل في هذا كله خيرا كبيرا. إنني الآن في وضع يسمح للحكومة بأن تفاتحني بأي عرض.

لم يحفل زملائي كثيرا بهذا التفسير وهو ماكنت أتوقعه.

اخترت ألا أخبر أحدا بما أنا مقدم عليه بما في ذلك زملائي في الطابق الثالث وزملائي في لوساكا. نعم، حزب المؤتمر الوطني الأفريقي منظمة جماعية ولكن الحكومة جعلت القرار الجماعي أمرا مستحيلا. لم يتوفر لي الأمن أو الوقت لمناقشة تلك القضايا مع التنظيم. كنت على يقين بأن زملائي في الطابق الثالث سيرفضون مقترحي فيقضي ذلك الرفض على المبادرة قبل أن تولد. فهناك ظروف وأحوال يحتاج فيها القائد الى أن يسبق أتباعه وأن يغير اتجاهه وهو واثق من أنه يسير بهم في الطريق الصحيح. أما إذا آلت الأمور الى الأسوأ فإن عزلتي تبرىء ذمة التنظيم، إذ بإمكانه أن يقول إنني شيخ كبير وجدت نفسي معزولا تماما عن العالم فاتخذت قرارات بصفتي الشخصية وليس كممثل لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

- ٩٠ -

بعد أسابيع قليلة وجهت خطابا الى كوبي كوتسي اقترح فيه عقد محادثات حول المحادثات، وكما هي العادة لم أتلق ردا. عاودت الكرة ولم يصل الرد، فاستغربت وأصبت بخيبة أمل. ولكنني فطنت الى ضرورة تحين الفرصة المناسبة لتوصيل رغبتي للجهات المعنية. وجاءت تلك الفرصة فعلا في أوائل عام ١٩٨٦ .

أخفق قادة دول الكومونويلث البريطاني في اجتماعهم في ناسو Nassau في أكتوبر ١٩٨٥ في التوصل الى اتفاق بشأن المشاركة في العقوبات الدولية ضد جنوب أفريقيا. وكان ذلك تحديدا بسبب تصلب رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت ثاتشر Margaret Thatcher في معارضة العقوبات. وللخروج من تلك الأزمة اتفق ممثلو الدول المشاركة على ارسال وفد من "شخصيات مرموقة" لزيارة جنوب أفريقيا ثم رفع تقرير حول ما إذا كانت العقوبات هي الوسيلة المناسبة لإنهاء النظام العنصري هناك. شكلت مجموعة الشخصيات المرموقة من سبعة أعضاء أبرزهم الجنرال أولوسيغون أوباسانجو Olusegun Obasanjo، زعيم نيجيريا العسكري السابق، ومالكولم فرايزر Malcolm Fraser رئيس وزراء استراليا السابق، ووصلت الى جنوب أفريقيا في أوائل عام ١٩٨٦ في مهمة لتقصي الحقائق.

في فبراير زارني الجنرال أوباسانجو لمناقشة طبيعة مهمة الوفد، وأعرب عن رغبته في أن التقي ببقية أعضاء الوفد، وبعد موافقة الحكومة حدد موعد لذلك الغرض في مايو. كان من المقرر أن تلتقي اللجنة بالحكومة بعد اجتماعها بي فرأيت أن تلك هي الفرصة المناسبة لإثارة موضوع المفاوضات بيني وبين الحكومة.

اعتبرت الحكومة لقائي باللجنة أمرا فوق العادة. قبل يومين من موعد اللقاء زارني الجنرال مونرو وكان بصحبته خياط فقال:

- إننا يامانديلا نريدك أن تلتقي بهؤلاء الناس على قدم المساواة، ولا نريدك أن تظهر بملابس السجن. وهذا الخياط سيأخذ مقاساتك كي يجهز لك بذلة تليق بك.

كان الخياط صاحب مهارة فائقة إذ عاد الي في اليوم التالي ببذلة فاخرة لاقت عليّ كأحسن ما تليق البذل. وأعطيت كذلك قميصا وربطة عنق وحذاءً وجوربا وملابس داخلية. أعجب آمر السجن بهيئتي الجديدة وقال باسما:

- لم تعد سجينا يامنديلا، وأصبحت تبدو وكأنك رئيس وزراء.

حضر لقائي مع لجنة الشخصيات المرموقة مراقبان هامان هما كوبي كوتسي والفريق دبليو أتش ويليمس W H Willemse مفوض السجون. كانت مهمة المراقبين كمهمة ذلك الخياط: قياس أبعادي، رغم أنهما - للغرابة - غادرا بعد بداية الجلسة بقليل. ألححت عليهما أن يبقيا معنا وقلت ليس عندي ما أخفيه على أحد، ولكنهما غادرا على أي حال.

وقبل أن يغادرا قلت لهما إن الوقت قد حان للتفاوض وإيقاف التقاتل وإن على الحكومة والحزب أن يجلسا على مائدة المحادثات.

جاءت اللجنة بعدة مقترحات تتعلق بالعنف والمفاوضات والعقوبات الدولية. حددت منذ بداية اللقاء قواعد الحديث فقلت:

- أنا لست المسؤول على الحزب. مسؤول الحركة هو أوليفر تامبو وهو مقيم في لوساكا، وعليكم أن تذهبوا لمقابلته. لكم أن تنقلوا إليه وجهة نظري ولكنها وجهة نظري الشخصية ولا تعبر حتى عن وجهة نظر زملائي الآخرين من السجناء. ولكنني أقول بعد هذا إنني أؤيد دخول حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في محادثات مع الحكومة.

عبر بعض أعضاء اللجنة عن تخوفاتهم بشأن عقيدتي السياسية وعن طبيعة جنوب أفريقيا كدولة تحت قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. قلت إنني قومي الاتجاه ولست شيوعيا، وإن القوميين ينتمون لمدارس وتوجهات مختلفة، وإنني ملتزم التزاما كاملا بمجتمع غير عنصري. قلت إنني أؤمن بما جاء في ميثاق الحرية الذي تضمن مبادىء الديمقراطية وحقوق الإنسان ولا يمكن اعتباره برنامجا اشتراكيا. تحدثت عن حرصي بأن تشعر الأقلية البيضاء بالأمان في جنوب أفريقيا الجديدة. وقلت إن أغلب مشاكلنا تعود الى غياب الاتصال بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وإن كثيرا منها يمكن أن يحل عن طريق المحادثات.

تساءل أعضاء اللجنة بإسهاب عن العنف. وبينما كنت غير مستعد آنذاك لنبذ العنف أكدت بأقوى العبارات على أن العنف لن يكون أبدا الحل النهائي للوضع في جنوب أفريقيا وأن طبيعة البشر تحتم عليهم التفاهم من خلال الحوار والمفاوضات. وأكدت من جديد على وجهة نظري الشخصية التي لا تمثل رأي الحزب هي لو أن الحكومة سحبت الجيش والشرطة من ضواحي المدن فربما وافق الحزب على إيقاف النضال المسلح تمهيدا للمحادثات. وأكدت للجنة أن مجرد إلقاء سراحي وحده لن يوقف العنف ولن يحرك الناس نحو المفاوضات.

قررت اللجنة الذهاب الى مقابلة أوليفر في لوساكا واللقاء مع المسؤولين في بريتوريا. وحاولت في حديثي أن أوجه كلاما للطرفين. فكنت حريصا أن ترى الحكومة أننا في الظروف المناسبة على استعداد للحوار، وأن يعلم أوليفر أن لا فرق بين موقفي وموقفه.

تقرر أن ألتقي لقاء أخيرا باللجنة في مايو. كنت متفائلا، إذ ذهبت اللجنة الى لوساكا وبريتوريا، وكنت أرجو أن بذور المفاوضات زرعت في أرض صالحة. ولكن الحكومة أقدمت، يوما واحدا قبل لقائي بلجنة الكومونويلث، على خطوة كادت تنسف كل ما حققته اللجنة من حسن نية بين الطرفين. ففي اليوم المقرر لاجتماع اللجنة بالحكومة شنت قوة دفاع جنوب أفريقيا وقوات خاصة، بأمر من الرئيس بوتا، هجمات جوية على مواقع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في بوتسوانا وزامبيا وزمبابوي. سممت تلك الهجمات أجواء المحادثات بالكامل وغادرت لجنة الشخصيات المرموقة جنوب أفريقيا خالية الوفاض،

وأحسست مرة أخرى أن كل جهودى لدفع الطرفين الى المفاوضات قد توقفت على حين فجأة.

دعا أوليفر تامبو وقادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الشعب في جنوب أفريقيا الى إحلال الفوضى في البلاد، وكان الشعب متهيئا للإستجابة. بلغت الاضطرابات وحالة العنف السياسي مستويات لم تشهدها البلاد من قبل، واجتاحت البلاد عاصفة هائلة من الغضب والسخط، وأصبحت ضواحي المدن المخصصة للسود في حالة غليان. كما ازدادت الضغوط الدولية يوما عن يوم. في ١٢ يونيو ١٩٨٦ أعلنت الحكومة حالة الطوارىء في محاولة للسيطرة على الأوضاع. كانت كل المؤشرات تؤكد أن الوقت غير ملائم للمفاوضات، ولكن - كما هو الحال في أغلب الأحيان - فإن اشتداد الأزمة علامة على قرب الفرج ولحظات الإحباط هي أنسب اللحظات للمبادرات الشجاعة. فهي اللحظات التي يبحث فيها الجميع عن مخرج من الأزمة. في ذلك الشهر كتبت رسالة مختصرة الى آمر السجن الجنرال ويلليمس قلت فيها: "أود التحدث إليك في موضوع يهم الشأن الوطني" وسلمتها للعميد مانرو يوم الاربعاء.

أخبروني في نهاية ذلك الأسبوع بالاستعداد لمقابلة الجنرال القادم من بريتوريا. لم يخضع اللقاء للاجراءات الروتينة المعتادة، وبدلا من الاجتماع في قسم الزوار ذهبت الى الجناح المجاور للسجن حيث يقيم الجنرال.

يتميز ويلليمس بالحزم. دخلنا في صلب الموضوع فورا. أخبرته بأنني أرغب في مقابلة وزير العدل كوبي كوتسي. فلما سألني عن الغرض ترددت قليلا لأنني لم أكن أرغب في مناقشة أمور سياسية مع مسؤول في مصلحة السجون، ولكنني أجبت بصراحة قائلا:

- أرغب في مقابلة الوزير لمناقشة موضوع المحادثات بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

أطرق مليا ثم قال:

- كما تعلم يامانديلا أنا لست سياسيا، وليس بإمكاني شخصيا مناقشة هذه المسائل لأنها خارج صلاحياتي.

توقف ثم تابع الحديث وكأن فكرة جديدة قد طرأت عليه، فقال:

- ولكن من حسن الصدف فإن الوزير موجود حاليا في كيب تاون، ولعله يتمكن من مقابلتك. سوف أتحرى الأمر.

اتصل الجنرال هاتفيا بالوزير وتحدث معه بضع لحظات. وضع السماعة واتجه الى قائلا:

- الوزير يدعوك لمقابلته متى شئت.

في غضون دقائق كنا في سيارة الجنرال متجهين الى بيت الوزير في كيب تاون. كانت الاحتياطات الأمنية خفيفة إذ لم ترافقنا سوى سيارة أمن واحدة فقط. وجدت نفسي

أتساءل إن كانت الحكومة قد خططت لهذا اللقاء مسبقا نظرا الى أنه تم بكل سرعة وسهولة. لم يكن ذلك بالأمر المهم، إذ المهم أن اللقاء فرصة لاتخاذ الخطوة الأولى على طريق المفاوضات.

استقبلني كوتسي في منزله بالمدينة بحرارة وجلسنا على مقاعد وتيرة في صالة الاستقبال. كنت بملابس السجن فاعتذر لي على عدم إعطائي فرصة لتغيير ملابسي. قضيت مع الوزير ثلاث ساعات وأعجبت بحنكته وكياسته واستعداده للإستماع. سألني أسئلة ذكية ووجيهة أكدت لي المامه بقضايا الخلاف بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكانت في صلب الموضوع. ما هي الظروف التي يمكننا بموجبها إيقاف النضال المسلح؟ هل أتحدث باسم الحزب ككل أم لا؟ هل أتصور ضمانات دستورية لحماية الأقليات في جنوب أفريقيا؟

أجبته بالروح نفسها التي خاطبت بها لجنة الكومونويلث، وأحسست أنه يرغب في حسم النزاع، إذ سألني:

– ما هي الخطوة التالية في رأيك؟

قلت إنني أرغب في مقابلة رئيس الدولة ووزير الخارجية بيك بوتا فسجل ملاحظة في مفكرة صغيرة كانت بجانبه ووعد بإبلاغ طلبي للجهة المعنية عبر القنوات الرسمية. تصافحنا وعدت الى خلوتي في الطابق الأرضي بسجن بوللسمور. انتابني شعور قوي بالتفاؤل، وأحسست بأن الحكومة حريصة على تجاوز المازق الذي وقعت فيه البلاد، وأنها مقتنعة بضرورة التنحي عن موقفها القديم. بدأت أرى في الأفق المعالم الرئيسية لصيغة حل مقبول لدى الطرفين.

لم أخبر أحدا باللقاء وكنت حريصا على أن تأخذ الأمور مجراها الطبيعي قبل أن يعلم غيري بما يجري. فمن الضروري أحيانا أن يضع المرء زملائه أمام سياسة الأمر الواقع. كنت على يقين بأن زملائي الذين في السجن وأولئك الذين في لوساكا سيدعمون موقفي عندما يتفحصون الأمر بدقة وعناية. ولكن، كالعادة، سكنت الأمور ولم تتحرك بعد تلك البداية المتفائلة. مرت أسابيع وشهور ولم تصلني كلمة واحدة من كوتسي. استبد بي الضجر فكتبت له رسالة أخرى.

- ٩١ -

لم اتسلم ردا مباشرا من كوبي كوتسي ولكن ظهرت مؤشرات في الأفق تدل على أن الحكومة تعد لتغييرات في وضعي الشخصي. ففي اليوم السابق لعيد ميلاد المسيح دخل زنزانتي المقدم غاوي ماركس Gawie Marx نائب آمر السجن وقال بطريقة عرضية:

- هل لديك رغبة يامانديلا في جولة حول المدينة؟

لم أدرك بالتحديد ما كان يرمي إليه، ولكنني لم أر ضررا في الموافقة، فرحبت بالفكرة. تهللت أساريره وطلب مني أن أتبعه. مشيت الى جانبه عبر الأبواب الحديدية الخمسة عشرة التي تفصل بين زنزانتي والمدخل الرئيسي للسجن وخرجنا فوجدنا سيارته في انتظارنا أمام السجن.

اتجهنا نحو مدينة كيب تاون وانطلقت بنا السيارة في الشارع الجميل المحاذي للشاطيء دون أن يحدد وجهة بعينها، وكنا نخترق شوارع المدينة وكأننا في نزهة سياحية. شدّت نظري مشاهد الناس يروحون ويجيئون لقضاء حاجاتهم في ذلك العالم الفسيح. تهت ببصري بين الشيوخ والعجائز وهم يستمتعون بدفء الشمس، وبين السيدات وهن يتسوقن وبين أناس يقودون كلابا. إنها مشاهد عادية ولكن المرء يفتقدها في السجن، فصرت وكأنني سائح في بلد ساحر غريب.

بعد نحو ساعة توقف الضابط ماركس أمام دكان صغير في أحد الشوارع الهادئة وسألني:

- هل ترغب في شراب بارد؟

هززت رأسي موافقا فدخل الدكان وبقيت بمفردي انتظره في السيارة. مرت لحظات لم أنتبه لما أنا عليه، وفجاة انتابني شعور بالاضطراب. إنها المرة الأولى منذ اثنين وعشرين عاما أجد نفسي خارج السجن وبدون حراسة. خيل لي أنني أفتح الباب وأقفز الى خارج السيارة وأجري ثم أجري حتى أتوارى عن الأنظار. هناك شعور داخلي يدفعني الى ذلك، وظهرت أمامي منطقة ذات أشجار كثيفة يمكنني أن أختبأ فيها. شعرت بتوتر شديد وبدأ العرق يتصبب من جبيني، وتساءلت: أين الضابط؟ تمالكت نفسي بعد لحظات وفطنت الى انعدام الحكمة في تصرف من هذا القبيل. إنه تصرف غير مسؤول ومحفوف بالمخاطر. خطر لي أن العملية كلها ربما كانت مفتعلة لاختباري بإعطائي فرصة الهروب، ولكن من السمتبعد أن يكون الأمر كذلك. زالت غمتي حين رأيت الضابط عائدا الى السيارة وفي يده علبتا كوكاكولا.

تبين لي فيما بعد أن تلك الرحلة هي الأولى من عدة رحلات اصطحبني فيها الضباط على مدى بضعة أشهر الى عدد من المواقع والمشاهد الجميلة في كيب تاون وما حولها.

ومن الأماكن التي ترددت عليها كثيرا المنطقة المعروفة باسم"الحدائق" وهو مجموعة حقول مجاورة للسجن تزرع فيها الخضار والمحاصيل التي تستعمل في مطبخ السجن. استمتعت بالطبيعة الفسيحة وبمشاهد الأفق وبحرارة الشمس تلفح كتفيْ.

كنا ذات يوم نتمشى في "الحدائق" فدخلنا اصطبلا به رجلان من البيض بملابس العمال فاقتربت منهما اتفحص الخيل وأعرب عن إعجابي بها. سألت أحد الرجلين ما هو اسم الجواد فبدا عليه الاضطراب وأعرض عني ثم همس كلاما في أذن الضابط الذي كان برفقتي. اتجهت بالسؤال الى الرجل الثاني فكان منه ما كان من صاحبه تماما.

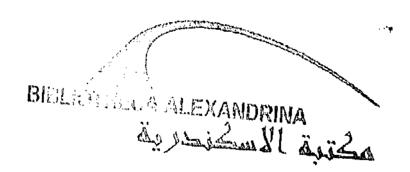
اتجهنا عائدين الى السجن فأبديت استغرابي لتصرف ذانك الشابين فضحك الضابط وقال:

- أتدري ياماانديلا من يكون ذانك الشابان؟ إنهما سجينان من البيض ولم يتحدث إليهما قبلك سجين أسود قط في حضور ضابط أبيض.

تجولنا في أماكن بعيدة عن المدينة. كنا نتمشى على شاطيء البحر ونجلس أحيانا في بعض المقاهي لتناول الشاي أو القهوة. لم يتعرف أحد من الناس على هويتي، إذ كانت آخر صورة نشرت لي التقطت عام ١٩٦٢ .

تعلمت في تلك الجولات أمورا كثيرة. شاهدت من كثب كيف تغير نمط الحياة أثناء غيبتي الطويلة عن البلاد. ترددنا كثيرا على الأماكن المخصصة للبيض، وتعرفت على الثراء الفاحش والرخاء المفرط الذي يتمتع به البيض. فرغم الغليان الذي تعيشه البلاد، ورغم أن الحياة في ضواحي السود توشك أن تتحول الى حرب أهلية، فإن حياة البيض ظلت رخية هادئة مستقرة لم تتأثر بتلك التقلبات والاضطرابات. أخذني أحد الحراس ذات مرة الى شقته فتعرفت على زوجته وأطفاله، ولا زلت أرسل لهم بطاقات تهاني بأعياد الميلاد كل سنة.

ومع استمتاعي بتلك الرحلات والنزهات كنت أعلم جيدا أن السلطات لها غاية محددة من وراء إلهائي. أحسست بأن الحكومة تسعى من جهة الى تطبيعي على الحياة في جنوب أفريقيا من جديد، والى اعطائي الفرصة، من جهة أخرى، الى الاستمتاع بقدر من الحرية كي أرضى بتقديم تنازلات معينة مقابل الحصول على حريتي كاملة.



- ٩٢ -

استأنفت الاتصال مع كوبي كوتسي عام ١٩٨٧ والتقيت به عدة لقاءات خاصة في منزله، وفي أواخر ذلك العام تقدمت لي الحكومة بأول عرض محدد. أخبرني كوتسي بأن الحكومة تنوي تشكيل لجنة من كبار المسؤولين لعقد محادثات خاصة معي، وأن ذلك سوف يتم بعلم رئيس الدولة بكل التفاصيل. سوف يترأس كوتسي نفسه اللجنة وستضم مفوض السجون الجنرال ويلليمس، ومدير عام مصلحة السجون فاني فان دير ميرو Fanie van der Merwe والدكتور نيل بارنارد Neil Barnard وهو أكاديمي سابق ومدير جهاز الاستخبارات. يلاحظ أن ثلاثة من أعضاء اللجنة من مسؤولي مصلحة السجون مما يعطي الحكومة في حالة إخفاق المحادثات أو تسرب خبرها للصحافة المبرر للتنصل منها أو القول إنها تتعلق بشؤون الأوضاع في السجن لا أكثر ولا أقل.

ولكن وجود الدكتور بارنارد في اللجنة أثار حفيظتي. فهو رئيس جهاز يعادل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وله دور في الاستخبارات العسكرية، وكان من الصعب أن أبرر لزملائي في التنظيم قبولي به هو بالذات عضوا في لجنة المحادثات. فوجود الدكتور بارنارد سوف يعقد المحادثات ويفرض جدول أعمال أطول وأكبر. طلبت من كوتسي مهلة ليلة واحدة لدراسة العرض.

استعرضت تلك الليلة جميع الحيثيات والمعطيات. كنت على علم بأن بي دبليو بوتا شكّل جهازا غامضا عُرف بمجلس أمن الدولة يضم خبراء في الأمن ومسؤولين في الاستخبارات. وقالت الصحف إن الغرض من الجهاز هو الحد من سلطة الحكومة وتعزيز سلطة الرئيس. كان للدكتور بارنارد دور بارز في ذلك المجلس وأشيع أنه من بطانة الرئيس بوتا المقربين، ولذا فإن إقصاء برنارد سوف يُقصي الرئيس بوتا من المحادثات وهو اتجاه محفوف بالمخاطر. فما لم يكن الرئيس جزءا في هذه الطبخة لن تتقدم خطوة واحدة. أرسلت إشعارا الى كوتسي في الصباح بأنني قبلت العرض.

هناك ثلاث خطوات هامة لا بد من اتخاذها. أولا: عليّ قبل أن أخطو خطوة أخرى التشاور مع زملائي في الطابق الثالث، ثانيا: ضرورة إخبار أوليفر بتفاصيل ما يجري من اتصالات، ثم ثالثا: إعداد مذكرة توجه للرئيس بي دبليو بوتا أبين فيها وجهة نظري ووجهة نظر الحزب تجاه كل القضايا الجوهرية التي تواجهها البلاد. وسوف تشكل تلك المذكرة أساسا لأي محادثات تجرى في المستقبل.

طلبت لقاءً مع زملائي في الطابق الثالث واندهشت لرفض الطلب. كان ذلك الموقف لافتا للنظر ودفعني الى أن استنتج أنه يعكس قلقا شديدا لدى الحكومة تجاه مستقبل المحادثات السرية بيني وبينها. اشتكيت لمسؤولين على درجة أعلى، وبعد جهد وافقت الادارة على الطلب بشرط أن ألتقي بزملائي واحدا واحدا على انفراد، ولا ألتقي بهم جميعا دفعة واحدة.

التقيت بزملائي في قسم الزوار وتغاضيت عن ذكر بعض التفاصيل. سبرت آراءهم بشأن فكرة الحوار مع الحكومة دون الاشارة الى أن لجنة شكلت لهذا الغرض. تحدثت أولا مع وولتر وأخبرته برسالتي التي وجهتها الى مفوض السجون ولقائي بكوتسي وطرح فكرة الشروع في محادثات مع الحكومة، وقلت إن الحكومة تبدو مهتمة بالموضوع. ثم طلبت منه أن يعطيني رأيه في الموضوع.

لقد خضت مع وولتر النضال حلوه ومره. وهو رجل ذو حكمة وعقل راجح ولا يوجد في الدنيا كلها من يعرفني أكثر منه. ولا أطمئن لرأي وأقدره أكثر مما أطمئن لرأي وولتر وأقدره. أطرق وولتر يفكر في الموضوع وظهرت عليه علامات عدم الارتياح، أو الفتور على أحسن تقدير. قال وولتر:

- أنا لست ضد المفاوضات من ناحية المبدأ. ولكنني وددت لو أن الحكومة هي التي بادرت ببدء المحادثات معنا ولا نكون نحن الذين نبدأ المحادثات مع الحكومة.

أجبت قائلا طالما أنه لا يمانع في المفاوضات من الناحية المبدأية ماذا يضيره من الذي يبدأ المحادثات. المهم هو ما الذي سينتج عن المحادثات وليس الصورة التي بدأت بها. ثم أضفت قائلا إنني أرى أن نشرع في المفاوضات ولا نشغل أنفسنا بمن الذي طرق الباب أولا. رأي وولتر أنني حزمت أمري فقال إنه لن يقف في طريقي ولكنه يرجو أن أكون واعيا لما أفعل.

جاء بعد ذلك دور ريموند مهلابا فشرحت له الموضوع برمته كما شرحته لوولتر. وريموند رجل قليل الكلام، فمحص الأمر لحظات واستوعبه ثم نظر في عيني وقال:

- ما الذي جعلك تؤجل هذا الموضوع حتى هذه اللحظة يامادييا؟ كان ينبغي علينا الشروع في هذا الأمر منذ عدة سنوات.

أما أندرو ملانغيني فقد كان رد فعله كرد فعل ريموند تماما. ثم جاء دور أحمد كاثرادا فكان رده بالرفض وعارض الفكرة التي طرحتها بالشدة نفسها التي رحب بها ريموند وأندرو. وأكد أكثر مما أكد وولتر من قبله على أن صدور المبادرة للدخول في محادثات من جانبنا يوحي بالاستسلام الكامل من طرفنا. ولكنه - أسوة بوولتر - اضاف أنه ليس ضد فكرة المفاوضات من الناحية المبدأية فأجبته بما أجبت به وولتر. كان أحمد مصرا على موقفه وشعر بأنني ضللت الطريق، ورغم تحفظاته قال إنه لن يعترض طريقي.

تلقيت بعد ذلك بقليل رسالة من أوليفر تامبو سربها أحد المحامين أشار فيها الى قلقه بشأن ما بلغ علمه عن محادثات سرية أخوضها مع الحكومة. وقال إنه على علم بأنني صرت معزولا عن بقية زملائي منذ مدة. لا شك في أنه تساءل حول سلامة صحتي العقلية. كانت رسالته مختصرة وواضحة: ما هو موضوع المناقشات الدائرة بيني وبين الحكومة؟ لا يمكن أن يعتقد أوليفر بأنني أفرط في القضية ولكنه قلق على أنني ربما أخطأت تقدير الأمور، وذلك هو ما أوحت لي به روح رسالته المقتضبة.

رددت على أوليفر برسالة موجزة قلت فيها إنني اتكلم مع الحكومة حول موضوع واحد فقط وهو تنظيم لقاء بين اللجنة التنفيذية العامة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحكومة جنوب أفريقيا. وقلت إن الوقت قد حان لعقد محادثات من هذا النوع بين الطرفين وإنني لن أفرط في التنظيم بأي شكل من الأشكال. لم أدخل في التفاصيل لعدم ثقتي في أمان وسائل الاتصال.

وبينما كنت بصدد الرد على أوليفر واصلت إعداد مذكرتي الموجهة الى الرئيس بوتا، وكنت حريصا على أن يطلع عليها أوليفر كذلك. كنت على يقين بأن مخاوف أوليفر واللجنة التنفيذية العامة بأنني ضللت الطريق سوف تتلاشى بعد اطلاعهم على المذكرة. لقد ظل الحزب بضعة عقود ينادي بإجراء محادثات مع الحكومة، ولكننا لم نواجه من قبل ذلك الاحتمال على أرض الواقع. فالحديث النظري في هذه المسائل شيء والخوض العملي فيها شيء آخر.

- ٩٣ -

عقد أول اجتماع رسمي لمجموعة العمل السرية في مايو ١٩٨٨ في نادٍ فاخر للضباط بالقرب من سجن بوللسمور. كنت على معرفة بكوتسي وويلليمس ولكنني لم ألتق من قبل بكل من فان دير ميرو والدكتور بارنارد. وفـار دير ميرو رجل هادىء معتدل لا يتكلم إلا عند الضرورة. أما الدكتور بارنارد فكان في منتصف الثلاثينات من العمر وكان ذكيا وعلى قدر كبير من البراعة وضبط النفس.

اتسمت الجلسة الأولى بالتوتر، أما الجلسات التالية فقد سادها جو من الحرية والصراحة. كنت التقي بهم كل أسبوع تقريبا لبضعة شهور ثم أصبحت الاجتماعات غير منتظمة. كانت الحكومة تحدد الجدول الزمني للاجتماعات ولكنها كانت أحيانا تعقد بناء على طلب مني.

عرفت منذ الجلسات الأولى أن زملائي الجدد - باستثناء الدكتور بارنارد - لا يعرفون الكثير عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كلهم من الأفريكان المثقفين وأكثر تفتحا من كثير من أبناء قومهم، ولكنهم ضحايا للدعاية الرسمية، وكان لزاما عليّ وضع الأمور في نصابها الصحيح. حتى الدكتور بارنارد الذي درس الحزب دراسة خاصة تلقى أغلب معلوماته عنه من تقارير المخابرات والشرطة وملفاتها التي كانت في الغالب غير دقيقة وملوثة بتحيز من أعدوا تلك التقارير وتعصبهم. ولذا فلم ينج هو الآخر من آثار ذلك التعصب بالكامل.

قضيت بعض الوقت في عرض تاريخ الحزب ووجهة نظرنا تجاه القضايا الرئيسية موضوع الخلاف بين الحزب والحكومة. انتقلنا بعد ذلك الى القضايا الحساسة: النضال المسلح وتحالف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مع الحزب الشيوعي وحكم الأغلبية وفكرة المصالحة بين العروق والأجناس.

كان النضال المسلح لاعتبارات كثيرة هو أول وأهم القضايا التي طرحت للنقاش، واستغرق الحديث فيه بضعة أشهر. ألح الطرف الحكومي على نبذ الحزب للعنف والتخلي عن النضال المسلح قبل أن توافق الحكومة على التفاوض، وقبل أن أقابل الرئيس بوتا. وكان رأيهم أن العنف سلوك اجرامي لا يمكن أن تقبله الدولة.

أجبت بأن الدولة هي المسؤولة عن العنف وهي الطرف الظالم وليس المظلوم في جميع الأحوال، وهي التي تملي أشكال النضال ووسائله. فإذا استخدم المعتدي العنف لم يكن أمام المعتدى عليه إلا الرد بالعنف. وهو في هذه الحالة لا يعدو أن يكون وسيلة للدفاع عن النفس. وقلت لو أن الدولة اختارت استعمال وسائل سلمية لاضطر الحزب هو الآخر الى استعمال الوسائل السلمية. قلت لهم:

- مسؤولية نبذ العنف هي مسؤوليتكم وليست مسؤوليتنا.

أظن أنني نورتهم بعض الشيء حول هذه النقطة، ولكن سرعان ما تحول الكلام من نقاش فلسفي الى نقاش عملي. أشار الوزير كوتسي والدكتور بارنارد الى أن الحزب الوطني الحاكم أكد مرارا وتكرارا على أنه لن يتفاوض مع أي تنظيم يدعو الى استعمال العنف، ولذا فكيف له أن يعلن فجأة عن محادثات مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي دون أن ينال ذلك من مصداقيته. ولكي يباشر الحزب الوطني في المحادثات لا بد على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أن يقدم تنازلات حتى لا تفقد الحكومة ماء وجهها أمام أنصارها.

نقطة وجيهة تفهمتها تماما، ولكنني لم أكن لأترك لهم مخرجا، فقلت إن عليهم بكل بساطة أن يخبروا قومهم بأنه لا مجال لإحلال السلام والخروج بجنوب أفريقيا من أزمتها الراهنة دون الجلوس وجها لوجه مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. لقد طفح الكيل فقلت:

- أيها السادة، ليست مهمتي حل مشاكلكم، ولكنني على يقين أن أنصاركم سوف يتفهمون الوضع.

النقطة الآخرى التي كانت تضايقهم بالدرجة نفسها هي تحالف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مع الحزب الشيوعي. لقد تبنى الحزب الوطني الحاكم أشد المباديء التي قامت عليها الحرب الباردة في الخمسينات واعتبر الاتحاد السوفياتي امبراطورية الشر، والشيوعية عقيدة الشيطان. لم يكن من السهل تغيير تلك الأفكار. قالوا إن الحزب الشيوعي هو القوة المسيطرة داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولكي تبدأ المفاوضات لا بد من الفصل بين الحزب والحزب الشيوعي.

قلت: ابتداء لن يقبل أي مناضل يحترم نفسه أن يتلقى أوامر من حكومة يعاديها أو أن يتخلى عن حليف قديم ارضاءً لعدوه. ثم شرحت بإسهاب أن الحزب الشيوعي وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي تنظيمان منفصلان يتميز كل منهما عن الآخر ولكنهما يشتركان في أهداف قريبة المدى منها الاطاحة بالظلم العنصري وإقامة دولة غير عنصرية في جنوب أفريقيا. أما أهدافنا ومصالحنا طويلة المدى فليست واحدة.

تواصل النقاش حول هذا الموضوع عدة أشهر، واتضح أنهم يعتقدون - كغالبية الأفريكان - أنه بما أن غالبية الشيوعين في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي هم من البيض أو الهنود فهم يتحكمون في السود داخل الحزب. أشرت الى مناسبات كثيرة اختلفت فيها مواقف الحزبين وانتصرت سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ولكنهم لم يقتنعوا بذلك. وفي لحظة غضب قلت لهم:

- إنكم أيها السادة تعتبرون أنفسكم أذكياء، أليس كذلك؟ وتعتبرون أنفسكم أصحاب حجة وقدرة على الإقناع، أليس كذلك؟ حسنا، أنتم أربعة وأنا واحد ولم تتمكنوا من السيطرة عليّ أو إقناعي. فما الذي يجعلكم تعتقدون أن الشيوعيين قد أفلحوا فيما أخفقتم فيه؟

ومن القضايا التي شغلتهم هي التأميم إذ قالوا إن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وميثاق الحرية يؤيدان التأميم الشامل في جنوب أفريقيا. بينت أننا ندعو الى توزيع أكثر عدالة لدخل بعض الصناعات التي تعتبر احتكارية حتى الآن والتي ربما شمل التأميم بعضا منها. وأشرت الى مقال كتبته عام ١٩٥٦ في مجلة ليبيراشن Liberation قلت فيه إن ميثاق الحرية ليس برنامجا سياسيا لنظام اشتراكي بل هو أساس لرأسمالية على النمط الأفريقي. وأكدت لهم إن رأيي في ذلك لم يتغير.

وتطرق النقاش كذلك الى حكم الأغلبية، فأشاروا الى أن حقوق الأقليات سوف تتعرض للخطر في ظل حكم الأغلبية. وتساءلوا عن الوسائل التي سوف يحمي بها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي حقوق الأقلية البيضاء. قلت إن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تنظيم متميز في تاريخ جنوب أفريقيا كله لأنه يسعى الى توحيد كل أبناء الشعب في جنوب أفريقيا بمختلف أجناسهم وأعراقهم. وأشرت الى مقدمة ميثاق الحرية التي تقول: "جنوب أفريقيا هي بلد كل مواطن يقيم فيه سواء أكان أسودا أم أبيض". وقلت إن البيض هم أيضا أفريقيون وإن الأغلبية سوف لن تستغنى عن الأقلية في ظل أي نظام حكم، ثم قلت:

- إننا لا نريد أن نلقي بكم في البحر.

- ٩٤ -

جاءت الاجتماعات بنتائج إيجابية. فقد أخبرت في شتاء ١٩٨٨ أن الرئيس بوتا سوف يلتقي بي قبل نهاية أغسطس. لا تزال البلاد في حالة غليان. فرضت الحكومة حالة الطوارىء في عام ١٩٨٧ ثم في عام ١٩٨٨، ولا تزال الضغوط الدولية في ارتفاع. سحبت عدة شركات عالمية أعمالها، ووافق الكونغرس الأمريكي على عقوبات شاملة ضد جنوب أفريقيا.

في عام ١٩٨٧ احتفل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بذكراه الخامسة والسبعين وعقد مؤتمرا في تانزانيا حضره وفود من أكثر من خمسين دولة. أعلن أوليفر في المؤتمر أن الحزب سوف يكثف النضال المسلح حتى توافق الحكومة على التفاوض من أجل إلغاء نظام التفرقة العنصرية. وكان الحزب انتخب لأول مرة للجنة التنفيذية العامة أعضاء من أجناس وأعراق أخرى، وذلك في المؤتمر الذي عقده قبل ذلك بسنتين في كابوى Kabwe بزامبيا، بمناسبة الذكرى الثلاثين لإعلان ميثاق الحرية. وأعلنت اللجنة التنفيذية أنها لن تدخل في محادثات مع الحكومة حتى يطلق سراح جميع السجناء السياسيين.

ورغم تصاعد عمليات العنف ظل الحزب الوطني الحاكم أقوى مما كان عليه من قبل. فقد حصل الحزب على أغلبية ساحقة في انتخابات البيض العامة في مايو ١٩٨٧ . والأسوا من ذلك أن حزب المحافظين Conservative Party حل محل الحزب الاتحادي التقدمي Progressive Federal Party التحرري كحزب المعارضة الرسمية، وكان حزب المحافظين الى اليمين من الحزب الوطني واتهم الحكومة في حملة الانتخابات بأنها متساهلة في مواجهة المعارضين السود.

كانت مرحلة عسيرة رغم تفاؤلي بالمحادثات السرية. زارتني ويني قبل فترة قصيرة وعلمت أن بيتنا رقم ٨١١٥ أورلاندو ويست، وهو البيت الذي تزوجنا فيه واعتبرته بيتي الخاص، أحرق في عملية تخريب متعمدة. فقدنا أوراقا ومقتنيات وصورا عائلية قيمة لا تعوض، بما في ذلك قطعة من كعك الزفاف كانت ويني محتفظة بها لي عندما أخرج من السجن. كنت دائما اتخيل أنني عندما أغادر السجن سوف أعيش ذكريات الماضي من خلال تلك الصور والرسائل، ولكنها ضاعت. لقد سلبني السجن حريتي ولم يسلبني ذكرياتي، ولكن ها هم أعداء النضال يسعون الى أن يسلبوني ذكرياتي كذلك.

أصبت بنزلة برد شديدة ولم أعد قادرا على مواصلة التمرينات الرياضية بانتظام. اشتكيت مرارا من الرطوبة في زنزانتي ولم تستجب الادارة. كنت في لقاء مع المحامي اسماعيل أيوب ذات يوم في صالة الزوار فأصبت بنوبة مرضية فنقلوني الى الزنزانة وكشف عني الطبيب ولكنني سرعان ما شفيت. بعد ايام كنت في زنزانتي فدخل علي عدد من الحراس وبرفقتهم طبيب فكشف عني ثم قال أحد الحراس إنهم سينقلونني الى المستشفى.

ذهبنا تحت حراسة مشددة في موكب من سيارات الأمن والسيارات العسكرية وبرفقتي اثنا عشر حارسا على الأقل.

أخذت الى مستشفى تايغربيرغ Tygerberg Hospital في حي جامعة ستيللينبوش University of Stellenbosch في منطقة راقية من مناطق كيب تاون تكسوها الخضرة. علمت فيما بعد أن السلطات كادت تأمر بنقلي الى مستشفى آخر خشية أن يكتشف أمر وجودي هناك فيتجمع الطلاب حول المستشفى. أخلى الحراس طابقا بأكمله في المستشفى ووقف الحراس المسلحون على طول الممر.

كشف عني طبيب شاب لطيف وكان استاذا في كلية الطب بالجامعة. أجرى الفحوصات المعروفة وقال إنني في صحة جيدة، ثم خاطبني مبتسما:

- إنك بخير، وبإمكانك مغادرة المستشفى غدا.

سررت لنتيجة الفحص لأنني كنت حريصا على ألا تتعرقل محادثاتي مع الحكومة.

عرض عليّ الطبيب الشاي، وبعد دقائق دخلت ممرضة سوداء ممشوقة القوام حاملة طبق الشاي ولكنها فزعت لرؤية الحراس المسلحين فوقع الطبق من يديها على السرير.

قضيت ليلتي في المستشفى تحت حراسة مشددة وكنت المريض الوحيد في ذلك الجناح. وقبل الفطور زارني طبيب آخر أكبر سنا من سابقه وكان مسؤول قسم الطب الباطني في المستشفى. كان جادا في عمله لم يحفل بالمجاملات كما حفل بها طبيب الأمس. فحصني في صمت ثم قال:

- هناك ماء في رئتك.

قلت إن الطبيب كشف عني بالأمس وقال إنني في صحة جيدة. رد الطبيب في شيء من التبرم قائلا:

- أنظر الى صدرك يامانديلا.

أراني صورا بالأشعة وأشار الى أن أحد جانبيْ صدري أكبر من الآخر وقال إن السبب في ذلك يعود الى وجود سوائل زائدة في الجانب الأكبر.

طلب من إحدى الممرضات إحضار محقنة وخزها في صدري بدون أي مقدمات واستخرج سائلا بني اللون ثم سألني:

- هل تناولت فطورك بعد؟

- كلا.

- حسنا. إذن سنأخذك الى غرفة العمليات فورا.

- أخبرني الطبيب بوجود كميات زائدة من السائل في الرئة ولا بد من التخلص منها على الفور.

وضعت تحت التخدير وأفقت بعد العملية والطبيب الى جانبي وآثار التخدير في

جسمي. قال لي الطبيب إنه استخرج لترين من السوائل من صدري وبعد فحص السائل اكتشف أنني مصاب بالسل ولكن المرض في مراحله الأولى ولم تصب الرئة بأي ضرر. وقال إنني سوف أشفى في غضون شهرين، مؤكدا أن الرطوبة في الزنزانة ساهمت بشكل كبير في إصابتي بالسل.

قضيت في مستشفى تايغربيرغ ستة أسابيع للعلاج والنقاهة، وفي ديسمبر نقلت الى مصحة كونستانتيابيرغ الفاخرة على مقربة من سجن بوللسمور التي لم يدخلها مريض أسود قط. زارني صباح أول يوم كوبي كوتسي وبرفقته الرائد ماريس Major Marais نائب آمر السجون المكلف برعايتي. وما أن تبادلنا التحية حتى وصل الفطور.

نظرا لمرضي وإصابتي في الماضي بارتفاع ضغط الدم كان ينبغي أن يحتوي طعامي على كميات قليلة من الكوليسترول، ولكن يبدو أن تلك التعليمات لم تصل مطبخ المصحة. كان على المائدة بيض وثلاث قطع من البيكون وعدة قطع من الخبز المحمص مع الزبدة. لم أقبل برغبة على ذلك الطعام الدسم لأنني لم أطعمه منذ مدة طويلة، وما أن هممت بالأكل حتى قال ماريس:

– لا تأكل هذا الطعام يامانديلا، فإنه مخالف لتعليمات الطبيب.

مد يديه ليسحب الطبق من أمامي فأمسكت به بقوة وقلت:

– معذرة ياسيادة الرائد. إنه طعامي وسوف أكله ولو أدى الى موتي، فانا اليوم مستعد لمواجهة الموت.

بمجرد استقراري في المصحة استأنفت لقاءاتي مع كوبي كوتسي واللجنة السرية. أخبرني كوتسي بأنني في الفترة المقبلة ساكون في حالة بين السجن والحرية. ورغم أنني لم أفهم ما يرمي اليه بالتحديد فهمت قصده بشكل عام وهززت رأسي موافقا. لم أكن من السذاجة بأن أفسر كلامه بأنني أصبحت حرا طليقا، ولكنني أحسست أنها خطوة على طريق الحرية.

كانت المصحة مريحة جدا واستمتعت بفترة النقاهة متعة كبيرة. أفرطت الممرضات – وهن من البيض أو الملونين إذ لا توجد ممرضات من السود – في تدليلي والعناية بي. زودنني بالحلويات والمخدات وكن يزرنني حتى خارج ساعات العمل.

قالت لي إحدى الممرضات يوما:

– سنقيم سهرة الليلة ياسيد مانديلا ونود أن تشاركنا.

قلت إنه يشرفني أن أحضر ولكن السلطات سوف تحرمني من ذلك. ولكن الممرضات انزعجن إذ منعت من الحضور فقررن إقامة السهرة في حجرتي كي لا يحتفلن بدوني.

وفي تلك الليلة غزت الممرضات الحسناوات حجرتي وأحضرن الكعك والحلويات والهدايا. ارتبك الحراس ولم يكن بإمكانهم اعتبار وجود أولئك الفتيات المفعمات بالمرح والحيوية في غرفتي يشكل خطرا أمنيا. حاول أحد الحراس منعهن من دخول الحجرة فاتهمته مازحا بأنه يشعر بالغيرة مما يلقاه شيخ مثلي من اهتمام من أولئك الفتيات الجميلات.

- ٩٥ -

في أوائل ديسمبر ١٩٨٨ شُددت الحراسات من حولي في المصحة. بدا الجو مفعما بتغيرات وشيكة لا محالة. دخل الرائد ماريس الحجرة مساء التاسع من ديسمبر وطلب مني التحضير للمغادرة دون أن يحدد لي وجهة بعينها. حزمت امتعتي وبحثت عن الممرضات فلم أجدهن وأسفت على أن أغادر دون أن أودعهن.

غادرنا المصحة في عجل وبعد ساعة من الزمن دخلنا سجن فيكتور فيرستيرVictor Verster الواقع في مدينة بارل القديمة الهولندية الطراز على بعد خمسة وثلاثين ميلا شمال شرق كيب تاون في المنطقة المشهورة ببساتين العنب. يعتبر فيكتور فيرستر سجنا نموذجيا. دخلنا السجن ولم نتوقف حتى وصلنا طريقا غير معبدة تؤدي الى بيت من طابق واحد في منطقة ذات أشجار كثيفة في القسم الخلفي من السجن.

دعاني الرائد ماريس الى الدخول فوجدت صالة جلوس ضخمة والى جانبها مطبخ فسيح وغرفة نوم أكبر. كان في البيت أثاث قليل ولكنه مريح. لم ينظف البيت قبل وصولي وكانت الغرف تعج بمختلف أنواع الحشرات الغريبة التي لم أر بعضها قط في حياتي. وفي ليلتي تلك نفضت الحشرات عن سريري ونمت نوما عميقا هادئا في بيتي الجديد.

في الصباح استطلعت مقر إقامتي الجديد واكتشفت أن به حوض سباحة وغرفتي نوم أخرتين. تمشيت خارج المنزل أتأمل جمال الأشجار التي ألقت بظلالها عليه. أشعرني المكان بالعزلة التامة، ولم يفسد ذلك الجو الحالم سوى الأسلاك الشائكة التي تغطي أعالي الأسوار المحيطة بالمبنى والحراس الواقفين عند البوابة. ولكن رغم ذلك فقد كان المكان جميلا هادئا، وفي منزلة بين منزلتي السجن والحرية.

زارني عصر ذلك اليوم كوبي كوتسي وأحضر معه صندوقا من عنب الكيب هدية بمناسبة دخولي بيتي الجديد. إنها حقا لمفارقة أن يحضر السجان هدية لسجينه، ولم تخف على أي منا. أبدى الوزير اهتماما كبيرا براحتي وحرصا على رضاي. جال في البيت كله يفحصه ونصح برفع السور المحيط بالمنزل زيادة في حمايتي. كما أخبرني أن سجن فيكتور فيرستور سيكون آخر مقام لي قبل أن يطلق سراحي، وأن الغرض من وجودي فيه هو توفير مكان مريح للخلوة واللقاءات الخاصة.

أجل، لقد أحسست في هذا المكان بما يشبه الحرية. فبوسعي النوم متى شئت والسباحة متى شئت. وبإمكاني أن آكل كلما أحسست بجوع، وهذه كلها مشاعر حلوة. فمجرد قدرتي أن أخرج من البيت متى شئت أثناء النهار نصر عظيم في حد ذاتها. اختفت القضبان من على النوافذ، واختفت المفاتيح والأبواب التي تغلق وتفتح مرات كل يوم. إنه شعور رائع ولكنني لم أنس أنني لا زلت في قفص من الذهب.

خصصت لي ادارة السجن طباخا هو الضابط سوارت Officer Swart، وكان أفريكانيا طويل القامة هادئا اشتغل يوما ما حارسا في جزيرة روبن. لم أذكره ولكنه أخبرني أنه كان أحيانا يقود الشاحنة التي أقلتنا الى المحجَر وكان يتعمد قيادتها فوق الحفر والصخور لازعاجنا، فضحكت. كان رجلا لطيفا طيب المزاج ليس فيه أي تعصب، وصار بمثابة أخي الأصغر.

كان سوارت يصل في السابعة صباحا وينصرف في الرابعة مساء، وكان يعد وجبات الفطور والغداء والعشاء بناء على تعليمات الطبيب وأنواع الطعام المسموح لي بتناولها. كان طباخا ماهرا وكان يعد وجبة العشاء مبكرا وعندما يحين الوقت أسخنها في الفرن الكهربائي (مايكرو وايف) وهو جهاز جديد بالنسبة الي.

كان سوارت يخبز الخبز ويصنع البيرة وغير ذلك من الملذات، وكان يعد وجبات خاصة كلما زارنا الضيوف. كان ضيوفي يعجبون بطبخ سوارت ويثنون عليه، بل كان بعضهم يحسدني عليه. وكنت اتهم الرفاق والزملاء من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والجبهة الديمقراطية المتحدة والحركة الديمقراطية الشعبية Mass Democratic Movement (MDM) بأنهم يزورونني طمعا فيما يعده سوارت من طعام لذيذ.

دخلت المطبخ ذات يوم بعد تناول وجبة من وجبات سوارت الرائعة وشرعت في غسل الأواني فاعترض سوارت قائلا:

- لا، لا تفعل. هذا واجبي، أما أنت فعليك أن تستريح في صالة الجلوس.

ألححت على أن أساعده، وقلت بما أنه طبخ الطعام فعلي غسل الأواني. اعترض ولكنه قبل بعد ذلك بأن أقوم ببعض الواجبات. كما اعترض سوارت على أن أرتب فراشي بنفسي عند الصباح قائلا إن ذلك من مسؤوليته هو. ولكن نظرا الى أنني ظللت أرتب فراشي بنفسي لسنوات طويلة فقد كاد ذلك أن يصبح عادة غريزية عندي. طلبت من سوارات أحيانا إعداد طبخات معينة مثل ثريد الذرة بالفاصوليا الذي كنت آكله في طفولتي. وذات يوم قلت له:

- أود أن تطبخ لي أرزا أسمر.

فاندهشت لرده إذ قال:

- وما هو الأرز الأسمر؟

شرحت له أن الأرز الأسمر هو حب الأرز الأصلي قبل أن يُنخل وهو ما كنا نأكله أيام الحروب ولم يكن الأرز الأبيض معروفا آنذاك. وقلت إنه صحي أكثر من الأرز الأبيض. ارتاب في كلامي ولكنه تمكن من الحصول عليه في السوق فطبخه واستمتعت بأكله أيما استمتاع. ولكن سوارت لم يعجب بالأرز الأسمر فقال إن رغبت في أكله عليّ أن أطبخه بنفسي.

رغم أنني لست شرّيبا للخمر حرصت على تقديمه لضيوفي، وكنت أحيانا أجاملهم فأشرب معهم، ولكن النوع الوحيد من النبيذ المفضل لدي هو نبيذ جنوب أفريقيا الذي يمتاز بحلاوته.

كنت أطلب من سوارت اقتناء نبيذ نيديربيرغ Nederburg الذي جربته من قبل وأعلم أنه يميل الى الحلاوة. وذات يوم زارني أصدقائي ومحاميّ دولله عمر وجورج بيزوس واسماعيل أيوب لتناول طعام الغداء فطلبت من سوارت شراء كمية من نبيذ نيديربيرغ نقدمه لجورج بيزور، وهو غير مسلم، إذا رغب في تناول شيء منه مع وجبة الغداء. لاحظت امتعاضا على وجه سوارت وسألته عن السبب فرد قائلا:

- ياسيد مانديلا. إنني إنما أشتري هذا النوع من النبيذ بناء على طلبك، ولكنه في الحقيقة من النوع الرديء.

ذكّرته بأنني لست من هواة شرب النبيذ غير الحلو، وقلت إنني على يقين من أن جورج لن يعرف الفرق بين أنواع النبيذ. ابتسم سوارت واقترح حلا وسطا وهو شراء قارورتين إحداهما من النبيذ غير الحلو وأخرى من نبيذ نيديربيرغ ثم نسأل الضيف أيهما يفضل. وافقت على الاقتراح.

وبينما كنا جالسين حول المائدة دخل سوارت حاملا القارورتين ثم قال:

- أيها السادة، أي النبيذين تفضلون؟

ودون أن يرفع جورج بصره نحوي أشار بدون أي تردد الى قارورة النبيذ غير الحلو وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الضابط سوارت.

- ٩٦ -

تواصلت اجتماعاتي مع اللجنة وتوقفنا عند المواضيع ذاتها التي طالما حالت دون تقدم المحادثات وهي النضال المسلح والحزب الشيوعي وحكم الأغلبية. واصلت إلحاحي على كوتسي لترتيب لقاء بيني وبين الرئيس بوتا. وافقت ادارة السجن على إجراء اتصالات محدودة مع زملائي في بوللسمور وفي جزيرة روبن ومع قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في لوساكا. فرغم شعوري بأنني سبقت زملائي بأشواط بعيدة لم أكن راغبا في أن ابتعد عنهم كثيرا فأجد نفسي بمفردي في ميدان المفاوضات.

في يناير ١٩٨٩ زارني زملائي الأربعة المقيمون في بوللسمور وناقشنا المذكرة التي كنت أنوي رفعها لرئيس الدولة. تضمنت المذكرة أغلب النقاط التي طرحتها في اجتماعات اللجنة السرية ولكنني كنت حريصا على أن يسمعها الرئيس مني مباشرة ليعلم أننا لسنا ارهابيين سذجا بل رجال عقل واعتدال.

قلت في مذكرتي للرئيس بوتا: "إنني أتخوف - كما يتخوف كثير من الناس في هذا البلد - من شبح دولة في جنوب أفريقيا منقسمة الى معسكرين يعادي كل منها الآخر: البيض الى جانب والسود الى جانب، يذبح بعضهم بعضا". لكي نتفادى ذلك ونمهد الساحة للمفاوضات عرضت أن اتناول المطالب الثلاثة التي تقدمت بها الحكومة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي كشرط للتفاوض وهي نبذ العنف والاستقلال عن الحزب الشيوعي والتخلي عن مطلب حكم الأغلبية.

ففيما يتعلق بنبذ العنف قلت إن المشكلة ليست رفض الحزب لنبذ العنف، ولكن الحقيقة هي "أن الحكومة ليست على استعداد لتقاسم السلطة السياسية مع السود". ثم شرحت أسباب رفضنا للتخلي عن الحزب الشيوعي مؤكدا أننا لسنا تحت سيطرته. وقلت: "كيف لمن له أدنى كرامة أن يتخلى عن صديق عمره بناء على الحاح خصم مشترك ثم يتوقع الاحتفاظ بأي قدر من المصداقية أمام أبناء شعبه؟" وقلت إن رفض الحكومة لحكم الأغلبية هو محاولة واهية مكشوفة للاحتفاظ بالسلطة. وأشرت الى ضرورة مواجهة الواقع إذ قلت: "إن حكم الأغلبية والسلم الداخلي وجهان لعملة واحدة، وعلى البيض في جنوب أفريقيا أن يقبلوا بأن هذا البلد لن يعرف السلم والاستقرار إلا بتطبيق مبدأ حكم الأغلبية تطبيقا كاملا".

ختمت مذكرتي بعرض إطار عام للمفاوضات كما يلي:

علينا البت في قضيتين سياسيتين: لأولى مطلب حكم الأغلبية داخل دولة واحدة، والثانية هي مخاوف البيض في جنوب أفريقيا تجاه هذا المطلب، وإصرارهم على ضمانات أصيلة بأن حكم الأغلبية لا يعني تسلط السود على الأقلية البيضاء. إن مهمة الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في التوفيق بين هاتين القضيتين مهمة شاقة وصعبة.

واقترحت أن يتم ذلك على مرحلتين. المرحلة الأولى محادثات لتهيأة الظروف المناسبة للمفاوضات، والثانية المفاوضات نفسها، وقلت: "إن من واجبي أن أقول إن الخطوة التي أقدمتُ عليها توفر لكم الفرصة لحل العقدة الراهنة وتجاوز المأزق، ومن ثم إعادة الوضع السياسي في البلاد الى وضعه الطبيعي. فأرجو أن تنتهزوا هذه الفرصة بدون أي تأخير".

ولكن لم يكن هناك بد من التأخير. ففي يناير أصيب الرئيس بوتا بجلطة. ورغم أنها لم تعجزه عن العمل أضعفته وزادت من حدة مزاجه على رأي أعضاء في حكومته. وفي فبراير - وعلى غير المتوقع - استقال بوتا من رئاسة الحزب الوطني ولكنه احتفظ بمنصبه رئيسا للبلاد، وكان ذلك وضعا لم يسبق له مثيل في تاريخ جنوب أفريقيا. فنظام البرلمان ينص على أن رئيس حزب الأغلبية هو الذي يتولى رئاسة الدولة. اعتبر البعض أن ذلك تطورا إيجابيا بمعنى أن بوتا يرغب في الارتفاع فوق "اعتبارات السياسة الحزبية" كي يتمكن من تحقيق تغييرات أصيلة في جنوب أفريقي.

هذا، وتواصل تصاعد العنف السياسي والضغوط الدولية. نظم المعتقلون السياسيون في جميع أنحاء البلاد اضرابا عن الطعام كان ناجحا واضطر وزير القانون والنظام الى إطلاق سراح ما يزيد عن تسعمائة منهم. وفي عام ١٩٨٩ أعلنت الجبهة الديمقراطية المتحدة عن تحالف بينها وبينها اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا عرف باسم الحركة الديمقراطية الشعبية شرعت في تنظيم "حملة تحدي" شاملة من العصيان المدني تحديا لمؤسسات نظام التفرقة العنصرية. وعلى الصعيد العالمي اجتمع أوليفر تامبو بحكومات كل من بريطانيا والاتحاد السوفياتي. كما التقى في يناير ١٩٨٧ بوزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز George Shultz في واشنطن، واعترفت الادارة الأمريكية بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي عنصرا لا استغناء عنه في حل قضية جنوب أفريقيا. كما ظلت العقوبات الدولية سارية المفعول بل وازدادت حدة.

وكانت للعنف السياسي نتائجه المأساوية كذلك. فمع تصاعد العنف في سويتو سمحت زوجتي لمجموعة من الشبان أن يتولوا حراستها أثناء تنقلها في سويتو. لم يكن الشبان مدربين ولا منضبطين وجاءوا بأعمال لا تليق بحركة النضال. وجدت ويني نفسها متورطة في أزمة قانونية جراء محاكمة أحد أولئك الشبان أدين في قتل أحد زملائه. كانت لتلك الأحداث آثار محبطة ومربكة بالنسبة إلي لأن فظيحة من ذاك القبيل سوف تؤدي الى شق الحركة في حين كانت الوحدة أمرا أساسيا. ساندت زوجتي بكل ما أملك وكان رأيي أنها بريئة براءة كاملة رغم قصورها في تقدير الأمور.

في يوليو من ذلك العام وبمناسبة عيد ميلادي الواحد والسبعين زارني في معتقل فيكتور فيرستر جميع أفراد عائلتي تقريبا. كانت تلك المرة الأولى التي اجتمع فيها حولي زوجتي وأطفالي وأحفادي وكانت مناسبة رائعة وسعيدة. أعد سوارت وليمة فخمة كالعادة ولم ينزعج عندما سمحت لأحفادي بتناول الحلويات قبل الوجبة الرئيسية. وبعد تناول الغداء جلس الأطفال في حجرتي يشاهدون شريطا تلفزيونيا لفيلم من أفلام الرعب بينما جلس

الكبار أمام البيت يتسامرون ويتبادلون الأخبار والأحاديث. كانت فرحتي عامرة بوجود جميع أفراد أسرتي من حولي دفعة واحدة ولم أتألم لشيء سوى أنني افتقدت هذه المناسبات على مدى سنوات طويلة في الماضي.

- ٩٧ -

في ١٤ يوليو زارني الجنرال ويلليميس ليخبرني بأنني سوف أقابل الرئيس بوتا في اليوم التالي وقال إنها سوف تكون "زيارة مجاملة"، وطلب مني أن استعد لمغادرة البيت في الخامسة والنصف صباحا. أعربت له عن سعادتي وأشرت الى أنني احتاج الى بذلة وربطة عنق أقابل بهما الرئيس (فقد اختفت بذلتي التي حصلت عليها إبان زيارة لجنة الكومنويلث) فوافق وبعد قليل جاء خياط فاخذ المقاسات المطلوبة. تسلمت عصر ذلك اليوم بذلة وربطة عنق وقميصا وحذاء، وقبل أن يغادر الجنرال سألني عن فصيلة دمي في حالة حدوث أي شيء مفاجيء في اليوم التالي.

أعددت نفسي للقاء الرئيس بأحسن ما أستطيع. راجعت المذكرة والملاحظات المتعلقة بها، وقرأت في أكبر عدد ممكن من الصحف والمجلات لأطلع على آخر الأخبار والتطورات. بعد استقالة بوتا من رئاسة الحزب اختير خلفا له اف دي دو كليرك F D de Klerk ويشاع أن مناورات حادة تجري بين الرجلين. وربما فسر بعض الناس رغبة بوتا في مقابلتي بأنها تقع في إطار جهوده لسحب البساط من تحت قدمي غريمه دو كليرك، ولكن ذلك أمر لا شأن لي به. راجعت في ذهني الحجج التي سيواجهني بها الرئيس وتلك التي سأرد بها عليه. فعلى المرء في أي لقاء مع الخصم أن ينقل بكل دقة وبالتحديد الانطباع الذي ينوي أن ينقله.

كنت متوترا قبيل اللقاء مع بوتا المعروف باسم "التمساح العظيم"، وسمعت قصصا كثيرة عن حدة مزاجه. وكان انطباعي عنه أنه نموذج الرجل الأفريكاني المحنك العنيد الذي لا يؤمن بمناقشة زعماء السود أو بتبادل وجهات النظر معهم، بل يؤمن بإصدار الأوامر لهم وإملاء الشروط عليهم. ويبدو أن الجلطة التي أصيب بها حديثا لم تزد من خصاله تلك إلا حدة وقوة. عقدت العزم على أن أتصدى له إن عاملني بذلك الأسلوب وإن لزم الأمر ربما اضطررت للانسحاب والمطالبة بتأجيل اللقاء.

وصل الرائد ماريس آمر سجن فيكتور فيرست عند الخامسة والنصف تماما ودخل صالة الجلوس فرآني واقفا في استقباله في بذلتي الجديدة. تفحصني ثم هز رأسه يمنة ويسرة في اندهاش ثم قال:

- كلا يا مانديلا. ما هكذا تُربط ربطة العنق.

لقد ربطت الربطة كما اتفق لأنني نسيت بعد كل هذه السنين الطريقة الصحيحة لربطها، وكنت آمل ألا تلفت النظر. فك الرائد ماريس زر القميص وحل العقدة ونزع ربطة العنق ثم وقف خلفي وربطها من جديد على طريقة ربطة ويندسور. وقف أمامي وخطى خطوات الى الوراء يتأمل المشهد ثم قال:

- أجل. هكذا أفضل بكثير.

ركبنا السيارة الى منزل الجنرال ويلليمس حيث قدمت لنا زوجته طعام الفطور، ثم انتقلنا في موكب صغير الى توينهويس Tuynhuys حيث مكتب الرئيس واوقفنا السيارة في موقف تحت الأرض كي نظل بعيدا عن الأنظار. يقع المكتب في مبنى أنيق من طراز القرن التاسع عشر المعماري الهولندي ولكنني لم أتمكن ذلك اليوم من رؤيته بالكامل، إذ هُربت الى جناح الرئيس تهريبا.

ركبنا المصعد الكهربائي الى الطابق الأرضي ودخلنا ردهة جدرانها مرصعة بالخشب تؤدي الى مكتب الرئيس حيث استقبلنا كوبي كوتسي ونيل بارنارد وعدد من المسؤولين في السجن. لقد سبق لي أن تحدثت عن هذا الاجتماع بإسهاب مع كل من كوتسكي والدكتور بارنارد ونصحني كل منهما بعدم التطرق الى المواضيع الحساسة في حديثي مع الرئيس. وبينما كنا في انتظار إشارة الدخول لاحظ الدكتور بارنارد أن رباط حذائي غير محكم فجلس بسرعة وأحكم ربطه. لقد لاحظت التوتر باديا عليهم جميعا ولكن ذلك لم يهدىء من أعصابي. فُتح الباب فدخلت متوقعا أسوأ الاحتمالات.

جاء بوتا من خلف مقعده الفخم الكبير ماشيا نحوي وكأنه حسب عدد الخطوات بدقة إذ التقينا عند منتصف الطريق تماما. مد اليّ يده وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، وجردني في الحقيقة منذ تلك اللحظة من جميع أسلحتي. كان مهذبا لطيفا ودودا الى أبعد الحدود.

وقفنا لالتقاط الصورة التذكارية ونحن نتصافح، ثم انضم الينا كل من كوبي كوتسي والجنرال ويلليميس والدكتور بارنارد وجلسنا حول منضدة مستطيلة. وصل الشاي وبدأنا في الحديث. لم يكن حديثا عن القضايا السياسية بل بدا منذ اللحظات الأولى وكأنه درس شد انتباه الجميع. لم نتطرق الى المواضيع الرئيسية ولكننا تحدثنا عن التاريخ والثقافة في جنوب أفريقيا. أشرت الى مقال قرأته حديثا في مجلة أفريكانية عن حركة تمرد الأفريكان عام ١٩١٤ واحتلالهم لعدد من المدن في اقليم فري ستايت، وقلت إنني اعتبر نضالنا مشابها لتلك الحركة الشهيرة. وتحدثنا عن تلك الحقبة من التاريخ لفترة قصيرة من الزمن. إن البيض والسود بطبيعة الحال ينظرون الى تاريخ جنوب أفريقيا من زاويتين مختلفتين. قال الحاضرون إن تمرد الأفريكان كان خلافا بين إخوة ولكن نضالي حركة ثورية. فقلت إنه بالإمكان النظر اليه كنضال بين إخوة ولكن من لونين مختلفين.

استغرق اللقاء أقل من نصف ساعة واتسم بالود والمرح حتى النهاية. كانت اللحظة الوحيد الحرجة في الاجتماع هي التي أثرت فيها موضوعا ذا صبغة جادة إذ طلبت من الرئيس بوتا إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين وأنا أحدهم بدون شروط. فاعتذر بوتا قائلا إنه ليس بإمكانه ذلك.

جري بعد ذلك حديث قصير بشأن الرد في حالة تسرب خبر اللقاء، فوضعنا على

عجـالة صيغـة تصريح تقول إننا التـقينا لتناول الشـاي بهدف إحلال السلم في البـلاد. بعد ذلك وقف بوتا وصـافحني معبرا عن سعـادته باللقاء. بادلتـه الشعور وشـكرته ثم غادرت المكتب كما دخلته.

لم يكن لقاءً حاسما في إطار المفاوضات ولكنه كان مهما لاعتبارات أخرى. لقد تحدث السيد بوتا كـثيرا عن اجتيـاز العقبة الكؤود في التعـامل معنا ولكنه لم يتجرأ على اجـتيازها حتى ذلك اليوم في توينهـايس. لقد أحسست منذ ذلك اللقـاء بأنه لا رجوع الى الوراء بعد اليوم.

* * *

في أغسطس ١٩٨٩، وبعـد أكثر من شـهر مـن لقائي برئـيس الجمـهـورية، أعلن بوتا استقالتـه من الرئاسة. وفي خطاب وداع استم بعدم التركيز، عـرض على شاشة التلفزيون، اتهم بوتا أعـضاء الحكومة بالتـفريط في الأمـانة والوقوع في شرك المؤتمر الوطـني الأفريقي. وفي اليـوم التـالي أقسم دو كليـرك اليمـين رئيسـا بالوكـالة وأكـد على التـزامـه بالتـغيـير والاصلاح.

دي كليرك من وجهة نظرنا شـخصية غامضة ليس لهـا طعم ولا لون ولا رائحة. فهو رجل الحـزب بمعنى الكلمـة لا أكثر ولا أقل. لا يوجـد في ماضـيـه السيـاسي مـا ينم عن روح الاصلاح. فقـد حاول كوزير للتعليم أن يمنع الطلبة الـسود من دخول الجامعات المخـصصة للبيض. حـرصت منذ توليه رئاسـة الحزب الوطني على مـتابعـة مواقفـه بدقة، فـقرأت كل خطبه واستمعت لكل تصريحاته فرأيته يختـلف اختلافا جذريا عن سلفه. فهو ليس عقائديا بل براغمـاتيا واقـعيـا يؤمن بأن التغـيير ضـروري وحتـمي. وفي يوم تنصيـبه رئيسـا للدولة وجهت اليه خطابا أطلب مقابلته.

قال دو كلـيرك في خطاب تنصـيبـه إن الحكومة ملتـزمة بتـحقيق السـلم وعلى استـعداد للتفاوض مع كل مجمـوعة تؤمن بالسلم. إلا أن التزامه بتغيير الأوضـاع في جنوب أفريقيا ظهر على حقـيقته عندما ظهرت مـسيرة في كيب تاون بقيادة الأسـقف توتو والقسيس آلان بوسـاك Allan Boesak احتجاجا على وحشية الشـرطة. لم يكن بوتا ليسمح بخروج مسيرة من هذا القـبـيل، وكان مـن المحتـمل أن ينتـهي الأمـر الى مـواجهـة عنيـفـة بين المتظاهرين والشـرطة. أما الرئيـس الجديد فـقد كـان عند وعـده بتخـفـيف التشـديدات على اللقـاءات السياسيـة فسمح بتنظيم المسيرة، ولكنه طالب المشاركين فيـها بالتزام الهدوء وتجنب العنف. أجل، إن ربّانا جديدا يقود السفينة.

- ٩٨ -

تواصلت لقاءاتي مع لجنة المفاوضات السرية بعد تسلم دو كليرك الرئاسة. انضم الي المحادثات غيريت فيليون Gerrit Viljoen وزير التحول الدستوري، وهو رجل متقد الذكاء حائز على شهادة الدكتوراة في الكلاسيكيات، وكان دوره وضع مداولاتنا في إطار دستوري. ألححت على الحكومة أن تقدم أدلة على حسن نيتها بإطلاق سراح زملائي من السجناء السياسيين في بوللسمور وجزيرة روبن بدون شروط. وعدتُ الحكومة إن فعلت ذلك أن تتوقع منهم تصرفات ومواقف منضبطة. وقدمت دليلا على ذلك غوفان امبيكي الذي أطلق سراحه بدون شروط في أعقاب عام ١٩٨٧ .

في ١٠ اكتوبر ١٩٨٩ أعلن الرئيس دو كليرك عن إطلاق سراح وولتر سيسولو وسبعة آخرين هم ريموند مهلابا وأحمد كاثرادا وأندرو ملانغيني وإلياس موتسوليدي وجيف ماسيمولا وويلتون امكواي وأوسكار امبيتا. جاء لتوديعي صباح ذلك اليوم وولتر وأحمد وريموند وأندرو الذين كانوا محتجزين في سجن بوللسمور. كانت لحظات مفعمة بالانفعال والمشاعر العاطفية، وكنت على يقين من أنني عما قريب سألحق بهم. أطلق سراح أولئك الرجال رسميا من سجن جوهانسبيرغ بعد خمسة أيام. حازت تلك الخطوة على رضا الجميع وثنائهم في الداخل والخارج، ورفعت خطابا للرئيس دو كليرك عبرت فيه عن تقديري وعرفاني.

كانت فرحتي عارمة بإطلاق سراح وولتر وزملائه. إنه اليوم الذي انتظرناه وحاربنا من أجله سنوات طوالا. لقد وفى دو كليرك بوعده فأطلق سراح الرجال دون حظر على نشاطهم السياسي وأصبح لهم الحق في الحديث باسم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كان واضحا أن الحظر المفروض على الحزب قد رفع أيضا بحكم الأمر الواقع، وهذا دليل على شرعية نضالنا الطويل واصرارنا على الالتزام بمبادئنا.

شرع دو كليرك بصورة منظمة في تفكيك لبنات النظام العنصري لبنة لبنة. ففتح شواطيء جنوب أفريقيا للمواطنين من كل الأجناس والأعراق، وأعلن أن قانون المحافظة على المرافق المنفصلة سوف يلغى عن قريب. وقد ظل هذا القانون منذ عام ١٩٥٣ أساسا لما عرف بنظام "التمييز العنصري الأصغر" الذي يميز بين البيض وغيرهم في حق استعمال الحدائق العامة والمسارح والمطاعم والحافلات العامة والمكتبات العامة والمراحيض العامة وغيرها من المرافق والخدمات العامة. وفي نوفمبر أعلن عن حل جهاز إدارة الأمن القومي National Security Management System وهو جهاز سري أسس في عهد الرئيس السابق بوتا لمحاربة القوى المناهضة للتفرقة العنصرية.

في أوائل ديسمبر أخبروني بأن اجتماعا مع دو كليرك تحدد في الثاني والعشرين من الشهر. صرت مع ذلك التاريخ حرا للتشاور مع زملائي الجدد والقدامى، واجتمعت في

منزلي بزملاء قدامى وبقادة الحركة الديمقراطية الشعبية والجبهة الديمقراطية المتحدة. واستقبلت رجالات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من مختلف الأقاليم، ووفودا عن الجبهة الديمقراطية المتحدة واتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا. كان من بين هؤلاء سيريل رامافوسا Cyril Ramaphosa أمين عام النقابة الوطنية لعمال المناجم National Mine Workers' Union وهو من أكفأ العناصر القيادية من الجيل الجديد. كما زارني زملاء من جزيرة روبن من بينهم باتريل ليكوتا وتوكيو سيكسويلى اللذين تناولا معي طعام الغداء، وكلاهما ممن لا يبخل على نفسه في الأكل إطلاقا. وصلتني شكوى ضدهما من الطباخ سوارت إذ قال:

- إنهما يأتيان على الأخضر واليابس.

عكفت بعد ذلك على التشاور مع عدد من الزملاء بشأن إعداد مذكرة للرئيس دو كليرك على غرار تلك التي رفعتها لبوتا. الموضوع هو المحادثات بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. قلت للرئيس إن الصراع الراهن نزيف يهدر دم جنوب أفريقيا وإن المفاوضات هي الحل الوحيد.

وقلت إن المؤتمر الوطني الأفريقي لن يقبل بأي شروط مسبقة للمحادثات وخاصة الشرط الذي تصر عليه الحكومة وهو إيقاف العمل المسلح. طالبت الحكومة "بالتزام صادق بالسلم" من جميع الأطراف فأكدت أن استعدادنا للتفاوض قائم على ذلك المبدأ.

أعربت للسيد دو كليرك عن إعجابي بما جاء في خطاب التنصيب من تركيز على المصالحة الوطنية، مشيرا الى أن كلماته بعثت الأمل في ميلاد جنوب أفريقيا جديدة لدى الملايين من الناس داخل جنوب أفريقيا وفي جميع أنحاء العالم. وقلت إن أول خطوة على طريق المصالحة هي تفكيك النظام العنصري وجميع الاجراءات والقوانين القائمة لدعمه وتعزيزه تفكيكا كاملا.

واستدركت فقلت إن روح ذلك الخطاب لم تظهر على أرض الواقع في الآونة الأخيرة. فالكثير يرى أن سياسة الحكومة ما هي إلا استمرار للتميز العنصري بأشكال جديدة. إن الحكومة - قلت - أنفقت الكثير من الوقت في الحديث مع أولئك الزعماء السود وغيرهم ممن احتواهم النظام العنصري وأصبحوا من ركائز الماضي البغيض فنبذهم غالبية السود في جنوب أفريقيا.

عرضت من جديد اقتراحي بأن تجرى المحادثات على مرحلتين، وأكدت دعمي الكامل للمبادىء التي تبناها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في إعلان هراري عام ١٩٨٩ التي تحمل الحكومة مسؤولية إزالة العوائق التي تحول دون المفاوضات والتي كانت الدولة نفسها وضعتها. ومن تلك المبادىء الإفراج عن جميع السجناء السياسيين، ورفع الحظر السياسي عن جميع المنظمات والأفراد، وإنهاء حالة الطوارىء وسحب جميع القوات العسكرية من ضواحي المدن التي يسكنها السود. وأكدت على أن أول خطوة لوضع حد للنزاع هي

الاتفاق على إعلان لوقف إطلاق النار، وأنه بدون ذلك لا يمكن التقدم خطوة واحدة الى الأمام. وصلت المذكرة الى دو كليرك في اليوم السابق للقائي معه.

في صباح ١٣ ديسمبر اتجهت مرة أخرى الى مكتب الرئاسة في توينهويس واجتمعت بدو كليرك في المكتب نفسه الذي التقيت فيه مع سلفه. كان برفقته كوبي كوتسي والجنرال ويلليمس والدكتور بارنارد وزميله مايك لو Mike Louwe. هنأت دو كليرك على توليه الرئاسة وأعربت له عن أملي بأن نعمل سويا في انسجام. كان دو كليرك ودودا وبادلني الشعور نفسه.

لاحظت منذ الوهلة الأولى أن دو كليرك كان ينصت جيدا لما أقول، وكانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لي. فقد اعتاد قادة الحزب الوطني الحاكم في مناقشاتهم مع زعماء السود على استخلاص ما يعجبهم من كلامهم، أما دو كليرك فقد كان يبذل جهده للإنصات والاستيعاب.

من المواضيع التي تطرقت إليها في ذلك اللقاء الخطة الخمسية التي تقدم بها حديثا الحزب الوطني والتي تضمنت موضوع "حقوق الجماعات العرقية". ويقوم هذا التصور على المساواة في الحقوق بين جميع المجموعات العرقية والجنسية في جنوب أفريقيا. ورغم أن الحزب حدد هذا المفهوم بأنه وسيلة لحماية حرية الأقليات في جنوب أفريقيا المستقبل فهو إنما يهدف في حقيقة الأمر الى ترسيخ سيطرة البيض. ذكرت لدو كليرك أن هذا المفهوم غير مقبول عند حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

وأضفت أنه ليس من مصلحته الدفع بهذا المفهوم لأن ذلك سوف يعطي الانطباع بأنه يسعى الى تحديث التفرقة العنصرية وليس إلى إلغاءها، وهو ما من شأنه أن يشوه صورته هو وصورة الحزب الوطني في نظر القوى التقدمية داخل البلاد وفي جميع أنحاء العالم. فالنظام الجائر – قلت – غير قابل للإصلاح ويجب أن يطرح جانبا الى غير رجعة. وأشرت الى مقال افتتاحي قرأته حديثا في صحيفة داي بيرغر Die Burger، لسان حال الحزب الوطني في كيب تاون، يوحي بأن مفهوم حقوق الجماعات العرقية محاولة لتقديم نظام التفرقة العنصرية من الباب الخلفي. وقلت للسيد دو كليرك مادامت صحيفة حزبه قد فسرت الأمر بهذا الشكل فكيف يتوقع أن نفسره نحن؟ وأضفت أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لم يناضل خمسة وسبعين عاما من أجل القضاء على التفرقة العنصرية لكي يقبل بوجودها اليوم مقنعة، وأنه إذا كانت نيته استعمال حقوق المجموعات العرقية حصان طروادة للمحافظة على النظام العنصري فهو إذن غير صادق في القضاء عليه.

اكتشفت يومها أن السيد دو كليرك لا ينفعل ولا يرد بسرعة، وعلامة شهامته أنه أنصت لما قلت دون جدال قبل أن يقول:

– هل تصدق يا مانديلا أن هدفي لا يختلف عن هدفك؟ ذكرت في مذكرتك لبوتا أن على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة العمل معا لمعالجة قضية مخاوف البيض من

سيطرة السود، وفكرة "حقوق الجماعات العرقية" هي تلخيص لوجهة نظرنا في مواجهة هذه القضية.

أعجبت بذلك الرد ولكنني قلت إن مفهوم "حقوق الجماعات العرقية" ساهم في تأجيج مخاوف السود أكثر مما ساهم في تطمين البيض. وهنا قال دو كليرك:

- إذن، علينا أن نعدّل فيه.

عرّجت بعد ذلك الى الحديث عن وضعي الشخصي وقلت إن كان يتوقع مني أنني سوف أخرج من السجن لأرعى الماشية فهو مخطيء أشد الخطأ، وأكدت أنني سوف أعود الى الأعمال نفسها التي سجنت بسببها إن ظلت الأوضاع التي جاءت بي الى السجن قائمة. وأبنت أن أفضل وسيلة للتقدم هي رفع الحظر عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وجميع التنظيمات السياسية الأخرى، ورفع حالة الطواريء، والإفراج عن السجناء السياسيين والسماح بعودة المنفيين في الخارج. وقلت إذا لم ترفع الحكومة الحظر عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فسأجد نفسي بمجرد خروجي من السجن أعمل في منظمة سياسية محظورة، ثم قلت:

- وعندها سوف تضطرون الى القاء القبض عليّ من جديد بمجرد أن أتجاوز بوابة السجن.

انصت دو كليرك مرة أخرى لكل ما قلت، ولم تكن مقترحاتي جديدة عليه، ثم قال إنه سوف يأخذ كل ما قلت بعين الاعتبار ولكنه لن يعد بشيء. كان الهدف من الاجتماع استكشاف وجهات النظر وكنت أدرك أننا لن نحسم كل القضايا في جلسة واحدة، ولكنه كان اجتماعا مثمرا للغاية. فقد سبرت أغوار السيد دو كليرك كما سبق لي في الماضي أن سبرت أغوار آمري السجن في جزيرة روبن مرارا. كتبت الى أصحابي في لوساكا أن دو كليرك يمثل توجها مختلفا تمام الاختلاف عن أسلافه من رجال الحزب الوطني. وقلت - مستعيرا عبارة السيدة مارغاريت ثاتشر في حق ميخائيل غورباتشوف - إن دو كليرك رجل يمكننا أن نعمل سويا معه.

- ٩٩ -

في يوم ٢ فبراير ١٩٩٠ وقف اف دبليو دو كليرك أمام البرلمان لإلقاء الخطاب التقليدي لافتتاح المجلس وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه قط. فقد أعلن عن الخطوات الأولى في تفكيك النظام العنصري والتمهيد لدولة ديمقراطية في جنوب أفريقيا. أعلن دو كليرك بعبارات مثيرة رفع الحظر على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحزب المؤتمر القومي الأفريقي والحزب الشيوعي وإحدى وثلاثين منظمة سياسية أخرى كانت ممنوعة. وأعلن عن الإفراج عن السجناء السياسيين المحتجزين في قضايا لا تتعلق بالعنف، وأعلن الغاء عقوبة الاعدام ورفع الاجراءات المفروضة في إطار حالة الطوارىء، ثم قال:

- لقد حان وقت المفاوضات.

إنها لحظات ألهبت المشاعر. فقد أعاد دو كليرك بحركة واحدة جريئة الأمور في جنوب أفريقيا الى وضعها الطبيعي، وتغير عالمنا بين عشية وضحاها. فبعد أربعين عاما من الحظر والإبعاد عاد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي منظمة شرعية، ولم يعد أحد معرضا للاعتقال بحكم عضويته فيه أو بحمل لافتاته بألوانها الأخضر والأصفر والأسود أو بالاشارة الى اسم الحزب. وأصبح من الممكن بعد قرابة ثلاثين عاما نشر صورتي وكلامي في صحف جنوب أفريقيا، وصور زملائي في النضال وكلامهم كذلك. رحب المجتمع الدولي بالخطوات الجريئة التي أقدم عليها دو كليرك، ولكن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي احتج في خضم تلك التطورات المثيرة على أن دو كليرك لم يرفع حالة الطوارىء بالكامل ولم يأمر بسحب القوات العسكرية من ضواحي المدن التي يسكنها السود.

أخبروني في ٩ فبراير عن موعد مع دو كليرك ووصلت توينهيوس في السادسة مساء حيث استقبلني في مكتبه بابتسامة عريضة. تصافحنا وأخبرني بأنه سيطلق سراحي من السجن في اليوم التالي. ورغم تكهن الصحافة في الداخل والخارج بذلك القرار الذي كان متوقعا في أي لحظة، إلا انني فوجئت بالخبر لأنني لم أكن مهيئا لسماعه ولم أعلم مسبقا بأنه هو الغرض من ذلك اللقاء.

نشب صراع حاد بين عقلي ودمي. كانت لدي رغبة جامحة في مغادرة السجن في أول فرصة، ولكن ليس من الحكمة الخروج الى العالم بهذه السرعة. شكرت دو كليرك ثم قلت إن خروجي غدا من السجن سيؤدي الى ارتباك شديد، ولذا فأرجو تأجيل ذلك لمدة أسبوع تستعد خلاله أسرتي ومنظمتي لخروجي. فبعد سبعة وعشرين عاما داخل السجن لن يضيرني الانتظار أسبوعا آخر.

فوجىء دو كليرك بردي وواصل شرح برنامج الافراج عني. سوف أنقل بالطائرة الى جوهانسبيرغ ثم يفرج عني رسميا هناك. قاطعته معبرا عن اعتراضي الشديد على ذلك. فقد كنت أريد أن أخرج من بوابة سجن فيكتور فيرستر وأن أشكر الذين قاموا على رعايتي

وخدمتي فيه وأن أحيي شعب كيب تاون. ورغم أنني من جوهانسبيرغ ظلت كيب تاون بيتي ومنزلي لما يقرب من ثلاثة عقود، وسوف أعود الى جوهانسبيرغ في الوقت المناسب وليس حسب رغبة الحكومة، وقلت:

- عندما أصبح حرا سوف أتولي أموري بنفسي.

بدا الاستغراب من جديد على وجه دو كليرك ولكنه تجاوب هذه المرة فاستأذن وذهب للتشاور مع مساعديه. عاد بعد نحو عشر دقائق متجهم الوجه وقال:

- مانديلا. الوقت متأخر الآن لتغيير البرنامج.

رددت بأن البرنامج غير مقبول من طرفي وأعدت ما قلته قبل قليل. ساد التوتر ولم يفطن أي منا الى ما ينطوي عليه ذلك الموقف من غرابة. فالسجين يطالب بتأجيل الافراج عنه والسجان يحاول إطلاق سراحه بأسرع ما يمكن.

استأذن دو كليرك مرة ثانية فغادر الحجرة ثم عاد بعد عشر دقائق بحل وسط. لا مانع من الإفراج عني من سجن فيكتور فيرستر ولكن يستحيل تأجيل الموعد. لقد أخبرت الحكومة الصحافة الأجنبية بالموعد وليس بإمكانها تغييره، فأحسست أنه لا طائل من الجدال. أخيرا اتفقنا على الحل الوسط، وملأ دو كليرك كأسين بالويسكي لنشرب نخب الاتفاق. رفعت الكأس وتظاهرت بالشرب، إذ لا يروق لي شرب الكحوليات.

عدت الى المنزل قبيل منتصف الليل فأخبرت زملائي في كيب تاون بأنني سأغادر السجن صباح اليوم التالي. كما أخبرت ويني واتصلت هاتفيا بوولتر في جوهانسبيرغ كي يصلا الى كيب تاون بالطائرة في الصباح. وفي الليلة نفسها جاءني أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي المسؤولون عما عرف باللجنة العامة للاستقبال لصياغة كلمة ألقيها لدى خروجي من السجن، ولم ينصرفوا حتى الساعات الأولى من الفجر. ورغم ذلك اليوم الحافل المثير، استسلمت لنوم هادىء عميق.

الفصل الحادي عشر

الحريــة

- ١٠٠ -

استيقظت يوم الإفراج عني في الرابعة والنصف صباحا، ولم أنم سوى بضع ساعات. وكان الحادي عشر من فبراير ١٩٩٠ يوما صحوا من أواخر أيام الصيف في كيب تاون. اختصرت برنامجي المعتاد من التمارين الرياضية واغتسلت ثم تناولت فطوري. اتصلت هاتفيا بعد ذلك بعدد من رجالات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والجبهة الديمقراطية المتحدة في كيب تاون، وطلبت منهم الحضور للإعداد لخروجي وللكلمة التي سألقيها. جاء طبيب السجن لإجراء كشف عام سريع. لم أكن مشغولا بالإفراج عني ولكن بما سبق ذلك من ترتيبات وواجبات. وكثيرا ما تقتضي طبيعة الحياة أن تضيع أهمية المناسبات الخالدة تحت أكداس التفاصيل والرسميات.

كانت هناك مئات الأمور التي تحتاج لنقاش وترتيب في غضون فترة قصيرة من الزمن. وصل عدد من الرفاق من اعضاء لجنة الاستقبال مبكرين وفي حالة تأهب عالية، كان من بينهم سيرل رامافوسا وتريفر مانويل Trevor Manuel. كنت أود أن أبدأ كلمتي بتوجيه الشكر لأهالي منطقة بارل على ما لقيت من عناية أثناء وجودي في السجن، ورأت لجنة الاستقبال غير ذلك، إذ ليس من اللائق أن أبدأ أول كلمة رسمية بتقديم شكري للسكان البيض في منطقة بارل المرفهة. رأت اللجنة أن أتحدث أولا لأهالي كيب تاون في ميدان غراند باراید Grand Parade.

ومن القضايا التي ينبغي حسمها أيضا المكان الذي سأقضي فيه ليلتي الأولى خارج السجن. كنت أرغب أن أقضيها في منطقة كيب فلاتس Cape Flats الضاحية المخصصة للسود والملونين في كيب تاون تضامنا مع سكانها المستضعفين. ولكن زملائي، وزوجتي من بعدهم، أصروا على أن أبيت في منزل الأسقف ديزمود توتو في بيشوبس كورت Bishopscourt وهو بيت فاخر في ضاحية من ضواحي البيض. كانت المنطقة محرمة عليّ قبل دخولي السجن وأحسست أن اقامتي فيها أول ليلة سوف تعطي مؤشرات سلبية، ولكن اللجنة أصرت على رأيها حيث أن المنطقة في عهد الأسقف توتو أصبحت مختلطة الأعراق والأجناس، وتمثل نموذجا للمجتمع غير العنصري المتسامح المفتوح للجميع.

زودتني إدارة السجن بصناديق وأقفاص أحمل فيها امتعتي. جمعت على مدى السنوات العشرين الأولى من سجني أمتعة وممتلكات قليلة، ولكنني عوضت عن ذلك في السنوات الأخيرة خاصة من الكتب والأوراق، فحزمت أمتعتي كلها في أكثر من اثني عشر قفصا وصندوقا.

كان الموعد الرسمي المحدد للإفراج عني هو الثالثة عصرا لكن الطائرة التي تقل ويني ومن معها من جوهانسبيرغ لم تصل إلا بعد الثانية. وصل عدد من الناس الى المنزل وبدأت المناسبة تتحول الى احتفال. أعد الضابط سوارت وجبة أخيرة للجميع الحاضرين وشكرته

ليس فقط على ما قدمه لي من طعام على مدى سنتين كاملتين ولكن على صحبته الطيبة. جاء الى المنزل أيضا الضابط جايمس غريغوري وعانقته بحرارة . لم نتعرض للحديث في السياسة طول السنوات التي تولى رعايتي فيها في بوللسمور ثم في فيكتور فيرستر، ونشأت بيني وبينه علاقة لا تصفها الكلمات وسوف أفتقد الطمأنينة التي أحسست بها في حضوره. لقد عزز رجال مثل سوارت وغريغوري وبراند إيماني بالأساس الفطري الإنساني، حتى لدى أولئك الذين وضعوني وراء القضبان على مدى السنوات السبعة والعشرين الماضية.

الوقت لا يكفي لتوديع كل فرد على حدة، فأخبرت الادارة بأنني أود توديع الحراس ومسؤولي السجن الذين قاموا على خدمتي وأسرهم أمام بوابة السجن كي اشكرهم وأودعهم فردا فردا . وكان البرنامج أن أنطلق من المنزل بصحبة ويني في سيارة الى البوابة الرئيسية حيث أودع الحراس .

بعد الثالثة بدقائق اتصل بي هاتفيا أحد مذيعي هيئة إذاعة جنوب أفريقيا وطلب مني أن أخرج وأمشي مسافة قصيرة مبتعدا عن البوابة كي تسجل كاميرات التلفزيون خطواتي نحو الحرية. اقتراح وجيه وافقت عليه، وأخذت منذ تلك اللحظة أحس بأن البرنامج ربما سار على غير ما كنت أتصور.

في الثالثة والنصف تسرب القلق الى نفسي لتأخر بداية البرنامج . قلت للجنة الاستقبال إن الناس ظلوا في انتظاري سبعة وعشرين عاما ولا أريد منهم أن ينتظروا أكثر من ذلك. غادرنا المنزل قبيل الرابعة في موكب صغير وتوقفت السيارة على بعد نحو ربع ميل من البوابة فترجلت وترجلت ويني واتجهنا نحو بوابة السجن مشيا على الأقدام.

لم أتبين ما يجري لأول وهلة وعندما اقتربنا من البوابة رأيت أمامي هرجا ومرجا وحشدا كبيرا من الناس . مئات من المصورين وكاميرات التلفزيون ورجال الصحافة وبضعة آلاف من المهنئين. دهشت وأصابتني رهبة . لم أكن أتوقع هذا المشهد ولم أكن اتوقع أن أرى سوى عشرات من الناس غالبيتهم من حراس السجن ومسؤوليه وعائلاتهم . ولكن لم تكن تلك سوى البداية وفطنت الى أننا لم نستعد بما فيه الكفاية لما حدث بعد ذلك.

اقتربنا من البوابة وبدأت طقطقة آلات التصوير وكأنها أصوات قطيع من المواشي. انهالت علينا أسئلة الصحافيين وطوقتنا فرق التصوير التلفزيوني بينما ارتفعت أصوات أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بالهتاف والتهليل . ورغم الفوضى كان الجو مفعما بالسعادة والبهجة . ظهرت أمامي فجأة آلة طويلة سوداء مغلفة بما يشبه الفراء حسبتها نوعا جديدا من السلاح اخترع أثناء وجودي في السجن فجفلت منها، ولكن ويني أخبرتني بأنها لاقط الصوت.

وصلت الى وسط الحشد الجماهيري الضخم ورفعت قبضتي في السماء فهاج الحاضرون . إنها أول مرة منذ سبعة وعشرين عاما . يا لها من لحظة تدفقت أثناءها في عروقي القوة والبهجة . قضينا دقائق فقط بين ذلك الحشد ثم ركبنا السيارة واتجهنا الى كيب

تاون . ورغم فرحتي بذلك الاستقبال العارم حزنت لعدم توديعي حراس السجن بالصورة التي كنت أود . لقد شعرت في تلك اللحظة التي عبرت فيها بوابة السجن أنني في الواحدة والسبعين من عمري أبدأ حياتي من جديد . وكانت تلك نهاية عشرة آلاف يوم في السجن.

استغرقت الرحلة الى كيب تاون خمسا وأربعين دقيقة وظهرت الحشود قبل وصولنا ميدان غران بارايد، وبدلا من تفادي الجماهير اتجه السائق بالسيارة نحوهم مباشرة، فتجمع الناس حولها من كل مكان واضطرت السيارة بعد لحظات للتوقف . بدأ الناس يطرقون بأيديهم على زجاج السيارة وأبوابها وكأننا في عين العاصفة . وبعد قليل أخذ الناس يقفزون فوق السيارة وآخرون يهزونها فانتابني قلق أن يقتلنا الناس بحبهم.

كان السائق في حالة أشد من القلق وحاول الخروج من السيارة فنصحته بالهدوء والبقاء حتى يأتي من ينقذنا . أخذ آلان بوساك وغيره يحاولون تفريق الزحام لتتمكن سيارتنا من الحركة الى الأمام ولكنهم لم يفلحوا كثيرا . قبعنا داخل السيارة – ولم يكن من الحكمة أن نحاول الخروج منها – لأكثر من ساعة كاملة داخل سجن من آلاف الناس وتأخرنا كثيرا على الموعد المحدد لخطابي أمام الجمهور .

تدخلت الشرطة وافسحت الطريق للسيارة شيئا فشيئا . وما أن خرجنا من ذلك الزحام حتى انطلق السائق بسرعة هائلة في الاتجاه المعاكس لاتجاه قاعة البلدية، فسألته بانفعال:

– الى أين أنت ذاهب يا هذا؟

فأجابني بحدة:

– لست أدري . لم أر مثل هذا في حياتي قط.

ثم انطلق على غير هدى.

هدأ السائق فوجهته نحو بيت صديقي ومحامي دولله عمر في الجزء الهندي من المدينة واقترحت أن نذهب هناك فنأخذ قسطا من الراحة . راقت له الفكرة، ومن حسن حظنا أن دولله وأسرته كانوا موجودين في البيت ففوجئوا لرؤيتنا، ولكن بدلا من الترحيب بنا بعد غياب سبعة وعشرين عاما قالوا:

– أليس من المفروض أن تكون في ميدان غراند بارايد؟

تناولنا المرطبات في بيت دولله وبعد لحظات اتصل الأسقف توتو هاتفيا ولم أدر كيف علم بوجودنا هناك فقال:

– نلسون، يجب أن تحضر الى غراند بارايد فورا . الجمهور بدأ يقلق . إذا لم تأت حالا فلن أتحمل مسؤولية ما سيحدث، فلربما قامت ثورة!!

فأجبته إنني قادم في الحال.

كان السائق هو المشكلة .فقد كان مترددا جدا في الذهاب الى غراند بارايد، فأقنعته

بالذهاب اليه وانطلقنا عائدين في اتجاه قاعة المدينة . وجدنا المبنى محاطا بالناس من كل جانب، ولكن الزحام كان أخف من ذي قبل، فتمكن السائق من الوصول الى المدخل الخلفي للمبنى . صعدت السلم الى الطابق العلوي من ذلك المبنى الفخم الذي ظلت حجراته تعج بالموظفين البيض وقد شارفت الشمس على الغروب . اتجهت الى الشرفة فرأيت أمامي بحرا عريضا من الناس رافعين اللافتات والأعلام يصفقون ويضحكون ويهتفون.

رفعت قبضتي عاليا فاستجابت الجماهير بعاصفة مدوية من الهتاف . الهب ذلك الهتاف الصارخ نار النضال في نفسي من جديد فصحت:

- "أماندلا" : القوة!!
- "انغاويتو" : القوة لنا!!
- "إيافريكا" : اللهم احفظ أفريقيا!
- "مايوبوي" : فلتعد أفريقيا لنا!

هدأت الجماهير فاخرجت ورقة من جيبي، وبحثت عن نظاراتي فلم أجدها . لقد نسيتها في فيكوتر فيرستر . استعرت نظارات ويني لأنني كنت أعلم أنها قريبة من نظاراتي، وبدأت ألقي خطابي:

> أيها الأصدقاء . أيها الرفاق . يامواطني جنوب أفريقيا . أحييكم جميعا باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع! إنني لا أقف هنا أمامك كنبي ولكن كخادم متواضع يخدمكم أنتم ياأبناء هذا الشعب. إن تضحياتكم البطولية المتواصلة هي التي مكنتني من الوقوف أمامكم اليوم . وعليه فإنني أضع ما بقى من سنوات عمري بين أيديكم.

تكلمت من أعماق قلبي لأبين للناس أولا وقبل كل شيء أنني لست مسيحا ولكنني بشر أصبحت زعيما بفعل ظروف وأحوال وتطورات غير عادية . أعربت على الفور عن شكري لمن عمل من أجل إطلاق سراحي في جميع أنحاء العالم . شكرت أهالي كيب تاون وحييت أوليفر تامبو وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة أومخونتو وي سيزوى (أمكا) والحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا والجبهة الديمقراطية المتحدة ومؤتمر الشباب في جنوب أفريقيا واتحاد نقابات العمال في جنوب أفريقيا والحركة الديمقراطية الشعبية واتحاد عام طلاب جنوب أفريقيا وجماعة ساش السوداء Black Sash وهي الحركة النسائية التي ظلت صوتا لضمير النضال . كما عبرت أمام الملأ عن شكري لزوجتي وأسرتي وقلت "إنني على يقين بأن ألمهم ومعاناتهم فاقت ألمي ومعاناتي" .

وقلت في الخطاب بكل وضوح أن لا مستقبل لنظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا وإن على الشعب ألا يتهاون في مناهضته لذلك النظام. "إن الحرية التي تطل علينا في الأفق يجب أن تدفع بنا الى مضاعفة الجهود" . وأحسست أنه من المهم أن أشرح أمام الملأ سر محادثاتي مع الحكومة، فقلت: "أود اليوم أن أخبركم أن محادثاتي مع الحكومة تهدف

الى تطبيع الأوضاع السياسية في هذا البلد. وأود أن أؤكد أنني لم أدخل في أي وقت من الأوقات في مفاوضات حول مستقبل بلادنا إلا لأصر على اللقاء بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة".

وأعربت عن أملي في بروز المناخ المناسب لتسوية متفق عليها في أقرب وقت ممكن كي تختفي الحاجة الى النضال المسلح. وأشرت الى أن الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك المناخ قد حددها أعلان هراري لعام ١٩٨٩، وذكرت أنه من شروط المفاوضات الصادقة أن ترفع الحكومة فورا حالة الطوارىء في البلاد وأن تفرج عن جميع السجناء السياسيين.

وقلت في ذلك الحشد إن دو كليرك قد ذهب الى أبعد مما ذهب اليه أي زعيم آخر من زعماء الحزب الوطني من أجل تطبيع الأوضاع. وأضفت - في كلمات عادت لتؤرقني فيما بعد - قائلا: "إن دو كليرك رجل شريف". ووجدت من يذكرني بهذه الكلمة مرارا كلما بدا دو كليرك أنه لا يستحق هذا الوصف.

كان ضروريا أن أبين لشعبي وللحكومة أنني لم أضعف ولم أتخاذل، وأن نضالي مستمر وسوف أبدأ بداية جديدة لنضال من نوع آخر. وأكدت أنني "عضو من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مخلص وملتزم". ودعوت الجماهير الى العودة الى المتاريس وتكثيف النضال لنقطع معا آخر ميل في مسيرة النضال.

انتهى الخطاب وحل الليل فركبنا السيارة متجهين الى مقر الأسقف توتو. دخلنا ذلك الحرم الآمن فكانت مئات الوجوه السوداء في استقبالنا، وما أن ظهرنا أمامه حتى انطلقت حناجرهم بالغناء. حييت الأسقف توتو وعانقته عناقا طويلا. إنه الرجل الذي حرك مشاعر أمة بأكملها بشجاعته وكلماته وأحيا الأمل في قلوب الشعب في أحلك مراحل النضال وأظلمها. دخلنا المنزل وكان في انتظارنا مزيد من الأهل والأصدقاء. ولكن أسعد لحظة كانت عندما تلقيت مكالمة هاتفية من ستوكهولم وسمعت صوت أوليفر تامبو الخافت الذي لا يمكن أن أخطئه. إن سماع ذلك الصوت بعد هذه السنوات الطويلة كاف ليغمرني بالفرحة والسعادة. كان أوليفر في السويد للنقاهة إثر جلطة في الدماغ أصابته في أغسطس ١٩٨٩، واتفقنا على أن نلتقي في أقرب فرصة.

كان حلمي بعد الخروج من السجن أن استقل سيارة وأتجه في رحلة بهيجة الى مسقط رأسي في ترانسكاي، فأزور الجبال والجداول ومجاري المياه التي ترعرعت بينها في صباي، وأزور قبر أمي الذي لم أزره بعد. ولكن، لا مفر من تأجيل ذلك الحلم بعد أن علمت بتفاصيل الخطط والبرامج التي وضعها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لحياتي الجديدة والتي لا تتضمن أي منها رحلة للراحة والاستجمام في ترانسكاي.

- ١٠١ -

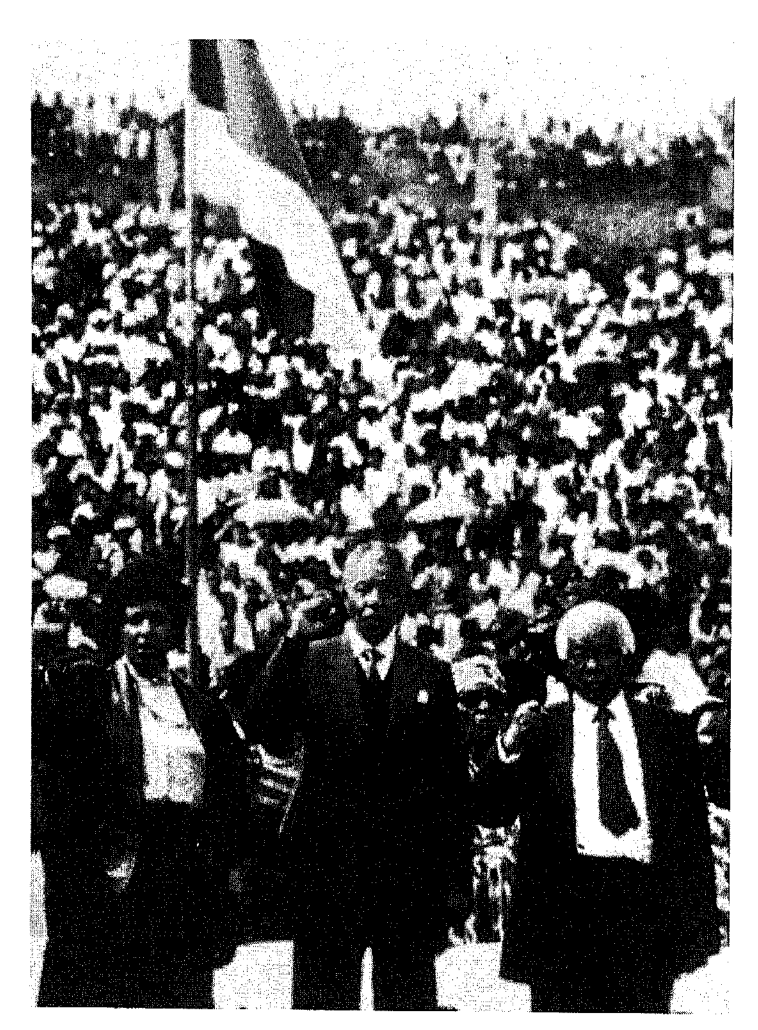
التقيت في صباح اليوم التالي بعدد من زملائي لبحث البرامج والاستراتيجيات، وقد تضمن الجدول عقد مؤتمر صحافي عصر ذلك اليوم. تسلمت كوما من برقيات ورسائل التهاني، حاولت الاطلاع على أكبر عدد منها. كانت هناك برقيات من جميع أنحاء العالم، من رؤساء دول ورؤساء حكومات ولكنني أذكر برقية بعينها من ربة بيت بيضاء من كيب تاون قالت فيها: "إنني سعيدة جدا بأنك أصبحت حرا وبعودتك الى أصدقائك وأسرتك، ولكن خطابك بالأمس كان مملا للغاية".

لم يسبق لي أن شاركت في مؤتمر صحافي من هذا القبيل. فلم أعرف قبل دخولي السجن آلات التصوير التلفزيونية وكانت معظم لقاءاتنا الصحافية سرية. أما ذلك اليوم فقد حضر عدد كبير من الصحافيين من عدد لا يحصى من البلدان فاحترت من أخاطب منهم. سررت لوجود عدد كبير من الصحافيين السود. حرصت في المؤتمر الصحافي أن أؤكد من جديد على قضايا هامة بعينها. منها أنني عضو مخلص وملتزم من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. كنت أعلم جيدا أن كبار قادة الحزب يتابعون تحركاتي من مواقعهم في الخارج ويحاول كل منهم أن يتعرف من بعد على مدى إخلاصي للحزب. وكنت على علم بما يصلهم من إشاعات حول ابتعادي عن التنظيم وحول تنازلي في النضال فسعيت في كل مرة أن أطمئنهم بهذا الخصوص. وعندما سئلت عن الدور الذي سأقوم به داخل التنظيم قلت سأؤدي الدور الذي يكلفني به حزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

وقلت للصحافيين إنه لا يوجد أي تناقض بين مساندتي المستمرة للنضال المسلح وبين دعوتي للمفاوضات. فحقيقة النضال المسلح وما يمثله من تهديد هي التي جاءت بالحكومة الى حافة المفاوضات. وقلت في اللحظة التي تتوقف فيها الحكومة عن ممارسة العنف ضد الحزب فإن الحزب سيرد على ذلك بالسلم. سئلت عن العقوبات الدولية المفروضة على جنوب أفريقيا فقلت إن الحزب لن يطالب بتخفيفها لأن الأوضاع التي أدت الى فرضها أصلا - وهي غياب حقوق السود السياسية - لا تزال هي الوضع الراهن في البلاد. وقلت إنني خرجت من السجن حقا ولكنني لست حرا بعد.

سئلت أيضا عن مخاوف البيض، وكنت على علم بأن الناس يتوقعون مني شعورا بالحنق تجاه البيض، لكنني لم أكن أحمل ضغينة نحوهم إطلاقا. لقد خف حنقي تجاه البيض داخل السجن، ولكن بغضي للنظام العنصري تضاعف. كنت حريصا أن تعلم جنوب أفريقيا أنني أحب حتى أعدائي مع كراهيتي للنظام الذي خلق تلك العداوة بيننا.

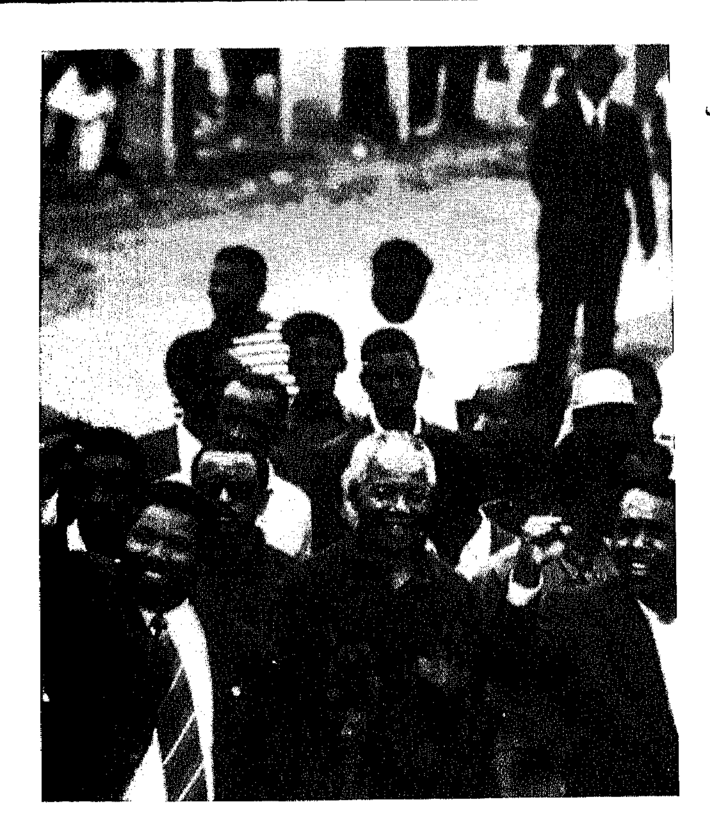
وأكدت للصحافيين أهمية الدور الذي سوف يلعبه البيض في أي ترتيبات سياسية جديدة، وحاولت جهدي ألا تغيب هذه الحقيقة عن ذهني. فلم نكن نهدف الى تدمير البلاد قبل أن نحررها، وتنفير البيض أو عزلهم سوف يجلب الخراب والدمار على البلاد.



مع وولتر سيسولو وزوجتي
ويني عام ١٩٩٠.

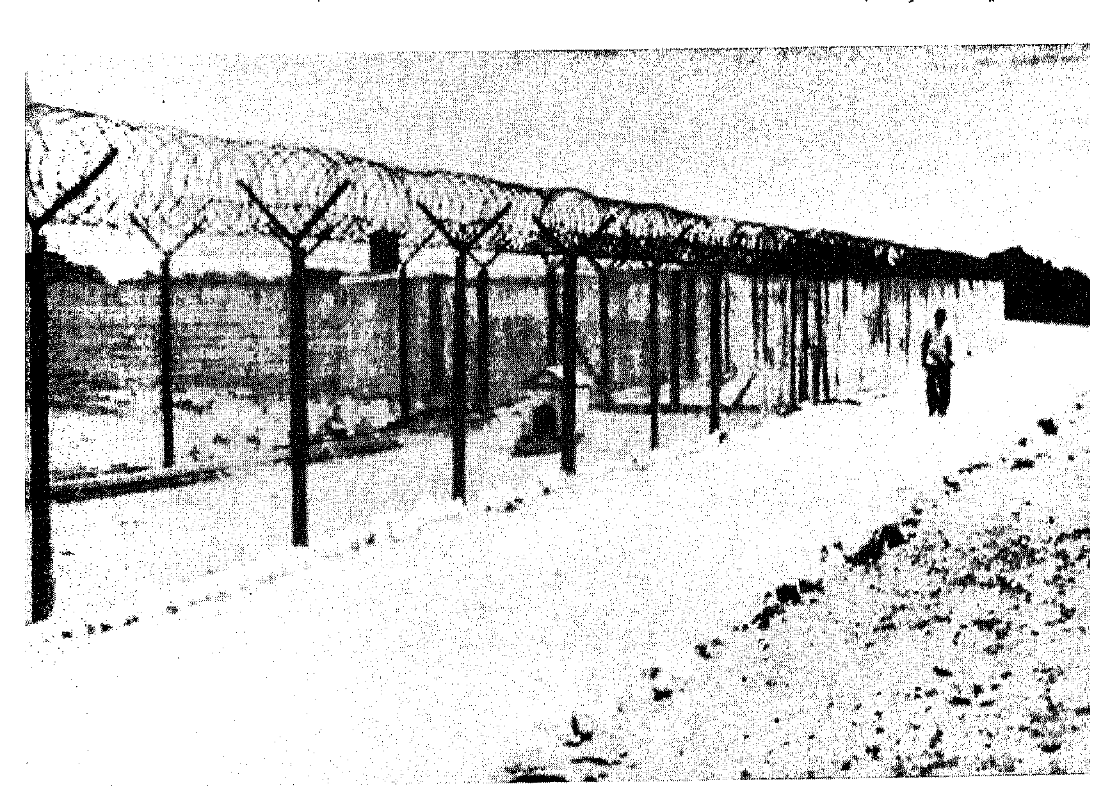
سيرل رامافوزا وجو سلوفو في جوهانسبيرغ إبان المحادثات
التحضيرية لإعداد الدستور الوطني الجديد.





في حفل تأبين كريس هاني باستاد أورلاندو في سويتو وعلى يميني طوكيو سيكسويل وعلى يساري تشارلز نغيكولي.

أثناء زيارتي لجزيرة روبن عام ١٩٩٤.





زنزانتي بجزيرة روبن حيث قضيت ثماني عشرة من السنوات السبع والعشرين التي قضيتها في السجن.



مياه خليج تايبل التي تفصل جزيرة روبن عن كيب تاون، ويظهر في أقصى الأفق جبل تايبل (المائدة) الشهير.

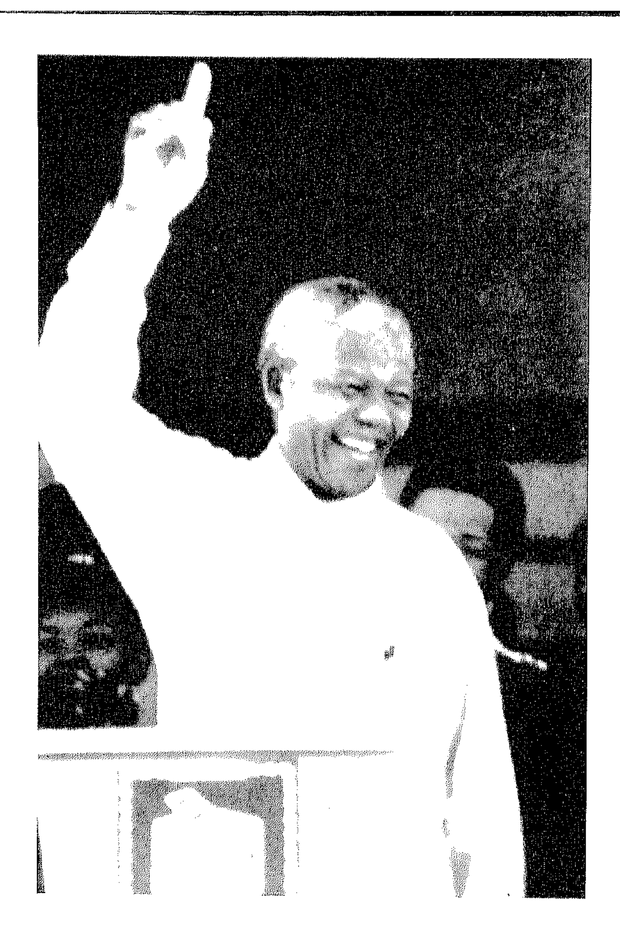


مع الأسقف ديزموند توتو.



مع رئيس جمهورية جنوب أفريقيا الأسبق أف دبليو دو كليرك.

ها أنا أدلي بصوتي في أول انتخابات عامة في جنوب أفريقيا.





أثناء عزف النشيد الوطني في حفل تنصيبي رئيسا لجنوب أفريقيا، ويظهر الى يميني تابو امبيكي والى يساري ابنتي زيناني.



في عناق حار مع الأسقف توتو
بعد حفل التنصيب.



مع أولادي (من اليسار الى اليمين) زيندزي وزيناني وماكازيوي وابني ماكغاتو.



ة حفيدتي في سبتمبر ١٩٩٤.

مانديلا الكبرى.





مع حفيدي بامباتا.

وأشرت الى وجود منطقة وسطى بين مخاوف البيض وآمال السود، وأننا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي سوف نتعرف على تلك المنطقة ونحددها. وقلت "إن البيض مواطنون في جنوب أفريقيا، ونريدهم أن يشعروا بالأمان وأن يعلموا أننا نقدر ما قدموه من مساهمات في بناء هذا البلد وتطوره". وقلت ما من رجل أو امرأة ينبذ النظام العنصري ويتخلى عنه إلا وسوف نحتضنه في نضالنا من أجل دولة ديمقراطية غير عنصرية في جنوب أفريقيا، وعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا لإقناع إخواننا المواطنين البيض أن جنوب أفريقيا الجديد غير العنصرية سوف تكون وطنا أفضل لنا جميعا.

احسست منذ أول لقاء مع الصحافيين أنهم حريصون على التعرف على مشاعري وعلاقاتي الشخصية حرصهم على التعرف على مواقفي السياسية، وكان ذلك أمرا جديدا عليّ. فعندما دخلت السجن لم يخطر ببال أي صحفي أن يسألني عن زوجتي وأسرتي وعواطفي ولحظاتي الخاصة جدا. وبقدر ما كنت أتفهم سر اهتمام الصحافيين بهذه الأمور وجدت من الصعوبة ارضاء فضولهم. فلم أجد يوما الكلام عن مشاعري الخاصة أمام الملأ أمرا سهلا. وسئلت مرارا عن شعوري عندما أصبحت حرا وحاولت جهدي أن أصف ما لا يوصف فاخفقت في أغلب الأحيان.

اتصلت زوجة الأسقف توتو من جوهانسبيرغ مباشرة بعد المؤتمر الصحافي تقول إن علينا الانتقال الى هناك بأسرع ما يمكن. كنت ويني نأمل أن نقضي أياما للراحة في كيب تاون ولكن الرسالة التي تسلمناها من جوهانسبيرغ تفيد بأن الناس هناك في قلق شديد وربما عمت الفوضى ما لم نتجه الى هناك فورا. انطلقنا الى جوهانسبيرغ بالطائرة مساء ذلك اليوم وأخبرت أن آلافا من الناس تجمعوا حول بيتنا رقم ٨١١٥ أورلاندو ويست الذي أعيد بناؤه وأنه من الحكمة الاتجاه الى هناك، فقبلت على شيء من المضض. كم كنت مشتاقا أن أقضي ليلتي الثانية وأنا حر في بيتي الخاص ولكنني قضيتها مع ويني في بيت أحد أنصار الحزب في الضواحي الشمالية للمدينة.

في صباح اليوم التالي انتقلنا بالطائرة المروحية الى استاد فيرست ناشونال بانك في سويتو التي حومنا فوقها بالطائرة فرأيناها مدينة تعج بالحركة مكتظة بالبيوت على هيئة علب الثقاب وبمنازل الصفيح والطرقات غير المعبدة. إنها أم المدن في جنوب أفريقيا، وهي موطني الحقيقي الذي عرفته حق المعرفة قبل أن أدخل السجن. وبقدر ما اتسعت سويتو وازدهرت بعض أنحائها بقدر ما ظلت غالبية سكانها على فقرهم لا يعرفون الكهرباء ولا المياه الجارية ويعيشون حياة مخزية في بلد ثري كجنوب أفريقيا. لقد تفاقمت حالة الفقر في بعض الأماكن بأسوا مما كانت عليه من قبل.

حومنا فوق الاستاد الذي كاد يفيض بأكثر من مائة وعشرين الفا احتلوا كل بقعة فيه تقريبا ثم هبطت المروحية في وسطه. أعربت عن سعادتي لوجودي بين أهلي من جديد في تلك المدينة ولكنني قرعتهم على ما يعانيه السود من ضنك العيش في المدن. فقلت إن على الأطفال أن يعودوا الى مدارسهم، ولا بد من وضع حد للجريمة. وأشرت الى أنني سمعت

عن مجرمين يتظاهرون بأنهم مناضلين يتحرشون بالأبرياء ويضرمون النيران في السيارت، وإن أمثال هؤلاء لا مكان لهم في النضال . فالحرية بدون قانون، والحرية التي لا يعيش الناس في ظلها في سلام ليست حرية حقيقية على الإطلاق . وقلت في سويتو:

> إن عودتي الى سويتو اليوم تغمر قلبي بالسعادة والبهجة . ولكنني أعود ايضا بشعور من الأسى والحزن العميق إذ أراكم لا زلتم ترزحون تحت نير نظام غير إنساني . فنقص المساكن لا يزال قائما وأزمة المدارس لا تزال قائمة وكذلك البطالة والجريمة . وبقدر ما أنا فخور بأنني جزء من مجتمع سويتو بقدر ما تألمت لإحصائيات الجريمة التي قرأت عنها في الصحف . ورغم تفهمي للعوز والحرمان الذي يعاني منه أبناء شعبنا عليّ أن أقول إن حجم الجريمة في هذه المدينة غير مقبول ويجب استئصال هذا الشر بصورة مستعجلة.

اختتمت خطابي بمد ذراعي وفتح صدري لجميع الخيرين وأصحاب النية الحسنة من سكان جنوب أفريقيا، وقلت "إننا لن نقصي رجلا أو امرأة نبذا النظام العنصري عن مشاركتنا النضال من أجل بناء دولة ديمقراطية غير عنصرية متحدة في جنوب أفريقيا تعترف بحق الاقتراع العام لجميع الناس الذين يضمهم سجل واحد للناخبين" . تلك هي رسالة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وهو الهدف الذي كان نصب عيني على مدي سنوات طويلة مقفرة داخل السجن، وهو الهدف الذي سوف أكافح من أجله فيما بقي من سنوات عمري. إنه الحلم الذي راودني عندما دخلت السجن وعمري أربعة وأربعون عاما ولكنني لم أعد اليوم شابا في مقتبل العمر ولم يعد لدي وقد بلغت الواحدة والسبعين وقتا أنفقه في خيالات.

عدت تلك الليلة مع ويني الى رقم ٨١١٥ أورلاندو ويست، وهناك فقط أحسست في داخل نفسي أنني تركت السجن حقا . لقد كان ذلك البيت هو مركز الثقل في عالمي كله، وهو قلب العالم في جغرافيا حياتي، إن صح التعبير . لقد أعيد بناء البيت بحجراته الأربع بعد أن أضرمت فيه النيران، وعندما رأيته للوهلة الأولى فوجئت بأنه أصغر مما كنت أتصوره في ذاكرتي وأكثر تواضعا، فهو بحجم جناح الخدم في منزلي الذي كنت أسكنه في سجن فيكتور فيرستر . ولكن البيت الذي يعيش فيه المرء حرا هو قصر مقارنة بأفخم سجن في الدنيا .

ولكن بقدر ما كنت سعيدا تلك الليلة انتابني شعور بأنني لن أكون حرا في حياتي كما كنت من قبل. لقد صرت أحن الى حياة عادية طبيعية التقط فيها خيوط حياتي السابقة وأنا شاب في مقتبل العمر بإمكاني أن أذهب للعمل في مكتبي صباحا وأعود الى أسرتي مساء، وأخرج من البيت فأشتري علبة معجون أسنان من الصيدلية، أو أزور صديقا من أصدقائي القدامي في آخر الليل . إنها الأمور العادية البسيطة التي يفتقدها المرء في السجن أكثر من غيرها ويحلم بالعودة إليها عندما يفرج عنه . ولكنني فطنت لتوي أنها أمور ذهبت ولن تعود . أصبح البيت تلك الليلة وكل ليلة بعد ذلك على مدى أسابيع وشهور محاطا بمئات الزوار والمهنئين . كانوا يغنون ويرقصون ويهتفون وسرت فرحتهم في الحي كله . إنهم أهلي وقومي وليس من حقي أن أحرمهم مني، ولكنني إذ أهب نفسي لهم وجدتني أحرم أسرتي مني .

لم ننم طويلا تلك الليلة. تواصل الطرب والغناء حتى الساعات الأولى من الفجر عندما توسل رجال الحزب والجبهة الديمقراطية المتحدة الذين يحرسون البيت للناس بالتزام الهدوء وإعطائنا فرصة للراحة. نصحني كثير من أعضاء الحزب بالانتقال الى بيت آخر شيدته ويني في غيابي على بعد مسافة قصيرة في ديبكلوف Diepkloof وكان بيتا فخما بمعايير سويتو ولكنه بيت لا يعني عندي شيئا ولا أحمل له ذكريات. ونظرا الى حجمه وفخامته فهو بيت لا يليق بزعيم من زعماء الشعب أمثالي. رفضت الأخذ بتلك النصيحة لأنني كنت أرغب في العيش بين قومي، وكنت أرغب في العيش كما يعيشون.

- ١٠٢ -

في مقدمة واجباتي الرسمية الاجتماع مع قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وفي ٢٧ فبراير، بعد أسبوعين من خروجي من السجن، سافرت جوا الى لوساكا للاجتماع باللجنة التنفيذية العامة للحزب. كان لقاء رائعا اجتمع فيه الشمل مع رفاق لم أرهم قرابة الثلاثة عقود. حضر الاجتماع عدد من رؤساء الدول الأفريقية من بينهم روبرت موغابي Robert Mugabe من زيمبابوى وكينيث كاوندا Kenneth Kaunda من زامبيا ويويت ماسيرى Wuett Masire من بوتسوانا ويواقيم شيسانو Joaquim Chissano من موزمبيق وهوسي إدواردو دو سانتوس Jose Eduardo Dos Santos من انغولا ويويري موسيفيني Yoweri Museveni من أوغندا.

وبقدر ما كان أعضاء اللجنة سعداء بالإفراج عني فقد كانوا مشتاقين لتقييم ذلك الرجل الذي ظهر عليهم من السجن. كنت أرى التساؤلات في عيونهم: هل هذا هو مانديلا الذي دخل السجن قبل سبعة وعشرين عاما؟ هل تغير؟ هل ثبت على المبدأ أم انهار وتنازل؟ لقد وصلتهم أخبار لقاءاتي مع الحكومة ومن حقهم القلق والتساؤل. فأنا بعيد عن الساحة ومنذ عام ١٩٨٤ لم أكن قادرا على الاتصال حتى بزملائي داخل السجن.

شرحت بعناية وروية طبيعة محادثاتي مع الحكومة، وعددت المطالب التي تمسكت بها وما تحقق من تقدم على ذلك الصعيد. لقد اطلعوا على المذكرتين اللتين وجهتهما لكل من بوتا ودو كليرك وهم على علم بأنني لم أخرج فيهما عن خط الحزب وسياساته. وكنت على علم أيضا أن بعض السجناء الذين أطلق سراحهم قبل سنوات ذهبوا الى لوساكا وهمسوا في آذان بعض القادة أن "ماديبا أصبح متراخيا ومنحازا للسلطة. لقد أصبح يرتدي بذلا من ثلاث قطع ويشرب النبيذ ويأكل ما لذ من الطعام". كنت على علم بكل تلك الهمسات وكنت مصرا على دحضها بأفضل وسيلة وهي الصراحة والوضوح والأمانة في الحديث عن كل ما قلت وفعلت.

انتخبت في تلك الجلسة نائبا لرئيس الحزب بينما انتخب الأمين العام ألفريد انزو Alfred Nzo رئيسا بالنيابة عن أوليفر تامبو الذي ما زال في فترة النقاهة. وفي مؤتمر صحافي عقد بعد الاجتماع في لوساكا سئلت عن اقتراح تقدم به رئيس زامبيا الدكتور كاوندا، من أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي القدامى، بأنه نظرا لإطلاق سراحي من السجن ينبغي أن يوقف الحزب العمليات المسلحة داخل جنوب أفريقيا. أكدت تقديرنا لحكمة الدكتور كاوندا ودعمه لقضيتنا وقلت إن الوقت لم يحن لإيقاف النضال المسلح لأننا لم نحقق بعد الهدف الذي حملنا السلاح من أجله. وقلت إنه ليس من مسؤولية الحزب أن يعين السيد دو كليرك على استرضاء أنصاره من اليمينيين.

قمت بجولة في أفريقيا زرت خلالها عدة بلدان، وقضيت أغلب الشهور الستة الأولى

بعد خروجي من السجن خارج جنوب أفريقيا . استقبلتني الحشود بحماس حيثما حللت، وكانت حرارة الاستقبال تخفف من تعبي وإرهاقي . وفي دار السلام خرج لاستقبالي نصف مليون نسمة.

استمتعت بزياراتي متعة فائقة . كنت أرغب في رؤية الجديد والقديم، وتجريب مختلف أنواع الطعام، والتحدث لأناس من مختلف المشارب، وكان عليّ أن أكيف نفسي مع عالم يختلف اختلافا كاملا عن ذلك الذي تركته عند دخولي السجن . لقد تطور العالم بالتغيرات الهائلة في وسائل الاعلام والنقل والاتصالات وصارت الأمور تسير بسرعة يعجز المرء أحيانا أن يلاحقها . حاولت ويني إقناعي بالتخفيف من حجم العمل والتهدئة من حركتي ولكن الواجبات كانت كثيرة وكان الحزب حريصا على استغلال الأجواء الإيجابية التي صاحبت الإفراج عني بكل الوسائل والأشكال .

التقيت في القاهرة بالرئيس المصري حسني مبارك ثم اتجهت الى القاء خطاب عام في مكان آخر في المدينة . كان المبنى لدى وصولنا يفيض بالجمهور وكانت الاحتياطات الأمنية محدودة فقلت لأحد رجال الشرطة إنه في حاجة الى امدادات، فهز كتفيه في لا مبالاة. انتظرت مع ويني في حجرة خلفية ثم أعطانا شرطي الإشارة بالخروج على المنصة . طلبت منه أن يخرج الوفد المرافق لي أولا خوفا من أن تغمرني الجماهير فأنفصل عن الوفد ولكنه أصر أن أتقدم الوفد فخرجت وحدث ما توقعته . وجدت نفسي في بحر من الناس يتدافعون في كل اتجاه وفقدت حذائي في الزحام . وعندما هدأت الأمور لم أجد أثرا لزوجتي أو حذائي، ولكن ويني ظهرت بعد نصف ساعة الى جانبي على المنصة تفور من الغيظ للفوضى التي غمرت المكان . لم أتمكن من التحدث لأن الناس كانوا يصرخون بأعلى صوت: "مانديلا، مانديلا" وبدون توقف . أخيرا غادرت القاعة دون أن ألقي خطابا وقد فقدت حذائي وبرفقتي زوجة صامتة على غير عادتها.

عقدت في القاهرة مؤتمرا صحافيا قلت فيه إن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على استعداد للنظر في وقف العمليات، وكانت تلك إشارة موجهة للحكومة . فقد كان الطرفان يعملان على خلق الجو المناسب لمفاوضات ناجحة . وبينما كان الحزب يطالب الحكومة بتطبيع الأوضاع في البلاد برفع حالة الطوارىء والإفراج عن جميع السجناء السياسيين وإلغاء جميع قوانين النظام العنصري، كانت الحكومة تصر على أن يوقف الحزب النضال المسلح . ورغم أننا لم نكن مستعدين بعد أن نعلن إيقاف النضال المسلح، كنت حريصا على تشجيع السيد دو كليرك للمضي قدما في استراتيجيته الاصلاحية . كنا نعلم جيدا أننا سوف نضطر يوما ما الى إنهاء النضال المسلح وذلك للتمهيد لمفاوضات أكثر جدية من جهة، ولتمكين السيد دو كليرك من تقديم أدلة مادية لأنصاره من الناخبين البيض في جنوب أفريقيا على نجاح سياسته من جهة أخرى.

اتجهت من أفريقيا الى ستوكهولم لزيارة أوليفر، وكان لقائي بصديقي القديم وشريكي في مكتب المحاماة هو اللقاء الذي كنت اتلهف عليه أكثر من أي لقاء آخر . لم يكن أوليفر

في صحة جيدة ولكننا بمجرد أن التقينا عدنا طفلين في المروج نستمد قوانا من حبنا العميق كل منا للآخر . أخذنا الحديث الى أيام زمان، ولكنه ما أن اختلي بي حتى أثار موضع قيادة الحزب قائلا:

– نلسون، يجب عليك الآن أن تتسلم رئاسة الحزب، فقد قمت بواجبي في رعاية المقعد حتى تصل.

رفضت قائلا إنه قاد التنظيم من الخارج بأفضل مما كنت قادرا على قيادته، وإن انتقال الرئاسة بهذا الأسلوب ليس عدلا ولا ديمقراطية.

– لقد انتخبك التنظيم رئيسا له، فدعنا ننتظر حتى موعد الانتخابات ليختار التنظيم من يراه مناسبا .

اعترض أوليفر على كلامي ولكنني أصررت على موقفي . إن رغبته في تعييني رئيسا للحزب دليل على تواضعه وأريحيته وتجرده للنضال، ولكن ذلك لا يتمشى مع مبادىء الحزب وأعرافه.

في أبريل ١٩٩٠ توجهت الى لندن لحضور حفل كبير أقيم على شرفي في استاد ويمبلي الشهير شارك فيه عدد كبير من الفنانين الذين لم أكن أعرف غالبيتهم، ونقل بالتلفزيون الى جميع أنحاء العالم . انتهزت الفرصة لتقديم شكري الى جميع القوى المناهضة للتفرقة العنصرية على كل ما قدموه من أعمال رائعة لتأييد العقوبات ضد جنوب أفريقيا والمطالبة بإطلاق سراحي وسراح زملائي من السجناء السياسيين من السجن، وعلى دعمهم وتضامنهم مع المستضعفين من أبناء شعبنا في جنوب أفريقيا.

- ١٠٣ -

عندما خرجت من السجن كان الزعيم مانغوسوتو بوتيليزي Mangosuthu Buthelezi رئيس حزب حرية إنكاتا Inkatha Freedom Party ورئيس وزراء كوازولو KwaZulu من أهم الشخصيات في الساحة السياسية في جنوب أفريقيا . أما داخل صفوف حزب المؤتمر الأفريقي فلم تكن له شعبية كبيرة . والزعيم بوتيليزي ينحدر من سلالة ملك الزولو العظيم سيتيوايو Cetywayo الذي هزم البريطانيين في معركة إساندلوانا Isandlwana عام ١٨٧٩ . تلقى تعليمه في كلية فورت هير ثم انضم لرابطة الشباب التابعة لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي . كنت أراه كأحد قادة الحركة اللامعين، وتولى رئاسة حكومة إقليم كوازولو برضى الحزب غير المعلن، بل إن الحزب لم يعارض تأسيسه لحزب إنكاتا كمنظمة ثقافية للزولو . ولكن مع مرور الوقت أخذ الزعيم بوتيليزي يبتعد شيئا فشيئا عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . ورغم معارضته الشديدة للنظام العنصري ورفضه إعلان كوازولو إقليما مستقلا كما ترغب الحكومة، ظل بوتيليزي شوكة في جسد الحركة الديمقراطية . فقد عارض النضال المسلح وانتقد انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ وقاد حملة ضد العقوبات الدولية . كما أنه تحدى فكرة قيام دولة موحدة في جنوب أفريقيا . ولكن رغم ذلك كله فقد ظل الزعيم بوتيليزي يطالب بالإفراج عني ويرفض التفاوض مع الحكومة حتى أطلق سراحي وسراح جميع السجناء السياسيين.

والزعيم بوتيليزي من أوائل من تحدثت معهم هاتفيا إثر خروجي من السجن لأشكره على دعمه المتواصل، وكنت راغبا في مقابلته في أول فرصة لمحاولة تسوية الخلافات. أثرت فكرة الاجتماع بالزعيم بوتيليزي أثناء زيارتي الأولى للوساكا ولكن الفكرة رفضت. وأذكر أنني عندما كنت في سجن فيكتور فيرستر تلقى وولتر دعوة من ملك الزولو غودويل زويليتيني Goodwill Zwelithini لزيارته في أولاندي Ulundi عاصمة اقليم كوازولو فشجعته على قبول الدعوة . فقد رأيتها فرصة رائعة لكسب ود رئيس عائلة من أقوى العوائل الملكية وأكثرها احتراما في جنوب أفريقيا . وافقت اللجنة التنفيذية العامة للحزب مبدئيا على الزيارة بشرط أن يزور وولتر الملك في قصره في نونغوما Nongoma لشعور اللجنة بأن زيارته في أولوندي ربما أوحت باعتراف رسمي بسلطة الإقليم السياسية.

اتصلت هاتفيا عقب رجوعي من لوساكا بكل من الزعيم بوتيليزي والملك وأخبرتهما أن وولتر سوف يذهب لزيارة الملك في نونغوما وليس في أولوندي، فأصر الملك على ألا يستقبل وولتر إلا في العاصمة، قائلا:

– أنا الملك، وأنا الذي دعوته لزيارتي في أولوندي وليس له الحق في تحديد مكان آخر للمقابلة.

– إننا ياصاحب الجلالة نواجه موجة من المعارضة من أعضائنا الذين يرفضون زيارة

وولتر سيسولو لإقليم كوازولو أصلا، ولكننا تمكنا من الوصول الى هذا الحل الوسط . إنني على يقين بأنك يمكن أن تتنازل أنت أيضا.

ولكنه امتنع ورفض مقابلة وولتر.

ساءت العلاقات بعد ذلك . وفي مايو أقنعت حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بضرورة أن أقوم أنا بزيارة الملك والزعيم بوتيليزي . وافق الملك ولكنني تسلمت رسالة منه قبل موعد الزيارة بأسبوع تقريبا يطلب فيها أن أحضر بمفردي . كانت تلك القشة الأخيرة ورفضت اللجنة التنفيذية العامة تلبية ذلك الطلب، فقلت للملك إنه ليس بإمكاني الحضور إلا برفقة زملائي فاعتبر ذلك أيضا استخفافا بشخصه فألغى الزيارة.

كان هدفي إنشاء علاقة مستقلة مع الملك منفصلة تماما عن العلاقة مع الزعيم بوتيليزي. فهو الوريث الشرعي لزعامة الزولو الذين كانوا يحبونه ويوقرونه . كما أن الوفاء للملك في كوازولو كان أقوى وأعم من الولاء لحزب إنكاتا.

في تلك الأثناء تحولت ناتال الى ساحة لسفك الدماء . فقد أعلن أنصار انكاتا المسلحون الحرب على مواقع الحزب على طول منطقة ناتال ميدلاندز Natal Midlands وحوالي بيترماريتزبيرغ . أضرمت النار في قرى بحالها وقتل العشرات وجرح المئات وتشرد آلاف آخرون . في مارس ١٩٩٠ قتل مئتان وثلاثون شخصا في ذلك النزاع الداخلي العنيف. وفي ناتال كان الزولو يقتل الزولو لوجود أحدهما في حركة إنكاتا والآخر في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . وفي فبراير بعد اسبوعين من خروجي من السجن ألقيت خطابا أمام حشد من مائتي ألف في الحديقة الملكية King's Park في ديربان كانوا كلهم تقريبا من الزولو. توسلت إليهم أن يرموا أسلحتهم وأن يمدوا أيديهم لبعضهم البعض بالسلام . قلت يومها: "خذوا بنادقكم وسكاكينكم ورماحكم وارموا بها في المحيط! أقفلوا مصانع الموت، وأوقفوا هذه الحرب فورا"! ولكن لا حياة لمن تنادي، تواصل الاقتتال وتواصل سقوط الضحايا.

كنت لقلقي على الوضع مستعدا أن أذهب الى أبعد مدى من أجل اللقاء بالزعيم بوتيليزي . وفي مارس بعد فترة من أبغض فترات العنف أعلنت من طرف واحد أنني على استعداد للإلتقاء به عند جبل بالقرب من بيترماريتزبيرغ . كانت علاقتي به على الصعيد الشخصي وثيقة وقائمة على الاحترام، وكنت آمل أن أوظف ذلك من أجل الوفاق. ولكنني اكتشفت أن قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ناتال يبغضون لقاء من هذا القبيل، واعتبروه أمرا خطيرا، فحالوا دونه . ذهبت الى بيترماريتزبيرغ وزرت مقابر أنصار الحزب الذين لقوا حتفهم هناك وواسيت أفراد أسرهم المحزونين، ولكنني لم أقابل الزعيم بوتيليزي.

- ١٠٤ -

بعد مداولات مطولة داخل كل من الحزبين: حزبنا والحزب الحاكم، حددنا في مارس ١٩٩٠ جدولا لأول لقاء مباشر بيننا وبين دو كليرك والحكومة. الهدف من اللقاء هو "محادثات حول المحادثات" وموعدها أوائل أبريل. ولكن في ٢٦ مارس فتحت قوات الشرطة النار بدون سابق إنذار على متظاهرين من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ضاحية سيبوكينغ Sebokeng على بعد نحو ثلاثين ميلا جنوب جوهانسبيرغ فقتلت اثني عشر شخصا كما جرحت مئات غيرهم أصيب معظمهم من الخلف وهم يفرون من الشرطة. لقد استعملت الشرطة الذخيرة الحية في مواجهة المتظاهرين، وهو أمر لا يمكن السكوت عليه. ادعت الشرطة أن حياة أفرادها كانت في خطر، ولكن كثيرا من الضحايا الذين أصيبوا من الخلف لم يحملوا سلاحا، فكيف يقبل أن يكون الشرطي معرضا للخطر من شخص غير مسلح يلوذ بالفرار. ولم يكن حقنا في التجمع والاحتجاج دعما لمطالبنا العادلة منحة تفضلت بها الحكومة علينا باختيارها. أثار تصرف الحكومة غضبي بشكل كبير، وصرحت في وسائل الإعلام بأن كل شرطي أبيض في جنوب أفريقيا يعتبر كل إنسان أسود هدفا عسكريا مشروعا. بعد مشاورات مع اللجنة التنفيذية العامة أعلنت تعليق المحادثات مع الحكومة، وحذرت السيد دو كليرك من أنه لا يستطيع أن "يتكلم عن المفاوضات من جهة ويقتّل أبناءنا من جهة أخرى".

ولكن رغم تعليق المحادثات بموافقة قيادة الحزب اجتمعت بصفة شخصية مع السيد دو كليرك في كيب تاون للمحافظة على زخم عملية التفاوض. تركزت مناقشاتنا أساسا حول موعد جديد لاستئناف الحوار واتفقنا على بداية مايو. أثرت تصرفات الشرطة المروعة في سيبوكينغ ومعاملة الشرطة غير المتكافئة للسود والبيض. فقد استخدم رجالها الذخيرة الحية ضد المتظاهرين السود ولكنهم لم يسحبوا أسلحتهم من أغمادها أثناء مظاهرات اليمينيين البيض.

لم تكن الحكومة متلهفة على الشروع في المفاوضات وكانت تأمل في تبخر جو التفاؤل والنشوة الذي صاحب خروجي من السجن. لقد عمدت الحكومة الى التسويف لكي أظهر أنا - ذلك السجين السابق الذي نادى به الناس منقذا - أمام الملأ ضعيفا عاجزا عن مسايرة الوضع الراهن والتعامل معه.

ورغم مظاهر التقدمية التي تصاحب أعمال دو كليرك فإنه ليس ذلك المخلّص العظيم، بل هو رجل براغماتي يؤمن بأسلوب التدرج وسياسة الخطوة تتلوها الخطوة. كما أنه لم يكن يهدف من وراء إصلاحاته أن يفقد السلطة بل العكس تماما كان هدفه الحفاظ على السلطة في أيدي الأفريكان تحت أي إدارة جديدة. فهو لم يكن على استعداد للتفاوض على إنهاء حكم الرجل الأبيض.

كان هدف دو كليرك التوصل الى نظام لتقاسم السلطة على أساس حقوق المجموعات العرقية مع الحفاظ على شكل من أشكال حكم الأقلية في جنوب أفريقيا . فقد كان ضد حكم الأغلبية بلا جدال أو حكم "الأغلبية البسيطة" كما كان يشير إليه أحيانا، لأن ذلك من شأنه القضاء على سيطرة البيض في جرة قلم . كنا على علم منذ البداية بأن الحكومة تعارض نظام الأغلبية المتبع في النظام البرلماني البريطاني وتنادي بنظام التمثيل النسبي في تركيبة بضمانات معينة أصيلة لصالح الأقلية البيضاء. ورغم أن دو كليرك كان مستعدا للسماح للأغلبية السوداء بالتصويت ووضع التشريعات كان يسعى للاحتفاظ للأقلية البيضاء بحق النقض . رفضت هذه التوجهات منذ الوهلة الأولى وقلت لدو كليرك إنها تفرقة عنصرية مقنعة الفائز فيها هو "من يخسر في صناديق الإقتراع" .

كان للحزب الوطني الحاكم استراتيجية بعيدة المدى لإضعافنا وهي تشكيل حلف معاد لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ينضوي تحته حزب حرية إنكاتا ويسعى لكسب دعم الناخبين الملونين الناطقين بالأفريكانا في منطقة الكيب تحت مظلة حزب وطني جديد . فمنذ اللحظة الأولى بعد اطلاق سراحي من السجن شرع الحزب الوطني الحاكم يغازل بوتيليزي والناخبين الملونين في الكيب . وعملت الحكومة على أن تدخل في رُوع السكان الملونين أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي معادٍ للملونين، وساندت رغبة الزعيم بوتيليزي في الاحتفاظ بقوة الزولو وهويتهم في جنوب أفريقيا الجديدة بإقناعه بسياسة حقوق المجموعات العرقية ونظام الحكم الاتحادي (الفدرالي).

* * *

عقدت الجولة الأولى من المحادثات مع الحكومة في أوائل مايو واستمرت ثلاثة أيام. ضم وفدنا وولتر سيسولو وجو سلوفو والفرد انزو وتابو امبيكي وأحمد كاثرادا وجو موديسى وروث موباتي Ruth Mompati وأرتشي غوميدى Archie Gumede والقسيس بيرز نود Reverend Beyers Naude وشيريل كارولوس Cheryl Carolus. أما المكان فهو غروت شـــور Groote Schuur القصر الهولندي العتيق الفخم بيت الرعيل الأول من الحكام الاستعماريين أمثال سيسيل روديس Cecil Rhodes. وعلق بعض أعضاء وفدنا مازحا بقوله إننا نقاد الى فخ كبير داخل أرض العدو.

ولكن – على عكس التوقعات – سارت المحادثات في جو من الجدية والروح الرياضية. فقد تصافح الأعداء التاريخيون الذين ظلوا يتقاتلون على مدى ثلاثة قرون، وتساءل كثيرون بصوت عال لما لم تعقد هذه المناقشات قبل ذلك التاريخ بكثير؟ منحت الحكومة عفوا مؤقتا لكل من جو سلوفو سكرتير عام الحزب الشيوعي وجو موديسى قائد حركة (أمكا)، وكان منظرا رائعا أن نراهما يصافحون قادة الحزب الوطني الذين طالما اعتبروهما من الشياطين. وصرح تابو امبيكي للصحافيين فيما بعد قائلا إن كلا الطرفين اكتشف أن الطرف الآخر ليس شيطانا كما كان يظن.

مجرد عقد المحادثات في حد ذاته خطوة هامة في تاريخ بلادنا . فلم يعبر الاجتماع عما دعا اليه حزبنا سنوات عديدة ولكنه يمثل نهاية لعلاقة السيد والمسود التي صبغت التعامل بين السود والبيض في جنوب أفريقيا . فلم نذهب إلى اللقاء شحاذين أو متذللين ولكن مواطنين في بلد واحد نستحق مقاعد متساوية حول مائدة الحوار.

كان اليوم الأول في أغلبه دروسا في التاريخ . بينت لنظرائنا أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ظل ينادي بالتفاوض مع الحكومة القائمة منذ تأسيسه عام ١٩١٢ . وبين السيد دو كليرك من طرفه أن سياسة التنمية المنفصلة لم تنطو على أهداف سيئة ولكنها باءت بالفشل في الواقع، وأعرب عن أسفه لذلك الاخفاق وعن أمله في أن تؤدي المفاوضات الى إصلاح الوضع . لم يكن ذلك اعتذارا رسميا عن سياسة التفرقة العنصرية ولكنه أبعد مما وصل إليه أي زعيم آخر من زعماء الحزب الوطني في ذلك الاتجاه.

الموضوع الرئيسي الذي طرح للنقاش هو تعريف السجين السياسي والمنفي السياسي. تعمدت الحكومة الدفاع عن تعريف محدود للتقليل من عدد أعضائنا الذين يمكن أن يستحقوا العفو . أما نحن فقد دافعنا عن أوسع تعريف ممكن في الحالتين ليشمل أي شخص أدين في جريمة ذات دوافع سياسية . لم نتمكن من الاتفاق على تعريف مقبول لدى الطرفين لمفهوم "الجرائم ذات الدوافع السياسية"، وعكر ذلك الموضوع جو النقاش فترة طويلة ,

اتفقنا بعد ثلاثة أيام من الحوار على ما عرف بمذكرة غروت شور التي ألزمت الطرفين بالعملية السلمية من خلال المفاوضات، وألزمت الحكومة برفع حالة الطوارىء وهو ما تم فعلا بعد ذلك بفترة قصيرة في جميع أنحاء البلاد ما عدا اقليم ناتال التي استشرى فيه العنف . واتفقنا على تشكيل مجموعة عمل لازاحة جميع العقبات التي لاتزال تعترض طريقنا.

وفي مجال القضايا الدستورية بينا للحكومة أننا نطالب بجمعية تأسيسية عامة منتخبة لوضع دستور للبلاد، وأن يختار أعضاؤها من قبل أبناء الشعب جميعا . ولكن قبل ذلك لا بد من تشكيل حكومة مؤقتة تشرف على الفترة الانتقالية التي تنتهي باختيار حكومة منتخبة. لا ينبغي للحكومة أن تكون الحكم وطرفا في المباراة كما هو الحال آنذاك . ولذا طالبنا بإنشاء مؤتمر تفاوض متعدد الأحزاب يتولى تشكيل الحكومة المؤقتة ويحدد المباديء العامة لمهام وأعمال الجمعية التأسيسية.

- ١٠٥ -

كنت أود السفر الى قونو بعد خروجي من السجن مباشرة ولكنني لم أتمكن من ذلك حتى أبريل. لم يعد بإمكاني حزم أمتعتي والسفر متى شئت والى حيث شئت إذ لا بد من الترتيبات الأمنية وتحضير الخطب. في أبريل اتفق حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والجنرال بانتو هولوميسا General Bantu Holomisa القائد العسكري في ترانسكاي وأحد الموالين للحزب على ترتيبات الزيارة. ولكن أهم ما كان يشغل بالي وقلبي هو زيارتي لقبر أمي.

اتجهت مباشرة الى قونو والى البقعة التي دفنت فيها أمي. كان قبرها بسيطا بلا علامة فارقة، مغطى بالحجر وقطع من الآجر لا شيء يميزه عما حوله من قبور. أجد صعوبة في التعبير عن مشاعري في تلك اللحظة. حزنت لعدم وجودي معها عندما فارقتها الحياة، وندمت لتقصيري في رعايتها كما تستحق وهي حية، وانتابتي حسرة على ما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور لو أنني اتخذت طريقا في حياتي غير الذي سرت فيه.

فوجئت في قريتي الصغيرة بعد تلك السنوات الطويلة بالكثير الذي تغير، وبالكثير الذي لم يتغير. لم تكن السياسة هي القوة الأساسية في حياة أهل قونو في أيام صباي، ولم يكونوا على علم بالنضال من أجل حقوق الأفريقيين. رضي الناس آنذاك بالحياة كما هي ولم يحلموا بتغييرها. واليوم عدت لأجد أطفال المدارس يرددون أهازيج عن أوليفر تامبو وأومخوتو وي سيزوى، وتعجبت أن أدبيات النضال تسربت الى كل ركن من أركان حياة الأفريقيين.

ظل دفء الأهالي وبساطتهم حياً وهو ما عاد بي الى أيام الصبا، ولكن أزعجني أن السكان لا يزالون على فقرهم الذي تركتهم فيه، بل أصبحوا أكثر فقرا. لا يزال غالبية السكان يعيشون في أكواخ بسيطة أرضيتها من التراب، لم تدخلها الكهرباء ولا المياه. كانت القرية في صغري منظمة وكان الماء عذبا نظيفا والعشب أخضر غير ملوث يمتد على مدى البصر. كنا ننظف الأكواخ ونحافظ على نظافة التربة وطهارتها وكانت الحقول مقسمة تقسيما أنيقا. أما الآن فالقرية في حالة رثة والمياه ملوثة والريف مليء بأكياس البلاستك والنفايات والقاذورات. لم نكن نعرف البلاستيك في طفولتي، ورغم أن مستوى الحياة ارتفع في جوانب معينة دون شك، ظهر ذلك في قونو وكأنه آفة من الآفات الضارة. يبدو أن روح الاعتزاز والكرامة في المجتمع قد تلاشت.

قمت في ذلك الشهر بزيارة أخرى من نوع خاص. عدت الى جزيرة روبن في محاولة لاقناع خمسة وعشرين سجينا من أعضاء حركة (أمكا) بقبول عفو الحكومة عليهم ومغادرة الجزيرة. لقد غادرت الجزيرة قبل ثمان سنوات ولكن ذكرياتي فيها لا تزال نضرة حية. ذهبت الى الجزيرة زائرا بعد أن كنت أستقبل فيها الزوار سنين طوالا.

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت ذلك اليوم للتجول في الجزيرة. اتجهت رأسا الى مقابلة أولئك السجناء الذين أصروا على ألا يغادروا الجزيرة إلا بعد النصر في ميدان المعركة وليس على مائدة المفاوضات. كانوا معارضين بشدة للعرض المقدم إليهم والذي يتطلب منهم أن يعددوا جرائمهم قبل صدور العفو عليهم. اتهموا حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بالتخلي عن مطلب إعلان هراري بعفو عام غير مشروط يشمل جميع السجناء السياسيين والمنفيين. قال لي أحدهم:

- ماديبا. ظللت أحارب الحكومة طول حياتي وتريد مني اليوم أن أطلب منها العفو؟

جدت في نفسي تعاطفا مع موقفهم ولكنهم غير واقعيين. فكل جندي يتمنى أن يهزم عدوه في ساحة المعركة ولكن النصر في هذه الحالة غير ممكن. انتقل النضال الى مائدة المفاوضات. قلت إن بقاءهم في السجن لا يخدم القضية، وبإمكانهم المساهمة وهم خارج السجن بشكل أكبر من مساهمتهم وهم داخله، ووافقوا في آخر المطاف على قبول عرض الحكومة.

* * *

في أوائل يوليو اتخذت ترتيبات لجولة لمدة ستة أسابيع أزور فيها دول أوروبا وأمريكا الشمالية. وقبل مغادرتي عقدت لقاء خاصا مع السيد دو كليرك وكان يرغب في مناقشة موضوع العقوبات. طلب مني التعديل في موقفي للمطالبة باستمرار فرض العقوبات على جنوب أفريقيا في ضوء التغيرات التي أحدثها في جنوب أفريقيا. وفي حين أخذنا في الاعتبار ما قدمه دو كليرك ظلت العقوبات الدولية في رأينا أفضل وسيلة للضغط عليه لعمل المزيد. كنت أعلم أن دول المجموعة الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية تميل الى تخفيف العقوبات بناء على إصلاحات السيد دو كليرك. قلت له إنه ليس بإمكاننا أن نطلب من أنصارنا تخفيف العقوبات حتى يقوم بتفكيك النظام العنصري بالكامل وبروز حكومة انتقالية تحل محله. أصيب بخيبة أمل ولكنه لم يفاجأ بردي.

كانت أول محطة هي باريس حيث استقبلنا الرئيس فرانسوا ميتران Francois Mitterrand وزوجته اللطيفة دانيل Danielle وهي من أنصار حزبنا القدامى استقبالا فاخرا. كانت تلك أول رحلة أقوم بها الى دول القارة الأوروبية وكانت بصحبتي ويني وأخذت بجمال ذلك العالم القديم. أرجو ألا يفسر كلامي بأنني أنتقص من جمال مدينة النور ولكن أهم حدث أثناء تلك الزيارة هو اعلان الحكومة رفع حالة الطوارىء. كنت سعيدا بذلك التطور، ولم يفتني أن الحكومة اختارت اتخاذ ذلك القرار أثناء وجودي في أوروبا كي تلغي مبررات دعوتي للحفاظ على فرض العقوبات الدولية. اتجهت من باريس الى سويسرا ثم إيطاليا فهولندا ثم انجلترا حيث قضيت يومين في زيارة أوليفر وزوجته أديليد. المحطة التالية هي الولايات المتحدة الأمريكية وسوف أتوقف ثانية في انجلترا في طريق عودتي الى جنوب أفريقيا لمقابلة السيدة مارغريت ثاتشر. اتصلت بها

هاتفيا للتحية قبل أن أغادر لندن فراحت عن حسن نية تلقي عليّ محاضرة في الانضباط. قالت إنها تابعت برنامج سفري ولاحظت أنني أظهر في نشاطات كثيرة كل يوم. وأضافت تقول:

- يامانديلا، قبل أن ندخل في أي مناقشات أنبهك الى أن برنامجك مزدحم جدا وعليك أن تختصره بمقدار النصف. إنه برنامج مرهق لرجل في نصف عمرك، وإذا واصلت العمل بهذا الشكل فلن تعود حيا من أمريكا. هذا ما أنصحك به".

* * *

قرأت عن نيويورك كثيرا منذ الصغر. أما رؤيتي لها عيانا من قاع شواهقها الاسمنتية والزجاجية وملايين من أشرطة الزينة تتساقط علينا من السماء فقد كانت تجربة فريدة مدهشة. قيل إن ما يقرب من مليون شخص حضروا موكبنا وهو يخترق شوارع المدينة، وقد اثار فينا حماسهم لدعم نضالنا ضد التفرقة العنصرية مشاعر التواضع والعرفان. قرأت كثيرا عن نيويورك المدينة القاسية التي لا تعرف الرحمة ولكنني شعرت بالعكس تماما منذ أول يوم أقضيه فيها.

في اليوم التالي زرت هارلم، ذلك الحي الذي انطبع في ذهني كأسطورة منذ الخمسينات عندما كنت أرى الرجال في سويتو يقلدون موضة شخصيات هارلم. فهارلم - كما أشارت زوجتي - هي سويتو أمريكا. تحدثت أمام حشد كبير من الناس في استاد يانكي وقلت إن حبلا سُرّيا متينا يربط بين السود في جنوب أفريقيا وسود أمريكا لأننا جميعا أبناء أفريقيا، وإن هناك علاقة عرقية حميمة بين الشعبين. وهي العلاقة التي أحياها أولئك العظام من الأمريكيين أمثال دبليو إي بي دو بوا W E B Du Bois وماركوس هارفي ومارتن لوثر كينغ. كنت في صغري متعلقا بأبطال مثل براون بومبر Brown Bomber وجو لويس Joe Louis الذي لم يتصد لخصومه في حلبة الملاكمة فحسب بل تصدى للعنصرية ضد السود خارجها. وفي السجن كنت أتابع من كثب نضال السود الأمريكيين ضد العنصرية والتمييز العنصري والظلم الاقتصادي. إن هارلم هي رمز الصمود والقوة وهي جمال عزة السود. وقد عرفني بتلك الحقيقة شاب بالأمس كان يرتدي قميصا كتب عليه: "أسود بالفطرة فخور بإرادتي". قلت إن الفطرة تجمعنا ويعتز بعضنا ببعض بمحض إرادتنا.

اتجهنا بعد ذلك الى ميمفيس وبوسطن ثم واشنطن لإلقاء خطاب في جلسة مشتركة للكونغرس والاجتماع بالرئيس جورج بوش. شكرت الكونغرس على ما أصدره من قوانين ضد التفرقة العنصرية وقلت إن جنوب أفريقيا المستقبل تأمل أن تحافظ على القيم والمباديء التي أنشأت هذا الصرح الديمقراطي الذي أقف فيه اليوم. وقلت إننا كمناضلين من أجل الحرية لم نكن لنسمع عن رجال أمثال جورج واشنطن وإبراهام لينكولن وتوماس جيفرسون "ثم لا نهب للكفاح كما هبوا". وتحدثت عن العقوبات حديثا شديد اللهجة لأنني كنت أعلم أن إدارة الرئيس بوش كانت ترى أن الوقت حان لتخفيفها، فالححت على الكونغرس ألا يوافق على ذلك.

تكوّن لدي انطباع إيجابي عن جورج بوش قبل أن التقي به، وكان هو أول رئيس دولة اتصل بي هاتفيا يهنئني بخروجي من السجن. وأصبحت منذ تلك اللحظة على قائمة الزعماء الذين يتشاور معهم الرئيس بوش في القضايا ذات الأهمية. كان بوش دافئا حسن الانتباه رغم اختلافنا الكبير حول النضال المسلح والعقوبات، ولكنه رجل يمكن أن تختلف معه ثم يصافحك.

انطلقت من الولايات المتحدة الى كندا حيث اجتمعت برئيس الوزراء مالروني Mulroney وألقيت خطابا أمام البرلمان. في الطريق الى ارلندا توقفت بنا الطائرة في مكان في القطب الشمالي يسمى غوس باي Goose Bay (خليج الإوز) فخرجت من الطائرة للتمشي في الجليد ورأيت مجموعة من الناس على حافة المطار قيل لي إنهم من الأسكيمو.

لم أقابل طول سنواتي الاثنتين والسبعين أحدا من الأسكيمو (وهو الاسم الذي أطلقه عليهم المستعمرون إذ إن اسمهم الأصلي هو النوْت) ولم يخطر ببالي أنني سأقابلهم. اتجهت نحو ذلك الجمع الصغير من الشباب الذين جاءوا الى المطار لدى سماعهم بأن طائرتنا ستتوقف هناك، وكان الانطباع الذي كونته عنهم من خلال ما كتبه المستعمرون العنصريون أنهم قوم متخلفون جدا.

من خلال حديثي معهم علمت أنهم تابعوا مسيرتي منذ اطلاق سراحي من السجن عبر التلفزيون وأنهم كانوا على علم بآخر التطورات في جنوب أفريقيا. هتف أحدهم قائلا: "يعيش حزب المؤتمر الوطني الأفريقي!" والنوت قوم أروميون أساء معاملتهم المستعمرون، وهناك شبه كبير بين تاريخهم وتاريخ السود في جنوب أفريقيا. ولكن الحقيقة التي فطنت لها ذلك اليوم هي أن العالم أصبح حقا قرية صغيرة أثناء غيابي في السجون. فقد دهشت لقدرة النوت في أقصى شمال الكرة الأرضية على مشاهدة اطلاق سراح سجين سياسي في أقصى جنوبها مشاهدة حية. لقد طوى التلفزيون المسافات عبر العالم وصار سلاحا فعالا للقضاء على الجهل ونشر الديمقراطية في جميع انحاء المعمورة.

اتجهت الى لندن حيث اجتمعت مع السيدة ثاتشر لمدة ثلاث ساعات. أصبت بلفحة برد أثناء وقوفي للحديث مع النوت، وكان اليوم المقرر لمقابلة السيدة ثاتشر يوما باردا ممطرا ونصحتني ويني بارتداء معطف للوقاية من المطر، ولكن الوقت يلاحقنا وكنت حريصا على ألا نتأخر عن الموعد ولو لمجرد تصحيح الصورة الخاطئة لدى الغربيين عنا نحن الأفريقيين بأننا لا نحافظ على المواعيد. وقفت في المطر أحيي الجمهور وأوقع اسمي في مفكرات الأطفال، وما أن حان موعد لقاء السيدة ثاتشر حتى وهِنَت قواي واكتشفت فيما بعد أنني أصبت بنزلة برد خفيفة.

لم يؤثر ذلك على سير الاجتماع باستثناء أن السيدة ثاتشر قرعتني وكأنها مديرة المدرسة لعدم أخذي بنصيحتها بالتخفيف من برنامجي اليومي. ورغم أن السيدة ثاتشر لا تتفق معنا حول عدد من القضايا كالعقوبات وغيرها فهي سيدة صريحة وتهتم بالتفاصيل، ولكنني أخفقت بالكامل في تغيير موقفها من العقوبات ولو بمقدار قيد أنملة.

- ١٠٦ -

بمجرد رجوعي الى جنوب أفريقيا بعد زيارات خاطفة لأوغندا وكينيا والموزمبيق طلبت الالتقاء بالرئيس دو كليرك. حالة العنف في البلاد ازدادت سوءا وعدد الضحايا في ارتفاع وتجاوز في عام ١٩٩٠ وحده ألفا وخمسمائة قتيل، وعدد ضحايا العنف السياسي أكثر بكثير من العام السابق. أحسست بضرورة الدفع قدما بعملية تطبيع الأوضاع، فبلادنا تنزف وعلينا أن نتحرك بخطى سريعة. إنهاء حالة الطوارىء في يونيو مهد الطريق لاستئناف المحادثات. ولكن قوات الحكومة اعتقلت في يوليو نحو أربعين من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي منهم ماك ماهاراجا وبرافن غوردان Pravin Gordhan وسيبوى نيياندا Siphiwe Nyanda وبللي ناير Billy Nair اتهمتهم بالضلوع في خطة من ورائها الحزب الشيوعي عرفت باسم "عملية فولا" Operation Vula للإطاحة بالحكومة. دعا دو كليرك لاجتماع طاريء معي وقرأ عليّ من وثائق قال إنها قبضت في حيازة المتهمين. فوجئت بالحدث لأنني لم أكن أعلم عنه شيئا.

بعد الاجتماع اتصلت بجو سلوفو للاستفسار عن الموضوع، فقال إن الوثائق التي أشار إليها دو كليرك لا تعني شيئا وأن عملية فولا فكرة قديمة قد عفا عليها الزمن. وقال إن الحكومة تصر على استغلال الموضوع لإحداث شرخ بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي وإقصاء جو سلوفو عن المفاوضات. عدت الى دو كليرك وأخبرته بأنه ضحية تضليل من قبل شرطة حكومته، وأننا لا نعتزم إنهاء علاقتنا مع الحزب الشيوعي أو إسقاط اسم جو سلوفو من فريق المفاوضات.

في منتصف يوليو وقبيل انعقاد اجتماع اللجنة التنفيذية العامة للحزب تقدم جو سلوفو لي بصفة خاصة باقتراح فحواه أن نوقف النضال المسلح باختيار منا كي نهيأ المناخ الإيجابي للدفع بعملية المفاوضات الى الأمام. وقال جو إن دو كليريك في حاجة الى أن يبرهن لأنصاره على أن سياسته مثمرة وفي صالح البلاد. كان رد فعلي لأول وهلة سلبيا لشعوري بأن الوقت لم يحن بعد لخطوة كهذه.

ولكنني كلما فكرت في الموضوع تبين لي أن علينا الأخذ بزمام المبادرة وأن تلك هي أفضل وسيلة في هذا الصدد. كما أحسست أن جو هو أنسب من يتقدم بالاقتراح نظرا لسجله الراديكالي الذي لا جدال حوله. فلن يستطيع أحد اتهامه بالسذاجة أو بالاستسلام للحكومة. أخبرت جو في اليوم التالي بأنني سوف أؤيد الفكرة إذا رأي أن يطرحها أمام اللجنة التنفيذية العامة.

قوبل الاقتراح بمعارضة من قبل بعض أعضاء اللجنة بحجة أننا نقدم هدية لأنصار دو كليرك على حساب أنصارنا. ولكنني دافعت عن الاقتراح قائلا إن هدف النضال المسلح ظل دائما اجبار الحكومة على الجلوس حول مائدة المفاوضات وها قد تحقق ذلك الهدف.

وقلت إنه بإمكاننا التراجع في قرار وقف النضال المسلح في أي وقت ولكنه خطوة هامة لإثبات حسن نيتنا. بعد نقاش دام عدة ساعات فاز الاقتراح.

كانت تلك خطوة مثيرة للجدل داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ورغم أن حركة (أمكا) لم تكن نشطة في ذلك الوقت إلا أن الجو الذي اضفاه النضال المسلح على المواجهة كان يحمل معان كثيرة لعديد من الناس. فالنضال المسلح دليل على أننا في مواجهة مع عدونا حتى وإن كنا نستخدمه مجازا لا حقيقة. وقد كانت شعبية النضال المسلح أكبر بكثير من نتائجه التي حققها في ميدان المعركة.

في ٦ أغسطس وقعت الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في بريتوريا على ما عرف باسم محضر بريتوريا الذي اتفق بموجبه على أيقاف النضال المسلح. وأكدت بعد ذلك مرارا لأنصارنا في كل مكان أن إيقاف العمل السلح لا يعني إلغاءه بالكامل من برنامجنا. حددت الحكومة من طرفها مواعيد للإفراج عن السجناء السياسيين وإصدار العفو عنهم. واتفقنا على استكمال اجراءات العفو قبل مايو ١٩٩١ ووافقت الحكومة على إعادة النظر في قانون الأمن الداخلي Internal Security Act.

لم يعرقل عملية السلام ويثبط الجهود شيء أكثر من تصاعد العنف في أنحاء مختلفة من البلاد. كنا نأمل أن يخفف الشروع في المفاوضات من موجة العنف، ولكن ما حدث في الواقع هو العكس تماما. واصلت الشرطة وقوات الأمن حملة الاعتقالات ووجه سكان ضواحي المدن التهمة إليها بتأجيج العنف والتحريض عليه. اتضح لي أكثر فأكثر أن هناك تواطأ من قبل قوات الأمن، وأكدت أحداث كثيرة أن الشرطة كانت تؤجج لهيب العنف بدلا من أن تطفئه.

زرت خلال الأشهر التالية عددا من ضواحي المدن في المناطق التي هزها العنف في منطقة فال ترايانغل Vaal Triangle جنوب جوهانسبيرغ أواسي الجرحى وأسر الضحايا. حيثما ذهبت سمعت قصة واحدة فحواها أن الشرطة وقوات الدفاع تسعى الى زعزعة الاستقرار في المنطقة. سمعت روايات عن استيلاء الشرطة على أسلحة في منطقة معينة اليوم وهجوم قوات انكاتا على الناس في اليوم التالي مستعملة الأسلحة نفسها التي سرقت بالأمس. وروايات عن توفير قوات الشرطة الحماية لأعضاء انكاتا في اجتماعاتهم وأثناء هجومهم على المنطقة.

القيت خطابا في سبتمبر أشرت فيه الى الأيدي الخفية من وراء العنف والى "القوة الثالثة" المجهولة التي تضم أفرادا خارجين عن قوات الأمن يعملون من أجل تعطيل المفاوضات. لم يكن بإمكاني كشف هوية تلك "القوة الثالثة" ولم أكن أعرف رجالها، ولكنني كنت على يقين بوجودها وبأعمالها الإجرامية القاتلة التي استهدفت حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحركة التحرير.

وصلت الى تلك النتيجة بعد حادثتين كنت شخصيا على علم بتفاصيلهما. في يوليو

١٩٩٠ وصلت حزب المؤتمر الوطني الأفريقي معلومات عن تخطيط مجموعة من أعضاء حزب حرية انكاتا لهجوم كبير على أعضاء الحزب في ضاحية سيبوكينغ في فال ترابنغل يوم ٢٢ يوليو. أخبرنا وزير القانون والنظام وقائد قوات الشرطة والمفوض المحلي عن طريق محامينا، وحذرناهم من الهجوم مع الإلحاح عليهم باتخاذ الاجراءات المناسبة. طلبنا من الشريطة منع أعضاء إنكاتا المسلحين من دخول الضاحية للمشاركة في اجتماع عام نظمه حزبهم هناك.

وفي يوم ٢٢ يوليو دخلت سيبوكينغ في وضح النهار حافلات تقل مسلحين من أعضاء إنكاتا ترافقهم عربات الشرطة. بعد نهاية الاجتماع انتشر المسلحون يطلقون الرصاص في كل اتجاه فقتلوا ثلاثين شخصا في نوبة مرعبة من القتل والارهاب. زرت مكان الحادث في اليوم التالي ورأيت مشاهد لم أرها قط وأرجو ألا أراها في حياتي أبدا. رايت في المستشفى جثثا قطعت أوصالها ورأيت جثة امرأة قطع ثدياها بالسكين. إنها أعمال لا يأتيها إلا وحوش.

طلبت الاجتماع بدو كليرك وكنت غاضبا فطلبت منه توضيح الأمر، وقلت:

– لقد حذرناكم مسبقا ولم تحركوا ساكنا. ما أسباب ذلك؟ لماذا لم يعتقل أحد؟ ولماذا وقفت الشرطة مكتوفة اليدين؟

وقلت لدو كليرك في البلاد الأخرى عندما يقتل أكثر من ثلاثين شخصا في مأساة كهذه فإن رئيس الدولة يتوجه بالتعزية لأهلهم وذويهم ولكنه لم يتفوه بكلمة واحدة. حار جوابا ولم يقدم لي أي تفسير لما حدث.

أما الحادثة الثانية فقد كانت في نوفمبر عندما دخل مسلحون من أعضاء إنكاتا معسكرا للمشردين يعرف باسم زونكيزيزوى Zonkizizwe (ومعناها في لغة الزولو "المكان المفتوح للجميع") في ضواحي مدينة جيرمانستون شرقي جوهانسبيرغ فاعتدوا على أهله وطردوا جميع من فيه من أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وقتلوا عددا منهم في العملية. احتل أنصار إنكاتا بيوت المطرودين واستولوا على كل ممتلكاتهم. وأكد أهالي المعسكر أن أنصار إنكاتا كانوا مصحوبين بقوات من الشرطة. ومرة أخرى لم تتخذ الحكومة أو الشرطة أي إجراءات تجاه تلك الجريمة. لقد نزلت قيمة أرواح السود في جنوب أفريقيا الى الحضيض.

التقيت بدو كليرك من جديد وبوزير القانون والنظام أدريان فولك Adriaan Volk وسالت دو كيليرك مرة أخرى لماذا لم تتحرك الشرطة في أعقاب تلك الأعمال الاجرامية. قلت إنه من السهل التعرف على المعتدين لأنهم احتلوا أكواخ ضحاياهم الذين قتلوهم. أحال دو كليرك السؤال على السيد فولك الذي سألني في رعونة من يمتلك الأرض التي تقوم عليها الأكواخ ويعني بذلك أن السكان لم يكونوا يملكون حق الإقامة على تلك الأرض. قلت إن الأرض في واقع الأمر منحت للسكان من قبل السلطات المحلية. ولكن موقفه كان كموقف كثير من الأفريكان وهو أن الأمر ليس بالجديد، فالسود يقتل بعضهم

بعضا منذ القـدم. وعد دو كليرك بتحري الأمـر وإخباري بنتائج التحـقيق ولكنني لم أسمع منه شيئا بعد ذلك اليوم.

في تلك الأثناء أقدمت الحكومـة على فعل آخر أجج نيران العنف. فقـد أصدرت قانونا يسمح للزولو بحمل ما يـسمى "أسلحة تقليدية" في الاجتمـاعات العامة في ناتـال وغيرها من المناطق. وهذه الأسلحة هي الرماح والعـصي والحراب نفسها التي قـتل بها أنصار إنكاتا أعضـاء الحزب من قبل. خلف هذا القرار في نفـسي شكوكا عمـيقة تجاه نيـة دو كليرك في تحقيق السلام.

المعارضون للمفاوضات هم الذين استفـادوا من العنف الذي غالبا ما يزداد كلما اقتربت الحكومة والحـزب من الاتفاق. كمـا أن القوى المعاديـة كانت تسعى الى نشـوب الحرب بين الحزب وإنـكاتا وقد تواطأ مع هؤلاء - في رأيي- كـثيـر من أعضـاء إنكاتا وأنصارهـا. أما داخل الحكومة فقد كان دو كليرك وغيره يفضلون غض الطرف عما كان يجري أمام أعينهم ويعرفون حـقيقته. ولم يكن لدينا أدنى شك في أن "القـوة الثالثة" تلقى الدعم والتـشجيـع من شخصـيات على أعلى المستويات في الشرطة وقـوات الأمن، وقد تأكدت تلك الشكوك فيما بعد في تقارير صحافية كشفت أن الشرطة في جنوب أفريقيا كانت تمول إنكاتا سرا.

بينما أخـذ العنف في التصـاعد بدأت تدب في نفـسي شكوك حول فائدة تعلـيق العمل المسلح. كان كثير من أعـضاء الحزب في حالة غليان، وفي سبتمـبر قلت في مؤتمر صحافي إن تواصل العنف ربما أوجب علينا استئناف حمل السلاح من جديد. كانت الصورة حالكة وبدا أن كل ما حققناه من تفاهم وتقارب مع الحكومة قد تبخر.

- ١٠٧ -

في ديسمبر ١٩٩٠ عاد أوليفر تامبو الى جنوب أفريقيا بعد إبعاده عن وطنه ثلاثين عاما، وكنت سعيدا بوجوده بيننا. عاد أوليفر لحضور مؤتمر استشاري لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في جوهانسبيرغ اشترك فيه أكثر من خمسين ممثلا من خمسة وأربعين إقليما من داخل جنوب أفريقيا وخارجها.

تحدثت في المؤتمر عن مناقب أوليفر الذي قاد الحزب في أحلك الفترات وحافظ على جذوة الكفاح حية مشتعلة، وها هو اليوم يقودنا نحو مستقبل مشرق مفعم بالأمل. فأوليفر هو الذي أنقذ الحزب طول السنوات السبعة والعشرين التي قضيتها في السجن، وهو الذي انتقل به الى منظمة عالمية لها قوتها ونفوذها. استلم أوليفر زمام قيادة الحزب عندما كان معظم قادته داخل السجن أو في المنفى. إنه بحق الجندي والدبلوماسي ورجل الدولة.

وجهت انتقادات حادة للحملة المنظمة المضادة للثورة التي تشنها الحكومة ضدنا، ولكن خطاب أوليفر هو الذي ألهب الحماس. افتتح خطابه بالدعوة الى إعادة النظر في سياسة العقوبات فقال إن الحزب يواجه "التهميش دوليا" ما لم يبادر بالدعوة الى تخفيف العقوبات على جنوب أفريقيا. فدول المجموعة الأوروبية بدأت فعلا في تخفيف العقوبات، والدول الغربية خاصة بريطانيا والولايات المتحدة تهدف الى مكافأة دو كليرك على ما أحدثه من إصلاحات سياسية في البلاد اعتقادا منها أن ذلك سيدفعه الى مزيد من الإصلاحات. وقال لقد أحسسنا بأن هذه الاستراتيجية خاطئة ولكننا وجدنا أنفسنا مجبرين على الاعتراف بحقيقة الواقع الدولي. ورغم أن خطاب أوليفر نوقش داخل اللجنة التنفيذية ووافقت عليه فقد أثار سخط المتشددين في الحزب الذي كانوا مصرين على المطالبة بإبقاء العقوبات على ما هي عليه، وكان ذلك ما وافق عليه المؤتمر.

وجدت نفسي هدفا لكثير من الشكاوى والنقد من قبل الذين قالوا إن المفاوضين معزولين عن القاعدة الشعبية وإنهم يقضون أغلب أوقاتهم مع زعماء الحزب الوطني الحاكم بدلا من قضائه بين أبناء الشعب. ووجه الى النقد لانتهاجي منهج "الدبلوماسية الشخصية" وعدم توعية صفوف الحزب وكوادره بما يدور في المفاوضات. من واجب قادة الحركات الشعبية أن يستمعوا لصوت القاعدة، وأقررت بأننا ربما قصرنا في توعية جميع أفراد التنظيم بمجريات الأحداث الخاصة بالمفاوضات، ولكنني كنت أعرف جيدا مدى حساسية المحادثات الجارية مع الحكومة وأن ما نتوصل إليه من اتفاق مرهون الى حد ما بالمحافظة على قدر من السرية. تقبلت النقد ولكنني كنت أؤمن باننا لا نملك خيارا آخر سوى أن نتقدم على الطريق نفسه. أجل، إننا في حاجة الى إشراك أكبر عدد ممكن من الناس وتوسيع دائرة الوعي بما نحرزه من تقدم فواصلت السير في ذلك الاتجاه.

واصلت الصحف يوما بعد يوم نشر تقارير عن تصاعد العنف الدموي في الأحياء

وضواحي المدن، وأصبح العنف بلا جدال القضية الأولى في البلاد. تحولت الحياة في ناتال وضواحي جوهانسبيرغ الى حجيم لا يطاق بسبب تواطؤ الجريمة والمنازعات السياسية ووحشية الشرطة وعصابات الإغتيال السرية. وما لم تواجه ظاهرة العنف مواجهة حازمة وحاسمة فإن الأمل في إحراز أي تقدم نحو نظام سياسي جديد سوف يظل مهزوزا وفي علم الغيب.

في محاولة لوضع حد للعنف المتصاعد اتصلت بالزعيم بوتيليزي لترتيب اجتماع معه، فالتقينا في فندق رويال في ديربان في يناير ١٩٩١ . وقبل الاجتماع تحدث الزعيم بوتيليزي للوفود المجتمعة ولوسائل الإعلام، ولكنه بدلا من ترطيب الجروح فقد نكأها من جديد. استعرض الحملات الكلامية التي شنها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ضده وانتقد مطالب الحزب في المفاوضات. وعندما جاء دوري في الحديث فضلت الا أرد على الزعيم بوتيليزي وشكرته على جهوده من أجل إطلاق سراحي طول السنوات التي قضيتها في السجن وأشرت الى العلاقة الطويلة التى تربط بيننا مؤكدا على القضايا الكثيرة التي توحد بين حزبينا.

أحرزنا بعض التقدم في محادثاتنا الخاصة ووقعنا ميثاق شرف يحكم تصرفات الحزبين. كان اتفاقا منصفا للجميع وكان بإمكانه - حسب تقديري - أن يساعد في وضع حد لسفك الدماء. ولكن حزب إنكاتا - حسب علمي - لم يبذل أي جهد لتطبيق ذلك الاتفاق، كما صدرت من طرفنا أيضا مخالفات لما جاء فيه.

تواصلت المواجهات العنيفة بين الطرفين وسقط مئات الضحايا كل شهر. في مارس ١٩٩١ شن أعضاء انكاتا هجوما في ضاحية أليكساندرا في شمال جوهانسبيرغ تواصل على مدى ثلاثة أيام راح ضحيته خمسة وأربعون شخصا، ولم تعتقل السلطات فردا واحدا.

لم يكن بوسعي الوقوف جانبا والحال هكذا فسعيت للاجتماع بالزعيم بوتيليزي من جديد، وذهبت في ابريل الى ديربان فالتقينا وأصدرنا تصريحات قوية ووقعنا اتفاقية أخرى، ولكنها اختلطت بدماء الضحايا قبل أن يجف الحبر الذي كتبت به. زدت يقينا أكثر من أي وقت مضى بأن الحكومة من وراء العنف وأن العنف هو العقبة الساسية أمام المفاوضات. لقد أصبحت علاقتنا بالحكومة مهددة بسبب إخفاق دو كليرك في التجاوب للحد من استشراء العنف.

في اجتماع اللجنة التنفيذية العامة الذي عقد في أبريل واستمر على مدى يومين كاملين طرحت للنقاش تحفظاتي على دو كليرك. كانت اللجنة التنفيذية على يقين بأن الحكومة هي المحرك للعنف وأن العنف أخل بجو المفاوضات. وجهنا رسالة مفتوحة الى الحكومة طالبنا فيها بإقالة وزير الدفاع ماغنس مالان Magnus Malan ووزير القانون والنظام أدريان فولك، وحظر حمل الأسلحة التقليدية في الشوارع واتباع سياسة التدرج في إلغاء مساكن العمال المهاجرين التي يقيم فيها غالبية أعضاء إنكاتا في ضواحي السود المحيطة

بجوهانسبيرغ، وحل وحدات مكافحة التمرد السرية الحكومية، وتعيين هيئة مستقلة للنظر في الشكاوى من سوء تصرف قوات الأمن.

أعطينا الحكومة مهلة حتى مايو للاستجابة لطلباتنا، واستجاب السيد دو كليرك بالدعوة لمؤتمر متعدد الأحزاب في مايو لدراسة ظاهرة العنف، فرددت بأن ذلك لا طائل من ورائه لأن الحكومة تعلم جيدا ما يجب عليها أن تتخذه من خطوات لإيقاف العنف . وفي مايو أعلنا إيقاف المحادثات مع الحكومة.

في يوليو ١٩٩١ عقد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي أول مؤتمر عام له داخل جنوب أفريقيا منذ ثلاثين عاما. حضر المؤتمر ألفان ومئتان وأربعة واربعون ممثلا انتخبتهم فروع الحزب داخل البلاد وخارجها انتخابا ديمقراطيا. انتخبت في المؤتمر رئيسا للحزب بالتزكية، وانتخب سيريل رامافوزا أمينا عاما، وفي هذا دليل على انتقال شعلة النضال من جيل القيادة القديم الى قيادة من الجيل الجديد. وسيريل الذي لم أتعرف عليه إلا بعد خروجي من السجن خلف كفؤ لموكب طويل من القادة البارزين في الحزب. وربما كان سيريل أبرع المفاوضين في صفوف الحزب، وهي مهارة صقلت أثناء عمله أمينا عاما للنقابة الوطنية لعمال المناجم.

أعربت في خطابي عن شكري وتقديري للشرف الذي أسبغه المؤتمر عليّ، وعن الصعوبة التي ستواجهني في مجاراة خطى سلفي أوليفر تامبو. وقلت رغم خلافاتنا مع الحكومة فإن المفاوضات في حد ذاتها تمثل نصرا كبيرا. فمجرد اشتراك الحكومة في المفاوضات هو دليل على فقدانها القوة لدعم النظام العنصري والمحافظة عليه. وأكدت من جديد على صعوبة المرحلة لأننا نتفاوض مع رجال سياسة لا رغبة لهم في تسليم السلطة بالكامل. وأضفت قائلا: "إن النقطة التي يجب علينا أن نفهمها بكل وضوح هي أن النضال لم ينته وأن المفاوضات هي ميدان من ميادين النضال نحن معرضون فيه - كغيره - للتقدم والانتكاس".

ولكن المفاوضات لا تنتظر. فلم يكن في صالحنا امتداد مأساة النظام العنصري لأي سبب من الأسباب، ومن الضروري تأسيس حكومة انتقالية في أقرب فرصة ممكنة.

أكد المؤتمر على قضية من أهم القضايا التي يواجهها الحزب وهي الإنتقال من حركة تحرير سرية غير معترف بها الى حزب سياسي شعبي يعمل في إطار الشرعية. لقد عمل الحزب ثلاثين عاما كتنظيم سري في جنوب أفريقيا وتأصلت فيه طباع ووسائل العمل السري، والآن علينا إعادة بناء التنظيم كله من جديد ابتداء من الفروع المحلية الصغيرة وحتى اللجنة التنفيذية العامة. وكان علينا إنجاز تلك المهمة خلال شهور في مرحلة تشهد تغيرات هائلة فوق العادة.

كان عدد كبير من قادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي في المنفى، وعاد أغلبيتهم لحضور مؤتمر يوليو ١٩٩١ . كانوا غرباء على جنوب أفريقيا اليوم التي أصبحت

أرضا جديدة عليهم وعليّ. ولكن كان هناك جيل جديد من العناصر القيادية الشابة من الجبهة الديمقراطية المتحدة واتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا الذي ظلوا داخل البلاد وكانوا على علم بأوضاعها السياسية أكثر مما كنا. كانت تلك التنظيمات بمثابة الوكيل للحزب داخل جنوب أفريقيا خلال الثمانينات، وكان لزاما على الحزب استيعاب هؤلاء الرجال والنساء في التنظيم.

لم تكن المشاكل التي واجهتنا عملية وحسب بل واجهتنا مشاكل فلسفية كذلك. إن المحافظة على تماسك الحركة أثناء مواجهة عدو مشترك أمر يسير، أما وضع السياسات وأنت تواجه ذلك العدو على مائدة المفاوضات أمر يختلف كل الاختلاف. فلم نكن في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الجديد في حاجة الى التوحيد بين مجموعات مختلفة وحسب بل وبين وجهات نظر مختلفة أيضا، وكانت حاجتنا ماسة الى توحيد التنظيم كله حول فكرة المفاوضات.

تمكن الحزب خلال الشهور السبعة عشرة التي استعاد فيها شرعيته من تجنيد سبعمائة عضو جديد، وهو إنجاز كبير ولكنه لا يبرر الزهو والشعور بالرضى. فقد كانت نسبة قليلة من الأعضاء من المناطق الريفية حيث ظل وجود التنظيم ضعيفا على مدار السنين. ومن جهة أخرى فتح الحزب الوطني أبوابه على مصراعيها لغير البيض وعكف على تجنيد كثير من الملونين والهنود الساخطين.

منذ اللحظة الأولى التي غادرت فيها السجن شنت الدولة حملة لتشويه سمعة زوجتي. فقد أصبحت ويني هدفا للتشهير منذ صدور المزاعم المتعلقة بخطف أربعة شبان – وموت أحدهم – كانوا مقيمين في البيت الكائن بديبكلوف. بدأت حملة التشويه همسا، ثم قدمت لويني أربع تهم بالخطف والاعتداء. لقد أضفت تلك الحملة شكوكا حول شخصية ويني جعلتنا نتوق الى اليوم الذي تقف فيه أمام المحكمة لتثبت براءتها من تلك التهم.

بدأت المحاكمة رسميا في فبراير أمام محكمة راند العليا Rand Supreme Court في جوهانسبيرغ وكنت من الحاضرين منذ اليوم الأول وكلما سنحت الفرصة فيما بعد. كما حضر أول يوم عدد من كبار رجالات حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. قمت بذلك مساندة لزوجتي وللتدليل على إيماني ببراءتها. ترافع عنها المحامي القدير جورج بيزوس وحاول تقديم البراهين على أن ويني لم يكن لها أي دور في الخطف أو في الاعتداء.

بعد ثلاثة شهور أدانت المحكمة ويني بالخطف وبالتورط في الاعتداء. ولكن القاضي أشار الى أنها لم تشارك في الاعتداء بنفسها. حكم على ويني بست سنوات سجن وأطلق سراحها بكفالة انتظارا لاستئنافها الحكم. أما في عيني أنا فقد كانت ويني بريئة سواء أدانتها المحكمة أم لم تدنها.

- ١٠٨ -

في ٢٠ ديسمبر ١٩٩١ وبعد أكثر من سنة ونصف من المحادثات حول المحادثات بدأت المفاوضات الحقيقية تحت مظلة "من أجل دولة ديمقراطية في جنوب أفريقيا" Convention for a Democratic South Africa ويرمز له بالحروف الأولى المكونة لاسمه بالانجليزية أي: CODESA (كوديسا). ويمثل المؤتمر أول منبر للمفاوضات الرسمية بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وغيره من الأحزاب السياسية في جنوب أفريقيا. لقد كان الهدف من جميع المحادثات الثنائية السابقة تهيئة الأرضية الأساسية لهذه المفاوضات التي عقدت في مركز التجارة العالمي، ذلك المبنى الحديث للمعارض التجارية الواقع بالقرب من مطار يان سماتس في جوهانسبيرغ. شارك في (كوديسا) ثمانية عشر وفدا يمثلون جميع الاتجاهات السياسية في جنوب أفريقيا بالاضافة الى مراقبين من الأمم المتحدة ومجموعة دول الكومنويلث ومجموعة الدول الأوروبية ومنظمة الوحدة الأفريقية. وضم المؤتمر أوسع شريحة للجماعات السياسية من نوعها في تاريخ جنوب أفريقيا.

كان افتتاح المؤتمر مناسبة تاريخية باعتباره أهم ندوة دستورية منذ الاتفاق على تشكيل اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩٠٩ من قبل المستعمرتين البريطانيتين في الكيب وناتال والجمهوريتين البوريتين السابقتين في ترانسفال وأورينج فري ستايت. لم يكن اعلان الاتحاد آنذاك إحياء للديمقراطية لأن السود لم يكونوا ممثلين فيه، أما في عام ١٩٩١ فقد كانت أغلبية الحاضرين من السود.

أجرى فريق التخطيط برئاسة سيريل رامافوسا وعضوية جو سلوفو ووالي موسى مناقشات أسبوعية مع الحكومة حول قضايا الانتخابات والدستور والجمعية التأسيسية والحكومة الانتقالية. كما اتفقت وفود عشرين طرفا من الأطراف السياسية بما فيها الحكومات المحلية للمواطن العرقية على النظم والاجراءات التي ستحكم سير عمل المؤتمر.

لم تضعف بعض المنغصات روح التفاؤل التي سادت عند بداية المحادثات. فقد قرر حزب المؤتمر القومي الأفريقي مقاطعة المحادثات واتهم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الوطني الحاكم بالتآمر من أجل إقامة حكومة متعددة الأعراق. حدث ذلك رغم تأسيس الجبهة الوطنية قبل شهر من ذلك التاريخ بناء على اعلان أهداف مشتركة بين حزب المؤتمر القومي الأفريقي ومنظمة شعب أزانيا Azanian People's Organisation. كان حزب المؤتمر القومي الأفريقي يخشى الانتخابات الحرة لأنها سوف تكشف شعبيته المحدودة. كما قاطع الزعيم بوتيليزي أيضا المحادثات بحجة عدم السماح له بإرسال ثلاثة وفود تمثل حزب إنكاتا وحكومة كوازولو والملك زويليتيني. وطالب بوتيليزي بأن يكون الملك فوق السياسة، وإذا سمح له بالحضور فيجب أن تعطى كل عشيرة أو قبيلة في جنوب أفريقيا الحق في ارسال زعيمها الأكبر.

لم يسد مركز التجارة العالمية شعور بالمغزي التاريخي للمناسبة فحسب وإنما ساده كذلك

شعور بالاعتماد على النفس. فقد اجتمعنا باعتبارنا مواطنين من جنوب أفريقيا لتسوية خلافاتنا بأنفسنا خلافا لما جرى في زمبابوي وأنغولا من قبل حيث جرت المفاوضات من أجل نظام سياسي جديد في وجود وسطاء أجانب. تحدث السيد دو كليرك عن الحاجة الى حكومة انتقالية على أساس المشاركة الديمقراطية في السلطة. كما تقدم رئيس وفد الحزب الوطني داوي دو فيليرز Dawie de Villiers بالإعتذار عن حقبة النظام العنصري.

قلت في كلمتي الافتتاحية إن (كوديسا) تمثل فجر التقدم في جنوب أفريقيا الذي لا تراجع عنه. إن الحكومة تستمد سلطتها وشرعيتها من اجماع المحكومين، ولقد اجتمعنا في هذا المكان من أجل إنشاء سلطة شرعية. وقلت إن (كوديسا) بداية الطريق نحو جمعية تأسيسية منتخبة تعد دستورا جديدا للبلاد، وإنني لا أرى ما يمنع من انتخاب هذه الجمعية خلال عام ١٩٩٢ . ودعوت الحكومة الى إفساح المجال أمام حكومة وحدة وطنية مؤقتة تتولى الاشراف على تلك الانتخابات وتسيطر على جهاز الاعلام الرسمي والمؤسسة العسكرية وتشرف على سير الأمور خلال الفترة الانتقالية نحو تأسيس دولة جديدة غير عنصرية في جنوب أفريقيا.

صدّقت الأحزاب الكبرى المشاركة ومن بينها الحزب الوطني وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي على "إعلان أهداف" في أول أيام المؤتمر، وألزم الإعلان جميع الاطراف بدعم دولة موحدة في جنوب أفريقيا يحكمها دستور يحميه نظام قضائي مستقل. ويضمن القضاء المساواة أمام القانون، واستصدار قانون حقوق الأفراد Bill of Rights لحماية الحريات المدنية. وهذا يعني باختصار قيام ديمقراطية تعددية مؤسسة على الحق العام لجميع الراشدين في الاقتراع بناء على سجل عام للناخبين. كان ذلك من وجهة نظرنا الحد الأدنى المقبول في دستور جنوب أفريقيا الجديد. رفض حزب انكاثا التوقيع بناء على أن عبارة دولة "موحدة" في جنوب أفريقيا يترتب عليها استبعاد فكرة الاتحاد الفدرالي.

انبثقت عن المؤتمر خمس لجان عمل بدأت اجتماعاتها في أوائل ١٩٩٢ للتحضير لدورة (كوديسا) الثانية في مايو ١٩٩٢ . مهمة اللجان دراسة قضايا مختلفة من بينها إيجاد السبل الى خلق جو سياسي حر ومستقبل المواطن العرقية وإعادة بناء هيئة اذاعة جنوب أفريقيا ودراسة عدد من المباديء الدستورية مثل النظام الاتحادي (الفدرالي) وتشكيل حكومة مؤقتة. اتفقت الأطراف على أن القرارات تتخذ "بالاجماع الكافي" الذي لم يعرف بالتحديد ولكنه يعني عمليا تحقق الاتفاق بين الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي وغالبية من الأطراف الأخرى.

بدأ اليوم الأول من (كوديسا ١) هادئا واستمر كذلك حتى اللحظات الأخيرة. كنت الليلة السابقة في مفاوضات مع السيد دو كليرك حتى الثامنة مساء، وطلب مني أن يتحدث الى المؤتمر وأن يكون المتحدث الأخير في اليوم التالي. كان الترتيب أن القي أنا الملاحظات الختامية فوعدته باستشارة اللجنة التنفيذية. ورغم بعض التحفظات وافقت اللجنة، فاعتبرت أن الأمر روتينيا وأخبرت دو كليرك بالقرار.

في نهاية جلسات اليوم الأول تحدثت عن أهمية المحادثات مع الحكومة ثم جاء دور السيد دو كليرك فتحدث عن الأهمية التاريخية للمؤتمر والحاجة الى تجاوز عدم الثقة المتبادل بين الأطراف المعنية. ولكنه انبرى فجأة للهجوم على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لعدم التزامه بما أبرم من اتفاقيات مع الحكومة. تغيرت نبرة الخطاب فصار يخاطبنا وكأنه أستاذ يؤنب تلاميذ أشقياء. قرع الحزب لعدم الافصاح عن مخازن السلاح والحفاظ على منظمة (أمكا) في شكل "جيش خاص" والاخلال باتفاق السلام الوطني الموقع في سبتمبر ١٩٩١ . وشكك بلهجة استفزازية في أمانة الحزب وصدقه في الالتزام بأي اتفاق يوقع عليه.

لم أكن لأتحمل ذلك الكلام ولم أكن لأسمح تحت أي ظرف من الظروف للسيد دو كليرك بأن يكون صاحب الكلمة الأخيرة في اللقاء. ساد القاعة وجوم وكان المفروض أن يختتم اللقاء بانتهاء دو كليرك من خطابه ولكنني اتجهت نحو المنصة وبدأت أتكلم وقد ظهرت علامات الحنق في نبرات صوتي، فقلت:

> إنني في غاية القلق لتصرف السيد دو كليرك هذا المساء. لقد شن هجوما على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولكنه لم يلتزم الصراحة في ذلك. فنحن نتوقع حتى من زعيم نظام أقلية سيء السمعة لا يقوم على الشرعية أن يلتزم ببعض المعايير الأخلاقية. فكونه زعيما لنظام من هذا النوع لا يبرر له عدم الالتزام بمعايير أخلاقية. فعندما يأتي رجل ما الى مؤتمر من هذا النوع وينتهج الأساليب السياسية التي انتهجها السيد دو كليرك اليوم فسيجد قليلا من الناس مستعدين للتعامل معه.
>
> لقد قبلنا أن نسمح لممثل الحكومة بالكلمة الختامية في هذا اللقاء، فقد كانت الحكومة حريصة على أن تقول الكلمة الأخيرة. والآن ظهرت لنا حقيقة الغرض من وراء ذلك.
>
> لقد استغل السيد دو كليرك حسن الضيافة فقال ما قال ظنا منه أنني لن أرد عليه. ولكنه مخطيء كل الخطأ فها أنا أرد عليه الآن.

قلت إن اللهجة التي خاطبنا بها السيد دو كليرك مرفوضة، فالحزب لا الحكومة هو الذي بادر بالدخول في محادثات السلام، والحكومة لا الحزب هي التي أخفقت المرة تلو المرة في الالتزام بالعهود والمواثيق. لقد نبهت السيد دو كليرك من قبل الى أنه لا طائل من الهجوم المعلن على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ولكنه لم يرتدع. أشرت الى قرارنا بإيقاف العمل المسلح تأكيدا لحرصنا على تحقيق السلام بينما ظلت الحكومة تتواطؤ مع الذين هم من وراء الحرب الأهلية. وقلنا للحكومة إننا سوف نلقي أسلحتنا عندما نصبح طرفا في الحكومة التي تجمع تلك الأسلحة وليس قبل ذلك.

أضفت قائلا إنه من الواضح أن للحكومة استراتيجية مزدوجة. فهي لا تفاوض من أجل السلم ولكن لتسجيل مواقف ومكاسب سياسية رخيصة. فقد ظلت الحكومة تدعم المنظمات السرية التي ترتكب العنف ضدنا حتى وهي تشارك في المفاوضات. أشرت الى ما كشف عنه حديثا من تسلم إنكاتا مكافأة قدرها مليون راند من الحكومة قال دو كليرك إنه لا علم له بها، وقلت إذا كان رجل في موقعه "لا يعلم هذه الأمور فهو غير مؤهل لأن يكون رئيسا للدولة".

كنت أعلم جيدا أن كلماتي قاسية وما كنت أود لسفينة المفاوضات أن تغرق، فختمت ردي بكلمات أقل حدة قائلا:

إنني أطلب من السيد دو كليرك أن يكشف عن أوراقه ويضعها على الطاولة أمامه. دعونا نعمل سويا في العلن، وليرم كل منا بما عنده من استراتيجيات سرية. لا ينبغي للسيد دو كليرك أن يقنعنا بأن يقول الكلمة الأخيرة ثم يستغل الموقف للهجوم علينا، ثم يعتقد أننا لن نرد. إنني لا زلت على استعداد للعمل مع السيد دو كليرك رغم كل أخطائه.

تواصلت جلسات (كوديسا) في اليوم التالي وحاولت جهدي - كما حاول السيد دو كليرك - أن أثبت أن ما حدث من ضرر مقبول. افتتحت الجلسات الختامية بمصافحة بيني وبين دو كليرك وتعهدنا بالعمل معا، ولكن الثقة اهتزت وأصبح مستقبل المفاوضات مجهولا.

بعد ستة أسابيع من (كوديسا ١) خاض الحزب الوطني انتخابات فرعية هامة في بوتشيفستروم Potchefstroom وهي مدينة جامعية محافظة في ترانسفال وأحد معاقل الحزب. ولكن على غير المتوقع مُني الحزب بخسارة فادحة وفاز بالمقعد مرشح حز ب المحافظين اليميني وهو من أشد المعرضين للمفاوضات مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. فهو حزب أغلبيته من الأفريكان الذين اعتبروا أن دو كليرك يوشك أن يفرّط في البلاد كلها. أضفت نتيجة الانتخاب شكوكا على سياسة دو كليرك القائمة على الاصلاحات السياسية والمفاوضات، وسرى الرعب داخل الحزب الوطني الذي رأي أن أنصاره في قلب مواقعه المحصنة يرفضون سياساته.

اختار دو كليرك المقامرة فأعلن عن استفتاء لجميع البيض الذين تجاوزت أعمارهم الثامنة عشرة في ١٧ مارس على سياسته الاصلاحية والمفاوضات مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وأضاف أنه في حالة رفض سياسته سوف يستقيل من رئاسة الدولة. كان السؤال المطروح بسيطا ومباشرا وهو:

هل تؤيد الاستمرار في الاصلاحات التي شرع رئيس الدولة في تطبيقها منذ ٢ فبراير ١٩٩٠ والتي تهدف الى وضع دستور جديد من خلال المفاوضات؟

عارض حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الاستفتاء لعدم مشاركة غير البيض فيه، ولكننا كنا في الوقت ذاته واقعيين إذ لم نكن نرغب في أن يرفض البيض جهود دو كليرك الساعية الى المفاوضات. فرغم ازدرائنا للاستفتاء من ناحية المبدأ سعينا الى حث البيض المشاركين فيه على الإجابة بنعم، لأننا رأينا ذلك دعما للمفاوضات وليس بالضرورة دعما لدو كليرك.

تابعنا حملة الاستفتاء باهتمام كبير وبقدر من القلق. اتسمت حملة الحزب الوطني بالحنكة والتنظيم الجيد والبذخ على الطريقة الأمريكية، وصاحبتها حملة دعاية واسعة في وسائل الاعلام من صحف وتلفزيون وملصقات ولقاءات شعبية ضخمة. كما رأينا الحملة تجربة لتلك التي سيشنها السيد دو كليرك ضدنا فيما بعد.

أسفر الاستفتاء عن موافقة ٦٩ في المائة على المفاوضات وكان ذلك فوزا باهرا لدو كليرك عزز من موقفه السياسي، وزاد في اعتقادي من زهوه بنفسه الى حد ما. شعر الحزب الوطني بأن أوراقه أضحت قوية فزاد من تصلب موقفه في المفاوضات وكانت تلك استراتيجية خطيرة.



- ١٠٩ -

في ١٣ أبريل ١٩٩٢ أعلنت في مؤتمر صحافي في جوهانسبيرغ انفصالي عن زوجتي ويني. كان الى جانبي أقدم وأعز صديقين وولتر سيسولو وأوليفر تامبو. بلغت الأمور درجة لا تطاق وأحسست أن الافتراق هو الأفضل لمصلحة كل الأطراف المعنية - الحزب والأسرة وويني. ورغم أنني ناقشت الموضوع مع الحزب فقد كانت الأسباب شخصية بحت. أدليت في المؤتمر بالتصريح التالي:

صارت العلاقة بيني وبين زوجتي الرفيقة نومزامو ويني مانديلا موضوع تكهنات في وسائل الإعلام. والهدف من إصدار هذا التصريح هو توضيح الموقف أملا في أن يضع ذلك حدا لتلك التكهنات.

تزوجت الرفيقة نومزامو في مرحلة حرجة من النضال من أجل الحرية في هذا البلد. ونظرا لالتزاماتنا المشتركة نحو حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والنضال من أجل القضاء على النظام العنصري لم نتمكن من العيش في حياة زوجية عائلية كما ينبغي. ولكن رغم تلك الضغوط فقد نما الحب فيما بيننا وزاد اخلاصنا لأسرتنا ولعلاقتنا الزوجية.....

ظلت ويني على مدى السنوات الطويلة التي قضيتها في جزيرة روبن دعامة لا يمكن الاستغناء عنها من العون والسلوى لي شخصيا.. كما تحملت الرفيقة نومزامو بمفردها عبء تربية أطفالنا ورعايتهم... لقد صمدت للاضطهاد الذي أثقلها به الحكومة بشجاعة فائقة، ولم تتزحزح عن تجردها للنضال من أجل الحرية. وقد عزز صمودها من احترامي الشخصي وحبي ومشاعري نحوها، كما أغدق عليها اعجاب العالم بأسره، وسوف يظل حبي لها راسخا لن يتزعزع.

ولكن نظرا للتوتر الذي نشأ في الأشهر الأخيرة نتيجة خلافات بيننا حول عدد من القضايا فقد اتفقنا برضى الطرفين على أن افتراقنا هو الأفضل للجميع. إن موقفي هذا لا يعود الى الاتهامات التي توجه في وسائل الإعلام حاليا ضد الرفيقة نومزامو، وأرجو أن تجد مني كل الدعم في هذه اللحظات الحرجة من حياتها.

إنني شخصيا لن أندم على حياتنا التي حاولنا أن نعيشها معا، ولكن ظروفا خارج إرادتنا فرضت علينا غير ما كنا نتمناه. إنني أودع زوجتي ولا أتهمها بشيء، وأعانقها بكل الحب والشعور الصادق الذي حملته لها داخل السجن وخارجه منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها. وأرجو أن يقدر الجميع ما عشته من حسرة وألم.

ربما أعمتني حسرتي على عدم وفائي بدوري كزوج وأب عن أشياء كثيرة، ولكن رغم قناعتي بأن زوجتي عاشت حياة أتعس من تلك التي عشتها وأنا داخل السجن، فقد كان خروجي أيضا أصعب عليها. فقد تزوجت رجلا غادر بيتها بعد فترة قصيرة من الزمن، ثم تحول الى أسطورة، ولكن تلك الأسطورة رجعت الى البيت فعادت رجلا كما كانت من قبل.

قلت في يوم زفاف ابنتي زيندزي يبدو أن قدر المناضلين هو أن يعيشوا حياة غير

مستقرة. فعندما يصبح النضال هو حياتك - كما هوالحال بالنسبة إليّ - فلن يكون فيها محل لحياة عائلية. لقد ظل ذلك أكثر ما ندمت عليه في حياتي، وأكبر مصدر للألم والحسرة في الطريق الذي اخترته. وقلت: "راينا أبناءنا يكبرون دون أن نوفر لهم التوجيه المطلوب، وعندما خرجنا من السجن كان أبنائي يقولون إن لهم أبا سوف يعود يوما ما ولكنه عندما عاد - واحسرتاه! - تخلى عنا وأصبح أبا للأمة". وأن يكون المرء أبا للأمة فهو شرف عظيم ولكن السعادة الحقيقية في أن يكون المرء أبا لأسرته. تلك هي السعادة التي لم يكتب لي أن أذوق إلا النزر القليل منها.



- ١١٠ -

في مايو ١٩٩٢ وبعد انقطاع استمر أربعة أشهر عقدت الدورة الثانية للمؤتمر المتعدد الأحزاب في موكز التجارة العالمي، وعرفت باسم (كوديسا ٢). سبقت الدورة جلسات سرية تحضيرية بين مفاوضي حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة ومناقشات بين الحزب والتنظيمات الأخرى. انتهت تلك اللقاءات باجتماع سري بيني وبين السيد دو كليرك قبل انعقاد (كوديسا ٢) بيوم واحد وكان ذلك أول اجتماع لنا منذ ما قبل (كوديسا ١).

أياما قبل افتتاح (كوديسا ٢) صدمت الحكومة بفضيحتين سياسيتين. كانت الأولى تتعلق بفساد على نطاق واسع ورشاوى داخل وزارة التنمية والمعونات المسؤولة عن رفع مستوى المعيشة في مواطن السود، والثانية تورط كبار مسؤولي الأمن عام ١٩٨٥ في قتل أربعة من أعضاء الجبهة الديمقراطية المتحدة وأشهرهم ماثيو غونيوى Matthew Goniwe. جاء الكشف عن هذه التفاصيل المحرجة ليضاف الى أدلة سابقة عن تورط الشرطة في جرائم قتل في ناتال وشكوك حول عمليات سرية يقوم بها قسم الاستخبارات العسكرية ضد حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. هزت هاتان الفضيحتان معا الثقة في مصداقية الحكومة وعززت من موقفنا في المفاوضات.

طرحت الحكومة خلال الشهور السابقة عدة مقترحات ولكنها لم تلق أي اهتمام، منها تداول رئاسة البلاد وكانت في الغالب تهدف الى تعزيز مركز الحكومة في السلطة. كما توصل مفاوضو الحزب والحكومة الى الاتفاق على مسودة اتفاقية حول فترة انتقالية على مرحلتين تنتهي الى نظام ديمقراطي كامل في جنوب أفريقيا. يعين في المرحلة الأولى "مجلس تنفيذي انتقالي" متعدد الأحزاب من أعضاء (كوديسا) ليعمل كحكومة بالوكالة تكون مهمتها "تسوية الأرضية" السياسية بالنسبة لجميع الأحزاب ووضع دستور مؤقت. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة انتخاب الجمعية التأسيسية والهيئة التشريعية وأي حزب يفوز فيها بما يزيد عن خمسة في المائة من الأصوات يصبح مؤهلا للاشتراك في الحكومة. ينتخب نصف أعضاء الجمعية في انتخابات عامة والنصف الآخر في انتخابات إقليمية، وتكون للجمعية صلاحية وضع الدستور الجديد وإقرار التشريعات. تتولى الإشراف على الانتخابات هيئة مستقلة تضمن حريتها ونزاهتها.

مع ذلك لم نتوصل إلى اتفاق بشأن عدة مسائل من بينها نسبة الأصوات المطلوبة في الجمعية التاسيسية لحسم القضايا الدستورية، ومشروع قانون حقوق الأفراد. وقبيل (كوديسا٢) بأيام طرحت الحكومة فكرة إنشاء مجلس شيوخ يتكون من ممثلي الأقاليم كوسيلة لضمان حصول الأقلية على حق النقض. كما اقترحت أن توافق (كوديسا ٢) أولا وقبل كل شيء على دستور مؤقت مما سيستغرق إعداده بضعة أشهر.

كانت كل هذه المساومات والصفقات تجري وراء الكواليس ومع حلول موعد (كوديسا٢)

في ١٥ مايو ١٩٩٢ ظلت احتمالات التوصل الى اتفاق ضعيفة. فالأمور التي اختلفنا حولها ظلت عائقا في سبيل تنفيذ ما اتفقنا عليه. لم أتمكن مع السيد دو كليرك من التوصل الى اجماع حول كثير من القضايا المعلقة، وكان يبدو أن الحكومة على استعداد للانتظار حتى الأبد لاعتقادها بأن الانتظار سوف يؤدي الى إضعاف ما نلقاه من دعم.

وصل المؤتمر الى طريق مسدود منذ نهاية اليوم الأول وطلب القاضيان اللذان ترأسا الجلسة مني ومن دو كليرك أن نلتقي في المساء في محاولة للتوصل الى تسوية مرضية. اجتمعنا واتفقنا على ألا تتعرقل المفاوضات رغم أننا لم نتوصل الى سبيل للخروج من المأزق. قلت لدو كليرك:

- إن عيون جنوب أفريقيا عن بكرة أبيها وعيون العالم بأسره تتجه نحوك ونحوي. فدعنا ننقذ عملية السلام ونتوصل الى شكل من الاتفاق أو على الأقل نحدد موعد الجولة التالية من المحادثات. اتفقنا على أن يتحدث كل منا في الصباح أمام المؤتمر بروح بناءة ترمي الى ارضاء جميع الأطراف.

في عصر اليوم التالي تحدثنا بعكس ترتيبنا في (كوديسا ١)، فأصر دو كليرك على أن الحزب الوطني لا يسعى الى الحصول على "حق نقض للأقلية" وإنما هدفه الوصول الى نظام يقوم على "الضوابط والموازنات" كي لا تسيء الأغلبية استعمال سلطاتها. ورغم أن ذلك بدا وكأنه رفض كامل لفكرة حكم الأغلبية فلم أزد على القول إن على السيد دو كليرك العمل بروح بناءة ومحاولة التخلص من جو التوتر الذي يكتنف المفاوضات.

ولكن رغم محاولاتنا الظهور بمظهر إيجابي انتهت مداولات اليوم الثاني للمؤتمر الى طريق مسدود كذلك. وكان السبب في ذلك - في رأيي - هو تردد الحزب الوطني في تسليم مقدراته لإرادة الأغلبية. فقد ظل الحزب على كل حال عاجزا عن تخطي تلك العقبة.

وأخيرا انفضت اجتماعات (كوديسا ٢) دون التوصل الى تسوية في أربعة مجالات أساسية هي: إصرار الحكومة على نسبة عالية من الأصوات لإجازة الدستور (وهو في الواقع حق نقض بشكل مقنع)، وسلطات اقليمية محصنة ملزمة للدستور الجديد، ومجلس شيوخ غير منتخب وغير ديمقراطي يملك حق نقض التشريعات الصادرة عن البرلمان الرئيسي، وإصرار على تحويل الدستور المؤقت الى دستور دائم عن طريق مفاوضات داخل المؤتمر.

كانت هذه كلها قضايا شائكة ولكنها ليس مستحيلة على الحل، وكنت حريصا على ألا ينسف إخفاق (كوديسا ٢) المفاوضات بالكامل. اتفقت الحكومة وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي على مواصلة المحادثات الثنائية من أجل التوصل الى حل، ولكن أمورا أخرى تدخلت لتجعل ذلك مستحيلا.

مع توقف المفاوضات اتفق حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وحلفاؤه على سياسة "العمل الجماهيري المتتالي" الذي من شأنه أن يبرهن للحكومة على مدى الدعم الشعبي الذي يتمتع

به الحزب في البلاد، ويؤكد أن الشعب غير مستعد لأن ينتظر الى الأبد كي يحصل على حريته. تضمن برنامج العمل الجماهيري الاضرابات والمظاهرات والمقاطعة، واختير ١٦ يونيو ١٩٩٢ - وهو الذكرى السنوية لانتفاضة سويتو لعام ١٩٧٦ - موعدا لشن تلك الحملة التي ستنتهي باضراب عام لمدة يومين في ٣ و ٤ أغسطس.

ولكن قبل ذلك شهدت الساحة حدثا آخر زاد من توسيع الهوة بين الحزب والحكومة. في ليلة ١٧ يونيو ١٩٩٢ شنت قوات مسلحة تسليحا ثقيلا من أتباع حزب إنكاتا هجوما سريا على ضاحية بويباتونغ Boipatong بمنطقة فال ترايغل وقتلت ستة وأربعين شخصا كانت غالبيتهم من النساء والأطفال. كانت تلك المذبحة الرابعة لأنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في ذلك الأسبوع. فزع الناس في جميع أنحاء البلاد لتلك الأعمال الوحشية، واتهموا الحكومة بالتورط فيها. فالشرطة لم تحرك ساكنا لمنع تلك المذابح ولم تبذل أي جهد في مطاردة مرتكبيها. فلم تعتقل أحدا ولم تحقق في الجرائم. التزم السيد دو كليرك الصمت، وكانت تلك القشة الأخيرة في رأيي، ونفد صبري. فها هي الحكومة تعترض سير المفاوضات وفي الوقت نفسه تشن حربا سرية ضد أبناء شعبنا، فما الذي يدفعنا الى مواصلة الحوار معها؟

بعد أربعة أيام من تلك المذابح تحدثت في حشد عام من عشرين ألف من أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وأعلنت أنني أصدرت تعليماتي لأمين عام الحزب سيريل رامافوسا بتعليق كل المعاملات المباشرة مع الحكومة. كما أعلنت عن اجتماع عاجل للجنة التنفيذية العامة للنظر في الخيارات المطروحة أمامنا. بدت الأمور وكأننا عدنا من جديد الى أيام شاربفيل الحالكة. شبهت تصرفات الحزب الوطني بتصرفات ألمانيا النازية وحذرت دو كليرك علنا أمام الملأ من السعي لفرض أي اجراءات قمعية لتقييد المظاهرات أو وسائل التعبير الحر، وإلا فإن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي سوف ينظم حملة للتحدي قومية عامة وسوف أكون أول من يتطوع لها.

ظهرت لافتات تقول: "يامانديلا اعطنا البنادق" وأخرى تقول: "النصر من خلال المعركة وليس من خلال الكلام"، وتفهمت جيدا تلك المشاعر وما يعانيه الناس من ضجر ونفاد صبر. فلم ير الناس أي نتائج إيجابية للمفاوضات وبدأ ينمو لديهم شعور بأن السبيل الوحيد للتخلص من النظام العنصري هو من خلال أفواه المدافع. وفي أعقاب أحداث بويباتونغ ارتفعت داخل اللجنة التنفيذية أصوات تقول: "لماذا تخلينا عن النضال المسلح؟ يجب أن نتخلى عن المفاوضات لأنها لن توصلنا الى أهدافنا". لقيت تلك الأصوات في البداية تجاوبا في نفسي ولكنني فطنت تدريجيا الى أن لا بديل لعملية التفاوض. فهي المنهج الذي ظللت أنادي به طول هذه السنين ولن أدير ظهري اليوم للمفاوضات. لقد حان الوقت لتهدئة الأجواء. العمل الجماهيري هو طريق وسط بين النضال المسلح والمفاوضات. الناس في حاجة الى التنفيس عن حنقهم وخيبة أملهم، والعمل الجماهيري هو أفضل قناة لتصريف تلك المشاعر العارمة

وجهنا مذكرة للسيد دو كليرك بينا فيها أسباب انسحابنا من المحادثات. فبالاضافة الى تسوية المعضلات الدستورية التي ظهرت في (كوديسا ٢) طالبنا بملاحقة المسؤولين عن العنف وتقديمهم للعدالة وإيجاد وسيلة لحماية مساكن العمال في ضواحي المدن التي كانت مهد أحداث العنف والمذابح. رد دو كليرك بمذكرة يطلب فيها مقابلتي وجها لوجه. وكان جوابنا الرفض لأن اجتماعا من ذاك القبيل وفي ذلك الوقت بالذات، سوف يوحي بوجود قضايا نتباحث فيها بينما الواقع هو العكس تماما.

انتهت حملة العمل الجماهيري باضراب شامل، يومي ٣ و ٤ أغسطس تأييدا لمطالب حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في المفاوضات، واحتجاجا على أعمال العنف التي تدعمها الحكومة. فقد توقف عن العمل ما يزيد عن اربعة ملايين عامل في أكبر اضراب شهدته جنوب أفريقيا في تاريخها كله. وكان من أهم فعاليات الاضراب مسيرة شارك فيها مائة ألف مواطن الى مبنى الاتحاد المهيب في بريتوريا وهو المقر الرسمي لحكومة جنوب أفريقيا حيث عقدنا تجمعا شعبيا في الهواء الطلق أمام المبنى. خاطبت الجماهير قائلا إننا سوف نحتل هذا المبنى يوما ما كأول حكومة ديمقراطية منتخبة في جنوب أفريقيا.

في أوج تلك الحملة صرح دو كليرك بأن الحكومة سوف تضطر للنظر في خيارات غير طيبة إذا ما أصر حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على إحالة الأوضاع في البلاد الى الفوضى. حذرت السيد دو كليرك من أن أي اجراءات غير ديمقراطية سوف تكون لها عواقب ومضاعفات وخيمة. وأضفت أن هذه التهديدات هي التي تجعل من الضروري إقامة حكومة انتقالية.

في خضم نجاح العمل الجماهيري قررت مجموعة من أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تنظيم مسيرة الى بيشو Bisho عاصمة منطقة سيسكاي العرقية في الكيب الشرقي التي يحكمها العميد أوبا غقوزو Oupa Gqozo. وللمنطقة تاريخ في قمع نشاطات الحزب إذ أعلن العميد غقوزو حالة الطوارىء عام ١٩٩١ للحد مما أسماه الارهاب الذي يدعمه حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. انطلقت المسيرة صباح ٧ سبتمبر وقوامها سبعون ألف شخص متجهة نحو الاستاد الرئيسي في بيشو. وعندما حاول بعض المتظاهرين اختراق الحواجز وسلوك طريق أقصر نحو مركز المدينة أطلق الجنود النار على المسيرة فسقط تسعة وعشرون قتيلا وجرح أكثر من مائتي شخص. وهكذا لحقت بيشو بأختها بويباتونغ في الوحشية وسفك الدماء.

جاء في القول المأثور: أحلك ساعات الليل هي التي تسبق بزوغ الفجر. فقد أدت مأساة بيشو الى انفراج في ساحة المفاوضات. اجتمعت مع دو كليرك بحثا عن أرضية مشتركة والعمل على تفادي مأساة بيشو أخرى. بدأ المفاوضون من الطرفين في عقد اجتماعات منتظمة، وبذل الطرفان جهودا عن حسن نية لوضع المفاوضات على مسارها الصحيح، وفي ٢٦ سبتمبر عقد أول اجتماع قمة رسمي بيني وبين دو كليرك.

وقعنا في ذلك اليوم على "وثيقة التفاهم" وهو الاتفاق الذي حدد الاطار العام لكل المفاوضات التي جرت بعد ذلك. انبثق عن الاتفاق هيئة مستقلة للنظر في اجراءات الشرطة، كما حدد آليات لحماية منازل العمال، ومنع حمل "الاسلحة التقليدية" في التجمعات العامة. ولكن أهم ما جاءت به "وثيقة التفاهم" هو كسر العقدة الدستورية التي برزت في (كوديسا ٢). قبلت الحكومة أخيرا بتأسيس جمعية دستورية منتخبة واحدة تجيز الدستور الجديد وتتولى مهام المجلس التشريعي الانتقالي للحكومة الجديدة. لم يبق من مهمة للمفاوضات سوى تعيين تاريخ انتخابات الجمعية الدستورية وتحديد نسبة الأغلبية اللازمة لإجازة قراراتها. لقد أصبح الجميع على رأي رجل واحد فيما يتعلق بالإطار الأساسي للإنتقال بالبلاد نحو مستقبل ديمقراطي.

دفعت "وثيقة التفاهم" بحزب إنكاتا إلى الانسحاب من جميع المفاوضات التي تشارك فيها الحكومة أو حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. أثارت الوثيقة سخط الزعيم بوتيليزي فقطع علاقاته مع الحزب الوطني الحاكم وأنشأ تحالفا مع مجموعة خاسرة من زعماء المناطق العرقية وبعض أحزاب البيض اليمينية التي تنادي بهدف واحد فقط وهو إنشاء وطن للأفريكان. دعا الزعيم بوتيليزي الى إلغاء "وثيقة التفاهم" ولقاءات (كوديسا) وحل حركة أومخونتو وي سيزوى (أمكا).

وكما أخذ جو سلوفو المبادرة لإيقاف العمل المسلح كان له الفضل في أخذ مبادرة أخرى مثيرة للجدل وهي الدعوة الى إعلان حكومة وحدة وطنية. نشر جو سلوفو في أكتوبر ورقة قال فيها إن المفاوضات مع الحكومة ليست مفاوضات هدنة حرب نستطيع فيها أن نملي شروطا على عدو منهزم. وقال إن الحزب سوف يحتاج حتى بعد الانتخابات الى عدة سنوات ليمسك بزمام الحكم، وحكومة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي سوف تظل في حاجة الى إدارة شؤون البلاد بمساعدة الكوادر الحكومية القائمة حاليا. وعليه اقترح الاتفاق على "بند غروب" ينص على تشكيل حكومة وحدة وطنية تقوم على المشاركة في السلطة مع الحزب الوطني لفترة محددة من الزمن، وعفو عام على رجال الأمن والوفاء بعقود موظفي الكادر الحكومي (الخدمة المدنية). كانت فكرة "المشاركة في السلطة" منبوذة داخل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وتعد قناعا لما تسعى الحكومة اليه من حصول الأقلية على حق النقض. أما في هذا السياق فهي لا تعني أكثر من وجود الحزب الوطني شريكا في حكومة منتخبة من قبل الشعب بشرط حصوله على النسبة المطلوبة من الأصوات.

بعد نقاش مستفيض أيّدت اقتراح جو، ثم صدقت عليه اللجنة التنفيذية في ١٨ نوفمبر. ولكن اللجنة التنفيذية أيدت "المشاركة في السلطة" بشرط الا يكون لأحزاب الأقلية حق نقض القرارات والتشريعات. في ديسمبر بدأنا جولة جديدة من المحادثات الثنائية السرية مع الحكومة استمرت خمسة أيام في بيت معزول في إحدى الغابات. كانت تلك المحادثات حاسمة لأنها قامت على أساس اتفاق "وثيقة التفاهم". اتفقنا في المحادثات السرية من حيث المبدأ على حكومة وحدة وطنية لمدة خمس سنوات تشارك فيها جميع الأحزاب الفائزة

بأكثر من خمسة في المائة من الأصوات في الانتخابات العامة بما يتناسب مع ما فازت به. ويعد ذلك بخمس سنوات تتحول حكومة الوحدة الوطنية إلى حكومة أغلبية. في فبراير أعلن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة عن اتفاقهما من حيث المبدأ حول حكومة وحدة وطنية لمدة خمس سنوات وحكومة متعددة الأحزاب، وتأسيس مجلس تنفيذي انتقالي. كما اتفقا على اجراء الانتخابات العامة ابتداء من أواخر عام ١٩٩٣ .

- ١١١ -

لقد آمنت طول حياتي بأنه يجب أن يكون للإنسان بيت خاص بالقرب من مسقط رأسه. بعد خروجي من السجن سعيت الى إنشاء بيت ريفي خاص في قونو، وتم بناؤه فعلا في خريف عام ١٩٩٣ . خطط البيت على غرار المنزل الذي أقمت فيه في سجن فيكتور فيرستر وكان ذلك مثار تساؤل لدى كثيرين، والرد بسيط جدا. منزل فيكتور فيرستر هو أول وأكبر بيت سكنته وأكثرها راحة، ولقد أحببته حبا خاصا وخبرت هندسته وتعودت على تقسيم حجراته ومرافقه. وعليه فلن أضل طريقي في بيت قونو بحثا عن المطبخ أثناء الليل.

كنت في أبريل أقضي إجازة قصيرة في بيتي في ترانسكاي. في صباح العاشر من أبريل خرجت لتحية أفراد فريق شرطة ترانسكاي لكرة الرغبي وإذا بمدبرة المنزل تلحق بي وتخبرني وهي تبكي بمكالمة هاتفية مستعجلة، فاعتذرت للشباب وأخذت المكالمة. كان الخبر أن زميلي كريس هاني Chris Hani أمين عام الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا وقائد عام حركة (أمكا) سابقا ومن أكثر زعماء حزب المؤتمر الوطني شعبية في البلاد قد أطلق عليه الرصاص أمام بيته في بوكسبيرغ Boksburg إحدى ضواحي العمال البيض في جوهانسبيرغ التي كان كريس يسعى الى جعلها منطقة متعددة الأجناس.

كان موت كريس كارثة شخصية وصدمة للحركة ككل. لقد كان جنديا مخلصا للوطن لم يتأفف من القيام بأي مهمة مهما كان نوعها. كان كريس بطلا عند أبناء الجيل الجديد في جنوب أفريقيا يفهمهم ويفهمونه، ويتحدث لغتهم وينصتون لآرائه. وكان كريس الرجل الوحيد القادر على إقناع جيل الشباب بالحل من خلال المفاوضات. لقد فقدت جنوب أفريقيا أحد أبنائها العظام ورجلا كان بإمكانه أن يلعب دورا حاسما في تحويل البلاد الى دولة جديدة.

كانت الأوضاع في البلاد مهزوزة وظهرت مخاوف من أن يؤدي مقتل كريس الى نشوب حرب عنصرية إذا أصر الشباب على التضحية بأرواحهم انتقاما لبطلهم الشهيد. ذهبت أولا بطائرة مروحية الى ساباليلى Sabalele لتعزية والد كريس البالغ من العمر اثنين وثمانين عاما. وساباليلى مدينة صغيرة في منطقة كوفيمفابا Cofimvaba في ترانسكاي وكنت أعرفها جيدا لأنها موطن عائلة ماتانزيما. وما أن حللت بتلك القرية الخالية من المياه الجارية والكهرباء حتى دهشت لخروج رجل مثل كريس هاني من هذا المكان الصغير المتواضع، ذلك الرجل الذي حرك أمة باسرها بحماسه وقدراته. لقد كانت طفولته في ساباليلى هي مصدر اهتمامه بالفقراء في الريف حيث جذوره الأصيله العميقة التي لم يتخل عنها قط. تحدث والد كريس بعاطفة قوية عن الأسى لفقدان ابنه ولكنه كان راضيا بأنه قتل في سبيل النضال.

علمت لدى رجوعي الى جوهانسبيرغ أن الشرطة القت القبض على أحد البيض المهاجرين من بولندا ينتمي الى منظمة أفريكانية يمينية متطرفة إثر تزويد سيدة أفريكانية شجاعة الشرطة برقم سيارته. كانت الجريمة محاولة يائسة لعرقلة مسيرة السلام. طلب مني التحدث للأمة تلك الليلة عبر هيئة إذاعة جنوب أفريقيا فقد كان الدور هذه المرة على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي وليس على الحكومة أن يهدىء مشاعر الناس.

قلت إن مسيرة السلام والمفاوضات لا يمكن أن تتوقف، وتوجهت بكل ما أملك من تأثير الى أبناء شعبنا "أن يلتزموا الهدوء وأن يخلدوا ذكرى الراحل كريس هاني بأن يظلوا قوة للمحافظة على الانضباط من أجل السلام". جاء في كلمتي ما يلي:

> إنني أبسط يدي الليلة الى كل فرد في جنوب أفريقي من بيض وسود، ومن أعمق أعماق كياني. لقد جاء هذا الرجل الأبيض الى بلادنا وكان مليئا بالحقد والتعصب ليرتكب هذه الجريمة النكراء التي تضع أمتنا اليوم على حافة الهاوية. ولكن سيدة بيضاء من أصول أفريكانية خاطرت بحياتها لتخبر الشرطة بهوية القاتل كي يقدم للعدالة. إنها لحظة يجب أن يقف فيها كل مواطن في جنوب أفريقيا الى جانب اخوانه المواطنين في مواجهة كل من يسعى الى تدمير ما دفع كريس هاني حياته ثمنا لتحقيقه وهو حريتنا جميعا، مهما كانت هويتها.

كان اغتيال كريس هاني محاولة من العنصريين البيض لمواجهة ما أصبح قدرا محتوما. فقد كان يفضلون أن تنحدر البلاد نحو الحرب الأهلية ولا تنتقل الى حكم الأغلبية بالوسائل السلمية.

إنتهجنا استراتيجية ركزنا فيها على الاهتمام بردود الفعل داخل الحزب تحسبا لأي محاولات للانتقام، فنظمنا تجمعات شعبية ومظاهرات في جميع أنحاء البلاد على مدى أسبوع كامل كي نتيح للناس الفرصة للتعبير عن سخطهم دون اللجوء الى العنف. تحدثت مع دو كليرك حديثا خاصا واتفقنا على ألا نسمح لجريمة قتل كريس هاني تحويل المفاوضات عن مسارها الصحيح.

علمنا بعد أيام أن عضو حزب المحافظين كلايف داربي لويس Clive Derby-Lewis قد ألقي عليه القبض في ظروف لها علاقة بالاغتيال، وكان ذلك دليلا آخر على وجود "القوة الثالثة". لقد انتقد كريس أسابيع قبل اغتياله عمليات سطو على أسلحة في احدى القواعد الجوية، وأكدت التقارير الأولية للشرطة أنه اغتيل برصاص سلاح سرق من تلك القاعدة.

بعد أسبوعين تماما من تاريخ الاغتيال وقع حادث أليم آخر لم يهز الأمة كما هزها اغتيال كريس هاني ولكنه هزني أنا شخصيا. ظل أوليفر تامبو يعاني من مرضه مدة طويلة ولكن الجلطة التي أدت الى وفاته كانت مفاجئة ولم تمهله طويلا. اتصلت بي زوجته في الصباح الباكر لتخبرني بسوء حالته الصحية فانطلقت فورا لأكون الى جانبه. ولكنني لم أتمكن من توديعه كما كنت أود إذ أدركته وقد فارق الحياة.

يقسم الفيلسوف الاغريقي أفلاطون معادن الناس الى ثلاثة أنواع: الذهب والفضة

والحديد، وقد كان معدن أوليفـر من الذهب الخالص. كان الذهب في ألمعيته الفكرية، وفي دفء شخصيته وإنسانيته، وفي سماحته وأريحيته، وفي تفانيه واخلاصه اللذين لا حدود لهما. وبقدر ما كنت أحترمه زعيما وقائدا بقدر ما أحببته رجلا وإنسانا.

ورغم افتراقنا طول سنوات سجني لم يكن أوليفر بعيدا عن فكري وقلبي. فقد كنت في حديث متواصل معه طول حياته حتى عندما فصلت بيننا المسافات، وربما كان ذلك هو السبب في إحساسي بالأسى والحرمان لفراقه. وكما قلت لأحد الزملاء فقد أحسست بوحشة لم يشعر بها قط إنسان في العالم. فقد خطف من بين يدي في اللحظة نفسها التي اجتمع فيها شملنا من جديد. وعندما رأيته مسجى في نعشه أحسست وكأن جزءا من جسمي قد مات ليدفن معه.

ورغم أننا لم نتسلم السلطة بعد وددت أن يشيع جثمان أوليفر في موكب رسمي وذلك هو ما قام به حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تكريما له. تجمع في استاد سويتو مئات من كبار الشخصيات والرسميين من حكومات دول أجنبية ليعبروا عن احترامهم وإجلالهم لذلك الرجل الذي حافظ على حزب المؤتمر الوطني الأفريقي حيًا طول سنوات إبعاده عن البلاد. وقفت قوات (أمكا) في طوابير شرف تكريما له وحيته مدافعها بإحدى وعشرين طلقة. لقد عاش أوليفر ليرى السجناء وقد أطلق سراحهم والمنفين قد عادوا الى بلادهم، ولكنه لم يعش ليدلي بصوته في جنوب أفريقيا الحرة الديمقراطية. فذلك هو الهدف الذي يجب تحقيقه في المرحلة التالية.

- ١١٣ -

قليل من الناس من يذكر ٣ يونيو ١٩٩٣ ولكن ذلك اليوم كان منعطفا حاسما في تاريخ جنوب أفريقيا. فبعد مفاوضات دامت بضعة أشهر في مركز التجارة العالمية وافق المؤتمر متعدد الأحزاب بالتصويت على تحديد موعد لأول انتخابات عامة غير عنصرية قائمة على مبدأ حق التصويت للجميع وهو ٢٧ أبريل ١٩٩٤ . لأول مرة في جنوب أفريقيا سوف يتجه السود الغالبية الى صناديق الاقتراع للإدلاء بأصواتهم واختيار ممثليهم. نص الاتفاق على انتخاب جمعية تأسيسية من أربعمائة ممثل تتولى وضع دستور جديد للبلاد وتحل محل البرلمان. وكان أول بند في جدول أعمال الجمعية هو اختبار رئيسها.

استؤنفت المحادثات في أبريل وكان حزب إنكاتا وحزب المؤتمر القومي الأفريقي وحزب المحافظين من بين الأحزاب الستة والعشرين المشاركة فيها. ظللنا بضعة أشهر نلح على الحكومة أن تحدد موعدا للمحادثات فلجأت الى التسويف ولكنها رضخت بعد ذلك ونقش ذلك التاريخ في الحجر.

بعد شهر، أي في يوليو ١٩٩٣، وافق المؤتمر متعدد الأحزاب على أول مسودة للدستور المؤقت. نص الدستور على برلمان من قسمين : مجلس وطني من أربعمائة عضو ينتخب بطريقة التمثيل النسبي من قوائم عامة وإقليمية، ومجلس للشيوخ ينتخب مباشرة من قبل المجالس التشريعية الاقليمية.

تجرى الانتخابات التشريعية المحلية في وقت واحد مع الانتخابات العامة، وتضع الهيئات الإقليمية دساتيرها الخاصة بما يتمشى مع الدستور الوطني العام.

طالب الزعيم بوتيليزي بوضع الدستور قبل الانتخابات، وانسحب من الاجتماع احتجاجا على قرار تحديد موعد للانتخابات قبل الانتهاء من وضع الدستور. في أغسطس ووفق على مسودة ثانية للدستور المؤقت منحت الأقاليم سلطات أكبر، ولم يرض ذلك الزعيم بوتيليزي ولا حزب المحافظين الذي وصف القرارات بأنها معادية لمصالح الأفريكان. شكلت آنذاك جماعة جديدة باسم أفريكانا فولكسفرونت Afrikaner Volksfront بقيادة الجنرال كونستاند فيليون General Constand Viljoen قائد قوة دفاع جنوب أفريقيا سابقا، لتوحيد منظمات البيض المحافظة حول فكرة الفولكستات volkstaat أي وطن البيض.

بعد منتصف ليلة ١٨ نوفمبر بقليل صدق اجتماع حضره كامل أعضاء المؤتمر متعدد الأحزاب على الدستور المؤقت، وأزاح كل من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة ما بقي من عقبات في الطريق. سوف تشكل حكومة من جميع الأحزاب الحائزة على أكثر من خمسة في المائة من الأصوات تتخذ قراراتها بالاجماع وليس بأغلبية الثلثين كما اقترحت الحكومة. أما الانتخابات العامة فسوف تجرى في عام ١٩٩٩ وبذلك تكون حكومة الوحدة

الوطنية قضت خمس سنوات في السلطة، كما وافقت الحكومة على مطلبنا بتقديم لائحة اقتراع واحدة بدلا من لائحتين منفصلتين، إحداهما عامة والأخرى تشريعية اقليمية، إذ إن تقديم لائحتين كان من شأنه أن يربك غالبية المصوتين وأكثرهم سوف يدلي بصوته لأول مرة في حياته. قبيل موعد الانتخابات بقليل يتولى المجلس التنفيذي الانتقالي الذي يضم أعضاء من جميع الأحزاب تهيئة الجو المناسب لاجراء الانتخابات، وسيكون في واقع الأمر الحكومة الفعلية ما بين ٢٢ ديسمبر وموعد الانتخابات في ٢٧ أبريل، وسوف تتولى مسؤولية ادارة الانتخابات هيئة انتخابية مستقلة ذات صلاحيات واسعة. لقد أصبحنا حقا على عتبة حقبة تاريخية جديدة.

لم أكن أحفل كثيرا بالجوائز الشخصية، فالمرء لا يخوض النضال من أجل الجوائز. ولكن اختياري لجائزة نوبل للسلام لعام ١٩٩٣ بالاشتراك مع السيد دو كليرك حرك في نفسي مشاعر عميقة. فجائزة نوبل لها معنى خاص في نفسي لما لها من دور في تاريخ جنوب أفريقيا.

فأنا ثالث شخصية من جنوب أفريقيا منذ الحرب العالمية الثانية يتشرف بهذا التكريم. فقد منح الجائزة الزعيم ألبرت لوتولي عام ١٩٦٠ ثم الأسقف ديزموند توتو عام ١٩٨٤ الذي جرد حياته لمكافحة شرور العنصرية في أحلك أيام النظام العنصري.

كانت الجائزة تكريما لكل أبناء جنوب أفريقيا خاصة الذين شاركوا في النضال، وقبلتها نيابة عنهم جميعا. لم يخطر ببالي الحصول على جائزة نوبل. فحتى في أحلك سنوات جزيرة روبن رفضت منظمة العفو الدولية تبني قضيتنا لأننا رفعنا السلاح وهي منظمة لا تدافع عمن تبنى استعمال العنف. ولذلك السبب استقر في ذهني أن لجنة جائزة نوبل لن تقبل بترشيح مؤسس حركة أومخونتو وي سيزوى (أمكا).

أكن لدولتي النرويج والسويد أكبر احترام. فقد رفضت الحكومات الغربية تقديم أي دعم لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في الخمسينات والستينات. ولكننا وجدنا كل ترحيب في النرويج والسويد وقدمت لنا مساعدات ومنحا دراسية ودعما ماليا لتغطية مصاريف المرافعات القانونية والمعونات الانسانية للسجناء السياسيين.

انتهزت فرصة وجودي في النرويج لا لتقديم الشكر للجنة نوبل وإعطاء الحاضرين فكرة عن جنوب أفريقيا المستقبل وحسب بل للإشادة بزميلي وشريكي في الجائزة السيد أف دبليو دو كليرك، فقلت:

> إنه رجل لديه من الشجاعة ما يجعله يقر بأن ظلما فادحا ارتكب في حق بلادنا وشعبنا بفرض نظام التفرقة العنصرية علينا. وهو رجل لديه من بعد النظر ما يجعله يقبل بحق جميع المواطنين في جنوب أفريقيا في تقرير مستقبلهم من خلال المفاوضات والمشاركة على قدم المساواة.

لقد سئلت مرات عديدة كيف يعن لي أن أقبل اقتسام جائزة نوبل للسلام مع دو كليرك وقد انتقدته بشدة في مناسبات مختلفة. ورغم أنني لن أتراجع في مآخذي عليه أقر بأن دو

كليرك ساهم مساهمة صادقة وثمينة في عملية السلام. لم أسع يوما للتهوين من موقفه لسبب عملي بسيط وهو أن ضعف دو كليرك هو ضعف لعملية المفاوضات . فلكي يحقق المرء سلما مع العدو عليه أن يعمل جنبا الى جنب مع ذلك العدو حتى يصبح له شريكا.

شرعنا في الإعداد لانتخابات المجلس الوطني بمجرد التصديق على الدستور الجديد ومن قبل أن تبدأ الحملة الرسمية في فبراير ١٩٩٤ . ورغم ذلك فقد سبقنا الحزب الوطني في هذا المضمار إذ بدأ حملته منذ أطلقوا سراحي من السجن.

ورغم تأكيد استطلاعات الرأي على ارتفاع نسبة الدعم الشعبي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي لم نأخذ الفوز أمرا مسلما به. نصحت كل فرد في الحملة بعدم التفاؤل بأكثر مما يجب، فقد قرأنا عن عشرات الأحزاب كانت مرشحة للفوز الأكيد ثم خسرت. كما أننا نواجه منافسا على مستوى عال من الخبرة والتنظيم والتمويل

تولى الاشراف على حملة الحزب لبوبو موليفي Popo Molefe وباتريك ليكوتا وكيتو غوردن وكلهم من قدامى العناصر الحركية في الجبهة الديمقراطية المتحدة ومن ذوي القدرة الفائقة والخبرة العالية في التعبئة الجماهيرية. كانت مهمتهم صعبة. فقد قدرنا أن عدد الناخبين سيصل الى أكثر من عشرين مليون ناخب غالبيتهم ممن يصوتون للمرة الأولى في حياتهم. كان كثير من أنصارنا أميين يجفلون من عملية التصويت ذاتها. وأعلنت الهيئة الانتخابية المستقلة أن عدد مراكز الاقتراع سوف يبلغ عشرة آلاف مركز في مختلف أنحاء البلاد، وكان علينا إعداد وتدريب أكثر من مائة ألف شخص للعمل في حملة لتوعية الناخبين.

كانت أول مرحلة في الحملة الانتخابية هو ما سمي الندوات الشعبية إذ يقوم مرشحو الحزب بالتجول في مختلف أنحاء البلاد وعقد الاجتماعات العامة في المدن والقرى للتعرف على مخاوف الناس وآمالهم والاستماع الى آرائهم وشكاواهم. والندوات الشعبية شبيهة باجتماعات المدن التي عقدها بيل كلينتون في أمريكا إبان حملته الانتخابية للرئاسة . كانت الندوات بمثابة برلمانات شعبية لا تختلف كثيرا عن اجتماعات زعماء القبائل التي كنت أحضرها صبيا في "المكان العظيم" .

وجدت في تلك الندوات متعة لا حدود لها. بدأت في نوفمبر من ناتال ومنها الى ترانسفال في الشمال ثم أورينج فري ستايت، وكنت احضر ما بين ثلاث الى أربع ندوات في اليوم الواحد. كما استمتع غالبية الناس بتلك الندوات لأنها المرة الأولى التي يطلب منهم الادلاء بآرائهم حول مستقبل بلادهم.

بعد الاستماع الى آراء الجماهير في الندوات انطلقنا نطرح سياساتنا ورسالتنا عليهم . رأى البعض أن تكون حملة الانتخابات حملة تحرير ندعو فيها الناس الى التصويت لصالحنا لأننا سوف نحررهم. ولكننا رأينا بدلا من ذلك أن نقدم للجماهير تصورا متكاملا لجنوب أفريقيا التي نأمل أن تولد من جديد. كنا نهدف الى أن تصوت الجماهير لصالح حزب

المؤتمر الوطني الأفريقي ليس لمجرد أنه حارب ضد التفرقة العنصرية ثمانين عاما وحسب بل لأن الحزب مؤهل لتحقيق المجتمع الذي يطمحون الى العيش فيه. كان رأيي أن نقود حملة من أجل المستقبل وليس على أساس الماضي.

أعد الحزب وثيقة من مائة وخمسين صفحة بعنوان برنامج التنمية وإعادة البناء Reconstruction and Development Programme حدد فيها معالم خطتنا لخلق فرص العمل من خلال المشاريع العامة، وتشييد مليون بيت جديد مزود بالكهرباء والمرافق الصحية الكافية، ونشر العناية الصحية الأساسية وتوفير التعليم المجاني لمدة عشر سنوات بحيث يصل الى جميع المواطنين في جنوب أفريقيا، وتوزيع الأراضي من خلال محكمة خاصة، وإلغاء ضريبة القيمة الإضافية على المواد الغذائية الاساسية. كما التزم الحزب بالعمل الايجابي على نطاق واسع في القطاعين العام والخاص. اختصرت المذكرة في بيان مبسط بعنوان "حياة أفضل للجميع" الذي أصبح فيما بعد شعار الحزب في الحملة الانتخابية.

وبقدر ما بينا للناس الذي سوف نحقق لهم رأيت من الواجب أن أبين لهم ما لن نقوى على تحقيقه. كان الشعور السائد لدى كثيرين أن الانتخابات الديمقراطية الحرة سوف تغير حياتهم الى الأفضل بين عشية وضحاها ولكن ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة. كنت أقول في التجمعات: "لا يتوقعن أحد أنه بعد يوم الانتخابات سوف يمتلك سيارة مرسيدس أو يسبح في حوض للسباحة خلف بيته". وقلت لأنصارنا: "إن الأوضاع لن تتغير بشكل درامي ولكن احترامكم لأنفسكم سوف يزيد وسوف تصبحون مواطنين في أرضكم، ولربما انتظرتم خمس سنوات قبل أن تتغير الأمور كما ترجون". تحديتهم ولكنني لم أعاملهم بترفع أو غرور، وقلت: "من أراد أن يعيش في فقر وعري فعليه أن يقضي وقته في الحانات والخمارات. أما من أراد حياة أفضل فعليه العمل بجد وكد. فليس بإمكاننا تحقيق كل ما تصبون إليه بأنفسنا، وعليكم أن تسعوا لما تريدون بأنفسكم".

كما قلت للبيض إننا في حاجة إليهم كذلك ولا نريد منهم أن يغادروا البلاد فهم مواطنون مثلنا وجنوب أفريقيا هي وطنهم كذلك. لم أوارب ولم أتجنب الحديث عن فظائع النظام العنصري، لكنني قلت مرارا إن علينا أن ننسى الماضي وأن نعكف على بناء مستقبل أفضل لنا جميعا.

خصصت اللقاءات أيضا لتوعية الجماهير حول الانتخابات وعملية التصويت نفسها. كانت بطاقة الاقتراع قطعة طويلة من الورق تحمل قائمة بأسماء الأحزاب في ترتيب تنازلي في أقصى اليسار، وأمام كل حزب شعاره المميز وصورة زعيم الحزب في أقصى اليمين. المطلوب من كل شخص وضع علامة الضرب (×) في الخانة المقابلة للحزب الذي يختاره. نصحت الناخبين "بفحص بطاقات الاقتراع جيدا يوم الانتخاب ثم وضع علامة الضرب حيث وجدوا صورة ذلك الشاب الوسيم".

- ١١٣ -

لم يكن الطريق الى الحرية ممهدا سهلا. فرغم تسلم المجلس التنفيذي الانتقالي مهامه مع بداية السنة الجديدة انسحبت بعض الأحزاب. رفض حزب انكاتا المشاركة في الانتخابات وانتقل الى سياسة المقاومة، ونادى الملك زويلتيني يدعمه الزعيم بوتيليزي بحكم ذاتي وسيادة مستقلة في اقليم كوازولو وحث جميع سكان الاقليم على عدم التصويت في الانتخابات. وقال اليمين الأبيض عن الانتخابات إنها خيانة وألح في الدعوة الى اقامة وطن خاص للبيض دون تحديد مكانه أو كيفية تحقيقه، إذ لا يشكل السكان البيض أغلبية في أي مقاطعة من المقاطعات الادارية الرسمية في جنوب أفريقيا.

حدد يوم ١٢ فبراير كآخر يوم لتسجيل الأحزاب، وتخلف عن التسجيل كل من حزب انكاتا وحزب المحافظين وحزب أفريكانا فولكسفرونت. كما رفضت حكومة بوبوتاتسوانا Bophuthatswana المشاركة في الانتخابات، وقاومت إعادة انضمامها لدولة موحدة في جنوب أفريقيا. أصابني القلق لعدم مشاركة هذه الجماعات المهمة، فاقترحنا حلا وسطا لاقناعهم بالمشاركة، فاتفقنا على أسلوب البطاقات المزدوجة في انتخاب الهيئات التشريعية العامة والاقليمية وضمان المزيد من السلطات للأقاليم، وتغيير اسم اقليم ناتال الى كوازولو ناتال، ثم التأكيد على تضمين الدستور بنودا خاصة بتقرير المصير "داخليا" للمجموعات العرقية التي تشترك في تراث ثقافي ولغوي واحد.

رتبت لقاء مع الزعيم بوتيليزي في ديربان في ١ مارس، وقلت في تجمع شعبي: "إنني سأنحني على ركبتي توسلا أمام الذين يرغبون في جر بلادنا الى سفك الدماء". وافق بوتيليزي على تسجيل مرشحين في انتخابات الأقاليم مقابل عرض خلافاتنا حول القضايا الدستورية على وساطة دولية فوافقت مسرورا. كما قرر الجنرال فيليون أيضا تسجيل مرشحيه تحت حزب جديد باسم جبهة الحرية Freedom Front.

ورغم أن رئيس بوبوتاتسوانا السيد لوكاس مانغوبى اختار عدم مشاركة إقليمه في الانتخابات فقد أجبرته الأحداث فيما بعد على تغيير ذلك الموقف. تحدثت معه مرات عديدة طالبا منه أن يترك القرار لشعبه فرفض، فنظم الراغبون في المشاركة مظاهرات ضخمة واضرابات انتشرت بين موظفي الخدمة المدنية في بوبوتاتسوانا، وانقطع ارسال الاذاعة والتلفزيون. كما نشبت في شوارع العاصمة مافيكينغ معارك بين الشرطة المحلية والعمال المضربين والطلبة. طلب مانغوبى العون العسكري من حلفائه البيض اليمينيين، ولكن قواته سرعان ما تخلت عنه فأطيح به في انقلاب في أوائل مارس. وبعد ذلك بأسابيع استسلم العميد غقوزو في سيسكاي وطلب من حكومة جنوب أفريقيا استلام السلطة في الإقليم.

زادت أعمال العنف في ناتال، وعرقل أنصار إنكاتا حملتنا الانتخابية في ناتال، وقتل خمسة عشر من أنصار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي رميا بالرصاص وضربا بالفؤوس

للصقهم منشورات الحزب في الشوارع. وفي مارس أبلغني القاضي جوهان كرايغلار Johann Kriegler كما أبلغ السيد دو كليرك بأن حجب حكومة كوازولو تعاونها يجعل من المستحيل اجراء انتخابات حرة هناك دون تدخل من قوات الشرطة. وبغية تأكيد قوتنا في ناتال نظم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مسيرة جماهيرية في وسط ديربان. كما حاول حزب إنكاتا أن ينظم مسيرة مشابهة في جوهانسبيرغ وكانت العواقب رهيبة.

في ٢٨ مارس شق آلاف من أتباع إنكاتا شوارع جوهانسبيرغ لعقد تجمع عام في وسطها حاملين رماحهم وأسلحتهم التقليدية. كما حاولت في الوقت نفسه مجموعة مسلحة من انكاتا اقتحام مبنى شركة "شل" حيث المقر الرئيسي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي فمنعهم الحراس المسلحون. سمعت أصوات رصاص من مصادر مجهولة في وسط المدينة وقتل في ذلك اليوم ثلاثة وخمسون شخصا. كانت أحداثا مرعبة ظهرت فيها جنوب أفريقيا وكأنها على حافة حرب أهلية داخلية. كان حزب إنكاتا يسعى الى تأجيل الانتخابات، ولكنني والسيد دو كليرك لم نسمح بذلك لأن التاريخ الذي اتفقنا عليه أصبح أمرا مقدسا.

رضيت بوساطة دولية، وفي ١٣ أبريل وصل وفد بقيادة اللورد كارينغتون Lord Carrington وزير الدفاع البريطاني سابقا وهنري كيسنجر Henry Kissinger وزير الخارجية الأمريكية سابقا. ولكن عندما أخبر حزب إنكاتا بأن موعد الانتخابات غير قابل للوساطة رفض مقابلة الوفد الذي عاد أدراجه دون أن يتحدث الى أي طرف من الأطراف. وبذلك بات الزعيم بوتيليزي على يقين من أن الانتخابات سوف تجرى في موعدها مهما كانت الظروف، وفي ١٩ أبريل قبل الزعيم بدور يحدده الدستور لمملكة الزولو ووافق على المشاركة في الانتخابات.

قبل موعد الاقتراع بعشرة أيام ظهرت مع دو كليرك في مناظرة تلفزيونية كانت الوحيدة من نوعها. كنت محاورا جيدا أيام فورت هير وشاركت طول سنوات عملي في الحزب في مناظرات وحوارات حادة كثيرة. كما صقلنا قدراتنا في النقاش والحوار ونحن نحفر الجير في جزيرة روبن. ولذا فقد كنت واثقا من نفسي. ولكننا نظمنا مناظرة تجريبية يوما واحدا قبل المناظرة الحقيقية وحل محل دو كليرك الصحافي البارع اليستر سباركس Allister Sparks الذي أدى الدور على أحسن ما يرام كما لاحظ مستشارو الحملة الذين عنفوني للتحدث ببطء والتراخي في مواجهة الخصم.

وفي المناظرة هاجمت الحزب الوطني بشدة واتهمته بتأجيج الحقد العنصري بين الملونين والأفريقيين في منطقة الكيب وتوزيع كتب ساخرة تقول إن شعار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي هو: "اقتل ملوّنا، اقتل مزارعا". وقلت: "لا توجد في البلاد منظمة واحدة تدعو للشقاق والخلاف بأقوى ما يدعو اليه الحزب الوطني الجديد". وعندما انتقد دو كليرك خطة الحزب لرصد مليارات الدولارات للإسكان والبرامج الاجتماعية قرعته قائلا إنه فزع لأننا نرصد كثيرا من مواردنا للسود.

ومع قرب نهاية المناظرة شعرت بأنني كنت قاسيا على الرجل الذي سيكون شريكي في

حكومة الوحدة الوطنية فختمت بقولي: "إن ما دار بيني وبين السيد دو كليرك من حوار هذه الليلة يجب ألا يخفي حقيقة هامة ألا وهي أننا اليوم مثل ناصع لجميع شعوب العالم كمواطنين ننتمي الى شعوب وأعراق مختلفة ويجمعنا ولاء واحد وحب واحد لوطننا الواحد. إنني رغم انتقادي للسيد دو كليرك..." وهنا أدرت وجهي اليه وقلت: "فأنت ياسيدي أحد الذين أعتمد عليهم وأثق بهم، وسوف نواجه مشكلة هذا البلد معا". ثم مددت يدي إليه أصافحه قائلا: "إنني فخور بأن أضع يدي في يديك كي ننطلق الى الأمام". فوجيء السيد دو كليرك بذلك ولكنه بدا سعيدا.

- ١١٤ -

أدليت بصوتي يوم ٢٧ أبريل وهو اليوم الثاني من الاقتراع الذي استمر أربعة أيام (سمح لبعض الفئات كالمسنين والمقعدين والموجودين خارج البلاد بالتصويت يوم ٢٦ أبريل). اخترت أن أدلي بصوتي في ناتال لأبرهن للناس في ذلك الإقليم الذي يعاني الانقسامات أنه لا خطر من الذهاب الى مراكز الاقتراع والادلاء بأصواتهم. اخترت التصويت في مدرسة أوهلانغى الثانوية Ohlange High School في إناندا Inanda، وهي ضاحية صغيرة مخضرة الى الشمال من ديربان، لأنها المكان المدفون فيه جون دوبيJohn Dube أول رئيس لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي لعب دورا هاما في تأسيس الحزب عام ١٩١٢ . وهكذا، فبإدلائي بصوتي قريبا من مثواه الأخير تكون دورة تاريخية قد اكتملت إذ شارفت المهمة التي بدأها الراحل جون دوبي قبل اثنين وثمانين عاما على أن تتحقق.

وقفت عند قبره بالقرب من المدرسة فنسيت الحاضر وعادت بي الذاكرة الى الماضي. وفي طريقي الى مركز الاقتراع تذكرت الأبطال الذين سقطوا على طريق النضال من أجل أن أكون حيث أنا اليوم. إنهم رجال ونساء قدموا أعظم وأعز التضحيات من أجل قضية انتصرت في هذا اليوم. تذكرت أوليفر تامبو وكريس هاني والزعيم ليتولي وبرام فيشر. وتذكرت أبطالنا الأفريقيين العظام الذين قدموا أروع التضحيات ليتمكن ملايين الأفريقيين من التصويت في هذا اليوم. تذكرت جوسيا غوميدى Josiah Gumede ودجي ام نايكر والدكتور عبدالله عبدالرحمن وليليان انغوي وهيلين جوزيف ويوسف دادو وموسى كوتانى. لم أذهب يومي ذاك بمفردي الى صندوق الإقتراع فقد كنت أدلي بصوتي وكانوا جميعهم يدلون بأصواتهم معي.

وقبل أن أدخل مركز الاقتراع سألني صحفي عديم الذوق قائلا: "لصالح من ستصوت اليوم ياسيد مانديلا؟" ضحكت ثم قلت: "هل تعلم أنه هذا السؤال ظل يحيرني طول اليوم؟". وضعت اشارة مقابل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ووضعت البطاقة في فتحة صغيرة في صندوق خشبي، وكان ذلك أول صوت أدلي به في حياتي كلها.

انطبعت مشاهد المواطنين في طريقهم الى مراكز الاقتراع ذلك اليوم في ذاكرتي وستبقى الى الأبد. امتدت على طول الطرقات في القرى وشوارع المدن طوابير الناخبين وهم ينتظرون في صبر وهدوء. شاهدت عجائز انتظرن أكثر من نصف قرن للإدلاء بأصواتهن وقلن إنهن أحسسن بانسانيتهن للمرة الأولى في حياتهن، ورجالا ونساء بيض عبروا عن اعتزازهم بالعيش في جنوب أفريقيا حرة. كانت معنويات الأمة وروحها في تلك الأيام مرتفعة. توقف العنف والتفجير، وصرنا أمة تولد من جديد. إن النصر الذي تحقق في تلك الأيام لصالح الديمقراطية والعدالة لم تنل منه مشاكل الانتخابات المعتادة من أصوات غير صالحة ومراكز اقتراع مزيفة وإشاعات عن التزوير في بعض المراكز.

استغرق فرز الأصوات بضعة أيام وأسفرت النتيجة عن حصول حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على ٦٢٫٦ %من مجموع الأصوات وهي نسبة أقل بقليل من الثلثين المطلوبة لاجازة الدستور لو أردنا التصديق عليه دون دعم من الأحزاب الأخرى. أهلتنا تلك النسبة للحصول على مائتين واثنين وخمسين مقعدا من مجموع أربعمائة مقعد في المجلس الوطني. اكتسح الحزب المناطق الشمالية والشرقية في ترانسفال والشمال الغربي والكيب الشرقي وأورينج فري ستايت. كما فزنا بثلاثة وثلاثين في المائة من الأصوات في الكيب الغربي الذي فاز فيه الحزب الوطني وحاز على نسبة عالية من أصوات الملونين. وحصل الحزب على اثنتين وثلاثين في المائة في كوازولو ناتال التي فاز فيها حزب إنكاتا. أما في ناتال فقد حال الخوف من العنف والمضايقات دون إدلاء كثير من أنصارنا بأصواتهم. وكانت هناك تهم بالتزوير وعدم نزاهة التصويت ولكن ذلك لم يؤثر على الجو العام. جاءت تقديراتنا لقوة انكاتا في كوازولو خاطئة وبرهن الحزب على قوته في المنطقة يوم الانتخابات.

أصيب بعض أعضاء الحزب بخيبة أمل لعدم حصولنا على أغلبية الثلثين ولكنني لم أكن أحدهم. لقد شعرت بارتياح للنتيجة، فلو أننا فزنا بالثلثين ووضعنا الدستور بدون مساهمة من الأحزاب الأخرى لقيل إن الدستور هو دستور الحزب وليس دستور جنوب أفريقيا. لقد كنت من دعاة حكومة وحدة وطنية حقيقية.

* * *

في مساء ٢ مايو ألقى دو كليرك خطاب تنازل اتسم بالأدب والاحترام. فبعد ثلاثة قرون من الحكم أقرت الأقلية البيضاء بالهزيمة وسلمت السلطة للأغلبية السوداء. كان الحزب يعد لاحتفال بالنصر تلك الليلة في قاعة الحفلات بفندق كارلتون وسط جوهانسبيرغ. أصبت بنزلة برد شديدة وأمرني الأطباء بالراحة، ولكن شيئا لم يكن ليحول دون حضوري ذلك الحفل. كنت على المنصة في التاسعة مساء فرأيت الوجوه المبتسمة المتهللة.

شرحت للحاضرين السبب في صوتي الأجش وقلت إن الطبيب نصحني بعدم الحضور ورجوتهم "ألا يخبروه بأنني خالفت تعليماته". هنأت دو كليرك بالنتيجة التي أحرزها حزبه وشكرت العاملين في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحركة الديمقراطية على جهودهم المضنية المخلصة. كان من بين ضيوف الحفل السيدة كوريتا سكوت كينغ Coretta Scott King زوجة المناضل مارتن لوثر كينغ فأدرت نظري إليها واستشهدت بكمات زوجها الراحل قائلا:

> إنها من أعظم وأهم اللحظات في حياة هذا البلد. إنني اقف أمامكم اليوم وأنا مفعم بأعمق مشاعر العزة والفخر والسعادة. إنني معتز بشعب هذا البلد المتواضع البسيط. لقد أظهرتم تصميما هادئا دؤوبا في استعادة هذا البلد. والآن بإمكاننا أن نعلنها في كل مكان: إننا أحرار! إننا أحرار! إنني اقف أمامكم بكل تواضع لشجاعتكم وبقلب مفعم بالحب لكل

فرد منكم. إنه لأعظم شرف لي أن أكون على رأس حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في هذه اللحظات التاريخية. إنني خادمكم. إن الأفراد لا قيمة لهم بل القيمة للجماعة. إنها لحظة تضميد جروح الماضي وبناء جنوب أفريقيا جديدة.

منذ أن بدأت نتائج الانتخابات تشير الى فوز حزب المؤتر الوطني الأفريقي بتكوين الحكومة الجديدة أحسست أن رسالتي هي الدعوة الى المصالحة وتضميد جروح الأمة وإحياء الثقة والاطمئنان بين الجميع. كنت أعلم جيدا أن كثيرا من المواطنين وخاصة الأقليات من بيض وملونين وهنود، متوجسون من المستقبل وكنت أريد لهم أن يشعروا بالأمان والاطمئنان. لقد ذكرت الجماهير المرة تلو المرة بأن نضال التحرير لم يكن حربا ضد مجموعة عرقية بعينها بل ضد نظام الظلم والقمع. وقلت في كل مناسبة إن على جميع أبناء جنوب أفريقيا أن يتكاتفوا ويتحدوا ويمسك بعضهم بأيدي بعض معلنين أننا بلد واحد وأمة واحدة وشعب واحد نسير صفا واحدا نحو المستقبل.

- ١١٥ -

بزغ فجر العاشر من مايو وكان يوما صحوا صافيا. ظللت خلال الأيام القليلة الماضية محاطا بالشخصيات الرسمية ورؤساء الدول من جميع أنحاء العالم الذين جاءوا للتهنئة والمشاركة في تنصيبي رئيسا للبلاد. وسيكون الحفل أكبر تجمع لقادة العالم على تراب جنوب أفريقيا.

أقيمت مراسم الحفل في مدرج الحجر الرملي الجميل القائم في مبنى الاتحاد يونيون بلدينغ Union Building في العاصمة بريتوريا الذي ظل عدة قرون صرحا لسيطرة البيض. ولكن ها هو اليوم يتحول الى مهد لقوس قزح من الألوان والأمم والأجناس الذين جاءوا لحضور تنصيب أول حكومة ديمقراطية غير عنصرية في جنوب أفريقيا.

كانت في رفقتي في ذلك اليوم الخريفي الجميل ابنتي زيناني. وكان على المنصة السيد دو كليرك الذي أقسم اليمين الدستورية كنائب ثان لرئيس الجمهورية، وجاء بعده تابو امبيكي ليقسم اليمين كنائب أول للرئيس. ثم جاء دوري فاقسمت أن أطيع الدستور وأحافظ عليه وأن أخلص نفسي لخير الجمهورية وشعبها. وجاء في خطابي الذي ألقيته بالمناسبة ما يلي:

> إننا جميعا بوجودنا اليوم هنا نضفي المجد والأمل على حرية تولد من جديد. فمن رحم تلك المأساة الإنسانية الهائلة التي دامت وقتا طويلا يولد اليوم مجتمع تفتخر به الإنسانية قاطبة.
>
> كنا قبل سنوات مطاردين من قبل القانون، وها نحن اليوم نتشرف باستضافة ممثلي أمم العالم فوق أرضنا. إننا نتوجه بالشكر والامتنان الى جميع ضيوفنا المحترمين على حضورهم ليشهدوا معنا عودة بلادنا الينا في مناسبة هي نصر للعدالة والسلام والكرامة الإنسانية في كل مكان.
>
> لقد حققنا أخيرا تحررنا السياسي. وها نحن نتعهد بتحرير جميع أبناء شعبنا من قيود الفقر والحرمان والشقاء ومن كل أنواع العنصرية والتعصب.
>
> إن هذه الأرض الجميلة لن تشهد بعد اليوم أبدا ظلم أحد لأي من أبنائها، والشمس لن تغرب بعد اليوم عن هذا الإنجاز الإنساني المجيد.
>
> فلتعش الحرية. اللهم احفظ أفريقيا!

بعد لحظات ظهرت في سماء المدينة الطائرات العسكرية والمروحيات مدوية في استعراض جوي رائع. ولم يكن استعراضا للدقة والقوة العسكرية وحسب بل كان استعراضا لاخلاص القوات الجوية للديمقراطية ولحكومة جديدة اختيرت في انتخابات حرة نزيهة. وقبل ذلك بقليل وقف كبار جنرالات قوة دفاع جنوب أفريقيا بأوسمتهم وأشرطتهم لأداء التحية لي والإعراب عن ولائهم. ولم يغب عن خاطري تلك اللحظة أن أولئك الرجال لم يكونوا ليحيوني قبل سنوات بل كانوا سوف يعتقلونني. اختتم العرض الجوي

بمقاتلات إمبالا ترسم بدخانها علم جنوب أفريقيا الجديد في السماء بألوانه الأسود والأحمر والأخضر والأزرق والذهبي.

ارتسمت في ذاكرتي صورة ذلك اليوم الفرقة الموسيقية تعزف النشيدين الوطنيين لجنوب أفريقيا والبيض يرددون "اللهم احفظ أفريقيا" والسود يرددون نشيد الجمهورية الوطني القديم "داي ستيم". لم يكن أي من الطرفين يحفظ كلمات النشيد الوطني للطرف الآخر الذي طالما أبغضه من قبل، ولكن الجميع سيحفظ هذه الكلمات في المستقبل القريب.

غمرني يوم التنصيب شعور عارم بالقيم والمعاني التاريخية. في العقد الأول من القرن العشرين وبعد حرب بريطانيا والبوير الحامية وقبل أن أولد التقى سكان جنوب أفريقيا من ذوي البشرة البيضاء ليدفنوا أحقادهم ويقيموا نظاما عنصريا للسيطرة على الشعوب السمراء في أرضها. شكل ذلك الاتفاق الأساس لمجتمع من أقسى المجتمعات التي عرفتها البشرية وأقلها إنسانية. والآن في العقد الأخير من القرن العشرين وأنا في العقد الثامن من عمري، أطيحَ بذلك النظام الى الأبد ليحل محله نظام يعترف بحقوق جميع المواطنين وحريتهم بغض النظر عن لون بشرتهم.

جاء ذلك اليوم ثمرة تضحيات لا تحصى قدمها آلاف الناس، لا يمكن حصر مدى معاناتهم وصمودهم أو التعويض عنهما. أحسست في ذلك اليوم - كما أحسست في ايام أخرى كثيرة - أنني حصيلة كل من سبقني من أولئك الأبطال الأفريقيين. لقد ذهب ذلك الرعيل ليخلفه رعيل آخر يبدأ مني. ولكن الذي زاد من حسرتي هو عدم قدرتي على أن أشكرهم جميعا فردا فردا وعدم قدرتهم هم على أن يروا بأعينهم ما الذي حققته تضحياتهم الرائعة.

لقد خلفت سياسة النظام العنصري جرحا غائرا مستديما في كيان بلادي وشعبي. وسنقضي سنين طويلة نغالب فيها ذلك الجرح وآلامه. ولكن سنون الظلم والوحشية جاءت بنتيجة أخرى غير متوقعة فقد أفرزت رجالا مثل أوليفر تامبو وولتر سيسولو والزعيم لوتولي ويوسف دادو وبرام فيشر وروبرت سوبوكوى. إنهم رجال ذوو شجاعة نادرة وحكمة وأريحية لعل جيلهم لن يتكرر مرة أخرى. ولعل ميلاد هذه النماذج الإنسانية يحتاج الى أحط وأفظع أنواع الظلم والقمع والطغيان. إن بلادي غنية بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت ترابها، ولكنني أؤمن بأن أعظم ثروة تملكها هي أبناؤها الذين يفوقون الذهب والماس قيمة وأصالة.

لقد تعلمت معاني الشجاعة والصمود من أولئك الرجال. لقد رايت رجالا كثيرا ونساء عرضوا حياتهم للخطر أو دفعوها ثمنا من أجل فكرة. ورأيت رجالا صمدوا للتعذيب والاعتداء دون أن تفتر عزيمتهم، وأظهروا قوة وصمودا يعجز عنه الخيال. وتعلمت أن الشجاعة ليست هي غياب الخوف ولكنها الانتصار عليه. لقد أحسست بالخوف مرات لا حصر لها، ولكنني أخفيته وراء قناع من الشجاعة. فالشجاع ليس من لا يعرف الخوف ولكن الشجاع هو من يقهر الخوف.

لم أفقد الأمل قط في أن التحولات التي تحققت قادمة، ليس فقط بفضل جهود من ذكرت من الأبطال ولكن بفضل شجاعة الإنسان العادي في بلدي. إنني أؤمن أن في أعماق كل قلب بشري رصيد من الرحمة والسماحة. لا يولد أحد وفي نفسه كراهية لأحد بسبب لونه أو أصله أو دينه. فالكره يُكتسب، ومادامت لدى الإنسان قدرة على أن يتعلم الكره فهو قادر على تعلم الحب، لأن الحب أسهل وأسلس على قلوب البشر من الكراهية والبغضاء. كنت أرى لمحات السماحة والإنسانية لدى حراس السجن حتى في أحلك الأوقات وعندما بلغ الأمر أشده بي وبزملائي، وربما ظهرت تلك الانسانية للحظات قصيرة ولكنها كافية لطمأنتي والرفع من معنوياتي. فالخير جذوة في نفس كل إنسان تختفي أحيانا وتحجب أحيانا ولكنها لا تنطفيء أبدا.

انخرطنا في النضال وأعيننا مفتحة ولم نكن نخدع أنفسنا بأن الطريق معبد سهل. لقد رأيت الثمن الذي دفعه رفاقي في سبيل معتقداتهم عندما التحقت بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وكان ثمنا عاليا. ولكنني لم أندم يوما على ارتباطي بالنضال وكنت دوما على استعداد لمواجهة المشاق التي حلت بي شخصيا. ولكن أسرتي أيضا دفعت ثمنا ربما كان أغلى مما تحتمل من جراء ارتباطي بالنضال والكفاح.

إن المرء في هذه الحياة عليه واجبان: واجب تجاه أسرته ووالديه وزوجته وأبنائه، وواجب تجاه قومه ومجتمعه ووطنه. وفي المجتمع الإنساني السوي يستطيع المرء أن يوفق بين هذه الواجبات بما تيسر له من امكانيات وقدرات. أما في بلد مثل جنوب أفريقيا فمن المستحيل على رجل من أصلي ولوني أن يفي بحقوق الجميع. فالملون في جنوب أفريقيا إن حاول أن يعيش إنسانا عوقب وأقصي. وإن أراد أن يوفي بواجبه تجاه وطنه حرم من أسرته وبيته وعاش حياة مشتتة تغلفها السرية وروح التمرد. لم أختر منذ الوهلة الأولى أن أضع قومي قبل أسرتي ولكنني عندما حاولت أن أخدم قومي وجدت نفسي محروما من الوفاء بواجبي نحو أسرتي ابنا وأخا وأبا وزوجا.

وهكذا أصبح التزامي نحو الملايين الذين لن أعرفهم ولن أقابلهم على حساب من عرفت وأحببت. إن بساطة الموقف وغموضه يتضحان في سؤال الطفل البري لأبيه: "لماذا لا تعيش معنا؟" وفي جواب الأب بتلك الكلمات الرهيبة: "لأن هناك أطفالا آخرين في العالم. وهناك عددا كبيرا منهم..." ثم تخونه الكلمات ويتوقف عن الكلام.

لم أولد برغبة جامحة لأكون حرا، ولكنني ولدت حرا بكل ما كنت أدرك من معاني الحرية. فكنت حرا أجري في الحقول المجاورة لكوخ أمي، وكنت حرا أسبح في الأنهار التي تشق قريتي، وكنت حرا أشوي الذرة تحت نجوم السماء وأمتطي ظهور الثيران. طالما أنني أطعت والدي واحترمت تقاليد قبيلتي لم يكن هناك قانون يقيدني أو يحد من حريتي.

لم اتلهف على حريتي الا عندما بدأت أعي في صباي أن حريتي كانت خيالا وعندما اكتشفت وأنا شاب أنني قد سلبت تلك الحرية. فعندما كنت طالبا كنت أنشد الحرية لنفسي فحسب: حرية أن أعود الى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وأن أقرأ ما شئت وأن

أذهب حيث شئت. وفي جوهانسبيرغ وأنا شاب كنت أحن الى حرية أن أحقق ما أصبو اليه وأن أكسب المال وأن اتزوج وأصبح أبا، والى حقي في ألا يقف أحد عقبة في طريقي أن أعيش حياة كريمة مشروعة.

ولكنني ادركت شيئا فشيئا أنني لست حرا وأن اخواني واخواتي من حولي ليسوا أحرارا كذلك. وفطنت الى أنني لست الوحيد الذي سلبت حريته ولكن حرية كل من له لون بشرتي وملامح وجهي كانت مسلوبة. عندها التحقت بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ومن هناك تحول لهفي على حريتي الخاصة الى لهف على حرية قومي. إن تلك الرغبة في حماية حرية قومي كي يعيشوا حياتهم في كرامة واحترام وعزة هي التي حركت همتي وغيرت مجرى حياتي، وأحالت الخوف في نفسي الى شجاعة وإقدام، وجعلتني طريد العدالة بعد أن كنت رجلا يحترم القانون ويمارسه، ومشردا لا مأوى له بعد أن كنت زوجا وأبا يحب أسرته، ورجلا أشبه بالرهبان بعد أن كنت انسانا يحب الحياة ويعشقها. هذا كله لا يعني أنني امتاز عن غيري بطهر أو عفاف أو تضحيات خاصة ولكنني اكتشفت أنني غير قادر على الاستمتاع حتى بأقل قدر من الحرية التي كنت اتمتع بها عندما علمت أن قومي ليسوا أحرارا. إن الحرية لا تتجزأ. فالأغلال التي تقيد واحدا منا تقيدنا جميعا، والأغلال التي تقيد قومي هي أغلال تقيدني كذلك.

وفي تلك السنوات الحالكة الطويلة تحول لهفي على حرية قومي الى لهف على حرية كل الناس، البيض منهم والسود. لقد كنت أعلم علم اليقين أن حاجة الظالم الى الحرية أمس من حاجة المظلوم. فالذي يسلب إنسانا حريته يصير هو نفسه أسيرا للكراهية والحقد، يعيش وراء قضبان التعصب وضيق الأفق. فكيف لي أن أشعر بحقيقة الحرية وقد حرمت إنسانا آخر من حريته؟ إن الظلم يسلب كلا من الظالم والمظلوم حريته.

لقد أصبح تحرير الظالم والمظلوم رسالتي في الحياة منذ اللحظة الأولى التي تخطيت فيها عتبة السجن. هناك من يقول إن ذلك تحقق، ولكنني أعلم جيدا أن الأمر ليس كذلك. فالحقيقة أننا لم نتحرر بعد، وإن حصلنا على حرية أن نتحرر وعلى حقنا في ألا نُظلم من جديد. إننا لم نخط بعد الخطوة الأخيرة - بل الخطوة الأولى - في رحلتنا على طريق الحرية الطويل. فالحرية ليست مجرد التخلص من الأغلال ولكن الحرية أن تعيش حياة تحترم فيها حرية الآخرين وتعززها. إننا في بداية المحك الحقيقي لاختبار مدى اخلاصنا وتجردنا للحرية.

لقد سرت على طريق الحرية الطويل. وبذلت جهدي كي لا اتداعى أو اسقط وإن تعثرت خطواتي أحيانا. ولكنني اكتشفت سرا يقول: إن الإنسان الحر كلما صعد جبلا عظيما وجد من ورائه جبالا أخرى يصعدها. والآن فإنني استريح، ولكنها استراحة محارب استمتع فيها بما حولي من امجاد والقي ببصري الى الوراء أتأمل الطريق الذي قطعت. استراحة المحارب قصيرة لأن للحرية تبعاتها، ولا يسعني الانتظار لأن رحلتي طويلة لم تنته بعد.

معجم مختصر للأسماء والمصطلحات الرئيسية

African

أفريقي: مواطن في جنوب أفريقيا من أصول زنجية، ويرمز إليهم بالسكان الأصليين. لا يشمل هذا المصطلح الهنود أو الملونين، كما انه لا يشمل البيض بطبيعة الحال.

African National Congress (ANC)

المؤتمر الوطني الأفريقي: أكبر حزب معارض لسياسة التفرقة العنصرية. تأسس عام ١٩١٢ وهو الحزب الذي ينتمي إليه نلسون مانديلا ويعتبر من أبرز زعمائه. يعتبر الحزب نفسه غير عنصري وعضويته مفتوحة للبيض والهنود والملونين، وقد دخل في تحالف مع الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا منذ الأربعينات.

African People's Organisation (APO)

منظمة الشعوب الأفريقية: منظمة لتوسيع حقوق الملونين وحمياتها تأسست عام ١٨٩٦ .

Africanist

مصطلح يطلق على دعاة القومية الأفريقية.

Afrikaans

الأفريكانية، وهي اللغة الرسمية في جنوب افريقيا. تعود أصولها الى اللغة الهولندية، وهي متأثرة باللغات الانجليزية والفرنسية والمالاوية.

Afrikaner

افريكاني، وهو كل من يتحدث الأفريكانية من البيض في جنوب أفريقيا وخاصة من ينحدر من أصول هولندية.

Apartheid

أبارتيت - وهي كلمة أفريكانية تعني "العزل" أو "الفصل" وترمز في مصطلح السياسة الدولية الى نظام التفرقة العنصرية أو التمييز العنصري الذي تبنته حكومات البيض في جنوب أفريقيا منذ بداية القرن وحتى مجيء نلسون مانديلا الى الحكم.

Bantu

بانتو: مجموعة كبيرة من الشعوب الزنجية المنحدرة من أفريقيا الإستوائية والجنوبية تجمع بينهم مجموعة من اللغات المتشابهة.

Bantustan (Bantu Homelands)

بانتوستان: مناطق السود المنفصلة المخصصة للمجموعات العرقية وتحكم محليا في إطار النظام العنصري، تشكل ١٤٪ من مساحة البلاد وغير معترف بها خارج جنوب أفريقيا.

Black

أسود: مصطلح عرقي عام يشار به تحت نظام التفرقة العنصرية الى سكان جنوب أفريقيا من غير البيض المنحدرين من أصول أوروبية.

Black Consciousness Movement (BCM)

حركة الوعي بالهوية السوداء: تيار سياسي ثقافي برز في السبعينات في جنوب أفريقيا ينادي بتحرير السود أنفسهم من عقدة النقص تجاه الرجل الأبيض. كما تدعو الحركة الى قيام مجتمع غير عنصري.

Boer

البوير: كلمة هولندية معناها الحرفي مزارع، وتطلق على البيض من أصول أوروبية.

Coloured

الملون: مصطلح عرقي يشار به الى السكان من أصول مالاوية أو مختلطة.

Congress Alliance

تحالف المؤتمر: جبهة سياسية عريضة برزت في الخمسينات ضمت المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي والمؤتمر الهندي لجنوب افريقيا ومؤتمر الديمقراطيين، وغيرها.

Congress of Democrats (COD)

مؤتمر الديمقراطيين: حزب من البيض المناهضين للتفرقة العنصرية.

Congress of South African Trade Unions

اتحاد نقابات عمال جنوب افريقيا.

European

أوروبي: مصطلح عرقي عام يشار به الى البيض في جنوب أفريقيا.

Indian

هندي: مصطلح عرقي يشار به الى السكان من أصول هندية.

Inkatha Freedom Party

حزب حرية إنكاتا: حزب يجمع قبائل الزولو ويتزعمه مانغوسوتو بوتيليزي.

Kafir (Kaffir, Caffre)

كافير: تحريف لكلمة كافر العربية ويستخدمه المستوطنون البيض لوصف غيرهم من سكان جنوب أفريقيا، ويستخدم للإزدراء والتحقير.

Madiba

ماديبا: اسم نلسون مانديلا القبيلي.

Nationalist Party (NP)

الحزب الوطني: حزب البيض الذي أرسى قواعد نظام التفرقة العنصرية وحكم جنوب أفريقيا لعدة عقود.

Native

الأصلي: مصطلح عرقي يوصف به سكان جنوب أفريقيا باستثناء البيض بمن فيهم المولودون هناك، ويستخدم للإزدراء.

Pan-Africanist

الأفريقي: ويشار به الى من يومن بالقومية الأفريقية وينادي بها.

Pan-Africanist Congress (PAC)

المؤتمر القومي الأفريقي: حزب يقوم على القومية الأفريقية وتقتصر عضويته على السكان الأصليين، تأسس عام ١٩٥٩.

Rivonia

ريفونيا: المنطقة التي بها مقر الجناح العسكري لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وأطلق اسمها على المحاكمة التي أدين فيها نلسون مانديلا ورفاقه

South African Indian Congress (SAIC)

المؤتمر الهندي لجنوب أفريقيا: من أقدم الأحزاب السياسية المناهضة للتفرقة العنصرية وتقوم عضويته أساسا على السكان من أصول هندية.

SOWETO (South West Townships)

سويتو: اسم يطلق على مجموعة من الضواحي المخصصة للسود في جنوب غرب جوهانسبيرغ، وهي مسرح الإنتفاضة المشهورة عام ١٩٧٦.

Tribe

قبيلة: مصطلح يشار به الى مجموعات سكانية تشترك في الثقافة والعادات والتاريخ أو تدين بالولاء لزعيم واحد.

Umkhonto we Sizwe (Spear of the Nation), MK

أومـخـونتـو وي سـيـزوي: حـركـة (أمكا) أي (رمح الأمـة)، الجناح العسكري لحـزب المؤتمر الوطني الأفريقي.

United Party

الحـزب المتحـد: ثاني حـزب للبـيض في جنوب أفـريقـيـا، ومـن أقـوى المؤيدين لنظام التـفـرقـة العنصرية.

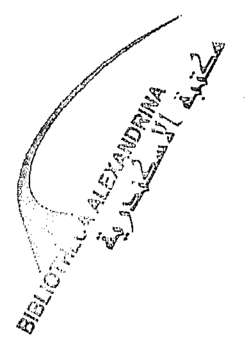
White

أبيض: مصطلح عرقي عام يشار به الى البيض من أصول أوروبية.

Youth League

رابطة الشباب: منظمة انبثقت عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي تأسست عام ١٩٤٣.





Printed and bound by
National Book Printers, Drukkery Street, Goodwood, Western Cape, South Africa



هـذا الكتـاب

تتميز مسيرة شعب جنوب أفريقيا النضالية بأنها من أهم وأغنى التجارب التحررية في القرن العشرين. ويشكل انتصاره نقطة فاصلة في تاريخ شعوب القارة الأفريقية كلها.

وجنوب أفريقيا بلد يتمتع بثروات طبيعية هائلة، وثقل سكاني كبير (٤٣ مليون نسمة) وأهمية جيوسياسية فريدة. وهو بلد مؤهل - باقتصاده القوي وإمكانياته الزراعية الضخمة - لأن يكون رائدا للتقدم والازدهار والسلام في أفريقيا خاصة وفي الساحة العالمية عامة.

"رحلتي الطويلة من أجل الحرية" كتاب يروي سيرة نلسون مانديلا الذاتية. وهو من أهم المراجع التي يمكن من خلالها التعرف على ملامح تجربته النضالية الفذة التي أسفرت بعد أكثر من نصف قرن عن انتصار إرادة الجماهير المضطهدة وعودة السلطة الى الأغلبية الأفريقية.

يستعرض مانديلا في هذا الكتاب باسلوب تحليلي شيق - من خلال تجربته الشخصية - المراحل النضالية التي خاضها شعبه ضد سياسة التمييز العنصري القائمة على هيمنة البيض. فنراه طفلا صغيرا ترعرع في قرية في أعماق الريف، ثم شابا يافعا يطلب العلم في الجامعة، ثم موظفا بسيطا يكافح لسد رمقه.

يواكب الكتاب مسيرة مانديلا وقد تفتحت مداركه للعمل السياسي، فينخرط بكل مشاعره ووجدانه في حركة النضال الشعبية المناهضة للنظام العنصري. فنراه عضوا فعالا في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ثم ركنا من أركانه، ثم مؤسسا وقائدا لجهازه العسكري. ونعيش معه وهو يقارع الظلم جهارا من داخل صفوف الحزب ومن خلال مهنته كمحام، وخفية من خلال العمل السري وهو طريد تلاحقه سلطات القمع والاستبداد. ونعيش معه سجينا في جزيرة روبن سبعة وعشرين عاما، ثم مفاوضا صلبا من أجل مستقبل أمته، فرئيسا لأول حكومة شرعية ديمقراطية تحل محل حكم البيض العنصري الذي دام ثلاثة قرون.

إن أهم ما ميّز شخصية نلسون مانديلا، وجعل منه رمزا لنضال سكان جنوب أفريقيا على اختلاف أعراقهم، ومحل إجماعهم، هو صدق إيمانه بحقوق أمته، وصلابته في التمسك بتلك الحقوق طول مسيرته النضالية بلا هوادة أو مساومة. كما تميز بتسامحه مع أعداء الأمس بعد أن انهارت دعائم النظام العنصري البغيض، وأذعن البيض الى القبول بالعيش كغيرهم مواطنين في ظل دولة المساواة والديمقراطية.

صدرت أول طبعة للكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٤، وترجم الى ثلاث وعشرين لغة في مختلف أنحاء العالم. ويسعدنا اليوم أن نقدم الى قراء العربية هذه الوثيقة الهامة في سجل الأحداث التاريخية الخالدة، إسهاما في إثراء تجارب كل أولئك الذين يناضلون من أجل الحق والحرية في كل مكان.

الناشـر

ISBN 0-620-21533-X

9 780620 215336